صالح عبّاد

الجزائر

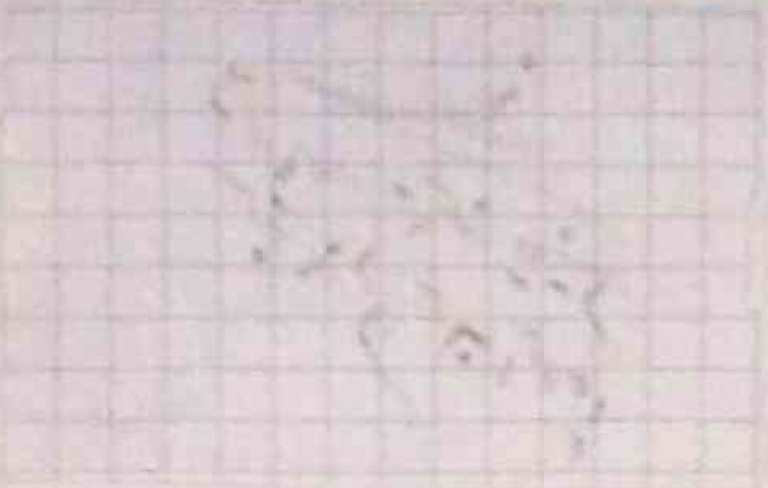
خلال الحكم التركي

1514- 1830



دار هومه

صالح عبّاد



الجزائر

خلال الحكم التركي

1830 - 1514

طبع في 2012

دار هومه

مقدمة

كانت الفترة الواقعة بين أوائل القرن السادس عشر و أوائل القرن التاسع عشر،وهي فترة الحكم التركي في الجزائر، فترة تحولات جذرية في أوربا، نقلت معظم بلدان هذه القارة من ركود العصور الوسطى إلى حيوية العصور الحديثة، بنهضتها وثورتها الصناعية التي مكنت القارة من السيطرة على كل أرجاء العالم تقريبا. فكيف كان الحال بالنسبة لنا في الجزائر في ظل الحكم التركي؟

الكثير من محطات تاريخنا القديم،الوسيط، الحديث والمعاصر لازال الغموض يكتنفها بسبب النقص الكبير في الدراسات العلمية المنشورة.لكن الفترة التي تعرف غموضا أكبر وأكبر هي فترة الحكم التركي في الجزائر.لقد قدم البعض هذه الفترة و كأنها فترة ازدهار كبير حتى وجدنا اليوم من يحلم منا بالعودة إليها !

يختلف المؤرخون والدارسون الاجتماعيون حول الركيزة الأساسية للمجتمع ،وهي أسلوب الإنتاج، الذي كان يسود الجزائر خلال العهد التركي. هناك من يراه أسلوبا إقطاعيا و هناك من يراه أسلوب إنتاج خراجي و هناك من يتكلم عن أسلوب إنتاج آسيوي أو عن أسلوب إنتاج عتيق الخ.

الاختلاف موجود كذلك حول طبيعة العلاقة بين الدولة العثمانية وإيالة الجزائر. هل هذه الايالة ولاية عثمانية أم هي دولة مستقلة أم هي دولة ذات استقلال ذاتي؟ و إذا كانت دولة قائمة بذاتها فهي دولة من ؟ دولة الجزائريين أم دولة الأقلية التركية ؟

بالنسبة للبعض، فإن علاقة الجزائر بالدولة العثمانية ليست مهمة ولكن المهم هو وجود سلطة بالجزائر مهمتها الجهاد ضد المسيحية،بمعنى أن هذا الجهاد هو علة وجودها. و بما أن الجهاد كان ضد الأوربيين المسيحيين فإن الجزائر قد أنشأت أسطولا كان يشكل، بالنسبة لهؤلاء، قوة كبيرة في حوض البحر المتوسط. لقد ضخّم هؤلاء هذا الأسطول إلى درجة أن أصبح الكثير من الجزائريين يرونه سيد البحر المتوسط، يفوق حتى أسطول بريطانيا الذي كان يهيمن على كل المحيطات. هذه النظرة هي المهيمنة على برامجنا المدرسية. بالنسبة للبعض الآخر، لم تكن السلطة في الجزائر سوى سلطة تنظم القرصنة لا أقل و لا أكثر و ما ذلك الأسطول سوى وسيلة تلك القرصنة لا يقوى على مواجهة الأساطيل الأوربية الضخمة الأحسن تجهيزا.

وإذا كان مؤرخو الاستعمار الفرنسيون ـ وأقصد هنا الذين وضعوا أنفسهم في خدمة الطروحات التي تبرر هذا الاستعمار ولا أقصد كل المؤرخين الفرنسيين ـ قد قدموا لنا سلطة الأتراك بوصفها سلطة طاغية استغلالية قهرت السكان، فإننا نجد أنفسنا اليوم أمام توجه معاكس تماما، يقدم لنا هذه السلطة سلطة ديمقراطية و في خدمة الشعب، وأن الدولة الجزائرية الحديثة ظهرت في العهد التركي؟ أنصار هذا التوجه كثيرا ما يخلطون بين الدولة الحديثة بمعنى الدولة الديمقراطية، التي كانت ثمرة التحولات الكبرى في أوربا، والدولة الجزائرية في العصور الحديثة. و يغالي أصحاب هذا التوجه إلى حد القول أن التعليم كان اكثر انتشارا في الجزائر منه في فرنسا، و أن الأمة الجزائرية تشكلت قبل الاستعمار الفرنسي.

هذا الكتاب المتواضع حاولنا أن نقدم فيه للقارئ صورة عن وضع الجزائر في العهد التركي بعيدا، ما أمكن، عن التأثيرات الإيديولوجية، آملين أن يكون مساهمة في نقاش يدور حول تاريخنا، كل تاريخنا. لقد حاولنا ألاّ يكون سردا للوقائع فحسب، و لا أن يكون تحليلا نظريا لا علاقة له بهذه الوقائع أيضا.

نتمنى أن يسدّ مجهودنا هذا بعض الفراغ الذي تعاني منه المكتبة الجزائرية فيما يتعلق بالكتاب التاريخي.

صالح عباد

جيجل يوم 20 نوفمبر 2002

مدخل:

الجزائر قبيل إقامة الحكم التركي

الـــوضعيـــة السيـــاسيـــة

تميز القرن الثاني عشر الميلادي بتلك الحركة الواسعة التي قادها المهدي محمد بن تومرت، الذي صاغ المذهب الوحدي، ثم عبد المؤمن بن علي، القائد العسكري الذي قاد الفتوحات. اعتمدت الحركة على المذهب الوحدي و على قبيلة مصمودة، كما فعلت الحركات التي عرفها المغرب خلال العصور الوسطى كلها، التي اعتمدت على قبائل أخرى و مذاهب أخرى، لكن المذهب الوحدي كان مذهبا محليا، بخلاف المذاهب السابقة التي جاءت كلها من الشرق العربي. انتهت الحركة الوحدية إلى تكوين إمبراطورية واسعة، لم توحد بلاد المغرب تحت راية الوحدين فحسب بل ضمت إليه كذلك الأندلس الإسلامي، الذي كان يعاني من ضربات الحركة الإيبيرية المضادة للوجود الإسلامي في الأندلس. لكن هذه الإمبراطورية التي لم يشهد المغرب مثيلا لها عبر كل تاريخه ، أخذت تتداعى منذ أن انهزم الوحدون أمام القوات الأسبانية، في معركة العقاب سنة 1212. إذ بعد عشريتين تقريبا من هذه الهزيمة انفصل الشطر الشرقي من الإمبراطورية مشكلا الدولة الحفصية المستقلة، بعاصمتها تونس، و تلا ذلك اقتطاع بني عبد الواد (بنو زيان) المناطق الوسطى من أراضي الإمبراطورية، مشكلين دولة جديدة، عاصمتها تلمسان، ثم تحركت قبائل بني مرين لتستولي على المغرب الأقصى و العاصمة الوحدية مراكش (1269)، فانتقل بقايا الوحدين إلى تنمل التي انطلقت منها الفتوحات الوحدية في القرن السابق، غير أن محاولاتهم لاستعادة سلطتهم باءت بالفشل.

انتظم مسلمو الأندلس، بعد انهيار الدولة الوحدية، في إمارات، في بلنسية مرسية واشبيلية، إلا أن هذه الإمارات لم تقو على مواجهة جيوش الأسبان، التي ابتلعتها الواحدة تلو الأخرى. لم تصمد سوى مملكة بني الأحمر (الناصريون) في غرناطة، التي ظلت قائمة حتى سنة 1492، السنة التي أمكن فيها للتحالف الناتج عن زواج الملك فرديناند، ملك أرغونة، بايزابلا الكاثوليكية، ملكة قشتالة، سنة 1469، من الإطاحة بآخر الممالك الإسلامية في شبه جزيرة إيبريا.

أعقب سقوط الإمبراطورية الوحدية صراعات عسكرية حادة بين دول المغرب، كانت الجزائر مسرحا لها أكثر من تونس والمغرب الأقصى، بحكم موقعها الجغرافي، الشيء الذي أضعف السلطات المركزية، خاصة لدى بني زيان.

كانت دولة بني زيان تسيطر، نظريا، على القسم الغربي من الجزائر الحالية. أنشأها أبو يحي يغمراسن بن زيان سنة 1236. لكن هذه المملكة ظلت عرضة لغزوات بني مرين في المغرب الأقصـى و بني حفص في تونس. حاصرها المرينيون سنوات عديدة في أواخر القرن

الثالث عشر و أوائل القرن الرابع عشر،ولكنهم لم يتمكنوا من إسقاطها،فأعادوا الكرة من جديد سنة 1337 و استولوا عليها و ظلوا مسيطرين عليها مدة 11 سنة،ثم تخلوا عنها لبني عبد الواد، ليعيدوا غزوها سنة 1352،إلى أن تمكن الأمير أبو حمو الثاني الزياني من استعادتها سنة 1359 و في عهده استولى الرينيون على تلمسان مجددا سنة 1360 ثم غادروها ليعيدوا غزوها سنة 1372. ظلت تلمسان تابعة لهم حتى سنة 1374 حيث تخلوا عنها لكن نفوذهم فيها لم ينته إلاّ سنة 1431،لما اعتلى عرشها السلطان أبو العباس أحمد المعتصم بمساعدة السلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز.بعد وفاة السلطان المتوكل سنة 1485 دخلت الدولة الزيانية مرحلة من الضعف و الانحطاط حتى أصبحت لقمة سائغة للأسبان ثم للأتراك. ما يُقال عن الدولة الزيانية يقال عن السلطة الحفصية في الجزائر.ففي أواخر القرن الخامس عشر، في عهد السلطان أبي عبد الله محمد،فقد الحفصيون كل أقاليمهم في الجزائر.و معلوم أن الدولة الحفصية كانت تمد سلطتها من تونس إلى نواحي بجاية.

كان الصراع الدموي حادا بين الولاة الحفصيين في قسنطينة و بجاية خلال القرنين الرابع عشر و الخامس عشر و بداية القرن السادس عشر.كانت ولاية قسنطينة لأبي بكر بن أبي العباس،ابتداء من سنة 1370،فنازعه عليها ابن عمه أبو عبد الله محمد، صاحب عنابة،و حاصرها سنة 1394 غير أن مناصرة السلطان أبي فارس عزوز في تونس لأخيه أبي بكر ألحقت الهزيمة بأبي عبد الله محمد صاحب عنابة فلجأ هذا الأخير إلى السلطان الريني بفاس، كما فعلت العديد من القبائل،خاصة من سليم.في سنة 1407 قدّم السلطان الريني جيشا لأبي عبد الله محمد مكّنه من الاستيلاء على بجاية التي ولّى عليها ابنه المنصور ثم سار إلى تونس،إلاّ أنه قتل من طرف جيش أبي فارس.بعد أن عين هذا الأخير ابن أخيه أحمد بن أبي بكر على بجاية تقدم إلى تلمسان سنة 1409 غير أن الصلح تمّ بين الحفصيين والرينيين.

لما انتصب أبو عمر عثمان على عرش تونس سنة 1435 ثارت عليه العديد من القبائل العربية إلاّ أنه أوقع بها.كما قام في وجهه صاحب بجاية علي بن عبد العزيز فكانت الحرب التي انهزم فيها الأخير سنة 1439، و ولّى السلطان على المدينة ابن عمه عبد المؤمن بن أحمد الأول.و في سنة 1463 سار نحو الغرب الجزائري و نزل بأرض بالقرب من بني راشد فجاءته وفود بني سويد وبني يعقوب و بني عامرو الدواودة، كما جاءه وجهاء وأعيان من بني زيان و وفد يمثل الملك المتوكل ملك تلمسان للمبايعة و عقد الصلح.و بعد أن عين ولاته في المنطقة عاد إلى تونس مارا بقسنطينة.لكن ما إن استقر في عاصمته تونس حتى أعلن الملك الزياني الجديد،أبو ثابت رفضه للنفوذ الحفصي وطرد الولاة الحفصيين من المنطقة الغربية،غير أن بني عامر و سويد و غيرهما من القبائل استنكرت عليه الفعل،فخرج إليه أبو عمر عثمان بجيش قوي سنة 1475 و أخضعه

بالقوة، بعد أن هدم أسوار مدينة تلمسان، ثم عاد إلى تونس مارا ببلاد ريغ و ورقلة. كانت هذه الحملة الحفصية آخر عمل جدّي تقوم به تونس في الأراضي الجزائرية، من أجل الإبقاء على سلطتها بها.

إن الضعف الذي لحق دولة بني زيان و دولة بني حفص، والحروب التي كانت الجزائر مسرحا لها، و الروابط القبلية التي كانت لازالت تطبع المجتمع المغربي قد أدت إلى انفصال العديد من القبائل و ظهور إمارات ترفض الخضوع لأية سلطة مركزية. إن وضعية التفكك السياسي التي عرفتها الجزائر في أوائل القرن السادس عشر، و التي وصفها البعض من المؤرخين بـ"الفسيفساء السياسية" و وصفها البعض الآخر بـ " الفسيفساء الإقطاعية "، لا تختلف كثيرا عن تلك الأوضاع التي عرفها المغرب في العديد من محطاته التاريخية.

بعد سقوط السلطة الرومانية في القرن الخامس، ظهرت في الجزائر عدة وحدات سياسية كانت عبارة عن كونفدراليات قبلية نجدها في ناحية تلمسان، في الونشريس، في الحضنة، في الأوراس و النمامشة و في غيرها من الجهات. لقد ظل هذا التفكك قائما رغم محاولة الوندال والبيزنطيين إعادة توحيد المنطقة تحت سلطتهم. بعد فترة وجيزة من الوحدة التي تمت نتيجة الفتوحات العربية الإسلامية، أخذت الجزائر تتفكك، خلال القرن الثامن إلى وحدات سياسية جديدة لا تختلف كثيرا عن السابقة، في الأوراس، في نواحي قصر البخاري، في جهة الونشريس، في بلاد القبائل و في غيرها من الجهات. بعد أقل من قرن من تلك الوحدة التي فرضها الفاطميون عاد التفكك من جديد، قبل و بعد رحيل هؤلاء الشيعة إلى مصر (973). تحول هذا التفكك إلى فوضى عارمة مع نزوح القبائل العربية إلى المغرب، ابتداء من أواسط القرن الحادي عشر. لقد ألحقت هذه القبائل أضرارا كبيرة بالدولتين الزيرية والحمادية، الشيء الذي فتح المجال أمام الحركات الانفصالية القبلية في مختلف جهات البلاد. لهذا نقول إن وضعية الجزائر في أوائل القرن السادس عشر ليست فريدة تاريخيا. و نحاول الآن أن نقدم صورة تقريبية عن الوضعية التي وجد الأتراك الجزائر عليها حين وصولهم.

أقام بنو جلاب إمارة في تقرت، ظلت قائمة طوال كل العهد التركي في الجزائر، وحسب كتابات العدواني، فإن بني جلاب من بقايا بني مرين، و أن أول سلطان من سلاطينهم في تقرت، في القرن التاسع الهجري (القرنان الرابع عشر و الخامس عشر)، هو الحاج سليمان المريني الجلابي(1). لقد وصف الحسن بن محمد الوزان الفاسي (ليون الإفريقي)، في أوائل القرن السادس عشر، مدينة تقرت بقوله: " توجد حول تقرت عدة قصور و قرى و أماكن مأهولة على طول مسيرة ثلاثة أيام أو أربعة، و كلها خاضعة لأمير تقرت الذي أصبح يُجبي منها مائة و ثلاثين ألف مثقال. و لهذا الأمير حرس قوي من الفرسان و رُماة القذائف و البنادق الأتراك، يعطيهم أجرا مناسبا حتى يبقى كل واحد منهم في خدمته عن طيب خاطر" و يقول عن أميرها :" هو شاب شهم كريم اسمه عبد الله، اتصلت به فوجدته في تمام الظرف ولين العريكة، كثير الانشراح عطوفا على

الغرباء"، و عن سكان المدينة يقول: "في تقرت نحو ألفين وخمسمائة كانون دورها مبنية بالآجر الشوي و الطين حاشا الجامع فإنه بالحجر المنحوت الجميل وهي عامرة بالصناع والنبلاء الأغنياء الذين يملكون حدائق النخيل"(2).

لقد أقام بنو جلاب إمارتهم في منطقة يسودها الفراغ السياسي منذ القرن الرابع عشر. كانت واحات وادي ريغ، الواقعة بين بسكرة وبليدة عمار في أقصى جنوب الوادي تعيش مستقلة متطاحنة، على رأس كل منها تقريبا أعيان من قبيلة ريغة التي هاجرت إلى المنطقة، و من عائلاتها نجد أولاد عبيد الله الذين كانوا يحكمون تقرت، قبل بني جلاب ويتصارعون مع بني إبراهيم، سادة تماسين الواقعة إلى الغرب من تقرت (3).

كانت ورقلة تعيش نفس وضعية تقرت تقريبا، كما يذكر الوزان: "لورقلة أمير يشرفونه كالملك، يعيل نحو ألف فارس من حرسه و يُجبى إليه من إمارته مائة وخمسون ألف مثقال"، وسكان ورقلة "أغنياء جدا لأنهم في اتصال مع مملكة أكدز منهم عدد كبير من التجار الأجانب الغرباء عن البلد، لا سيما من قسنطينة و تونس يحملون إلى ورقلة منتجات بلاد البربر ويستبدلونها بما يأتي به التجار من بلاد السودان"(4). ولا تختلف ورقلة عن باقي المدن الصحراوية، بما فيها تقرت و تماسين و غرداية والقنيق، فيما يتعلق بالنشاط التجاري مع إفريقيا السوداء و الشمال الجزائري، فهذه المدن كانت مستقلة بعيدة عن سلطة بني زيان و بني حفص.

لم تكن الوضعية السياسية على السواحل تختلف عن وضعية أطراف الصحراء. كانت المدن تعيش في نوع من الاستقلال عن الحفصيين و عن الزيانيين. كانت بجاية قد انفصلت تماما عن تونس، في مطلع القرن السادس عشر. و كان السلطان أبو العباس عبد العزيز، ملك بجاية، في صراع حاد مع أخيه أبي بكر، حاكم قسنطينة، لأن هذا الأخير كان يرغب في توسيع حدود ولايته، فلم يتوقف عن إزعاج بجاية التي كانت تقاومه بشدة. تمكن أبو العباس عبد العزيز من الحفاظ على سلطته، رغم الدمار الذي كان يلحقه أبو بكر بأرياف مملكة بجاية. في مطلع 912 هـ (1507) تقدم أمام أسوار المدينة فحاصرها مدة 40 يوما، لكنه فشل في اقتحامها. بعد أن أتلف المزروعات عاد إلى قسنطينة. أعاد الكرة في السنة الموالية لكنه هُزم هزيمة نكراء. استغل عبد العزيز انتصاره وولج إلى الحضنة و منها إلى قسنطينة التي فتحت له أبوابها، و حين كان منشغلا بتدعيم سلطته بها وصله خبر نزول الأسبان في بجاية(5).

كانت مدينة الجزائر تابعة لمملكة بني زيان بتلمسان "لكنها استسلمت لملك بجاية القائم حديثا لقربها من مملكته، فانحاز أهلها إلى ملك بجاية لما أوجسوا منه خيفة، ولعدم قدرة ملك تلمسان على إنجادهم فبايعوه و أدوا له الخراج، لكنهم بقوا تقريبا متحررين"(6).

كانت جيجل مستقلة، قبل أن يسيطر عليها الجنويون، فقد "حافظ هذا القصر دائما على حريته، بالرغم على ملوك بجاية و ملوك تونس لأنه يستحيل حصاره"(7). غير أن الجنويين

أقاموا نفوذا تجاريا لهم في المدينة منذ النصف الأول من القرن الثالث عشر، و أخذ هذا النفوذ التجاري يزداد بعد أن أقاموا مؤسسات تجارية و شيدوا حصنا لضمان أمنهم، و في سنة 1513، و بعد أن سيطر الأسبان على بجاية و بدعوى مطاردة القراصنة، أرسل الجنويون أسطولا، بقيادة أندريا دوريا، فاستولى على المدينة وخرب جزءا منها، إلا أن المقام لم يدم طويلا بالجنويين، إذ طردهم الأتراك من المدينة في السنة الموالية.

و كانت مدينة القل شبه مستقلة، تواجه والي قسنطينة الحفصي و كذلك ملوك تونس الحفصيين (8). كان والي قسنطينة يريد إبقاء سيطرته على القل و سطورة وسكيكدة لأنها منافذه التجارية على البحر. أما عنابة فكانت لازالت تحت السيطرة التامة للحفصيين. هذا في الناحية الشرقية أما في الناحية الغربية فكانت سلطة بني زيان ضعيفة في المدن الساحلية التي كانت هي الأخرى تنزع للاستقلال.

يقول الوزان حول علاقة وهران بالدولة الزيانية : "و كان الوهرانيون أعداء لملك تلمسان، فلم يقبلوا قط أي وال من ولاته، ماعدا أمينا للمال و قابضا يستلم مداخيل الميناء، و كانوا ينتخبون رئيس مجلس ينظر في القضايا المدنية و الجزائية "(9). كانت باقي المدن الساحلية تعيش نفس وضعية وهران تقريبا. لكن الجهة الغربية كانت محل أطماع البرتغال، قبل ظهور إسبانيا في المنطقة. لقد وقع المرسى الكبير بيد البرتغاليين سنة 1471، فسيطروا على الميناء حتى 1477، حيث خرجوا منه نهائيا، إلاّ أنهم أقاموا مؤسسة تجارية بوهران سنة 1483 و أخرى سنة 1487، و سعوا إلى فرض معاهدة على مملكة تلمسان نفسها و لكنهم فشلوا في مسعاهم.

إن الضعف الذي لحق مملكتي بني زيان و بني حفص، في الجزائر خاصة والمغرب عامة، قد فتح المجال أمام القبائل العربية لتفرض هيمنتها على الكثير من المناطق، و على المدن بصفة خاصة، كما عادت هذه القبائل إلى سابق عهدها في الغارة والنهب والسلب. كانت القبائل العربية هذه تتكون من قبائل بني هلال و بني سليم، التي كانت تحالفت مع قرامطة شبه الجزيرة العربية، وكانت تقطع الطرق حول الطائف و تغير على الشام. و لما فتح الفاطميون هذه الأخيرة انطلاقا من مصر نقلوا من تلك القبائل بطون الأثبج و زغبة و رياح و عُدي و ربيعة إلى جنوب مصر، ثم أرسلوا عشائر منها في أواسط القرن الحادي عشر، إلى المغرب انتقاما من الزيريين و الحماديين الذين انفصلوا عن سلطتهم و مذهبهم معلنين تبنيهم للمذهب السني المالكي.

سببت القبائل العربية البدوية اضطرابات سياسية و اقتصادية كبيرة عند وصولها إلى المغرب، يصفها أحد الباحثين بقوله : " عاثت القبائل العربية الغازية في المنطقة الشرقية من البلاد الشرقية خرابا و دمارا، مالكة للأرض ناسفة زروع الأهالي قاطعة الطرق ناهبة سالبة، فتعطلت الزراعة و كسدت التجارة. و مما ضاعف في مشكلة الأمن أن النزاع لم يكن بين أهالي البلاد الشرقية والعرب فحسب بل كان بين العرب الغازية أشدّ، فرياح حرب على زغبة، و عُدي عدو لرياح. و لم تستطع المدن الحصينة و الساحلية الحفاظ على وجودها على الرغم من ظهور زعامات محلية، قوية

مثل بني خراسان في تونس إلاّ بدفع إتاوات للعرب، كما لم يقو النورمان على الاحتفاظ بما احتلوا من مدن الساحل إلاّ ببذل الأموال لهم وشيدت المدن أسوارا حياطة على ازدهارها "(10).

لقد أخضع المرابطون ثم الوحدون تلك القبائل لسلطتهم بالقوة تارة و باستعمالها في جيوشهم تارة أخرى، و نقلوا عشائر منها إلى المغرب الأقصى و إلى الأندلس، غير أن هذه القبائل ظلت تهدد الأمن و الاستقرار كلما شعرت بضعف السلطة، و كلما ثار ثائر سارت خلفه ضد السلطة المركزية، كما وقع مع علي بن غانية الذي استولى على بجاية سنة 1184، و جند هذه القبائل ضد الموحدين، و كما يقول أحد المؤرخين " فإن هؤلاء البدو الرحل لم يألفوا قط حكم الموحدين الصارم لذلك فإن الكثير منهم انتهزوا، دون تردد، أول فرصة سنحت لهم للتخلص من هذا النير، و انحاز بعض الجنود العرب في خدمة الموحدين إلى العدو أثناء القتال، و حينما فرّ ابن غانية شرقا تبعته قبائل عربية بكاملها من قبائل المغرب الأوسط، كما أن معظم القبائل العربية في إفريقية أيدته "(11). في ظل الضعف العام الذي عرفته الدولتان الزيانية و الحفصية عاد نشاط هذه القبائل بقوة.

لقد تعرض الوزان كثيرا لنشاطات هذه القبائل في بلاد المغرب، في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، نعتمد عليه نحن فيما يتعلق بالجزائر.

يذكر الوزان أن عشيرة خراج كانت تحصل على " إعانات مالية يتلقونها من ملك تلمسان الذي لا يكاد يفتر في الحرص على حملهم على أن يعيشوا عيشة مسالمة، لأنهم لصوص يكادون يفتكون بكل من تصل إليه أيديهم "، كما يقول عن عشيرة أخرى : " تسكن الهدج صحراء مجاورة لتلمسان تدعى أنكاد، ليس لها ممتلكات و إعانات، و لايعيشون إلاّ على القتل والنهب "(12)، و يشير من جهة أخرى إلى أن أمير ورقلة " يؤدي لجيرانه الأعراب خراجا مرتفعا " و" أن أهل ميزاب يؤدون الإتاوة إلى الأعراب و يخضعون لهم "(13)، و لم تكن إمارة تقرت قادرة على الحفاظ على بقائها إلا بموافقة العرب الدواودة الذين كانوا يقودون عرب رياح منذ نهاية القرن الخامس عشر و لتمتين العلاقات تزوج صخري، شيخ العرب منذ 1481، ابنة الأمير سليمان الجلابي صاحب تقرت. و كان الدواودة، في أواخر هذا القرن، يمارسون سلطتهم على الصحراء من الزيبان إلى غاية ورقلة (14).

حسب الوزان، كانت رياح تقلق قسنطينة، في عهد أبي الفتح (نبيل)، نائب الملك الحفصي في المدينة، و لكن هذا الوالي " كان على جانب عظيم من الدهاء، فبثّ دسائس خطيرة، حتى يتمكن من تسيير المدينة كما شاء، بالإضافة إلى أنه دخل في مساومات مع الأعراب المجاورين حتى أصبحوا يعيشون على حذر منه، مع أنهم كانوا يُعدون من أنبل العرب بإفريقيا و أشدهم بأسا، و قبض مرة على أكبر هؤلاء الأعراب كان باستطاعته أن يقود خمسمائة فارس و قبض على أبنائه و أحفاده، ولم يطلق سراحه إلاّ بعد أن ترك عنده ثلاثة من أبنائه رهائن في قلعة قسنطينة "(15). في الوقت الذي ظهر فيه الأتراك على الساحة الجزائرية، في أوائل القرن السادس عشر، كان الدواودة يسيطرون على ما أصبح يعرف بمقاطعة قسنطينة، و كان لهم ثلاثة قادة هم قائد أولاد صولة، قائد أولاد السبع، و قائد أولاد عيسى، و كان بإمكانهم أن يجمعوا عشرة آلاف فارس،

ونفوذهم يمتد من قسنطينة إلى قرب بجاية، و كانوا أسياد سهول واسعة تحيط بقسنطينة، أين كانوا يخيّمون في فصل الصيف. و عندما سيطر الأتراك على قسنطينة قسموا قيادة القاطعة الشرقية إلى ثلاثة أقسام : قسم للدواودة من المنحدرين من يعقوب بن علي، قسم للأحرار أسياد الحنانشة، القسم الثالث للأتراك أنفسهم (16).

كان هؤلاء الأعراب يثقلون كاهل سكان طولقة بالإتاوات (17)كما ضربوا حصارا على منطقة الأوراس فلم يعد أحد يتصل بسكانها الذين كانوا " لا يريدون أن تعرف مسالك جبالهم، اتقاء من أعدائهم الأعراب و من الأمراء المجاورين لهم "(18).

كان الشابية، في وسط تونس، وهم من قبيلة سليم العربية، قد أعلنوا استقلالهم عن الدولة الحفصية ، منذ القرن الرابع عشر، و كانت العائلة المهيمنة لديهم هي عائلة كعوب التي اكتسبت نفوذا كبيرا من الناحية الدينية أولا، ثم من الناحية السياسية ثانيا. لقد مدّت الشابية سلطتها نحو الغرب لتشمل المنطقة الواقعة بين الزاب، ساحل القالة و قسنطينة، وقد ظل الشابية في صراع مع ملوك تونس إلى أن دبّ الوهن في مملكة الحفصيين. في بداية العهد التركي بدأ التفوق الشابي بنهار بدوره، فظهرت عائلات كانت تلعب دورا ثانويا لتلعب دورا أساسيا و تتمكن من الانعتاق من سلطة الشابية تحت أسماء الحنانشة، النمامشة والحراكتة (19).

كان عامل القوة لدى الشابية هو الطريقة الصوفية التي أسسها أحمد بن مخلوف الشابي المتوفي سنة 1482. و إذا كانت الشابية قد فقدت نفوذها في الشرق الجزائري، فإنها ظلت تلعب أدوارا سياسية كبيرة في تونس. لقد استولت على الحكم في القيروان ضد شارل كان إمبراطور إسبانيا الذي استولى على تونس سنة 1535، كما حاربت الملك الحفصي الحسن سنة 1540.

بعد أن حقق الحراكتة العديد من الانتصارات على عرب الشابية، تشكلوا في نوع من " الجمهورية " المستقلة المهابة الجانب من جيرانها، الذين كانوا يدفعون لها الضريبة مقابل السلم (20). فعل الحنانشة الشيء نفسه، و ظلت قبيلتهم تتردد بين التبعية الاسمية للجزائر تارة و لتونس تارة أخرى. أما قبيلة النمامشة فظلت مستقلة عمليا، تجوب مناطق الحدود بين وادي سوف و تبسة.

كانت مسيلة واقعة تحت هيمنة عشيرة مسلم العربية إلى درجة أن سكانها من الصناع والفلاحين كانوا " يرتدون لباسا رديئا لفقرهم بسبب جيرانهم الأعراب الذين يسلبونهم مداخيلهم، و ملك بجاية الذي أثقل كاهلهم بالضرائب "(21).

و كانت مدينة الجزائر و دلس تحت هيمنة الثعالبة الذين سيطروا على المتيجة. كانت قبيلة ثعلبة قد جاءت سهل المتيجة، و سيطرت عليه منذ العهد الوحدي. يذكر الوزان أن لثعلبة تجارة مع الصحراء و أنها " ذات شرف و شجاعة، يبلغ عدد فرسانها ثلاثة آلاف رجل "(22). و قبل مجيء الأتراك إلى مدينة الجزائر، كان سالم التومي الثعالبي قائدا أو شيخا للمدينة، فارضا نفسه بقوة

فرسان قبيلته و كانت سويد، التي هيمنت على " القفار الممتدة نحو مملكة تنس " تتقاضى أجورا من ملك تنس إذ كان لها " صيت بعيد و سيطرة واسعة "(23).

تراجع التجارة الدولية

يفسر الكثير من المؤرخين الضعف الذي لحق دول المغرب، ابتداء من القرن الرابع عشر، بصفة خاصة، بفقدان المغرب دوره المعهود في تجارة الذهب الإفريقي. فقد كان المغرب معبر هذا الذهب نحو أوربا، منذ القرن التاسع الميلادي، إلى أن تحولت طرقه نحو المشرق، نحو مصر بصفة خاصة. في القرن الرابع عشر تمكن المماليك في مصر من إسقاط آخر ملك مسيحي في دونغولة (الملك كرنبيس)، و نصبوا مكانه المسلم عبد الله بن سنبو الموالي لهم، الأمر الذي سمح للقبائل العربية من بني هلال و سليم أن تتقدم بجمالها إلى كوردوفان و دارفور و أن تستقر في السودان التشادي، و أن تربط بين وادي النيل و المحيط الأطلسي، فحولت بذلك تجارة الذهب نحو المشرق، نحو مصر التي تقع في مفترق طرق البهارات، بين الهند و أوربا. بعد حوالي قرنين أعاد الأوربيون تحويل طرق الذهب نحو المحيطين الهندي و الأطلسي، بإقامتهم مراكز تجارية عديدة على سواحل إفريقيا الشرقية و الغربية.

أفضت النهضة الأوربية إلى تلك الاكتشافات الجغرافية الكبرى التي شهدها العالم في أواخر القرن الخامس عشر. في سنة 1492 اكتشف كريستوف كولمب الإيطالي القارة الأمريكية لحساب الملكة ايزابيلا ملكة قشتالة، في شبه جزيرة ايبريا. في سنة 1497 اكتشف فاسكو دي غاما البرتغالي طريق رأس الرجاء الصالح المؤدية إلى الهند عبر المحيطين الأطلسي و الهندي. فأصبح بإمكان الأوربيين الوصول إلى الهند، موطن التوابل، بحرا دون المرور عبر أراضي المشرق العربي. كما فتح هذا الاكتشاف المجال أمام الأوربيين للاتصال بالأفارقة مباشرة. كان البرتغاليون سباقين لإقامة المراكز التجارية على سواحل القارة الإفريقية و ذلك منذ أواخر القرن الخامس عشر، ثم لحق بهم الهولنديون فالفرنسيون فالإنجليز، حتى أصبحت كل سواحل إفريقيا تحت سيطرة بلدان أوربا الغربية (انظر الخريطة).

هكذا تحولت طرق الذهب نحو المحيطين الأطلسي و الهندي و ابتعدت عن البحر المتوسط الذي كانت تنتهي إليه من قبل عبر بلاد المغرب. لقد تضرر المغرب من هذا التحويل كما تضررت منه إيطاليا و جمهورياتها، التي كانت تهيمن على الحركة التجارية في حوض هذا البحر. أصبحت تجارة المغرب مع أوربا تقتصر على المنتجات المحلية. لكن هذه التجارة لم تعوض ما كان يجنيه الحكام من تجارة الذهب أو التجارة العابرة. إن فقدان الفئات الحاكمة ريع هذه التجارة قد اضطرها إلى التوجه أكثر إلى الفلاحين و الرعاة لتعويض



إفريقيا خلال القرنين 16 و 17

ما فقدته، برفع الضرائب و المكوس، من جهة، و من جهة أخرى، حل إقطاع الأراضي أو المراعي محل النقود في مكافأة القادة العسكريين و غيرهم من الموظفين الكبار على الخدمات التي كانوا يقدمونها للسلطة. كانت هذه الوضعية الجديدة مدعاة لعصيان الفلاحين و القبائل خاصة. ولأن هذه الأخيرة كانت تربط بين عائلاتها و عشائرها روابط لازالت قوية، و تملك سلاحها بيدها، فأنها لم تجد صعوبة في الانفصال عن السلطة المركزية الضعيفة،بل و الدخول في حروب ضدها. هكذا تفكك المغرب،و الجزائر خاصة،إلى وحدات سياسية لا تُحصى،فكان لابد من انتظار دخول سلاح جديد يفوق سلاح القبائل،و ظهور مورد جديد يعوض ما ضاع من جراء تحول طرق الذهب.

كان للوجود الإسباني و التركي على السواحل الجزائرية انعكاس سلبي على المبادلات التجارية التي كانت تتم بين الجزائر و أوربا، خاصة مع المطلة من هذه الأخيرة على البحر المتوسط .كانت المدن الساحلية لا زالت تحافظ على روابط تجارية مع أوربا،و مع إيطاليا و إسبانيا على الخصوص،قبل أن يسيطر الأسبان والأتراك عليها. و كانت لدول المغرب اتفاقيات تجارية مع دول و مدن شبه جزيرة إيبريا و إيطاليا. أبرم المرينيون إتفاقيات عديدة مع أرغونة و قشتالة و ميورقة و مع جمهورية بيزا و مع البرتغال، كما أبرم بنو عبد الواد اتفاقيات مع أرغونة، و أبرم بنو حفص اتفاقيات مماثلة مع صقلية و بيزا و جنوة و فرنسا و أرغونة و ميورقة و فلورنسا و نابل.

كان للقطالبين،مثلا،خلال القرنين الثالث عشر و الرابع عشر،مكانة هامة في فنادق تونس و بجاية و تلمسان، و في التجارة القافلية التي كانت تتوجه إلى السودان (24).لقد ذكر الوزان أن وهران كانت تأتي إليها سنويا سفن من البندقية " تحقق أرباحا جسيمة مع تجار تلمسان ". كما كانت وهران " مهبط التجار القطالونيين، و مازالت بها إلى الآن دار تسمى دار الجنويين لأنهم كانوا يقيمون بها " و كانت وهران و المرسى الكبير مينائي تلمسان "يختلف إليهما كثيرا عدد وافر من تجار جنوة و البندقية حيث يتعاطون تجارة نافعة عن طريق المقايضة "(25). و أصبحت مدينة الجزائر في عهد الثعالبة مدينة ترسو فيها سفن تجارية كبيرة خاصة سفن برشلونة و فلورنسا و البندقية (26). و في العهد الحفصي" بدأ البيزيون ثم البنادقة و الجنويون يقيمون علاقاتهم مع

بوجيا، كما كانوا يسمونها في ذلك الحين، واستطاعوا المحافظة عليها حتى بداية الاحتلال الإسباني لبجاية. و كان للبيزيين و الجنويين في بجاية خانهم الخاص وحماماتهم و كنيستهم و مقبرتهم و كانوا يترددون على هذه المدينة و يتنقلون في البلاد بحرية تامة "(27). و كانت جيجل منذ العصور الوسطى " مدينة مزدهرة، و كانت فيها للجمهوريات الإيطالية كلها تقريبا مخازنها و دكاكينها "(28).

كانت للقل علاقات تجارية واسعة مع جنوة، فأهلها يمتلكون كميات كبيرة من الجلود و الشمع التي توفرها المناطق الجبلية " يبادلون بها البضائع التي يحملها أهل جنوة إلى مينائهم ". أمر أمير قسنطينة الحفصي ببناء منازل للجنويين التجار بالقل و " أنشأ أيضا قرية في أعلى جبل مجاور يقيم بها حراس على الدوام للإخبار بالسفن المتجهة إلى الميناء" (29). هذا الاهتمام كان تسهيلا لنشاط تجار قسنطينة الذين كانوا لا يبيعون الأصواف و الجلود و الأغطية للمسيحيين إلاّ عن طريق القل (30). و كان لسكان سكيكدة مبادلات مع الجنويين " فيدفعون لهم القمح مقابل أقمشة و غيرها من منتوجات أوربا. و يمتد بين هذا الميناء و قسنطينة طريق مبلط بحجارة سوداء على نحو ما يُشاهد في إيطاليا من بعض الطرق المسماة بالطرق الرومانية " (31) و لعنابة علاقات تجارية كذلك مع الجنويين، يقول عنها الوزان: " و تأتي كل سنة سفن عديدة من تونس و جربة ومن سائر السواحل، وكذلك من جنوة لشراء القمح و الزبد، فتستقبل بحفاوة كبيرة " و " يوجد غير بعيد عن عنابة شاطىء يكثر فيه المرجان، إلاّ أنه ليس لأحد الحق في صيده من البحر أو التقاطه من الشاطئ لأن الملك أكرى هذا الشاطئ للجنويين الذين استأذنوه في بناء قلعة هناك بعد أن أقلقهم القراصنة، لكن السكان رفضوا ذلك بدعوى أن الجنويين قد استعملوا مرة سابقة هذه الحيلة و استولوا على عنابة ثم استرجعها منهم أحد ملوك تونس "(32).

إن هذه المبادلات النشيطة التي كانت بين الجزائر و أوربا، و بصفة خاصة مع شبه جزيرة ايبيريا و المدن الإيطالية، قد توقفت مع مطلع القرن السادس عشر، نتيجة سيطرة الأسبان على السواحل الجزائرية ثم سيطرة الأتراك على الجزائر. يقول الوزان: " و لما احتل المسيحيون (الإسبان) وهران لم يعد البنادقة يقصدونها لكونها مليئة بالجنود الأسبان فطلب منهم أهل تلمسان أن يأتوا إلى هنين ". لقد كان سقوط وهران "خسارة عظمى لملكة تلمسان "(33). و حول ردود الفعل عن احتلال الأسبان لبجاية يقول الرحالة الألماني مالتسان: كانت فرحة الأسبان بهذا الاحتلال كبيرة " إلاّ أن أهالي جنوة و البندقيةلم يفرحوا باحتلال بجاية من

طرف أكثر الأمم المسيحية تعصبا. ذلك أن هذا الاحتلال قضى على الحركة التجارية دفعة واحدة، فقد طرد الأسبان المسلمين كلهم تقريبا " من المدينة (34). ويقول عن دور الأتراك في ضرب الحركة التجارية في تلمسان : " كانت سياسة بني زيان تجاه الأوربيين أكثر تسامحا من سياسة الحكام المتأخرين (الأتراك) في ذلك الحين كان تجار جنوة و البندقية يترددون على تلمسان في حرية تامة كما لو أنهم كانوا في مدينة إيطالية، و أكثر من ذلك يرسلون قوافلهم إلى الواحات بالصحراء التي تبعد حدودها الشمالية عن تلمسان بخمسين كم. و كانت بها أيضا كنيسة مسيحية و خانة للقوافل خاصة بالمسيحيين. و كان هذا في جميع مناطق الغرب، إذ أن هذه البلاد كانت حتى مطلع القرن السادس عشر مفتوحة للأوربيين، فعرفت الحركة التجارية ازدهارا كبيرا، و لكن ما إن بدأ الحكم التركي حتى أقام التعصب الديني و السياسي سورا صينيا محكما حول الجزائر، و لو أنه كان سورا أخلاقيا. و لذلك ظلت الجزائر كتابا مغلقا بالنسبة إلينا نحن الأوربيين حتى بداية الحكم الفرنسي " (35). و عن انقطاع المبادلات التجارية في الناحية الشرقية من البلاد يقول : " و في العصر الوسيط، قبل بداية الحكم التركي الهمجي، الذي وضع حدا للحركة التجارية، كانت عاصمة نوميديا مركزا لحركة تجارية نشيطة. فكانت للتجار البيزيين و الجنويين و البندقيين دكاكينهم الخاصة في مدينة الصخور. و لم يكن العرب و القبائل قد عرفوا بعد الفقر الذي عرفوه في العهد التركي، و كانوا لا يزالون بعد قادرين على أن يشتروا من الأوربيين بضائعهم التي كانت تتمثل في الأرز، و خاصة الأقمشة الراقية الحمراء المصنوعة من القطن و تتمثل كذلك في أدوات الزينة، و كان الطاليان يشترون بالمقابل المواد الخام و في مقدمتها الصوف، وكان الأوربيون في ذلك العهد يتمتعون بحرية تامة، لا في المدينة فحسب، بل كانت لهم أيضا حرية الاتصال بالقبائل المجاورة. و كانت لهم علاقات بالأهالي دون أن تهتم الحكومة بصلاتهم هذه. و عندما بدأ الحكم التركي المتعصب طرد التجار وتوقفت الحركة التجارية في قسنطينة كلها، توقفت في جميع أنحاء الجزائر. وبهذه الطريقة أصبحت قسنطينة، على غرار ما حدث في غيرها من المدن الجزائرية، محرمة على الأوربيين، و هو ما لم يكد يحدث حتى في الصين، و صار وضعها قريبا إلى حد ما من وضع المغرب، فانغلقت أمام السواح في القرون الثلاثة الأخيرة " (36).

الهجـرات الأنـدلسية

في الـوقت الذي ضعفت فيـه العلاقـات التجاريـة بـين المغـرب و وسـط إفريقـيا وأوربا عرفت الجزائر محنة المسلمين في الأندلس الـتي أدت إلى هجـرات واسـعة مـن شـبه جزيرة إيبريا إليها. كان المهاجرون من المسلمين و مـن اليهـود. و كـان لـهم دور كـبير في تطور الأوضاع في المغرب بصفة عامة و الجزائر بصفة خاصة.

عرف المغرب الهجرة الأندلسية في القرون التي سبقـت سقوط الإمـارات العربيـة الإسـلامية الأندلسية، فالكثير مـن الأندلسـيين هـاجروا إلى فـاس الإدريسـية منـذ القـرن التاسع الميلادي، و كانت انتفاضة الربض ضد الأمير الحكم في نفس القرن و فشلها سـببا في هجـرة المنتفضين نحو بلاد المغرب. التجار الأندلسيون هم الذين أسـسوا مدينـة وهـران في القرن العاشر الخ. لكن هذه الهجرات المحدودة تحولت إلى هجرات جماعيـة كبيرة، لما استولـى الأسبان علـى الإمـارات العربيـة الإسـلاميـة مثـل طليطلـة و قـرطبة و إشـبيلية وسرقسطة و بلنسـية و غيرهـا، لأن غرناطـة لم تـتمكن مـن اسـتيعاب المهـاجرين إليهـا، فكان لابد مـن الانتقـال إلى المغـرب. و اشـتدت الحركـة أكثـر بعـد سقـوط غرنـاطـة سـنة 1492، و فشل انتفاضة جبال البشارات (1499 - 1502). فقد خيّـر الأسـبان المسـلمين المشاركين في الانتفاضة بين اعتناق المسيحية أو مغـادرة الـبلاد. بلغـت الهجـرة الأندلسـية أوجها إثر قرارات الطرد الجماعية التي أصدرها الملك الإسباني فيليب الثالـث عـام 1609. بلغ عدد الفارين سنة 1611 وحدها حوالي 275 ألـف مهاجر، منهم مـن انتقـل مباشـرة إلى المغرب و منهم من فرّ عبر جبال البرانس و فرنسا.

كانت المـدن الجزائريـة السـاحلية كوهـران، شرشـال، الجزائـر، بجايـة و غيرهـا تستقبل هؤلاء المهاجرين، كما كانت تستقبلهم مدن أخرى داخلية مثل تلمسان و البليدة.

لقد نقل الأندلسـيون (المورسكـيـون) إلـى الجزائـر أشـياء جديـدة مـن العـادات والصناعات والثقافـة، كما هو الشأن بالنسـبة للموسـيقى الأندلسـية الـتي لازالـت حيـة إلى اليوم. كما أحـيوا مـدنا كانت ميتة. وصف الـوزان دورهـم في شرشال بقوله:

"هُجرت (شرشال) أثناء حـروب ملـوك تلمسـان و ملـوك تـونس، و بقـيت خاليـة مـن السكان زُهاء ثلاثمائة سنة حتى سقوط غرناطة في أيدي المسيحيين، فقصـدها الغرنـاطيون إذ ذاك و أعادوا بناء عدد مهم من دورها، وجـددوا القلعـة و وزعـوا الأراضـي بيـنهم، ثـم صنعوا كثيرا من السفن للملاحة و اشـتغلوا بصـناعة الحريـر، إذ وجـدوا هنـاك كميـة لا تحصى من أشجار التـوت الأبيض و الأسـود "(37).

تصاعد أعمال القرصنة

على الرغم من ارتباط القرصنة باسم الأتراك فان الأتراك ليسوا هم الذين أوجدوها في المغرب، بل كانت القرصنة سابقة على وجودهم في المنطقة. كل ما هنالك هو أنهم نشطوها و نظموها و جعلوها من مهام الدولة.كان لتجربة الأوائل منهم وللسلاح الناري الذي جاءوا به دور كبير في تفعيلها.

ليست القرصنة شيئا جديدا في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي،فمنذ قرون، سابقة على القرن الخامس عشر،كان المسلمون و المسيحيون يلجأون إليها.ولما انتشرت هذه القرصنة في المغرب في القرن الخامس عشر، كان هناك عدد كبير من المسيحيين يمارسونها.و ظل فرسان مالطة يمارسونها حتى نهاية القرن الثامن عشر رغم انحسارها في باقي البلدان المسيحية.

لقد تطورت القرصنة في بلاد المغرب، خاصة في القرن الخامس عشر، و غدت كل المدن الساحلية تمارسها، من سواحل المحيط الأطلسي إلى جربة. أصبحت هذه القرصنة " أكبر مورد للموانئ المغربية " (38). يقول المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان عن هذه الظاهرة: " أقامت المراسي من جربة إلى المغرب الأقصى أنواعا من الجمهوريات أعدت العدة لمارسة القرصنة فسلحت تونس و بنزرت و بجاية و مدينة الجزائر و وهران و هنين،كل لحسابها، سفنا شراعية تجوب البحر المتوسط "(39). و قد تعرض الوزان مرات عديدة لنشاط مدن المغرب الساحلية في ميدان القرصنة.فسكان مدينة الجزائر " سلّحوا سفنا و تحولوا إلى قراصنة، فصاروا يغيرون على جزر يابسة و ميورقة و منورقة، و حتى على شواطئ إسبانيا " و يفسر الوزان احتلال البنيون من طرف الإسبان بإرادة هؤلاء القضاء على قرصنة هذه المدينة(40).

كانت بجاية من المدن النشيطة في هذا الميدان.لقد ذكر المريني، الذي عاصر سقوط بجاية بيد الأسبان، أن سكان بجاية كانوا ينزلون في شواطئ إسبانيا و يستولون على العباد و الثروات، كما كانوا يهاجمون السفن و يقودونها إلى بجاية التي كانت مليئة بالعبيد من المسيحيين (41). و يؤكد الوزان كذلك على أن أهل بجاية كانوا على " قدرعظيم من الغنى، يسلحون العديد من السفن الحربية المختلفة و يرسلونها لغزو شواطئ إسبانيا " (42).و لكثرة ما كان من أسرى رفعت بجاية مبلغ الفدية " إلى حد أصبح معه من المتعذر أو يكاد الإقدام عليها "،كما يقول جوليان (43).و كان التجار في وهران " يجهزون على الدوام سفنا شراعية و أخرى مسلحة يمارسون بها القرصنة و يجتاحون سواحل

قطلونية و جزر يابسة و منورقة و ميورقة،حتى أصبحت المدينة تزخر بالأسرى المسيحيين "(44).

يفسر الكثير من المؤرخين لجوء المغرب إلى القرصنة بسبب واحد هو انقطاع تجارة إفريقيا العابرة للمغرب، و عدم تمكن المغرب من التكيف مع الأوضاع التجارية الجديدة التي نشأت من ظهور عدد كبير من الأساطيل الأوربية التجارية الضخمة التي تجوب المحيطات. وكان لانكسار المسلمين في شبه الجزيرة الإيبرية وطردهم منها دور كبير في تنشيط قرصنة المغرب. و كما يقول جوليان فقد نشطت هذه القرصنة " على يد المغاربة المطرودين من إسبانيا بصورة مهولة " (45). فعلا " فقد خرج بعضهم إلى البحر و هاجموا سواحل مواطنهم السابقة و نهبوا الصيادين الأسبان و التجار الصغار الذين وقعوا في طريقهم. و قد جاء وابل من العرائض إلى الملوك الكاثوليك يطالب أصحابها بالنجدة ضد هؤلاء المغيرين الذين نهبوا القرى والكنائس و الخلوات واسترقوا الفقراء الذين وقعوا في أيديهم "، كما يقول جون ب.وولف الأمريكي (46) . حقيقة " لقد كان هؤلاء المطرودون يعدّون من بين أكثر أعداء إسبانيا ضراوة "(47) بسبب فقدانهم لدورهم و أملاكهم، و قد وجدوا تسهيلات من أبناء عمومتهم الذين بقوا في اسبانيا.

انتشار التصوف و الانطواء

في ظروف القرن الخامس عشر، المتميزة بالتشتت السياسي و الأزمة الاقتصادية و بهزيمة المسلمين في الأندلس و هجرتهم نحو المغرب، في ظروف هذه الأزمة العامة، التي شهدها المغرب في هذا القرن، برزت ظاهرة لم يشهدها المغرب من قبل و هي ظاهرة انتشار التصوف و الطرقية.

لقد انتقل التصوف،الذي ازدهر على يد كبار الأولياء، في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر،من الخاصة في المدن، إلى العامة في الأرياف، على يد تلاميذ هؤلاء الأولياء. " و بفتح باب التصوف لأهل الريف و العامة،ساعدوا (التلاميذ) مرارا على نشر الإسلام أو إعادة نشره في الأرياف، و بهذا مهدوا السبيل للحركة الصوفية الكبيرة الشعبية التي ستنتشر، ابتداء من القرن الخامس عشر، مع الطرق الدينية، من الغرب إلى الشرق في كل الشمال الإفريقي، و سيُعطى الإسلام الصورة التي لا يزال عليها حتى اليوم"،كما يقول ألفريد بل الذي اهتم بتطور الفرق

الدينية في المغرب (48). هذا ما يذهب إليه فرديناند بروديل بقوله: " ابتداء من القرن الخامس عشر نشاهد بكل وضوح تجديدا للإسلام المغربي و تجمعا للمجتمع الإسلامي حول إكليروس الطرق "(49)

في الوقت الذي كانت تعيش فيه ممالك بني مرين و بني عبد الواد و بني حفص، سنواتها الأخيرة، و مع مجيء الأتراك و انقطاع المبادلات التجارية مع أوربا يتجه المغرب نحو الانطواء على الذات، في الوقت الذي تتجه فيه أوربا نحو نهضة شاملة، و كما يقول ألفريد بل، فإنه " ابتداء من القرن الخامس عشر، وخصوصا في القرون التالية، سينطوي الشمال الإفريقي على نفسه في تصلب ضيق و سيغلق أبوابه دون ما عسى أن تقدمه أوربا من فوائد "، و سيتجه " نحو تصوف شعبي عام، قد يتسم بعدم التسامح، و نحو قدرية قانعة تعترض النشاط و السعي إلى التقدم و بهذا يبدأ عصر تأخر الحضارة الإسلامية في كل الميادين و خصوصا في ميدان العلوم الدينية و الدنيوية " (50).

حسب نظرية كور، فإن الطرق الدينية كان لها دور سياسي في المقام الأول، فقد تشكلت ضد الاستعمار البرتغالي و الإسباني، فبفضل تحريضهما أقام السعديون سلطتهم في المغرب الأقصى، كما أقام القراصنة سلطتهم في الجزائر. إلا أن بروديل ينتقد هذه النظرية، فهي لا تنطبق إلاّ على " الثورة الشريفية " السعدية في المغرب، أين لعب الدين دورا، لكنها لا تنسحب على إيالة الجزائر. ذلك أن " الحزب الديني " لم يجمع أبدا كل المسلمين ضد الغزاة (51). و لعل بروديل على حق فقد ظل توالد هذه الطرق حتى بعد سيطرة الأتراك على الجزائر و تونس، بل و قامت طرق تحارب السلطة التركية كما سوف نرى مع درقاوة و التيجانية، بل سوف نجد أن الكثير من هذه الطرق و من رجال الدين كانوا يقفون إلى جانب الفرنسيين. لكن هذا لا يعني أن الأتراك لم يعملوا على توظيف العاطفة الدينية لتثبيت سلطتهم في الجزائر.

تجد ظاهرة التصوف و انتشار الطرقية تفسيرهما، في اعتقادنا، في الأزمة العامة التي تعرض لها المغرب أولا و قبل كل شيء، لكن عوامل أخرى خارجية ساهمت في تغذيتها. إن هزيمة الموحدين في معركة العقاب (1212) وما أعقبها من انتصارات إسبانية صاحبها استخدام المسيحية ضد الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبرية و الهجرات الجماعية للأندلسيين، وما تبعها من الغزو الإيبري لسواحل المغرب قد تركت آثارا عميقة في نفسية المغاربة الذين حرضهم الفارون من الأندلس. إن " هؤلاء الموريسكيين الذين أجبروا على قبول التنصر أو الهجرة و الذين سُجنوا أو أحرقوا من أجل عقيدتهم و عاداتهم الإسلامية قد نشروا في كل مكان قصص عدم تسامح الإسبانيين و استبدادهم و قسوتهم و غلظتهم لكي يجعلوا

من الاسم " الإسباني " شيئا كريها " (52). الشيء الذي ساهم في ذلك الانطواء على الذات بالنسبة لسكان المغرب الذين لم تكن لهم القوة للرد على همجية إيبريا، فلم يجدوا العزاء إلا في رجال الصوفية و الأشراف و القرصنة. هكذا انتهى التسامح الذي ساد خلال العصور الوسطى إزاء غير المسلمين.

و كما رأينا سابقا، فقد كان المسيحيون أحرارا في نشاطاتهم التجارية في المغرب خلال العصور الوسطى و حتى القرن الخامس عشر. و لقد عمل بعض المسيحيين في خدمة ملوك المغرب، و شغل مسيحيون و يهود مناصب هامة أحيانا لدى هؤلاء الملوك، كما استعمل هؤلاء الملوك صناعا و مهندسين مسيحيين في تشييد و تزيين قصورهم. كان هؤلاء المسيحيون جميعهم يمارسون شعائرهم الدينية بكل حرية إلى أن وقعت القطيعة في القرن الخامس عشر.

يفرق ألفريد بل بين إسلام الطرقية و الصوفية الذين نشروه في البوادي و إسلام العصور الوسطى الذي كان دين سكان المدن، و يستدل على ذلك بكون العصور الوسطى شهدت نشوء العديد من المدن الجديدة التي شُيِّدت بين القرنين السابع و الرابع عشر مثل القيروان، تيهرت، فاس، المهدية، أشير، قلعة بني حماد، بجاية، مراكش، تلمسان وغيرها. كانت هذه المدن مراكز للدراسات الإسلامية، بخلاف " الأرياف والبادية "، لكن هذه الحركة توقفت ابتداء من القرن الخامس عشر. فقد حلّت الزوايا التي أقيمت في الأرياف محل المدن، إذ استطاعت أن تكسب ثقة الجماهير الريفية و " صارت بديلا إلى حد كبير عن علماء العلوم الدينية في الجامعات. و نشرت الإسلام الصوفي في الأرياف و في المدن، و مهدت لانتصار الطرق الدينية ". و لكي ينفذ التصوف إلى الجماهير ضعيفة الثقافة لجأ شيوخ التصوف إلى حذف أو إهمال الأمور التجريدية و اهتموا أكثر " بالالتزامات المادية و الأذكار و المجاهدات ". لكن هذا التصوف الذي سيطر على الجماهير الجاهلة وجد طريقه، منذ منتصف القرن الخامس عشر، إلى " الأوساط الجامعية و الفقهاء و المتكلمين في المدن " و هكذا أخذ الإسلام شكلا جديدا يختلف عن شكل إسلام العصور الوسطى. (53).

لقد نشر الصوفيون فكرة " التوكل على الله "، و هذه الفكرة ليست غريبة عن الإسلام، لكن الصوفية توسعوا فيها فلم تعد " تقتصر على إلغاء الحرية و الاختيار " بل إن " المكتوب "، كما يسمي العامة " التوكل "، قد نفذ " في كل الأوساط المتعلمة و الجاهلة على السواء "، الأمر الذي أدى إلى ذلك الانحطاط الذي ضرب العلوم و الفنون و بالتالي الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، ابتداء من القرن الرابع عشر (54). و في هذا الجو من الانحطاط العام ظهرت ظاهرة أخرى تتمثل في ذلك العدد الهائل من الأشخاص الذين ادعوا " الشريفية " أو الانتماء إلى النسب النبوي. فقد دعم رؤساء الفرق الصوفية و رجالها

مراكزهم بادعاء النسب إلى الأسرة النبوية، فأصبحوا أشرافا في أعين الجماهير، الشيء الذي لم يفعله صوفية القرون السابقة للقرن الرابع عشر (55). و التصق وصف " سيدي " أو " سي" بهؤلاء الصوفية " الأشراف"، و ظلت الكلمة هذه متداولة خلال كل العهد التركي في الجزائر، بل و حتى العهد الاستعماري الفرنسي. كان مصدر ظاهرة الأشراف المغرب الأقصى، فمن هذا الأخير انتقلت إلى الجزائر لتنتشر في كل أرجائها و أصبحت الشريفية مصدر تبجيل و ثراء لصاحبها.

حاول سعد الله أن يقدم صورة عن الانحطاط الذي عرفته الجزائر ابتداء من القرن الخامس عشر، تتضمن عدد العلماء المنتجين في الجزائر خلال العهد التركي فوجد أن عددهم في القرن الرابع عشر يفوق عددهم خلال القرون الخامس عشر، السادس عشر والسابع عشر متفرقة. هذا بالإضافة إلى أن عددا كبيرا منهم كانوا يهاجرون إلى المغرب و المشرق مثل أحمد بن يحي الونشريسي و محمد بن عبد الكريم المغيلي و أبي الفضل محمد المشدالي و أحمد بوعصيدة البجائي و أحمد بن يونس القسنطيني و أبي زيان ناصر بن مزني البسكري و ابن سعد التلمساني، الذين لم يهاجروا " انزوى بعضهم مفضلا عيشة الزهد و الهروب من أدران الحياة ". و عرف الإنتاج الثقافي ركودا حتى أن " كثيرا من إنتاج القرن التاسع (الرابع عشر الميلادي) ظل موضوع عناية علماء القرون اللاحقة و التعليق عليه و تقليده و نحو ذلك " (56).

لم يجد الأتراك بُدا من التعامل مع الصوفية و الطرقية، و لم يجدوا صعوبة في ذلك، إذ لم تكن الحركة الصوفية غريبة عنهم، فقد لعب الدراويش دورا كبيرا في توسعات العثمانيين خاصة في منطقة الأناضول، و انتشرت الطريقة البكدشية في أوساط الانكشارية، حتى أن الدولة اضطرت إلى تشجيع طرق أخرى مثل المولوية والنقشبندية و القادرية لمواجهة البكدشية التي كانت أكثر تزمتا من غيرها (57).

كانت الطريقتان الرئيسيتان المتنازعتان في المغرب في القرن الخامس عشر هما القادرية و الشاذلية، الأولى نسبة لمؤسسها الشيخ محي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني المولود في جيل أو جيلان بالقرب من بغداد عام 1078 و المتوفي عام 1166 في هذه الأخيرة. و قد ظلت بغداد هي مقر الطريقة. بلغت هذه الأخيرة المغرب عن طريق مصر، حيث استقر ابن الشيخ ،إبراهيم. أهم ما تتصف به طريقة الجيلاني هو تسامحها تجاه الأديان الأخرى. يُعتقد أنها أم الطرق في الجزائر. أما الطريقة الشاذلية فهي نسبة إلى الشيخ أبي الحسن علي الشاذلي المتوفي سنة 1258 و المولود بقرية غمارة بالقرب من سبتة بالمغرب الأقصى. و هو تلميذ و خليفة الشيخ عبد السلام بن مشيش الذي تتلمذ هو بدوره على أبي مدين شعيب. هذا الأخير هو أقدم المتصوفة في الجزائر. لقد تفرعت عن الشاذلية طرق عديدة منها الدرقاوية

والشيخية و الزرقاوية و البكرية و الجزولية و الراشدية.(هذه الأخيرة نسبة لسيدي أحمد بن يوسف الملياني)، و غيرها كثير.

حول علاقة الأتراك بالطريقة القادرية في الجزائر يقول ألفريد بل : " إذا كانت المناطق الغربية من الشمال الإفريقي تحتوي خصوصا على زوايا الشاذلية، فإنه في القسم الذي كان يسيطر عليه الأتراك كانت السيادة للزوايا القادرية.و اعتمد الترك على جماعات هذه الطريقة القادرية، و كذلك على سائر زعماء الطرق الصوفية و الصوفية المحليين ... أما ميلهم إلى القادرية بصفة خاصة، فكانت له أسباب عديدة، أولها أن سلطان القسطنطينية و له يدين بالولاء ولاة الجزائر و تونس كان حاميا لهذه الطريقة الصوفية القادرية في الشرق و حتى ببغداد حيث كان مقر الطريقة الرئيسي. و من ناحية أخرى كانت زوايا هذه الطريقة في مراكش مخلصة، في القرن السادس عشر، لملوك بني وطاس "، و من جهة أخرى فإن " القرصنة في البحار و الصراع ضد الأسبان ظهر كنوع من الجهاد الديني في نظر الأتقياء و الصوفية "(58).

لم يكن الصراع بين الطريقتين الشاذلية و القادرية حادا في الجزائر كما كان الحال في المغرب. يصف الباحث المغربي عبد السلام المؤذن هذا الصراع في المغرب بقوله: " إن هذا الصراع السياسي الكبير، بين الزاوية الشاذلية و الزاوية القادرية الذي كان يبدو في الظاهر و كأنه مجرد صراع عرقي بين العرب و الأمازيغ،كان في الحقيقة يخفي خلافا اجتماعيا عميقا؛ فقد كانت الزاوية العربية (القادرية) بزعامة الأمازيغي محمد الشيخ، تعبر عن صعود طبقة الإقطاع المغربي، بينما كانت الزاوية الأمازيغية (الشاذلية) بزعامة العربي الإدريسي، تريد العودة بالتاريخ المغربي إلى الوراء، حيث أنها كانت تحنّ إلى إعادة خلق نظام سياسي - قبلي من نوع النظام القديم الذي أسسه إدريس الأول " (59). و قد انتهى هذا الصراع بين الزاويتين بانتصار الوطاسيين (الناصرين من القادرية)، و هزم الأدارسة (الناصرين من الشاذلية). و كان بنو وطاس يلقون الدعم من الأتراك في الجزائر. فكانت القادرية امتدادا لنفوذهم في المغرب، لهذا فقد كان وضع القادرية حرجا لما صعد " الأشراف " إلى سدة الحكم، بل إن الأشراف أحرجوا حتى السلطة التركية في الجزائر بتلك الهجمات التي قاموا بها مرات عديدة على الأراضي الجزائرية.

إذا كانت الطرق قد اتخذت مواقف سياسية في المغرب فإننا لا نلاحظ ذلك بقوة في الجزائر إلاَ في أواخر العهد التركي، مع الطريقة التيجانية و درقاوة.لقد تمكن الأتراك من الحصول على تعاطف حتى أتباع الشاذلية.فهذا سيدي أحمد بن يوسف الملياني الذي كان يتبع الطريقة الشاذلية يتحالف مع عروج ضد الأسبان و يدعو له بالنجاح. و منذ عروج والعلاقة حسنة بالملياني و ذريته و أتباعه الذين أنشأوا الطريقة الراشدية، فهذا خير الدين

يقدم هدية للشيخ، وهذه إمارة الحج ظلت في يد محمد بن مرزوقة، الابن الأكبر لسيدي أحمد، و ذريته.(60)

لا يفسر وقوف الطرقية و المرابطين إلى جانب الأتراك إلاّ بتلك الامتيازات التي كان يقدمها لهم الأتراك، و بتلك الحروب التي كانت قائمة مع الأسبان لمدة طويلة

الاحتلال الإسباني

جاء الاحتلال الإسباني لبعض السواحل الجزائرية في وقت كانت تعرف فيه الجزائر ضعفا عاما، منه الضعف العسكري الكبير، مقارنة بما بلغته أوربا في عصر نهضتها. يقول بروديل في هذا الشأن : " كان الضعف العسكري لمسلمي شمال إفريقيا بالمقارنة مع الأسبان، يتمثل في دونيتهم العسكرية المتميزة. كان باديا على العور (بمعنى المغاربة) أنهم لم يعرفوا التقدم التقني لفن الحرب. توضح القراءة السريعة للوثائق تلك الدونية التي سادت خلال القرن السادس عشر. فقد كان سكان المغرب يحاربون مثل رفقاء سيدي عقبة "، أسلحتهم المفضلة هي الخنجر، السيف، الحربة، الحجارة و الرماح، و لا يجيدون " بناء الحصون و لا اقتحامها "، و لقد " جعل الاستخفاف بالأسلحة " الخبيثة " من السور أعداء قليلي الخطورة"، لهذا فإن الأسبان، عند غزوهم سواحل المغرب، لم يتعرضوا إلاّ لـ " كوارث " نقص المؤونة و " مفاجآت الجبال و الليل و الفوضى التي تعقب الغزوات الفاجحة " (61).

لقد وصف فرديناند زافرا، كاتب الملكين الكاثوليكيين الإسبانيين، الذي كُلّف منذ 1492 بمراقبة عبور الأندلسيين إلى المغرب، الوضعية التي كان يعيشها المغرب، سنة 1494، بقوله : " إن البلاد كلها في حالة بحيث يبدو أن الرّب يريد أن يهبها لصاحبي الجلالة " و حثّ الملكين الإسبانيين على اغتنام الفرصة و احتلال المغرب.(62)

كان الضعف الذي يعانيه المغرب يتمثل أساسا في غياب الأسلحة النارية ،فلم تكن للمغاربة البنادق و المدفعية، و بالتالي لم تكن لهم التحصينات المضادة لهذه الأسلحة النارية. لم تصل الأسلحة النارية إلى المغرب إلا مع المهاجرين الأندلسيين الذين نقلوا معهم بعض البنادق القليلة، و مع الأتراك الذين كانوا يملكون منها الكثير، لهذا حقق الأسبان تلك الانتصارات الكبيرة قبل أن يواجههم الأتراك بنفس سلاحهم، خاصة المدفعية منه، و بالدعم الكبير للسكان الذين كانوا يرون فيهم المنقذين لهم.

كان الأسبان قد أرسلوا جواسيسهم إلى المغرب ابتداء من سنة 1493 .قام ليزكانو ولورنزو دي زافرا برحلات على سواحل المغرب الأقصى. و أقام لورونزو دي باديلا حاكم انتيكييرا، متنكرا في زي تاجر مغربي ،في تلمسان مدة سنة. هذا من جهة ،و من جهة أخرى و قبل الشروع

في الغزو،أنهى الأسبان خلافهم مع البرتغال،بخصوص مدينة مليلة، بواسطة معاهدة دور دي سلاس عام 1494، إذ أن مطالب الأسبان فيها لم تكن مطابقة للاتفاقات المبرمة مع البرتغال، و التي خصصت لهذه الأخيرة غزو مملكة فاس. بموجب الاتفاق الجديد تخلى البرتغال عن "حقوقه" في مليلة و غساسة القريبة منها، مقابل منع رعايا إسبانيا من الصيد جنوب بوجادور (على سواحل الصحراء الغربية اليوم) على سواحل المحيط الأطلسي، حيث النفوذ البرتغالي (63). و كان البرتغال قد احتل ما يقرب من أربعة مواقع في شمال المغرب الأقصى، في الفترة الممتدة من 1415 إلى 1471، بينما احتل قبل 1515 حوالي 7 مواقع أخرى في وسط و جنوب هذه البلاد.أما إسبانيا فلم تشرع في الغزو، في بلاد المغرب، إلاّ في أواخر القرن الخامس عشر، و ذلك باحتلال مدينة مليلة المغربية.

في سنة 1497 استولى القائد الإسباني، دوق مدينة سيدونيا، بواسطة الأسطول الذي كانت قطعه قد جُمعت في جبل طارق لإنجاز الرحلة الثانية لكريستوف كولب،مكتشف القارة الأمريكية عام 1492، استولى على مدينة مليلة، بعد أن أخلاها سكانها الذين فاجأهم الجنود الأسبان (64). لقد فرّ هؤلاء السكان إلى جبل بطوية المجاور و كانوا قد "طلبوا النجدة من ملك فاس الذي كان مشغولا بحرب ضد قبائل تامسنا، فأرسل إليهم كتيبة خفيفة"، و لما فروا من المدينة أحرق جنود الملك هذه الأخيرة "عقابا لأهلها و نكاية في المسيحيين" الأسبان.ما وقع في مليلة من احتلال وفرار للسكان وقع كذلك في غساسة، القرية الصغيرة القريبة منها (65).

احتلال المرسى الكبير و وهران

بعد احتلال الموقعين المغربيين، توقف الغزو الإسباني في سواحل المغرب لسببين؛ الأول هو المشاكل العائلية التي نجمت عن وفاة الملكة ايزابيلا، ملكة قشتالة وزوجة فرديناند ملك أرغونة، التي أوصت بتوسيع الاحتلال الإسباني ليشمل سواحل المغرب من مضيق جبل طارق إلى طرابلس؛ و الثاني هو جذب القارة الأمريكية المكتشفة حديثا لكل المغامرين و الباحثين عن الثروة و السلطة من النبلاء و من الجنود. هذا في مملكة قشتالة، أما في مملكة أرغونة فإن الملك و قسما هاما من السكان كان اهتمامهم منصبا على إيطاليا و على النزاع الذي كان يتطور في أوربا، أكثر من انصبابه على المغرب (66).على كل فقد استأنف الأسبان غزواتهم في سواحل المغرب بعد ثماني سنوات من احتلال الموقعين المذكورين، و ذلك بغزو المرسى الكبير.

كان المرسى الكبير ميناء هاما "يمكن أن ترسو فيه بسهولة مئات المراكب و السفن الحربية،في مأمن من كل عاصفة و إعصار" كما يقول الوزان (67).لكن الأسبان كان اختيارهم قد

وقع على مدينة هنين، الواقعة غرب المرسى، ثم على دلس، لأن نائب الملك في ميورقة كان يحتفظ بعلاقات مع بعض الأهالي في هذه المدينة الواقعة شرق مدينة الجزائر، غير أن الأسبان عدلوا عن الخيارين و فضلوا أخيرا المرسى الكبير كخطوة أولى في البلاد الجزائرية (68).لقد سقط المرسى الكبير بيدهم يوم 13 سبتمبر 1505.

في كتابه " مذكرات تاريخية "،الذي اعتمد فيه على المؤرخين الأسبان يسجل بيليسي دو رونو الفرنسي أن الأسطول الإسباني، الذي أرسل للاستيلاء على المرسى الكبير سار، بقيادة دون رايمون دي قرطبة، من مالقة يوم 29 أوت 1505، و هو يحمل خمسة آلاف رجل، ثم توقف في الربية، بسبب الرياح،فلم يصل المرسى إلاّ يوم 11 سبتمبر.كان هذا التأخر في صالح الأسبان لأن الكثير من المقاتلين الأهالي الذين جاءوا للدفاع عن المرسى، لما علموا بخبر الحملة، تفرقوا بعد أن طال انتظارهم. و هكذا لم يجد الأسبان في انتظارهم إلاّ عددا قليلا من هؤلاء المقاتلين.أما الحامية الزيانية في المرسى فلم تكن تتكون إلاّ من أربعمائة رجل فقط، قاوموا ببسالة إلى أن قُتل قائدهم فاستسلموا بعد ثلاثة أيام من الحصار الذي ضربه الأسبان عليهم. لكن ما إن أحكم الأسبان سيطرتهم على الموقع حتى جاءت قوات أهلية كبيرة. غير أن مجيئها كان بعد فوات الأوان، فانسحبت بعد مناوشات قليلة (69). كانت هذه القوات تتكون من حوالي 22 ألف مقاتل و ألفي فارس،منهم جيش ملك تلمسان (70). في 17 سبتمبر حاول فرسان وهران و تلمسان و هنين، الذين بلغ عددهم 1200،مصحوبين بحوالي 2500 إلى 3000 رجل من المشاة، منع تزود السفن الإسبانية بالماء،غير أنهم فشلوا. لقد كانوا تحت قيادة قائد يُدعى هليل (71).

أُخلي المرسى الكبير من سكانه الذين أعطاهم الأسبان مهلة ثلاثة أيام لمغادرته، و لم يسمحوا لهم إلا بأخذ ما خفّ من أمتعة، كما فرضوا عليهم تحرير عبيدهم من المسيحيين، قبل المغادرة.كان أغلب هؤلاء العبيد من البرتغاليين و البروفانسيين الذين ألقي عليهم القبض في حملة فاشلة تعود إلى سنة 1501، سيرها البرتغاليون ضد المرسى، و الباقي منهم كانوا إسبانا و فرنسيين و إيطاليين، بينهم سبع نسوة (72) كان مصدرهم القرصنة. من الإجراءات العاجلة التي اتخذها الأسبان تنظيم إدارة المدينة و تحويل مسجدها إلى كنيسة.

سعى الأسبان، منذ استيلائهم على المرسى لإقامة علاقات مع الأهالي حتى يحصلوا على المؤونة لقد وجدوا من يتعامل معهم مثل أمير تنس و غيره، و لكنهم وجدوا كذلك من يقف في وجههم من القبائل. منذ البداية أخذ الأسبان يقدمون الهدايا للذين يتعاملون معهم كما كانوا يخلعون عليهم برنوس القيادة (73).

هزّ احتلال الأسبان للمرسى عرش بني زيان المهلهل من قبل،فاغتنم الأمير الزياني يحي الفرصة و نهض ضد الملك أبي حمو الثالث، و سيطر على مدينة تنس سنة 1506، غير أن أبا حمو تمكن من ردّه عنها،إلاّ أن الدعم الإسباني مكن الأمير من إلحاق الهزيمة بالملك

و استعادة تنس. في هذه السنة التي انفجر فيها الصراع داخل عرش بني زيان سار قائد المرسى، دون دييغو فرناندز دي قرطبة إلى إسبانيا تاركا القيادة لدون رويز دي روكساس، الذي كان يخرج مع عساكره خارج المرسى ليصل أحيانا حتى إلى جدران مدينة وهران. لما عاد دون دييغو فيرناندز سنة 1507 نظم حملة على مسرغين انهزم فيها هزيمة نكراء لم يكن الأسبان يتوقعونها (74). لقد استعمل في حملة مسرغين هذه ذلك الجيش الذي جاء به من إسبانيا، والذي كان المفروض أن يستعمله في الاستيلاء على وهران.

في انتظار غزو وهران قرر دون دييغو فرناندز دي قرطبة (المركيز دي كوماريس ،بناء على معلومات قدمت له من طرف أهالي متعاونين مع الأسبان، الهجوم على دوار من دواوير قبيلة غمرة، الذي كان مخيما بالقرب من عين مسرغين، على بعد ثلاثة فراسخ من المرسى الكبير و على بعد حوالي فرسخين من وهران، على الطريق المؤدية إلى تلمسان في القدم الجنوبي لجبل جيزة. كان الهدف من الهجوم هو " تأديب" الأهالي الذين كانوا يقاومون الأسبان في المرسى وكذلك التموين باللحم مباشرة. خرج المركيز مع أغلب جيشه الذي جاء به من إسبانيا والبالغ عدد أفراده حوالي خمسة آلاف رجل و الكثير من الضباط و كذلك الفرسان، في ليلة 6 جوان في جنح الظلام. تسلق الجنود الجبل، و في فجر صباح يوم 7 جوان وصل الجيش الإسباني إلى الدوار الذي يقصده. قتل الهاجمون كل من دافع عن نفسه، و استولوا على عدد كبير من الأشخاص، من مختلف الأعمار، كما استولوا على قطعان الماشية. كان " النصر " كبيرا بحيث لم يُقتل إلاّ عدد قليل من الهاجمين. بعد ذلك أخذ الجيش الإسباني طريق العودة، دافعا أمامه قطعان الماشية و الأسرى المكبلين بعضهم لبعض. كان الضابط مارتان دي أرغوط يقود طليعة المسيرة المتكونة من القطعان والأسرى، و كان المركيز في المؤخرة ينشط الجنود الذين كانوا يواجهون الأهالي الناجين من الهجوم و الذين انضموا إليهم من تنسالت و الماء الأبيض. كانت المسيرة كبيرة بحيث صعب عليها السير في الطريق الذي سلكه الجيش من المرسى إلى مسرغين. لهذا أمر المركيز بالسير في طريق آخر ينعطف نحو وهران. على بعد فرسخين تقريبا من وهران وصل الخبر إلى هذه المدينة. فأسرع فرسان حاميتها و خلصوا القطيع من قبضة الأسبان. في الوقت الذي كان يسود فيه الضباب جاء أهالي آخرون من وهران وضواحيها، فأصبح الهاجمون حوالي سبعة آلاف فارس إضافة إلى عدد لا يحصى من المشاة. رغم أنهم لم يكونوا يملكون سوى العدد القليل من الأسلحة النارية، جاء بها أندلسيون من إسبانيا حديثا، إلاّ أن الضباب سمح لهم باستعمال سلاحهم الأبيض. حُوصر الأسبان فتخلوا عن أسراهم، فزاد حماس الأهالي الهاجمين. كل جنود الجيش الإسباني هلكوا إما قُتلوا أو جُرحوا أو أسروا، و لم ينج منهم إلا المركيز مع بعض جنوده، لا يتجاوز عددهم أصابع اليد(75). كانت الهزيمة كبيرة، لم يمح الأسبان آثارها إلا باحتلال وهران بعد ما يقرب من السنتين (18 ماي 1509).

لقد ارتبط اسم وهران باسم الراهب الفرنسيسكاني، الكاردينال خمينيس، الذي كان من أكبر المحرضين على احتلال المرسى الكبير. " كان هذا الوزير المسن، رغم المعارضة التي لقيها من طرف مجلس الوزراء، و رغم أن إسبانيا كلها استخفت بمشاركة الراهب الهرم في ثوب الكاردينال، فقد أصر على أن يقود الحملة بنفسه ضد وهران و وصل لهذا الغرض إلى المرسى الكبير... و بدأ يعد العدة لمحاصرة وهران و غزوها ".(76).

انطلقت حملة الأسبان على وهران، التي حضرها هذا الكاردينال أسقف طليطلة، يوم 16 ماي، و كان يشارك فيها 15 ألف جندي ، يقودهم بيدرو نافارو. بلغت المرسى الكبير يوم 17 ماي 1509 أين انضمت إليها قوات الحامية الإسبانية هناك (77). سار الجيش نحو وهران و كان يتقدمه الكاردينال و رهبانه يرفعون الصليب " غير أن الضباط الأسبان وجدوا أن بقاءه في القدمة مع رهبانه يعيق القوات المسلحة أكثر مما يساعدها على أداء مهمتها "، و لم يتمكن بيدرو نافارو من إقناعه بالتخلي عن المقدمة إلاّ بمشقة، فعاد إلى المرسى و انشغل بـ " الأناشيد الدينية ريثما يتم فتح وهران " (78).

احتل الأسبان المرتفعات و أخضعوا المدينة لقصف مكثف، في الوقت الذي كان فيه الجنود يحاولون اقتحام الحصون، و اضطر المقاومون، أمام الأعداد الكبيرة من الجنود الأسبان، إلى العودة إلى داخل المدينة للاحتماء بحصونها و أسوارها. كان عملاء الأسبان، الذين دخلوا المدينة منذ مدة، يزرعون الشكوك و البلبلة، و يضرمون النار في أماكن مختلفة لإيهام الناس بأن العدو موجود بعدُ في المدينة و لا أمل في مقاومته (79).

تتفق كل الروايات على أن يهوديا اسمه سطورة، هو الذي نظم عملية فتح باب المدينة ليتمكن الأسبان من الدخول. أطلق الأهالي على القلعة التي تحمي مدخل المدينة اسم " برج اليهودي "، لهذا السبب، أما الأسبان فقد سموها " برج القديس جريجوار ". بعد أن تمكن الأسبان من المدينة جاء الكاردينال الذي " لم يعرف أي عمل يستدعي سرعة التنفيذ غير اتخاذ تدابير تدل على عنصريته و تعصبه. فقد حول الجامعين الرئيسيين إلى كنيستين، و أنشأ ديرين لتنصير المسلمين و نصب مفتشا لمتابعة اليهود و الزنادقة " (80). و تشير الروايات إلى أن الأسبان قتلوا حوالي أربعة آلاف من سكان المدينة و أسروا حوالي ثمانية آلاف آخرين، تحت إشراف هذا الكاردينال، كما حرروا ما يقرب من 300 أسير مسيحي، من أسرى معركة مسرغين و أسرى القراصنة الذين كانوا في المدينة، كما أنشأوا مستشفى لعلاج جرحاهم.

كان احتلال وهران ضربة كبيرة لمملكة بني زيان، فقد خسرت نتيجة له مدينة تجارية هامة، كما كان للوجود الإسباني في وهران أثر على علاقات هذه المملكة بالقبائل المجاورة للمدينة، فقد تمكن الأسبان من استمالة بعضها مثل قبيلة بني عامر الكبيرة التي انحازت إلى جانبهم و ظلت كذلك إلى غاية سقوط سلطتهم في القرن الثامن عشر. لقد أصبحت

وهران قاعدة انطلاق الأسبان لاحتلال مواقع أخرى على سواحل المغرب، إذ بعد سنة واحدة احتلوا مدن بجاية، عنابة و طرابلس.

كل المغرب تأثر باحتلال الأسبان للمرسى و وهران، حتى بنو حفص تحركوا لأجل طردهم من وهران. يذكر أبو علي إبراهيم المريني أن السلطان عبد العزيز سلطان بجاية، وبالتنسيق مع عاهل تونس، قد قرر تقديم الإغاثة لأهالي وهران مساعدة لهم على طرد الغزاة بعد أن طلب الإمدادات من قادة كل المدن، انفجرت الحرب بينه و بين أخيه أبي بكر، والي قسنطينة، فلم يتمكن من السير بنفسه على رأس قوات النجدة. عين ابنه أبا فارس على رأس تلك القوات التي تتجه إلى وهران عن طريق البر، بينما عين وزيره محمد بن عبد الله الكناني وإبراهيم بن يونس على رأس القوات التي تتجه إليها بحرا، غير أن الأسبان علموا بقدوم هذه القوات فقطعوا طريق البحرية منها بواسطة سفنهم و تمكنوا من إلحاق الهزيمة بها و قتلوا العديد من الجنود البجاويين (81). لكن المريني لا يشير إلى مصير القوات البرية، كما أن السنة التي يذكرها هي سنة 912 هـ (1506 - 1507)، و هي سنة سابقة على احتلال الأسبان لوهران، لهذا نعتقد أن الأمر يتعلق باحتلال المرسى الكبير لا بوهران. لم يحاول سلطان بجاية مرة أخرى لأن ظروفه الداخلية كانت صعبة، إذ تواصلت الحرب بينه و بين أخيه إلى أن احتل الأسبان بجاية نفسها سنة 1510.

احتلال بجاية

انطلق الأسطول الإسباني الموجه ضد بجاية، بقيادة بيدرو نافارو، من المرسى الكبير، يوم 30 نوفمبر 1509، متجها إلى جزر الباليار، حتى يستطيع تحقيق المفاجأة. قضى شهر ديسمبر هناك، حيث جاءه المدد من إسبانيا، و في أول جانفي 1510 انطلق بيدرو نافارو بأسطوله من جديد نحو بجاية التي وصلها يوم 5 جانفي (82). تختلف الروايات في عدد الجنود الذين كانوا على متن السفن الإسبانية فهناك مصادر تذكر عشرة آلاف و هناك أخرى تذكر 15 ألفا. غير أن رسالة الملك فرديناند الكاثوليكي، إلى بيدرو نافارو، المؤرخة شهر ماي 1510 تتكلم عن تموين 8 آلاف جندي في بجاية فقط (83).

تذكر بعض الروايات أن الأسبان احتلوا المدينة يوم 5 جانفي دون مقاومة تذكر من سكانها. هذا ما ذهب إليه الوزان الذي أكد أن سكان بجاية " فروا جميعا إلى الجبال، و على رأسهم الملك، حاملين معهم كل ما يملكون دون أن يمتشقوا حساما "(84) هذه الروايات تتعارض مع رواية الشيخ أبي علي إبراهيم المريني. يذكر هذا الأخير أن الملك (السلطان عبد العزيز) كان في قسنطينة، في إطار الصراع مع أخيه أبي بكر والي هذه المدينة، لما وصله خبر نزول الأسبان في بجاية، فأرسل ابنه أبا فارس ليجمع كل فرق المقاتلين في البلاد لدفع الغزاة عن المدينة. أما

في بجاية، فإن الأسبان لما نزلوا و عسكروا أسفل ضريح الشيخ السبوكي، أرسلوا إلى وزير الملك و ابن الملك يطلبون منهما الاستسلام، فرفضا و استعدا للدفاع عن المدينة التي ظل الأسبان يقصفونها بمدافعهم مدة عشرة أيام (85).

جاء الأمير أبو فارس إلى بجاية، مع محاربين جاءوا من كل حدب و صوب مثل العرب و سدويكش (في شمال غرب قسنطينة) و عسكر الجميع في الحدائق . أخذ المرابطون و رجال الدين يحثون الناس على القتال.انقسم المقاتلون إلى مجموعتين؛ مجموعة تسلقت الجبل و مجموعة ركبت الزوارق، و خرج ولدا السلطان، وهما أبو فارس و أبو عبد الله، من باب سنّات و باب أمسيوين فقادا المجموعتين في هجومين متزامنين بحرا و برا، غير أن الهجومين مُنيا بالفشل. بلغ المقاومون التل الذي يفصل حي سيدي عيسى (و هو الحي الذي كان يقطنه الأندلسيون الفارون من شبه جزيرة إيبريا) عن المدينة غير أن الأسبان ردوهم على أعقابهم إلى غاية أسوار المدينة.استنادا إلى أقوال أبي محمد عثمان التليلي،إمام المسجد الكبير، يذكر المريني أن عدد الضحايا في هذا اليوم بلغ 4500 فردا، منهم ولدا السلطان عبد العزيز ورجال دين و مرابطون و أندلسيون (86).

لما وصلت الأخبار إلى السلطان عبد العزيز بقسنطينة أرسل ما تبقى لديه من قوات إلى جانب مقاتلين من العرب و القبائليين. كما سارع أخوه أبو بكر،الذي لجأ إلى بلزمة، بعد أن فقد قسنطينة، إلى بجاية،هو كذلك بما له من قوات و قاتل " قتال الأسد ". حاول منع السكان من مغادرة المدينة، غير أن الخلافات بين قوات عبد العزيز و قواته منحت الفرصة للأسبان للولوج إلى شوارع المدينة ثم احتلالها بعد ذلك (87).

يتفق المؤرخون في أن الأسبان دخلوا المدينة من أعاليها (بعد أن تسلقوا جبل غورايا ومن أسفلها. و كان السكان قد غادروها منذ أن لاحظوا أن الأسبان استولوا على قمة الجبل. من بين الذين غادروها الشيخ ناصر المريني، رئيس وزراء الملك عبد العزيز، و قد رافقته عائلة الملك إلى جبل بني عبد الجبار (على الضفة اليمنى من وادي الصومام). من بين الذين نجوا من قبضة الأسبان نذكر أبناء الأمير إبراهيم (الموفوق، الصالح، حملاوي) الذي كان قد قتله ابن عمه الملك عبد العزيز، وكان الأمير أبو بكر، والي قسنطينة قد حرر هؤلاء الاخوة من سجنهم، ليقفوا إلى جانبه. انسحب أبو بكر إلى قصر النجمة (برج موسى في العهد التركي)، و بعد مقتل العديد من جنوده لاذ بالفرار. توجه قسم من السكان إلى الجبال الواقعة جهة جيجل و قسم آخر نزح إلى قبائل الزواوة، و من هؤلاء نجد كل الذين اشتغلوا بدار العملة،لأنهم خافوا من بطش أبي بكر بهم لأنهم كانوا قد رفضوا ضرب العملة باسمه، وقسم ثالث نزح إلى بني يعلى شرق جبل فرقان (88).

بعد أن سيطر الأسبان على المدينة دعوا سكانها للعودة إليها بشرط دفع تكاليف الحرب و دفع ضريبة بانتظام و التكفل بمؤونة الحامية. لقد عاث الأسبان فسادا في المدينة. و كما يذكر المريني فقد شحنوا، على متن 30 مركبا، كل ما أخذوه من بجاية، سواء من قصور الملك أو من مساجد المدينة أو من قصر اللؤلؤة و قصر النجمة. لكن ما إن خرجت المراكب من ميناء بجاية حتى جاءت عاصفة أغرقت غالبيتها بما تحمله من نفائس بجاية (89).

نظم الأمير أبو بكر المقاومة، فولى الموفوق بن إبراهيم قيادة جبال كتامة و مراقبة تحركات الأسبان من زيامة، و كلف وزيره إبراهيم بن يونس قيادة الفرق المكلفة بمراقبة جوانب مدينة بجاية. لما أكمل ترتيباته علم أن أخاه الملك عبد العزيز قد خرج من قسنطينة نحو بجاية فاعترض طريقه و قتله في تكركات (بين سطيف و بجاية). حل العباس محل أبيه الملك عبد العزيز، أما أبو بكر فقد سار إلى قسنطينة أين اغتال يوسف بن محمد نعماني وزير عبد العزيز، كما فتك بالعرب الذين كانوا يساندون هذا الأخير، و أرسل بقسم من قواته إلى بسكرة لمراقبة تحركات العرب الدواودة (90).

كانت جبهات صراعات أبي بكر متعددة، بالإضافة إلى صراعه مع ولدي عبد العزيز (العباس و عبد الرحمان) و الأسبان، كان عليه أن يواجه قوات السلطان الحفصي في ولايته.

بعد أن احتل الأسبان بجاية و سيطروا عليها، احتلوا عنابة في نفس السنة (1510)، فسلبوا و نهبوا ثم تركوا بها حامية. وجه أبو بكر قائده الوفوق نحو عنابة و تمكن هذا الأخير من طرد الأسبان منها حوالي سنة 1513، غير أن قوات حفصية أرسلها السلطان أبو عبد الله محمد من تونس، تمكنت من استعادة المدينة، في الوقت الذي كان فيه الموفوق يواجه قوات حفصية أخرى في تبسة و ميلة (91). هذه الصراعات بين الحفصيين هي التي أضعفت سلطتهم بقسنطينة حتى أن الأتراك لم يجدوا صعوبة في ضمها إلى حكمهم فيما بعد.

نزح العباس بن عبد العزيز إلى قلعة ونوغة، و حاول أبو بكر أن يقضي عليه هناك إلا أنه فشل في محاولته. دخل العباس، حسب المريني، في اتصالات مع الأسبان للاعتراف به ملكا، و كان الوسيط بينه و بينهم هو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن القاضي الغبريني، و هو رجل مثقف في كل العلوم (92). في الحقيقة كان العباس مرفوقا بأخيه عبد الرحمان، و هذا الأخير هو الذي وقع معه الأسبان معاهدة في أواخر سنة 1511، و قد اعترفوا له بالسيادة في مملكة بجاية القديمة باستثناء النواحي الساحلية التي تمسكوا بها، كما اعترفوا لأحد أمراء بجاية، و هو مولاي عبد الله، بالسيادة على ضواحي المدينة (93).

ليست قلعة ونوغة التي ذكرها المريني سوى قلعة بني عباس. يبدو أنها أخذت اسمها من العباس بن عبد العزيز. لقد اختُلف في تاريخ بنائها، إذ يعيدها البعض إلى الحماديين، بعد رحيلهم من قلعتهم في السهول العليا، بفعل الضغوط التي مارستها القبائل العربية عليهم في القرن الحادي عشر، لكن أغلب الظن أن القلعة كانت قد بُنيت ثم أعيد بناؤها من طرف أميري بجاية، اللذين جعلا منها عاصمة لإمارة بني عباس التي امتد نفوذها من جنوب جرجرة إلى

الحصنة. لقد ظلت القلعة عاصمة هذه الأمارة إلى غاية بداية القرن السابع عشر حين نقلت العاصمة إلى مجانة. رغم ضغوط الأتراك فإن الإمارة ظلت قائمة إلى أن انتفض القراني على الفرنسيين سنة 1871 (94).

يبدو أن الوسيط بين العباس و الأسبان، الذي ذكره المريني هو ابن ذلك الذي تنسب إليه مملكة كوكو، أحمد بن القاضي. يُنسب أولاد القاضي إلى أبي العباس القاضي الذي اشتغل بالقضاء في بجاية، في عهد السلطان أبي البقاء الذي قتله في مطلع القرن الرابع عشر بتهمة تدبير مؤامرة لاغتياله. و لأن أبا العباس من قبيلة أولاد غبري، في جرجرة، فإن عائلته انتقلت من بجاية إلى أوريـر لدى هذه القبيلة. عند سقوط بجاية بيد الأسبان استغل أحمد ولد القاضي الفراغ السياسي في جبال جرجرة و أنشأ المملكة التي عرفت باسم مملكة أولاد القاضي أو باسم مملكة كوكو، نسبة لعاصمتها (95). و يبدو أن المحرك الأساسي في جمع السكان حولها هو رفع لواء مقاومة الأسبان. كانت كوكو قرية من قرى بني يعلى (96). لقد عاشت مملكة أولاد القاضي عشرات السنين في صراع إما مع الأسبان أو مع الأتراك أو مع أمراء بني عباس، لكن نفوذها لم يتجاوز منطقة بلاد القبائل الجبلية.

توسع نفوذ الأسبان

لم يقتصر نفوذ الأسبان على المدن التي سيطروا عليها بالقوة فحسب، بل امتدّ ليشمل كل المدن الساحلية الجزائرية تقريبا. فقد دان لهم أمير تنس منذ 1506، كما رأينا سابقا، بل إن هذا الأمير قد نزح إلى إسبانيا مع عائلته و اعتنق المسيحية، فعُمّد في مدريد و سمي باسم كارلوس، و اتخذت زوجته اسم دونا مايور أما ابنته فسماها دونا جوانا. (97). هذا ما فعله كذلك ابن عبد الله، ملك ضواحي بجاية. فقد قدم هذا الابن رهينة لدى الأسبان لضمان تنفيذ الاتفاقية المبرمة معهم، إلاّ انه تنصّر و أطلق على نفسه اسما مسيحيا هو دون فرناندو، ثم انتقل إلى إسبانيا أين التحقت به أختاه، إحداهما أصبحت من حاشية نائب الملك في الباليار (98).

لما علم سكان مدينة الجزائر بسقوط بجاية في يد الأسبان سارعوا إلى إرسال وفد عنهم إلى بجاية ليعلن استسلام مدينتهم و شيوخ المتيجة و الساحل للمحتلين. في 31 جانفي وقع مندوبون عن المدينة وثيقة الاستسلام التي يعترفون فيها بالسيادة الإسبانية و يقدمون الرهائن ويطلقون سراح العبيد المسيحيين الذين هم في مدينة الجزائر. اشترط الأسبان أن يسير قائد مدينة الجزائر، سالم التومي، شيخ الثعالبة بنفسه إلى بورغوس، في إسبانيا، لتقديم التهاني شخصيا للعاهل الإسباني. لقد انتقل سالم التومي إلى إسبانيا، رفقة أمير تنس. كان القائدان محملين بالهدايا الغنية يتبعهما حوالي 130 عبدا من العبيد المسيحيين المحررين. لقد أنشأ

الأسبان حصنا حصينا (حصن البنيون) على إحدى الجزر الصغيرة القابلة لمدينة الجزائر ،لضمان وصول الضريبة و مراقبة مدينة الجزائر (99) و منع القراصنة من الخروج إلى البحر.كانت قنائف هذا الحصن " تصل إلى اليابسة،بل و تمر فوقها (فوق مدينة الجزائر) من سور إلى سور " كما يقول الوزان (100).على درب مدينة الجزائر سارت دلس و شرشال.

في 26 ماي وقعت مستغانم مع الإسبان معاهدة نصت بصفة خاصة على أن أهل مستغانم و مزغران يلتزمون بدفع الضرائب و المكوس،التي كانوا يدفعونها لتلمسان إلى الإسبان، ويطلقون سراح العبيد المسيحيين الذين هم بحوزتهم، كما يلتزمون بتسليم العبيد المسيحيين الذين يفرون إليهم للأسبان، و يلتزمون بتموين وهران و المرسى الكبير، و يتعهدون بعدم شحن أو تفريغ السفن إلاّ بإذن الإسبان، و يسمحون لهم باحتلال القلاع و الحصون الموجودة في المدينتين و بتشييد أخرى،إن أرادوا. مقابل هذه الالتزامات يحمي الأسبان مستغانم ومزغران من أي عدوان داخلي أو خارجي، و يحفظون للمرابطين و الفقهاء و آخرين الامتيازات، التي كانت لهم على ملك تلمسان، لمدة خمس سنوات (101).حتى تلمسان التحقت بهذه المدن و عقد ملكها تحالفا مع الأسبان سنة 1511، أصبحت بموجبه تحت الحماية الإسبانية.

هوامش المدخل

(1) انظر :

L. Charles FERAUD. Les Ben Djellab. Sultans de Tougourt. Revue Africaine. N.23 (1879).. pp. 167 - 169..

(ل.شارل فيرو.بنو جلاب،سلاطين تقرت.المجلة الإفريقية عدد 23 (1879). ص 167 169)

(2) الحسن بن محمد الوزان الفاسي (ليون الإفريقي).وصف إفريقيا.ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر.الطبعة الثانية.دار المغرب الإسلامي.بيروت 1983.الجزء الثاني.ص 135 و 136. القصر هو قرية أو واحة في الجنوب الجزائري.

(3) فيرو. المرجع السابق. ص.162.

(4) الوزان.المرجع السابق.الجزء الثاني. ص 136 و 137.

(5) الشيخ أبو علي إبراهيم المريني.عنوان الأخبار فيما مرّ على بجاية. انظر :

L. Charles FERAUD.Conquête de Bougie par les Espagnols d'après un manuscrit arabe.. Revue Africaine . N.12 (1868). pp.248 et 249..

(ل.شارل فيرو.غزو بجاية من طرف الأسبان حسب مخطوط عربي.المجلة الإفريقية عدد 12 (1868) ص.248 و 249).

(6) الوزان.المرجع السابق.الجزء الثاني. ص 28.

(7) نفسه.ص 52.

(8) نفسه.ص 54.

(9) نفسه.ص.30.

(10) عز الدين أحمد موسى.النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري.دار الشروق.بيروت 1983. ص 95.

(11) روجي لي تورنو.حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر.ترجمة أمين الطيبي.الدار العربية للكتاب. ليبيا - تونس 1982. ص 84 و 85.

(12) الوزان. المرجع السابق.الجزء الأول. ص 56.

(13) نفسه.الجزء الثاني. ص 135 -137.

(14) فيرو. بنو جلاب. المرجع السابق ص .265.

(15) الوزان. المرجع السابق الجزء الثاني. ص 140.

(16) فيرو.بنو جلاب.المرجع السابق.عدد 26.ص 255 - 265.

(17) الوزان.المرجع السابق.الجزء الثاني. ص.140.

(18) نفسه.ص 409.

(19) L. Charles FERAUD. Ain Beida. Revue africaine. N.16 (1872) pp. 408.

(ل.شارل فيرو.عين البيضاء.المجلة الإفريقية. عدد16 (1872) ص 408).(20) نفسه. ص .409

(21) الوزان. المرجع السابق. الجزء الأول.ص 51 و الجزء الثاني ص 52.

(22) نفسه.ج 1 ص 56.

(23) نفسه ص 52

(24) Fernand BRAUDEL. Les Espagnols et l'Afrique du Nord de 1492 à 1577. Revue Africaine N.69 (1928).pp.196 et 197.

(فيرناند بروديل.الإسبان و شمال إفريقيا من 1492 إلى 1577.المجلة الإفريقية عدد69، 1928 ص 196 و 197).

(25) الوزان. المرجع السابق الجزء الثاني ص 9 و 15 و 30.

(26) عبد القادر حليمي.مدينة الجزائر،نشأتها و تطورها،قبل 1830 المطبعة العربية.الجزائر 1972 ص 217

(27) هاينريش فون مالتسان.ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا. ترجمة أبو العيد دودو.الشركة الوطنية للنشر و التوزيع. الجزائر 1980. الجزء الثاني. ص 112.

(28) نفسه.ص 123.

(29) الوزان. المرجع السابق.الجزء الثاني ص 54 و 55.

(30) Fray Diègo de HAEDO.Histoire des Rois d'Alger.Traduit et annotée par H.D.de GRAMONT. Revue Africaine N.24 (1880) pp.55 .

(فراي دييغو دو هايدو.تاريخ ملوك مدينة الجزائر.ترجمة و تعليق هـ.د.دو غرامون. المجلة الإفريقية عدد 24 (1880) ص 55).

(31) الوزان .المرجع السابق. الجزء الثاني. ص 55.

(32) نفسه.ص 62.

(33) نفسه.ص 9 و 15.

(34) مالتسان. المرجع السابق الجزء الثاني. ص 113 و 114.

(35) نفسه.ص 56.

(36) نفسه.الجزء الثالث. ص 33.

(37) الوزان.المرجع السابق. الجزء الثاني.ص 34.

(38) بروديل.المرجع السابق ص 207.

(39) شارل أندري جوليان.تاريخ إفريقيا الشمالية.من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830.تعريب محمد مزالي و البشير بن سلامة.الدار التونسية للنشر و الشركة الوطنية للنشر التوزيع 1978. ص322

(40) الوزان.المرجع السابق الجزء الثاني ص 38.

(41) المريني. المرجع السابق ص 249 و 250.

(42) الوزان. المرجع السابق الجزء الثاني.ص 50.

(43) جوليان.المرجع السابق ص 322.

(44) الوزان. المرجع السابق الجزء الثاني.ص 30.

(45) جوليان.المرجع السابق.

(46) جون ب. وولف.الجزائر و أوربا.ترجمة و تعليق أبو القاسم سعد الله.المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986. ص 25.

(47) بروديل. المرجع السابق ص 206.

(48) ألفرد بل.الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي،من الفتح العربي حتى اليوم.ترجمة عبد الرحمان بدوي دار الغرب الإسلامي.بيروت 1981.ص 394.

(49) بروديل. المرجع السابق ص 218.

(50) بل. المرجع السابق ص 401 و 402.
(51) بروديل. المرجع السابق.ص 219 و 220.
(52) وولف.المرجع السابق ص 27.
(53) بل.المرجع السابق ص 402 -408.
(54) نفسه ص 409.
(55) نفسه ص 423.
(56) أبو القاسم سعد الله.تاريخ الجزائر الثقافي.المؤسسة الوطنية للكتاب.الجزائر 1985.الجزء الأول ص 27 و 32 و 33.
(57) نفسه.ص 423.
(58) بل.المرجع السابق ص 430.
(59) عبد السلام المونن.الدولة المغربية.عيون المقالات.الدار البيضاء.1990. ص 18.
(60) محمد حاج صادق.مليانة و وليها أحمد بن يوسف.ديوان المطبوعات الجامعية.الجزائر1989 ص 103 – 105
(61) بروديل.المرجع السابق ص 212 و 216 و 217.
(62) انظر. نفسه ص 211 و 212.
(63) نفسه. ص 222.
(64) نفسه.
(65) الوزان المرجع السابق الجزء الأول.ص 341 و 342.
(66) وولف.المرجع السابق ص 25 و 26.
(67) الوزان. المرجع السابق.الجزء الثاني ص 31.
(68) (.C.X. de SANDOVAL. Les inscriptions d'Oran et Mers – El- Kebir. Revue Africaine. N.15 1871) p.178)
(س.أيكس.دو ساندوفال.تسجيلات وهران و المرسى الكبير.المجلة الإفريقية.عدد15(1871) ص 178)
(69) انظر . SUAREZ .Mers – El – Kebir.Traduction de A.BERBRUGGR Revue Africaine. N9 (1865).P 339
(سواريز.المرسى الكبير.ترجمة أ بيربروجير المجلة الإفريقية. عدد 9 (1865).ص 339)
(70) أحمد توفيق المدني.حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا.الطبعة الثانية.المؤسسة الوطنية للكتاب.الجزائر 1984. ص 100.
(71) دو سندوفال.المرجع السابق ص 180.
(72) سواريز.المرجع السابق.ص 342 و 343.
(73) Jean CAZENAVE.Les Gouverneurs d'Oran pendant l'occupation espagnole de cette .ville.Revue Africaine N° 71 (1930)
(جون كازيناف.حكام وهران خلال الاحتلال الإسباني لهذه المدينة.المجلة الإفريقية. عدد 71(1930) ص 277).
(74) دو سندوفال. المرجع السابق.ص 181.
(75).سواريز. المرجع السابق ص 410 – 417.
(76) مالتسان.المرجع السابق الجزء الثاني.ص 27 و 28.
(77) المدني.المرجع السابق ص 110.

(78) مالتسان. المرجع السابق الجزء الثاني.ص 28.
(79) Mouloud GAID.L'Algérie sous les Turcs. Ed. Mimouni.Algr 1991.P.27. و المدني.ص 110
(80) مالتسان.المرجع السابق .الجزء الثاني.ص 29.
(81) المريني.المرجع السابق ص 250.
(82) المدني.المرجع السابق ص 120.
(83) انظر :
Elie de PRIMAUDIE.Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole . en Afrique (1506 - 1574).Revue Africaine N. 19 (1875).p. 6.
(ايلي دو بريموداي.الوثائق الكاملة حول الاحتلال الإسباني في إفريقيا (1506 - 1574). المجلة الإفريقية.عدد 19 (1875). ص 69)
(84) الوزان.الجزء الثاني.المرجع السابق ص 51.
(85) المريني.المرجع السابق ص 249 - 252.
(86) نفسه. ص253 - 254.
(87) نفسه.ص254 - 255.
(88) نفسه. ص 255 - 256.
(89) نفسه. ص 342 و 347.
(90) نفسه. ص 337 - 338.
(91) H'sen DERDOUR. Annaba t.2 SNED.Alger 1983. P.11
(حسن دردور. عنابة. الشركة الوطنية للنشر و التوزيع. الجزائر 1983 ص 11).
(92) المريني.المرجع السابق ص 340 - 342.
(93) Youssef BENOUDJIT.La Kalaa des Béni Abbas au XVI e siècle.Dahlab.Alger 1997 pp.134 et 135.
(يوسف بنوجيت.قلعة بني عباس خلال القرن السادس عشر.دحلب.الجزائر 1997.ص 134 و 135)
(94) بخصوص إمارة بني عباس،راجع كتاب : قلعة بني عباس خلال القرن السادس عشر.
(95) Tahar OUSSEDIK. Le Royaume de Koukou. ENAL. Alger 1986.p. 107.
(الطاهر أوصديق.مملكة كوكو.المؤسسة الوطنية للكتاب.الجزائر 1986.ص 107.)
(96) N. ROBIN. Note sur l'organisation militaire et administrative des Turcs dans la Grande ,Kabylie Revue Africaine. N. 17 (1873) pp.132 et133
(ن.روبان.مذكرة حول التنظيم العسكري و الإداري للأتراك في القبائل الكبرى. المجلة الإفريقية عدد 17 (1873).ص 132 و 133.
(97) دو ساندوفال. المرجع السابق ص 278.
(98) بنوجيت.المرجع السابق ص 135.
(99) Albert DEVOULX. Alger. Etude archéologique et topografique sur cette ville. Revue Africaine. N. 20 (1876).p. 66
(ألبير دوفولكس.الجزائر.دراسة أركيولوجية و طبوغرافية حول هذه المدينة.المجلة الإفريقية.عدد 20 (1876). ص 66).
(100) الوزان. المرجع السابق.الجزء الثاني. ص 38.
(101) انظر نص المعاهدة في : بريموداي. المرجع السابق ص 73 - 75.

القسم الأول :

التطور السياسي (1514-1830)

الفصل الأول:

نشأة إيالة الجزائر

دور عـــروج

تزامن الوجود الإسباني في سواحل المغرب مع انتقال قراصنة من المشرق إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط.كان عروج من أكبر هؤلاء القراصنة،الذين سوف يربطون معظم المغرب بالإمبراطورية العثمانية،لمدة تقرب من الثلاثة قرون.

تتفق الروايات في انتماء عروج لأسرة فقيرة من جزيرة ميتيلين،الواقعة بالقرب من السواحل الغربية لآسيا الصغرى.لكن هذه الروايات تختلف حول هذه الأسرة فمنها ما تشير إلى أنها مسيحية و منها ما تذكر أن والد عروج كان جنديا إنكشاريا في الجيش العثماني،تزوج من ابنة قسيس أرثوذكسي يوناني.ربّى أولاده الذكور على الإسلام، في حين نشأت بناته على المسيحية.

لقد وقع عروج الشاب في أيدي فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يسيطرون على جزيرة رودس (1)،فاستعملوه على متن سفنهم،و بعد أن أطلقوا سراحه مقابل فدية،أو تمكن من الفرار،استعمله و أخوته أمير مصري على متن سفنه كقراصنة يغيرون على التجار من المسيحيين.لقد أظهر عروج، و هو كبير اخوته القراصنة (خير الدين،إسحاق و الياس)،مقدرة كبيرة خلال عمله على متن سفن القراصنة،فعين قائدا لسفينة من سفنهم.لم يكن عروج قرصانا فقط بل كان يخوض حربا ثأرية ضد فرسان القديس يوحنا الذين كانوا قد استرقوه(2) في إطار نشاط القرصنة،انتقل عروج و رفاقه إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط ،في أوائل القرن السادس عشر،أين عملوا على تنشيط القرصنة.

في ربيع سنة 1504،أي قبل أن يحتل الأسبان المرسى الكبير،حصل عروج على حق الإرساء في الموانئ الحفصية و التمون منها.من تلك الموانئ،شرع في أعمال القرصنة،في سواحل أوربا الجنوبية عامة و سواحل صقلية و جنوب إيطاليا خاصة،كما شارك في نقل المسلمين الفارين من شبه الجزيرة الإيبرية.من غنائمه الأولى،في الحوض الغربي للبحر المتوسط سفينتان من سفن البابا جول الثاني،استولى عليهما في جزيرة ألبا،و سفينة إسبانية،استولى عليها و على متنها عدد كبير من الجنود و النبلاء،فكانت فديتهم ضخمة.لقد أكسبته عمليات القرصنة شهرة كبيرة في تونس،خاصة وأنها جاءت في وقت أصبحت فيه سواحل المغرب

مهددة من الأسبان.كما مكنته أعمال القرصنة هذه من أن يكوّن أسطولا بلغ عدد قطعه سنة 1509 حوالي ثماني قطع(3).هذا بالإضافة إلى سفن أخرى كان يقودها قراصنة آخرون جاءوا بدورهم إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط،و انضموا إليه.

لعل أول اتصال لعروج بالجزائر كان سنة 1512،حين طلب منه أهالي بجاية مساعدتهم على طرد الأسبان و استعادة مدينتهم المحتلة منذ عامين.هذه الدعوة سوف تُحدث منعرجا كبيرا في حياة عروج و رفاقه القراصنه،كما سوف تحدث منعرجا كبيرا في التطور السياسي للجزائر و المغرب.

اختلف المؤرخون كثيرا في الشخصية التي وجهت الدعوة لعروج،و هذا الاختلاف نجده في كل أحداث بجاية،في أوائل القرن السادس عشر. منهم من يشير إلى السلطان الحفصي في تونس،و منهم من يتكلم عن الوالي أو السلطان المطرود من بجاية و منهم من يشير إلى غيرهما.أما الشيخ أبو علي إبراهيم المريني،فانه يؤكد أن أبا بكر الوالي الحفصي في قسنطينة،الذي كان في صراع مع الأسبان في بجاية،هو الذي دخل في مفاوضات مع التركي " إبراهيم بن عثمان المعروف باسم خير الدين "،لتحقيق مشروع طرد الأسبان من بجاية، و أن الخطة كانت تقضي بمهاجمة بجاية من البحر من طرف القراصنة،و من البر من طرف الوفوق،قائد أبي بكر،و أن المشروع نفذ لكنه فشل(4). على الرغم من الخطأ الذي وقع فيه المريني بخصوص اسم عروج فإن روايته تبدو هي الأقرب إلى المنطق،إذا أخذنا في الاعتبار المقاومة التي كان ينظمها أبو بكر ضد الأسبان في بجاية و عنابة،بعد مقتل ملك هذه الأخيرة و تصالح ولديه مع الأسبان.لقد شارك أحمد بن القاضي في تنفيذ المشروع،و كان يقود قبائل الزواوة و بني راثن و بني فراوسن و قبائل أعالي وادي سباو (5).

جاء عروج إلى بجاية في شهر أوت 1512،على رأس 12 قطعة بحرية محملة بالمدفعية و الذخيرة و ألف تركي و بعض الأهالي (6).و اصطدم،في معركة بحرية قبالة بجاية،بسفن إسبانية،تمكن من إغراق سفينتين منها و الاستيلاء على أخرى (7).فتح نار مدافعه على تحصين رئيسي من تحصينات بجاية،المتمثل في قلعة كان بيدرو نفارو،الذي احتل بجاية سنة 1510،قد أعاد بناءها،في الوقت الذي نزلت فيه قوات الأهالي البرية نحو المدينة.بعد ثمانية أيام من الحصار و القصف المدفعي أصدر عروج أمر الاقتحام العام،لكن قذيفة سقطت على ذراعه الأيسر أوقفت العمليات،و تفرق الجمع البري و البحري (8).و اتجه عروج نحو تونس،بعد أن فقد أخاه الياس في هذه المحاولة الأولى.

في طريقه إلى تونس استولى عروج على سفينة تابعة للجنويين،الذين كانوا يصطادون المرجان في طبرقة،إلا أن اندريا دوريا، و هو قرصان جنوي (9)،لاحقه إلى حلق الوادي و استعاد السفينة و استولى على سفينة من سفنه (10).في تونس بُترت ذراع عروج لما عجز الطب عن علاجه.ظل عروج مرتبطا بالجزائر،بعد أن فشل في بجاية. يبدو انه كان يريد أن يكوّن لنفسه قاعدة بعيدا عن الحفصيين و عن نفوذهم. لقد وجد المكان المناسب في جيجل.

من بين أعمال عروج في الجزائر طرده الجنويين من مدينة جيجل.إذا كانت الروايات تتفق على أن العملية تمت سنة 1514 ،فإنها تختلف حول ما إذا كانت قد تمت قبل أو بعد محاولته الثانية في بجاية.أما نحن فنميل إلى الرواية التي تقول أن جيجل أصبحت بيد عروج قبل المحاولة الثانية،لأننا لا نتصور أن في مقدور عروج المهزوم في بجاية و الذي تفرق عنه الجمع،مواجهة الجنويين. هذا من جهة،و من جهة أخرى،نعتقد أن سيطرته على جيجل هي التي سمحت له بتحضير الهجوم الثاني على بجاية.

ظلت بجاية تجذب تحركات عروج. لا شك في أنه لم يكن يجهل أن هذه المدينة كانت مدينة قرصنة قبل أن يحتلها الأسبان.في مرة من المرات رست سفنه في جزر العافية،غرب جيجل ،فجاءه بعض الأهالي يطلبون منه تخليص مدينة جيجل من الجنويين الذين سيطروا عليها منذ سنة.قبل عروج الدعوة وطلب الدعم من قبائل المنطقة و من احمد بن القاضي،الذي أقام معه صداقة منذ المحاولة الأولى في بجاية.

كان الهجوم على جيجل برا و بحرا.بعد قصف المدينة من البحر،أنزل عروج قواته البحرية إلى البر أين التقى بالقوات التي كان يقودها أخوه خير الدين و أحمد ابن القاضي.لقد تمكن من السيطرة على المدينة بسهولة.كانت الغنائم،التي حصل عليها المغيرون،كبيرة. بلغ عدد الأسرى حوالي 600 أسير(11).أرسل عروج هؤلاء الأسرى إلى السلطان العثماني،تحت رقابة أحد قراصنته يعرف باسم محي الدين رايس. هذه هي المرة الأولى التي يتصل فيها عروج بالدولة العثمانية في استنبول (12)،على ما يبدو.لقد بايع الجميع عروج سلطانا لجيجل.يبدو أنه منذئذ أخذ يبتعد عن دولة الحفصيين في تونس،لأنه كان يعلم أن الحفصيين يسعون لاسترجاع ما فقدوه من أقاليم كانت لهم في الماضي القريب،و منها منطقة جيجل. لهذا بدأ يتقرب من الدولة العثمانية.نقل مقره من تونس إلى هذه المدينة الحصينة بالسلسلة الجبلية التي تحيط بها،و التي توفر ملجأ منيعا في حالة الشدة.لعل هذا ما يفسر تنظيمه للحملة الثانية على بجاية من دون علم الحفصيين.

عاد عروج، بالاتفاق مع حليفه ابن القاضي،لمحاصرة بجاية في أوت 1514.حين شرع في قصف المدينة بمدافع مراكبه، كانت القبائل بقيادة ابن القاضي تحاصرها من البر.تمكن من السيطرة على إحدى قلعتيها،لكن المدينة استعصت عليه. ظل محاصرا لها مدة حوالي ثلاثة أشهر، وصلت خلالها الإمدادات الإسبانية المتمثلة في حوالي خمسة آلاف رجل،يقودهم ماثين دي فانتورا.أمام الوضعية الجديدة هذه طلب عروج دعم السلطان الحفصي في تونس،لكن هذا الدعم لم يأت (13).يذكر الوزان ،ليون الإفريقي،دون أن يشير إلى الحملة التي قادها عروج، أهي الأولى أم الثانية ؟ و نعتقد نحن أنها الثانية : " إن القبائل الجبلية التي هبت لنصرته ذهبت بدون استئذانه لزرع الحقول،تبعها أيضا عدد كبير من الجنود الأتراك،فاضطر بربروس (عروج) إلى الفرار،و قبل أن ينصرف أحرق بيده اثنتي عشرة سفينة ضخمة كانت

راسية في النهر (الصومام) على بعد ثلاثة أميال من بجاية،ثم لجأ مع أربعين من خواصه الأتراك إلى قصر جيجل " (14).و في جيجل استقبل مبعوث السلطان العثماني سليم الأول الذي جاء على رأس 24 مركبا ليقدم له تشكرات السلطان (15).

وجد عروج مدينة جيجل تعيش مجاعة،فخرج للقرصنة،في سواحل صقلية وسردينيا، في الأيام الأولى من نوفمبر،حيث كان الجو مناسبا.استولى على ثلاث سفن محملة قمحا،كانت في طريقها من صقلية إلى إسبانيا.عند عودته وزع غنيمته على سكان جيجل و جبالها،فأكسبه هذا الصنيع شعبية كبيرة في المنطقة (16).في هذه المدينة استقبل عروج،ككل سكان السواحل المغربية المهددين من الأساطيل الإسبانية،نبأ وفاة فرديناند ملك إسبانيا (23 جانفي 1516). و فيها استقبل كذلك وفد مدينة الجزائر الذي جاء يطلب دعم القراصنة ضد الأسبان في قلعة البنيون.

كانت مدينة الجزائر مضطربة،منذ استسلامها للأسبان سنة 1510،بسبب الانقسامات التي حصلت بين سكانها،بخصوص تلك الضريبة التي تدفعها لهؤلاء المحتلين. فالشيخ سالم التومي و حاشيته كانوا متمسكين بتطبيق المعاهدة الموقعة مع الأسبان،في حين كان وجهاء المدينة يرون عكس ذلك.عند وفاة الملك الإسباني عمت الفرحة في المدينة و اعتبر سكانها المعاهدة ماتت مع وفاة الملك الذي فرضها،و أن الوقت حان لتستعيد مدينتهم حريتها و تعود إلى القرصنة،التي توقفت منذ ست سنوات.من هنا جاءت دعوتهم لعروج كي يخلصهم من الحامية الإسبانية في قلعة البنيون (17) لقد لبى عروج الدعوة، لأنه وجدها فرصة لا تعوض للسيطرة عل مدينة الجزائر الأهم بكثير من جيجل الصغيرة، سواء من حيث عدد سكانها أو من حيث أنها كانت مدينة قرصنة أو من حيث موقعها الذي يتوسط سواحل المغرب. لقد وصفها الوزان بقوله: " أسوارها رائعة جدا،مبنية بالحجر الضخم،فيها دور جميلة،و أسوار منسقة كما يجب،لكل حرفة مكانها الخاص،و فيها كذلك عدد كبير من الفنادق و الحمامات "(18).

في سنة 1516 أرسل عروج ،في اتجاه مدينة الجزائر،16 قطعة بحرية من قطعه و قطع أصدقائه الذين التحقوا به في جيجل،تحمل حوالي خمسمائة تركي،بينما سار هو برًا رفقة ثمانمائة تركي و ثلاثة آلاف رجل من جبال جيجل. التحق به في الطريق حوالي ألف رجل.لما وصل مدينة الجزائر وجد في استقباله سالم التومي رفقة أعيان المدينة و أغنيائها. لكن عروج فضل أن يتجه إلى شرشال أولا و قبل الدخول إلى المدينة،حتى يتمكن من أخذ الأولى من قرصان آخر اسمه قارة حسن،كان قد سيطر عليها،كما فعل هو في جيجل.دخل شرشال برا وبحرا،فبايعه سكانها الأندلسيون الذين كانوا قد هاجروا إليها من غرناطة و بلنسية وأرغونة.لقد استسلم قارة حسن فأدمج جيشه في جيش عروج. بعد أن أقام هذا الأخير حامية في المدينة تتكون من حوالي مائة جندي، سار نحو مدينة الجزائر دون تأخر (19).

استقبل عروج في مدينة الجزائر بحفاوة بالغة، و أسكنه سالم التومي قصره، إلاّ أنه، بعد 20 يوما من القصف لم يتمكن من تخريب قلعة البنيون، التي تحصن بها الأسبان، بسبب ضعف مدفعيته. عبّر الناس عن خيبة أملهم فيه، 0كما عبّر عن ذلك سالم التومي، الذي وجد صفّه يتدعم، فلجأ عروج إلى اغتياله (20). حسب المؤرخ الفرنسي جوليان، فإن مؤامرة حيكت بين الثعالبة و الأسبان و أهل مدينة الجزائر للتخلص من عروج و قراصنته (21). فرض عروج سلطته على المدينة مدعوما بالأتراك و أهالي جيجل، و فرّ ابن سالم التومي المدعو يحي إلى الأسبان في وهران، و منها أرسل إلى طليطلة، أين كان الكاردينال خمينيس يدير المملكة الإسبانية، بعد وفاة الملك فرديناند (22).

بعد أن سيطر عروج على المدينة، أمر بسك العملة و تحصين القصبة، ونصب فيها مدفعية صغيرة، و وضع عليها حامية تركية، كما أمر أهالي جيجل، الذين شاركوه عملية السيطرة على المدينة، بالعودة إلى بلادهم. اتصل بعرب سهل المتيجة الثعالبة الذين كانوا متمسكين بالثأر لقتل شيخهم سالم التومي. لعل هذا هو السبب الذي جعل عروج ينظم خرجات عسكرية خارج مدينة الجزائر وسعيه لفرض الضريبة على السكان (23). لقد تحالفت القبائل العربية مع الأسبان، فكانت ثمرة هذا التحالف تلك الحملة التي نظمها هؤلاء الأسبان على المدينة في نفس السنة 1516.

لقد نظم الأسبان، الذين كانوا يعولون على القبائل العربية في المتيجة، حملة من حوالي ثلاثة آلاف رجل يقودهم دون دييغو دي فيرا. نزل المهاجمون في ساحل باب الواد الرملي، يوم أول أكتوبر، غير أن الأتراك كانوا مستعدين لمواجهة الهجوم، فألحقوا بالأسبان هزيمة نكراء، بالقضاء على العديد منهم و أسر ما يقرب من ألف و خمسمائة رجل. حتى عرب المتيجة الذين لم يقدموا للأسبان أي دعم يذكر شاركوا في نهب رجال الحملة (24). وهكذا لم يتمكن الأسبان من تنصيب يحي بن التومي الذي كان يرافقهم على المدينة (25).

ظل عرب المتيجة يناصبون عروج العداء، فطلبوا دعم ملك تنس، الذي جمع عشرة آلاف فارس من أتباعه و حلفائه، و سار بهم نحو المتيجة، ابتداء من جوان 1517. جمع عروج أتراكه و الأندلسيين المسلحين بالبنادق ذات الفتيلة (موسكيت) و استعد للمواجهة. التقى الجمعان في وادي الشلف فحقق عروج انتصارا كبيرا. فرّ الملك إلى تنس فلحقه إليها، ففر نحو الجنوب و دخل عروج المدينة. بعد أيام من الراحة في تنس، استقبل عروج وفدا من تلمسان يطلب منه دعمه لإعادة الملك الشرعي (أبو زيان)، الذي أخذ منه عمه (أبو حمو) السلطة، إلى عرشه (26).

بعث عروج إلى الجزائر يطلب المدافع، فأرسلها أخوه خير الدين عبر البحر. سار عروج من تنس ليبلغ قلعة بني راشد، التي استقبله سكانها بحفاوة بالغة. كانت القلعة تضمن

الاتصالات بين تلمسان و مدينة الجزائر. ترك عروج فيها مائتي جندي مسلحين بالبنادق، يقودهم أخوه إسحاق (27). سار قاصدا تلمسان إلى أن صادف أبا حمو في جيش كبير، حوالي تسعة آلاف جندي، فهزمه. لما بلغ تلمسان حظي بحفاوة الاستقبال من طرف سكانها، في حين التحق أبو حمو بوهران ليطلب دعم الأسبان. نصب عروج أبا زيان الثالث (المسعود) على عرش تلمسان، ثم خرج يتنقل في نواحي المنطقة الغربية. تعفن الوضع السياسي في عاصمة بني زيان في غيابه، إذ عاد إليها ما كان من فتن و دسائس. تخلص الملك الجديد من التبعية للأتراك، بينما كان أشياع أبي حمو يطالبونه بالتنحي عن العرش. عاد عروج إلى المدينة، فأمر بقتل أبي زيان و أنصاره(28). هذا في الوقت الذي حصل فيه أبو حمو على الدعم المادي و البشري الإسباني و استعد للسير إلى تلمسان.

كان أبو حمو قد سافر إلى إسبانيا مع قائد وهران الإسباني. بعد تتويج شارل كان على عرش إسبانيا، خلفا للملك فرديناند، عاد الاثنان برفقة حوالي عشرة آلاف جندي إلى وهران، في بداية سنة 1518 (29). بفضل الدعم الإسباني تمكن أبو حمو من القضاء على الحامية التي تركها عروج في قلعة بني راشد.

جاء في رسالة للحاكم الإسباني في وهران، مؤرخة 27 فيفري 1518، موجهة إلى الملك، أن أبا حمو سار إلى قلعة بني راشد و خاض معركة ضد القوات التركية، فكبدها 180 قتيلا، و قد تمكن باقي الجنود الأتراك من الانسحاب إلى القلعة ليلا، و كان عددهم ثلاثمائة جندي، و أن أبا حمو حاصر القلعة، فلم يتمكن من اقتحامها، فطلب دعم الأسبان الذين أرسلوا إليه ثلاثمائة رجل بقيادة مارتان درغوط و في 15 من نفس الشهر خرج الجنود الأتراك من القلعة بقيادة إسحاق ليهاجموا معسكر الأسبان ليلا، غير أن الجنود الأسبان تمكنوا من ردهم، بعد أن قتلوا أو جرحوا عددا منهم، و لم يفقدوا هم سوى قتيلين و بعض الجرحى(30).

لقد تمكن الأسبان و أبو حمو من السيطرة على القلعة، بعد أن استسلم قائدها إسحاق، على ما يبدو. لقد اختلف في مقتل هذا الأخير، فهناك رواية تذكر انه قتل من طرف سكان القلعة، الذين انقلبوا عليه، و هناك رواية أخرى تذكر انه قتل من طرف أتباع أبي حمو.

بقي عروج في تلمسان ما يقرب السنة. أقام خلالها التحصينات و أخضع قبائل بني سناسن و شرع في مفاوضات مع ملك فاس (31). أما أبو حمو و الأسبان، فبعدما تمت لهم السيطرة على قلعة بني راشد، جهزوا حملة ساروا بها إلى تلمسان و حاصروها. بعد ستة أشهر من الحصار تمكنوا من اقتحامها، فتسلل عروج إلى قلعة المشور ثم اضطر للانسحاب منها (32). لاحقه أعداءه و قتلوه بنواحي الويلح قرب الحدود الغربية، كما تذكر رواية، بينما تذكر رواية أخرى انه قتل بالمالح الواقعة بين وهران و عين تموشنت الحالية. بعد مقتل عروج، أعيد أبو حمو إلى عرش تلمسان الشاغر. (33).

لما بلغ نبأ مقتل عروج و تخريب جيشه إلى أخيه خير الدين، الذي استخلفه على مدينة الجزائر، اعتقد هذا الأخير أن الأسبان و من معهم من الأهالي سيتوجهون إلى الجزائر، و لم تكن له القوة التي تمكنه من مواجهتهم (34)، خاصة و أن قبيلة الثعالبة في المتيجة، التي كان بإمكانها أن تجند آلاف الفرسان، قبل أن يشتتها الأتراك، كانت تتحين الفرصة للانقضاض عليه و على مدينة الجزائر (35). غير أن الأسبان، لم يغامروا، و لو أسرعوا بالهجوم على المدينة لأمكن لهم أن يحتلوها (36).

لقد عبر خير الدين عن نيته في الرحيل عن المدينة و العودة إلى نشاط القرصنة أو النزوح إلى مدينة ساحلية أخرى. لكنه لما رأى الأسبان يعودون إلى وهران، بعد أن نصبوا أبا حمو على عرش تلمسان، و أرسلوا جزءا من قواتهم إلى إسبانيا، عدل عن رأيه وأخذ برأي رفاقه، الذين نصحوه بالبقاء في مدينة الجزائر. لقد بايع الناس خير الدين سلطانا، خلفا لأخيه عروج. اهتم على التو بتدعيم سلطته بالمدينة، فقرّب إليه المرابطين المشهورين بورعهم، كما اهتم بتنظيم الدفاع عن المدينة، فدعم التحصينات القديمة و جند رجالا آخرين جاءوا من المشرق و خزن تمويلا حربيا كبيرا. (37). من جهة أخرى أرسل حاميات إلى مستغانم، تنس و مليانة و غيرها من المواقع التي مرّ بها عروج أو انضمت إليه، في الجهة الغربية. يذكر هايدو ان خير الدين أعاد حميد العبد إلى تنس ملكا، مقابل أن يدفع ضريبة سنوية (38)، غير أن حميد العبد هذا لم يكن هو ملك تنس كما رأينا سابقا، بل هو في الحقيقة شيخ قبيلة سويد التي كانت تهيمن على المنطقة، و قد عينه خير الدين على تنس بعد أن انتقل ملكها السابق إلى إسبانيا.

من القرارات الهامة التي اتخذها خير الدين قرار ارتباطه بالدولة العثمانية. أرسل إلى الدولة العثمانية الحاج حسين (كاهيته)، و هو تركي بالمولد و رفيقه الوفي، محملا بالهدايا. استقبل السلطان سليم المبعوث و سلّمه قفطان التولية الرسمية لخير الدين على الجزائر، كما سلّمه فرمانا (تعليمة) يقضي بدعم و حماية الجزائر من قبل الإمبراطورية العثمانية، و يسمح بتقديم الخطبة و سك العملة باسم السلطان. كما أمر السلطان سليم بالسماح للمتطوعين بالانتقال إلى الجزائر، حيث يصبحون جنودا إنكشاريين مثل إنكشاريي الدولة العثمانية في الشرق (39). كما قرر إرسال ألفين من هؤلاء الانكشاريين و مدافع و ذخيرة حربية إلى الجزائر. هكذا عاد المبعوث إلى الجزائر في بداية **1519** راضيا عمّا حصل عليه من السلطان (40)، فوجد خير الدين قد حقق انتصارا كبيرا في حملة سيرها الأسبان ضد مدينة الجزائر.

وضع شارل كان، على رأس هذه الحملة، نائبه في صقلية، دون هوغو دي مونكادا، وكلف غنزالفو مارينو دي ريبيرا، قائد المدفعية، بقيادة الهجوم على المدينة. في 17 أوث **1518**

نزلت القوات الغازية المتكونة من خمسة آلاف رجل جنوب المدينة،غير بعيد عن أسوارها.كان هوغو دي مونكادا،الذي تموقع مع حوالي 1500رجل في كدية الصابون،يريد الهجوم الفوري على المدينة،في حين كان غنزالفو يرى ضرورة انتظار وصول ملك تلمسان بقواته البرية.أثناء هذا الخلاف هاجم خير الدين المواقع الإسبانية فجأة.كانت المباغتة كبيرة إلى درجة أن فرّ الأسبان إلى مراكبهم. لكن في هذا الوقت بالذات هبت عاصفة دامت يومي 21 و 22 أوث فأعاقت عمليات الركوب. في يوم 24 تمكن هوغو دي مونكادا من أن يُركب بقايا جنوده،لكن ما إن تحرك الأسطول حتى عادت العاصفة من جديد،و دفعت الجزء الأكبر من مراكبه نحو الساحل،فلم ينج إلاّ العدد القليل من الجنود.لقد خسرت هذه الحملة ثلاثين مركبا،و فقدت ما يقرب من أربعة آلاف رجل من رجالها (41)،منهم ما يقرب الثلاثة آلاف أسير،و البقية كانوا قتلى، حسب المصادر الجزائرية (42).

يبدو أن الأسبان أرادوا أن يمحوا عار هزيمتهم بمهاجمة القبائل القريبة من وهران.بعد أن دخلت بقايا الحملة إلى المرسى الكبير،و انتقال الجنود إلى وهران،نظم الحاكم الإسباني خرجة إلى سهل سيراط،فألحق أضرارا بليغة بقبائل مختلفة،حتى أن أصدقاء الأسبان من الأهالي لم يخفوا امتعاضهم من هذا الفعل (43).

الآن و قد اكتسب خير الدين شعبية،بفضل انتصاره على الأسبان الذين كانوا يُخيفون كل سكان سواحل الجزائر و المغرب،و ضمن دعم الدولة العثمانية،فإنه سيعمل على القضاء على مملكة كوكو،مملكة ابن القاضي،القريبة منه و التي تحالفت مع الحفصيين.للقضاء على هذه الملكة المسيطرة على جبال بلاد القبائل الوعرة،تقرب من أمير بني عباس،عدو ابن القاضي المجاور له في الناحية الجنوبية.لقد اختلف المؤرخون في تاريخ عقد التحالف مع هذا الأمير؛ بعضهم يحدده بين سنتي 1520 و 1525،و البعض الآخر يعيده إلى 1529 (44). مهما كان الاختلاف فإننا نعتقد أن خير الدين أخذ يتقرب من أمير بني عباس مباشرة بعد حدوث القطيعة مع ابن القاضي بعد مقتل عروج. و من المعلوم أن أمير بني عباس كان حليفا للأسبان في بجاية منذ 1511.

تعود العلاقة بين الاخوة بربروس (عروج و اخوته) و ابن القاضي إلى سنة 1512، وربما إلى ما قبل هذا التاريخ،حين التقى عروج بهذا الأخير خلال الهجوم الأول على بجاية.لكن القطيعة وقعت بينهما،و قد اختلف في تاريخها. يذكر هايدو أن معركة وقعت بين عروج و ابن القاضي في بني سيار،شرق مدينة جيجل (جنوب الطاهير الحالية)،سنة 1515 (45). و أوردت الباحثة كورين شوفالييه ،اعتمادا على مصادر أخرى،أن هذه المعركة وقعت بعد وفاة الملك فرديناند،أي بعد 1515(46). مصادر أخرى تقول أن ابن القاضي شارك عروج في السيطرة على مدينة الجزائر،و إن هذا الأخير منحه الجهة الشرقية من إقليم الدولة الجديدة،غير أن ابن القاضي قطع علاقاته بعروج و عاد إلى جباله في بلاد القبائل،و نقل عاصمته

من أورير إلى كوكو الأكثر حصانة ،كما نظم الجيش و البحرية و هيأ ميناء أزفون لمواجهة الأتراك و الأسبان معا (47). هناك مصادر أخرى تعيد خلاف ابن القاضي مع الأتراك إلى سنة 1518، و السبب في هذا الخلاف هو اتهام خير الدين لابن القاضي بعدم تقديم الدعم اللازم لعروج في حملته على تلمسان، الأمر الذي أدى إلى مقتل هذا الأخير. تبدو الرواية الأخيرة هي الأرجح، لكننا نعتقد أن عوامل الخلاف كانت سابقة على سنة 1518 و أن ما وقع في هذه السنة إنما هو القطيعة. فما جمع بين ابن القاضي و الأتراك هو مواجهة الأسبان، لكن ما بعد الأسبان كان يفرقهما.

جهز خير الدين جيشا، أرسله لمواجهة ابن القاضي في بلاد القبائل. تمكن هذا الجيش من طرد الملك من جباله، و ملاحقته إلى غاية القل التي استولى عليها هذا الجيش، فلجأ ابن القاضي إلى عنابة (48) التي كانت في هذا الوقت بيد الحفصيين في تونس، بعد أن انتزعوها من أبي بكر، والي قسنطينة المتمرد، منذ 1513. من عنابة أرسل ابن القاضي وفدا إلى تونس يطلب دعم الحفصيين.

كان الحفصيون يريدون هم كذلك القضاء على الأتراك في الجزائر، خاصة بعد أن ارتبط هؤلاء بالدولة العثمانية. لهذا وجد وفد ابن القاضي كل الترحيب في تونس، فحصل على الدعم المرجو لشنّ الحرب على خير الدين (49). عاد الملك من عنابة على رأس جيش يتكون في أغلبه من قوات تونسية إلى بلاد القبائل داعيا قبائل الزواوة للالتحاق به قصد السيطرة على مدينة الجزائر. أسرع الأتراك نحو المنطقة لقطع الطريق على جيش التحالف. التقى الجمعان في سهل يسر، فتمكن الأتراك من دفع القوات التونسية نحو جبال فليسة أم الليل، إلا أن ابن القاضي تمكن من محاصرة القوات التركية و من إلحاق الهزيمة بها. كان الانتصار حاسما. اضطر خير الدين، على إثره، لمغادرة مدينة الجزائر و الانسحاب إلى جيجل، بينما دخل ابن القاضي مدينة الجزائر و سيطر عليها سنة 1520 (50).

تتفق أغلب الروايات في أن ابن القاضي حكم مدينة الجزائر مدة خمس سنوات. لكن حكمه كان سيئا إلى الدرجة التي أصبح فيها سكان المدينة لا يطيقونه، فقد استاءت منه كل الفئات الاجتماعية. يقول س. بوليفة، في كتابه "جرجرة عبر التاريخ" : " إن السياسية الجافة القاسية التي عامل بها ابن القاضي مدينة الجزائر على طريقته الجبلية الغليظة قد أوغرت ضده قلوب أهل الجزائر "(51). هذا ما سوف يسهل الأمر لخير الدين للعودة إلى المدينة.

أحاط خير الدين نفسه في جيجل، المدينة التي انطلق منها هو و اخوته و دعمهم أهلها في السيطرة على مدينة الجزائر، برجال من المنطقة بلغ عددهم أكثر من ألفي رجل. عاد إلى نشاطه في ميدان القرصنة. أكسبته عملياته البحرية احترام سكان المنطقة كما أن تحالفه مع أمير بني عباس وفّر له قوات برية هامة (52). من جيجل أخذ يتوسع في الشرق الجزائري.

كان هذا الشرق يعرف صراعا كبيرا على قسنطينة، بين الحفصيين و واليهم السابق الأمير أبي بكر، الذي كان قد اختفى، لما انتقل خير الدين إلى جيجل، فترك فراغا سياسيا سهل الأمر لهذا الأخير. سيطر خير الدين على القل سنة 1521، و على عنابة في السنة الموالية، كما دانت له قسنطينة (53). تختلف الروايات حول خضوع قسنطينة لخير الدين، لكن يبدو أن هذا الخضوع كان سنة 1520، ثم انقلب عليه سكان المدينة سنة 1528 ليضعوا أنفسهم تحت حماية الدولة الحفصية في تونس (54). و يبدو أن المدينة ظلت تابعة للحفصيين إلى غاية احتلال الأسبان مدينة تونس و انسحاب الأتراك منها، حيث فرّ جنود من جنودهم، بقيادة حسن آغا، إلى قسنطينة (1535)، فمنعهم سكانها من الدخول إليها، لكن الجنود صالحوهم مقابل أن يقدموا لهم الضريبة التي كانوا يقدمونها لتونس (55).

بعد أن سيطر خير الدين على مواقع هامة في الجهة الشرقية، أدار وجهه إلى الغرب. في سنة 1524 وجه قواته نحو جرجرة أين اشتبكت بقوات ابن القاضي في المعركة المعروفة باسم (بوغدورة). انتقل، منذ العمليات الأولى ، قسم من جنود ابن القاضي إلى جانب القوات التركية، فأصبحت هزيمة هذا الأخير مؤكدة. في السنة الموالية، كان الأتراك قد سيطروا على جبال جرجرة، فركز ابن القاضي ما تبقى من قواته في ثنية بني عائشة، إلاّ أن هذه القوات نفسها هي التي اغتالته (56). انتهت الحرب إذن لصالح الأتراك. عاد خير الدين إلى مدينة الجزائر منتصرا سنة 1525. ظهرت مشكلة بلاد القبائل من جديد، لما عمل الحسين بن القاضي، شقيق أحمد بن القاضي على إثارة المنطقة ضد الأتراك، غير أن هذا الأخير انتهى إلى الاستسلام و القبول بدفع الضريبة لخير الدين (57).

بعد القضاء على تمرد مملكة كوكو، أعاد خير الدين سلطته إلى شرشال و تنس والمتيجة، و تمكن من استمالة قبيلة بني هاشم القوية في الغرب الجزائري التي كانت تضاهي قوتها قوة قبيلة بني عامر التي تحالفت مع الأسبان ، منذ وقت مبكر من وجودهم في الغرب الجزائري (58). لكن أهم ما حققه خير الدين بالنسبة لسكان مدينة الجزائر هو القضاء على الوجود الإسباني في قلعة البنيون.

وجه خير الدين أنظاره إلى هذا الحصن، الذي ظل الأسبان يراقبون منه المدينة منذ سنة 1510، و لم يتمكن عروج من طردهم منه، غير أن قرار هذا الأخير المتعلق بقطع الماء عن الجنود الأسبان خلق مشاكل حقيقية لهم. لقد لجأوا مرات عديدة إلى خلط ماء البحر بالخمر ليتمكنوا من شربه (59).

في شهر ماي 1529، قصف خير الدين هذا الحصن مدة حوالي أسبوعين، فقتل عددا هاما من أفراد الحامية البالغ عددهم حوالي مائتي رجل، و في اليوم السادس عشر من القصف اقتحم الجزيرة (60). كانت عملية الاقتحام حسب رسالة الحاكم الإسباني في وهران، إلى

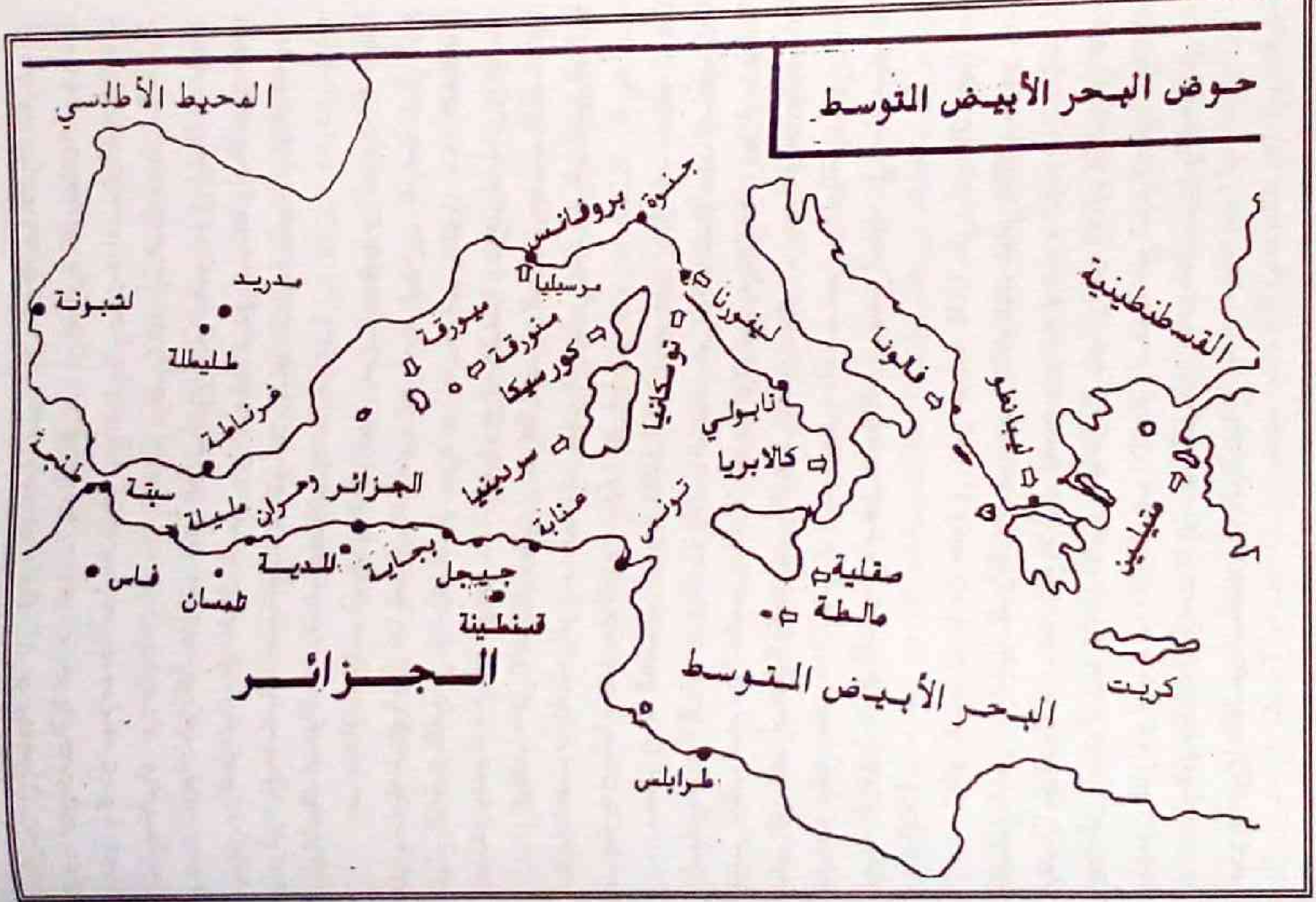
مسؤوليه في إسبانيا ـ كما يلي: في يوم الجمعة 27 من شهر ماي كثّف الأتراك القصف، في الوقت الذي كانت فيه القوارب المحملة بالرجال تقترب من الجزيرة، فلم يتمكن الأسبان من رؤيتها و لا من سماع صوتها بسبب الدخان و دوي المدافع. لما وصلت المراكب إلى الجزيرة نزل الجنود الأتراك، دون أن يتفطن الأسبان لذلك، ثم حاصروا الحامية، فنشبت معركة حامية استسلم بعدها الجنود الأسبان. لقد قتل 60 إسبانيا و أسر الباقون. و في رسالة لجاسوس يهودي من الجزائر، يعمل لحساب الأسبان، ورد أن عدد القتلى كان 65 و أن الأسرى، الذين استرقوا، بلغ عددهم 90 جنديا مع 25 امرأة و طفلا ، إضافة إلى قائد الحامية مارتان فاركاس، و أن الأتراك هدموا الحصن مباشرة بعد الاستيلاء عليه (61).

بعد هذه الانتصارات، قرر خير الدين إنجاز رصيف يربط جزيرة البنيون (الصخرة) باليابس. استعمل، في إنجاز هذا المشروع ، الذي دام سنتين، العبيد المسيحيين، كما استعمل في الردم حطام الحصن الإسباني و مواد أخرى جيء بها من خراب رشقونيا (62) القديمة في تامنتفوست. و قد بلغ طول الرصيف مائتي متر و عرضه 25 مترا و علوه أربعة أمتار (63).

إن القضاء على الأسبان في البنيون و بناء هذا الرصيف قد أطلق عمليات القرصنة من عقالها، فغدت مدينة الجزائر بسرعة من اكبر موانئ القرصنة في المغرب. تراقب الطرق البحرية إلى جنوب إسبانيا و جنوب إيطاليا و صقلية. (انظر الخريطة).

تذكر رسالة الجاسوس اليهودي سالفة الذكر أن خير الدين أرسل، بعد تخريب الحصن الإسباني، مبعوثا إلى تلمسان و فاس و باديس كي يستنهض ملوكها ضد الأسبان. كما أرسل إلى تونس يطلب الدعم من الحفصيين، لكن لا أحد من هؤلاء لبى دعوته. لقد كان خير الدين يعلم - تشير الرسالة - أن هذا الانتصار الذي حققه على الأسبان ستكون له ردود فعل من جانبهم. هذا ما حصل بالفعل، فقد أمر الملك شارل كان بتجهيز حملة ضد سواحل الجزائر. و شرع أندريا دوريا، المرتزق الجنوي الذي وضع نفسه في خدمة الأسبان، يجمع أسطوله ، في ميناء جنوة، منذ سنة 1530.

انطلق أندريا دوريا من جنوة في شهر جويلية 1531، على رأس 20 سفينة جيدة التسليح، ليصل إلى شرشال قبل طلوع شمس يوم من الأيام. انزل حوالي 1500 رجل من رجاله بالقرب من المدينة و أمرهم ببلوغ الأسرى المسيحيين و تحريرهم و العودة إلى السفن دون أي عمل من أعمال النهب. التحق الأسرى المحررون بالسفن، لكن الجنود انتشروا في الشوارع ينهبون المنازل و لم يسمعوا إنذار قائدهم للالتحاق بالسفن. لما طلع النهار تجمع الأتراك، الذين شتتهم الصدمة الأولى، و انضموا إلى سكان المدينة ، و هم من الأندلسيين، و انهالوا على جنود أندريا دوريا المشتتين المثقلين بالغنائم، فقتلوا


حوض البحر الأبيض المتوسط
المحيط الأطلسي
لشبونة
مدريد
طليطلة
غرناطة
طنجة
سبتة
مليلة
وهران
الجزائر
فاس
تلمسان
المدية
بجاية
جيجل
قسنطينة
عنابة
تونس
طرابلس
الجزائر
ميورقة
منورقة
كورسيكا
سردينيا
مرسيليا
بروفانس
جنوة
ليفورنا
توسكانيا
نابولي
كالابريا
صقلية
مالطة
فالونا
ليبانتو
القسطنطينية
متيلين
كريت
البحر الأبيض المتوسط

و جرحوا العديد منهم، بينما أخذت مدافع المدينة تقصف المراكب التي أبحر بها أندريا دوريا تاركا جنوده في المدينة و منهم اكثر من ستمائة على قيد الحياة. استولى عليهم الأتراك و الأندلسيون، فعوضوا بذلك عبيدهم الذين حررتهم الحملة (64). ما إن وصل أسطول خير الدين من الجزائر حتى كان أندريا دوريا قد رحل.

يورد توفيق المدني أن عدد المسيحيين الذين حرروا من طرف الحملة هو حوالي 800 أسير، و أن عدد القتلى في الطرف المسيحي بلغ حوالي 1400، لكنه لا يعطي أي دور لسكان شرشال في مواجهة المغيرين، فالأتراك وحدهم هم الذين واجهوا الحملة (65) على عكس جون ب. وولف الذي وصف مشروع دوريا بـ " السيئ "، " ذلك أن شرشال كانت مسكونة في الأغلب من قبل المهاجرين المورسكيين الذين يعرفون كيف يحاربون و كانوا سعداء بمقابلة الأسبان أو الطاليان " (66).

كان رد فعل الأسبان على هزيمة شرشال أن احتلوا هنين و انتزعوها من مملكة تلمسان التي كان على رأسها في هذه الأثناء الملك عبد الله، الذي كان يميل إلى الأتراك. لقد قدم أسقف طليطلة رواية احتلال هذه المدينة الهامة بالنسبة للوك تلمسان، بعد فقدانهم المرسى الكبير وهران، في رسالة له مؤرخة 8 سبتمبر 1531. انطلقت في شهر أوث 13 سفينة من ميناء مالقا محملة بمؤونة شهرين، و لما وصلت ميناء وهران و انضم إليها 250 جنديا إسبانيا من حامية هذه المدينة، اتجهت إلى هنين بقيادة ألفارو دي بازان. دخلت الميناء ثم احتلت المدينة والقصبة، بعد أن تكبدت 40 قتيلا و 100 جريح. ترك الأسبان في المدينة حامية من سبعمائة رجل مزودين بـ 27 قطعة من المدفعية. هنا و يذكر إيلي بريموداي، الذي أورد الرسالة، أن الأسبان نهبوا المدينة و سلبوها ثم خربوها تماما، و قد تخلوا عنها بعد ثلاث أو أربع سنوات (67). لم تقم لهنين قائمة، منذ أن خُربت من طرف هؤلاء الأسبان، حين كانت تلمسان مشغولة بالصراعات حول السلطة.

تعود هذه الصراعات إلى سنة 1518، عند وفاة الملك أبي حمو حليف الأسبان منذ 1511. بعد وفاته نصب الحاكم الإسباني في وهران المركيز دي كوماريس أخ الملك و هو عبد الله على رأس المملكة. كان الملك عبد الله مدعوما بإبراهيم بن رضوان قائد بني عامر و هم حلفاء الأسبان. لقي الملك الجديد معارضة قوية من أخيه مولاي مسعود، المدعوم بمنصور بن بوغانم قائد بني راشد، الذي طلب دعم الأتراك. لقد حصل مولاي مسعود على دعم جموع السكان، فتوفر على أكثر من عشرين ألفا من المقاتلين، منهم أتراك فألحق بأخيه عبد الله هزيمة كبيرة، لكنه لما جلس على العرش طرد الأتراك وعرض تبعيته على الأسبان. في حركة معاكسة، استغل مولاي عبد الله الظروف و عرض تبعيته على خير الدين، فقبل هذا الأخير العرض و قدم له الدعم. و تمكنت القوات المتحالفة من السيطرة على مستغانم (1518)

ثم سارت إلى تلمسان و دخلتها و جلس مولاي عبد الله على العرش ثانية باعتباره تابعا للسلطان العثماني (68). يبدو أن الملك عبد الله قد تصالح مع الأسبان، بعد أن فقد خير الدين مدينة الجزائر. و ظل كذلك إلى أن تمكن هذا الأخير من الإطاحة بالأسبان في حصن البنيون سنة 1529.

أرسل خير الدين يدعوه للتضامن معه ضد الأسبان. و لقطع الطريق أمام الأتراك تحرك الأسبان تجاه هذا الملك. اتصل به الدكتور ليبريجا و ألحّ عليه أن ينضم إلى الأسبان لمحاربة الأتراك. و يشير ليبريجا هذا، في رسالته إلى الملك الإسباني، المؤرخة جوان 1529، إلى انه تمكن من كسب ود الملك عبد الله (69). لكن الحقيقة هي أن عبد الله فضل الجانب التركي، لهذا انقلب على الأسبان، و قطع عنهم الضريبة التي كان يدفعها لهم، مشجّعا بانتصار خير الدين في البنيون، كما يذكر غرامون في معرض تعليقه على كتاب هايدو " تاريخ ملوك مدينة الجزائر "(70).

كان رد فعل الأسبان تشجيع الأمير محمد على التمرد على أبيه الملك عبد الله. تؤكد رسالة الدكتور ليبريجا إلى جلالة زوجة شارل كان (23 فيفري 1531) تورط الأسبان في التحريض على الملك عبد الله، فالدكتور يؤكد انه لم يدخر جهدا لتحريض عرب القاطعة ضد الملك. يذكر أن شيوخ القبائل جاءوا إلى وهران و تعهدوا بموازرة الأمير المتمرد، و يؤكد أن استعمال هؤلاء الشيوخ وسيلة تمكّن من إعادة الملك إلى رشده (71).

ظل الأسبان يتابعون الصراع في المملكة و يغذونه. في رسالة إليهم يذكر أحد الأهالي اسمه رزيق أن العرب، أتباع محمد المتمرد، قد حققوا انتصارا على قوات الملك في عقبل، و أن هؤلاء المتمردين بلغوا أسوار مدينة تلمسان، و هم يحاصرونها و أن الملك حائر لا يدري ما يفعل (الرسالة المؤرخة مارس 531). و في رسالة مؤرخة 20 أوت يخبر الحاكمُ الإسباني لوهران بالنيابة أسقف سانتياغو بان الحرب لازالت قائمة بين الملك و ابنه و أن الأول أرسل بعض رجاله ضد محمد فمالت الكفة لصالح هذا الأخير، لكن لما وصل قائد بني راشد مع خمسمائة فارس انسحب محمد. " لقد نهض كل عرب المملكة " يناصر البعض الملك و يناصر البعض الآخر ابنه. و يقترح صاحب الرسالة الاعتراف بمحمد ملكا، و تكوين مملكة له في الأقاليم التي سوف يتم اقتطاعها من الأقاليم التركية. بهذه الطريقة يمكن تجنيد الملكين معا ضد الأتراك (72).

كان الجميع يساوم ، في هذا الصراع، و الجميع يترقب. فالأسبان لم يقدموا دعما حقيقيا للأمير الذي دفعوه للتمرد، في الوقت الذي كانوا يضغطون فيه على الملك لإجباره على التفاهم معهم. أما الملك فكان يبحث عن الذي يقدم له الدعم ضد ابنه. لقد اختار صف الأتراك. في رسالة إلى الإمبراطورة مؤرخة 2 سبتمبر 1531 يوضح ليبريجا انه على اتصال بمحمد و أن الملك عبد الله أرسل إلى الأسبان يطلب مبعوثين عنهم فأرسلوا إليه يهوديين، و في نفس الوقت استقبل مبعوث الأتراك - أي بعد انتصار شرشال - فسرّ لاستقباله و اغتال مبعوثي الأسبان (73).

يبدو أن المتمرد ازداد نفوذه و أن الأسبان اعتبروه ملكا، ذلك أن الرسائل الإسبانية، و بعد أشهر من الصراع، تتكلم عنه كملك لتلمسان. في رسالة من رسائله تعود إلى سنة 1535، يطلب الملك محمد من القادة الأسبان في وهران أن يلتمسوا له دعم ملك قشتالة. مما جاء فيها: " إنني أضع كل ثقتي في صداقته الحميمة " (74). و كان الملك عبد الله قد توفي قبل هذه الرسالة بحوالي سنتين.

توفي الملك عبد الله سنة 1533، فخلفه ابنه الذي يحمل اسم أبيه نفسه، غير أن الأتراك ارتابوا من أمره، و راودتهم الشكوك في وفائه لهم، و اعتقدوا أنه يخادعهم و أنه حليف الأسبان سرا. و كان شيوخ العرب يقفون إلى جانب أخيه المتمرد محمد(75). يبدو أن الأتراك كانوا على حق لأن الأمير المتمرد (محمد) انقلب على الأسبان. هذا ما تؤكده رسالة حاكم هنين، السيد باشيكو إلى الملك (13 ماي 1534)، فالحاكم يتوقع حسب المعلومات التي قدمها له مُخبروه، أن يقوم مولاي محمد بهجوم على هنين بكل الإمكانيات التي لديه، خاصة و أن شيوخ العرب يقفون جميعا إلى جانبه، و أن الأتراك عرضوا عليه المدفعية، في الزيارة التي قام بها إلى الجزائر التي غادرها يوم 12 فيفري من نفس السنة (76). غير أن الملك انقلب على الأتراك بعد الهزيمة التي لحقت بهم في تونس (كما سنرى لاحقا)، و تقرب من الأسبان.

في 5 سبتمبر، أرسل مولاي محمد إلى الأسبان يعرض عليهم صلحا و يقترح معاهدة يعترف فيها الإمبراطور به ملكا، مقابل أن يدفع الضريبة و يطلق سراح المسيحيين الذين هم لديه، على أن يرفضوا هم استقبال ابن رضوان، قائد بني عامر و كذلك حفيده الملك عبد الله، الذي ينازعه الحكم، و يلتزم هو بالتخلي عن المراسي الساحلية مقابل أن يعترف له الإمبراطور بالمناطق الداخلية. و اقترح، أخيرا، أن يدوم الصلح مدة عشر سنوات (77). رفض حاكم وهران و المرسى، الكونت دالكوديت الصياغة التي قدمها مولاي محمد فأرسل صياغة أخرى يوم 13 سبتمبر تتضمن عشرين مادة، يعترف فيها الملك محمد أنه يصبح " خادما و صديقا و حليفا و خاضعا للمولى الإمبراطور دون كارلوس، ملك إسبانيا إذا رغب جلالته في أن يشملني بحمايته "(78). على الرغم من أن الملك قبل المعاهدة إلاّ أنه تماطل في تطبيقها. لقد كانت هذه المعاهدة نتيجة من نتائج انتصار الأسبان في تونس، الانتصار الذي سمح لهم بفرض معاهدة حماية على مولاي الحسن ملك تونس الحفصي.

هوامش الفصل الأول

(1) فرسان القديس يوحنا هم الذين شكلوا جمعية دينية مسيحية في فلسطين سنة 1113عرفت باسم (الوسبيتالية)، وكانت تقدم المساعدة لحجاج البقاع المقدسة المسيحية في فلسطين في سنة 1140 تحولت إلى هيئة عسكرية، دون أن تفقد دورها السابق بعد سقوط عكا سنة 1291 و طرد الصليبيين من الشام استقرت الجمعية في قبرص ثم تمكن أعضاؤها من الاستيلاء على جزيرة رودس سنة 1309، فأصبحوا يعرفون باسم فرسان رودس. و لما استولى العثمانيون على الجزيرة سنة 1523 منحهم شارل كان جزيرة مالطة سنة 1530فعرفوا باسم فرسان مالطة لقد نشطوا القرصنة ضد المسلمين في الحوض الغربي للبحر المتوسط و شاركوا في العديد من المعارك التي خاضتها البلدان الأوربية ضد الدولة العثمانية و ضد الجزائر سقطت سلطتهم في الجزيرة لما استولى نابوليون بونابرت على هذه الأخيرة سنة 1798 و هو في طريقه إلى مصر. استولى عليها الإنجليز في أوائل القرن التاسع عشر.

(2) وولف. المرجع السابق ص 28.

(3) هايدو المرجع السابق ص 42 - 45.

(4) الزياني المرجع السابق ص 348.

(5) أوصديق المرجع السابق ص 13 و 14.

(6) هايدو المرجع السابق ص 17.

(7) قايد. المرجع السابق ص 35.

(8) هايدو المرجع السابق ص 17

(9) القرصان أندريا دوريا هو رجل حرب جنوي. ولد سنة 1148 يعد من أميرالات البحر الكبار في القرن السادس عشر. كان مرتزقا خدم بعمارته البابا اينوسونو ملك نابل والعديد من الأمراء بعد أعمال قرصنة عديدة، عين على رأس الأسطول الفرنسي في البحر المتوسط في عهد فرنسوا الأول، و هاجم شارل كان في السواحل الجنوبية لفرنسا سنة 1524 بعد خلافات مع الملك الفرنسي انتقل إلى خدمة شارل كان سنة 1528، فأصبح أهم أميرال بحري إسباني في البحر المتوسط بهذه الصفة قاد و شارك في العديد من الحملات على بلدان المغرب بعد وفاته سنة 1560، استمرت عائلته في خدمة ملوك إسبانيا خلال القرن السادس عشر.

(10) نفسه. ص 18.

(11) Suzette GRANGER.Au cœur des Babors Djidjelli en Petite Kabylie.T1.Coll.Africa Nostra 1968 p.34

(سوزيت غرانجي في قلب البابور جيجل في القبائل الصغرى سلسلة أفريقا نوسترا 1968. ص34).

(12) قايد. المرجع السابق ص 36.

(13) نفسه.

(14) الوزان المرجع السابق. الجزء الثاني. ص 38 و 39.

(15) قايد. المرجع السابق ص 36.

(16) هايدو. المرجع السابق ص 51.

(17) دو فولكس المرجع السابق ص 67.

(18) الوزان. المرجع السابق الجزء الثاني. ص 37.

(19) هايدو. المرجع السابق ص 55.

نشير هنا إلى اختلاف الروايات حول مصير قارة حسن، إذ منها ما تذكر انه قتل من طرف عروج، و منها ما تذكر انه أصبح من كبار قادته.

(20) هايدو. المرجع السابق ص 55 و 56.

(21) جوليان المرجع السابق ص 327.

(22) هايدو. المرجع السابق ص 56 و 57.

(23) نفسه ص 59.

(24) Ernest WATBLED.Etablissement de la domination turque en Algérie. Revue Africaine.N.17 (1873).p.356

(ايرنيست واطبليد.إقامة الهيمنة التركية في الجزائر.المجلة الإفريقية عدد 17 (1873) ص 356).

(25) هايدو. المرجع السابق ص 61.

(26) نفسه. ص 61 و 62.

نشير هنا إلى أن الملك هو ذلك الذي سار إلى إسبانيا و اعتنق المسيحية، كما ذكرنا سابقا.

(27) H.D.de GRAMMONT.Quel est le lieu de la mort d'Around'j Barbarousse.Revue Africaine .N.22 (1878).p.391.

(هـ.د. دو غرامون.ما هو مكان مقتل عروج بربروس؟ المجلة الإفريقية.عدد 22 (1878) ص 391).

(28) محمد بن عمرو الطمار.تلمسان عبر العصور. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1984. ص 229 و 230.

(29) هايدو. المرجع السابق ص 67 و 68.

(30) انظر نص الرسالة في : بريموداي.المرجع السابق ص 148 - 153.

(31) قايد. المرجع السابق ص 40.

(32) المدني.المرجع السابق ص 190 و 191.

(33) الطمار. المرجع السابق ص 230 و 231.

(34) واطبليد. المرجع السابق ص 359.

(35) دو فولكس.المرجع السابق ص 68.

(36) وولف. المرجع السابق ص 33.

(37) واطبليد.المرجع السابق ص 359.

(38) هايدو. المرجع السابق ص 118 و 119.

(39) واطبليد.المرجع السابق ص 361 و 362.

(40) هايدو.المرجع السابق ص 118 و 119.

(41) نفسه ص 359 - 361.

(42) كورين شوفالييه.الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510 - 1541. ترجمة جمال حمادنة.ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر 1991.ص 42.

(43) ساندوفال.المرجع السابق ص 277.

(44) بنوجيت.المرجع السابق ص 205.

(45) هايدو.المرجع السابق ص 52.
(46) شوفالييه.المرجع السابق ص 25.
(47) أوصديق.المرجع السابق ص 13 - 18.
(48) شوفالييه.المرجع السابق ص 44 و 45.
(49) دردور.المرجع السابق ص 12.
(50) شوفالييه.المرجع السابق ص 45 و 46.
(51) انظر: المدني. المرجع السابق ص 214.
(52) دردور.المرجع السابق ص 13.
(53) نفسه.
(54) بنوجيت.المرجع السابق ص 198.
(55) فيرو.بنو جلاب. المرجع السابق عدد 26. ص 256.
(56) دردور.المرجع السابق ص 13.
(57) شوفالييه.المرجع السابق ص 48.
(58) E.LESPINASSE.Note sur Hachem de Mascara. Revue Africaine N.21 (1877).pp.144 et 145
(أو.ليسبيناس.مذكرة حول هاشم معسكر.المجلة الإفريقية.عدد 21 (1877).ص 144 و 145).
(59) شوفالييه.المرجع السابق ص 30
(60) هايدو.المرجع السابق ص 125.
(61) انظر نص الرسالتين في : بريموداي.المرجع السابق ص 163 ـ 166
(62) دوفولكس.المرجع السابق ص 350 و 351.
(63) جوليان.المرجع السابق ص 330.
(64) هايدو.المرجع السابق ص 127 و 128.
(65) المدني.المرجع السابق ص 221 - 225.
(66) وولف.المرجع السابق ص 41.
(67) انظر نص الرسالة في: بريموداي.المرجع السابق ص 187 - 190. انظر الهامش كذلك.
(68) قايد. المرجع السابق ص 46 و 47.
(69) انظر نص الرسالة في : بريموداي.المرجع السابق ص 166 و 167.
(70) هايدو.المرجع السابق ص 231. انظر الهامش كذلك.
(71) انظر الرسالة في : نفسه ص 174 - 177.
(72) انظر الرسالة في : نفسه.ص 178 و 183 - 185.
(73) انظر نص الرسالة في : نفسه ص 185 - 187.
(74) نفسه. ص 190.
(75) نفسه. ص 22 و 23 .انظر الهامش كذلك.
(76) نفسه. ص 273 - 275.
(77) نظر. المدني.المرجع السابق ص 257 - 259.
(78) انظر نص الرسالة في : بريموداي.المرجع السابق عدد 20. ص 334 و 385 – 387

الفصل الثاني:

البايلربايات في مواجهة الأسبان وملوك المغرب

كان خير الدين أول من عينته الدولة العثمانية ممثلا لها في إيالة الجزائر الوليدة.كان ذلك سنة 1518.لقد أظهر خير الدين كفاءة و مقدرة في الميدانين السياسي و العسكري. تمكن من إعادة سلطة الأتراك إلى مدينة الجزائر.لهذا،فإن الدولة العثمانية،التي كانت تطمح إلى توسيع نفوذها في المغرب،قد عينته سنة 1534 على رأس كل المغرب،بمعنى الأقاليم التي تمت السيطرة عليها و الأقاليم التي من المنتظر السيطرة عليها مستقبلا.كانت الدولة العثمانية،التي عينته بايلربايا،تريد منه أن يضم إليها كل بلاد المغرب.

ظلت الدولة العثمانية تعين على المغرب بايلربايات إلى غاية وفاة علج علي سنة 1587.كانت هذه الفترة من أخصب فترات الحكم التركي في الجزائر و المغرب،من حيث النشاط في ميدان التوسع و في ميدان الصراع مع أوربا بصفة عامة و إسبانيا بصفة خاصة.ظل البايلربايات على ولائهم للدولة العثمانية،و إن كان ذلك على مضض أحيانا.لكن القسطنطينية كانت تخشى تزايد نفوذهم و قوتهم.لهذا ما إن بلغت توسعاتها نهايتها في المغرب حتى أسرعت إلى إلغاء هذا المنصب،ملتجئة إلى تعيين عدة مسؤولين يخضعون لها مباشرة.كان لهؤلاء البايلربايات أن يحكموا إيالة الجزائر بصفة مباشرة أو بواسطة من يعينونهم نوابا عنهم. لم يكن هؤلاء البايلربايات مقيدين بمواقف الديوان،الذي كان يمثل الانكشارية أساسا،لقد كانوا من رجال البحر لا من الجيش البري.

الحملة التركية على تونس

كانت تونس الحفصية تعيش صراعات شبيهة بما كان يجري لدى الزيانيين.في سنة 1526 توفي السلطان الحفصي أبو عبد الله محمد،فحل محله الحسن بن محمد على العرش.كان الحسن هذا طاغية،أحدث مجزرة بين أفراد العائلة الملكية،فقتل و فقأ عيون اخوته و أخواته و فعل الشيء نفسه بأبناء اخوته و أخواته و نساء اخوته. لم ينج من بطشه سوى أخوه الرشيد،الذي فرّ إلى أحد قادة القبائل العربية،يعرف باسم عبد الله،إلاّ أن هذا القائد لم يستطع مواجهة مدفعية السلطان،ففر الرشيد إلى خير الدين مستنجدا به (1).لقد أثارت تصرفات

السلطان الحسن الكثير من سكان تونس. أرسل بعضهم سنة 1532 إلى خير الدين يطلبون الدعم لتخليصهم من السلطان هذا (2). كانت الفرصة مواتية لأتراك الجزائر و الدولة العثمانية للسيطرة على تونس، التي كانت تمثل موقعا استراتيجيا هاما في حوض البحر المتوسط، قبل أن تسقط بيد الأسبان الذين كانوا يريدونها لوقف توسع العثمانيين في الحوض الغربي للبحر المتوسط. لم يتردد خير الدين في تنظيم حملة على تونس. شرع في تحضيرها في نفس السنة.

سار خير الدين إلى القسطنطينية، رفقة مولاي الرشيد، حاملا معه مشروع إسقاط السلطان الحسن. هاجم، في طريقه، سفنا إسبانية و استولى على بعضها مع بحارتها. في القسطنطينية عُيّن خير الدين قبطان ـ باشا، أي أمير البحر العام للأسطول العثماني (3). بعد أن قدم له السلطان العثماني سليم أسطولا و منحه لقب بايلرباي قفل راجعا تاركا الأمير الحفصي الرشيد محبوسا في العاصمة العثمانية (4).

كان أسطول خير الدين يحمل على متنه حوالي ألف وثمانمائة إنكشاري و حوالي ستة آلاف و خمسمائة رجل من الألبان و الأناضوليين و اليونانيين و حوالي ستمائة رجل من الأعلاج (المسيحيون الذين أسلموا و أصبحوا أتراكا). توقف الأسطول مرات عديدة في كلابريا (جنوب إيطاليا) لجمع العبيد و الغنائم و الماء و الخشب (5). لما بلغ عنابة وجد في انتظاره إمدادات جاء بها حسن آغا، نائبه في مدينة الجزائر. من عنابة سار الجيش التركي برا نحو بنزرت (6) و بحرا نحو حلق الوادي. دخل الأسطول هذا الميناء الأخير، دون مقاومة تذكر، يوم 16 أوت 1534. فر السلطان مولاي الحسن إلى أقاربه من العرب. و وجد خير الدين ترحيبا كبيرا في تونس من أتباع و أقارب الأمير الرشيد فدخلها بسهولة (7) يوم 18 أوت. بعد أن نهب المدينة أعلن عن نهاية عرش بني حفص، فخضعت له المدن الساحلية من دون عناء (8). تصالح مع الأعراب مقابل أن يُبقي لهم الاقطاعات التي قدمها لهم بنو حفص (9). غير أنه لم يجد إلا الرفض من قبل القيروان، المدينة التاريخية الداخلية. بقي خير الدين في تونس، ينظم المنطقة الجديدة، و يقوم بتجهيز حملات القرصنة في سواحل إيطاليا، حتى سنة 1535، و هي السنة التي طرده فيها الإمبراطور شارل كان من تونس (10). كان مولاي الحسن المخلوع قد أرسل، عملا بنصيحة أحد أعلاجه و هو من أصل ألماني، إلى شارل كان طالبا مساعدته لاستعادة عرشه (11).

في 31 ماي 1535، انطلق الأسطول الإسباني المتكون من 450 قطعة بحرية تحمل 30 ألف رجل، من برشلونة تحت قيادة شارل كان نفسه. بلغ خليج تونس يوم 15 جوان. على الرغم من المقاومة العنيفة التي ووجه بها إلاّ أنه تمكن من الاستيلاء على حلق الوادي، فانسحب خير الدين مع جنوده البالغ عددهم ستة آلاف و خمسمائة رجل إلى تونس. تدعم صف الأسبان بتدخل عرب القيروان إلى جانب مولاي الحسن حليف الأسبان .بعد حلق الوادي حُوصرت

مدينة تونس و تدعم صف الأسبان مجددا حين تمكن، يوم 18 جويلية، حوالي عشرة آلاف أسير مسيحي من الفرار من سجونهم و استولوا على مدفعية القصبة، و قصفوا بها مؤخرة القوات التركية (12) حسب رسالة الإمبراطور شارل كان إلى قائده في بجاية (مؤرخة 23 جويلية)، فإن خير الدين غادر مدينة تونس يوم 21 جويلية رفقة حوالي خمسة آلاف رجل، بعد أن ترك في ساحة المعركة العديد من جنوده، و عتاده، من سفن و مدفعية. و يؤكد شارل كان على أنه سمح لجنوده بـ " نهب المدينة " عقابا لسكانها الذين " لم يحسنوا استقبال عاهلهم " مولاي الحسن. و تحسبا لأن يسير خير الدين إلى مدينة الجزائر براً، أمر شارل كان قائده في بجاية بالاستعداد لقطع طريقه. في هذا الإطار أمره بإعلام ابن القاضي " عدو بربروس " و " شيوخ البلاد الآخرين " لتحقيق الغاية نفسها (13) لكن خير الدين لم يسر إلى مدينة الجزائر براً.

أبرم الأسبان، في 6 أوت 1535، معاهدة مع مولاي الحسن، أهم ما جاء فيها : ـ فرض الحماية على تونس، تسليم حلق الوادي للأسبان و إمكانية تواجد هؤلاء الأسبان في عنابة، بنزرت و المهدية و غيرها من المواقع التي يرونها ضرورية لحماية تونس و التزام تونس بعدم تقديم يد المساعدة للقراصنة، أعداء الإمبراطور ـ التزام الملك الحفصي بمنع الأندلسيين من اللجوء إلى مملكته و التزامه بتحرير كل الأسرى المسيحيين، رجالا و نساء و أطفالا سواء كانوا عبيدا أو أقنانا و مساعدتهم في العودة إلى " أرض المسيحية " و كذلك التزامه بضمان حرية المسيحيين في مملكته و ضمان حقهم في العبادة و بناء الكنائس ـ التزام الملك الحفصي بتقديم 12 ألف دوقة ذهبية سنويا لإسبانيا مقابل الرسوم المختلفة على التجارة في حلق الوادي ـ احتكار الإمبراطور لتجارة المرجان في حلق الوادي (14).

عاد خير الدين الى عنابة، بعد أن خاض معركة في الطريق مع الأعراب، في ناحية تيبرسوق، خسر خلالها ما يقرب من خمسمائة رجل من رجاله (15). من عنابة ركب مراكبه ليتوجه إلى الجزائر، لكنه لم يجد بدا من أن يتوجه إلى الباليار ليقوم بعمليات قرصنة قبل دخوله إلى مدينته. اتجه إلى ماهون بمينورقة فاستولى على قطعة بحرية برتغالية و أضرم النار في المدينة كما استولى أيضا على عدد كبير من الأسرى ثم عاد إلى الجزائر (16). يذكر بعض المؤرخين أن خير الدين سار إلى الجزائر أولا و بعد استراحة فيها خرج إلى القرصنة. لكننا نعتقد أن الرواية الأولى هي الأقوى، إذ كان لا بد لخير الدين أن يعمل شيئا ما قبل أن يعود إلى الجزائر فلا يظهر بمظهر المهزوم.

ما إن غادر خير الدين عنابة حتى جاءها الأسبان محتلين (للمرة الثانية) طبقا للمعاهدة المبرمة مع مولاي الحسن الحفصي. في 23 من شهر أوت، ظهرت سفنهم الأولى قبالة المدينة بقيادة ألفا دي بازان. لكن ما إن وقع الإنزال في السيبوس حتى هاجمهم الفرسان الأهالي، فأجبروهم على الخروج من الميناء. في 25 وصل الجزء الأكبر من الأسطول الذي كان يقوده

المركيز مونديجار. و كان يحمل على متنه ثلاثة آلاف رجل تمّ إنزالهم بعيدا عن المدينة (17).
حسب رسالة مونديجار إلى الإمبراطور (مؤرخة 29 أوث)، شكل الأسبان كتيبتين و توجهوا إلى الحصن الذي تخلى عنه العرب، فاحتلوا القصبة و المدينة. في الأيام الثلاثة الموالية انزلوا عتادهم و مؤنهم. قرر القائد المركيز أن يترك مائتي رجل في الحصن و ستمائة رجل في المدينة. أجرى الأسبان اتصالات بالسكان، غير أنها أكدت لهم أنهم " لا يريدون السلم ". و يفهم من الرسالة أن هؤلاء السكان غادروا المدينة (18). لقد فعل المركيز نفس ما فعله شارل كان في تونس، حيث سمح لجنوده بنهب المدينة لمدة ثلاثة أيام، إلا أن المدة الفعلية كانت أطول، لأنه لم يتمكن من إيقاف علميات النهب تلك (19). لقد ظلت عنابة محتلة من الأسبان إلى أن غادروها يوم 16 أكتوبر 1540، بعد أشهر من الجوع و البؤس.

التحاق خير الدين بالأسطول العثماني

التحق خير الدين بالأسطول العثماني في أواخر سنة 1535، باعتباره قائدا عاما له وبايلرباي المغرب، تاركا وراءه حسن آغا على رأس قيادة المنطقة، باعتباره خليفة. لقد ترك خير الدين وراءه إيالة قابلة للتوسع تمتد من تنس إلى قسنطينة. حسب مذكرة إسبانية تعود إلى 1533، كان للأتراك حاميات في تنس، برشك (بين تنس و شرشال)، شرشال، المدية، مليانة، دلس، بنورة، جيجل، القل و قسنطينة(20).

عمل حسن آغا على توسيع رقعة الإيالة. كان من اكبر معاوني خير الدين. كان قد وقع أسيرا بيد هذا الأخير، في سواحل سردينيا، و هو لا يزال طفلا. رباه خير الدين و نقله من دينه الأصلي، المسيحية إلى الإسلام، فهو إنن علج من الأعلاج. لما شبّ أسند إليه الكثير من المسؤوليات، فأظهر شجاعة و كفاءة (21). لما انتقل خير الدين إلى القيادة المباشرة للأسطول العثماني كلفه بقيادة الإيالة نيابة عنه. لقد ارتبط اسم حسن آغا بحملة شارل كان على الجزائر سنة 1541.

حملة شارل كان على مدينة الجزائر

لقد أولى الإمبراطور هذه الحملة أهمية كبيرة. جمع لها إمكانيات بشرية و مادية ضخمة من إمبراطوريته الواسعة (انظر الخريطة). شاركت الكنيسة الكاثوليكية فيها. في سنة 1539 وافق البابا على منح الإمبراطورية نصف مداخيل الكنيسة، كما كتب في هذا الصدد إلى كرادلة طليطلة و بورغوس و أسقف اشبيلية و مطران قرطبة (22).

كان شارل كان قد تفاوض مع خير الدين، قبل الحملة، في محاولة منه لإقامة حلف ضد كل من الإمبراطورية العثمانية و فرنسا حليفتها. لكن خير الدين اشترط أن تكون له بلاد المغرب كلها، من سواحل المحيط الأطلسي إلى طرابلس. توقفت المفاوضات لما اكتشف شارل كان أن خير الدين كان يُطلع السلطان العثماني و ملك فرنسا بتفاصيل هذه المفاوضات. مع هذا لم ييأس و فاوض حسن آغا عن طريق حاكم وهران. لقد جعلت هذه المفاوضات الأخيرة الأسبان يعتقدون أن حسن آغا سوف يسلمهم مدينة الجزائر بمجرد وصولهم إليها (23). لقد انخدع الأسبان للمرة الثانية.

ما إن علم حسن آغا باستعدادات الحملة حتى دعّم تحصينات مدينته و أقام أخرى جديدة و جمع أعيان المدينة حول شيخها السعيد الشريف و أبلغهم أوامره و أمر قادته بتنظيم و تنشيط المتطوعين خارج المدينة. لقد كان يعول على هؤلاء المتطوعين في منع أو عرقلة العدو في تقدمه نحو الجزائر التي منع السكان من الخروج منها. كان تحت تصرفه داخل المدينة ثمانمائة تركي من الجنود المدربين و خمسة آلاف رجل من المتطوعين من سكان المدينة الذين كانوا يجيدون استعمال السلاح (24).

ضم أسطول الحملة 65 سفينة حربية و أكثر من أربعمائة سفينة نقل من كل الأحجام و الأنواع. كانت الحملة ـ حسب المصادر الإسبانية ـ تتكون من 24 ألف جندي من الألمان والإيطاليين و الأسبان (25)، كما كانت تضم فرسان مالطة و متطوعين من أجناس أخرى. كان شارل كان هو القائد العام لها، و إلى جانبه العديد من الشخصيات البارزة مثل فرناند كورتيس فاتح المكسيك، مصحوبا بولديه (26) و أندريا دوريا، أميرال الإمبراطور و الكونت دالكوديت، حاكم وهران الشهير و كولونا قريب البابا (27).



مبراطورية شارل كان
المحيط لأطلسي
بولونيا
الامبراطورية المقدسة
فرنسا
إسبانيا
البرتغال
البليار
مملكة نابلي
البحر المتوسط
الجزائر
الامبراطورية العثمانية
البحر الأسود

في 19 أكتوبر لاح الأسطول الإسباني في أفق مدينة الجزائر. في 21 بلغ خليج المدينة لينزل الجحافل التي كانت على متنه في الضفة اليسرى من وادي الحراش (28). بعد عملية الإنزال مباشرة أوفد الإمبراطور مبعوثه دون لورانزو مانويل إلى حسن آغا يعرض عليه مكافآت كبيرة له و لزملائه مقابل التخلي عن المدينة، فكان جواب حسن آغا أنه لا يريد النصيحة من أعدائه، و انه يتّكل على الله (29). يطرح بيربروجير السؤال حول ما إذا كان هذا الرد معبرا عن إرادة أو رغبة حسن آغا، أم أن هذا الأخير كان تحت الضغط، ثم يجيب عن السؤال بأن الرواة الأهالي يؤكدون الفكرة الأولى، أما الأسبان فيؤكدون على الفكرة الثانية. هذه الأخيرة هي رأي بيربروجير، الذي يستند إلى المفاوضات التي كانت تجري بين حسن آغا و الكونت بالكوديت، حاكم وهران، قبل الحملة و بعدها. كما يستند إلى تأكيدات مارمول، المؤرخ الذي عمل مدة ست سنوات في الجيش الإسباني بالمغرب، و قد شارك في هذه الحملة كذلك. يذكر مارمول أن المفاوضات بين حسن آغا و الإمبراطور قد أوقفها علج يهودي أصيل مالقا، و أن هذا اليهودي هو القائد محمد، الذي جاء إلى حسن آغا مع أعلاج آخرين و أتراك ليهددوه إن سلم المدينة للأسبان. مع هذا لا يستبعد بيربروجير، من جهة أخرى، أن تكون تلك المفاوضات ربحا للوقت فقط بالنسبة لحسن آغا (30). لا يشير هايدو إلى هذه النقطة و اعتبرها توفيق المدني" فرية لا تعتمد على أساس " (31). إننا إذ نميل إلى فكرة ربح الوقت، فإننا لا نستبعد أن يكون حسن آغا قد مرّ بلحظة ارتأى فيها تجنيب مدينة الجزائر كارثة مثل الكوارث التي عرفتها تونس وعنابة و بجاية و غيرها التي نكب الأسبان سكانها عند احتلالهم لها، لما نأخذ في الاعتبار ضخامة الحملة و ضعف الإمكانيات التركية المادية منها و البشرية، التي لم تكن قادرة على مواجهة الأسبان لولا تدخل عوامل طبيعية فيما بعد.

انقسم الجيش الغازي يوم 24 أكتوبر إلى ثلاثة أقسام : قسم يتكون من الأسبان و قسم يتكون من الألمان (بقيادة الإمبراطور نفسه) و قسم يتكون من الإيطاليين و فرسان مالطة والمتطوعين الذين جاءوا من مختلف البلدان المسيحية. تحرك الجيش لمحاصرة المدينة، فبلغ المهاجمون يوم 25 قمم المرتفعات. و استقر الإمبراطور في كدية الصابون (أقيمت فيها فيما بعد قلعة مولاي حسن، التي اشتهرت باسم قلعة الإمبراطور)، بين الألمان، حين كان الإيطاليون يتوزعون حول المدينة، أسفل المرتفعات و إلى غاية تافورة، و الأسبان يتوزعون حولها كذلك إلى غاية باب الوادي. أنزل شارل كان المدفعية، و أمر سفنه بالتقدم إلى الميناء لقصف المدينة من البر و من البحر. في نهاية يوم 25 اكفهر الجو و أخذت الأمطار في الهطول. و في الليل انفجر إعصار، فهاج البحر الذي ألحقت أمواجه أضرارا بالسفن لا يمكن إصلاحها، فغرق العديد منها. و في نهاية النهار كان الضباب يغطي السهل و البحر، في وقت لم تتوقف فيه الأمطار عن الهطول (32). في هذه الوضعية هاجم الجنود الأتراك و المتطوعون القوات الإسبانية الغازية مستعملين بندقية الموسكيت و السهام. قتلوا العديد من جنود شارل كان ثم انسحبوا إلى الخلف

لتشرع المدفعية في قصف هؤلاء الغزاة ،الذين لم يجدوا بدا من التراجع إلى الخلف. خرج حسن آغا رفقة فرسانه بقوة فلم يتمكن فرسان مالطة من صدّ الهجوم رغم تدخل الإمبراطور نفسه. هنا في الوقت الذي كانت فيه المدفعية تقذف السفن التي كانت تتلاعب بها أمواج البحر الهائج فتحطمها و تغرقها. اضطر أندريا دوريا لمغادرة ساحة المعركة إلى تامنتفوست بما تبقى له من سفن. من هناك كتب إلى الإمبراطور ينصحه بالانسحاب قبل فوات الأوان و تعقد الأمور أكثر ممّا هي عليه (33). ألحّ كورتيس، فاتح المكسيك على الابتعاد و انتظار سكون العاصفة للقيام بمحاولة أخرى. كان رأي الكونت دالكوديت، حاكم وهران من رأي أندريا دوريا (34).

ترك المجدفون،وهم من الأسرى المسلمين في أغلبيتهم، عملهم أثناء انسحاب السفن و اندفعوا نحو اليابسة، فنتج عن هذه العملية ارتطام 16سفينة بالساحل (35). أمام هذه الوضعية أمر الإمبراطور جيشه بالانسحاب إلى تامنتفوست، فلاحقه حسن آغا إلى غايتها و قتل العديد من الجنود و أسر آخرين وغنم كثيرا من الخيول و من أشياء أخرى (36). وجد المنسحبون عقبة كبيرة في طريقهم تمثلت في ارتفاع منسوب مياه وادي الحراش،فلم يعبروه إلاّ بعد أن أنشأوا جسرا من أخشاب سفنهم (37).من تامنتفوست أبحر ما تبقى من الحملة نحو بجاية،دون انتظار وصول ملك كوكو،الذي سار هو الآخر مع كثير من الفرسان و ألف من أتباعه المسلحين بالموسكيت نحو مدينة الجزائر،لدعم الإمبراطور. في الطريق علم بالكارثة كما علم أن شارل كان في طريقه إلى بجاية.عاد إلى جباله و أرسل مؤونة إلى الأسبان،كانت لها أهمية كبيرة (38).

كانت خسائر شارل كان ضخمة،تمثلت في مائتي سفينة،ثلاثون منها حربية و مائتي مدفع و ألف رجل،بين قتيل و جريح و أسير، و كمية ضخمة من العتاد و الأسلحة و الذخيرة (39). صبّ الإمبراطور جام غضبه في بجاية على اليهود الذين كانوا قد نزحوا من إسبانيا. أهانهم وعذبهم و استرق عددا منهم. بعد أن تفقد تحصينات المدينة و أسوارها و أدخل عليها بعض الترميمات ،غادرها يوم 16 نوفمبر (40).أما حسن آغا، الذي أرسل إليه السلطان سليمان رسالة خطية و قفطانا فخما ولقب الباشا (41)،فقد أخذ يستعد لمواجهة حملة أخرى قد يشنها الإمبراطور لمحو عار الهزيمة النكراء التي لحقت به رفقة جيش ضخم.

في رسالة لدون ألنزو، حاكم وهران بالنيابة إلى أبيه الكونت دالكوديت،حاكم وهران مؤرخة 25 ديسمبر 1541،نجد وصفا للاستعداد الذي كان يقوم به حسن آغا. إنها تسجل أن الأتراك تمكنوا من إعادة تعويم خمس سفن إسبانية من السفن التي دفعتها الأمواج إلى ساحل مدينة الجزائر،كما أخرجوا من مياه البحر 60 قطعة من قطع المدفعية،أربع قطع منها صغيرة و الباقي كبيرة،و أن حسن آغا أرسل المال إلى ملك باديس يطلب بناء سفن جديدة له. كما أرسل إلى ملك تلمسان و إلى كبار المرابطين يطلب منهم الدعم و المساندة (42).بعد أشهر من الانتظار،قرر حسن آغا أن يضرب ابن القاضي،الحليف المحلي للأسبان. و كان الأتراك لا

يزالون على حلفهم مع أمير بني عباس، الذي عرف كيف يستغل فرصة انشغالهم بالأسبان وبابن القاضي ليوسع نفوذه نحو الحضنة و ناحية سطيف و سهول حمزة (البويرة)، و ينظم إدارة أقاليمه (43).

إخضاع مملكة كوكو و بسكرة

سار حسن آغا في أفريل من سنة 1542 إلى ملك كوكو، على رأس حملة تتكون من حوالي ثلاثة آلاف تركي و ألفي رجل من فرسان الأهالي و ألف راجل، يحملون معهم 12 مدفعا. لكن ملك كوكو، الذي رأى أنه غير قادر على مواجهة هذه القوات، خضع للأتراك من دون قتال. وقدم لهم كمية كبيرة من المال و الأبقار و الجمال و الأغنام كما التزم بدفع الضريبة سنويا. تأكيدا للوفاء بالتزاماته قدم ابنه و ولي عهده، سيدي أحمد، البالغ من العمر 15 سنة، رهينة في يد الأتراك. فعاد حسن آغا إلى الجزائر من دون قتال (44).

في الناحية الشرقية، سيّر حسن آغا حملة أخرى إلى بسكرة، هي الأولى من نوعها، فحصل على خضوع السكان لسلطته. عاد رفقته من بسكرة إلى قسنطينة علي بوعكاز، قائد العشائر العربية، الدواودة الذين كانوا يهيمنون على المنطقة، كما رأينا سابقا. لقد منحه حسن آغا قفطان التولية على البدو تحت اسم شيخ العرب (45).

تلمسان بين الأسبان و الأتراك

أدار حسن آغا وجهه إلى الغرب، إلى تلمسان التي كانت تعيش اضطراباتها السياسية المعهودة، بسبب المتنازعين على الملك و تدخل كل من الأسبان و الأتراك في شؤونها.

كان مولاي محمد ملك تلمسان قد انتقل إلى صف الأتراك، بعد هزيمة شارل كان في مدينة الجزائر، و سلم لهم قلعة المشور (46). لكن الكونت دالكوديت، حاكم وهران كان يريد أن يمحو آثار الهزيمة بأي انتصار يحققه على الأهالي، فاستغل وجود أعداء أقوياء للملك محمد، من أمثال أولاد موسى - عبد الله و شيخ غريف بتسالة و بني عامر و عبد الله الملك المخلوع و أنصاره، لينظم حملة ضد تلمسان (47).

ومعلوم أن عبد الله هو أخ الملك محمد و حفيد ابن رضوان شيخ بني عامر، حلفاء الأسبان منذ احتلالهم وهران.

أرسل الكونت سنة 1542 فرقة عسكرية بقيادة دون ألنزو، لإغاثة حليفه عبد الله، غير أن هذه الفرقة هلكت عن آخرها تقريبا، الشيء الذي حتم على إسبانيا أن ترسل قوات جديدة و مدفعية و ذخيرة إلى وهران، لتتمكن من الاستيلاء على تلمسان (48). بهذه القوات نظم الكونت حملة كبيرة على المدينة.

جهز الكونت، في فيفري 1543، حملته التي تكونت من 12 ألفا من المشاة وألفي فارس و أنصار مولاي عبد الله. سار الجيش إلى تلمسان، يدله على الطريق أحمد العلج ابن رضوان و عراب قائد أولاد خالفة. واجه مولاي محمد الذي لم تصله الإمدادات التركية الأسبان و حلفاءهم بقواته الضعيفة و قوات المنصور بن بوغانم، قائد بني راشد، غير أن الأسبان تمكنوا من دفعه في تيبيدة، ففرّ إلى تلمسان، ثم غادرها مع عائلته في ليلة 4 و 5 فيفري. دخل الكونت دالكوديت المدينة. نصب مولاي عبد الله ملكا (49)، ثم عاد إلى وهران بصعوبة، حاملا معه المدافع التي فقدها دون ألنزو كما نقل معه جرسا كان يستعمل مصباحا في مسجد من مساجد تلمسان (50).

لكن ما إن عاد الكونت إلى وهران حتى اضطربت تلمسان من جديد، فقد اشتكى وجهاء المدينة إلى الملك الجديد من الأفعال المفسدة التي ارتكبها الأسبان في مدينتهم، لكن الملك لم يعرهم اهتماما. غادروا مدينتهم ليلتحقوا بمولاي محمد الذي كان في أنكاد أين كان أنصاره يشنون حملة دعائية مناوئة لمولاي عبد الله. كان يحرضهم في حملتهم تلك المرابطون. أما الملك عبد الله فقد عقد معاهدة مع الأسبان يوم 26 فيفري، تجعله خاضعا لهم (51). هذه التطورات في الجهة الغربية استدعت تحرك مدينة الجزائر.

جهز حسن آغا حملة وجهتها تلمسان، و قد انضم إليها عبد العزيز أمير بني عباس، إلاّ أن الكونت دالكوديت خرج من وهران ليهاجم مستغانم، فحول حسن آغا وجهته هذه الأخيرة، ليدعم حمودة بن عودة، حليفه في هذه المدينة. بعد استراحة في أرزيو، هاجم الأسبان في مزغران و أجبرهم على التراجع إلى وهران (52). لقد عاد حسن آغا إلى الجزائر دون أن يسير إلى تلمسان، و بقي فيها إلى أن توفي. و قد اختلف في تاريخ وفاته، إذ يذكر هايدو أنه توفي في أواخر سبتمبر 1543 (53)، غير أن دوفولكس يؤكد اعتمادا على شاهدة قبره، أنه مات في نوفمبر 1545 (54). إننا إذ نرجح الرأي الأخير، فإننا لا ننفي أن يكون حسن آغا قد ابتعد عن السلطة قبل هذا التاريخ.

تمرد بوطريق

كانت وفاة أو تنحي حسن آغا عن السلطة فرصة لبعض القبائل كي تتخلص من سلطة الأتراك،أو بالأحرى تتخلص من الضريبة. من هذه القبائل نجد قبيلة ريغة. كانت هذه القبيلة تقيم في نواحي مليانة و كان يقودها شيخها المدعو بوطريق (صاحب الطريق). كانت القبيلة تسيطر على الطرف الغربي من الطريق الرابط بين مليانة و مدينة الجزائر و من هنا جاءت تسمية شيخها باسم بو طريق كما يقول بيربروجير (55).

جمع بوطريق حوالي عشرين ألف رجل من المشاة و الفرسان، من قبيلته و من قبائل أخرى. و سار بهم في اتجاه الجزائر، في نهاية مارس 1544، فنهب و خرب كل ما وجده في طريقه. ألحق هزيمة نكراء بحامية مليانة التركية المتكونة من 40 انكشاريا مسلحين بالموسكيت، و قتل قائدها التركي المعروف باسم حسن، وهو في طريقه من مدينة الجزائر إليها. وصلت أخبار بوطريق إلى الجزائر فانتشرالرعب بين سكانها. في نهاية ماي خرج الحاج باشا، الذي حل محل حسن آغا في انتظار من تعيينه استنبول، رفقة أربعة آلاف تركي و حوالي خمسمائة رجل من الأندلسيين أو الصبايحية لمواجهة بوطريق هذا. أسند القيادة العامة للقائد رمضان، كما أسند قيادة المشاة إلى الكطاني (وهو علج صقلي من مدينة كطانا).كان يرافقه قادة آخرون مثل القائد صفا، القائد عميسة، مصطفى قائد المدية الخ. التقى الجمعان عند سفح جبل ماطا (المرجح أنه جبل سوماطة بالقرب من العفرون) وكان مقاتلو بوطريق لا يملكون من السلاح إلا السيوف والدروع فألحق بهم الأتراك هزيمة نكراء. فر بوطريق إلى فاس. لم يفقد الحاج باشا سوى حوالي مائتي جندي. عاد إلى الجزائر ينتظر الحاكم الجديد،و هو حسن باشا بن خير الدين (56).

نهاية عرش بني زيان

المشكلة الأولى التي واجهت حسن باشا بن خير الدين هي مشكلة تلمسان.ظل على عرشها الملك الذي نصبه الكونت دالكوديت،الملك عبد الله،بعد أن فر أخوه محمد.لقد قتل محمد هذا في كمين نصب له في أنكاد،فخلفه أخوه مولاي محمد (57) يتفق كل

من هايدو و مارمول في أن أحد اخوة الملك عبد الله طلب دعم حسن باشا غير أن هايدو يتكلم عن أخ صغير السن، بينما يتكلم مارمول عن أحمد (58).

سار حسن باشا، في بداية جوان 1545، رفقة قوات تتكون من ثلاثة آلاف تركي (انكشاري) و ألف صبايحي يمتطون الخيول، و المدفعية. عند مروره بتنس قدم له ملكها حميد العبد ألفي فارس عربي. وصل هذا الجيش بسرعة إلى تلمسان دون أن يجد مقاومة تذكر، لأن ملكها فرّ إلى حلفائه في وهران، لما علم بقدوم الأتراك إليه. بعد أن نصب حسن باشا الملك التابع له و هو أحمد، عاد إلى الجزائر(59). غير أن الأسبان في وهران حصلوا على قوات جديدة جاءت من إسبانيا، فساروا إلى تلمسان و أعادوا الملك المخلوع سنة 1547 (60).

تضايق أهل تلمسان من حكم ملكهم الذي فرضه الأسبان فأرسلوا سنة 1547 يطلبون النجدة من الأتراك مقترحين على حسن باشا أن ينصب نفسه ملكا عليهم. سار حسن باشا للمرة الثانية إلى تلمسان على رأس قوات شبيهة بالأولى. على الطريق بين وهران و تلمسان، غير بعيد عن الأولى، التقى بالكونت دالكوديت، الذي كان على رأس ستة آلاف رجل من رجاله و ستة آلاف رجل من أنصار ملك تلمسان. قبل أن يلتحم جيشا المتحاربين جاء مبعوث فرنسي ليخبر حسن باشا بوفاة أبيه خير الدين فانسحب هذا الأخير إلى تنس ثم إلى الجزائر (61). تذكر مصادر إسبانية أن حسن باشا وافق على بقاء الملك في عرشه (62).

لعل هذا القرار هو الذي جعل أهل تلمسان يتوجهون إلى ملك المغرب الأقصى محمد المهدي الذي انتصر على بني وطاس سنة 1549، فطردهم من عاصمتهم فاس. طلب أهل تلمسان سنة 1550 من الملك صاحب مراكش و فاس أن يرسل إليهم شقيق ملك تلمسان الذي طرده الأسبان، كي يطيح بالملك العميل للمسيحيين، الذي كان يضطهدهم و يثقل كاهلهم بالضرائب التي كان عليه أن يدفعها للأسبان. استغل المهدي الفرصة و جهز جيشا من 12 ألف فارس و 10 آلاف رجل من المشاة، من بينهم 5 آلاف علج مسلحين بالموسكيت، و أسند القيادة لابنه الأكبر المعروف باسم الحران و دعمه بابنه الأصغر مولاي عبد الله، كما أرفق الولدين بالأمير الزياني الذي طالب به أعيان تلمسان. استولى هذا الجيش على المدينة بدون عناء، ففرّ ملكها إلى الأسبان. لكن، بدلا من تنصيب الأمير الزياني، سُلمت تلمسان إلى عبد الله بن محمد المهدي، و قيل للأمير إن الجيش المغربي ينوي غزو الجزائر، و انه سوف يُنصب هو على تلمسان بعد إنجاز هذه المهمة. سار الجيش المغربي إلى بلاد قبيلة بني عامر (حليفة الأسبان)، بالجبال

المجاورة لمدينة وهران، فنزحت القبيلة إلى أن بلغت جدران مستغانم، فلاحقها المغاربة إلى هناك (63).

في تعليق له على ما ذكره هايدو، يذكر غرامون أن اتفاقا كان قد تم بين الملك المغربي و حسن باشا يقضي بتنصيب ملك جديد على تلمسان، ثم يسير الجيش المغربي إلى وهران حيث ينضم إليه الجيش التركي، فيعمل الجيشان معا على تحرير وهران و المرسى الكبير من الأسبان، ثم يهاجمان إسبانيا نفسها، لكن تصرفات المغاربة و إرادتهم في الاحتفاظ بتلمسان لأنفسهم، جعلت حسن باشا ينقلب عليهم. جهز حسن باشا جيشا من خمسة آلاف رجل و ألف صبايحي وعشرة مدافع، أسند قيادته لثلاثة قادة هم التركي صفا و العلج حسن كورصو، أصيل كورسيكا، و العلج السرديني ساردو أما هو فقد بقي في مدينة الجزائر للدفاع عنها في حالة وصول المغاربة إليها (64) كان عبد العزيز أمقران أمير بني عباس، إلى جانب الجيش التركي (65).

سار الجيش التركي إلى مستغانم أين التقى ببني عامر، فقرر المغاربة الانسحاب، إلاّ أن قطعانا ضخمة من الماشية (أبقار، جمال، وغيرها)، كانوا قد استولوا عليها، عرقلت مسيرتهم، فأدركهم الأتراك و بنو عامر، قبل وصولهم إلى تلمسان. كانت هناك معركة عنيفة دامت ساعات طويلة، قُتل فيها الكثير من الخلق، منهم قائد الجيش المغربي و الأمير الزياني. دخل بنو عامر و الأتراك تلمسان بسهولة رافعين رأس القائد المغربي على حربة، و كان أخوه عبد الله قد غادرها. نهب المهاجمون المدينة، و وضع الأتراك حامية لهم فيها بقيادة صفا، تتكون من **1500** انكشاري مزودين بـ **10** مدافع (66). انسحب المغاربة يرافقهم أولئك الذين وجهوا لهم الدعوة من تلمسان، و من هؤلاء المنصور بن بوغانم قائد بني راشد (67)، الذي سوف يتحالف مع المغاربة، من غير أن يفقد الأمل في استعادة تلمسان.

بهذه الطريقة انتهى عرش بني زيان لصالح الأتراك، إلاّ أن الجهة الغربية لم تعرف الاستقرار، فقد ظلت الحروب قائمة بها إما بين الأتراك و الأسبان و إما بين الأتراك و المغاربة.

الحملة التركية على تقرت و ورقلة

انتقل حسن باشا إلى القسطنطينية،في سبتمبر 1551 تاركا على الجزائر الخليفة سعيد صفا،الذي تولى المسؤولية إلى شهر أفريل 1552.كان صفا من عائلة فلاحية فقيرة تقطن الأناضول،جاء الجزائر مغامرا مع أتراك آخرين. بعد مسؤوليات مارسها في الجزائر عُين قائدا لتنس،بعد وفاة حميد العبد (68).ظل حاكما للجزائر إلى أن جاء صالح رايس بايلربايا،و هو قرصان عربي مشهور من مدينة الإسكندرية. نشأ منذ الصغر بين الأتراك بعد أن غزا السلطان سليم مصر و أنهى السلطة المملوكية هناك.انتقل صالح إلى تركيا ثم إلى المغرب أين انضم إلى خير الدين إلى أن أصبح قائدا من قادته الكبار فنقله معه،حين عين على رأس الأسطول العثماني،و ظل كذلك إلى أن اختاره السلطان ليكون قائدا لسفينته الخاصة،ثم عينه على رأس الجزائر - أو بالأحرى على رأس المغرب كله - التي وصلها في أفريل 1552 (69).ما إن وصل صالح رايس إلى الجزائر حتى علم أن تقرت و ورقلة قد امتنعتا عن دفع الضريبة المعتادة.و كانت المدينتان قد خضعتا للأتراك لتحميا نفسيهما من القبائل العربية (70).و قد جاء هذا الخضوع عقب حملة حسن آغا إلى ناحية بسكرة و الزيبان، و هي الحملة التي كنا قد تعرضنا لها سابقا.

نظم صالح رايس حملة من ثلاثة آلاف تركي و علج و ألف فارس مزودين بمدفعين. في أوائل أكتوبر 1552 سار نحو الصحراء (71)،فلحق به عبد العزيز أمير بني عباس على رأس ألفي فارس و ستة آلاف رجل من المشاة (72) كما التحق به بوعكاز شيخ العرب (73).لم يتجرأ ملك تقرت الصبي أحمد بن سليمان بن عمر، على الخروج لمواجهة الأتراك. قصف صالح رايس المدينة مدة ثلاثة أيام، و بعد سبعة أيام من الحصار اقتحمها و ألقى القبض على الملك الذي ألقى بالمسؤولية على وصيّه.بعد تقرت سار الأتراك إلى ورقلة صاحبين معهم ملك تقرت. لما علم ملك ورقلة بقدوم الأتراك فرّ مع جنوده البالغ عددهم أربعة آلاف رجل،فلم يجد صالح رايس في المدينة سوى أربعين زنجيا جاءوا ليبيعوا عبيدهم في ورقلة.اضطر الملك للاعتراف مجددا بالسلطة التركية ملتزما بدفع الضريبة. بعد استراحة دامت عشرة أيام عاد جيش الأتراك إلى تقرت،أين أعاد ملكها إلى عرشه،بعد أن التزم هو الآخر بدفع الضريبة. كانت ضريبة ورقلة تتمثل في ثلاثين عبدا كل سنة و ضريبة تقرت 15 زنجية (74). ما إن عادت حملة تقرت حتى وقع الخلاف بين الأتراك و حليفهم أمير بني عباس.

اصطدام الأتراك بأمير بني عباس

كان الأتراك قد استعملوا عبد العزيز أمقران أمير بني عباس ضد بعض القبائل و ضد ملك كوكو في جرجرة، الأمر الذي سمح له أن يوسع نفوذه إلى غاية البيبان، في الوقت الذي تمكن فيه الأتراك من إقامة نقاط تابعة لهم مباشرة في زمورة، حمزة و مسيلة، بينما دعم الأسبان موقعهم في بجاية (75). بعد حملة الصحراء، اختلف عبد العزيز مع الأتراك في شأن تقسيم الغنائم و تبعية منطقة مسيلة و بوسعادة. حاول الأتراك قتل الأمير في قصر الجنينة، فلم ينقذه من الموت سوى الزواوة. استعمل الأتراك حامياتهم في زمورة، البرج (بوعريرج)، مسيلة و حمزة (البويرة) لمراقبة نشاطات الأمير، و في نفس الوقت تقربوا من أولاد القاضي، و توصلوا إلى الاتفاق معهم، مقابل حرية الزواوة في التجارة و التنقل الحرّ بين الجزائر و داخل البلاد. كان رد فعل الأمير عبد العزيز أن حاصر الحاميات التركية سنة **1552**. عندها نظم صالح رايس حملة قوامها ألفا انكشاري و ألف فارس من عرب المتيجة، و سار على رأسها حتى بلغ البيبان، إلاّ أن قوات بني عباس أجبرته على التقهقر. أعاد الأتراك الكرة من جديد في شتاء السنة الموالية بحملة من حوالي سبعة آلاف و ستمائة جندي، يقودهم محمد بن صالح رايس. أسفرت المعارك بين الطرفين عن خسائر كبيرة في الأرواح (76). استغل الأمير عبد العزيز انشغال الأتراك بالمغرب الأقصى ليحقق انتصارات عدة ضد الحاميات التركية، حتى أصبح سيد الحضنة و البيبان و فرض الرسوم على السلع المارة بأبواب الحديد، الواقعة على الطريق بين قسنطينة و الجزائر (77). لكن ما إن فرغ صالح رايس من أمر المغرب الأقصى حتى أرسل حملة أخرى ضد بني عباس سنة **1554**

كانت الحملة ضعيفة لا تضم سوى أربعمائة إنكشاري و مائة و خمسين صبايحيا مدعمين من ألفين و خمسمائة عربي يقودها سينان رايس و القائد رمضان. اصطدمت هذه الحملة بقوات عبد العزيز في وادي الحمام، غير بعيد عن مسيلة. خسر الطرفان رجالا عديدين، إلاّ أن الكفة مالت لصالح بني عباس فاضطر الأتراك إلى تدعيم حامية مسيلة ثم العودة إلى الجزائر (78). لم ينته الخلاف بين الطرفين إلاّ في إطار الحرب ضد الأسبان في بجاية.

بعد أن دعا صالح رايس إلى الجهاد ضد الأسبان، عن طريق العلماء المالكيين و الحنفيين، استعمل علماء و وجهاء منطقة بني عباس لتحقيق المصالحة مع الأمير عبد العزيز. اشترط هذا الأخير الاعتراف له بالسيادة على المناطق التي كانت

تحت سلطته الفعلية، بما فيها الحضنة و مسيلة، و الاعتراف له بفرض الرسوم على معبر أبواب الحديد في البيبان، على كل تجارة تمر به، بما فيها تجارة الأتراك أنفسهم. بهذه الشروط انضم الأمير عبد العزيز إلى المجهود الحربي المبذول للقضاء على الأسبان في بجاية (79). هذا بالنسبة للعلاقات بين الأتراك و أمير بني عباس، في الناحية الشرقية، أما في الناحية الغربية فكانت للأتراك تدخلات في بلاد المغرب الأقصى.

دعم الأتراك للوطاسيين في المغرب الأقصى

كان الصراع في المغرب الأقصى قائما بين الوطاسيين، في فاس و هم الذين كانت تقف إلى جانبهم الطريقة القادرية، و الأشراف السعديين، في مراكش و هم الذين كانت تساندهم الطريقة الشاذلية. تمكن السعديون من الاستيلاء على فاس سنة 1549. بعد ذلك هاجموا الغرب الجزائري في السنة الموالية، إلى أن طردهم جيش حسن باشا، كما رأينا سابقا. في عملية من عمليات القرصنة تعرف صالح رايس على بوحسون الوطاسي، الذي كان يسعى لاستعادة فاس، فقرر صالح رايس أن يقدم له الدعم.

في جوان 1553، خرج صالح رايس على رأس 40 قطعة بحرية للقرصنة في ميورقة بالباليار. أنزل جنوده في ريف من أرياف الجزيرة غير أن فرسانا و جنودا مسلحين بالقرابينات خرجوا من مدينة ميورقة و انقضوا على الجنود الأتراك، فقتلوا منهم 500 رجل منهم الرايس يوسف. اضطر صالح رايس إلى اللجوء إلى سواحل إسبانيا إلا أن السكان هناك علموا بمقدمه فهربوا، و لم يتمكن من الحصول على الغنائم و السبايا. في نهاية جويلية، صادف ست قطع بحرية برتغالية، استولى عليها فوجد على متنها 300 رجل من البرتغاليين أرسلهم ملكهم، جون الثالث لحراسة مولاي بوحسون، الذي كان قد سافر إلى إسبانيا يطلب دعمها (80). لكن هايدو الذي أورد هذه الرواية لم يذكر لماذا كان بوحسون مرفوقا بالبرتغاليين و هم من أكبر أعداء السعديين. لقد فسر مارمول ذلك. لقد ذكر أن مولاي بوحسون لم يجد الإمبراطور شارل كان، حين وصل إلى إسبانيا، لأن الإمبراطور كان في أوغسبورغ بألمانيا و رفض ابنه ملك إسبانيا ماكسيميليان استقباله، فسافر إلى ألمانيا لكنه لم يتمكن من مقابلة الإمبراطور فعاد إلى إسبانيا ومنها انتقل إلى البرتغال، أين حصل على وعود و كانت البداية منحه القطع البحرية المذكورة ليدعم نشاطه في باديس (81).

توجه صالح رايس إلى حجر باديس، التي كان يقودها المسمى موسى لحساب ملك فاس. موسى هذا عرض المدينة على صالح رايس إلا أن هذا الأخير طمأنه بأنه لم يأت غازيا لأنه في سلم مع ملك المغرب الأقصى و قدم القطع البحرية التي استولى عليها هدية لملك المغرب الأقصى، بمدافعها، و طلب من قائد حجر باديس أن يخبر ملكه أنه سوف يحبس بوحسون في الجزائر لتعامله مع المسيحيين و أن يبلغه رجاءه في ألا يتجاوز جبال الملوية القابلة للبلة، التي تفصل بين مملكتي تلمسان والمغرب الأقصى، ثم سار إلى الجزائر. لكن، و قبل أن تمضي ثلاثة أشهر على هذا الاتصال، عبرت مجموعة كبيرة من الناهبين الملوية و غزت منطقة تلمسان، إما برضى الملك وإما بدون علمه. البعض ينكر هذه الحادثة، و يقول أن بوحسون أقنع صالح رايس أن يدعمه لاستعادة فاس، مقابل كمية كبيرة من المال، فأعلن هذا الأخير الحرب على الملك الشريف المغربي(82). مهما كانت الأسباب فقد قرر صالح رايس مهاجمة المغرب الأقصى، بعد أن استمال ملك كوكو ضد عبد العزيز أمقران أمير بني عباس، و جعل من رعايا الملك فرسانه في هجومه، و ذهب أبعد من ذلك فتزوج من إحدى بناته.

في بداية جانفي 1554، سار صالح رايس على رأس حوالي 11 ألف رجل بين أتراك مسلحين بالموسكيت و صبايحية و أهالي أرسلهم ملك كوكو و آخرين، وحمل معه 12 مدفعا كلف بها 80 مسيحيا من الأسرى مقابل إطلاق سراحهم في نهاية العملية. سار صالح رايس إلى المغرب الأقصى برا و أرسل 22 قطعة بحرية نحو حجر باديس تحسبا لانسحاب محتمل، إذا وقعت الهزيمة (83). من جهته، جهز الشريف المهدي ملك المغرب جيشا من 30 ألف فارس و 10 آلاف راجل و من المسلحين بالقرابينات و رماة القذائف و حرسه الخاص المتكون من المسيحيين الأعلاج و 20 مدفع ميدان. خرج من فاس الجديدة يرافقه أبناؤه و أحفاده و قادته و فرقته الموسيقية، كما يذكر مارمول (84). أما هايدو فيشير إلى 40 ألف فارس و عدد كبير من المشاة (85).

التقى الجمعان في تازة، فكانت المعركة التي انتصر فيها الأتراك و الوطاسي بوحسون انتصارا كبيرا، لأن الكثير من قادة ملك المغرب الأقصى اتفقوا مع بوحسون على الانتقال إلى جانب الأتراك خلال المعركة (86). أثناء انسحاب المغاربة، تعزز الجانب التركي بوصول أتباع مولاي بوحسون من مناطق نفوذه في نواحي باديس، و كان عددهم ستمائة رجل من الرماة، كما يروي مارمول (87). وضع صالح رايس حامية في تازة من مائتي تركي، على رأسهم القائد حسن، و واصل طريقه إلى فاس الجديدة، التي لاذ بها السلطان المهدي (88). استقبل الأتراك بالترحاب على ضفاف وادي سبو من طرف السكان ، الذين جندهم إخوان الطريقة

القادرية،أما السلطان المغربي فقد دعّم حرسه الخاص بالأسرى المسيحيين واعدا إياهم بالحرية،كما يضيف مارمول (89). المعركة الثانية و الحاسمة كانت بالقرب من جدران فاس الجديدة،أين كانت الهزيمة من نصيب السعديين ثانية. في الوقت الذي دخل فيه الأتراك فاس من باب،خرج السلطان السعدي منها من باب آخر،متجها إلى عاصمته القديمة مراكش.كانت الغنائم ضخمة جدا في فاس.لما بلغت أخبار سقوط هذه الأخيرة إلى باديس فرّ قائدها فدخلها الأسطول التركي ليجدها مهجورة. أرسل صالح رايس حامية إليها ،تتكون من مائتي رجل. لقد ظل الأتراك في هذه المدينة قابعين حتى 1564،السنة التي استولى فيها عليها ملك إسبانيا فيليب الثاني (90). استعملها يحي رايس قاعدة للقرصنة،فأسر بين سنتي 1558 و1562 ما يقارب الأربعة آلاف شخص (91).

بعد تنصيب بوحسون على رأس فاس، عاد صالح رايس إلى بلاده تاركا بعض جنوده لهذا الملك.يبدو أن هؤلاء الجنود أساءوا السيرة في فاس فاضطر بوحسون إلى طردهم.لهذا لم يجد هذا الأخير قوة أخرى يستند إليها لما هاجمه السلطان السعدي محمد الشيخ و دخل فاس ثانية،في سبتمبر 1554 (92).

تحرير بجاية من الأسبان

إذا كان صالح رايس قد تمكن من استمالة ملك كوكو بسهولة،قبل الحملة على فاس،فإن الأمر لم يكن سهلا مع أميرِ بني عباس.لم يتمكن من تحقيق المصالحة مع هذا الأمير الطامح لإمارة واسعة إلاّ بعد أن اتخذ قرار إعلان الحرب على الأسبان في بجاية.لقد اتخذ صالح رايس هذا القرار على الرغم من نقص الإمكانيات التي كانت تحت تصرفه المباشر،إذ لم يتمكن من جمع اكثر من ثلاثة آلاف تركي أو علج و أربع قطع بحرية،على متنها 12 مدفعا.هذا النقص كان بسبب أن السلطان العثماني أمر البايلرباي بتوفير أكبر عدد ممكن من السفن و الجنود للفرنسيين حلفائه،قصد إعانتهم في الحرب التي كانوا يخوضونها ضد ملك إسبانيا فيليب العدو التقليدي للإمبراطورية العثمانية.لقد قدم صالح رايس للفرنسيين 20 قطعة بحرية محملة بالرجال و الدفعية (93).و معلوم أن الدولة العثمانية تربطها بفرنسا معاهدة موقعة سنة 1535، تؤكد على توطيد التعاون و السلم بين الدولتين.

دعا صالح رايس القادة الأهالي للمشاركة في المجهود الحربي ضد الأسبان المشغولين بالحرب في أوربا.جمع أكثر من 30 ألف رجل من الخيالة والمشاة،جندهم

ملك كوكو و امير بني عباس و قادة آخرون (94).جند أمير بني عباس حوالي ثمانمائة رجل من الخيالة و المشاة،و انضم إليه سكان الصومام و إخوان سي محمد الهادي ،وهو رئيس الطريقة القادرية التي كانت شعبتها تمتد حتى غاية الجهات الأكثر بعدا في بلاد القبائل (95).

سار صالح رايس إلى بجاية في جوان 1555. حاصر المدينة في شهر سبتمبر و قصف تحصيناتها أولا ثم اقتحمها ثانيا.إذا اعتمدنا رسالة قائد بجاية دون ألنزو كاريلو دي بيرالتا إلى الأميرة جان ابنة شارل كان،المؤرخة 17 سبتمبر و رسالة هيرومينو دياز سانشيز مبعوث ملك البرتغال لفدية الأسرى، المؤرخة في أليكانت يوم 16 اكتوبر (96)،فإن عمليات الاستيلاء على بجاية كانت كما يلي :

قصف الأتراك،يومي الاثنين و الثلاثاء 16 و17 سبتمبر، حصن الإمبراطور و هو الحصن الذي وصفه قائد بجاية المذكور بقوله : " لا وجود لجدران قادرة على مقاومة هذه الدفعية المرعبة التي جاء بها هذا الكلب ملك الجزائر.خلال يومين فكّك الأتراك الحصن الإمبراطوري كله و ردموا الخنادق ".أمام هذه الوضعية،توسل القائد للأميرة جان أن تأمر " بإرسال الإغاثة الضرورية من إسبانيا بأقصى سرعة ".حسب معلومات مبعوث البرتغال،أمر قائد بجاية دون بيدرو،قائد حامية الحصن المتكونة من 150 رجلا بتخريب ما تبقى من الحصن و مغادرته.بعد أن دك الأتراك الحصن،وجهوا نيران مدافعهم نحو الحصن الحصين الآخر الموجود بالقرب من الميناء، فقصفوه مدة أربعة أيام. لما اقتحموه وجدوا بداخله 43 شخصا لا يزالون على قيد الحياة،من أصل 60 شخصا كانوا يشكلون حاميته.وجه الأتراك قذائف مدافعهم نحو القصبة،ابتداء من صباح يوم الأحد إلى غاية يوم الجمعة (22-27 سبتمبر)،فقصفوها نهارا و ليلا. هدموا كل شيء إلى الدرجة التي أصبحت فيها القصبة و كأنها لم تكن تملك جدرانا.في 27 حاول الأتراك اقتحام المدينة إلا أنهم رُدّوا على أعقابهم،و فقدوا الكثير من رجالهم.أعادوا الكرة من جديد يوم السبت 28 سبتمبر فأمكن لهم دخول المدينة التي ظلت بيد الأسبان مدة 45 سنة.

حسب الرسالتين المذكورتين دائما،أطلق الأتراك سراح 122 شخصا من المسنين و المعطوبين،كما أطلقوا سراح قائد بجاية دي بيرالتا.منحوا المحررين قطعة بحرية بدون بحارة،تمكنوا بواسطتها من الوصول بمشقة إلى ميناء أليكانت،كما يذكر قائد بجاية الذي اتهم في إسبانيا بالخيانة فأعدم.بعد أن وضع صالح رايس القائد علي ساردو، و هو علج سرديني الأصل،على رأس حامية لبجاية،تتكون من أربعمائة رجل (97) عاد إلى الجزائر ليشرع في التحضير لحملة

على وهران قصد شلها و عزلها عن المغرب الأقصى الذي كان ملكه يفاوض الأسبان في الحصول على الدعم اللازم للقضاء على الأتراك في الجزائر.

حصار وهران

كان الشريف السعدي ملك المغرب الأقصى قد استعاد فاس و دخل في مفاوضات مع الأسبان للحصول على عشرة آلاف إسباني مسلحين ببندقية الأركوبوس،كما جاء في تقرير المبعوث الإسباني إلى فاس،ميكال دي ليزكانو،الموجه إلى الكونت دالكوديت حاكم وهران،المؤرخ في مالقا يوم 22 جويلية1555 (98).استقبل هذا المبعوث من طرف الشريف السعدي و من طرف ابنه الأمير عبد الله الذي كان قد عُين على رأس تلمسان،عند غزوها من طرف القوات المغربية سنة 1550،كما استقبل من طرف القائد المنصور بن بوغانم،قائد بني راشد،الذي انسحب من مدينة تلمسان مع المغاربة بعد الحملة.و حسب التقرير المذكور،فان الشريف السعدي قد " ألحّ على تخريب المدينة (الجزائر) من الأساس،أما فيما يتعلق بالسكان فقال انه يمكن تجريدهم من أملاكهم و حتى قتلهم في حالة ما دافعوا عن أنفسهم ،لكنه لا يقبل أن يصبحوا عبيدا للمسيحيين ".فهو " لا يسمح،بأي حال من الأحوال أن يُستعبد و لو موري واحد (بمعنى مسلم هنا)،لأن ذلك مخالف للشريعة "! كان الكونت دالكوديت من المشجعين على التحالف مع الشريف السعدي،فقد عبر في رسالته المؤرخة 9 أوث 1555 (99) عن رفضه تضييع " هذه الفرصة السعيدة ".و قال : " إنني لا أتردد في تقديم الابن (ابنه) الذي طلبه الشريف حتى لو علمتُ أنه سوف يذبحه ". و كان الشريف قد طلب ابن الكونت رهينة. إن هذه المفاوضات المغربية - الإسبانية والانتصارات المحققة في بجاية هي التي جعلت صالح رايس يستعجل الهجوم على المعقل الإسباني في وهران. لكن الهجوم يدخل،من جهة أخرى، في إطار الصراعات الدولية،و هذا ما يفسر تدخل الباب العالي.

أرسل السلطان سليم إمدادات مؤلفة من أربعين سفينة حربية على متنها ستة آلاف جندي عثماني،أما القوات التي كانت تحت تصرف البايلرباي في الجزائر فقد بلغت حوالي ثلاثين سفينة حربية،و أربعة آلاف جندي،إضافة إلى حوالي عشرة آلاف رجل جاء أغلبهم من جبال بلاد القبائل (100).وصل الأسطول العثماني إلى بجاية في جوان 1556،و سار صالح رايس بسفنه إلى تامنتفوست لينتظر وصول الأسطول هناك،ثم يسير مباشرة نحو الغرب فلا يدخل العثمانيون

مدينة الجزائر التي كانت تعيش وباء الطاعون. لكن ما إن وصل البايلرباي تامنتفوست حتى هاجمه هذا الوباء فمات بعد يوم واحد، دون أن يحقق مشروعه المتمثل في اقتلاع الأسبان من وهران و المرسى الكبير (101). اختار الإنكشاريون بالإجماع، و دون علم القوات العثمانية القائد حسن قورصو، الذي كان قائدا عاما للجيش، خليفة لصالح رايس، في انتظارمن يعينه السلطان العثماني. كان حسن قورصو، العلج الكورسيكي، مملوكا لصالح رايس. بعد هذه المبايعة، استقبل حسن قورصو القوات التي أرسلها السلطان، وتحاور الجميع فقرروا السير إلى وهران، و إحاطة السلطان علما بما وقع (102).

سار حسن قورصو مع القوات البرية إلى مستغانم أين التقى بالأسطول الذي كان يحمل المدفعية. بعد أيام من تنظيمه للجيش، سار إلى وهران في أوث و عسكر بالقرب منها و حفر الخنادق و شرع في مناوشة القوات الإسبانية، ثم نصب المدفعية (103). بعد أن استولى على قلعة القديسين (104)، جاء علج علي، و هو يوناني الأصل، بأمر من السلطان القاضي بالانسحاب الفوري من وهران (105). لقد اختلف في أسباب هذا القرار السلطاني. بعض المؤرخين يفسرونه بما أحدثه أندريا دوريا من تخريب في جزر بحر إيجة و تهديده للبوسفور، وبالتالي كان على الدولة العثمانية أن تسحب أسطولها من الجزائر لمواجهة الخطر في عقر دارها. البعض الآخر من المؤرخين يشير إلى أن السلطان لم يكن يرى في الحصار فائدة، بعد وفاة صالح رايس. إننا نعتقد أن العامل الحاسم في اتخاذ هذا القرار كان سياسيا، يتمثل في الخوف من تصاعد دور الانكشارية السياسي، ذلك أن السلطان لم يأمر بفك حصار وهران و عودة أسطوله لمواجهة أندريا دوريا، رغم معارضة الانكشارية فحسب، بل عين شخصية أخرى لقيادة الجزائر، رغم تمسك الانكشارية بحسن قورصو.

تمرد الإنكشارية

رفع حسن قورصو الحصار عن وهران و عاد إلى الجزائر لمواصلة إدارة الإيالة إلى سبتمبر 1556. كان الجميع راضيا على طريقة إدارته، الأتراك و الأعلاج وحتى المسيحيون، إلى أن عُلم أن الباشا الجديد و هو محمد تكلرلي قد وصل إلى طرابلس ترافقه ثماني سفن. عم القلق سكان مدينة الجزائر و عزم الأتراك و الإنكشاريون على رفض سلطته و التمسك بحسن قورصو. أمروا قائدي بجاية و عنابة بإجبار الباشا الجديد على العودة من حيث أتى و رفض استقباله في الميناءين. هذا ما حصل بالفعل فقد استقبل الباشا بنيران المدافع في عنابة، التي كان على رأسها العلج

اليوناني مصطفى،و في بجاية ،التي كان على رأسها القائد ساردو.لما وصل ،في نهاية سبتمبر،إلى تامنتفوست لم يجد أحدا من الإنكشارية في استقباله.إن البحارة،الذين عاشوا دائما في خلاف مع الإنكشارية،هم الذين مكنوه من إفشال التمرد و الدخول إلى مدينة الجزائر (106).

كان البحارة يشكلون جهازا قويا يتكون من أتراك و أعلاج و أهالي وكانوا في خصام دائم مع الإنكشارية،يرفضون السماح لعناصرها ركوب سفنهم و المشاركة في أعمال القرصنة.في هذا الوقت كان الرايس شلوق هو قائدهم أو رئيس طائفتهم،و كان مساعدوه الأقربون الذين دعموا الباشا الجديد هم مامي رايس،وهو علج من نابولي و والي رايس،و هو تركي و مصطفى رايس،و هو علج ألباني و يحي رايس،وهو تركي (107).

بعد أن استقر تكلرلي في الجزائر،شرع في تصفية أعدائه و منهم حسن قورصو،الذي صُلب إلى أن مات و علي ساردو قائد بجاية،الذي مات تحت التعذيب و مصطفى قائد عنابة الذي خُوزق و هو حي (108).لكن هذه التصفيات ألـبت الإنكشارية على الباشا تكلرلي أكثر فأكثر،فسعت إلى تصفيته جسديا.

في رسالة مؤرخة في طبرقة يوم 12 ماي مجهولة الهوية (109)،نجد تفاصيل عن كيفية اغتيال تكلرلي.تقول الرسالة إن الباشا كان مصابا بمرض في رجليه،فخرج إلى حمامات مليانة (يتعلق الأمر إذن بحمام ريغة) للمعالجة. استغل الإنكشاريون المتذمرون من الاغتيالات اليومية التي كان يأمر بها و كذلك نهب أموالهم،غيابه وغياب البحارة،فجمعوا الديوان، وقرروا ألاّ يستقبلوه عند عودته من مليانة.لما علم تكلرلي بالخبر أسرع في العودة إلى الجزائر. وجد أبوابها موصدة في وجهه،و لم يُسمح بالدخول إلاّ للقائد مصطفى آغا (قائد) الإنكشارية.جمع الباشا أتباعه و سار إلى جامع صغير خارج المدينة. تشاور الإنكشاريون في كيفية قتله،فتطوع علج كورسيكي،كان عبدا لحسن قورصو، و قال لهم: " إن هذا الخائن قد قتل سيدي و أنا أتـكفل بقتله ". لتنفيذ وعده طلب عشرين أو خمسة و عشرين رجلا،فكان له ما طلب.سار العلج هذا إلى الجامع،و قد أخفى سيفا في ثيابه. لما أصبح أمام الباشا سجد و قبل قدميه، و بعد لحظات أجهز عليه بسيفه.حاول أتباع الباشا أن يوقفوه فدافع عن نفسه إلى أن تدخل أصحابه و آخرون كانوا في الجامع فقتلوا كل أتباع الباشا. و تذكر الرسالة أن تلك الحوادث وقعت يوم 18،و معنى هذا أنه قتل في أواسط أفريل و هذا التاريخ يفنّد التاريخ الذي قدمه هايدو،و هو نهاية ديسمبر 1556،لكن هايدو يعرفنا بالجامع الذي قتل فيه الباشا،و هو جامع

سيدي يعقوب (في كدية الصابون)،كما يعرفنا بالعلج الكورسيكي الذي قتل الباشا،و هو قائد تلمسان و اسمه يوسف.(110).

يذكر هايدو أن الإنكشاريين اختاروا القائد يوسف خلفا للباشا إلاّ أن يوسف هذا أتى عليه الطاعون بعد ستة أيام فقط ،فاختاروا قائدا آخر اسمه يحي،و هو قائد مليانة،الذي حكم مدة ستة أشهر،إلى أن عين السلطان العثماني حسن باشا بن خير الدين للمرة الثانية على رأس الجزائر(111). لكن رسالة للملك فيليب الثاني ملك إسبانيا،مؤرخة بلندن يوم 21 جويلية 1557(112)، موجهة إلى مصطفى الأرناؤوط بصفته حاكم الجزائر،تذكر أن هذا الأخير تم اختياره حاكما رئيسيا للجزائر من طرف الأتراك و الأهالي معا،و أن السلطان سليمان سوف يحاول تنحيته عن هذه المسؤولية حين يعلم بالخبر. لهذا تعرض الرسالة تقديم دعم الملك لمصطفى هذا في الوقت المناسب. هل معنى هذا أن مصطفى هو الذي عُين بعد مقتل تكلرلي و ليس يوسف الذي ذكره هايدو ؟ و من هو مصطفى الأرناؤوط (الألباني) هذا ؟ أم أن هناك انقساما في صفوف الإنكشارية؟ أم أن الإنكشارية عينت حاكما وعينت طائفة الرياس حاكما أخر من جهتها ؟ لماذا يرسل ملك إسبانيا إلى مصطفى، إن لم يكن هذا الأخير يريد الانفصال عن الدولة العثمانية عدو إسبانيا التقليدي ؟ يبدو أن مصطفى هذا ليس شخصا آخر غير مصطفى آغا الإنكشارية الذي سمح له بالدخول إلى مدينة الجزائر وهو الذي كان في وضعية تبوئه، قبل غيره، لمسؤولية الحاكم في الجزائر. رغم هذا فإننا لا نملك الإجابة عن هذه الأسئلة.

كان البايلرباي حسن باشا مؤهلا لتجاوز أزمة السلطة في الجزائر. لقد كان مدعوما من الرياس،و خاصة القدامى منهم رفقاء أبيه خير الدين،و كان متفتحا على الأهالي فأمه من هؤلاء الأهالي،فهو كرغلي إذن. أكثر من ذلك، كان يعرف الجزائر بحكم فترة حكمه الأولى.لكن ما إن مسك حسن باشا بزمام الأمور في الجزائر حتى ظهرت مشاكل المغرب مجددا.

حملة حسن باشا في المغرب الأقصى

كان سلطان المغرب الشريف محمد المهدي قد استغل الوضعية المضطربة التي كانت تعيشها الجزائر فاحتل تلمسان،بدعم من المنصور بن بوغانم القائد السابق لبني راشد (113) غير أن المغاربة لم يتمكنوا من دخول قلعة المشور التي انسحبت إليها الحامية التركية بقيادة صفا،و كانت تتكون من خمسمائة رجل.

و لأن الملك المغربي لم يكن يملك مدفعية قادرة على دك جدران القلعة، فقد أرسل إلى الأسبان يطلب منهم إعارته مدفعين، غير أن دون مارتان، الكونت دالكوديت لم يلب طلبه (114).

جهز حسن باشا فور وصوله إلى الجزائر حملة تتكون من ستة آلاف تركي أو علج. سار بهم برا، بينما أرسل المدفعية بحرا مع ثلاثة آلاف جندي آخرين على متن أربعين قطعة بحرية. في طريقه إلى مستغانم التحق به حوالي 16 ألف رجل من المشاة و الخيالة. لكن قبل وصوله إلى تلمسان، غادر الملك المغربي هذه المدينة خوفا من الهزيمة (115). بقي البايلرباي في تلمسان إلى أن جاءه خبر مقتل الشريف السعدي و قيام ابنه عبد الله الغالب بالله مقامه، فتحرك نحو فاس. كان مقتل الملك المغربي نتيجة مؤامرة دبرها حسن باشا نفسه. أرسل إليه عددا من الجنود الأتراك أوهموه أنهم جاءوه فارين من باشا الجزائر فأمنهم. وأثناء حملة من حملاته في جبال الأطلس اغتالوه، و نُقلت رأسه إلى استنبول عاصمة الدولة العثمانية. (116).

أمر حسن باشا أسطوله بالإبحار إلى الميناء الجديد بغساسة القريبة من مليلة، وسار هو نحو فاس التي وصلها في أوت (1557)، فكانت هناك معركة خارج المدينة، قتل فيها عدد كبير من الخلق من الطرفين المتحاربين. لم يحقق حسن باشا نصرا، كما وقع مع صالح رايس سنة 1554. عاد إلى الجزائر عن طريق البحر انطلاقا من غساسة (117). لقد تمكن الباشا من تعويض فشله في المغرب الأقصى بذلك الانتصار الذي حققه في السنة الموالية على الأسبان.

انتصار حسن باشا على الأسبان في مستغانم

حصل الكونت دالكوديت سنة 1558 على موافقة إسبانيا على مشروعه القاضي بالاستيلاء على مستغانم. أرسلت قوات إسبانية إضافية إلى وهران، جاءت من قرطاجنة و من مالقا. ما إن وصلت هذه القوات حتى خرج حاكم وهران إلى ناحية جبل تسالة أين كان المفروض أن يلتحق به العرب المتحالفون معه، غير أن هؤلاء العرب لم يأتوا فاستهلك مؤونته في انتظار وصولهم، ثم عاد إلى وهران. من هذه الأخيرة سار إلى مستغانم (118).

في شهر أوت جهز الكونت حملته الكبيرة على مستغانم. شاركت فيها قوات وهران و القوات التي جاءت من إسبانيا و كذلك القوات العربية الحليفة. سار

بجيشه برا، يرافقه المنصور بن بوغانم، و سارت السفن بحرا محاذية للجيش تحمل المؤونة و الأثقال (119)، غير أن البحرية التركية استولت على هذه السفن التي تحمل الذخيرة، بالإضافة إلى المؤونة. هذا هو السبب في الكارثة التي سوف تحل بالجيش الإسباني، كما يرى مارمول (120). بعد أن استولى الأسبان على مزغران، واصلوا طريقهم نحو مستغانم. كان سيرهم بطيئا جدا، الأمر الذي سمح لسكان مستغانم و العرب القاطنين بالقرب من هذه الأخيرة أن يجمعوا حوالي ستة آلاف فارس وعشرة آلاف من المقاتلين المشاة، كما سمح لحسن باشا بتنظيم نفسه والسير إلى المدينة على رأس خمسة آلاف تركي و علج و عشرة آلاف فارس حاملا معه عشرة مدافع. في الطريق، انضمت إليه القوات المحلية في مستغانم. هذا في الوقت الذي خرجت فيه قوات من تلمسان قاطعة المؤونة عن الأسبان بمناوشة مؤخرة جيشهم. كان الجنود الأسبان يعانون الجوع و العطش والتعب، قبل المعركة الحاسمة، فلم يتمكنوا من مواجهة الهجوم التركي، كما يروي مارمول. أخبر علج فارّ من صف الأتراك الكونت دالكوديت بقدوم الأتراك فكان، حسب هايدو، بإمكان الكونت أن يستولي على مدينة مستغانم و يحتمي بأسوارها، إلاّ أن مارمول يفيدنا أن الأسبان كانوا يحاولون بالفعل الاستيلاء على مستغانم ، حين أدركهم الأتراك (121). لقد شنوا هجوما عاما يوم 23 أوت، قاومه جنود الحامية التركية و الأهالي الذين انضموا إليهم .و قد تمكن الأسبان من اكتساح أسوار المدينة فأصبحت هذه الأخيرة كلها ساحة معركة (122).

عند وصولهم حاصر الأتراك القوات الإسبانية مباشرة، و انتقل الأهالي الذين كانوا إلى جانب الأسبان إلى الصف التركي، فانسحب الأسبان في فوضى إلى أن وصلوا مزغران فلاحقهم الأتراك يأسرون و يقتلون ثم استولوا على مزغران يوم 26 أوت و قتلوا عددا كبيرا من الجنود الأسبان (123). لقد قتل أو وقع أسيرا أكثر من عشرة آلاف إسباني. لم يسترجع الأسبان هيبتهم بعد هذه الهزيمة الشنعاء (124). كانت معركة مزغران أكبر كارثة تعرضت لها الجيوش الإسبانية في الغرب الجزائري، قُتل فيها الكونت دالكوديت نفسه، كما وقع ابنه في قبضة الأتراك، غير أن حسن باشا سمح لهذا الأخير الجريح دون مارتان قرطبة أن يأخذ جثة أبيه(الفرطاس، كما كان يسميه الأهالي). كلف الابن في يوم الغد فارسا من فرسان الأهالي بنقل جثة أبيه إلى وهران، أين دُفنت في كنيسة القديس دومينيك (125).

اكتفى حسن باشا بهذا الانتصار الكبير، و لم يتجه إلى وهران لمحاولة الاستيلاء عليها في ظل الفوضى التي سادت بين الأسبان الذين فقدوا قائدهم و الجزء

الأكبر من قواتهم.لقد عاد إلى الجزائر ليفتح جبهة أخرى في شرق العاصمة. موقف حسن باشا هذا يبدو غريبا لا تفسره سوى المناورات السياسية في عاصمة الخلافة العثمانية.

تمرد أمير بني عباس

عادت الاصطدامات بين الأتراك و أمير بني عباس في سنة 1559 لأن الأمير عبد العزيز رفض دفع الضريبة،على خلاف ملك كوكو. استعد للمواجهة فكوّن فرقة من الخيالة المسلحين بالموسكيت اعتمادا على من فرّ إليه من الجنود الأتراك و من الأسرى المسيحيين (126).كما تدعم بألف جندي جاءوه مباشرة من إسبانيا (127).يبدو أنه كان ينوي السيطرة على بجاية ليجعلها عاصمته.لقد أقلقت قوات أمير بني عباس المتنامية جيرانه أولاد القاضي كما أقلقت رؤساء قبائل الحضنة.لقد فرض الضريبة على العاضيد،أولاد سليمان،أولاد سعيد و أولاد يحي.كانت هذه الضريبة تسلم للأتراك من قبل لصيانة حامية الإنكشارية في مسيلة.جهز حسن باشا حملة من ستة آلاف تركي و أندلسي و ستمائة صبايحي و أربعة آلاف فارس عربي و قبائلي و ثمانية مدافع وجّهها ضد الأمير عبد العزيز.عسكرت في مجانة أولا،أين أنشأت برجا يأوي حامية قوية،ودعّمت حامية زمورة،ثم توجهت إلى قلعة بني عباس.اصطدمت بقوات عبد العزيز بالقرب من تالا مزيتة،لكن الأتراك الذين كانوا يستعملون المدافع تمكنوا من قتل عبد العزيز. واصل أخوه أمقران المعركة مدة أربعة أيام ثم عقد صلحا معهم.تخلى بموجبه عن مطالب الإمارة في الزيبان و في الضفة اليسرى من وادي الساحل. كما التزم باحترام القبائل الخاضعة للحاميات التركية في مناطق نفوذه. بذلك توقفت الحرب (128). و معلوم أن الأمير أمقران هو الذي تنتسب إليه العائلة من الآن فصاعدا و من أسمه جاء اسم المقراني.

تمرد الإنكشارية على حسن باشا

ما إن فرغ حسن باشا من مشكلة أمير بني عباس حتى وجد نفسه أمام تمرد للإنكشارية.إن الإنكشارية التي تمردت على ممثل السلطان من قبل،تتمرد الآن على حسن باشا بدعوى أنه يريد أن ينفصل عن الدولة العثمانية.الحقيقة أن الانكشارية لم تكن مع الدولة العثمانية إلاّ بالقدر الذي يسمح لها بالحفاظ على

امتيازاتها في بلاد الجزائر، لأنها كانت دائما تخشى أن تفقد هذه الامتيازات لصالح أهالي البلاد.

وقعت القطيعة بينها و بين حسن باشا لما حاول الأخير أن يحدّ من نفوذها بإدخال عناصر أخرى في الجيش، تتكون من الأهالي. دعم حسن باشا علاقاته بملك كوكو فتزوج من ابنته، كما فعل أبوه خير الدين من قبل، و زوج قائده حسن من كبيرة بنات أخت زوجته، و أقام بالمناسبة احتفالات كبيرة، و سمح للجنود الزواوة بالتجول في المدينة حاملين الأسلحة، الشيء الذي لم يكن مسموحا به من قبل أبدا (129). تزايد عدد هؤلاء الزواوة في المدينة، حتى أصبح سنة 1561 حوالي ستمائة (130) الأمر الذي أثار حفيظة الإنكشارية التي رأت في وجود هؤلاء الأهالي تهديدا مباشرا لها. جمع آغا الإنكشارية محمد كوسة الديوان الذي قرر دعوة حسن باشا للإعلان عن منع الزواوة من الدخول إلى مدينة الجزائر، و طرد القبائليين منها. تطورت المسألة، فألقي القبض على الباشا نفسه مع اثنين من مقربيه، و أرسلوا إلى القسطنطينية مكبّلين، بدعوى أن الباشا يريد أن يسلم السلطة في الجزائر لملك كوكو (131). يبدو أن السلطان كان يعرف جيدا الأسباب الحقيقية التي كانت وراء هذا التصرف، فلم يقتنع بطروحات الإنكشارية و اعتقل الوفد الذي رافق المقبوض عليهم، ثم أمر بإعدام أعضائه (132).

أرسل السلطان العثماني أحمد باشا كي يعمل على تصفية المتمردين. و كان أحمد باشا البوسني الأصل من المقربين للسلطان و مسؤولا عن حدائق السراي، فكان يحصل على مداخيل كبيرة من بيع أزهار الحدائق و فواكهها و أعشابها، فيقدم جزء من هذه المداخيل للسلطانة المفضلة لدى السلطان. هذه الوضعية أكسبته ثقة هذا الأخير(133).

كانت التصفيات واسعة النطاق، هناك من أرسل إلى استنبول حيث أعدم و هناك من أعدم في الجزائر و هناك من أبعد عن القيادة، لكن الذين تمكنوا من النجاة تمكنوا من أن يدسّوا السم لمبعوث السلطان فمات. خلفه القائد يحي إلى أن جاء حسن باشا إلى الجزائر للمرة الثالثة (1562). لقي ترحيبا كبيرا " حتى النساء، المغلوق عليهن في هذا البلد صعدن الأسطح للترحيب به بزغاريدهن"، كما يقول هايدو (134). بمجرد وصوله إلى الجزائر أمر بتحضير حملة على وهران و المرسى الكبير.

حصار حسن باشا لوهران و المرسى الكبير

بعد الهزيمة التي لحقت الأسبان في مستغانم و مزغران سنة 1558،أرسلت إسبانيا إمدادات إلى وهران للقيام بخرجات تحفظ سمعة السلطة الإسبانية في الغرب الجزائري.لقد وصلت إحدى هذه الخرجات إلى غاية سيدي سليمان،على بعد 16 فرسخا جنوب وهران.هذا في الوقت الذي كان فيه هؤلاء الأسبان يحضرون أنفسهم ليواجهوا حصارا تركيا جديدا محتملا.في هذا الإطار أرسل الملك فيليب الثاني أربعة آلاف رجل على متن مجموعة من القطع البحرية. أبحرت من مالقا،إلاَ أن عاصفة عاتية وقعت يوم 19 أكتوبر 1562 أغرقت 22 قطعة و معها أغلبية الجنود (135).

في يوم 5 فيفري 1563،خرج حسن باشا من الجزائر بجيش ضخم. شارك فيه الإنكشاريون و الأندلسيون،فبلغ عدد المسلحين ببندقية الموسكيت 15 ألفا،إضافة إلى ألف صبايحي من الخيالة و ألف فارس أرسلهم ملك كوكو و أهالي انضموا إليه في الطريق،كما هو الشأن في كل الحملات المتجهة نحو الغرب.أرسل حسن باشا بحرا 32 قطعة بحرية محملة بالمدافع و الذخيرة و المؤونة،بالإضافة إلى ثلاث قطع بحرية فرنسية،تحمل هي كذلك المؤونة و الكثير من براميل البارود (136).في الأيام الأولى من شهر أفريل تقدم الجيش التركي إلى جدران وهران فابتعدت عن طريقه القبائل التي ظلت وفية للأسبان،أما البقية فقد انضمت إلى هذا الجيش.بعد أن استولى الأتراك على قلعة القديسين،ركزوا هجماتهم على المرسى الكبير.لكن محاولات اقتحام المرسى العديدة،باءت كلها بالفشل.ظل حسن باشا يحاول إلى أن وصل أسطول إسباني يوم 8 جوان (137)، كان يقوده أندريا دوريا،فانسحب و عاد إلى مدينة الجزائر. كانت الخسائر التركية ضخمة جدا بحيث عاشت مدينة الجزائر مدة طويلة على وقع شكاوي السكان و بكاء النساء والرجال على أبنائهم الذين فُقدوا في ذلك الحصار (138) لتغطية الهزيمة،أمر حسن باشا بتكثيف عمليات القرصنة.كان الجنود الإنكشاريون الذين ظلوا على قيد الحياة على يقين من أن حسن باشا،بوضع الإنكشارية في مقدمة العمليات،كان يريد تسليط العقوبة عليها جزاء تمردها عليه (139).لعل هذا هو سبب تنظيم الحملة بتلك السرعة.

الحملة العثمانية على مالطة

آخر عمل كبير قام به حسن باشا في الجزائر هو المشاركة في المحاولة التي قامت بها الدولة العثمانية للاستيلاء على مالطة و القضاء على فرسانها الذين كانوا يقلقون أقاليمها و يقفون في وجه سعيها للسيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط. قاد حسن باشا بنفسه أسطول إيالة الجزائر.كانت الدولة العثمانية قد شرعت في التحضير للحملة منذ سنة 1564 و كان الأوربيون يعلمون بهذه التحضيرات،لكنهم لم يكونوا يعلمون بالمكان المستهدف،أهو مالطة،تونس،حلق الوادي،كريت أم قبرص ؟ أما فرسان مالطة فكانوا متأكدين من أن جزيرتهم هي المستهدفة،لهذا استعدوا على الرغم من نقص الدعم من أوربا التي كانت مشغولة بأمورها. أنزل العثمانيون في ماي 1565 حوالي أربعين ألف رجل بكل معداتهم (140).جاءوا من الجزائر (بقيادة حسن باشا) و من الدولة العثمانية (بقيادة بيالي باشا قائد القوات البحرية و مصطفى باشا قائد القوات البرية) و من طرابلس وجربة (بقيادة درغوط رايس).لكن، على الرغم من حصار دام خمسة أشهر،انسحب العثمانيون لما أرسل نائب الملك في صقلية قوة صغيرة إلى مالطة. كان الأتراك يعتقدون أنها كبيرة.لقد تركوا وراءهم كثيرا من التجهيزات و من المؤونة و غيرها (141).

عند عودته إلى الجزائر، حاول حسن باشا أن يُدخل العرب و القبائليين والكراغلة،الذين حاربوا إلى جانبه في مالطة،إلى فرق الإنكشارية،فاشتكت هذه الأخيرة من هذا التصرف (142).قرّر السلطان العثماني تنحيته،و عين مكانه محمد باشا بن صالح رايس. غادر حسن باشا الجزائر متوجها إلى استنبول، في بداية سنة 1567، حاملا معه أموالا ضخمة لكن دون زوجته،ابنة ملك كوكو،التي كان لها منه ولد صغير جدا (143). الأمر الذي يثبت أن زواجه منها كان زواجا سياسيا لا غير.

انتفاضة مدينة قسنطينة

واجه محمد باشا في الجزائر المجاعة و الخلاف الدائم بين طائفة الرياس والإنكشارية و انتفاضة سكان قسنطينة، التي أطاحت به. محمد باشا هو أول من أصلح بين الإنكشارية و رجال البحر، إذ أمر بأن الإنكشاريين يمكنهم أن يشاركوا كجنود في أعمال القرصنة، على متن سفن الرياس، و بأن البحارة يمكنهم أن يكونوا إنكشاريين بطلب منهم متى شاءوا (144). لكن هذه التسوية كانت مؤقتة، فالخلاف سوف يظهر من جديد و لن ينتهي على كل مدى الحكم التركي في الجزائر.

في ماي 1567، انتفض سكان قسنطينة ضد الحامية التركية و قائدها، فقتلوا أربعة أو خمسة من رجالها. كان سبب الانتفاضة، كما شاع في المدينة، هو انتهاك حرمة فتاة جميلة. كان رد فعل محمد باشا عنيفا جدا. سار بنفسه إلى قسنطينة. قرر بيع المنتفضين في المزاد العلني رجالا و نساء و أطفالا وصادر أملاكهم وبيوتهم، غير أن بعضهم تمكنوا من الفرار و الوصول إلى طرابلس برّا، و منها إلى عاصمة الدولة العثمانية، أين قدموا شكواهم للسلطان الذي قرر تحرير الأسرى وإعادة البيوت و الأملاك إلى أصحابها (145).

في سنة 1568 عزل السلطان العثماني محمد باشا و عين علج علي بايلربايا. ولد علج علي في كلابريا، استولى عليه القراصنة و هو في سن العشرين. لقّبوه بالفرطاس. اعتنق الإسلام و عمل قرصانا لحسابه ثم انضم إلى درغوط في طرابلس. شارك في حصار مالطة 1565. لما مات درغوط خلفه في قيادة طرابلس(146). جعلته المجهودات الكبيرة التي بذلها في الجزائر من الرجالات الكبار. ارتبط اسمه بتونس التي خلصها من السيطرة الإسبانية و بمعركة ليبانطو و بمسلمي الأندلس.

علج علي و مسلمو إسبانيا

كنا رأينا سابقا كيف بدأت الهجرة الأندلسية إلى المغرب، قبل و بعد سقوط الإمارات العربية الإسلامية في الأندلس، في أيدي المسيحيين، و كيف اشتدت، بعد سقوط غرناطة سنة 1492. و رأينا كيف كان المهاجرون ينشطون القرصنة على السواحل الإسبانية. نضيف هنا أن الهجرة ظلت متواصلة للإفلات من محاكم

التفتيش التي كانت تلاحقهم.كان الفارون يسلكون ثلاث طرق؛ من أرغونة إلى فرنسا ثم إلى تونس؛ و من قرطاجنة إلى الجزائر ليلا؛ و من السواحل الجنوبية لشبه جزيرة إيبريا إلى المغرب الأقصى (147).

لأن الصراع كان على أشده بين إسبانيا و الجزائر،بعد إقامة السلطة التركية في هذه الأخيرة، و سيطرة الأسبان على بعض المدن الجزائرية،كان الأندلسيون يتعاطفون كثيرا مع الجزائر، كما كان الأتراك يتعاطفون معهم. عبّر الأندلسيون في الكثير من المناسبات عن فرحتهم لانتصار الأتراك على الأسبان كما وقع لـمّا انهزم شارل كان في الجزائر سنة 1541. كان الأندلسيون يخبرون الأتراك بتحركات الأسطول الإسباني كما سوف يحدث سنة 1601،كما كانوا يسهلون عمليات القرصنة بالاتفاق مع المهاجرين منهم إلى الجزائر. كان المهاجرون يسعون بدورهم لإثارة الباقين من إخوانهم في شبه الجزيرة الإيبرية،كما حدث سنة 1562،حيث رجع أحد هؤلاء المهاجرين مع مجموعة من الأشخاص من الجزائر إلى بلنسية لإثارة الانتفاضة،إلاّ أن السلطة الإسبانية ألقت عليه القبض (148). لا شك في أن الأتراك كانوا يشجعون مثل هذه الانتفاضات ضد عدوهم الأكبر إسبانيا.لقد تعرضنا سابقا إلى انتفاضة جبال البشارات التي أُخمدت سنة 1502، أمّا الآن فنتعرض لمحاولة تفجير انتفاضة أخرى سنة 1569 في نفس المنطقة، كان لعلج علي دور فيها.

كان هناك اتفاق بين الذين كانوا يحضّرون لتفجير الانتفاضة و علج علي.كان المفروض أن تندلع في الأسبوع المقدس من سنة 1569.يشير غرامون،معلقا على ما ذكره هايدو بهذا الخصوص،إلى أن علج علي حضّر 14 ألف رجل مسلحين بالأركوبوس و ستين ألفا من الأهالي،و أرسل أربعمائة جمل محملة بالبارود إلى مزغران،للقيام بهجوم على وهران ثم النزول في شبه الجزيرة الإيبرية. في يوم الأربعاء المقدس أرسل أربعين قطعة بحرية إلى سواحل المرية، في انتظار الإشارة التي تعلن انطلاق الانتفاضة في غرناطة،لكن عملية التحضير كانت قد اكتشفت. مع هذا لم يثن الفشل عزيمة علج علي ففي جانفي 1569 أنزلت خمس سفن قادمة من الجزائر مدافع و ذخيرة و أسلحة وإمدادات. كما أرسل علج علي 32 قطعة بحرية أخرى تحمل الجنود إلاّ أن زوبعة بحرية شتّتت شملها. بعد أن اندلعت الانتفاضة،أرسل في أكتوبر أربعة آلاف رجل مسلحين بالأركوبوس و بعض المئات من رجال الإنكشارية القدامى ليكونوا قادة الانتفاضة. في سنة 1570 أرسل جنودا آخرين و أسلحة و تهيأ للانتقال بنفسه إلى شبه جزيرة إيبريا،غير أن دون خوان النمسا أعاقه بشروعه في الحملة التي سوف تنتهي بمعركة ليبانطو (149). كانت

خطة علج علي إذن تقوم على تفجير الانتفاضة في شبه الجزيرة كي تتجند قوات الأسبان لإخمادها فلا تستطيع تقديم الإمدادات لأسبان وهران و المرسى الكبير،فيتمكن هو من الاستيلاء على الموقعين ثم ينتقل إلى شبه الجزيرة، في محاولة لاستعادة غرناطة.لما اتضح فشل المشروع أدار بصره بسرعة إلى الأسبان في تونس،قبل أن تفرغ إسبانيا من أمور الانتفاضة.

لمّا فشلت الانتفاضة،عُقد الصلح بين الأسبان و المنتفضين في 20 ماي 1570. بموجب هذا الصلح سُمح للذين شاركوا فيها،و كان عددهم يقارب الثلاثين ألفا،يقودهم البابكي،أن يغادروا بلاد الأسبان. وضع علج علي تحت تصرفهم، يوم 15 جوان،سفنا تركية نقلتهم إلى الجزائر. لقد تواصلت الهجرات بعد هذا التاريخ ليصبح عدد الأندلسيين في سنة 1609 يقارب 25 ألفا في مدينة الجزائر وحدها (150).

علج علي يحرّر تونس من الأسبان

كنا رأينا كيف استولى خير الدين على تونس و أبعد الملك الحفصي مولاي الحسن سنة 1533،و كيف أعاد شارل كان هذا الملك إلى العرش سنة 1535،و كيف أصبح حلق الوادي قاعدة إسبانية. نضيف الآن أنه بعد عودة شارل كان،عادت الفوضى إلى تونس، و لم يبق مولاي الحسن في العرش إلاّ بفضل حماية إسبانيا له.في سنة 1540 تدخل اندريا دوريا ليعيد إليه قليبية و صفاقص و المنستير.لكن و على الرغم من الدعم الإسباني،فإن ابنه مولاي أحمد السلطان (حميدة) ألحق به الهزيمة سنة 1542 فقبض عليه و سمل عينيه ثم استولى على تونس و أمضى،هو الآخر،معاهدات عديدة مع الأسبان.حاولت الدولة العثمانية، من جهتها، أن تستميله سنة 1552ليسلم لها حلق الوادي و المهدية مقابل تدعيمه بالجيوش التي تمكنه من السيطرة على الأقاليم التي ظلت خارج سلطته في داخل البلاد.

استولت الشابية على القيروان،و خاضت حروبا ضد الملك الحفصي وضد حلفائه الأسبان.و الشابيـة،كما رأينا سابقا،كانت قبيلة و طريقـة صوفيـة في الوقت نفسه.عندما سيطر الأسبان على تونس و فرضوا حمايتهم علي مولاي الحسن،أعلن سيدي عرفة رئيس الطريقة في القيروان أن الحسن كافر بالشريعة الإسلامية لأنه تحالف مع المسيحيين ضد المسلمين (151).كان أخوه الذي خلفه في رئاسة الشابية طموحا جدا بحيث كان يريد أن يقيم مملكة تستولي على إرث الحفصيين،كما كان مشعوذا. باشر قيادته بمنع أتباعه من إقامة أية صلة بالذين لا يعترفون بسلطته الروحية ولاحق بعنف ليس الذين كانوا ضده و المخالفين له فحسب، بل لاحق كل الذين لا يشاطرونه آراءه (152).

كانت تصرفات قائد الشابية سي محمد الطيب قد أوجدت مناخا مناسبا لانتصار درغوط صاحب طرابلس.ففي هذه الآونة ظهر القرصان درغوط الذي استولى لحسابه الخاص على المهدية و جعلها قاعدة لأعمال القرصنة،إلاّ أن الأسبان استولوا عليها سنة 1550،فدخل تحت حماية الدولة العثمانية التي عينته على طرابلس (التي استولت هي عليها سنة 1551). في سنة 1556 استولى درغوط على قفصة،بعد أن طرد الشابية منها و من وسط تونس. استولى على القيروان في جانفي 1558. لم تمض سنتان حتى كان يسيطر على سيرت.

كان مولاي حميدة قد انهزم هزيمة كبيرة سنة 1556،بالقرب من مدينة تونس،أمام الشابية و أولاد سعيد المدعومين من الأسبان،فجاء إلى أتراك الجزائر يطلب الدعم. أمده حسن باشا بن خير الدين بالفرق العسكرية اللازمة لمواجهة الشابية الذين كانوا يواجهون درغوط باشا في القيروان (153). لكن مولاي حميدة لم تكن له سياسة قادرة على كسب تأييد سكان تونس.لم تكن سياسته تختلف عن سياسة أبيه،لهذا اتصل عدد من سكان تونس بعلج علي يطلبون الدعم لإسقاطه من العرش (154).من بين الذين طلبوا هذا الدعم نجد قادة كبارا مثل ابن جبارة،قائد الفرسان،بوالطيب و لخضر و غيرهم.لقد اتفق هؤلاء مع علج علي على الانضمام إليه عندما تحين الفرصة المواتية (155).كانت الفرصة مواتية للأتراك لاستعادة تونس التي كانت موقعا استراتيجيا في الصراع الذي كان يعرفه حوض البحر الأبيض المتوسط.

في أكتوبر 1569،ترك علج علي الجزائر و سار نحو تونس، عن طريق البر،يحمل مدافعه صحبة خمسة آلاف تركي و علج مسلحين بالموسكيت.في الطريق، انضم إليه ثلاثمائة جندي من قسنطينة و عنابة كما انضم إليه حوالي ستة آلاف فارس من أتباع الملك كوكو و أمير بني عباس وقادة آخرون.حين التقى بمولاي حميدة، في باجة، انضم إليه القادة التونسيون الثلاثة مع أتباعهم، ففر مولاي حميدة إلى تونس، على رأس حوالي ثلاثين ألفا من الفرسان و المشاة. و لما وصل علج علي إلى باردو، بالقرب من مدينة تونس، خرج الكثير من الناس من هذه الأخيرة لينضموا إليه. لم يجد مولاي حميدة بدا من الانتقال إلى الأسبان بحلق الوادي رفقة زوجته و ابنته و 25 خادما أو صديقا حاملا معه الكثير من الأموال و المجوهرات، لكن الكثير من السكان لاحقوه و استولوا على الكثير مما كان يحمل.أما علج علي فقد دخل تونس دون مقاومة،في أواخر ديسمبر 1569 (156).استسلم له الزمامرة، فرسان مولاي حميدة (157)،كما أعلن عرب الأرياف خضوعهم له، لكن لما اخبرهم بضرورة دفع الضريبة تراجعوا رافضين سلطته.

أمضى علج علي كل الشتاء في تونس، أخضع كل المدن و القرى و القاطعات تقريبا. بعد أن عين القائدين رمضان و هو علج سرديني و محمد و هو علج من نابولي على رأس حامية تونس المتكونة من ثلاثة آلاف تركي، عاد إلى مدينة الجزائر في وسط أفريل من السنة الموالية (158).

هكذا أصبحت تونس بيد أتراك الجزائر مجددا، غير أن سيطرة الأتراك عليها قد أثار حفيظة بعض الدول الأوربية. كانت تونس موقعا استراتيجيا لمراقبة الحركة التجارية بين الحوضين الشرقي و الغربي للبحر المتوسط لهذا أسرعت البابوية و جمهورية البندقية و إسبانيا لعقد حلف مضاد للعثمانيين. انعقدت جلسة بين الأطراف الثلاثة في جويلية **1570** و في **25** ماي **1571** وقعت هذه الأطراف معاهدة. كان البنادقة سببا في هذا التأخير لأنهم كانوا يأملون في التوصل إلى معاهدة مع الدولة العثمانية، تحفظ لهم تجارتهم مع الشرق (159). لم يمض على إنشاء هذا الحلف نصف السنة حتى وقع ذلك الاصطدام الكبير في ليبانطو، على سواحل بلاد اليونان الغربية، بين أسطولي الدولة العثمانية و ذلك الحلف المقدس.

معركة ليبانطو

كان أسطول الحلف المقدس يتكون من ثلاثمائة سفينة، أما الأسطول العثماني فكان يضم مائتين و خمسين سفينة (160). بدأت المعركة يوم 7 أكتوبر **1571**. كان الأسطول العثماني يتكون من الأسطول الجزائري بقيادة علج علي، في الميسرة و الأسطول المصري، في الميمنة وأسطول الدولة العثمانية الذي كان يحتل القلب بقيادة القبطان باشا (علي باشا). كانت الهزيمة كبيرة تلك التي ألحقت بالأسطول العثماني. وقع التصدع في ميمنته أولا، بعد مقتل سنجق مدينة الإسكندرية، ثم في قلبه، بعد مقتل القبطان باشا، فما كان من علج علي إلا أن يناور وينسحب بالسفن التي أمكن له إنقاذها و السير بها إلى القسطنطينية (161)، بعد الاستيلاء على السفينة التي تحمل الراية البابوية (162). كان الحلفاء قد استولوا على الراية الكبرى للأسطول العثماني و قد جاء بها الأتراك من مكة (163). كانت خسائر الأسطول العثماني ضخمة، فقد أغرق الأوربيون **94** سفينة و استولوا على **130** سفينة أخرى عليها نحو **300** مدفع و **30** ألف رجل (164).

يعيد جون ب. وولف انتصار المسيحيين في ليبانطو إلى عاملين أساسيين هما : وجود السفن الست الضخمة التي تعود للبندقية، و كون أغلبية الجنود المسيحيين و البحارة يحاربون بالدروع الضخمة، أما الجنود الأتراك فلا يكادون يتوفرون عليها، من جهة، و كون جل

الجنود المسيحيين مسلحين بالأسلحة النارية،من جهة أخرى،في حين كان الجنود الأتراك،باستثناء عدد قليل،يحاربون بالأقواس و السهام و الرماح و السيوف المحدبة (165).
نشير هنا أنه بعد هذه المعركة وقع الكاتب الإسباني الشهير،سيرفنتس في قبضة أتراك الجزائر.(166)
عين السلطان العثماني علج علي على رأس الأسطول العثماني،مع احتفاظه بمسؤولية البايلرباي. و عين أحمد العربي (عراب أحمد) خليفة للبايلرباي في الجزائر.تعيين عراب أحمد كان من الحالات الشاذة في تاريخ السلطة التركية في الجزائر،إذ لم يكن تركيا و لا علجا كما جرت العادة،بل كان عربيا من مواليد الإسكندرية (167).في عهد عراب أحمد استعاد الأسبان تونس،في خريف 1573،ثم استعادها الأتراك في السنة الموالية.

استيلاء الأسبان على تونس من جديد

في شهر أكتوبر 1573،خرج دون خوان ملك النمسا ليقود حملة على تونس تشبه الحملة التي قام بها أبوه شارل كان سنة 1535.كانت الحملة ضخمة تتكون من حوالي 140 سفينة و بارجة حربية و عدد كبير من سفن النقل و الغليوطات وغيرها التابعة للخواص. و كان الجيش يتكون من 13 ألف إيطالي و 9 آلاف إسباني و 5 آلاف ألماني و 500 فارس،أي ما مجموعه أكثر من 27 ألف رجل (168).لما علم القائد التركي لحامية تونس (القائد رمضان) ببداية الإنزال المسيحي غادر تونس رفقة حاميته. استولى عليها دون خوان دون مقاومة تذكر. و بعد أن عاث جنوده فسادا في المدينة، التي لاذ سكانها بالبوادي، و استخفوا بجامع الزيتونة، إذ ربطوا فيه خيولهم، نصّب دون خوان محمد بن الحسن، شقيق حميدة،ملكا على تونس،ثم انصرف عائدا إلى بلاده (169).
كان دون خوان مترددا فيما يفعل بتونس. خامرته فكرة إعلان نفسه ملكا عليها،إلاّ أنه عدل عن الفكرة (170).كان احتلال تونس ضربة قوية للدولة العثمانية و أثبت صحة رأي علج علي الذي كان يطالب و يلح في الطلب، منذ استعادها الأتراك بضرورة اقتلاع الأسبان من حلق الوادي الذي يمنحهم نقطة ارتكاز تمكنهم من مهاجمة تونس بسهولة،كما يورد غرامون (171).لم يكن في إمكان الدولة العثمانية أن تسكت عن احتلال تونس.تحركت بسرعة لاستعادتها و استعادة حلق الوادي كذلك.

تحرير تونس من الأسبان للمرة الثانية

لم تكن عملية استعادة تونس مهمة إيالة الجزائر فحسب، بل كانت مهمة الدولة العثمانية بكاملها، لما تكتسيه تونس من أهمية استراتيجية كبيرة في الصراع العثماني ـ الإسباني. لا شك أن دون خوان كان يتوقع حملة عثمانية على تونس، لهذا قرر إنشاء حصن بين البحيرة و هذه المدينة، يأوي أربعة آلاف رجل، كان قد تركهم في المدينة، مخالفا بذلك أمر أخيه فيليب الثاني، ملك إسبانيا، القاضي بتخريب تحصينات حلق الوادي و تحصينات تونس (172).

لقد روى قائد تونس الكونت غابريو سيربيلوني (يتضح من اسمه أنه إيطالي) كيفية استيلاء الأتراك على تونس سنة 1574 (173). تقول الرواية إن القوات التركية وصلت في الأيام الأخيرة من شهر جوان، حيث جاءت من طرابلس قوات تتكون من أربعة آلاف رجل، و جاءت من جربة و من القيروان قوات تتكون من ستة آلاف فارس، و جاءت من قسنطينة و من عنابة قوات تتكون من ألفي رجل، و انضمت إلى هذه القوات أعداد غفيرة من الأهالي. ضرب الجميع خيامهم بالقرب من مدينة تونس. في أول جويلية علم الأسبان في تونس باقتراب الأسطول العثماني، كما علموا أن الأتراك سيضربون حلق الوادي أولا. و يذكر هايدو أن الأسطول العثماني كان يتكون من 280 قطعة بحرية، و أن علج علي، القبطان باشا، هو الذي كان يقوده، يساعده العلج البوسني، حسن باشا، و أن عراب أحمد انضم إلى الأسطول هنا، على رأس سبع قطع بحرية، بعد أن ترك القائد رمضان على رأس الجزائر (174). حسب رواية الكونت أرسى الأسطول العثماني سفنه يوم 13 جويلية بالقرب من رأس قرطاجة، قبالة حلق الوادي و شرع في الإنزال على الشاطئ. أمر قائد الأسطول القوات البرية بضرب الحصار على تونس، تحت قيادة حيدر شيخ القيروان، و دعم هذه القوات البرية بأربعة آلاف تركي من جنود الأسطول و بثمانية مدافع كبيرة و صغيرة. في يوم 17 شرع في قصف حصن حلق الوادي من جهتين. في يوم 10 أوت وصل القائد رمضان إلى تونس مع خمسة آلاف تركي من الجزائر، و عدد كبير من الأهالي. و تواصل الرواية أن الأتراك قاموا بعد قصف يوم 22 اوت، بهجوم عنيف مكنهم من الاستيلاء على حصن حلق الوادي صباح يوم الاثنين 23. تفرغ الجيش بذلك لمدينة تونس، ابتداء من 24 أوت، و تمكن يوم 13 سبتمبر (يوم الاثنين) من اقتحام و احتلال حصنها بصفة نهائية، و ألقى القبض على الكونت غابريو سيربيلوني، الذي فقد ابنه في هذه المعارك. بإلقاء القبض على الكونت انتهت المعارك. تخلى الأسبان عن أطماعهم في تونس نهائيا منذ هذا التاريخ.

خلاف عراب أحمد مع الرياس

كان عراب أحمد، خليفة علج علي في الجزائر قد اختلف مع الرياس، فصدر قرار خلعه قبل استعادة تونس. عين مكانه القائد رمضان. يعود سبب الخلاف إلى أن عراب أحمد أراد أن يسلم عبيدا من الفرنسيين، كان قد استولى عليهم بعض الرياس و كان مامي رايس الأرناؤوط (الألباني)، و هو قبطان طائفة الرياس، هو الذي حرض عليه هؤلاء القوم، في وقت كان قد تخلى عنه الجميع، كما يذكر غرامون في تعليقه على هايدو. سار مامي رايس، الذي خلعه عراب أحمد و نصب مكانه مراد رايس قبطانا للبحر، سار مع المرابط سيدي بوالطيب إلى القسطنطينية أين قدم شكواه و التمس من السلطان تعيين القائد رمضان على رأس الجزائر (175). لقد وافق السلطان على الطلب في ماي 1574، أي قبل حملة تونس. لهذا عاد عراب أحمد مع علج علي إلى القسطنطينية بعد استعادة المدينة مباشرة. عيّنه السلطان العثماني على رأس جزيرة قبرص سنة 1577، غير أن الإنكشارية هناك قطعت رأسه في السنة الموالية بسبب تأخير في دفع جاريتها (176).

لقد اختلف في أصل القائد رمضان. يذكر هايدو أنه علج من سردينيا و أنه تزوج علجة كورسيكية، إلاّ أن غرامون و بالاستناد إلى مراسلات القناصل الفرنسيين يؤكد أنه من أصل تركي (177). كان القائد رمضان قد عُين على رأس حامية تونس فظل قائدها إلى أن استولى دون خوان على المدينة، كما رأينا سابقا. كانت فترة الثلاث سنوات التي قضاها رمضان باشا على رأس الجزائر فترة تدخل في مشاكل الصراعات على عرش المغرب الأقصى.

التدخل التركي في شؤون المغرب الأقصى

كنا رأينا كيف دبر الأتراك مؤامرة قتل السلطان المغربي محمد الشيخ سنة 1557، و كيف حل محله ابنه مولاي عبد الله الغالب بالله. و نضيف الآن أن ثلاثة من اخوة عبد الله لجأوا إلى الأتراك عند مقتل أبيهم. نهب اثنان منهم (عبد المالك و أحمد) إلى القسطنطينية، فخدما السلطان العثماني سليمان. واصل عبد الله الغالب بالله التحالف مع الأسبان ضد الأتراك، كما فعل أبوه من قبل. تخلى لهم عن ميناء باديس. لكن هذا التحالف لم يؤد إلى عمل مشترك نتيجة هزيمة الكونت دالكوديت في مستغانم و انتفاضة الأندلسيين في غرناطة. من جهة أخرى، عمل عبد الله على تنمية التجارة الإنجليزية على سواحل بلاده الغربية و حارب البرتغاليين كما حارب طريقتي القادرية و الشراقة (178).

توفي عبد الله الغالب بالله في سنة 1574، فخلفه ابنه محمد المتوكل على الله و سار على نهجه في التقارب مع الأسبان. هذا التقارب كان يثير العديد من الوجهاء في المملكة. لقد تصادف هذا الحدث مع ذلك الانتصار الباهر الذي حققه الأتراك على الأسبان في تونس، و قد شارك كل من عبد المالك و أحمد فيه إلى جانب علج علي. استغل الأتراك هذا الانتصار وصداه في كل بلاد المغرب ليجهزوا حملة كبيرة ضد محمد المتوكل على الله، هدفها تنصيب عبد المالك على العرش المغربي.

في شهر ديسمبر 1575، خرج القائد رمضان من الجزائر في طريقه إلى فاس، على رأس ستة آلاف تركي مسلحين بالوسكيت و ألف زواوي، من أتباع ملك كوكو مسلحين هم كذلك بالوسكيت، و ثمانمائة صبايحي. انضم إليه في الطريق حوالي ستة آلاف فارس من الأهالي كما انضم إليه أتباع عبد المالك في المغرب الأقصى، و كان عددهم كبيرا، فاق الثلاثين ألف رجل، ثلاثة آلاف منهم مسلحون بالموسكيت (179). لقد انتصر الأتراك بسهولة في معركة الركن بأراضي بني وارثين، لأن الأندلسيين انقلبوا على محمد المتوكل على الله و انضموا إلى الأتراك و حليفهم عبد المالك (180). بعد تنصيب مولاي عبد المالك على عرش فاس (مارس 1576)، عاد القائد رمضان، بعد أن استلم من الملك الجديد 5 آلاف مثقال من الذهب و 10 مدافع (181) تاركا وراءه فرق الزواوة الذين رافقوه و ثلاثمائة تركي، ضمهم عبد المالك إلى جيشه، الذي غزا به مملكة مراكش التي فر إليها محمد المتوكل على الله. طارده و أجبره على الهروب إلى طنجة، يطلب حماية سيباستيان ملك البرتغال. لقد شارك جنود إيالة الجزائر هؤلاء إلى جانب عبد المالك في معركة القصر ضد التحالف الذي ضم البرتغال و اتباع الملك محمد المتوكل يوم 5 أوث 1578. لقد قتل في هذه المعركة مولاي عبد المالك(182)، كما يقول هايدو، غير أن جوليان يورد أن مولاي عبد المالك مات نتيجة المرض، و أن سيباستيان و المتوكل غرقا في مياه وادي المخازن، و لهذا سُميت معركة القصر بواقعة وادي المخازن أو واقعة الملوك الثلاثة (183).

كان الملك عبد المالك يتكلم الإسبانية و الإيطالية و التركية. اشتهر بحسن التنظيم والدبلوماسية. أسس جيشا منظما و فاوض فرنسا و إنجلترا و إسبانيا، و تمكن من دفع فيليب الثاني إلى التخلي عن المتوكل بالله. خلفه أخوه مولاي أحمد المعروف باسم السلطان منصور الذهبي الذي عمّ الهدوء في المغرب الأقصى و نشّط الصناعة و التجارة و القرصنة و غزا بلاد السودان. هذا ما أقلق السلطان العثماني الذي لم يبق له في بلاد المغرب سوى المغرب الأقصى لم يفرض عليه نفوذه. كما أقلق حكام الجزائر الذين كانوا يسعون للسيطرة على موانئ الساحل الغربي المحيطي للمغرب الأقصى خاصة في عهد البايلرباي علج علي الذي ظل يتدخل في شؤون المغرب الأقصى إلى أن توفي سنة 1587 (184).

اضطرابات السلطة في الجزائر و نهاية عهد البايلربايات

من خلفاء البايلرباي علج علي في الجزائر حسن الفينيزيانو (البندقي)،هو علج من البندقية. بدأت خلافته سنة 1577. نشط القرصنة و واجه مجاعة كبيرة.

أول عمل قام به حسن الفينيزيانو هو مصادرة العبيد الذين كان يملكهم الرياس و الأتراك و الأهالي،بل صادر حتى عبيد القائد رمضان.كان الهدف من ذلك هو الحصول على فدية تمكنه من توفير الأموال التي تسمح له بمواجهة القحط و المجاعة التي انجرت عنه و انتشرت في مختلف أرجاء البلاد. كما فرض على الرياس و القراصنة الذين كانوا يدفعون سبع الغنائم للدولة،أن يدفعوا الخمس. و اشترى الكثير من القمح و المواد الغذائية،و رفع ضرائب الأهالي مشترطا دفعها قمحا و شعيرا ليعيد بيعها محققا أرباحا كبيرة،كما احتكر تجارة اللحوم (185).

نشطت القرصنة في عهده خاصة على سواحل شبه الجزيرة الإيبيرية أين كان الرياس يستولون على المسيحيين ويهجّرون الفارين من المسلمين الذين كان يقمعهم الأسبان.من بين الرياس الذين كانت لهم شهرة في عهده نجد الرايس مراد الذي اختلف معه. صادر حسن الفينيزيانو سفينة من السفن التي استولى عليها الرايس و كان هذا الأخير لا يعير اهتماما للمعاهدات التي أبرمتها الدولة العثمانية. حصل أن هاجم السفن الفرنسية،على الرغم من كون فرنسا حليفة الدولة العثمانية،الأمر الذي أدى إلى تدخل سفراء فرنسا لدى الباب العالي (186).

لقد أثارت سياسة حسن الفينيزيانو الجميع،أثارت الأهالي ،الأتراك و الرياس فطالب الجميع بتنحيته. بعد العديد من الشكاوى، حرّر الإنكشاريون مذكرة طويلة تضمنت مساوئ إدارته و أرسلوها إلى عاصمة الدولة العثمانية مع وفد يتكون من كثير من الشخصيات من الأهالي و المرابط بوالطيب و ثلاثة ضباط قدامى من الإنكشارية برتبة بولكباشي.لقد لبّى السلطان طلبهم. عين مكانه جعفر باشا سنة 1580.جعفر باشا هو علج هنغاري (187). اصطدم هو الآخر بالرياس و الإنكشارية فحيكت مؤامرة لقتله، دبرها آغا الإنكشارية السابق و الخليفة السابق و القائد التركي ابن دالي.لم تُكتشف المؤامرة إلاّ في أفريل 1581،لما أفشى أمرها جنود قدامى.بعد تصفية المدبرين صادف أن جاء علج علي إلى الجزائر،على رأس ستين قطعة بحرية، ليحضر حملة ضد ملك المغرب الأقصى.كان علج علي مناوئا لجعفر باشا بسبب تنحية حسن الفينيزيانو فلما طلب من الإنكشارية أن تشترك في الحملة رفضت ،لأنها هي كذلك كانت ضد علج علي منذ أن كان على رأس الجزائر بصفة مباشرة. اشترطت أن يأتي الأمر من السلطان نفسه،لأن ملك فاس لم يُظهر أية عداوة للجزائر.لهذا أرسلت المرابط سيدي بوتكة إلى القسطنطينية محملا برسائل

إلى السلطان توضح موقفها. استجاب السلطان لطلبها و أمر علج علي بالتخلي عن المشروع كما عزل جعفر باشا عن قيادة الجزائر (188).

أورد مولود قايد رواية مفادها أن جعفر باشا طُرد من الجزائر طردا و اختار الاوجاق والرياس مامي الأرناؤوط رئيس طائفة الرياس مكانه،و أن حسن الفينيزيانو،الذي كان يمارس القرصنة في مياه مدينة الجزائر،هو الذي قضى على الفتنة فأقره السلطان على رأس الجزائر بعد ذلك(189).غير أن هايدو لا يشير إلى هذه المسألة،بل يذكر أن حسن الفينيزيانو خلف جعفر باشا.أما غرامون، الذي اعتمد على رسائل السفراء الفرنسيين في القسطنطينية،فأورد رواية أخرى، مفادها أن الباشا رمضان هو الذي عُين مكان جعفر باشا،إلا أنه استُقبل بانتفاضة السكان و أن مامي الأرناؤوط سير البلاد لفترة قصيرة جدا (190).و تبدو لنا رواية غرامون هي الأوسع أكثر من غيرها، لكننا لا نستبعد أن يكون تدخل الفينيزيانو جاء أثناء الانتفاضة المضادة للباشا رمضان.

عاد حسن الفينيزيانو إلى سياسته السابقة في تشجيع القرصنة في السواحل الغربية للبحر المتوسط ،فبلغت مراكب الرياس جنوة و برشلونة و حتى جزر الكناري.لعل هذا النشاط هو الذي جعل السلطان يعينه قبطان باشا للأسطول العثماني سنة 1586.و لعل علج علي هو الذي اقترحه لهذه المسؤولية،باعتباره كان مقربا منه.لكن الفينيزيانو لم يعين بايلربايا للمغرب،كما كان علج علي،الذي توفي سنة بعد ذلك.بوفاة علج علي تخلت الدولة العثمانية عن منصب البايلرباي. لعلها فعلت ذلك لما كان لهذا المنصب من مساوئ تعدد مراكز القرار بالنسبة لإدارة الجزائر و المغرب. لقد كانت الاضطرابات الأخيرة دليلا على ذلك.فقد كانت الجزائر تخضع لقوى عديدة الإنكشارية،الرياس،البايلرباي و خليفته و السلطان العثماني،الأمر الذي كان يسهل المؤامرات و الاضطرابات،إضافة إلى ما ذكرنا سابقا.بإنهاء منصب البايلرباي،الذي جاء مع ركود التوسعات،أصبحت الجزائر،تونس و طرابلس تتبع السلطان مباشرة.هكذا بدأ عهد الباشوات في الجزائر.

هوامش الفصل الثاني

(1) وولف المرجع السابق ص 46.
(2) هايدو.المرجع السابق ص 128.
(3) قايد.المرجع السابق ص 54.
(4) وولف.المرجع السابق ص 46.
(5) نفسه.
(6) المدني.المرجع السابق ص 230.
(7) وولف.المرجع السابق ص 46 و 47.
(8) جوليان.المرجع السابق ص 330.
(9) المدني.المرجع السابق ص 230.
(10) هايدو.المرجع السابق ص 132.
(11) نفسه.
(12) وولف.المرجع السابق ص 47.
(13) دردور.المرجع السابق ص 17.
(14) انظر الرسالة في: بريموداي المرجع السابق عدد 19 ص 495 و 496 و العدد 20 ص 128 و 129.
(15) انظر : نفسه.عدد 2 ص 131 - 144.
(16) دردور.المرجع السابق ص 19.
(17) هايدو.المرجع السابق ص 217.
(18) دردور.المرجع السابق ص 21 و 22.
(19) انظر : بريموداي.المرجع السابق عدد 20 ص 235 و 236.
(20) دردور.المرجع السابق ص 22 و 23.
(21) انظر : بريموداي المرجع السابق عدد 19 ص 267.
(22) هايدو.المرجع السابق ص 22.
(23) E WATBLED et MONNERAU.Négociation entre Charles Quint et Kheir - Ed - din (1538 - 1540). Revue Africaine N°.15 (1871).p.139.

(أو.واطبليد و مونيرو.مفاوضات بين شارل كان و خير الدين (1538 - 1540) المجلة الإفريقية عدد 15 (1871) ص 139).
(24) نفسه.ص 138 - 148. انظر وولف كذلك.المرجع السابق ص 55.
(25) قايد.المرجع السابق ص 58.
(26) وولف.المرجع السابق ص 56.
(27) قايد.المرجع السابق ص 57.
(28) المدني.المرجع السابق ص 281.
(29) قايد.المرجع السابق ص 58.

(30) هايدو.المرجع السابق ص 228 و 229.

(31) A.BERBRUGGER.Négociation entre Hassan Aga et le Conte d'Alcaudete (1541 - 1542)

Revue Africaine N° 9 (1865).pp.379 - 385.

(أ.بيربروجير.مفاوضات بين حسن آغا و الكونت دالكوديت (1541 - 1542).المجلة الإفريقية عدد 9 (1865) ص 379 - 385)

(32) المدني.المرجع السابق ص 284.

(33) قايد.المرجع السابق ص 58 و 59.

(34) نفسه.ص 61.

(35) وولف.المرجع السابق ص 58.

(36) المدني.المرجع السابق ص 290.

(37) هايدو. المرجع السابق ص 229.

(38) المدني.المرجع السابق ص 293.

(39) هايدو.المرجع السابق ص 230.

(40) المدني.المرجع السابق ص 29.

(41) نفسه ص 295.

(42) وولف.المرجع السابق ص 59.

(43) انظر: بيربروجير.مفاوضات.المرجع السابق ص 380 - 383.

(44) Mouloud GAID.

MOKRANI.Ed.Andalouses.Alger 1993.p.6.

(مولود قايد.المقراني.منشورات الأندلس. الجزائر 1993.ص 6).

(45) هايدو. المرجع السابق ص 230 و 231.

(46) فيرو. بنو جلاب.المرجع السابق عدد 26.ص 362.

(47) جوليان.المرجع السابق ص 342.

(44) قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 64.

(49) دوساندوفال.المرجع السابق ص 280.

(50) قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 64.

(51) دوساندوفال.المرجع السابق س 280.

(52) قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 64.

(53) قايد.المقراني.المرجع السابق ص 16 و 17.

(54) هايدو.المرجع السابق ص 233.

(55) Albert DEVOULX.El - Hadj Pacha.Revue Africaine.N° 8 (1864).p.292.

(ألبير دوفولكس.الحاج باشا.المجلة الإفريقية عدد 8 (1864) ص 292).

(56) نفسه.

(57) هايدو.المرجع السابق ص 234 - 236.

(58) عبد الرحمان محمد الجيلالي.تاريخ الجزائر العام.الجزء 3.دار الثقافة.بيروت 1980ص 6

(59) هايدو.المرجع السابق ص 238. انظر الهامش كذلك.
(60) نفسه.ص 239.
(61) دوساندوفال.المرجع السابق ص 281.
(62) هايدو.المرجع السابق ص 261 و 263.
(63) دوساندوفال.المرجع السابق ص 281.
(64) هايدو.المرجع السابق ص 263 و 264.انظر هامش الصفحة الأخيرة.
(65) قايد.القراني.المرجع السابق ص 17.
(66) هايدو.المرجع السابق ص 264 - 266.
(67) بريموداي.المرجع السابق.عدد 21 ص 270.
(68) هايدو.المرجع السابق ص 269.
(69) نفسه.ص 270 و 271.
(70) فيرو.بنو جلاب.المرجع السابق عدد 23. ص 269.
(71) هايدو.نفس المرجع السابق 269.
(72) قايد.القراني.المرجع السابق ص 18.
(73) فيرو.بنو جلاب.المرجع السابق.عدد 26 .ص 362.
(74) هايدو.المرجع السابق ص 272 و 273.
(75) قايد.القراني.المرجع السابق ص 17.
(76) نفسه.ص 18 - 20.
(77) قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 71.
(78) قايد.القراني.المرجع السابق ص 20.
(79) نفسه.ص 20 و 21.
(80) هايدو.المرجع السابق ص 273 و 274.
(81) قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 69 و 70.
(82) هايدو.المرجع السابق ص 275 و 276.
(83) نفسه.
(84) انظر : قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 70.
(85) هايدو.المرجع السابق ص 276.
(86) قايد الجزائر تحت المرجع السابق ص 70
(87) انظر قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 71.
(88) قايد الجزائر تحت المرجع السابق ص 70.
(89) نفسه.
(90) هايدو.المرجع السابق ص 276 - 278.
(91) جوليان.المرجع السابق ص 344.
(92) نفسه.ص 267.
(93) هايدو.المرجع السابق ص 28 و 29.
(94) نفسه.

(95) قايد.المقراني.المرجع السابق ص 20 و 21.
(96) انظر نصي الرسالتين في : بريموداي.المرجع السابق عدد21 ص 279 - 283.
(97) هايدو.المرجع السابق ص 281.
(98) انظر نص الرسالة في : بريموداي.المرجع السابق عدد 21 ص 268 - 277.
(99) انظر الرسالة في : نفسه ص 277 - 278.
(100) المدني.المرجع السابق ص 366.
(101) هايدو.المرجع السابق ص 281 و 282.
(102) هايدو.المرجع السابق ص 283.
(103) نفسه .ص 284.
(104) دوساندوال.المرجع السابق ص 284
(105) هايدو المرجع السابق ص 284
(106) هايدو.المرجع السابق ص 285 - 290.
(107) Albert DEVOULX.La première révolte des Janissaires à Alger.Revue Africaine.N°.15 (1871)pp. 3 et 4
(ألبير دوفولكس.عصيان الإنكشارية الأول في مدينة الجزائر.المجلة الإفريقية.عدد 15 (1871)ص 3 و 4)
(108) هايدو.المرجع السابق ص 346.
(109) انظر نصها في : بريموداي.المرجع السابق ص 287 و 288.
(110) هايدو.المرجع السابق ص 348.
(111) نفسه.ص 349 و 350.
(112) انظر نصها في : بريموداي.المرجع السابق ص 287 و 288.
(113) قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 77 و 78.
(114) هايدو.المرجع السابق ص 352.
(115) نفسه.ص 353.
(116) جوليان.المرجع السابق ص 268.
(117) هايدو.المرجع السابق ص 353 و 354.
(118) دوساندوفال.المرجع السابق ص 353 و 354.
(119) المدني.المرجع السابق ص 373.
(120) هايدو.المرجع السابق ص 355. انظر الهامش كذلك.
(121) نفسه.ص 356.انظر الهامش كذلك.
(122) المدني.المرجع السابق ص 374 و 375.
(123) نفسه.ص 375 و 376.
(124) جوليان.المرجع السابق ص 345.
(125) دوساندوفال.المرجع السابق ص 354.
(126) هايدو.المرجع السابق ص 356.
(127) قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 79.
(128) قايد.المقراني.المرجع السابق ص 23 و 24.
(129) هايدو.المرجع السابق ص 358 و 359.

(130) وولف. المرجع السابق ص 112.

(131) هايدو. المرجع السابق ص359 و 360.

(132) وولف. المرجع السابق ص 112.

(133) هايدو. المرجع السابق ص 361 - 363.

(134) نفسه. ص 364.

(135) دوساندوفال. المرجع السابق ص 356.

(136) هايدو. المرجع السابق ص 365.

(137) دوسندوفال. المرجع السابق ص 356.

(138) هايدو. المرجع السابق ص 366.

(139) وولف. المرجع السابق ص 113.

(140) وولف. المرجع السابق ص 79 و 8.

(141) نفسه ص 80 و 81.

(142) قايد. الجزائر تحت. المرجع السابق ص 85.

(143) هايدو. المرجع السابق ص 368.

(144) نفسه. ص 370.

(145) نفسه. ص 371.

(146) H.D.De GRAMMONT. Un Pacha d'Alger précurseur de M.Lesseps.Revue Africaine.N° 29 (1885), p361.

(هـ.د. دو غرامون. أحد باشوات الجزائر نذير السيد ليسبيس. المجلة الإفريقية عدد29 (1885) ص 361)

(147) لوي كاردياك. الموريسكيون الأندلسيون و المسيحيون. تعريب عبد الجليل التميمي. منشورات المجلة التاريخية المغربية و ديوان المطبوعات الجامعية. تونس 1983. ص 82.

(148) نفسه. ص. 85 و 86.

(149) انظر ملاحظات غرامون في : المجلة الإفريقية عدد 24. ص 404 و 405 الهامش.

(150) ناصر الدين سعيدوني. دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني. الجزء الأول. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1984. ص 131 و 132.

(151) بل. المرجع السابق ص 421 و 422.

(152) Charles FERAUD. Les Harar seigneurs des Hanencha.Revue Africaine.N° 18 (1874) p.142

(شارل فيرو. الأحرار أسياد الحنانشة. المجلة الإفريقية. عدد 18 (1874). ص 142).

(153) دردور. المرجع السابق ص 34.

(154) وولف. المرجع السابق ص 85.

(155) هايدو. المرجع السابق ص 407.

(156) نفسه. ص 408.

(157) الدني. المرجع السابق ص 397.

(158) نفسه.

(159) وولف. المرجع السابق ص 86.

(160) الدني. المرجع السابق ص 398.
(161) قايد. الجزائر تحت. المرجع السابق ص 87.
(162) الدني. المرجع السابق ص 398.
(163) وولف. المرجع السابق ص 90.
(164) الدني. المرجع السابق ص 398.
(165) وولف. المرجع السابق ص 90.
(166) بعد أن شارك سيرفنتس في معركة ليبانطو و جرح فيها قفل راجعا إلى إسبانيا فألقى عليه القراصنة القبض و نقل إلى الجزائر ، التي ظل فيها محبوسا إلى سنة 1580 ، حيث أفدته جمعية دينية مسيحية فعاد إلى إسبانيا.
(167) A. BERBRUGGER. Les Algériens demandent un roi français en 152. Revue africaine N°5 (181) p.6.
(أ. بيربروجير. الجزائريون يطالبون بملك فرنسي في 1572. المجلة الإفريقية. عدد5 (1861) ص 6).
(168) انظر : بريموداي. المرجع السابق. عدد 21. ص 294.
(169) الدني. المرجع السابق ص 400.
(170) وولف. المرجع السابق ص 92.
(171) انظر ملاحظات غرامون في : المجلة الإفريقية. عدد 24. ص 414. الهامش.
(172) انظر : بريموداي. المرجع السابق ص 295. الهامش.
(173) انظر نص الرواية في : نفسه. ص 294 - 298 و 361 و 370.
(174) هايدو. المرجع السابق ص 414 و 421 و 422.
(175) نفسه. ص 424. الهامش كذلك.
(176) نفسه . ص 422.
(177) نفسه. ص 423. الهامش كذلك.
(178) جوليان. المرجع السابق ص 268 و 269.
(179) هايدو المرجع السابق ص 426.
(180) الدني. المرجع السابق ص 404.
(181) جوليان. المرجع السابق ص 349.
(182) هايدو. المرجع السابق ص 427.
(183) جوليان. المرجع السابق ص 270 - 291.
(184) نفسه. ص 269 و 270 و 277.
(185) هايدو. المرجع السابق. عدد 25. ص 7 و 8.
(186) انظر ملاحظات غرامون في: المجلة الإفريقية عدد 25 ص 13. الهامش.
(187) هايدو. المرجع السابق ص 16 و 17.
(188) نفسه. ص 23 - 26.
(189) قايد. الجزائر تحت. المرجع السابق ص 91.
(190) انظر ملاحظة غرامون في : المجلة الإفريقية عدد 25. ص 26 و 97. الهامش.

الفصل الثالث:

أزمة العلاقات الجزائرية -العثمانية

1 - الباشوات في مواجهة القادة الأهالي و الإنكشارية

ألغت الدولة العثمانية منصب البايلرباي ،و لجأت إلى تعيين باشوات يديرون الإيالة لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد،إن قدم الباشا الهدايا الثمينة للموظفين الكبار في القسطنطينية.إنه النظام المطبق على البايات أو حكام المقاطعات في الجزائر.كان من شأن هذا النظام إضعاف سلطة الدولة العثمانية في الجزائر،فهؤلاء الباشوات المعينون لمدة قصيرة لم يكونوا مشغولين بتأكيد سلطة السلطان الأعظم في الإيالة،أو كانوا غير قادرين على ذلك،فسمحوا للقوة الحقيقية في الإيالة أن " تفلت من أيديهم ". إنهم لم يعودوا " شخصيات سياسية عسكرية "،كما كان الأمر في عهد البايلربايات بل " أصبحوا يذهبون إلى شمال إفريقيا لجمع المال الذي كان عليهم أن يدفعوه إلى ضباطهم "(1).

لقد دعم هذا النظام مركز الإنكشارية في الجزائر،على حساب طائفة الرياس التي كانت تحظى بتعاطف البحرية العثمانية و بتعاطف الأهالي كذلك،لما كان لها من دور اقتصادي، يتمثل في تنشيط الحركة التجارية خاصة في مدينة الجزائر.و كانت الإنكشارية مكروهة من الأهالي و من سكان الأرياف بصفة خاصة لأنهم كانوا يشعرون بوطأتها أكثر من غيرهم.

كان عهد الباشوات عهد ركود من حيث التوسعات،كما كان عهد اضطرابات ناتجة عن تنامي دور الإنكشارية و ضعف هؤلاء الحكام الموفدين من القسطنطينية،كما كان عهد تمردات و انتفاضات،أخطرها انتفاضة الناحية الشرقية من الإيالة.

لم يدم عهد الباشا الأول و هو دالي أحمد طويلا. أرسله السلطان إلى طرابلس للقضاء على اضطرابات نشبت فيها،فقتل هناك سنة **1589**(2).خلفه خضر باشا الذي توسعت عمليات القرصنة في عهده،و كانت تركز على مهاجمة سفن مرسيليا التي وقفت ضد ملك فرنسا حليف الدولة العثمانية.أهم ما يميز عهد خضر باشا،الذي دام ثلاث سنوات، هو تمرد أمير بني عباس على السلطة التركية.

تمرد أمير بني عباس

استغل أمقران أمير بني عباس انشغال الأتراك بمشاكل الحكم، التي رأيناها في أواخر عهد البايلربايات، ليتخلص من نفوذهم. نظم جيشه و رفع عدد أفراده إلى حوالي 14 ألف رجل، منهم حوالي ثلاثة آلاف فارس، الشيء الذي سمح له أن يوسع نفوذه إلى نواحي طولقة، بسكرة، بوسعادة و الجلفة. انتهى الأمير إلى الامتناع عن دفع الضريبة للأتراك(3). هاجم حاميات الإنكشارية في زمورة و في برج بوعريرج (4).

ما إن عرفت السلطة المركزية بعض الاستقرار حتى أمر خضر باشا باي قسنطينة بالسعي لإعادة الأمور إلى نصابها. لكن الباي لم يتمكن من إخضاع الأمير. شكل الباشا جيشا من حوالي 12 ألف رجل مسلحين كلهم بالموسكيت و ألف صبايحي ثم خرج إليه في ديسمبر 1590. انضم إليه في الطريق حوالي أربعة آلاف فارس. تحصن أمير بني عباس في القلعة مع قواته. حاصر الباشا القلعة المنيعة و قطع عنها المؤونة. بعد مناوشات، أثناء الحصار، أضرم الأتراك النار في القرى و الأشجار إلى أن تدخل أحد المرابطين لإصلاح ذات البين. بهذه الطريقة انتهت الحرب، التي دامت ما يقرب الشهرين (5). لكن الصلح لم يعش طويلا. عادت الحرب في عهد الباشا الجديد شعبان، الذي عينه السلطان سنة 1592.

فرض الباشا شعبان ضريبة ثقيلة على البايات، فكان من شأن هذا الإجراء أن رفض أمير بني عباس دفع ما عليه من ضريبة، فأعلن عليه باي قسنطينة الحرب. وقعت المواجهة المسلحة بين الطرفين في نواحي حمزة (البويرة)، ثم امتدت بسرعة إلى الجنوب من الحضنة و إلى التيطري. توسع رقعة الحرب إلى بايليك التيطري أدى إلى تدخل الآغا مصطفى، آغا العرب أو قائد كل القوات البرية، على رأس قوات من قسنطينة و أخرى من بايليك التيطري. أقام حامية في سور الغزلان، أي في مناطق نفوذ الأمير. تدخل الوجهاء و المرابطون مرة أخرى، فتوصل الطرفان إلى صلح جديد مقابل أن يدفع أمقران الضريبة (6). غير أن هذا الأخير ما لبث أن مات في نفس السنة (1595) فكانت وفاته تجديدا لخطر بني عباس على السلطة التركية، لأن هذه الأخيرة كانت سببا في مشاكل داخل أسرة القرانيين.

خلفه على رأس الإمارة ابنه ناصر الذي أتت عليه مؤامرة حيكت ضده. لا ندري ما إذا كان الأتراك وراءها. بمقتل ناصر انقسمت الأسرة. اعترف الأتراك بابنه بتكة، الذي كان مدعوما من أخواله الحشم، الذين كانوا يشكلون الحرس الخاص لأمراء بني عباس، و من أهل زوجته أولاد ماضي، و من قبيلة أولاد عياد. مع هذا فإن بتكة هذا سوف يشارك في انتفاضة الشرق الجزائري ضد مراد باي (7). انقسامات أسرة بني عباس سوف تستمر على مدى العهد التركي بكامله، و من هذا الانقسام ظهر فرع القرانيين المرابطين في بجاية و جيجل.

في هذه السنة (1595) أعيد خضر باشا إلى الجزائر.حاول أن يحدّ من سلطة الإنكشارية،التي أصبحت القوة الفعلية في عهد الباشوات. في هذا الصدد يقول المؤرخ الفرنسي جوليان: "كان في الجزائر سلسلة متواصلة الحلقات من المؤامرات و الانتفاضات و المذابح و اكتفى الباشا فيها بمظاهر الحكم فكان يُستقبل عند قدومه من القسطنطينية في موكب بهيج و يقيم في قصر فخم و يحاط بالتبجيل و التكريم غير أنه كان عليه أن يوافق على قرارات ديوان الإنكشارية ليدوم حكمه.و كان الديوان يجتمع أربع مرات في الأسبوع، منها واحدة في القصر للتداول في الشؤون الخارجية و يقرر في آخر الأمر بالإجماع السلم أو الحرب". "لقد انفرد خضر باشا بمحاولة زحزحة وصاية الإنكشارية مستعينا بالكراغلة الذين أقصوا عن الشؤون العامة و القبائل المستعدين دائما للثورة (1596)" (8).لكن الإنكشارية واجهت خضر باشا بالقوة.

لقد وقعت حرب أهلية بين أنصار خضر باشا و أنصار الإنكشارية،فتسببت في خسائر معتبرة في الأرواح و في نزوح الكثير من العائلات من الجزائر إلى البليدة،المدية و مليانة.اضطر السلطان،الذي لم يجد مخرجا آخر للأزمة إلى إنهاء مهام الباشا (9). عين مكانه مصطفى باشا.حاول هذا الأخير أن يخضع الإنكشارية بالقوة ففشل هو الآخر. استدعاه السلطان و عين مكانه حسن بوريشة سنة 1599 ،فلم يتمكن هذا الأخير من البقاء على رأس الجزائر مدة أربع سنوات إلاّ بالترضيات التي كان يقدمها للإنكشارية و طائفة الرياس. و ما إن عُين مكانه خضر باشا للمرة الثالثة سنة 1603 حتى كانت الأمور قد تعقدت كثيرا خاصة مع ظهور مشاكل مع فرنسا الحليف الاستراتيجي للدولة العثمانية في أوربا.

كانت فرنسا قد حصلت على حق صيد المرجان في القالة منذ عهد خير الدين.أقامت سنة 1560 ما عُرف باسم باستيون فرنسا ،بين القالة و عنابة،لتحقيق أغراض صيد المرجان و القيام بأعمال تجارية في الشرق الجزائري (10). في سنة 1578 حصلت فرنسا كذلك على حق صيد المرجان في خليج سطورة بالقرب من سكيكدة و أُعفي رعاياها من دفع رسوم أخرى غير نسبة 10 % من قيمة سلعهم الواردة إلى الجزائر و 5 % من قيمة سلعهم الصادرة منها (11). و طبقا للعلاقات الطيبة بين الدولة العثمانية و فرنسا،كانت سفن هذه الأخيرة لا تتعرض لأعمال القرصنة الجزائرية. كانت مؤسسات مرسيليا تسمح للأجانب بالملاحة في البحر المتوسط تحت العلمِ الفرنسي،و كان الرياس يحتجون على هذا التصرف،إلاّ أن الملك الفرنسي لم يتدخل،إلا حين شاهد هؤلاء الرياس يهاجمون سفنه،و يستولون على قنصله (السيد دو فياس). قدم هنري الرابع شكواه للسلطان مراد الثالث. تدخل هذا الأخير لصالح المرسيليين الشيء الذي اغضب الديوان في الجزائر،و كذلك خضر باشا،الذي أمر بحرق المراكب التجارية

الفرنسية،حتى لا تتطور الأمور أكثر مما وصلت إليه. كـلّف الباشا الجديد محمد كوسة بإلقاء القبض على الباشا نفسه،و قد فعل (12).كان ذلك سنة **1603**.

بعد أن ألقى الباشا الجديد القبض على خضر باشا، أمر بشنقه و بمصادرة أملاكه.أبرم مع الحكومة الفرنسية معاهدة تؤمن السفن الفرنسية في البحر الأبيض المتوسط من القرصنة الجزائرية،كما تضمن لهذه السفن التعويضات من طرف السلطة الجزائرية،في حالة ما إذا لحقتها أضرار من قراصنة الجزائر،كما تضمن تحرير الأسرى الفرنسيين. من جهة أخرى أعادت هذه المعاهدة إقامة باستيون القالة،الذي كان قد خُرب من طرف مراد رايس و جنود عنابة في نفس السنة التي وُقعت فيها المعاهدة (**1604**) (13).

استقبل الديوان هذه المعاهدة بالرفض.كما وقع هيجان في مدينة الجزائر،قمعه الرايس قبطان الطائفة بصعوبة.لما أوفد السلطان العثماني مبعوثه إلى الجزائر،ردّ الديوان بأن الباستيون لن يُعاد بناؤه و أن الأسرى الفرنسيين لن يُطلق سراحهم إلاّ بعد إطلاق سراح الأتراك الموجودين في مرسيليا.لما أخفق محمد كوسة في إثناء الديوان عن موقفه،طلب التدخل العثماني المسلح. أرسل السلطان الكابجي مصطفى كوسة بعد أن منحه كل الصلاحيات اللازمة لإنهاء مشكلة الجزائر.جاء هذا الأخير محاطا بأعداد غفيرة من الرجال و مرفوقا بالسفير الفرنسي (دو بريفيس) المكلف بمتابعة تنفيذ المعاهدة.لكن الوفد العثماني حاصره السكان في الجنينة،فاضطر مصطفى كوسة،تحت الضغط،إلى إبعاد الأسطول الذي جاء به من القسطنطينية و كذلك فعل مع السفير الفرنسي.لقد تمكن مصطفى كوسة من تحرير الأسرى الفرنسيين مقابل تحرير الأسرى الأتراك (14).بعد أن أنهى مصطفى كوسة مشاكل مدينة الجزائر و الإنكشارية لفت أنظار هذه الأخيرة إلى الأسبان في الناحية الغربية ليشغلها عن مشاكل السلطة.

حملة مصطفى كوسة على وهران

ظل الأسبان يحافظون على مواقعهم في وهران و المرسى الكبير. لم يتعرض لهم الأتراك بجدية،منذ حصار حسن باشا سنة **1563**. في سنة **1574** طُرحت في البلاد الإسبانية مسألة أهمية و جدوى الاحتفاظ بوهران و المرسى. كانت هناك مناقشات طويلة و تحقيقات،تقرر بعدها سنة **1576** الاحتفاظ بالموقعين (15).ظل الأسبان ينظمون الخرجات ضد الأهالي من حين لآخر،الهدف منها الحصول على ما يلزم من مؤونة للحامية.لقد تكثفت هذه الخرجات في عهد الحاكم دون خوان راميريز دي قوزمان (**1604- 1608**)،بحيث بلغ عددها ما يقرب من **17** خرجة. كانت حصيلتها الإجمالية الاستيلاء على أعداد ضخمة من قطعان الماشية و الغنائم الأخرى و حوالي خمسة آلاف أسير من أهالي المنطقة (16).

نظم مصطفى كوسة حملته على وهران سنة 1606. عسكرت على بعد فرسخين من جدران المدينة، إلاَ أن القائد الإسباني لم يمهلها و لم يعطها الفرصة لتجمع مقاتلي الأهالي الذين وُجهت لهم الدعوة كي يشاركوا في الحرب ضد الأسبان، كما جرت العادة في مثل هذه الحملات. هاجمها على رأس 120 فارسا و 480 راجلا و أجبرها على التقهقر، بعد أن تكبد هو خسائر ثقيلة في الأرواح و العتاد (17). ضاع من جانب الأتراك ما يقرب من ثلاثة أرباع الحملة (18). بعد أن عاد مصطفى كوسة ببقايا جيشه إلى الجزائر استأنف الأسبان خرجاتهم ضد الأهالي.

القبطان الفنلندي سيمون دونسا في الجزائر

عين رضوان بكرلي باشا خلفا لمصطفى كوسة سنة 1607. رضوان هذا كان من مماليك رمضان باشا (19)، ارتبط اسمه باسم القرصان الفنلندي سيمون دونسا، الذي أدخل تقنيات جديدة في ميدان البحرية العسكرية في الجزائر.

كان القبطان سيمون دونسا هذا قد استقر في السنوات الأولى من القرن السابع عشر في مرسيليا، أين تزوج. منها انتقل ببارجته و طاقمها إلى الجزائر، و شرع يمارس القرصنة انطلاقا من هذه المدينة، كما فعل قراصنة آخرون قبله من أمثال سانسون الذي كان يلجأ إلى موانئ الجزائر و تونس و طرابلس. في أقل من ثلاث سنوات استولى دونسا على حوالي 40 بارجة، الشيء الذي أكسبه سمعة حسنة بين أهالي الجزائر الذين أطلقوا عليه اسم دالي القبطان. لقد علّم دونسا رياس الجزائر كيفية استعمال البوارج المستديرة أو متعددة السطوح. القرصنة كانت، حتى ذلك الوقت، تعتمد أساسا على الغليوطات الخفيفة التي كانَ بإمكانها أن تحمل على متنها حوالي ثلاثين بحارا و كانت صالحة للغاية في البحر المتوسط، لمَا يكون الطقس جميلا، لكنها لم تكن قادرة على مواجهة أهوال المحيط الأطلسي. بهذه البوارج الجديدة انفتح مجال المحيط أمام رياس الجزائر في القرن السابع عشر. و معلوم أن دونسا ظل محافظا على مسيحيته إلى أن غادر الجزائر (20).

بالإضافة إلى هذا التحسين الذي أدخله دونسا على المراكب، وفّرت هجرة الأندلسيين الذين طردهم ملك إسبانيا فيليب الثالث سنة 1609، الطاقة البشرية للأسطول الجزائري. لقد أصبحت السفن أفضل بناء و أحسن قيادة و تجهيزا، بإمكانها أن تبلغ المحيط الأطلسي بسهولة لتراقب طرق الهند و أمريكا. حتى إسلندا بجلاميدها و فقرها لم تعد بمنأى عن نشاط رياس الجزائر. ففي سنة 1617 هاجموا جزيرة ماديرة و استولوا على 1200 أسير و في سنة 1631 بلغوا سواحل إنجلترا. لقد أصبحت بحرية الجزائر مخيفة لسكان سواحل أوربا و السفن التجارية في بداية القرن السابع عشر (21).

على الرغم مما قدمه دونسا للبحرية الجزائرية إلاّ أنه كان سببا آخر من أسباب توتر العلاقات الفرنسية الجزائرية و اندلاع الحرب بين البلدين في عهد رضوان باشا.

توتر العلاقات بين الجزائر و فرنسا

في 14 ديسمبر 1608، استولى دونسا على سفينة إسبانية، بين الباليار و بلنسية وكان عشرة رجال من رجال الدين اليسوعيين من بين ركابها. باعهم دونسا في الجزائر في المزاد العلني، كما جرت العادة بالنسبة للأسرى. أخذت هذه العملية أبعادا دولية. أرسل هنري الرابع ملك فرنسا إلى سفيره في عاصمة الدولة العثمانية يطلب منه المفاوضة لتحرير الأسرى، كما أرسل إلى قنصله في الجزائر، السيد فياس كي يعمل على تلطيف وضعية هؤلاء. خلال المفاوضات (1609) طلب دونسا المغفرة من فرنسا، فوافق الملك على ذلك شرط أن يعيد هو الأسرى سالمين. اشترى دونسا الأسرى الذين كان قد باعهم ونقلهم أحرارا إلى مرسيليا، كما نقل معه إلى هذه المدينة القرصان الإنجليزي الشهير بونيل أسيرا، و كان هذا القرصان يعمل تحت العلم التركي في الجزائر (22).

أثار هروب القرصان دونسا غضبا كبيرا في الجزائر، لكن ما كان أسوأ هو ردّ الفعل العام، لما علم الناس أنه أخذ معه مدفعين برونزيين، كانت السلطة التركية في الجزائر قد أعارتهما إياه، كما جرت العادة مع القراصنة، لما كان قرصانا، أما الآن و قد تخلى عن القرصنة، فإن المفروض هو أن يعيدهما للبايليك. لم يفعل دونسا ذلك بل قدمهما هدية إلى الدوق جيز حاكم بروفانس الفرنسية (الجنوب الفرنسي) في ذلك الوقت. طالب ديوان الجزائر بالإعادة الفورية للمدفعين و معاقبة القرصان الفلنلدي طبقا للمعاهدات الفرنسية - العثمانية. حدث أن توفي الملك هنري الرابع، بعد هروب القرصان، فظلت المشكلة قائمة، بل تطورت إلى أن وقعت القطيعة بين الجزائر و فرنسا (23). كان الرياس أكثر المتشددين تجاه فرنسا.

لقد كانوا سعداء لهذه القطيعة التي فتحت لهم المجال لضرب السفن الفرنسية. انهالوا على الغنائم الغنية، دون أن يعيروا اهتماما لردود فعل الباب العالي و شكاوي قناصل فرنسا. تكثفت أعمال القرصنة إذن، و لم تعرف مدينة الجزائر الغنى الذي عرفته في هذه الفترة، فقد كان يحصل أن يعرف اليوم الواحد أربع أو خمس غنائم. دخلت الجزائر في فوضى، بحيث لم يعد الباشا قادرا على الدخول إلى الديوان إلاّ برخصة. لقد فقد الباشوات زمام التحكم في أمور الدولة. حدث أن خُلع ثلاثة آغوات في يوم واحد لأنهم أعلنوا نيتهم في الخضوع لأوامر السلطان العثماني، كان الرياس في الواقع هم الذين يحكمون، فقد ظل الرياس مامي الأرناؤوط و مراد و علي عرباجي و سليمان و علي بتشين هم الذين يشكلون القوة الحاكمة الفعلية في الجزائر لمدة خمس سنوات تقريبا (24).

استغل التوسكان (في وسط إيطاليا الحالية) توتر العلاقات الفرنسية - الجزائرية و شنوا حملة على مدينة عنابة، انتقاما لما قام به الأتراك من غزو في ليفورنا. بعد أن نهبوا المدينة و أسروا ألفا و خمسمائة شخص و قتلوا باي قسنطينة محمد بن فرحات، غادروها (25). و في 17 أوت هاجمت بوارج دوق توسكانيا مدينة برشك (بين شرشال و تنس) و كانت أن تخربها بكاملها (26). و في هذا الوقت بالذات أعلن ملك كوكو عصيانه. هكذا انتهى عهد الباشا رضوان بكرلي في هذه الفوضى ليأتي عهد مصطفى كوسة، الذي أعيد إلى الجزائر للمرة الثانية (1610).

تمرد ملك كوكو

كان سي عمر قد خلف محمد بن أحمد على عرش مملكة كوكو سنة 1583. لقد ضعفت المملكة في عهد هذا الملك الجديد. كان طاغية يفرض أعمال السخرة على رعاياه و يصادر محاصيلهم. لما فقد سند السكان، حاول أن يحصل على دعم الأسبان ليواجه الأتراك. كانت نقطة الاتصال بينه و الأسبان مرسى أزفون، الذي كان الأتراك يراقبونه مراقبة دقيقة و دائمة. راسل سي عمر هذا الملك الإسباني فيليب الثاني كما راسل فيليب الثالث، إلاّ أن الأسبان كانوا مترددين في الاستجابة لعروضه. لكن فيليب الثاني أرسل إليه سنة 1598 مجموعة من الجنود الشاة، حوالي مائتي رجل، لتدعيم حاميته في تامقوت، غير أن أتراك الجزائر علموا بالخبر بواسطة جواسيسهم، فهاجموا أزفون محدثين مجزرة في صفوف الجنود الأسبان. لقد أرسل سي عمر إلى إسبانيا، في 25 جوان 1603، يشرح لها كيفية مقتل جنودها، كما ينصح الملك الإسباني بأن يغتنم الفرصة لاحتلال مدينة الجزائر، فهي فرصة مناسبة إن أسرع لاغتنامها، لأن الكثير من الجنود الأتراك، ثمانية آلاف إنكشاري و أهلي، يوجدون في أقاليمه، كما تذكر الرسالة. على الرغم من أن الملك فيليب الثالث لم يستجب لندائه فإن سي عمر لم ييأس فأرسل سنة 1610 يقترح عليه حلفا ضد العدو المشترك، و قد خاب مسعاه هذه المرة كذلك (27). لما لم يصل سي عمر إلى نتيجة مع الأسبان هاجم بقواته الخاصة سهل المتيجة و ألحق أضرارا كبيرة به(28). لقد ظل سي عمر معاديا للأتراك إلى غاية مقتله سنة 1618.

عند وفاته استولى أخوه أحمد بوختوش على السلطة، فأصبحت المملكة تنسب إليه. في عهد سي احمد بن سي عمر نُقلت العاصمة من كوكو إلى أوريـر في بني غبري. بعد التونسي انقسمت المملكة إلى صفين : الصف الفوقاني بقيادة أورخو، و الصف التحتاني بقيادة سي علي، الابن الثاني للتونسي. دخل الصفان في حرب حقيقية، الشيء الذي أضعف المملكة. لم تعد تسيطر إلاّ على أعالي سباو و قبائل الساحل البحري. اعتمد الأتراك في المنطقة على شيخ قبيلة غشتولة، الشيخ قاسم محمد، في أقصى غرب جرجرة (29).

تزايد أعمال القرصنة و ردود الفعل الأوربية

كان رد فعل البلدان الأوربية على تزايد نشاط القرصنة تنظيم حملة بحرية على سواحل بلاد المغرب سنة 1611.شاركت فيها بوارج و سفن كل من انجلترا و هولندا و إسبانيا،تحت قيادة المركيز الإسباني دي سانتاكروز.خربت السواحل التونسية،و في طريق عودتها أضرمت النار في مدينة جيجل (30).

في هذه الأثناء،التي اشتدت فيها نشاطات الدول الأوربية ضد الجزائر،كانت هذه الأخيرة تعيش سنوات من الجفاف و القحط أنتجت مجاعة كبيرة سنة 1610. انتشر بعدها الطاعون الذي عم كل المغرب لمدة سنتين و خاصة في الأرياف التي كانت خسائرها البشرية أكبر من خسائر المدن (31)،حتى اضطرت السلطات التركية إلى منع مهاجري الأندلس من دخول البلاد مستعملة القوة في ذلك.(32).

أثناء هذه الكارثة الطبيعية كانت سفن جنوة تحاول " تطهير " البحر المتوسط من القراصنة،على غرار ما فعلت مرسيليا،التي سلّحت سفنها لهذا الغرض،لكن القرصنة ظلت قائمة (33).أخذت تشتد أكثر،إذ تشير بعض التقديرات إلى أن رياس الجزائر استولوا،في الفترة الواقعة بين 1613 و 1621،على 936 قطعة بحرية،447 قطعة منها كانت هولندية،192 فرنسية،120 إسبانية،56 ألمانية و 56 إنجليزية (34). كان على متن هذه القطع البحرية عدد كبير من الأفراد،الذين سيقوا إلى سوق العبيد.إن هذه القرصنة قد عمقت الخلافات مع فرنسا،حليفة الدولة العثمانية. حاول الباشا الجديد،حسين الشيخ (1613 - 1617)،أن يحلها إلاّ أنه فشل.

الهجمة الأوربية على الجزائر

حين طالب الفرنسيون بوقف أعمال القرصنة ضد سفنهم،ردّ الباشا مطالبا بإعادة المدفعين اللذين أخذهما سيمون دونسا و إطلاق سراح الأسرى الأتراك الذين وقعوا بين أيدي الفرنسيين منذ بداية القطيعة بين البلدين. و لأن التجارة المرسيلية قد تضررت كثيرا من أعمال القرصنة،لم يجد الملك الفرنسي بدّا من أن يأمر بتحرير الأتراك الموجودين في الموانئ الفرنسية،فأرسل 40 منهم،كمرحلة أولى في بداية سنة 1617،كما أطلق سراح آخرين بعد ذلك،غير أن ديوان الجزائر ظل مصرا على مطالبه كاملة،رغم رأي الشاوش محمد الحاج الذي أرسل إلى مرسيليا لمناقشة مسألة السلم (35).خلال هذه المفاوضات عُين على رأس الجزائر سليمان القاطاني سنة 1617 و يدل اسمه على أنه من مدينة قاطانيا بصقلية.

استقبل الباشا سليمان القاطاني مبعوثي مرسيليا غلاندوفيس دو كوجيس و بيرانجي و كذلك الأسرى الأتراك الذين كان المفروض أن يتم استبدالهم بفرنسيين محبوسين في مدينة الجزائر. لكن الديوان، و بعد نزول الأسرى الأتراك إلى البرّ، امتنع عن تسليم الأسرى الفرنسيين مطالبا من جديد بإعادة المدفعين. زيادة على ذلك أرسل حملة إلى الباستيون نبحت العديد من الجنود و العمال الفرنسيين الذين كانوا به و ألقت القبض على الباقين منهم. و معلوم أن جون لويس دوماس دو كاستيلانس بارون ألالنيا، كان قد استعاد هذا الباستيون لصالح الدوق جيز، حاكم بروفانس. أمام هذه التطورات قدم الملك الفرنسي شكواه لحليفه السلطان سليمان عن طريق سفيره في عاصمة الإمبراطورية. أقال السلطان باشا الجزائر سليمان القاطاني، و عوضه بشاوشه (36) (شاوش السلطان) حسن الشيخ.

كان الملك الفرنسي قد منع على رعاياه المتاجرة في الموانئ الجزائرية، و تلا ذلك تخريب باستيون فرنسا في القالة. فتضرر الأهالي الذين كانوا يتعاملون مع تجار فرنسا خاصة الحنانشة منهم، الذين تمردوا على السلطة التركية، كما سوف يفعلون في كل مرة يتوقف فيها هذا الباستيون. و تضامن معهم صناع المرجان في مدينة الجزائر كما انضمت إلى التمرد فرق الحرس من الزواوة، الذين ضُموا إلى التنظيم العسكري التركي منذ حسن باشا بن خير الدين. لقد ألغيت فرق الزواوة كلها تقريبا منذئذ و سوف لن يعاد تنظيمها إلاّ بعد حوالي قرن و نصف القرن. هذا من جهة، و من جهة أخرى وضع نائب الملك في نابل و دوق توسكانيا الكبير سفنهما في البحر فألحقا خسائر كبيرة بالرياس. إن هذه الضغوط الداخلية و الدور الذي لعبه مبعوث الدولة العثمانية(37) و تحطم الأسطول الجزائري في ميناء مدينة الجزائر، بسبب زوبعة بحرية أتت على 25 مركبا من مراكبه، و استعداد فرنسا لإعادة المدفعين المذكورين سابقا (38)، هذه العوامل كلها عجلت بالوصول إلى معاهدة جديدة مع فرنسا هي معاهدة 21 مارس 1619.

أهم ما تضمنته هذه المعاهدة هو التأكيد على احترام " كل معاهدات الامتيازات المبرمة بين العاهلين "العثماني و الفرنسي، و أن " كل قرصنة أو غارة و كل الأعمال العدائية ستتوقف بين الطرفين "، كما تضمنت تبادل الأسرى و تبادل القناصل لضمان تطبيقها (39). في الواقع لم تكن هذه المعاهدة قادرة على إنهاء مشاكل القرصنة التي كانت قضية حياة أو موت بالنسبة لا لرياس البحر فقط، بل بالنسبة لغيرهم من التجار و من المسؤولين في السلطة.

في الأيام الأخيرة من فيفري 1620، استولى رجب رايس الذي كان ينشط في خليج ليون على سفينة مرسيلية كانت آتية من مدينة الإسكندرية، يقودها القبطان دريفات الذي لم يتخذ أية احتياطات، بعد أن علم بتوقيع المعاهدة الجزائرية - الفرنسية. قتل رجب رايس كل من وُجد على ظهر السفينة، حتى لا يبقى أي شاهد على فعله، لكن بحارين تمكنا من الاختفاء و تمكنا من الوصول إلى مرسيليا يوم 14 مارس. قصا على الناس خبر الحادثة. انتشر الخبر بسرعة

مسببا هيجانا حقيقيا. خرجت أسر الضحايا، و البحارة و الصيادون و حرفيو الميناء حاملين أسلحتهم، و ساروا إلى فندق ميولهون لتصفية الأتراك الذين كانوا بداخله (40). و كان هؤلاء الأتراك هم أعضاء الوفد الجزائري الذي أرسل إلى مرسيليا لاستلام الأسرى، و كذلك الأسرى الذين أطلق سراحهم (41). كان عددهم حوالي خمسين شخصا. حُوصروا من طرف الغوغاء لمدة نهار و ليلة، فدافعوا عن أنفسهم إلى أن أضرم المحاصرون النار في الفندق فاضطروا للخروج، ألقي عليهم القبض و ذُبحوا جميعا في الشوارع (42).

وصلت أخبار الفاجعة إلى مدينة الجزائر فتسببت في تجمع الناس حول قصر الجنينة، مقر السلطة، مطالبين برؤوس الأسرى الفرنسيين، غير أن تدخل الطائفة و الإنكشارية أعاد الهدوء و شتت المتجمعين، و أمكن تلافي اضطرابات جديدة في المدينة(43). أرسل الباشا الجديد السيد محمد الشريف صهر سينان آغا إلى مرسيليا لإجراء تحقيق حول تلك الأحداث، إلاّ أن السفينة التي كان على متنها استولى عليها بحارة توسكانيا، فكان لا بد من مساع لاستعادة المبعوث، الشيء الذي أخر وصول نتائج التحقيق إلى الجزائر. انجر عن هذا التأخير هيجان في المدينة كاد يأتي على الفرنسيين المتواجدين فيها. سلح الرياس سفنهم وخرجوا من الميناء عاقدين العزم على خوض حرب لا هوادة فيها ضد تجار مرسيليا (44). في محاولة منه للقضاء على مشاكل الجزائر عين السلطان العثماني حضر باشا على الجزائر للمرة الرابعة سنة 1620.

أعاد حضر باشا الاستقرار للجزائر، لكن العلاقات بين الجزائر و فرنسا ظلت متوترة بسبب مواقف الدوق دو جيز الرافضة تسليم الأسرى الأتراك ونشاطاته على ساحل الجزائر. لقد وجه الفرنسيون حملة ضد عنابة في أوث 1621، لكنهم لم يتمكنوا من البقاء فيها أكثر من يومين أو ثلاثة. هذه الحملة كانت تدخل في إطار محاولات احتلال " ساحل المرجان "، إذ سبقتها محاولتان في 1618 و 1620 (45).

في نفس السنة التي وقعت فيها الحملة الأخيرة على عنابة نظم الإنجليز حملتهم الأولى على مدينة الجزائر. كانت عمارتهم تتكون من ست سفن عادية تحمل على متنها 230 مدفعا نحاسيا، 12 سفينة تجارية تحمل على متنها 243 مدفعا حديديا من الحجم الصغير. مع العلم أن السفن الإنجليزية كانت من أكثر السفن تفوقا من حيث قوة طلقات مدافعها (46). كان مجموع جنود وبحارة العمارة حوالي 500 رجل يقودهم روبير مانسيل نائب أميرال إنجلترا (47). لما وصلت العمارة إلى الجزائر في أواخر نوفمبر 1620، طلب مانسيل من السلطة التركية أن تسلمه الأسرى الإنجليز فرفضت طلبه. و في الثالث من ديسمبر وصل أسطول آخر من إسبانيا، هذه المرة، يتألف من ست سفن حربية و أطلق 74 قذيفة على المدينة فردت عليها مدينة الجزائر بمدافعها. و في 7 ديسمبر غادر الإنجليز ميناء الجزائر، بعد أن نجحوا في تحرير ما يقرب أربعين أسيرا إنجليزيا من المسنين، تاركين وراءهم مئات الأسرى الآخرين (48). بعد

هذه الحملة أخذ الإنجليز يفكرون في إبرام معاهدة مع الجزائر، تجنبهم مشاكل القرصنة في حوض البحر المتوسط. لقد توصلوا إلى إبرامها في مارس 1622، و قد نصت على تبادل القناصل و كذلك إمكانية دخول التجار الإنجليز إلى الجزائر (49).

في هذه السنة سيّر الهولنديون كذلك حملة ضد مدينة الجزائر انتهت بتوقيع معاهدة سلم (50). غير أن هذه المعاهدة لم يكتب لها البقاء، لأن الرياس استمروا في الاستيلاء على السفن الهولندية. أرسل الهولنديون أحد أساطيلهم إلى البحر المتوسط استولى على عدد من المراكب الجزائرية، ثم توجه إلى مدينة الجزائر مطالبا بإطلاق سراح أسراهم، ولما رفض الباشا الطلب، قام الهولنديون بشنق الأسرى من الأتراك و الأهالي الذين كانوا على متن سفنهم. لقد انتهت العلاقات مع هولندا إلى إبرام معاهدة جديدة سنة 1626 (51) مماثلة للسابقة.

في الوقت الذي كانت تعيش فيه الجزائر و المغرب وباء الطاعون الذي أتى على آلاف الأشخاص، ابتداء من سنة 1621 (52)، كان دون خوان ينظم خرجات من وهران تستهدف الأهالي المجاورين للمنطقة التي تحت سلطة الأسبان. كانت الخرجات هذه عديدة بين سنتي 1620 و 1623. في سنة 1622 نظم أهم هذه الخرجات، قادته إلى آبار بني زروال، على بعد فرسخين من وهران، أين هاجم عددا من المقاتلين الأهالي، من الفرسان و المشاة. كان على رأسهم أحد المرابطين. قتل الأسبان عددا كبيرا منهم واستمروا أياما عديدة يلاحقون الباقين منهم على قيد الحياة و يلحقون أضرارا بالقبائل (53). في هذه الآونة كانت السلطة التركية تهتز في بايليك الغرب.

في سنة 1623 عُين خسرو صفر على رأس الجزائر. صادف وصوله رفض سكان ناحية تلمسان دفع الضريبة بسبب سوء المحاصيل و تحريض من عملاء الملك المغربي. أنجد الباشا الجديد حامية تلمسان، غير أن الأمور تطورت في السنة الموالية إلى تمرد حقيقي، أحدث مجزرة في صفوف أفراد حامية المدينة. أرسل خسرو صفر قوات جديدة تتكون من حوالي 1200 جندي فقمعت التمرد بوحشية (54).

معاهدة جديدة مع فرنسا

رغم تنشيط خسرو باشا القرصنة، إلاّ أنه أعطى أهمية خاصة لإعادة الأمور إلى نصابها مع فرنسا. كان الفرنسيون يريدون هم كذلك الوصول إلى معاهدة جديدة مع الجزائر. كلف الملك الفرنسي التاجر سانسون نابولون، وهو فرنسي من كورسيكا سبق له أن عمل في السفارة الفرنسية بالقسطنطينية (55)، كي يسعى لإبرام معاهدة جديدة مع الجزائر. سافر المبعوث سنة 1623 إلى استنبول أين تمكن من تخليص سفن مرسيلية كان القراصنة قد استولوا عليها و من

تحرير أسرى فرنسيين كما أقام دارا و مدارس للآباء اليسوعيين في مدينة سميرن و أعطى إشارة انطلاق إعادة تنظيم كنيسة مدينة سيو، بعد أن حصل على موافقة السلطان، كما حصل على موافقة هذا الأخير بخصوص الاحتفاظ بكنيسة سانت انطوان في العاصمة العثمانية. في السنة الموالية (1624) تمكن نابولون من الحصول على رسائل من السلطان و من وزرائه موجهة إلى قادة طرابلس، تونس و الجزائر، تقضي بتسليم الأسرى الفرنسيين و إقامة السلام مع رعايا الملك الفرنسي. في 12 أوث وصل نابولون إلى تونس حاملا معه الرسائل. تم تحرير عبيد فرنسيين وحصل على وعود بإقامة علاقات ودية مع فرنسا. قبل أن ينتقل إلى الجزائر، عاد إلى فرنسا ليعرض نتائجه على الملك. في جانفي 1626 أمره الملك بالسفر إلى الجزائر ليتفاوض مع الباشا. زوده بالمال الذي يسمح له بتقديم الهدايا للباشا و غيره من شخصيات الإيالة (56). في جوان وصل إلى الجزائر و معه المدفعان الشهيران و عدد من الأسرى الذين أطلق سراحهم في فرنسا (57).

واجه نابولون مشكلتين في الجزائر؛ الأولى هي سعي الإنجليز لإفساد المفاوضات حتى يتمكنوا هم من الحصول على امتياز القل و عنابة بخصوص المرجان و الثانية هي أن الأتراك لم يعترفوا بالرسائل التي كان يحملها معه من السلطان العثماني. تطلب الأمر إيفاد مبعوثين إلى استنبول للتأكد من صحتها. لما تم التأكيد عليها من قبل الباب العالي، انطلقت المفاوضات التي انتهت إلى الاتفاق على معاهدة جديدة يوم 17 سبتمبر. في 19 من نفس الشهر تم التوقيع عليها و الإعلان عنها بحضور الباشا الجديد (حسين) فأرسلت رهينة إلى مرسيليا لضمان تطبيق المعاهدة (58).

من بين ما جاء في المعاهدة " إن البوارج الفرنسية سوف لن يقلقها القراصنة الجزائريون، و أنه في حالة ما إذا دخلت سفن الصيد بفعل الرياح المعاكسة أو بفعل البحر الهائج إلى مختلف أماكن الساحل، و بالخصوص في جيجل و عنابة، سوف لن تتعرض لأي سوء، و أن أطقمها سوف تحترم و لا يمكن أن تباع كعبيد " (59). كما تنص على التزام الجزائريين بالعيش في سلام مع فرنسا و احترام سواحلها و سفنها والسماح للتجار الفرنسيين بالإقامة في مدينة الجزائر، تحت الحماية القضائية لقنصل بلادهم مع احتفاظهم بحقوقهم و حرية ممارسة شعائرهم. و اعترف أتراك الجزائر بموجب هذه المعاهدة بامتيازات فرنسا في الباستيون بالقالة و إمكانية إعادة بناء تحصيناته و كذلك المتاجرة في الجلود و الشموع عبر عنابة، ،كما سمحوا لسفن المرجان باللجوء إلى موانئ الجهة الشرقية من الجزائر. أما فرنسا فقد التزمت بدفع 26 ألف دوبلة سنويا (60). هذا و قد عين سانسون نابولون قائدا لكل المنشآت الفرنسية في الجزائر. إن تسوية المشاكل الفرنسية - الجزائرية لم تكن ، في حقيقة الأمر، سوى تسوية مؤقتة، إذ سوف يعود التوتر بعد سنوات قليلة.

تمرد الكراغلة

من المسائل الخطيرة التي ظهرت في عهد الباشا حسين تمرد الكراغلة، أبناء الأتراك من الجزائريات. يقول حمدان خوجة عن هذا التمرد : " في حوالي سنة 1630 و للاستيلاء على الحكم، وضع أفراد تلك الطبقة مشروعا يهدف إلى طرد الأتراك (آبائهم و أجدادهم) الذين كانوا يحكمون البلاد. و لهذا الغرض اجتمعوا في حصن الإمبراطور و عندما علم الأتراك بهذه المناورة فكروا، لإحباط المشروع، في أن يلبسوا عددا من العمال يدعون بني ميزاب ملابس نسائية، و لما تدثر هؤلاء بالملاحف أخذوا أسلحتهم و الذخيرة في شكل متاع مستورد، ثم تقدموا إلى مدخل الحصن و هم تحت ذلك القناع، هاجموا المتمردين بمساعدة فوج كان يتبعهم عن كثب، فأخضعوهم و أحبطوا مشاريعهم. و على إثر هذا الحادث، و بما أن الأتراك لم يكونوا قادرين على أن يطردوا ذريتهم من البلاد، فإنهم قرروا فقط، عدم السماح للكراغلة بشغل المناصب السامية " (61).

يعيد غرامون التمرد إلى سنة 1629، حين تمردت الإنكشارية على حسين باشا بسبب الأجور، و أساءت معاملته ثم سمّمته. في هذه الفوضى استغل الكراغلة الفرصة و نظموا محاولتهم سالفة الذكر. كما يورد أن الكراغلة طُردوا من مدينة الجزائر. و في جويلية 1633 دخلوها، في شكل جماعات صغيرة متنكرين في زي فلاحين يحملون أسلحة مخفية و قد انهالوا على الإنكشاريين فجأة، فتمكنوا من السيطرة على بعض المواقع. لقد كانوا يعولون، بدون شك، على دعم سكان المدينة، لكن الوقت لم يكن مناسبا لأنه كان وقت القرصنة والرياس في البحر. هاجمتهم الإنكشارية و اضطرتهم للنزوح إلى أعالي المدينة و مهاجمة القصبة، و في هذا الوقت انفجر مستودع البارود في القلعة فخربت بكاملها مع أكثر من 500 مسكن. ولقد سبب هذا التمرد مقتل اكثر من عشرة آلاف نسمة. لاحق الإنكشاريون الناجين من المتمردين، فقتلوا منهم الكثير. اتجه الكراغلة الفارون إلى بلاد القبائل (62)، آملين أن يجدوا دعما من الزواوة، الذين كان الأتراك قد حلّوا أغلب فرقهم في الجيش منذ ما يقرب 15 سنة. لقد قرر الإنكشاريون رفض تسجيل هؤلاء الكراغلة في الجيش إلى أن وقع الوباء الكبير (1648 - 1650) الذي أتى على الكثير من أفراد الإنكشارية، فاضطرت هذه الأخيرة لقبولهم في صفوفها دون أن تكون لهم المسؤولية (63).

عرفت السلطة التركية اضطرابات كبيرة بعد مقتل حسين باشا إذ تولى الأمر بعده يونس باشا ثم حسن باشا ثم حسين باشا الشيخ الذي سبق له أن شغل مسؤولية باشا الجزائر، إلى أن عين السلطان سنة 1634 يوسف باشا الذي ساءت العلاقات الجزائرية - الفرنسية في عهده و ذلك بعد مقتل نابولون.

عودة التوتر للعلاقات الجزائرية ـ الفرنسية

أعاد نابولون، قبل وفاته، إصلاح المنشآت الفرنسية في الجزائر.أقام المركز التجاري في عنابة من جديد، و أقام صيادي المرجان في القالة و في باستيون فرنسا، و فتح سوقا كبيرة للقمح، الجلود و الشموع في رأس الحمراء، حيث أخذت القبائل المجاورة ترتادها فازدهرت الأعمال التجارية. و معلوم أن مرسيليا، و منذ أكثر من قرن، قد أقامت علاقات تجارية مع أهالي السواحل الجزائرية، حيث كانت تشتري القمح و الجلود و الشموع و تبيع البارود و الأسلحة، بصفة خاصة، على الرغم من كون الأتراك يمنعون ذلك.لم يكتف نابولون بإصلاح المنشآت التجارية بل أقام تحصينات في عنابة و القالة والباستيون (64). هكذا، و حتى وسط سنة 1629، كانت نتائج معاهدة 1629 حسنة و كذلك اتفاق 29 ديسمبر 1628، الذي نص على أن تدفع فرنسا (نابولون)إتاوة من حوالي 35 ألفا و 500 جنيه، حوالي 26 ألفا منها لبايليك قسنطينة (65).لكن النشاطات التجارية لنابولون صحبتها نوايا سياسية. يقول جون ب.وولف : " هناك ما يدل على أن تعيين نابولون كان من وحي رغبة ريشليو (وزير المالية) في تأمين محطة للتدخل في ساحل شمال إفريقية.فقد جعل نابولون الحصن عبارة عن قلعة و محطة جوسسة حيث يمكنه " أن يعلم ما كان يجري في شمال أفريقيا " و لم يكن صيد المرجان و المركز التجاري سوى " تعميات " عن خطة التوسع، لأنه كان يرى الحصن عبارة عن قاعدة للجنود في جزيرة قد تستعمل لإقامة محطة على الأرض الداخلية"(66) و في هذا الإطار كان نابولون يمول رجال الحرب بالأسلحة (67)، و كان يصدّر الحبوب التي كانت محظورة من طرف السلطة التركية، حتى ذلك الوقت.إن هذا القرصان القديم قد أنشأ لنفسه، خلال خمس سنوات، و بدعم من الحنانشة المرتبطين بمنافعهم، قوة جعلته يرسل، بواسطة بوارجه، قراصنة إلى جزر الباليار للحصول على الرجال والأسلحة لضمان الدفاع عن ساحل المرجان الذي اصبح يعتقد أنه ملكيته الخاصة (68).

أعلن الحرب في سنة 1632 على جمهورية جنوة للاستيلاء على جزيرة طبرقة و هي امتياز كان قد قدمه خير الدين سنة 1540 فدية لدرغوط، فاستعمله الجنويون لصيد المرجان و التجارة (69).قام بهجومين فاشلين على الجزيرة، و في الهجوم الثالث، يوم 16 ماي 1633، قتل على يد القوات التونسية (70).

في مقابل نشاطات سانسون نابولون المريبة، لعبت القرصنة الجزائرية من جهتها دورا كبيرا في تعكير جو العلاقات بين الجزائر و فرنسا.ففي الفترة ما بين 1629 و 1631 استولى الرياس على 80 سفينة فرنسية محملة بالبضائع، و كان على متنها 2300 فرنسي، حسب ما يذكره الأب دان (71).و خلال سنة 1637 كان قراصنة الجزائر و تونس يستولون على السفن التجارية دون مراعاة المعاهدات الموقعة مع فرنسا. و كانت المواقع الساحلية الفرنسية غير محصنة فكان هؤلاء القراصنة ينزلون يوميا في هذه السواحل، في

بروفانس، ليستولوا على الرجال و النساء و السفن، الشيء الذي تسبب في نزوح السكان نحو الداخل. لقد عبر الكاردينال ريشليو عن قلقه أمام هذه الأعمال معتبرا أن أحسن وسيلة للقضاء على القراصنة هي العمل على " تخويفهم و الاستيلاء على الكثير من مراكبهم "، كما أورد بيربروجير (72).

في إطار هذه السياسة التي اقترحها الوزير الكاردينال، استولى لو شاسيتلوكس، قائد البارجة الفرنسية لو كوك، على سفينتين محملتين بالسلع تابعتين لمدينة الجزائر (73). كان على الباشا الجديد (علي باشا) أن يتحرك فور وصوله إلى الجزائر قادما من القسطنطينية، في جوان 1637. في ديسمبر أمر بإلقاء القبض على بيون، نائب قنصل فرنسا، و في نهاية هذا الشهر أرسل حملة بقيادة علي بتشين رئيس طائفة الرياس لتخريب الباستيون (74). نقل بتشين عتاد هذه المؤسسة و 317 فرنسيا إلى الجزائر. أين بيع بعضهم وُزع الباقون منهم على السفن لاستعمالهم في التجديف. لقد برر الأتراك هذا الفعل بكون الباستيون وُجد لاستخراج المرجان لا لاستخراج القمح (75). أدى توقف المبادلات التجارية مع فرنسا وتخريب الباستيون إلى انتفاضة القبائل التي كانت تتعامل تجاريا مع الفرنسيين. لقد توسعت هذه الانتفاضة لتشمل قبائل أخرى في الشرق الجزائري كانت لها مشاكل مع السلطة التركية.

انتفاضة الشرق الجزائري

رفضت هذه القبائل دفع الضريبة السنوية (اللزمة)، بحجة أن تخريب الباستيون حرمها من المداخيل التي تجنيها من المتاجرة مع الفرنسيين. الكثير من القبائل و العشائر في الشمال الشرقي من بلاد الجزائر كانت تتعامل مع الباستيون هذا، منها قبيلة الحنانشة التي كان يرأسها في هذا الوقت الشيخ خالد بن ناصر، كما تذكر وثيقة من الوثائق الجزائرية(76). لم تتوقف الأمور هنا بل لجأ ابن ناصر إلى طرد الأتراك من مناطق نفوذه، و سيطر على(ساحل المرجان) إلى غاية الحدود مع تونس، أين كانت قبائل دريد و أولاد ديب و النهد، و هي قبائل عربية، قد وقفت إلى جانب القبطان علي بتشين. لقد دفع خالد بن ناصر هذه القبائل نحو تونس. و قد أورد حسن دردور، اعتمادا على صالح العنتري في كتابه " تاريخ قسنطينة "، أن الحنانشة حاصروا القالة واحكموا حصارها. في هذا الوقت أرسل إليهم سيدي بتكة قوات من قوات أولاد أمقران الذين كانوا هم كذلك في حرب مع الأتراك في هذه الآونة. من بين الذين تدخلوا في هذه الحرب نجد العالم الديني، مفتي الديار، الشيخ العلامة قاسم بن محمد الذي وعد بالحصول على التزام علي بتشين بإعادة الباستيون. لكن، و حسب العنتري دائما، فإن الباشا هو الذي أوعز إلى هذا العالم كي يتدخل. لم تثمر مساعي هذا الأخير و نشر خالد بن ناصر قواته نحو الجنوب، في اتجاه منطقة

نفوذ العرب الشابية في نواحي تبسة. إن إبادة هذه القبيلة الحليفة للأتراك في هذا الوقت، ثم تحالف الحنانشة مع أحمد بن صخري، القائد الجديد للدواودة، قد مكن الحنانشة من السيطرة على حوالي نصف الشرق القسنطيني سنة 1640. أخذت القوات الحليفة من الحنانشة و الدواودة و أولاد أمقران تغير على طوابير الأتراك (77).

لم ينضم الدواودة إلى الحنانشة إلاّ لكون علاقاتهم بالأتراك سيئة في هذا الوقت. كان منصب شيخ العرب من نصيبهم، منذ بداية الوجود التركي في قسنطينة، كما رأينا سابقا. في سنة 1629 توفي شيخ العرب صخري بن أحمد الدوادي تاركا وراءه ثلاثة أبناء هم أحمد و بلقيدوم و محمد. هذا الأخير هو الذي خلف أباه على رأس مشيخة العرب، غير أن الوفاق بينه و بين الأتراك لم يدم طويلا حيث خرج عن طاعتهم فألقى عليه مراد باي قسنطينة القبض و قتله في جوان 1637 إلى جانب العديد من نبلاء الدواودة و علق رؤوسهم في قسنطينة (78). فما كان من الدواودة إلاّ الانضمام إلى الحنانشة و القرانيين.

سار المنتفضون إلى قسنطينة سنة 1638 و حاصروها و أضرموا النار في المحصولات من القمح و الشعير في قرى الحامة. امتد تخريبهم إلى غاية ميلة. أرسل مراد باي إلى علي باشا يطلب الدعم العسكري فأرسل إليه حوالي أربعة آلاف رجل يقودهم القائدان يوسف وشعبان، الشيء الذي مكن من تكوين جيش من حوالي ستة آلاف رجل. وقعت المعركة الحاسمة بين القوات التركية و قوات المتحالفين في قجال بسهل سطيف. ألحق المتحالفون هزيمة نكراء بالقوات التركية و استولوا على خيامها وعتادها و شتّتوا جنودها فلاذ بعضهم بمدينة الجزائر، في فوضى عارمة، في حين هرب مراد باي بمفرده، يوم 20 سبتمبر، تاركا بقايا قواته لا تدري ما تفعل (79). لقد تزامنت هذه الهزيمة التي لحقت القوات البرية التركية مع هزيمة أخرى لحقت القوات البحرية في فالونا (في البانيا بمدخل بحر الإدرياتيك). كان الباب العالي في حرب مع مدينة البندقية. أرسل في طلب الأسطول الجزائري فسار هذا الأخير نحو الشرق بقيادة علي بتشين، إلاّ أن زوبعة أجبرته على التوقف في فالونا. هناك فاجأه الأسطول البندقي، بقيادة كابيلو و قتل من الأتراك 1500 رجل و أغرق أربع قطع بحرية و استولى على 14 قطعة أخرى، كما حرّر عشرات الأسرى المسيحيين الذين كانوا يعملون مجدفين على متن سفن الأسطول الجزائري. تمكن علي بتشين من الفرار هو و رياس آخرون، لكن أغلب القطع البحرية المفقودة كانت ملكا خاصا به(80). هذا و كانت جبال جرجرة في هذه الآونة في حالة تمرد هي الأخرى، بعد أن انقسمت مملكة كوكو.

في السنة الموالية، 1639، أرسل علي باشا جيشا جديدا إلى الجهة الشرقية، غير أن هذا الجيش وجد نفسه، مثل سابقه، عاجزا أمام الأعداد الغفيرة للمنتفضين الذين هددوا بقطع المؤونة و المياه عنه. اضطر الأتراك إلى التفاوض عن طريق مرابط عمل وسيطا بين الطرفين. انتهت المفاوضات إلى الاتفاق الذي تضمن النقاط التالية :- لا يقلق الأتراك المنتفضين بخصوص اللزمة -

يعود الأتراك إلى الجزائر دون أن يلتفتوا يمينا و لا شمالا - يعيد الأتراك بناء الباستيون حتى يتمكن السكان من دفع اللزمة - يعيد الأتراك كل الكراغلة إلى مدينة الجزائر، كما يعيدونهم إلى مواقعهم و يعيدون لهم تشريفاتهم التي حُرموا منها (81). هذا الشرط الأخير يجعلنا نعتقد، في غياب المراجع، أن الكراغلة قد شاركوا في هذه الانتفاضة التي كانت فرصة لهم لاستعادة حقوقهم التي فقدوها منذ حوالي عشر سنوات. إننا إذن أمام انتفاضة واسعة جمعت، بشكل لا مثيل له في تاريخ الجزائر التركية، كل الذين كان لهم حساب مع السلطة. و لا نستبعد أن تكون فرنسا قد شجعتها بطريقة أو بأخرى.

رغم الاتفاق الذي حصل بين الأتراك و المنتفضين، في عهد علي باشا، إلاّ أن مشاكل الشرق ظلت قائمة في عهد خلفه حسين الشيخ (1639 - 1640) الذي سبق له أن شغل منصب الباشا في الجزائر و كذلك في عهد جمال يوسف باشا (1640 - 1642). في ماي 1640، قاد الباشا جمال يوسف بنفسه عمارة نحو عنابة، حيث أنزل الانكشاريين و الطبجية (جنود المدفعية)، لكنه لم يتجرأ على مهاجمة الحنانشة، بل وعدهم بمنحهم الاستقلال الذاتي و أعاد تنشيط الباستيون (82). لقد ظلت الحملات تخرج من مدينة الجزائر في اتجاه شرق البلاد في سنوات 1641 - 1643 (83). ففي سنة 1641 انتقل الباشا بنفسه إلى الناحية الشرقية و لم يعد إلى الجزائر إلاّ في السنة الموالية، بعد أن تكبد خسائر كبيرة. لما عاد وجد نفسه أمام تمرد الإنكشارية التي أودعته السجن. كان على خلفه محمد برصالي باشا (1642 - 1645) أن يجهز حملتين في سنة 1643 ضد مملكة بوختوش و ضد قبائل ناحية الحضنة في السنة الموالية (84).

معاهدة جزائرية - فرنسية أخرى

خلال انتفاضة الشرق الجزائري توصلت الجزائر و فرنسا إلى تسوية خلافاتهما بإبرام معاهدة جديدة وقعها جمال يوسف باشا. ففي بداية سنة 1640 أرسلت فرنسا المسمى جون بتيست دو كوكيل، لإعادة فتح المفاوضات مع الجزائر. توصل دو كوكيل بالفعل إلى إبرام المعاهدة الجديدة يوم 7 جويلية من نفس السنة (85). أهم ما جاء فيها (86) : تبادل الأسرى بين الجزائر و فرنسا، و تسليم الباستيون و المؤسسات الفرنسية الأخرى في الشرق الجزائري إلى دوكوكيل و إمكانية إقامة كنيسة في مدينة الجزائر من طرف القنصل الفرنسي " مثل القناصل الآخرين في الشرق بدون أن يمنعه أحد من ذلك " و إرسال عضو من الديوان إلى باريس لمتابعة تطبيق المعاهدة و السماح للمسلمين الفارين من إسبانيا أو غيرها بالمرور عبر الأراضي الفرنسية. لقد رفض الكاردينال ريشليو المعاهدة هذه رفضا قاطعا معتبرا " أن دو كوكيل قد صنع معاهدة ليست هي المعاهدة التي كان يجب أن تكون "، كما قال سنة 1641. لكن على الرغم من أن الملك لم يصدق عليها إلاّ أنها كانت سارية المفعول (87).

أرفقت معاهدة 7 جويلية بمعاهدة أخرى، الطرف الثاني فيها هو السيد دو كوكيل، تتعلق باستغلال الباستيون (88). تسمح هذه المعاهدة لدو كوكيل بممارسة الأعمال التجارية في القل و عنابة و إقامة المباني في الباستيون و رأس الحمراء للدفاع عن نفسه ضد الغارات الأجنبية " الإسبانية، السردينية، الميورقية و المينورقية " و غارات " الأهالي العصاة " كما تسمح له أن يبني نقاط حراسة عند مدخل ميناني عنابة و القل و أن يستعمل الأجانب الذين سوف يُعاملون معاملة الفرنسيين. في المقابل يدفع دو كوكيل 34 ألف دبلون كل سنة، 24 ألفا منها تسلم للباشا، لدفع مرتبات الجند، و 10 آلاف تدفع لخزينة القصبة. هكذا تقيم هذه المعاهدة نفوذا فرنسيا في الجزائر مدعوما بالتواجد العسكري و الديني.

اضطرابات في السلطة

إذا كان الباشا جمال يوسف قد أنهى خلافات الجزائر مع فرنسا، بمنح امتيازات جديدة للفرنسيين، فإن خلفه محمد برصالي باشا قد أكمل تهدئة الأوضاع الداخلية ليدخل في خلافات مع الدولة العثمانية نفسها. في سنة 1645 قرر السلطان العثماني إبراهيم أن يشن حربا على جزيرة مالطة، فأمر أساطيل إيالات الجزائر تونس و طرابلس بالتحضير لهذه الحرب و الالتقاء في نفارين بالقرب من السواحل اليونانية، إلاّ أن الرياس في الإيالات الثلاث رفضوا المشاركة في الحرب. كان رياس الجزائر، بقيادة القبطان بتشين، أول من رفض دعوة السلطان، بسبب سوء معاملتهم من طرف الباب العالي، بعد كارثة فالونا. لقد تسبب هذا الرفض في تخلي السلطان إبراهيم عن مشروعه. لكنه قرر أن يعاقب المتسببين في إفشاله. أرسل إلى الجزائر شاوشين من شواشه، كلفهما بالإتيان برأس علي بتشين و رؤوس الرياس الأربعة الآخرين المسؤولين عن الطائفة. لكن ما إن وصل الشاوشان إلى الجزائر حتى انفجرت الأوضاع .كان هناك عصيان واسع النطاق، اتهم محمد برصالي باشا بتنظيمه، و لم ينج الباشا إلاّ بالاختفاء في أحد الجوامع.

بعد قليل من عودة الشاوشين إلى عاصمة الدولة العثمانية، طلبت الإنكشارية من علي بتشين، القبطان الذي سيطر على الوضع و الذي عرف كيف يحمّل المسؤولية للباشا و ينجو من عقاب السلطان، أن يدفع الرواتب فلم يتمكن من جمع المال الضروري لذلك و لاذ بأحد المرابطين طالبا مهلة تمكنه من جمع المال المطلوب. أعطيت له مهلة خمسة أيام، تمكن خلالها من الفرار إلى صهره ملك كوكو. لما انتشر الخبر، خبر فراره، سادت الفوضى في مدينة الجزائر وسارت الإنكشارية إلى بيته فنهبته و استولت على عبيده كما نهبت المحلات و البيوت، خاصة محلات يهود

المدينة. زاد هيجان الإنكشارية لما انتشرت دعاية مفادها أن علي بتشين سيعود إلى الجزائر على رأس جيش قبائلي و أن رياس البحر متواطئون معه،لكن بتشين عاد إلى الجزائر مستقبَلا من طرف الذين طالبوا برأسه،في حين أرسل السلطان فجأة أموالا و قفطانا له هو نفسه، إلاّ أن القبطان مات بعد أيام من حكم الباشا الجديد أحمد علي و قد انتشرت دعاية مفادها أنه مات مسموما (89). سهلت وفاة علي بتشين مشاركة الجزائر في المجهود الحربي العثماني.

أعاد أحمد علي باشا النظام للجزائر خلال فترة حكمه (1645 ـ 1647)، إلاّ أن حكمه انتهى بخسائر كبيرة تكبدها الأسطول الجزائري يوم 16 فيفري 1647،أمام فرسان مالطة و البنادقة،حين كان عائدا،عبر السواحل الإيطالية (90) بعد أن شارك في معركة بكريت بخمسين قطعة بحرية. لقدقتل الفرسان و البنادقة 250 جنديا من الجنود الأتراك و أسروا نحو 150 منهم (91).هذا إضافة إلى القطع البحرية المفقودة.

حملة سلطان سجلماسة على الجزائر

انصب اهتمام يوسف باشا (1647 ـ 1650) على إعادة بناء الأسطول المخرب و لكنه وجد نفسه وجها لوجه أمام مولاي محمد سلطان سجلماسة.

كنا رأينا كيف آل ملك السعديين (الأشراف) إلى أحمد المنصور سنة 1578 بعد وفاة أخيه السلطان مولاي عبد المالك،الذي دعمه الأتراك لاستعادة الملك من ابن أخيه السلطان محمد المتوكل بالله في فاس. ورأينا كيف أعاد المنصور تنظيم المغرب الأقصى من جميع النواحي.لم يوحد المنصور المغرب الأقصى فحسب، بل كانت له سياسة توسعية نحو السودان. غير أن وفاته سنة 1603 أدت إلى انهيار إمبراطوريته،التي انقسمت إلى مملكة فاس و مملكة مراكش المتصارعتين فيما بينهما خلال هذا الصراع احتلت إسبانيا بعض الموانئ المغربية بدعوى وضع حد لهجمات القراصنة على سواحلها،فكان ردّ الفعل على هذا الاحتلال أن ظهرت حركات يتزعمها رجال الدين في الشمال و في الجنوب. و كانت حركات الجنوب أعنف من غيرها.

في تافيلالت ،ان الشرفاء العلويون الذين ينسبون أنفسهم إلى الحسن بن علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة، يستقطبون الناس الذين كانوا يتبركون بهم منذ أوائل القرن الثالث عشر ،لكن هؤلاء الأشراف لم يقوموا بأي عمل سياسي.خلال الصراعات الحادة التي صاحبت تفكك إمبراطورية المنصور الذهبي،استغل أشراف تافيلالت الوضعية و بعد أن خضعت لهم الواحة،أخذوا يتوسعون. نظم الشريف مولاي محمد انطلاقا من سجلماسة حملة على الغرب

لقد قدم الناصري وصفا لتلك الحملة التي نظمها مولاي محمد على الغرب الجزائري في سنة 1648، بعد أن فشل أمام فاس، في " كتاب الاستقصاء " (92) نلخصه في التالي:

بعد أن هاجم سلطان سجلماسة قبائل بني سناسن التابعة للأتراك، بالقرب من الحدود المغربية و جمع غنائم كبيرة، هاجم وجدة التي كانت منقسمة في موقفها من الأتراك ثم هاجم أولاد زكري و أولاد علي و بني سنوس و جمع الغنيمة. توجه بعد ذلك إلى تلمسان و خرب بواديها و قتل الكثير من سكانها و من أفراد حاميتها التركية. لما مر فصل الشتاء، خرج إلى الصحراء مغيرا على الجعافرة فنهبهم ثم سار إلى الأغواط و عين ماضي و الغاسول فنهب و استولى على المال. فرت منه قبائل الحارث و سويد و حصين من بني مالك بن زغبة إلى راشد و اعتصمت به الخ.. لقد أحدث مولاي محمد اضطرابات خطيرة في الغرب الجزائري.

جهز الأتراك حملة نحو الغرب للوقوف في وجه سلطان سجلماسة، غير أن هذا الأخير كان قد رجع إلى بلاده، قبل وصولها إلى الناحية الغربية. في سنة 1064 (1654 ميلادية) أرسل محمد باشا (الذي خلف علي باشا) رسالة مطولة إلى سلطان سجلماسة مع وفد يتكون من الفقيه عبد الله النفزي و الفقيه الحاج محمد بن علي الزغنائي و عضوين من أعضاء الديوان. لم تأت الرسالة بشيء. أعاد الباشا الوفد. في هذه المرة تعهد السلطان أن لا يتجاوز مجرى وادي التافنة (93).

لعل آخر و أهم ما قام به الباشا يوسف هو الحملة التي قادها سنة 1649 إلى الجنوب الشرقي ليعيد نفوذ الأتراك إلى واحتي تقرت و ورقلة. أما خلفه محمد باشا (1650 - 1656) فقد واجه الإنجليز و الطاعون.

حملة إنجليزية أخرى على مدينة الجزائر

عرفت الجزائر، في عهد محمد باشا، انتشار وباء الطاعون الذي كان عنيفا هذه المرة. استمر ثلاث سنوات و قضى على ثلث السكان كان هذا الطاعون قد نقله الرياس إلى الأسطول العثماني فأتى على الكثير من أفراده، حتى اضطرت الدولة العثمانية إلى منع البحارة من الخروج من الموانئ (94). في هذا الوقت الصعب جاءت الحملة الإنجليزية على مدينة الجزائر.

في نهاية سنة 1653 جاء روبير بلاك إلى البحر المتوسط على رأس عمارة إنجليزية محكمة التنظيم. كان يقود عمارته من على متن سفينته سان جورج ذات الستين مدفعا والمائة والخمسين رجلا. بعد أن فرض على دوق توسكانيا و البابا أن يدفعا تعويضات اتجه، في أوائل سنة 1654، نحو سواحل المغرب ليثأر للاعتداءات التي تتعرض لها السفن الإنجليزية التجارية من قبل الرياس في الجزائر و تونس و طرابلس (95). بعد عمليات " ناجحة " في تونس حصل على إثرها على تعهد بعدم الاعتداء على السفن الإنجليزية، و حصوله على نفس التعهد في

طرابلس، جاء إلى الجزائر. دخل الميناء دون مقاومة و طلب من الباشا محمد أن يطلق سراح كل الأسرى المسيحيين ،فقدم له الباشا هدية ثمينة تتمثل في قطيع من الحيوانات، و تعهد بإطلاق سراح الأسرى الإنجليز مقابل فدية مُخفضة. كما تعهد بعدم الاعتداء على السفن الإنجليزية. لما همت العمارة الإنجليزية بالخروج من الميناء ألقت مجموعة من الأسرى الهولنديين بنفسها في البحر محاولة بلوغ السفن الإنجليزية سباحة. بعد مساعدة هؤلاء الفارين، اضطر البحارة الإنجليز لجمع المال الضروري لفديتهم ثم نقلوهم على متن سفنهم (96).

تخريب الباستيون من جديد

عادت مشاكل العلاقات الجزائرية - الفرنسية لتطفو على السطح في عهد إبراهيم باشا (1656 - 1659)، بسبب الباستيون. بعد أن أدار كوكيل هذه المؤسسة مدة من الزمن سلم إدارتها إلى توماس بيكي و هو تاجر من ليون، عمل قنصلا بالنيابة في الجزائر من سنة 1640 إلى سنة 1646. تأخر توماس بيكي في دفع اللزمة المتفق عليها في معاهدة 1640. في سنة 1658 علم بيكي أن الباشا إبراهيم يعتزم تسيير حملة على الباستيون لإرغامه على دفع المستحقات، فلجأ إلى إضرام النار في كل ما هو موجود في هذا الحصن، و أخذ معه بالقوة حوالي خمسين شخصا من الأهالي و غادر الجزائر. وصل ليفورنا في أكتوبر مصحوبا بـ 150 جنديا و بحارا. باع الأهالي هناك تعويضا لخسائره كما زعم (97). أرسل الملك الفرنسي لويس الرابع عشر ممثلا عنه إلى الجزائر للتفاوض من جديد قصد إعادة الباستيون و النشاطات التجارية، إلاّ أن مهمة المبعوث الفرنسي لويس كامبون، لم تثمر شيئا، بسبب الاضطرابات التي كانت تعيشها السلطة التركية في الجزائر في ذلك الحين، فعاد إلى فرنسا سنة 1659. كان لا بد من انتظار مرور عاصفة السلطة تلك.

تمرد الإنكشارية و نهاية عهد الباشوات

في سنة 1659 تمرد الإنكشاريون على إبراهيم باشا بسبب تأخر الجراية. ألقوا عليه القبض و رموا به في السجن. جمع البولكباشي خليل مدبر العملية الديوان الذي أعلن نهاية نظام الباشوات، لكنه سمح للباشا بالبقاء في الجزائر لتمثيل السلطان فيها دون أدنى تدخل في شؤون الحكومة، التي تبقى من شأن الديوان، الذي يترأسه آغا الإنكشارية (98). هكذا استولت الإنكشارية على الحكم ،بصفة مباشرة فأصبح البولكباشي خليل أول آغا، في عهد سلطة الآغوات الذي سوف لن يستمر طويلا. يفسر دو لاكروا الابن عدم طرد الإنكشارية الباشا بكون هذه الأخيرة تجند أعضاءها من أقاليم الإمبراطورية العثمانية ولا يمكن لها أن تفعل ذلك إلاّ بموافقة السلطان. بالفعل فقد استمرت عملية التجنيد جارية كل سنتين أو أربع سنوات في

سورية و الأناضول و حتى في البلقان (99). تأخذ عملية التجنيد هذه أهمية كبيرة بالنسبة للإنكشارية مادامت ترفض انخراط الأهالي في صفوفها. إنها وسيلة من وسائل تجديد نفسها، إضافة إلى الأعلاج. تبقى هذه العملية ورقة رابحة في يد السلطان العثماني للضغط على انكشارية الجزائر.

2 ـ الآغوات في مواجهة الدولة العثمانية و فرنسا

كان البولكباشي خليل أول الآغوات إذن، و إلى جانبه الباشا إبراهيم ممثل السلطان، الذي نجا من القتل لكونه لم يعمل أي شيء ضد الإنكشارية. تميز عهد الآغوات القصير بسلسلة من الاغتيالات. بدأت مع اغتيال خليل قائد التمرد نفسه سنة بعد تعيينه. خلفه الآغا رمضان الذي لم يطل عهده كثيرا هو كذلك، إذ قتل في أوت من سنة 1661. خلفه العلج البرتغالي شعبان آغا، الذي بقي على رأس السلطة إلى غاية 1665. يضاف إلى الاضطرابات الحاصلة في قمة هرم السلطة ما عرفته البلاد من تحركات داخلية. انقطعت قبائل الشرق عن دفع الضريبة، بعد تخريب الباستيون من طرف توماس بيكي، و أخذ أحمد بن أحمد (بوختوش)، من أولاد القاضي يتوسع في بلاد القبائل، انطلاقا من أمغوت، و تمكن من السيطرة على بلاد القبائل من سباو إلى بجاية (100). هذا على المستوى الداخلي، أما على المستوى الخارجي فإن الأحوال لم تكن بأحسن من الأولى. و قد تميزت خاصة بعودة التوتر إلى العلاقات مع فرنسا.

معاهدتان مع إنجلترا و هولندا

بعد وفاة الأميرال بلاك، عاد الرياس إلى مهاجمة السفن التجارية الإنجليزية. أرسل الملك شارل الثاني، سنة 1661، كونت ساندويتش في مهمة تتعلق بتسوية مشاكل القرصنة مع الجزائر، إلاّ أنه لم يصل إلى هذه التسوية المرغوبة (101). تعرض محمد بن رقية التلمساني لحملة ساندويتش على مدينة الجزائر فقال: " في دولة رمضان بولكباشي أتت عمارة الإنجليز بثلاث و عشرين سفينة كبارا و أراد أن يجدد الصلح بينهم و بين أهل الجزائر "، غير أن الشروط التي اشترطها رفضتها الجزائر، فقصف المدينة و الحصون، فرد الأتراك بالمثل، و عند المغرب من نفس اليوم أقلعت السفن الإنجليزية تحمل رجالها إلى بلادهم " خائبين خاسرين " (102). و بعد أن تعرضت الجزائر لزوبعة بحرية حطمت الكثير من سفنها على رصيف الميناء أبرمت الجزائر معاهدة مع الأميرال سير جون لاوسون يوم 23 أفريل من السنة الموالية (سنة 1662) (103). تقيم هذه المعاهدة السلم بين الجزائر و إنجلترا من جديد و تضمن حرية التجارة و توقف أعمال القرصنة و تحرر العبيد الإنجليز " مع دفع المبلغ الذي تم بيعهم به لأول مرة في السوق " كما تمنع استرقاق الإنجليز مستقبلا (104).

سار الهولنديون على طريق الإنجليز، فوقعوا هم كذلك معاهدة مع الجزائر (1662)، شبيهة بمعاهدتهم: تمنع القرصنة الموجهة ضد سفن و رعايا هولندا و " رعايا الملوك و الأمراء المجاورين لها أو حلفائها "(105).

الحملة الفرنسية على جيجل

في بداية 1661 أوفدت فرنسا مبعوثها رميناك إلى الجزائر حاملا معه كل الترضيات الضرورية. بعد مفاوضات، تم الاتفاق مع السلطة في الجزائر. أبرمت معاهدة جديدة يوم 29 فيفري لم تأت بجديد بل ثبتت ترتيبات المعاهدة السابقة التي أبرمت سنة 1640 (106). لم تكن هذه المعاهدة سوى تلهية للسلطة التركية، لأن فرنسا كانت تعمل في الخفاء كي تقيم موقعا لها على السواحل الجزائرية بدعوى محاربة القرصنة.

يعود هذا المشروع إلى 1658 حين أمرت فرنسا الفارس دو كليرفيل بالتعرف على سواحل الجزائر قصد اختيار المكان الملائم لإقامة عسكرية فرنسية دائمة (107). قام دو كليرفيل بالمهمة سنة 1661، و في السنة الموالية اقترح موقع سطورة القريب من سكيكدة. في سنة 1663 قامت عمارة فرنسية بعمليات مكنتها من القضاء على حوالي عشرين قطعة بحرية جزائرية، غير أنها عجزت عن الإنزال في القل. في الثاني من أوث قام الدوق دو بيفور بعملية تزوّد بالماء و المؤونة في سطورة، دون خوف من رد فعل الأهالي. سار بعد ذلك إلى دلس و الجزائر، أين أمكن له الحصول على غنائم. حاول أن يضرم النار في أسطول هذه الأخيرة فلم ينجح، بل تكبد بعض الخسائر المعتبرة، فعاد إلى إبيزا في الباليار. (108). في هذه الآونة كانت مدينة الجزائر تعرف انتشار وباء الطاعون مجددا. وقد أتى على أكثر من عشرة آلاف عبد مسيحي و على عدد كبير من سكان المدينة. سوف يُحمل هذا الوباء إلى طولون و ضواحيها (109).

بعد هذه العمليات من الاستكشاف و جس النبض، قرر المجلس الملكي الفرنسي احتلال مدينة جيجل بدلا من سطورة. تم التحضير للعملية في ربيع 1664 يبدو أن فرنسا باختيارها جيجل أرادت أن تعيد تجربة الأتراك مع هذه الجهة المعزولة طبيعيا عن باقي البلاد. لقد كان هناك اعتقاد سائد بين وزراء الملك مفاده أن أهالي المنطقة سوف يرحبون بالفرنسيين ضد الأتراك، من جهة، و من جهة أخرى كان الفرنسيون يعولون على ما ألحقه الطاعون بالسكان من أضرار (110). و معلوم أيضا أن الحامية التركية في المدينة لم يكن عدد أفرادها يتجاوز الثلاثين جنديا. لكن ما لم يضعه الفرنسيون في الحسبان هو أن سكان المدينة كانوا يتمتعون ببعض الامتيازات التي منحها إياهم الأتراك باعتبارهم كانوا من أوائل من ساهموا في إقامة السلطة التركية في الجزائر.

تكونت الحملة الفرنسية على جيجل من أكثر من خمسة آلاف و خمسمائة جندي و مئات المتطوعين، تحملهم ثلاث وستون قطعة بحرية انطلقت من طولون بقيادة الدوق دو بوفور، يوم 2 جويلية 1664. بعد أن استراحت في البليار، أين التحق بها فرسان مالطة، استأنفت طريقها نحو الساحل الجزائري، لتصل قبالة بجاية يوم 21 جويلية. هناك علمت أن حامية جيجل أتى عليها الطاعون، بالتالي يمكن الاستيلاء على المدينة دون مقاومة، كما اعتقد قادتها. لما وصلت إلى جيجل، في اليوم الموالي، استقبلت ببعض طلقات المدفعية. في يوم 23 جويلية تم الإنزال في شرق المدينة بالقرب من أحد الجوامع - هو جامع سيدي عمار، الذي يقع مكانه حصن دوكين اليوم - أين واجه الفرنسيون مقاومة من الأهالي، أدت إلى مقتل أو جرح أربعمائة من المقاومين. في الساعة الثالثة، و بعد قصف مكثف أدى إلى فرار السكان من المدينة الصغيرة، دخلت القوات الفرنسية المدينة فرفعت على التو العلم الفرنسي و الصليب على مئذنة المسجد، ثم تموقعت وحدات منها في السهل الضيق الواقع بين المدينة و التلال المحيطة بها. ابتداء يوم 24 بدأت القوات الفرنسية المتمركزة في المواقع الأمامية تتعرض لهجمات الأهالي استمرت مدة شهر كامل، تحت مراقبة دقيقة من التلال ليلا و نهارا بدون انقطاع (111).

جاءت القوات التركية من الجزائر، فانضم إليها في الطريق عدد من المقاتلين الأهالي (112). ما إن وصلت إلى جيجل حتى بادرت بالهجوم على الحصن الواقع غرب المدينة، إلا أنها لم تحقق نجاحا. لم تكن تملك المدفعية الثقيلة. لقد صادف أن وصلت الإمدادات من فرنسا، على متن سفن يقودها مركيز مارتيل، في نفس الوقت الذي وصلت فيه المدفعية التركية الثقيلة. فتح الأتراك نار مدافعهم يوم 2 أكتوبر ضد الفرنسيين بدءا بالحصن الغربي، الذي لم يقاوم إلاّ حوالي ثلاث ساعات فقط. لم يتمكن الفرنسيون من مقاومة الأتراك و مدفعيتهم و الأهالي بأعدادهم الغفيرة فشرعوا في الانسحاب يوم 31 أكتوبر، حيث بدأوا بنقل جرحاهم و مرضاهم الذين بلغ عددهم ألفا و مائتي شخص. تحولت عمليات الانسحاب من المدينة إلى فرار حقيقي بالنسبة للفرق الأخيرة. أمام ضربات الأتراك والأهالي اضطرت القوات الفرنسية إلى التخلي عن المدفعية و حتى عن بعض الجنود. في أول نوفمبر ابتعدت السفن الغازية عن ساحل جيجل، بعد أن فقدت أكثر من ألفي رجل، بين قتيل و جريح و أسير، لكن كارثة الحملة لم تتوقف عند هذا الحد، إذ ما إن وصلت إلى طولون حتى وجدت هذه المدينة تعيش على وقع وباء الطاعون. سارت إلى جزر هيير، أين غرقت السفينة المعروفة باسم لون (قمر)، فغرق معها أحسن ضباط دو بوفور (113).

غنم الأتراك كثيرا في جيجل. نقلت الغنائم إلى مدينة الجزائر. يصف الأسير الفرنسي لوقران، الذي كان عبدا في هذه المدينة وصول تلك الغنائم، في إحدى رسائله، بقوله: " لم أود

تصديقه (سقوط جيجل بيد الأتراك) إلاّ عندما ألقيت نظرة إلى البحر و رأيت الأجفان العائدة و على متنها ثمانين فرنسيا أو أكثر و أربعة عشر قطعة مدفع إلى جانب غنائم كثيرة، من بينها ملازم الكتائب الملكية الذي وقع أسيرا هناك. لقد وصلت في هذا اليوم ثلاث سفن تحمل عددا من الأسرى مماثلا للذي حملته الأجفان و الذين عُوملوا معاملة جد سيئة و معظمهم كان مريضا. كما نقلت المدافع التي هي في مجموعها تتكون من اثنين وثلاثين قطعة مصنوعة من الحديد الصلب و ستة عشر قطعة مصنوعة من الحديد و لكن لا تقل متانة عن تلك المصنوعة من الحديد الصلب. كما حملت كمية كبيرة من قطع المنجنيق وكمية هائلة من الذخيرة و القذائف و ما يملئ مغازات كبيرة من الدقيق و أكثر من ثمانمائة برميل من الخمر التي أتلفت بأمر من القائد التركي " (114). لقد بلغ عدد الأسرى حوالي أربعمائة رجل، تحول الكثير منهم إلى أعلاج حتى يتجنبوا مصير العبيد (115).

بعد هذه الهزيمة استمر دو بوفور في مطاردة الرياس. في 17 فيفري خرج على رأس عمارة من طولون، فالتقى بهم فاضطروا للفرار إلى حلق الوادي بتونس للاحتماء بمدافعها، إلاّ أنه تمكن من تخريب ثلاث سفن من سفنهم. في 2 و 27 مارس قصف رصيف ميناء الجزائر، فرد عليه الأتراك بمدافعهم. في 24 أوت هاجم سفن الرياس قبالة شرشال فأحرق اثنتين و استولى على ثلاث منها. و في هذه الأثناء، التي كان الطاعون فيها لا يزال منتشرا في مدينة الجزائر، تمردت الإنكشارية و قتلت شعبان آغا، ثم عينت مكانه علي آغا (116) (1665) الذي توصل إلى معاهدة جديدة مع الفرنسيين.

معاهدة أخرى مع فرنسا

في بداية 1666 عبر علي آغا عن رغبته في الدخول في مفاوضات مع فرنسا فاغتنمت هذه الأخيرة، التي لم تتمكن من القضاء على القرصنة، الفرصة و أرسلت مبعوثها السيد تروبيرت إلى الجزائر. لم يجد هذا المبعوث صعوبة في الوصول إلى الاتفاق مع الأتراك (117). كانت النتيجة معاهدة 17 ماي 1666 التي لا تختلف كثيرا عن المعاهدات السابقة لها (118). فهي تضع حدا لكل " الاستفزازات و الأعمال العدائية سواء في البحر أو على البر " بين الجزائر و فرنسا. كما تنص على تبادل الأسرى بين الطرفين و تمنع أعمال القرصنة و تسهل الأعمال التجارية. لم يدم العمل بها طويلا، بدون مشاكل. ففي سنة 1668، و بعد أن ألحق البنادقة أضرارا بأسطول الرياس، الشيء الذي جعلهم يستولون على كل ما يجدونه في طريقهم، استولى الرياس على تجار فرنسيين. جاء المركيز دو مارتيل في جوان يطلب تصليح (الخطأ)، ثم عاد في سنة 1670 فاستقبل بشكل ودّي (119) و تم الاتفاق على إضافة بنود أخرى إلى المعاهدة قصد إثرائها (120).

غارات الإنجليز على السواحل الجزائرية

لم تدم المعاهدة الجزائرية ـ الإنجليزية الموقعة في 1662 طويلا، إذ عادت الحرب في سنة 1669. أخذ رياس الجزائر يهاجمون السفن الإنجليزية التي اشتكى أصحابها إلى دولتهم. سيّرت إنجلترا حملة بقيادة إدوارد سبراغ نحو سواحل المغرب (121). في ماي 1671 هاجم الأسطول الإنجليزي ميناء بجاية و أضرم النار في 12 سفينة من المراكب الراسية فيه. كان ردّ الفعل في مدينة الجزائر اغتيال القنصل الإنجليزي و نهب مقر القنصلية. و في شهر جويلية ظهر الأسطول الإنجليزي قبالة مدينة الجزائر فأحرق ثلاثة مراكب جديدة و أغرق أخرى، كما أحدث تخريبا في رصيف الميناء (122). كانت هذه العمليات الإنجليزية الشرارة التي أشعلت فتيل اضطرابات معقدة في الجزائر أدت إلى إنهاء نظام الآغوات.

نهاية نظام الآغوات

عرفت السنوات الأخيرة من حكم علي آغا صعوبات كبيرة. ففي سنة 1668 تمرد الأهالي المقيمون في مدينة الجزائر من غير الحضر (البراني). هذا التمرد نجهل أسبابه وتفاصيله. خلاله قبض على مسؤول الفرق العسكرية الأهلية من الزواوة، فذبح و مُزق إربا إربا، ثم عُلقت أشلاؤه في أماكن مختلفة من المدينة. على أثر هذه العملية تمردت بلاد القبائل كذلك. و هذا ما يوحي بأن تمرد الزواوة كان له طابع سياسي، قد تكون وراءه جهات أخرى مثل طائفة الرياس أو الباشا ممثل السلطان في الجزائر. في هذه الأثناء كان الهولنديون، الإنجليز، المالطيون و السردينيون و كذلك سفن البابا يطاردون الرياس بلا هوادة و يلحقون بهم خسائر فادحة، حتى أن سكان مدينة الجزائر كانوا يخشون إنزالا أجنبيا في مدينتهم. لتهدئة الأوضاع لجأ علي آغا إلى توزيع الهدايا و تحصين رأس ماتيفو (تامنتفوست) و مصب وادي الحراش (123). لكن ذلك لم يمنع الطائفة من التحريض ضد الآغا ، بعد الحملة الإنجليزية.

في سبتمبر 1671 تمردت الإنكشارية على علي آغا. على الرغم من أن رأس التمرد قد قُتل، فإن المتمردين قبضوا على الآغا و قطعوا رأسه، و عذبت الغوغاء زوجته قصد الوصول إلى المكان الذي كان يحوي أمواله. أعقبت مقتل الآغا فوضى عارمة، هاجم خلالها الإنكشاريون القصبة ونهبوا أموال جرايتهم. في الحقيقة وصل نظام حكم الآغوات إلى أزمته القاتلة. عجز ديوان الإنكشارية في الوصول إلى تعيين آغا يستطيع إعادة الأمور إلى نصابها. لقد عُين خمسة آغوات أو ستة خلال ثلاثة أيام فقط في هذه الفوضى تدخلت طائفة الرياس التي لم تكن راضية على سياسة علي آغا متهمة إياه باللامبالاة تجاه البحرية التي تتعرض لضربات الدول الأوربية كما أعابت عليه سياسته تجاه فرنسا (124).

لقد تدخل الرياس و عينوا أحدهم دايا للجزائر و هو الحاج محمد. وضعوا بذلك نهاية لنظام الآغوات الدموي. حول أسباب تدخل الرياس و علاقاتهم الاجتماعية يقول جون ب.وولف: لقد كان الرياس " مهددين تهديدا خطيرا بهذه الفوضى. فقد كانوا أغنى الناس في الجماعات المتنفذة، و كانوا يملكون الفيلات في ضواحي الجزائر و المنازل بالمدينة، و كانوا يملكون الرقيق بالإضافة إلى الثروة من البضائع و الدراهم، كما كانوا متعودين على القيادة. و بذلك كانت الفوضى المشار إليها تهدد ثروتهم كما كانت تهددها الأساطيل الأجنبية عندما تتدخل في مهنتهم كقراصنة. و كان الرياس يجدون حلفاءهم في صفوف أغنياء الحضر (البلدية) و اليهود الذين كانوا من جهة يدبرون تجارة الجزائر و من جهة أخرى كانوا يملكون الكثير من السفن في أسطول القرصنة. فهؤلاء كانوا أيضا مهتمين باستتباب النظام و لكنهم لم يكونوا يملكون، سواء في ذلك البلدية أو اليهود، أية قاعدة عسكرية أو سياسية يتحركون منها لحسابهم "(125).

هوامش الفصل الثالث

(1) وولف.المرجع السابق ص 92 و 93.

(2) هايدو.المرجع السابق ص 102.

(3) قايد.القراني.المرجع السابق ص 24 و 25.

(4) قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 111.

(5) هايدو.المرجع السابق ص108 و 109.

(6) قايد.القراني.المرجع السابق ص 26 و 28.

(7) نفسه

(8) جوليان.المرجع السابق ص 351 و 352.

(9) قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 112.

(10) Q.BERBRUGGER.Notes relatives à la révolte de Ben Sakhri.Revue Africaine.N°.10 (1886).p.337

(أ.بيربروجير.مذكرات حول عصيان ابن صخري.المجلة الإفريقية.عدد 10(1866). ص. 33).

(11) جمال قنان.معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619 - 1830.المؤسسة الوطنية للكتاب.الجزائر 1987 ص 42 و 43

(12)_قايد.المرجع السابق ص113.

(13) الجيلالي.المرجع السابق ص 117 و 118.

(14) قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 113 و 114.

(15) دو ساندوفال.المرجع السابق ص 360 و 361.

(16) نفسه.ص 439.

(17) نفسه.

(18) الجيلالي. المرجع السابق ص 118.

(19) نفسه.

(20) H.D. de GRAMMONT.Relations entre la France et la Régence d'Alger au XVIIe siècle Revue Africaine.N°.23 (1879).pp.8 et 9.

(هـ.د.دو غرامون.العلاقات بين فرنسا و إيالة الجزائر في القرن السابع عشر. المجلة الإفريقية عدد 23 (1879) ص 8 - 10).

(21) A.DEVOULX.La marine de la Régence d'Alger.Revue Africaine.N°.13.(1869) pp. 390 et391.

(ألبير دوفولكس.بحرية إيالة الجزائر.المجلة الإفريقية عدد 13(1869).ص 390 و 391)

(22) غرامون. العلاقات بين. المرجع السابق ص 10 ـ 13.

(23) نفسه.

(24) نفسه. ص 14 و 15.

(25) الجيلالي. المرجع السابق ص 119.

(26) غرامون. العلاقات بين. المرجع السابق ص 14 و 15.

(27) أوصديق. المرجع السابق ص 39 ـ 42.

(28) غرامون. العلاقات بين. المرجع السابق ص 14 و 15.

(29) روبان. المرجع السابق ص 135 و 136.

(30) A.RETOUT.Histoire de Djidjelli.Ancienne Maison Bastide.Jourdan.Alger 1929.p.50.

(أ. ريتو. تاريخ جيجل. دار باستيد جوردان القديمة. الجزائر 1929. ص 50).

(31) قايد. الجزائر تحت. المرجع السابق ص 121.

(32) غرامون. العلاقات بين. المرجع السابق ص 15.

(33) نفسه.

(34) نفسه ص 137 و 138.

(35) نفسه ص 15 و 16.

(36) نفسه ص 18

(37) نفسه ص 19 و 20.

(38) الجيلالي. المرجع السابق ص 121.

(39) انظر نص المعاهدة في : قنان المرجع السابق ص 263 ـ 265.

(40) غرامون. العلاقات بين. المرجع السابق ص 25 و 26.

(41) نفسه.

(42) قايد. الجزائر تحت. المرجع السابق ص 121 و 122.

(43) غرامون. العلاقات بين. المرجع السابق ص 23 ـ 28.

(44) دردور. المرجع السابق ص 77 و 78.

(45) وولف. المرجع السابق ص 254 و 255.

(46) R.L.PLYFAIR.Episodes de l'histoire des relations de la Grande – Bretagne avec les Etats Barbaresques avant la conquête française.Revue Africaine N°.22 (1878).pp.305 et 306.

(ر.ل. بلايفير. حلقات تاريخ علاقات بريطانيا العظمى بالدول البربريسكية قبل الغزو

الفرنسي المجلة الإفريقية ،عدد 22 (1878). ص 305 و 306).

(47) وولف. المرجع السابق ص 254 و 255.

(48) نفسه ص 257.

(49) الجيلالي. المرجع السابق ص 121.

(50) وولف. المرجع السابق ص 262.

(51) الجيلالي. المرجع السابق ص 124.

(52) دو ساندوفال. المرجع السابق ص 443.

(53) قايد. الجزائر تحت. المرجع السابق ص 122 و 123.

(54) الجيلالي. المرجع السابق ص 126.

(55) غرامون. العلاقات بين. المرجع السابق ص 143 و 144.

(56) قنان. المرجع السابق ص 61 و 62.

(57) غرامون. العلاقات بين. المرجع السابق ص 146 ـ 150.

(58) ريتو. المرجع السابق ص 50.

(59) غرامون. العلاقات بين. المرجع السابق ص 156 و 157.

(60) حمدان بن عثمان خوجة. المرآة. تقديم و تعريب و تحقيق محمد العربي الزبيري. الشركة الوطنية للنشر و التوزيع. الجزائر 1975. ص 154 و 155.

(61) غرامون. العلاقات بين. المرجع السابق ص 414 ـ 416.

(62) وولف. المرجع السابق ص 130 و 131.

(63) غرامون. العلاقات بين. المرجع السابق ص 230 و 231.

(64) دربور. المرجع السابق ص 82.

(65) وولف. المرجع السابق ص 287.

(66) قايد. الجزائر تحت. المرجع السابق ص 125.

(67) دربور. المرجع السابق ص 83.

(68) جوليان. المرجع السابق ص 362.

(69) دربور. المرجع السابق ص 83.

(70) وولف. المرجع السابق ص 285.

(71) بيربروجير. مذكرات حول. المرجع السابق ص 338 و 339.

(72) نفسه.

غرامون العلاقات بين المرجع السابق ص 431 و 432.

(73) غرامون العلاقات بين المرجع السابق ص 431 و 432.

(74) بيربروجير مذكرات حول المرجع السابق ص 339 و 340.

(75) انظر : جمال قنان نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500 ـ 1830 المؤسسة الجزائرية للطباعة الجزائر 1987 ص 71 ـ 73.

(76) كانت قيادة قبيلة الحنانشة بيد الأحرار ،رغم أنهم لا ينتمون إليها لما توفي القائد خالد،اعترف الأتراك بابنه مناصر على حساب أخيه الأكبر ناصر ،الشيء الذي أدى إلى انقسام الأحرار إلى صفين : صف ناصر و صف مناصر.

(77) دربور المرجع السابق ص 84 و 85.

(78) فيرو بنو جلاب المرجع السابق عدد 26 ص 364.

(79) نفسه ص 365 و 366.

(80) غرامون العلاقات بين المرجع السابق ص 434 و 435.

(81) بيربروجير مذكرات حول المرجع السابق ص 345.

(82) دربور المرجع السابق ص 85 و 86.

(83) بيربروجير مذكرات حول المرجع السابق ص 347 ـ 349.

(84) غرامون العلاقات بين المرجع السابق ص 444.

(85) بيربروجير مذكرات حول المرجع السابق ص 346.

(86) انظر نصها في : قنان معاهدات المرجع السابق ص 268 ـ 272.

(87) بيربروجير مذكرات حول المرجع السابق ص 346 و 347.

(88) انظر نصها في : قنان نصوص و وثائق المرجع السابق ص 87 ـ 90.

(89) غرامون العلاقات بين المرجع السابق ص 445 ـ 447.

(90) قايد الجزائر تحت. المرجع السابق ص 131.

(91) الجيلالي. المرجع السابق ص 135.

(92) انظر : المدني المرجع السابق ص 426 و 427.

(93) نفسه ص 429 ـ 432.

(94) غرامون العلاقات المرجع السابق عدد 28 ص 210.

(95) بلايفير المرجع السابق ص 317 ـ 320.

(96) نفسه.

(97) غرامون العلاقات المرجع السابق ص 216 و 217 انظر الهامش كذلك.

(98) نفسه ص 284.

(99) وولف.المرجع السابق ص 138.

(100) نفسه.

(101) بلايفير.المرجع السابق ص 401 و 402.

(102) انظر: قنان.نصوص و وثائق.المرجع السابق ص 90 و 91.

(103) بلايفير.المرجع السابق ص 402.

(104) انظر نص المعاهدة في : قنان.نصوص و وثائق.المرجع السابق ص 91 ـ 96.

(105) انظر :نفسه ص 96 و 97.

(106) انظر : قنان.معاهدات.المرجع السابق ص 277 ـ 282.

(107) غرامون.العلاقات.المرجع السابق ص 216.

(108) نفسه. ص 293 و 294.

(109) نفسه.

(110) وولف.المرجع السابق ص 316.

(111) Ernest WATBLED.Expidition du Duc de Beaufort contre Djidjelli (1664).Revue Africaine.N°.17 (1873).pp.218-221.

(أيرنيست واطبليد.حملة الدوق دو بيفور على جيجل (1664).المجلة الإفريقية.عدد 17 (1873) ص 218 ـ 221).

(112) المدني.المرجع السابق ص 423.

(113) واطبليد.حملة الدوق.المرجع السابق ص 223 ـ 229.

(114) انظر الرسالة في : قنان.نصوص و وثائق.المرجع السابق ص 103 ـ 105.

(115) وولف.المرجع السابق ص 317.

(116) غرامون.العلاقات.المرجع السابق ص 298.

(117) واطبليد.حملة الدوق.المرجع السابق ص 103 ـ 105.

(118) انظر نصها في : قنان.المعاهدات.المرجع السابق ص 283 و 284.

(119) غرامون.العلاقات بين.المرجع السابق ص 341.

(120) انظر هذه البنود في : قنان.معاهدات.المرجع السابق ص 288 ـ 294.

(121) بلايفير.المرجع السابق ص 341 و 342.

(122) غرامون.العلاقات بين.المرجع السابق ص 341 و 342.

الفصل الرابع:

الدايات: طرد الأسبان و سياسة التوسع

لما اختار الرياس الحاج محمد التركي دايا للجزائر خلفا للآغا علي، ابقوا على الباشا كممثل للباب العالي كما فعل الآغوات من قبل. استمرت الدولة العثمانية ترسل الباشوات إلى الجزائر إلى غاية 1711. كان الداي الأول غنيا و متقاعدا و محل احترام الجميع. لم يحاول الاستئثار بالحكم شخصيا، بل كان صهره بابا حسن هو الحاكم الفعلي، وهو الذي أدخل التعديلات التي بفضلها أصبح الوزراء أو رجال السياسة يلعبون دورا كبيرا في تسيير شؤون الدولة بدلا من استئثار الديوان بها (1). كان اختيار الداي يتم، في بداية العهد الجديد، من بين رياس البحر، كما هو الشأن مع الحاج محمد و بابا حسن و الحاج حسين ميزومورطو و إبراهيم، ثم تحول إلى الوزراء أو رجال الدولة من أمثال الخزناجي و خوجة الخيل و آغا العرب. لقد أكسب النظام الجديد السلطة حيوية سمحت بتجاوز ذلك الركود الذي عرفته في عهد الباشاوات و الانسداد الذي بلغته في عهد الآغوات، عهد هيمنة ديوان الإنكشارية.

كانت فترة حكم الحاج محمد فترة طويلة، دامت 11 سنة. لعب خلالها صهره بابا حسن، زوج ابنته دورا رئيسيا. أمضى سنة 1672 في فك خيوط المؤامرات و مواجهة الطاعون الذي كان يفتك بالبلاد و ظل كذلك عدة سنوات. كما نشط القرصنة، التي لم يهتم بها الآغوات كثيرا. كان الرياس، في السنوات الأولى من حكم الداي الأول، يهاجمون سواحل كلابريا و صقلية و إيطاليا و نابل و إسبانيا. وصلوا في سنة 1673 إلى غاية السواحل البرتغالية (2). في الداخل، أولى بابا حسن أهمية خاصة للناحية الغربية من البلاد، فعمل على الحدّ من الخرجات التي ظل الأسبان ينظمونها ضد الأهالي، خاصة في عهد الآغوات الذي لم يشهد سوى بعض المحاولات المحتشمة التي قام بها بعض البايات ضد الإسبان.

الناحية الغربية بين الأتراك والأسبان

تذكر المصادر الإسبانية أن دون الفارو دي بازان، مركيز سانتا كروز واجه سنة 1642 حصارا ضُرب على وهران برا و بحرا من طرف جيش يتكون من الأتراك و الأهالي دعمته قطع بحرية تعود لفرنسا و البرتغال اللتين كانتا في حرب مع إسبانيا، غير أن الأسبان تمكنوا من دفع المحاصرين، بعد خرجة قادها المركيز على رأس ثمانمائة رجل في الوقت الذي جاء فيه الدوق توريسي لنجدته على رأس 25 قطعة بحرية من جنوة. كما تشير هذه المصادر إلى محاولة تنظيم حصار حول مدينة وهران سنة 1656، تمكن دون كاسبار دي قوزمان من

إفشالها.قاد هذا الحاكم بعد ذلك خرجة على بعـد 14 فرسخا من وهران ،استولى خلالها، في وادي مقرة ،على قافلة كانت في طريقها من تلمسان إلى مدينة الجزائر،تحمل الضرائب والهدايا التي أرسلها قائد تلمسان.إضافة إلى الغنائم الضخمة التي حصل عليها حاكم وهران،استولى كذلك على 46 جنديا تركيا من 150 جنديا كانوا يرافقون القافلة.كما تشير هذه المصادر إلى حصار نظمه الأتراك سنة 1669 على وهران،رُفع لأسباب مجهولة،بعد محاولات ضد جدران المدينة (3).لعل السبب يعود إلى تلك الاضطرابات التي كانت تعرفها مدينة الجزائر خلال هذه السنة و التي أدت إلى انهيار نظام الآغوات.

في سنة 1675،حين كانت وهران تعيش كارثة الطاعون الذي أتى على حوالي ثلاثة آلاف ساكن من سكانها (4)،سيّر الأسبان،في جوان،حملة نحو تلمسان.بلغت أسوار المدينة، فدفعها الأهالي و طاردوا جنودها إلى غاية وهران و المرسى الكبير.دعم بابا حسن هؤلاء الأهالي بفرق من الإنكشارية (5)،فتحولت المطاردة إلى حصار للموقعين،دام إلى غاية شهر جويلية. لما جاءت عمارة من قرطاجنة تحمل الإمدادات انسحب الأهالي و الأتراك (6). في نهاية جانفي و بداية فيفري من سنة 1677،قاد حاكم وهران حملة على القبائل التي شاركت في حصار وهران و أغارت على القبائل الحليفة للأسبان،لكن الأهالي تمكنوا من رده و إجباره على التقهقر.في السنة الموالية جاء دور الأتراك لينظموا حصارا جديدا على وهران (7)،شاركت فيه أعداد غفيرة من المقاتلين الذين تمكنوا من تخريب التحصينات (8)،لكنهم فشلوا في اقتحام المدينة،فتراجعوا تاركين وراءهم 220 أسيرا و الجزء الأكبر من مؤونتهم و خيمهم (9) في سنة 1681،قتل حاكم وهران الكونت دي تيباوبيون في مواجهة مع الأتراك و بني راشد،فخلفته زوجته مدة سنة كاملة. كما جُرح الكونت دي براكامونت في خرجة على بعد بضع كيلومترات من وهران،فمات متأثرا بجراحه (10).

تبقى الوضعية في الغرب هكذا،خرجات إسبانية و حصارات تركية،كما سنرى لاحقا.أما في الجنوب الغربي من البلاد فإننا نشهد،في هذا الوقت ،تشكل مشيخة أولاد سيدي الشيخ التي سوف تلعب دورا هاما في تاريخ الجزائر،خاصة في العهد الاستعماري الفرنسي.

نشأة مشيخة أولاد سيدي الشيخ

تقول الرواية أن أولاد سيدي الشيخ ينحدرون من الخليفة أبي بكر الصديق. عُرف أجدادهم باسم البو بكرية.هاجروا مكة في صدر الإسلام. توقفوا بعض الزمن في مصر ثم انتقلوا إلى تونس فاستقروا بها إلى غاية القرن الرابع عشر. تمتعوا في تونس بتقدير كبير من ملوكها.غادروا تونس تحت قيادة سي سليمان العالية و معهم أتباعهم و زبائنهم قادة و أحفاد عكرمة و أولاد عبد

الكريم (الطرافي) و أولاد زياد و الرزاينة.استقروا بالجزائر في نواحي عرباوة من إقليم بني عامر(11). ولد عبد القادر بن سي محمد بن سليمان بن بوسماحة سنة 951 (1544 - 1545) و هو الذي اشتهر باسم الشيخ. بفضل صفته كمقدم للطريقة الشاذلية و كشريف و بفعل طهارته أصبح سيدي الشيخ،في مجتمع تحكمه البندقية،حكما في الصحراء،يرضى به الجميع.كان يحل كل المشاكل التي تظهر بين البدو،و كان الضعفاء و المقهورون يلتجئون إليه فكثر زبائنه. أنشأ القصر الأول في الأبيض لاستقبال هؤلاء الزبائن.هذا القصر هو واحد من القصور الخمسة التي شيدت في المنطقة.شيد هذا القصر الأول في مكان كان قد استقر فيه شريف مغربي،ينحدر من سي عبد القادر الجيلاني (مؤسس الطريقة القادرية) يسمى بوطريق.قبل وفاته،أوصى سيدي الشيخ،الذي عاش أربعا و ثمانين سنة،بتحرير عبيده الزنوج العديدين،و عينهم و أبناءهم خدما و سيريين للزاوية التي كان قد شيدها في القصر (هؤلاء المحررون هم الذين سوف يعرفون باسم العبيد أو الزوة)،من جهة أخرى أوصى ذريته باتباع الشاذلية مع إضافة تلاوة الفاتحة في كل صلاة باعتبارها ذكرا.أما القيادة السياسية و الدينية فقد أوصى بها لابنه الثالث سي الحاج بوحفص.لقد أوصى بها هذا الأخير قبل وفاته لأخيه عبد الحكم (1660) الذي تخلى عنها لابن عمه الحاج الدين بوحفص.أنشأ سي ابن الدين الذي خلف أباه قباب شلالة و عربة و الأبيض على أضرحة أجداده،كما أنشأ القصر الثاني في الأبيض (الأبيض سيدي الشيخ) فأخذ هذا الأخير اسم القصر الشرقي في حين أخذ القصر القديم اسم القصر الغربي. نقل سي ابن الدين الزاوية إلى القصر الشرقي و استقر به مع كل ذرية سي الحاج بوحفص و عائلات أخرى من عائلات أولاد سيدي الشيخ (12).

لقد أقام أولاد سيدي الشيخ إمارة أو مشيخة وراثية مستقلة عن الأتراك،تقوم على نبالة أصلهم من جهة و على طريقتهم الخاصة المنفصلة عن الشاذلية،من جهة ثانية،و على قوتهم العسكرية من جهة ثالثة.لقد وسعوا نفوذهم في جنوب بايليك الغرب. كانت بريزينة و الغاسول ومشرية و أغواط لسكل و لرباع و شلالة و بوسمغون و تيوت و موغار و سفيسفة و اليش و فقيق تدفع لهم الضريبة.امتد نفوذهم إلى الأراضي المغربية كذلك.من جهة أخرى سيطروا على قسم من التجارة القافلية التي تتم مع إفريقيا (13).لقد وفرت لهم هذه التجارة أموالا إضافية.أصبحت قوة أولاد سيدي الشيخ تفوق أحيانا قوة البايات الأتراك الذين يديرون القاطعة الغربية (بايليك الغرب).لم يتمكن الأتراك من فرض سلطتهم عليهم بل كان على هؤلاء الأتراك أن يقيموا معهم علاقات تقوم على الاحترام المتبادل دون أن يحصلوا منهم على معاونة أو دعم،كما حصل مع المشيخات الوراثية في جبل عمور،و مع الأحرار و أولاد مختار في التيطري،و مشيخة العرب ولحنانشة و غيرهم كثير (14).

هذا في الداخل،أما على المستوى الخارجي،فقد عرفت العلاقات مع فرنسا تدهورا خطيرا في عهدي الداي بابا حسن (1682 - 1683) و الداي حسين ميزو مورطو (1683 - 1688)

على الرغم من الوصول إلى معاهدة جديدة سنة 1679 تتعلق بالباستيون. كانت أعمال القرصنة من أسباب هذا التدهور.

توتر العلاقات مع فرنسا من جديد

أرسلت فرنسا الأميرال دوكين سنة 1682 إلى السواحل الجزائرية على رأس عمارة من 36 سفينة حربية. قصف بمدافع سفنه مدينة شرشال يوم 25 جويلية كما أحرق سفينتين، ثم انتقل إلى مدينة الجزائر، ليقصفها عدة مرات في شهري أوت و سبتمبر، ثم قفل راجعا (15). أعاد الكرة في السنة الموالية. في 6 ماي سار من طولون، على رأس أسطول من 75 قطعة بحرية، هذه المرة، لكن زوبعة بحرية عطلت وصوله إلى مدينة الجزائر إلى 18 جوان. في 26 من نفس الشهر، شرع الأسطول الفرنسي في قصف المدينة، و استمر يقصف، تحت القنائف التركية العاكسة، إلى يوم 27. في اليوم التالي أرسل الداي مبعوثا إلى دوكين مرفوقا بالأب لوفاشير، لكن الأميرال الفرنسي رفض استقبالهما متمسكا برفض أية معاهدة جديدة، ما لم يتم تسليم الأسرى الفرنسيين (16). يقول محمد بن رقية التلمساني أن بابا حسن خاف لما سقطت قنيفتان على داره الواقعة عند باب الجزيرة " فمن ساعته بلا مشورة أحد طلب الصلح من النصارى و طلب أساري (أسرى) المسلمين الذين هم لدى الفرنسيين ". لكن دوكين رفض ذلك و اشترط تسليم أسرى فرنسا و تعويض مصاريف الحملة (17).

رضخ الداي لشروط الفرنسيين. و شرع في البحث عن أسراهم. جمع خمسمائة أسير، إلى غاية 3 جويلية. عندها أرسل الفرنسيون كلا من هايت و كومبس للتفاوض. أرسل الداي رهائن، منهم الرايس ميزو مورطو. بعد أسبوعين من المفاوضات، لم يتمكن بابا حسن من جمع المليون و نصف المليون من الجنيهات التي اشترطها الفرنسيون تعويضا لخسائر الحملة فطلب مهلة. في هذه الأثناء انقسمت المدينة إلى مؤيدين للسلم، مثل البلْديين و الإنكشارية و رافضين له، مثل طائفة الرياس التي كان على رأسها ميزو مورطو نفسه. بدعوى تسريع المفاوضات و البحث عن المال، نزل ميزو مورطو إلى البر فأحاطت به الطائفة. سار إلى الجنينة أين اغتيل الداي بابا حسن من طرف إبراهيم خوجة (18). " عند سماع المسلمين بموته فرحوا فرحا شديدا، و نصبوا مكانه باتفاق أهل الحل و العقد كبيرهم و صغيرهم الحاج حسين ميزو مورطو "، كما يقول محمد بن رقية التلمساني (19).

رفع ميزو مورطو العلم الأحمر و أمر بقصف الأسطول الفرنسي و أوفد هايت ليقول لدوكين أن استئناف القصف الفرنسي يعني مقتل الفرنسيين (22 جويلية). استأنف الفرنسيون قصفهم للمدينة إلى الأيام الأولى من شهر أكتوبر، حيث اضطر دوكين إلى الإقلاع بسبب رداءة الأحوال الجوية. لقد سبب القصف الفرنسي تخريب حوالي مائة مسكن و مسجدين أو ثلاثة و مقتل

حوالي ألف ساكن و حرق ثلاث سفن من سفن الرياس.لكن أمر الملك الفرنسي،الذي كان يقضي بإضرام النار في المدينة و تخريب الميناء،لم يُنفذ (20).بعد هذه المحاولة لجأت فرنسا إلى استنبول للضغط على الجزائر.

جاء دو تورفيل إلى الجزائر يوم 2 أفريل مصحوبا بممثل الباب العالي،و كان هذا الفرنسي على رأس عمارة كبيرة.استقبل استقبالا مرضيا من طرف السلطة في الجزائر التي وقعت معه السلم،بعد 20 يوما من المفاوضات (21).يذكر محمد بن رقية التلمساني أن الداي ميزو مورطو كان معارضا للسلم مع فرنسا،لكن الفرنسيين قدموا هدايا كثيرة لأعوانه " حتى صاروا بسببها يراودون ميزو مورطو إلى الصلح و يرغبونه إليه " (22).

نصت معاهدة 25 أفريل 1684 على الترتيبات التي تضمنتها المعاهدات السابقة و هي تتمحور أساسا حول إيقاف أعمال القرصنة و حرية التجارة و تبادل الأسرى و القناصل.أعفت هذه المعاهدة القنصل الفرنسي من الالتزام بدفع الديون المستحقة على مواطنيه في الجزائر.هذا و قد أبرمت معاهدة أخرى حول الباستيون يوم 23 أفريل من نفس السنة،مُنح بمقتضاها السيد دونيس بيو " رخصة للذهاب و الاستقرار في باستيون فرنسا،القالة، رأس الحمراء،بونة،سطورة،القل،بجاية جيجل و الأماكن التابعة لها،لصيد المرجان و للتجارة المرتبطة بهذه الموانئ "(23). لم تطبق المعاهدتان إلا لمدة قصيرة بسبب عودة الخلافات بين الجزائر وفرنسا.

استولى القراصنة، في سنة 1686، على العديد من سفن مرسيليا. في المقابل عرض تجار هذه المدينة و أصحاب سفنها مكافآت ضخمة على القراصنة الأوربيين الذين يستولون على سفن جزائرية.تدخل الملك نفسه بعد ذلك ليشجع أولئك الذين يضربون القراصنة الجزائريين (24). في أواخر شتاء 1687،استولى الرياس على سفينة في سواحل مدينة الجزائر،تبيَن أنها سفينة بندقية تحمل جوازا فرنسيا.كانت مهمتها التجسس على الأسطول الجزائري في علاقته بالدولة العثمانية.لقد ازدادت شكوك الرياس عندما أخذوا يعثرون على جوازات سفر فرنسية لدى السفن التي تعود لدول عدوة للجزائر (25). لما علم الداي أن مجلس الدولة الفرنسي ألزم السفن التجارية بالتسلح و وعد أصحابها بمكافأة لكل من يأتي بسفينة قرصنة أو يغرقها، حجز القنصل الفرنسي بيول و 372 رعية فرنسية،كما نُهبت القنصلية الفرنسية في الجزائر و بيعت 16 سفينة فرنسية،كانت متواجدة في ميناء الجزائر، مع بحارتها (26).قررت فرنسا ضرب مدينة الجزائر.

لما علم حسين ميزو مورطو بأن الماريشال ديستري يجمع أسطولا لضرب الجزائر تهيأ للمواجهة بإقامة المزيد من المدافع وتوفير الذخيرة كما أغرق أحسن سفنه ليجعلها في مأمن من القذائف الفرنسية.هذا في الوقت الذي كان يحضر فيه للتفاوض(27). في سنة 1687 و قبل الحملة، أرسل جيراردين دو فوفر معتمد البحرية في طولون يقترح على الجزائر مباشرة

المفاوضات. جاء اقتراحه متأخرا و مع ذلك كانت رسالته المنطلق في المفاوضات التي أعقبت الحملة و انتهت إلى معاهدة 1689 (28)

ظهر الماريشال ديستري قبالة مدينة الجزائر يوم 26 جوان سنة 1688على رأس 41 قطعة بحرية. على التو أرسل إلى الديوان مهددا بقتل أسرى الجزائر الذين جاء بهم على متن سفنه. رد الحاج حسين بأن القنصل الفرنسي سيكون أول الضحايا إن قُصفت المدينة.شرع الفرنسيون في القصف يوم أول جويلية و استمروا فيه إلى يوم 16. بلغ عدد القنائف أكثر من عشرة آلاف،أحدثت تخريبا كبيرا في المدينة،كما خربت حصن تامنتفوست و المساجد و دار الباشا و رصيف الميناء،و جرحت الباشا نفسه مرتين.كان التخريب كبيرا حتى أن الإنكشاريين،لما عادوا من حصار ضربوه على وهران، وجدوا بيوتهم مخربة و عائلاتهم مشتتة،الشيء الذي أنتج تذمرا و غليانا في صفوفهم. أقدموا على اغتيال الأسرى الفرنسيين ومعهم القنصل.فرد الفرنسيون بقتل أسرى الجزائر الذين كانوا لديهم (29).

لما غادر الأسطول الفرنسي الجزائر، نشط ميزو مورطو القرصنة بشكل لم يسبق لـه مثيل خاصة على سواحل فرنسا الجنوبية. خشي المجلس الملكي من أن تفقد فرنسا كل تجارتها مع الشرق فتستولي عليها إنجلترا.جنحت فرنسا إلى السلم.أرسلت معتمد البحرية المدعو مارسيل إلى الجزائر للتفاوض.وصل المبعوث الفرنسي إلى الجزائر في بداية سبتمبر 1689 (30).كانت فرنسا قد ألحت على الباب العالي في أن يرسل إسماعيل باشا إلى الجزائر لتحقيق السلم معها.و كان إسماعيل هنا قد خلف محمد باشا في نهاية 1680 و ظل ممثلا للدولة العثمانية في الجزائر إلى غاية سنة 1686.لما حصل حسين ميزو مورطو على التولية الرسمية من السلطان انتقل إسماعيل باشا إلى طرابلس (31).أرسل الباب العالي إسماعيل باشا إلى الجزائر في خريف 1688،مباشرة بعد الحملة الفرنسية،إلاّ أن ميزو مورطو منعه من الدخول إلى المدينة و أرسل إليه ضباطه الذين قالوا له،كما يروي هو نفسه، في رسالة إلى لويس الرابع عشر: " إننا لسنا في حاجة إلى باشا و لا نريده أبدا. عُد من حيث أتيت و إلاَ رأيت ما سيحل بك.كل أمير سيد في بلاده و يبقى كذلك بفضل سيفه و قوته ".غادر إسماعيل باشا الجزائر متجها إلى المغرب. من تطوان أرسل الرسالة المذكورة،و قد توفي في المغرب بعد ذلك بقليل (32).

في هذه الأثناء عادت المحلات (طوابير الانكشارية) البرية التي كانت تجوب الأقاليم في إطار تحصيل الضرائب. تجمعت الإنكشارية خارج مدينة الجزائر،كما جرت العادة استعدادا للدخول إليها. هذا التجمع كان فرصة لها لإعلان التمرد على ميزو مورطو،الذي لم يجد من يقف إلى جانبه. فرّ إلى تونس و منها إلى القسطنطينية أين عينه السلطان قبطان باشا الأسطول.بهذه الصفة قدم خدمات جمة للسلطان في حروب الأرخبيل و البحرالأسود (33). في عهد شعبان داي (1686 ـ 1695) تم التوقيع على معاهدة جديدة يوم 24 سبتمبر 1689،بين السيد مارسيل ممثل الملك الفرنسي و الداي و الديوان و الإنكشارية. المعاهدة لا تختلف عن

سابقاتها من حيث أنها تنص على إيقاف القرصنة و تحرير التجارة و التبادل القنصلي، لكن ما هو ملفت للانتباه هو أنها تنص، في مادتها الخامسة و العشرين، على أن الأب المسؤول عن الإرسالية المسيحية في الجزائر يمكن له أن يقدم المساعدة للعبيد المسيحيين في الجزائر و حتى لعبيد الباشا و الداي (34). و معلوم أن الإرسالية المسيحية كانت قد أسست لها مركزا بالجزائر سنة 1646 على يد القديس فانسان دو بول (35).

حصار وهران

في الوقت الذي تمت فيه تسوية مشاكل العلاقات مع فرنسا، كانت الحرب قائمة مع الأسبان في الناحية الغربية.

في سنة 1685، قاد الحاكم الإسباني في وهران حملة كبيرة نحو الأقاليم المجاورة لمنطقة نفوذه. عاد مرفوقا بحوالي ثمانمائة أسير و غنيمة ضخمة. لكن هذا الحاكم وقع في كمين نصبه له الأهالي في السنة الموالية فقتل هو و كل جنوده تقريبا (36) . و في سنة 1687، دارت الدائرة على باي مازونة (والي الناحية الغربية من البلاد) شعبان الزناقي الذي قتله بعض المغطسين (أهالي في خدمة الأسبان) من بني عامر في كدية الخيار في وهران. قطعوا رأسه و نصبوها على باب وهران، ثم بعثوا بها إلى الجزائر أين دُفنت (37). في السنة الموالية، تحركت مدينة الجزائر في محاولة لاقتلاع الأسبان من وهران و المرسى الكبير.

في 22 جانفي 1688، قاد إبراهيم خوجة، أو بولة إبراهيم كما تسميه المصادر الإسبانية، حملة على وهران. انضمت إليه أغلب القبائل الحليفة للأسبان بينما فرت قبائل أخرى إلى المناطق الجبلية، تجنبا للخطر. حاصر المدينة إلى أن جاءت إمدادات إسبانية يوم 30 ماي، بقيادة الدوق دي فيرقاس. نُقلت هذه الإمدادات على متن ست سفن و كانت تتكون من الفرق النظامية و عدد كبير من المتطوعين، بينهم العديد من النبلاء، منهم الفرنسي الكونت دو بري. قام إبراهيم خوجة بمحاولة قوية لاقتحام المدينة يوم 2 جوان. كانت محاولة فاشلة. في شهر جويلية، عاد إلى الجزائر لمواجهة الحملة الفرنسية سالفة الذكر. أما الجيش التركي فإنه لم يغادر الخطوط الأمامية في وهران إلا يوم 14 أكتوبر (38).

التدخل في شؤون تونس

في سنة 1675 توفي مراد باي تونس مخلفا ولدين هما محمد باي و علي. حكما الإيالة معا مدة من الزمن، حسب ما يرويه القيرواني التونسي. لكن الخلافات ما لبثت أن ظهرت بينهما. قرر الديوان تكليف عمهما الحفصي بإدارة الإيالة. فرّ محمد باي من تونس إلى الكاف، ليجمع أنصاره ضد عمه الحفصي. من بين أنصاره نجد الحاج المرداسي شيخ الحنانشة من صف ناصر بن خالد. بعد أن قويت شوكة محمد باي استولى على السلطة ففرّ عمه الحفصي بدوره من تونس. بعد مدة من الزمن ثار علي باي على أخيه فهرب الأخير إلى قسنطينة و منها تمكن من الحصول على دعم سلطان بن مناصر شيخ الحنانشة من صف مناصر بن خالد فتزوج إحدى بناته. اندلعت الحرب بين البايين التونسيين و بين صفي الحنانشة. قتل خلالها الحاج المرداسي. لم تتوقف الحرب، رغم تدخل العلماء، إلا بعد أن استولى علي باي على السلطة. فلجأ محمد باي إلى الأتراك في الجزائر يطلب دعمهم (39).

في سنة 1684، عرفت مدينة الجزائر اضطرابات. قيل أن باي تونس هو الذي حرضها عن طريق عملائه. في هذه الاضطرابات اضطر ميزو مورطو لخوض معارك بنفسه في طرقات المدينة. لقد جرح خلالها أكثر من مرة (40). لهذا استغل الداي الخلافات بين أفراد العائلة الحاكمة في تونس و أرسل، سنة 1686، حملة عليها بقيادة إبراهيم خوجة. استولت الحملة على المدينة و نصبت محمد باي على رأس الإيالة (41)، كما اغتالت أخاه. فرّ ابن علي باي، من ابنة سلطان بن مناصر المسمى مراد إلى دوق توسكانيا، بعد حين. لما عاد إبراهيم إلى الجزائر وجد الداي قد عُين باشا ممثلا للسلطان بينما عُين هو دايا مكانه (42). لكن الباشا ميزو مورطو ظل يمسك السلطة الفعلية إلى أن عُين على رأس الأسطول العثماني.

عمل محمد باي تونس على التخلص من التبعية للجزائر، لهذا نظم أتراك الجزائر حملة أخرى على تونس سنة 1689. خلعوا الباي و نصبوا مكانه بايا جديدا هو محمد شاكر. لكن الباي السابق، الذي كان يتمتع بمساندة السكان، استعاد سلطته. في سنة 1694، جمع محمد شاكر أتباعه و أعلن الحرب على محمد باي. تدخل رمضان باي قسنطينة إلى جانبه فألحق الاثنان هزيمة نكراء بمحمد باي، في منطقة الكاف مكنت محمد شاكر من استعادة السلطة (43). سوف يفقد هذا الباي، المدعوم من الجزائر، السلطة لصالح مراد باي بن علي باي.

حملة مولاي إسماعيل على الغرب الجزائري

قبل أن تنتهي مشاكل تونس، واجه أتراك الجزائر تدخلات سلطان المغرب الأقصى في الغرب الجزائري. بعد أن سيطر سلاطين تافيلالت العلويون على المغرب الأقصى،وجهوا أنظارهم ثانية نحو الجزائر.بعد حملة الشريف مولاي محمد سنة 1648،التي كنا تعرضنا لها سابقا،جاءت حملة مولاي إسماعيل سنة 1693.كان هدفها الاستيلاء على ماشية القبائل. بعد أن جمع مقاتليه في إيزلي،بالقرب من وجدة،هاجم السلطان قبيلة أنكاد و أوحى للناس أنه يريد أن يستولي على مدينة الجزائر ليطرد الأتراك منها.انضمت إليه قبيلتا بني عامر و بني هاشم الكبيرتان.سار من نواحي تلمسان في اتجاه الشرق.لما جاءت دعوة الأتراك إلى قبائل بني هاشم و بني عامر و سويد كان بنو هاشم أول من انقلب على سلطان المغرب الأقصى (44).

ما كان من الداي شعبان إلا أن يسيّر جيشا قوامه ثلاثة عشر ألف رجل،لكن الحرب لم تقع لأن الطرفين توصلا إلى اتفاق ينص على اعتبار وادي التافنة هو الحد الفاصل بين الجزائر و المغرب الأقصى (44).تذكر المصادر الإسبانية أن مولاي إسماعيل هاجم وهران يوم 2 جويلية ثم أعاد الكرة يوم 4 ففقد العديد من جنوده البالغ عددهم 20 ألفا و ذلك بسبب تفوق المدفعية الإسبانية. انسحب عن وهران،لكن في طريقه إلى بلاده ،هاجمته القبائل و ألحقت به هزيمة نكراء قرب الحدود (45).

الاضطرابات السياسية في الجزائر

اعتلى الحاج أحمد سدة الحكم في سنة 1695، بعد تمرد على الحاج شعبان. لقد دُبرت محاولة اغتيال الداي شعبان في فيفري.رد عليها هذا الأخير بقمع كبير في صفوف الكراغلة الذين تمكنوا من استمالة الإنكشارية و قطعوا رأس الداي (46).لقد أعقب مقتل الداي تغييرات كبيرة في دور و صلاحيات الديوان،بحيث لم يعد للداي سوى دور المنفذ (47). هكذا استعادت الإنكشارية مواقعها في منظومة الحكم عن طريق الديوان الذي هو ديوانها في حقيقة الأمر.لقد ناضل الحاج أحمد مدة حكمه في سبيل استعادة صلاحيات الداي التي لم تعد إليه إلا عشية موته سنة 1698 (48).خلفه الداي حسن شاوش (1698 ـ 1700)،الذي قضى عهده في مواجهة التونسيين.

حملة مراد باي على قسنطينة

في بداية حكمه لتونس،أرسل مراد باي هدايا إلى أتراك الجزائر فرفضوها. في بداية 1700،جمع قواته التي زاد عددها بمنخرطين جدد و كتب إلى خليل باي حاكم طرابلس،يطلب دعمه. سار نحو الجزائر،يحمل معه 25 مدفعا.خرج إليه علي خوجة باي قسنطينة فانهزم و قُطعت العديد من رؤوس جنوده. أرسلها مراد باي إلى تونس لتعلق في قصبتها. في معركة ثانية ألقى باي تونس القبض على أحد أبناء باي قسنطينة و زوجته.ثم حاصر قسنطينة نفسها.جابهته هذه الأخيرة بقوة. بعد محاولات لاقتحامها،مُنيت كلها بالفشل،استولى على حصن خارجها فذبح كل من وجده به،ثم خرّبه تخريبا كاملا.في هذه الأثناء التحق به خليل باي طرابلس و شارك إلى جانبه في حصار المدينة مدة خمسة أشهر (49).

تعطلت نجدة مدينة الجزائر، " لأن الجزائريين لم يتصوروا أبدا أن يتجرأ مراد باي على مهاجمتهم في بلادهم "،كما جاء في إحدى رسائل القنصل الفرنسي في مدينة الجزائر (50).هذا من جهة،من جهة أخرى انفجرت مدينة الجزائر ضد الداي حسن شاوش مع وصول أخبار قسنطينة. اضطر الداي إلى النزوح إلى القصبة أين أعلن استقالته ثم انسحب إلى طرابلس. من هناك انتقل إلى العاصمة العثمانية. عُين مكانه الحاج مصطفى (1700 ـ 1705) (51). شكل الداي الجديد جيشا وصل به الجهة الشرقية،حين كان مراد باي يهم باقتحام قسنطينة.لما علم مراد باي بقدوم جيش مدينة الجزائر،سار على التو لمواجهته،دون أن يأخذ بنصائح مساعديه التي ترى ضرورة منح الجنود فرصة للراحة.التقى الجمعان في جوامع العلمة،على طريق سطيف. بمجرد ما اشتبك الجيشان فرّ خليل باي بفرسانه. بعد أن تأكدت الهزيمة و مقتل العديد من جنوده و وقوع آخرين في قبضة جيش الجزائر،فرّ مراد باي هو بدوره (52).سار الحاج مصطفى إلى قسنطينة لينصب عليها أحمد فرحات خلفا لعلي خوجة باي الذي توفي أثناء الحملة.أما مراد باي فقد جمع بقايا جيشه في الكاف و سار مسرعا إلى تونس خوفا من ملاحقة الحاج مصطفى له.

رغم نصائح السلطان العثماني،سار مراد باي في السنة التالية إلى الحدود الجزائرية. قُتل هناك من طرف أنصاره يوم 8 جوان 1702.حل محله على رأس تونس المسمى إبراهيم الشريف. بمقتل مراد باي حفيد شيخ الحنانشة،انتقل سلطان بن مناصر إلى التحالف مع أتراك الجزائر و قطع صلته بتونس (53).من المحتمل جدا أن الحرب التي سوف تنفجر ثانية بين الجزائر و تونس كان شيخ الحنانشة بوعزيز بن ناصر أحد أسبابها و أحد أسباب هزيمة أتراك الجزائر فيها. لقد كانت نشاطات الحنانشة على الحدود خطيرة.

على الرغم من إبرام معاهدة بين الجزائر و باي تونس الجديد إبراهيم الشريف سنة 1702 يدفع بموجبها الأخير إتاوة سنوية للجزائر، فإن الباي توقف عن الدفع في السنة الموالية. كان هذا التصرف كافيا كي يسير إليه الحاج مصطفى و يلحق بجيشه هزيمة كبيرة بالقرب من الكاف، ثم يقبض عليه يوم 11 جويلية ليستولي بعد ذلك على المدينة. و هي أكثر المدن حصانة في إيالة تونس، دون مقاومة تذكر. بعد أن وضع حامية على الكاف، سار الحاج مصطفى إلى تونس ليصلها في الأيام الأولى من أوت (54) رفض الداي كل العروض التي تقدم بها سكان تونس، بما فيها تقديم الأموال، لأنه كان يريد أن يُلحق تونس بسلطته، كما تذكر رسالة القنصل الفرنسي في الجزائر (55) . كانت مدينة تونس قد نظمت دفاعها. بعد أن قضى الداي على الباي إبراهيم نصب آغا الجيش حسن بن علي نفسه على رأس الإيالة. نظم المقاومة بشكل فعال إلى أن اضطر الحاج مصطفى إلى رفع حصاره عن المدينة. في طريق عودته لاحقته القبائل و ألحقت الهزيمة بجيشه، لأن الشيخ بوعزيز بن ناصر شيخ الحنانشة تخلى عن أتراك الجزائر. كان الشيخ قد قدم المساعدة للداي في حملته على تونس، غير أن سقوط عدوه إبراهيم الشريف و استخفاف الحاج مصطفى به جعله يتخلى عن أتراك الجزائر لينتقل إلى جانب حسن بن علي باي. التحق به الكثير من شيوخ قبائل المنطقة (56). كانت الهزيمة كبيرة تلك التي ألحقت بالحاج مصطفى، اضطرته إلى الامتناع عن الدخول إلى مدينة الجزائر بحر أنيالها. حاول الفرار فقُبض عليه في القل فقتل (57). اختير مكانه الداي حسن خوجة الشريف (1705 - 1707).

حملة مولاي إسماعيل الثانية على الغرب الجزائري

كان مراد باي على اتفاق مع مولاي إسماعيل سلطان المغرب الأقصى، في حملته على الشرق الجزائري. كان الاتفاق يقضي بضرب الجزائر شرقا و غربا. في رسالة له يذكر القنصل الفرنسي في الجزائر أن الحاج مصطفى خرج يوم 11 أفريل 1701 من الجزائر " مع كل قواته لمحاربة مولاي إسماعيل الذي يوجد في أراضي هذه المملكة منذ ما يقرب من الثلاثة أشهر ". توقعت الرسالة أن يُحدث الأتراك مجزرة في صفوف الجيش المغربي (58). هذا ما وقع بالفعل. فقد مُني الجيش المغربي " بهزيمة نكراء و جُرح مولاي إسماعيل و كاد أن يقع في أيدي الأتراك الذين رجعوا إلى الجزائر يحملون ثلاثة آلاف رأس من رؤوس الجند " المغاربة، كما يقول جوليان(59). في هذه الحملة نُصب مصطفى بو الشلاغم على رأس بايليك الغرب، و هو الذي نقل مقر هذا البايليك من مازونة إلى معسكر، لمواجهة الأسبان، الذين تم اقتلاعهم من وهران سنة 1708.

تحرير وهران و المرسى الكبير من الاحتلال الإسباني

كان داي الجزائر قد توصل إلى اتفاق لإقامة السلم مع الأسبان في وهران و المرسى الكبير، قبل محاولة مولاي إسماعيل في الغرب الجزائري. اعتقد قادة وهران أن الوقت قد حان لجمع ضرائب الدواوير المتخلفة و معاقبة دواوير أخرى لقتل العديد من الأسبان. هكذا خرج حاكم وهران في حملة استولى فيها على مائة و خمسين شخصا من أهالي المنطقة الغربية. اعتبرت الجزائر العملية الإسبانية هذه إعلان حرب. أخذ باي معسكر مصطفى بو الشلاغم يتهيأ لهذه للحرب منذ 1704. كما أخذ الأسبان يحضرون لها من جهتهم. أما الأهالي فكانوا يحاولون إحكام الحصار على وهران(60) في سنة 1705 شرع الباي في تنظيم الحصار على المدينة و المرسى. بعد أشهر هاجم الموقعين بدعم من السلطة المركزية و استمر يحاصرهما إلى غاية سنة 1708 (61).

في سنة 1707، أرسل محمد بكداش المُعين على رأس الجزائر في نفس السنة الإمدادات الضرورية للباي في معسكر، بقيادة صهره و مساعده بابا حسن (أوزن حسن) كما أرسل إليه المدفعية (62). أما الأسبان فقد استعدوا اعتمادا على الإمكانيات الذاتية، إذ لم تكن أسبانيا قادرة على إنجادهم لأنها كانت تعيش حربا أهلية حقيقية في إطار الحروب الأوربية التي أعقبت وفاة شارل الثاني سنة 1700 و المتعلقة بمن يتولى العرش الإسباني. لقد انقسمت إسبانيا بين أنصار شارل الثالث الهابسبورغي النمساوي وأنصار فيليب الخامس البوربوني. وكما يقول جون ب. وولف فإن هذه الحرب الأهلية الأوربية " قد أعطت للأتراك الجزائريين الفرصة في الاستيلاء على وهران و المرسى الكبير " فاستغلوها (63). في إطار الاستعداد للحرب طرد الأسبان ثمانية يهود من وهران متهمين إياهم بالتجسس لصالح الأتراك (64). مع العلم أن الأسبان كانوا طردوا حوالي خمسمائة يهودي سنة 1669 (65).

أول ما استهدفه الأتراك في وهران هو حصن سانتاكروز الذي يشرف على كل من وهران و المرسى الكبير. لما استولوا عليه ركزوا نيران مدافعهم على الحصون و الأبراج الموجودة خارج المدينة. في هذه الأثناء عُين ميرلشيوري دي أفيلانيدا خلفا للحاكم كارلوس كرافا. لما اشتدت الهجمات التركية و تعددت انسحب الحاكم من وهران إلى المرسى الكبير عن طريق البحر ثم انسحب من هذا الأخير إلى إسبانيا تاركا وراءه عددا من الرجال و النساء والأمتعة، لم يكن نقلهم ممكنا إلى إسبانيا. استولى الأتراك على المدينة يوم 20 جانفي 1708 بعد مقاومة من حصن القديس فيليب. آخر حصن سقط بيد الأتراك هو حصن القديس جريجوار. لقد وجدوا به 50 شخصا وُلدوا كلهم تقريبا في وهران. استسلم المرسى الكبير يوم 3 أفريل (66).

غنم الأتراك كل ما وجدوه في المدينة و المرسى و ساقوا أكثر من ألف و أربعمائة إسباني إلى مدينة الجزائر. كما وقع نهب الأهالي الذين كانوا يقفون إلى جانب الأسبان و أصبح هؤلاء موضوع تجارة بأمر من الداي محمد بكداش (67). و كان هؤلاء الأهالي المتعاملون مع الأسبان قد انقسموا إلى ثلاث فرق، كما يقول المشرفي : فرقة منهم وقفت إلى جانبهم، و من هؤلاء الونازرة الذين نهب بعضهم معهم و استقروا بسبتة، و فرقة أخرى انتقلت إلى جانب الأتراك و " صارت تقاتل معهم العدو غير أنها في الحقيقة تُعلم العدو بأحوال المسلمين و تأمره بالثبات و تواعده بالرجوع عنده إنا وجدت السبيل " و فرقة ثالثة انتقلت إلى الأتراك و تركت إعانة الأسبان " ظاهرا و باطنا و ندمت على ما صدر منها سابقا " (68).

بعد هذا الانتصار الكبير، نقل مصطفى بو الشلاغم مقر البايليك من معسكر إلى وهران التي عمل على إعادة بنائها، فأصبحت تجتذب إليها السكان البدو و النازحين من المناطق الجبلية المجاورة لها.

مقتل محمد بكداش و أوزن حسن

لما عاد أوزن حسن إلى العاصمة، " بادر محمد بكداش بإرسال هدية ثمينة إلى الباب العالي، منها ثلاثة مفاتيح ذهبية المدن و طلب من السلطان أن يتكرم عليه بقفطان يلبسه صهره أوزن حسن كشعار لترقيته إلى رتبة باشا و لكن السلطان رفض الطلب و لم يبعث بالقفطان "، كما يقول محمد بن عبد الكريم (69). يعيد بيربروجير سبب الرفض هنا لكون الباشا هو ممثل السلطان في الجزائر، و هو معارض للداي الذي بيده السلطة الفعلية، فإن عُين أوزن حسن صهر الداي، فإن الباشا سيكون على اتفاق مع هذا الأخير (70).

كان جزاء محمد بكداش و صهره أوزن حسن جزاء سنمار، ذلك " أن إدخال الضرائب المعتادة قد تأخر دخولها إلى خزانة الدولة فصعب على الداي التعجيل بتأدية أجور الإنكشارية التي لم تطق صبرا على تأخير أجورها ـ لا سيما حينما بلغها الخبر أن باي الناحية الشرقية قد جمع الضرائب و هرب بها ـ فاستشاطت غضبا و ثارت على الداي و اغتالته في شهر مارس 1122 هـ 1710. ثم جعلت مكانه رجلا من أسرتها اسمه دالي إبراهيم و ألبسته قفطان الداي السابق محمد بكداش، و كان القفطان ملطخا دما. و لم يهدأ للداي الجديد بال حتى ثنى بقتل الصهر أوزن حسن إثر قتل بكداش " كما يقول محمد بن عبد الكريم (71). كان أوزن حسن خارج مدينة الجزائر، عند مقتل صهره، في إطار حملات تحصيل الضرائب. لما علم بالخبر سار إلى المدينة مسرعا إلا أنه ألقي عليه القبض و قتل (72). هذا و لم يدم حكم دالي إبراهيم إلا أشهرا

قليلة، فقد قتل هو الآخر من طرف الذين رفعوه إلى سدّة الحكم، و عينوا مكانه بابا علي شاوش (1710 ـ 1718).

إصلاحات بابا علي شاوش و طرد الباشا ممثل السلطان.

تميز عهد علي شاوش بإدخال تعديلات هامة على السلطة. فقد أجرى عملية تطهير واسعة في صفوف الإنكشارية، أدت إلى مقتل ما يقرب من ألف و خمسمائة رجل من رجالها. وألّف ديوانا مواليا له، كما شجع القرصنة و أعمال الغزو ضد الأهالي، الشيء الذي مكن السلطة من الحصول على الأموال التي كانت تستفيد منها فئات الامتيازات. لكن الأخطر من كل ذلك هو أنه أنهى وجود الباشا ممثل السلطان في الجزائر. أكسبه هذا الإجراء الأخير تعاطف رجال الإنكشارية (73). لقد لعب الباشوات دورا كبيرا في تدبير المؤامرات ضد الآغوات و الدايات الذين كانوا يظهرون عداوة للسلطان. سمحت لهم الأوضاع المعقدة في الجزائر بتنفيذ تلك المؤامرات بسهولة. لعل الداي بابا علي شاوش كان يدرك دور هؤلاء في إحداث القلاقل في البلاد، فقرر سنة 1711 إنهاء وجودهم. لقد أصبحت الجزائر مستقلة عن الدولة العثمانية إلاّ فيما تقتضيه الأمور من تعاون وتبادل المنافع خاصة و أن الدولة العثمانية ظلت هي مزود الجزائر برجال الإنكشارية.

اصطدام الأتراك بأولاد ابن عاشور في فرجيوة

وقع أول اصطدام للسلطة التركية بأولاد بن عاشور في فرجيوة في عهد بابا علي شاوش. كان أولاد بن عاشور يهيمنون على تلك المنطقة منذ أواسط القرن السابع عشر. اختلفت الروايات حول أصل أولاد بن عاشور هؤلاء. هناك من يُعيد أصلهم إلى الصحراء و هناك من يُعيده إلى شخص من قبيلة كرفة في نواحي قالة، لكن الرواية الراجحة تعيدهم إلى عائلة من وادي زناتي. بعد اقتتال عائلي، فرت أرملة فقدت زوجها اسمها زديدة رفقة ولديها عاشور و حمزة إلى زردازة بنواحي سكيكدة ثم إلى القل فجيجل. من هذه الأخيرة انتقلت إلى قبيلة ورزيفة التي كانت سيدة فرجيوة. تزوجت الأرملة الفارة بشيخ ورزيفة، بينما تزوج ابنها عاشور ابنة هذا الشيخ، فغدا مساعده و وريثه. جلب عاشور فرسانا من قبيلةريغة (بنواحي سطيف) لخدمته و وزع عليهم أراضي في فرجيوة. شكل بذلك قوة تحيط به و تحميه. تخلص من الضريبة التي كانت تدفعها ورزيفة لأولاد عنّان، القبيلة القوية المجاورة، ثم أخضع منطقة واسعة لسلطته. لما توفي صهره حل محله. لمّا قاومته القبيلة فرض سلطته بقوة السلاح.

قتل العديد من أفرادها، بحيث نزحت الكثير من العائلات إلى قبيلة أولاد عبد النور. حصلت هذه التطورات في أواسط القرن السابع عشر.(74).

عند وفاة عاشور، انتقلت السلطة إلى ابنه حمزة ثم إلى شلغوم بن حمزة ثم إلى الحاج بن شلغوم. في عهد هذا الأخير وقع ذلك الاصطدام الأول بالأتراك. في سنة 1713 سار حسين باي قسنطينة، المعروف باسم بوكمية، في حملة على فرجيوة، لكنه فشل فيها فشلا ذريعا، بحيث خلف وراءه موسيقاه و عددا من الإنكشاريين (75). منذ هذا التاريخ و الصراع قائم بين بايات قسنطينة و عائلة ابن عاشور، تارة ينتصر البايات وتارة ينتصر أولاد بن عاشور، كما كان يحدث تماما بين الأتراك من جهة و إمارة بني عباس و مملكة كوكو و غيرهما، من جهة أخرى.

تزايد النفوذ الفرنسي في الجزائر

في عهد بابا علي شاوش و خلفه محمد بن حسن المعروف باسم محمد أفندي (1718 ـ 1724)، أبرمت الجزائر عدة اتفاقيات مع فرنسا. في 15 جويلية 1714 وقع حسين باي قسنطينة مع دو مارل الفرنسي اتفاقية ترخص للأخير شراء القمح و الشعير و الفول من مدينتي بونة (عنابة) و تكوش و الموانئ الأخرى التابعة لبايليك الشرق و ذلك بسعر الرحبة (السوق). يدفع دو مارل مقابل ذلك رسما للباي و إتاوة لكل من قائد مدينة عنابة و حاميتها (76). من جهة أخرى، أرسلت فرنسا السيد دو سولت، الذي كانت له معارف قديمة في الجزائر، فتمكن من الوصول إلى معاهدة مع الجزائر يوم 23 ديسمبر 1719، تثبت ما جاء في معاهدة سنة 1689 و تضيف ثلاثة بنود جديدة، بندان منها في غاية الأهمية: أحدهما يخفض الرسوم (77) الجمركية على السلع الفرنسية الواردة إلى 5 % و على السلع الصادرة إلى 2.5 %. أما البند الآخر فيسمح للفرنسيين " بالاتجار بحرية في وهران و تعيين نائب قنصل... بها لرعاية مصالح التجار الفرنسيين الذين يستطيعون الاستقرار بهذه المدينة و يتاجرون بدون أن يعرقل أحد ذلك أو يمنعهم " (78). و كانت فرنسا قد طالبت بتثبيت معاهدة 1695 المتعلقة بالباستيون و قد تم ذلك بواسطة اتفاق أبرم في أفريل 1718.

إن هذه المعاهدات، التي لم تعد تمنع عن الفرنسيين شراء الحبوب من الجزائر، قد جاءت لتوسع النفوذ الفرنسي في الجزائر، لا في الناحية الشرقية فحسب، بل و حتى في الناحية الغربية. لقد بادرت الشركة الفرنسية ميشان سنة 1724 باكتراء محلات و أماكن في السواحل الوهرانية لإنشاء مراكز تجارية هناك لمنافسة الإنجليز في هذا الميدان (79).

التدخل المغربي في الغرب الجزائري

في عهد بابا علي شاوش و خلفه محمد بن حسن عرفت الجزائر تدخلات المغرب مجددا. لقد تدخل المغاربة في جنوب بايليك الغرب، تحت قيادة أحد أبناء مولاي إسماعيل. كما عمل أحد أحفاد هذا الأخير على إقامة حامية في بوسمغون، بين عين الصفراء و البيض، ظلت قائمة من سنة 1710 إلى سنة 1713 (80). في سنة 1720 هاجم الملك المغربي الأراضي الجزائرية مرة أخرى. أرسل الداي الإمدادات إلى باي وهران، عن طريق البحر، و ذلك في شهر أفريل، غير أن الباي توصل إلى اتفاق مع الملك لإيقاف الحرب في نفس الشهر من سنة 1720 (81).

محاولة الدولة العثمانية استعادة نفوذها في الجزائر

كان محمد بن حسن أفندي قد قبض على الحكم بيد من حديد مدة ست سنوات فقتل الكثير من أفراد طائفة الرياس. كما وقف في وجه السلطان العثماني معتمدا سياسة استقلالية. حاك الرياس مؤامرة ضده أودت بحياته و بعض حراسه و شاوشه و الخوجة (82) يوم 18 مارس 1720 (83). لقد اتهمه الرياس بمحاباة الإنكشارية على حسابهم (84). لا يستبعد أن يكون للسلطان دور في المؤامرة.

عُين مكانه كرد عبدي الذي قد يكون من أكراد العراق. شغل عدة مسؤوليات قبل أن يصبح دايا، منها مسؤولية آغا الصبايحية و باي التيطري. في أول عهده حاولت الدولة العثمانية أن تعيد سيطرتها على الجزائر. أرسلت ممثلها إلى الإيالة لكن كرد عبدي رفضه و طرده (85). كان السلطان يحاول أن يفرض باشا، إلى جانب الداي، كما كان الحال من قبل، حتى يتمكن من الحصول على نصيبه من الغنائم. هذا من جهة، و من جهة أخرى، رفض الداي تنفيذ التزامات الباب العالي قِبل الدول الأوروبية سنة 1725 (86) حاولت السلطة العثمانية، مرة أخرى سنة 1728، فأرسلت مندوبا عنها مرفوقا بشخصيات سياسية فرفض الداي مرة أخرى، و لم يجد المندوب ما يفعله سوى قصف العاصمة بمدافع مراكبه فألحق أضرارا بالميناء (87). كما تعرض الداي لمحاولة اغتيال نجا منها، و كان وراءها المفتي الحنفي و آغا الإنكشارية (88). مع هذا أرسل السلطان سنة 1730، بعد أن انقطع نصيبه من الغنائم، مندوبا آخر مرفوقا بخمسة وأربعين موظفا. قاطعه الداي و إياهم في تامنتفوست ثم دعاهم للعودة إلى القسطنطينية (89).

تجديد المعاهدة مع السويد

تمكن كرد عبدي من أن ينشط القرصنة و أن يجبر السويد و هولندا على دفع الإتاوة مقابل السلم. نصت المعاهدة الموقعة مع السويد سنة 1729 على إقرار السلم و الصداقة بين البلدين و إيقاف أعمال القرصنة و ضمان حرية المعاملات التجارية، مع إعفاء السلع الخاصة بصناعة الأسلحة و الأسلحة الجاهزة من الرسوم الجمركية، كما نصت على تسهيل عمليات فدية الأسرى أو العبيد من السويديين في الجزائر، و منحت القنصل السويدي حق الفصل في النزاعات التي تنشب بين مواطنيه في الجزائر (90).

الاصطدام بالحنانشة

يتميز عهد كرد عبدي، إضافة إلى ما ذكرناه من مواجهة الدولة العثمانية بمحاربة الحنانشة و استعادة الأسبان مدينة وهران و المرسى الكبير.

كان الشيخ سلطان بوعزيز على رأس قبيلة الحنانشة القوية، التي بإمكانها أن تجند حوالي ثمانية آلاف فارس، في هذه الآونة. كان الحنانشة، كما رأينا سابقا، في صراع مع التونسيين تارة و مع الجزائر تارة أخرى. كانوا متحالفين مع مراد باي تونس ثم انقلبوا عليه ليتحالفوا مع أتراك الجزائر الذين انقلبوا عليهم سنة 1702، بعد مقتل مراد الشريف.

كان الحنانشة، في سنة 1724، بين نار الجزائر و نار تونس. هاجمهم التونسيون كما هاجمهم باي قسنطينة. استولى هذا الأخير على ثمانية آلاف جمل و عدد من الأبقار و الخيام تملكها القبيلة. مع هذا لم يكن الباي راضيا، إذ كان يريد هلاك الشيخ سلطان بوعزيز بن ناصر. ترك مهمة ملاحقته لخليفته. وجد الشيخ سلطان صعوبة كبيرة في إعادة جمع أتباعه و السير بهم إلى معسكر الأتراك. لقد روى شارل فيرو، نقلا عن الفرنسي بيسونيل، الذي جاب الجزائر و كذلك تونس، في القرن الثامن عشر، قصة العلجة بنت بوعزيز التي استطاعت أن تحقق ما عجز عنه أبوها. لبست العلجة أبهى ثيابها و ركبت حصانها و جمعت النسوة على أحصنتهن و خاطبتهن :

" مادام الرجال ليست لهم شجاعة الوقوف في وجه الأتراك الذين سيأتون قريبا لانتهاك حرماتنا، تحت أنظارهم، فلنذهب نحن بأنفسنا لنبيع أرواحنا و شرفنا غاليا أفضل من أن نبقى إلى جانب هؤلاء الجبناء ". عندها تحرك الرجال و ساروا إلى الأتراك فأعادوا جزءا من الغنيمة و ألقوا القبض على خليفة الباي و سلبوا الأتراك (91). تبقى علاقة الحنانشة بالسلطة التركية في الجزائر بين مدّ و جزر، الحرب تارة و السلم تارة أخرى.

استعادة الأسبان وهران والمرسى الكبير

كان الأسبان قد فقدوا وهران و المرسى الكبير سنة 1708، في ظروف الحروب الأوربية التي أخذت طابع الحرب الأهلية في إسبانيا، فلم يكونوا قادرين على استعادة الموقعين سريعا. ظلوا ينتظرون الفرصة المواتية لذلك. بعد معاهدة أوتريشت الموقعة سنة 1713 بين فرنسا و إسبانيا و إنجلترا و هولندا، المعاهدة التي وضعت حدا لحرب الخلافة، بدأ الملك الإسباني فيليب الخامس يحضر لإعادة احتلال وهران و المرسى الكبير مجددا. لما أكمل استعداداته أصدر بيانه الشهير في 6 جوان 1732، البيان الذي عبّر فيه عن نيته في إعادة احتلال المدينة و المرسى (92).

بعد أيام قليلة كان أسطول الغزو مهيأ للانطلاق من ميناء أليكانت. كان ضخما. ضم 550 قطعة بحرية، من القطع الحربية الكبيرة و مراكب المؤونة و البريد، تحمل على متنها حوالي 30 ألف رجل و حوالي مائتي مدفع اقتحام، إضافة إلى مدافعها الخاصة. كان هذا الأسطول تحت قيادة الكونت مونتمار الذي كان يرافقه ضباط أكفاء هم أحسن ضباط إسبانيا في ذلك الوقت (93). تحسبا لمقاومة قوية، أرفق الأسبان حملتهم بمستشفى يسع ألف مريض أو جريح و كل ما يلزم من ذخيرة و مؤونة. تعرضوا في الطريق إلى رياح قوية عطلت وصولهم إلى السواحل الجزائرية إلى أواخر جوان. في 28 منه رست سفنهم في الخليج الواقع بالقرب من رأس فالكون. في اليوم الموالي نزلوا إلى البر. في ذلك الوقت جاء الأتراك، يقودهم مصطفى بو الشلاغم الباي الذي طردهم من المنطقة سنة 1708. بعد مناوشات متلاحقة تمكن قسم من الجيش الإسباني من دفع مشاة و خيالة الأتراك ثم تسلق الجبل المهيمن على المرسى الكبير فاستقر بعين أو ينبوع هناك. في 30 جوان أنزلت المدفعية و الذخيرة بالقرب من المرسى الكبير. في هذه الأثناء أخبر القنصل الفرنسي، عن طريق شخص يوناني، الأسبان بأن الباي مصطفى قد غادر وهران في الليلة السابقة. سار الكونت مونتمار إليها يوم فاتح جويلية و دخلها فلم يجد فيها سوى خمسة شيوخ، لم يتمكنوا من الفرار. في اليوم الموالي استسلمت الحامية التركية في المرسى، و كانت تتكون من سبعة و تسعين إنكشاريا، يقودهم الآغا ابن دبيزة. لم يفقد الأسبان، في حملتهم هذه، سوى ثمانية و خمسين قتيلا و خمسة و ثمانين جريحا (94).

كان الانتصار كبيرا ذلك الذي حققه الأسبان في حملتهم تلك. استعادوا الموقعين بسهولة من يد نفس الباي الذي أخرجهم منهما، منذ ست و عشرين سنة. يعود هذا الانتصار السهل إلى ذلك التردد الذي وقع في مدينة الجزائر بخصوص إرسال الإمدادات الضرورية للباي. لعل هذا التردد يعود لكون الداي العجوز كرد عبدي مريضا " مرض الموت "، كما يقول جون ب. وولف (95). لقد اشتد مرض الداي أكثر لما علم بخبر هزيمة الباي فمات في شهر سبتمبر. خلفه صهره بابا إبراهيم.

بعد أن ترك قيادة المدينة و المرسى للمركيز دي سانتا كروز، مع عشر فرق، غادر الكونت دي مونتمار مدينة وهران يوم 30 جويلية إلى المرسى الكبير و منه إلى مالقا، بعد أن شكل ثلاث قوافل، واحدة إلى مالقا، و ثانية إلى أليكانت، وثالثة إلى برشلونة (96). في هذه الأثناء وصلت إمدادات الباي التي كانت تتكون من ألفي رجل يقودهم ابنه. وجدت المدينة قد أخليت و الأسبان قد سيطروا عليها. انضمت إلى قوات الباي (97) الذي نزح إلى مستغانم. أخذ يرهق الأسبان، بحيث جعلهم يعيشون في حالة الاستعداد والترقب الدائمين. لقد أمكن له أن يقتل 56 جنديا من جنودهم في هجوم شنه يوم 16 جويلية (98). في 21 نوفمبر، نظم المركيز دي سانتاكروز خرجة على رأس مائة رجل و مجموعة هامة من الضباط. دفع الأهالي بقوة و خرب خنادقهم التي منها كانوا يحكمون الحصار على المدينة. استولى على ثلاثة مدافع من مدافعهم، ثم لاحقهم، غير أنه تردد أمام أعدادهم الغفيرة التي كانت تضم العديد من المشاة و أكثر من عشرة آلاف فارس. انقلب الأهالي على الأسبان بقوة فقتلوا منهم عددا كبيرا و شتتوا شملهم فحلت الفوضى بينهم. لانوا بالفرار، الأمر الذي جعل المركيز و العديد من ضباطه يسقطون تحت ضربات الأهالي الذين لاحقوا الفارين إلى وهران. لولا وصول فرق جديدة من إسبانيا في هذا الوقت بالذات لوقع ما لا يرضاه الأسبان و قادتهم (99).

في هذا الوقت الذي تواصل فيه حصار وهران من طرف الأتراك و الأهالي، أرسل الداي وفوده و سفنه إلى أقاليم الإمبراطورية العثمانية يوم 19 ديسمبر 1732، لتجنيد مجموعات جديدة من الإنكشاريين، كما يروي القنصل الفرنسي في الجزائر (100). لكن رغم ما جنده الأتراك من أهالي و من جنود فإنهم لم يحققوا تقدما ضد الأسبان.

في 10 ماي، نظم المركيز دي فيلا دراياس خرجة لفك الحصار المضروب على الموقعين الأسبانيين. تمكن من دفع المحاصرين، غير أن بني عامر، حلفاء الأسبان القدامى انضموا إلى الأتراك، فلحقت المهاجمين هزيمة كبيرة. فقدوا ثمانمائة رجل من رجالهم. اضطرت إسبانيا إلى خلع المركيز و تعويضه بآخر اسمه فاليجو (101).

في سنة 1733 عاد مصطفى بو الشلاغم إلى معسكر، بعد أن فقد الأمل في استعادة وهران. أما الأسبان فقد عادوا إلى تكوين فرقة المغطسين سنة 1734، و هي الفرقة المتكونة من الأهالي الذين وضعوا أنفسهم في خدمة الأسبان. ظل المحتلون يسيطرون على وهران و المرسى الكبير إلى ما بعد الثورة الفرنسية. لكن حكمهم خلال القرن الثامن عشر يختلف عن حكمهم السابق. لم يعودوا قادرين على تنظيم الغزوات إلى أعماق البلاد و غدوا يعتمدون في تموينهم على ما يأتي من إسبانيا عن طريق البحر.

تدخل أتراك الجزائر في شؤون تونس

في تونس، حول حسين بن علي السلطة إلى النظام الوراثي، الذي ظل قائما إلى سنة 1957. نشب صراع كبير بين الباي و ولي عهده الأول المعروف باسم علي، و هو ابن أخيه، عينه وليا للعهد لأنه لم يكن له أولاد. بعد أن تزوج الباي فتاة من جنوة و أنجبت له أولادا نقل ولاية العهد من ابن أخيه إلى ابنه الأكبر محمد الأمر الذي أثار حفيظة علي الذي كان قد حصل على لقب الباشا من السلطان العثماني. في سنة 1728، تمرد علي باشا على عمه و هرب إلى المناطق الجبلية للوسلاتية رفقة ابنه يونس. لاحقه عمه و حاصره هناك. تمكن علي باشا من جمع خصوم الباي، و منهم بوعزيز بن ناصر شيخ الحنانشة، فقاوم عمه. انضم أحمد الصغير شيخ الحنانشة من فرع مناصر و أخوه سلطان إلى صف حسين باي. أصبحت بذلك الحرب بين أفراد الأسرة الحاكمة في تونس حربا بين صفي الحنانشة كذلك (102).

طلب حسين باي من باي قسنطينة حسن كليان أن يمنح قفطان التولية للأخوين أحمد الصغير و سلطان على الحنانشة ففعل، الشيء الذي أضعف بوعزيز. لكن الأخوين ما لبثا أن انقلبا على حسين باي و تعاونا مع علي باشا. بعد أن ضيق حسين باي على ابن أخيه علي باشا، سار هذا الأخير نحو الصحراء و التحق بالأحرار المناصر و تزوج ابنة سلطان بن عمار، و سار الاثنان نحو الغرب إلى أن وصلا لدى فرحات بن رجرجة شيخ بني علي، عرب الزاب المنحدرين من الدواودة. سار علي باشا، رفقة حراسة منحها إياه فرحات هذا، إلى سور الغزلان و منها إلى مدينة الجزائر. لكن الداي كرد عبدي أودعه السجن، ليساوم به باي تونس. في هذه الأثناء كانت التحالفات قد تغيرت. بعد أن رفض بو عزيز بن ناصر أن يزوج بناته من أبناء علي باي تونس سعى هذا الأخير لدى باي قسنطينة كي يخلعه عن مسؤوليته على الحنانشة، فاضطر بوعزيز إلى التحالف مع خصومه القدامى ضد باي قسنطينة. أرسل إلى قائدي الأحرار المناصر أحمد الصغير و سلطان بن عمار يعرض عليهما مشروع محاربة باي قسنطينة فوافقا. غير أن هزيمة بوعزيز أمام قوات باي قسنطينة و مقتل ابنه جعل الأخوين أحمد الصغير و سلطان يتصالحان مع باي تونس و باي قسنطينة، في حين لجأ بوعزيز إلى بورنان القراني، شيخ مجانة الذي زوجه إحدى بناته (103).

ذهبت مساعي باي تونس لدى الداي كرد عبدي لاغتيال علي باشا سدى، لكنه حصل على وعد بإبقائه في السجن، مقابل أموال يدفعها سنويا. و قد فعل الباي ذلك إلى غاية سنة 1735 فامتنع بعدها. في هذا الوقت كان بوعزيز و بورنان يكتبان إلى الداي الجديد بابا إبراهيم، يحثانه على مساعدتهما ضد باي تونس. قبل الداي عرضهما و أرسل إلى باي قسنطينة كليان حسن (بوكية) يأمره بتقديم المساعدة اللازمة للحليفين. هكذا شرع بوعزيز في تحضير الحرب . اتصل بابن علي باشا، يونس و زوجه أرملة ابنه المقتال. سار به إلى

محمد بن بوضياف شيخ الأوراس الذي وافق على الانضمام إلى المشروع.التحق فرحات بن رجرجة بالمتحالفين. توصل الداي من جهته إلى اتفاق مع علي باشا،يقضي بتنصيب هذا الأخير على عرش تونس مقابل أن يبقى تحت نفوذ الجزائر (104).

أمر الداي باي قسنطينة بتجهيز ألف رجل يوضعون تحت قيادته،و ألف رجل آخرين يوضعون تحت قيادة علي باشا. و أرسل من الجزائر الخزندار على رأس ألفي إنكشاري.انضم بوعزيز و حلفاؤه إلى هذه القوات،كما فعل خصماه من الأحرار الناصر.هكذا كانت الحملة على تونس ضخمة.سارت إليها في ماي 1735.رغم ما قدمه الباي التونسي من عروض و رغم تدخل الباب العالي،بواسطة مبعوثه الذي قتله الداي،فإن هذا الأخير رفض إيقاف الحرب.في الطريق انضمت إلى الحملة قبائل دريد، أولاد سعيد، السواسي و قبائل أخرى تونسية و بعض سكان تبرسوق.أخفق الباي في إيقاف الحملة في وادي مليانة.أخذ ينسحب من مدينة تونس يوم 4 سبتمبر،بينما دخل علي باشا المدينة بسهولة. بقي الجيش الجزائري مدة عشرة أيام معسكرا بالقرب من جدران المدينة.بعد تنصيب الباي الجديد،عاد هذا الجيش يسوق 35 بغلة محملة بالأموال تاركا تونس في صراع بين الباي المخلوع المتحصن في القيروان و علي باشا المتموقع في العاصمة (105).

محاولات التوسع في بلاد القبائل

كانت علاقة الأتراك ببلاد القبائل قديمة،فقد أقاموا علاقة مع مملكة كوكو و مع إمارة بني عباس.لكن هذه العلاقة كانت بين مد و جزر و إذ بقيت قائمة مع إمارة بني عباس فإنها قد انقطعت مع مملكة كوكو بعد أن انقسمت هذه الأخيرة على نفسها،كما رأينا سابقا. قامت سياسة الأتراك في المنطقة على ضرب القبائل ببعضها و استغلال الخلافات الدائمة بينها، وتقديم الهدايا للمرابطين الذين كان لهم نفوذ في المنطقة،فقدم هؤلاء المرابطون دعمهم لهم.كان للكراغلة دور هام في إقامة السلطة التركية هناك.لقد استقر المطرودون منهم من مدينة الجزائر،نتيجة تمرد 1629،في منبع وادي يسر أين شكلوا مخزنا باسم مخزن الزواتنة،نسبة لوادي الزيتون (106).

سعى الأتراك،في بداية القرن الثامن عشر،إلى إقامة مواقع دائمة في وادي سباو. لعل محاولتهم الأولى هي التي كانت سنة 1715،بإنشاء برج تزغارت على يمين سباو بالقرب من جبل آيت أواغنون،إلاّ أن سكان الجهة الجبليين تمكنوا من تخريبه.أنشأ الأتراك،فيما بعد،مزرعة بقربه لاستغلال الأراضي التي كانت تابعة للبايليك في تميزار لغبار. استعملت هذه المزرعة كذلك لجمع الحبوب و الحيوانات التي تُحصل في شكل ضرائب. لكن المنطقة كانت لازالت تقاوم بدليل تلك الحملات التي نظمها علي خوجة ضد قبيلة عمراوة.في هذا

الوقت كان هناك قادة محليون يديرون المنطقة و يعترفون بسلطة بو ختوش، و هو من بقايا مملكة كوكو. كان يقطن جمعة صحاريج. في حوالي 1720، في عهد الداي محمد بن حسن أفندي، عينت الحكومة علي خوجة لتنظيم إقامة دائمة للسلطة التركية في سباو و مراقبة السكان. اصطدم علي خوجة ببني أحمد أوعلي بوختوش في نراع بن خدة و انتصر عليه، كما انتصر عليه في بويلزازن، في قدم جبل آيت فراوسن. هكذا أبعدت عائلة بوختوش عن وادي سباو. شكل علي خوجة مخزنا من قرى عمراوة و أقام برج سباو و برج بوغني و برج تيزي وزو. كما أقام سوقي الاثنين، في بغلية بالقرب من برج سباو، و سبت عمراوة، بالقرب من نراع بن خدة. إنه هو الذي أقام كذلك مستوطنة عبيد الشملال (زمالة العبيد الزنوج) شرقي تيزي وزو و زمالة عبيد الزاوية بالقرب من بوغني (107).

بهذه الطريقة ولج الأتراك إلى المنطقة عن طريق الأودية التي أقاموا فيها الأبراج والحاميات و الزمول (مفردها الزمالة) التي كانت تقدم الدعم العسكري للجنود الأتراك. كانت هذه الزمول تجميعا لفرسان غير متجانسين. فرسان الزمول هم الذين أبعدوا القبائليين و ضمنوا السيطرة على الأودية. الأراضي التي كان بإمكان الزمول الدفاع عنها أصبحت بالأمر الواقع ملكا للبايليك. منحت أو أجّرت للذين وقفوا إلى جانب الأتراك، الأمر الذي أجبر الجبليين الذين لا أرض لهم تصلح للزراعةعلى قبول سلطة الأتراك. أصبح أعداء الأمس حلفاء اليوم. تشكلت إذن شبكة من المواقع والخطوط التركية جنوب جرجرة . لكن هذه الخطوط و المواقع غالبا ما خربت من طرف القبائل. لم يؤد نشاط السلطة في المنطقة إلى النتيجة المرجوة إذن (108) قبل تعيين محمد الذباح على رأس سباو.

في عهد الداي إبراهيم عُين محمد الذباح على رأس قيادة سباو. دعم مخزن عمراوة و وسع برج تيزي وزو و أعاد بناء برج تزغارت. اهتم محمد بن علي كثيرا بمسائل الأمن. قتل الكثير من الناس فلقب بالذباح. عمل على إخضاع الكتلة الجبلية لبلاد القبائل. اقترب من عائلة بوختوش القاطنة في أورير آيت غبري بفضل المعارف التي كانت له لما كان يَدرس في زاوية هذه القرية. تدعيما للصلات، طلب يد ابنة سي عمر بو ختوش الصغير، رئيس العائلة في هذا الوقت. كان الذباح يريد من وراء ذلك إما دعم أو حياد القبائل التي تخضع لهذا القائد خاصة منها آيت جناد و آيت إيراثن. حدد نشاطه المستقبلي في المنطقة الواقعة بين وادي بوغدور ووادي عيسي لقربها من برج سباو و برج تيزي وزو و برج تزغارت و برج بوغني. لقد اعتمد على مرابطي سيدي موسى الذين كان يقيم معهم علاقات طيبة، و كان لهم نفوذ كبير لدى المعاتقة. ما أن انتهى من تحضيراته حتى عُين بايا للتيطري، فواصل نشاطه بوسائل أفضل لأن المنطقة كانت تابعة لبايليك التيطري (1745)(109)كما سنرى لاحقا.

أخطر ما تعرض له الأتراك في المنطقة هو مقاومة قبيلة فليسة القوية. في العام الأول من حكم الداي محمد بن بكر الطورطو أو الأعور (1748 ـ 1754)، قرر الديوان محاربة قبائل

قليسة في الجبل المعروف بهذا الاسم. سارت إلى المنطقة قوات من مدينة الجزائر بقيادة الآغا، انضمت إليها قوات بقيادة باي قسنطينة و أخرى بقيادة باي التيطري و قائد سباو. أحاطت هذه القوات بالجبال التي سدّت القبائل كل منافذها. استغرقت الحرب مدة سنتين. خسر خلالها الأتراك الكثير من جنودهم و ضباطهم فاضطروا إلى المصالحة. غير أن قليسة اشترطت أن تكون لها كلمتها في تنحية قائد سباو. لم يجد الأتراك طريقة أخرى لأضعاف هذه القبيلة سوى تعميق الخلافات بين عشائرها (110). في السنة الأخيرة من حكم محمد بن بكر الطورطو، سير محمد الذباح باي التيطري (1753) حملة ضد قبيلة آيث جناد، انتهت بالفشل. عاد في السنة الموالية على رأس حملة أهم ضد نفس القبيلة. فتمكن من إخضاعها، بشروط مشرفة. ثم أدار حملته ضد آيث إيراثن، القبيلة التي اتهمها بمضايقة حامية تزغارت و تحريض آيث عيسى، القبيلة المجاورة لها، على التمرد. لكن الذباح قُتل خلال هذه الحملة من طرف أحد جنوده فعادت الحملة إلى تيزي وزو و برج سباو (111).

هذا في وسط البلاد، أما في الجهة الغربية منها فقد تمردت تلمسان سنة 1748، في عهد الداي إبراهيم كوشوك (1745 ـ 1748) ابن أخ الداي إبراهيم.

تمرد كراغلة تلمسان و اضطراب السلطة في مدينة الجزائر

هذا التمرد كان سببه الكراغلة الذين أحدثوا اضطرابات في المدينة. أعلن هؤلاء قيام سلطة مستقلة. دعوا إخوانهم في الإيالة إلى حمل السلاح ضد سلطة الأتراك آبائهم. كانوا عديدين في تلمسان، بحكم قدم الحامية التركية هناك. أرسلت السلطة المركزية قواتها إلى المدينة المتمردة. قمعت الحركة بالحديد و النار، ثم قمعت كراغلة مدينة الجزائر بنفس الطريقة، لأنهم ساندوا إخوانهم في تلمسان. خلال هذه الأحداث توفي الداي إبراهيم كوشوك مسموما (112)، الشيء الذي أطال في عمر الاضطرابات التي ظلت قائمة في عهد خلفه محمد بن بكر الطورطو. عمل هذا الأخير كثيرا لإعادة النظام و الأمن لمدينة الجزائر. كان يصدر الأوامر يوميا لتسليط العقوبات في حق اللصوص، منتهكي الحرمات و المجرمين (113). قتل الداي الطورطو يوم الحادي عشر من ديسمبر 1754، في مؤامرة حاكتها جماعة من الجنود البسطاء. حسب ر.ب. جيرمان رئيس ديوان القنصلية الفرنسية في الجزائر، فإن الداي اغتيل، يوم تسليم الجراية للجنود، من طرف جندي ألباني الأصل جاء الجزائر منذ ثلاث سنوات، اسمه أوزن علي (المصادر الجزئرية تسميه أوزن محمد، و هذا هو الأرجح). جلس هذا الجندي على كرسي السلطة بعد تنفيذ عمليته. وعد الحاضرين بإنهاء الاضطرابات و زيادة جراية الجند. لكن أوزن محمد قُتل هو الآخر و عُين مكانه آغا الإنكشارية بابا علي (114). في عهد هذا الداي (1754 ـ 1766)،

انفجر الوضع مجددا في تلمسان. فقد استغل قائد تلمسان رجم البجاوي الاضطرابات التي عرفتها بلاد القبائل و أعلن استقلاله عن الجزائر. كان لابد من جمع القوات التركية في الناحية الغربية لإعادة الأمور إلى نصابها (115).

مشاكل بلاد القبائل و إمارة المقرانيين

في ليلة 16 جويلية 1756، هاجمت القبائل برج بوغني فقتلت قائده سي أحمد و شرعت في تهديمه. و في 25 أوت هاجمت برج حمزة (البويرة) كذلك، لكن الأتراك تمكنوا من دفع المهاجمين. للقضاء على التمرد سيّر الأتراك ثلاثة طوابير من الجزائر و التيطري و قسنطينة. أعادت الطوابير بناء برج بوغني (116).

في هذه الأثناء كانت إمارة القرانيين في مجانة تتصالح مع الأتراك، بعد فترة طويلة من العداوة و الانقسامات. كانت الإمارة متماسكة بصفة عامة حتى بداية القرن الثامن عشر. كان اصطدمت بالأتراك مرات عديدة، كما وقع في عهد بوزيد بن بتكة الذي خلف أباه في مجانة. كان السبب في هذه الاصطدامات رفض الأتراك دفع الرسوم عند المرور بسلعهم عبر ممر البيبان (أبواب الحديد). في عهد الحاج بوزيد القراني، الذي تولى القيادة عام 1734، ظهر صف عزيز بن القندوز، ابن عمه الذي تحالف مع الأتراك. الأمر الذي حتم على الحاج بوزيد أن ينتقل إلى بني عباس، بينما استقر بورنان، و هو مقراني آخر، في ونوغة و استقر عبد السلام في جبل بوندة، بالقرب من ساطور، و استقر عمهم عبد الله في الحضنة محاطا بأسرته و بعض أتباعه و هو الذي سوف تتشكل حوله قبيلة عبد الله، التي سوف تمد نفوذها إلى غاية سور الغزلان (117). كانت عائلة القرانيين، حسب شارل فيرو، منقسمة، في أواسط القرن الثامن عشر، إلى صفين رئيسيين؛ صف الشيخ بوزيد الذي يمسك السلطة بيده و يعترف بالأتراك؛ و صف الشيخ بورنان و قندوز وهو صف في حالة تمرد يتبعه بنو عباس و بنو صالح و الزواوة و بنو ورتلان و قبائل أخرى. لقد جعل المتمردون المرور صعبا في منطقة البيبان (118).

استغل الأتراك هنا التشتت الذي عرفته عائلة القرانيين و حصنوا برج بوعريرج و أوكلوا قيادة أولاد ماضي لعزيز بن القندوز. أمام هذا التشتت تدخل مُقدم الطريقة الشاذلية و تمكن من جمع أفراد العائلة. جمع القرانيون مجهوداتهم و خربوا البرج و مسك الحاج بوزيد مسائل العائلة بيده في مجانة (119). في عهد الباي أحمد القلي (1756 ـ 1771)، تصالح القرانيون مع الأتراك (120). هنا في الوقت الذي كان فيه أولاد بن عاشور في فرجيوة في صراع معهم. لقد فشل القلي في إخضاع أولاد بن عاشور سنة 1756، تماما كما فشل الباي حسن سنة 1713 (121).

التدخل في شؤون تونس مجددا

ما إن نُصّب علي باشا على عرش تونس حتى أخذ يعمل للتخلص من النفوذ الجزائري. دعم أتراك الجزائر ولدي حسين باي ضد علي باشا ثم تحول الدعم إلى تدخل مباشر. في سنة 1755 شُكل جيش وُضع تحت قيادة باي قسنطينة حسن الملقب بأزرق عينيه يرافقه الأمير علي باي بن حسين باي الذي خلعه أتراك الجزائر لصالح علي باشا سنة 1735. انضم إلى هذا الجيش أخوه محمد باي على رأس جيش يتكون من أنصاره أحرار الحنانشة و أتباعهم من القبائل العربية. استولى هذا الجيش على تونس يوم 31 أوت 1756، بعد معارك دموية، و نُصّب محمد باي على العرش، بعد أن قُطعت رأس علي باشا و رأس ابنه يونس. لقد نُهبت المدينة و استولى الباي أزرق عينيه على ثروات قصر تونس. اقتسمها مع عمّه داي الجزائر بابا علي آغا. بعد أن ترك الباي الجديد يعمل لإقامة سلطته في البلاد، بمساعدة شيخ الحنانشة محمد بن سلطان، غادر باي قسنطينة تونس. في الطريق سقط مريضا فمات بعد وصوله إلى قسنطينة في أواخر سنة 1756 (122).

معاهدات مع الدول الأوربية

على المستوى الديبلوماسي، عقدت الجزائر معاهدات جديدة مع بلدان أوربية. في سنة 1746 أبرمت معاهدة مع الدانمارك أوقفت عمليات القرصنة و خفضت الرسوم الجمركية على الواردات إلى الجزائر من 10 % إلى 5 % " مثل ما يفعله الإنجليز و الفرنسيون و الهولنديون " و أعفت السلع الحربية من هذه الرسوم (123). و في سنة 1751 جاء دور هامبورغ التي وقعت معها الجزائر معاهدة أخرى شبيهة بمعاهدة دولة الدانمارك (124). و في سنة 1763 وقعت معاهدة مع البندقية، توقف هي الأخرى أعمال القرصنة و تحدد الرسم على الواردات بـ 5 % و تعفي السلع الحربية من هذا الرسم كما تمنع الاسترقاق (125). و في 16 جانفي 1764 وقعت معاهدة مع فرنسا، جاءت بعد التوتر الذي عرفته علاقات الجزائر بهذه الأخيرة نتيجة موقفها من الاحتلال الإسباني لوهران و المرسى الكبير، حيث اتهم الأتراك فرنسا بالتواطؤ مع إسبانيا (126) من جهة، و من جهة أخرى كانت هناك مشاكل تتمثل في أعمال القرصنة و خرق مسؤولي الباستيون للمعاهدات، حيث كانوا يهربون السلع التي لم ترد في المعاهدات المبرمة بين البلدين. تضمنت المعاهدة الجديدة توضيحات و تأكيدات لترتيبات معاهدة 1689 (127).

الداي محمد بن عثمان

الداي علي بوصبع هو الذي اقترح قبل وفاته أن يخلفه محمد بن عثمان سنة 1766. لما ألمّ به المرض " نادى وزراءه و جمعهم، و هم الخزناجي، و آغة العرب و خوجة الخيل، و وكيل الحرج بباب الجهاد، و وكيل بيت مال المسلمين، و أوصاهم بولاية محمد باشا " كما يقول الحاج أحمد الشريف الزهار (128). لقد ترك بابا علي الخزينة خاوية تقريبا للداي الجديد، لأنه أفرغها في إغناء زوجته و أولاده (129). عاش محمد بن عثمان عيشة رجل أعزب فلم يتزوج. عمل خوجة النوباتية الذين كانوا يشكلون حرس الداي. كما عمل خزناجيا. كان قد تلقى قذيفة في حصار على مدينة وهران (130). عرف عهده الطويل، الذي امتد إلى ربع القرن، أحداثا هامة، منها الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر سنة 1775 و بداية حصار وهران الذي انتهى بطرد الأسبان من الغرب الجزائري نهائيا و الحملات الموجهة ضد قبيلة فليسة. في عهده برز البايان الكبيران محمد الكبير في الغرب و صالح باي في الشرق، و في عهده أيضا ظهرت شخصية الحاج محمد بن عبد الرحمان (بوقبرين)، مؤسس الطريقة الرحمانية في بلاد القبائل.

نشأة الطريقة الرحمانية

ينتمي الحاج محمد بن عبد الرحمان لقبيلة آيت إسماعيل من مجموعة غشتولة القبلية. بعد أن تعلم في زاوية الشيخ أوعراب بآيت إيراثن، انتقل إلى القاهرة في حوالي 1740 فأكمل دراسته هناك بجامع الأزهر، أين تتلمذ على يد مجموعة من العلماء مثل سالم النفراوي وعمر الطحلاوي و حسن الجداوي و العمروسي و غيرهم. و لأنه درس في الأزهر لقب بالأزهري. لقد ظل مقيما بالمشرق فترة تقارب ربع القرن، انضم خلالها إلى الجمعية الدينية الحفناوية، نسبة لشيخها السيد محمد بن صالح الحفناوي. في حوالي 1764 عاد إلى مسقط رأسه في آيت إسماعيل. يحتمل أنه بنى هناك زاوية و أرسى قواعد طريقته الرحمانية. يبدو أنه عاش حياة مثالية، فقد أقيمت له قبة بالقرب من قرية آيت احمد أويفرق. أقام في مدينة الجزائر وغادرها، قبل وفاته سنة (1793 ـ 1794) بحوالي ستة أشهر. صادفت وفاته معجزة (كما يعتقد الناس) جعلته يلقب بـ (بوقبرين). ترك الشيخ عددا من التلاميذ عملوا على توسيع نفوذ الزاوية. كان قد عين، قبل وفاته، أحد تلاميذه ، يسمى علي بن عيسى المغربي، على رأس الطريقة الجديدة(131).

انقسام أولاد سيدي الشيخ

في هذه الآونة التي كان فيها الحاج محمد بن عبد الرحمان بوقبرين مؤسس الطريقة الرحمانية في بلاد القبائل، كانت قبة سيدي الشيخ الكبير في الجنوب الوهراني تجذب إليها عددا كبيرا من الزوار، مما زاد في مداخيل الزاوية بشكل كبير. كانت هذه المداخيل تسلم للرئيس الأوحد لأولاد سيدي الشيخ المنحدر من الحاج بوحفص. هذه الوضعية كانت مدعاة للخلاف مع ذرية سي الحاج عبد الحكم. تطورت أمور الخلاف إلى أن بلغت الاحتكام إلى السلاح. هاجم سي سليمان بن قدور ممثل أولاد عبد الحكم مدعوما بأولاد حميان، أولاد بوحفص فنهب قطعانهم في وادي سقر. ردّ سي العربي بن سي بن الدين بهجوم آخر على وادي غربي. انقسم بذلك أولاد سيدي الشيخ إلى صفين لا يلتقيان؛ صف الشراقة المتكون من أولاد بوحفص و اتباعهم، يقطنون القصر الشرقي؛ و صف الغرابة، المتكون من أولاد عبد الحكم و اتباعهم، يقطنون القصر الغربي (132).

لما حقق الغرابة بعض التفوق، اضطر سي العربي للتخلي عن نصف مداخيل الزاوية، بينما انشأ سليمان بن قدور زاوية سي الحاج عبد الحكم، في القصر الغربي. الشيء الذي أنتج زاوية ثانية في القصر الشرقي، هي زاوية الحاج بوحفص. هكذا نصبح أمام ثلاث زوايا. في سنة 1766 تم الاتفاق بين الطرفين المتخاصمين على تقسيم القرابين و السهمات إلى ثلاثة أقسام متساوية: قسم للزاوية الرئيسية، زاوية سيدي الشيخ، و ذلك للاعتناء بالقبة و زوارها، قسم آخر للزاوية الغربية؛ و قسم ثالث للزاوية الشرقية. بطريقة التقسيم هذه استحوذ الشراقة على ثلثي المداخيل، لأن الزاوية الرئيسية، زاوية سيدي الشيخ واقعة في القصر الشرقي. مع هذا ظل هذا التقسيم قائما و محترما. مع العلم أن المداخيل كانت تتكون من (الزيارة) و هي اختيارية و(الغفر) و هي تشبه الضريبة، تدفعها القبائل التابعة، فهي بالتالي دائمة، بالإضافة (الغزوة) وهي الغنيمة التي يجمعها أولاد سيدي الشيخ في غزواتهم ضد من يتخلون عن دفع (الغفر) (133).

بفعل هذه الاضطرابات التي عرفتها مشيخة أولاد سيدي الشيخ غادرت الكثير من العائلات الأبيض سيدي الشيخ، ابتداء من 1766، و أخذت تستقر في التل، و حتى القرن التاسع عشر كانت قد استقرت عائلات أولاد ميمون و بني سميل و أولاد بلاغ (الضاية) و أولاد الزاير و أولاد خالفة (عين تموشنت) و أغواط الدواير (وهران) و ولهاصة (الرمشي) (134).

تمرد قبيلة فليسة

في الشمال واجه محمد بن عثمان تمردا كبيرا، أشعلت فتيله قبيلة فليسة سنة 1767. رفضت فليسة دفع الضريبة للأتراك بحجة القبض على أحد أقرانها من طرف قائد سباو. و لم تتوقف فليسة هنا بل عملت على إخضاع القبائل المجاورة لها التي كانت تعترف بالسلطة المركزية. كان قادة فليسة الرئيسيون هم خليف بن بوزيد (أمين عشيرة بني مقلة) و حسين بن رفاعي (أمين الرواقعة) و الحسين بن زعموم (أمين بني عامر). كان هؤلاء الأمناء يعترفون بقيادة الشيخ ابن بوزيد الذي كان قد عمل صبايحيا في الجزائر، ثم اعترف له الأتراك بقيادة فليسة (135).

شكل الأتراك حملة من ألف و مائة رجل من الإنكشارية و القوم العرب. وضعوها تحت قيادة آغا العرب. لكن هذه الحملة فشلت في إخضاع القبيلة فشلا ذريعا، حيث فقدت ما لا يقل عن ثلاثمائة رجل من رجالها. لما عادت إلى الجزائر قتل الآغا الذي كان قد فرّ أثناء المعركة. خلفه خوجة الخيل المعروف باسم الوالي. في السنة الموالية (1768) سيّر الداي حملة أخرى إلى القبيلة بقيادة أحمد بن علي القلي باي قسنطينة. كانت الحملة كبيرة، شاركت فيها قوات من الجزائر و قسنطينة و التيطري و بايليك الغرب، و ضمت العديد من الشخصيات: الآغا الوالي، الخزناجي، خوجة الخيل باي الغرب و باي التيطري. تجمعت القوات التركية في قدم جبل فليسة، في الجهة الشمالية الغربية. هناك قسّم الجيش إلى سبع محلات (طوابير) و شرع يحاول اقتحام الجبل. قاومت فليسة و انضم إليها أحمد بوسعيد رئيس الزاوية رفقة طلبته. لقد تكبد الأتراك خسائر بشرية كبيرة، تمثلت في فقدان آلاف الجنود. من بين الذين لقوا حتفهم هناك نذكر قائد سباو الحاج محمد بن حسن، و كان طاغية مكروها من السكان و الآغا الوغليس و شيخ العرب الحاج بن قانة و شيخ بلزمة فرحات بن علي و آغا العرب الوالي (136). أمام هذه الخسائر الكبيرة جنح الأتراك إلى السلم.

أرسل الداي محمد بن عثمان الآغا الجديد علي بن سليمان للتفاوض مع القبيلة. لكن هذه الأخيرة، التي دعمتها القبائل الأخرى في المنطقة، رفضت ذلك و مددت في عمر التمرد كما مددت رقعته نحو الغرب، إلى سهل المتيجة مهددة مدينة الجزائر نفسها، حتى أصبح الداي يخشى مغادرة قصره. لقد تعرض لست محاولات اغتيال خلال ثلاثة أشهر. لجأ الأتراك إلى تنظيم الحصار على فليسة و قطع المؤونة عنها بدلا من مهاجمتها. استمر الحصار إلى غاية السنة التالية. ألحق هذا الأسلوب أضرارا كبيرة بها، الأمر الذي جعل أشخاصا منها يجنحون للمفاوضة. كان على رأس هؤلاء الحسين بن زعموم الذي اتصل بأحمد بن كنون شاوش الآغا، و هو من يسر. توصل الطرفان إلى الاتفاق سرا حول ما يلي: - تدفع كل عشيرة من عشائر فليسة الضريبة السنوية التي يقدمها أمناؤها إلى قائد سباو - منع دخول السلطة التركية

إلى إقليم القبيلة مهما كانت الظروف. كما لا يحق لها أن تتدخل في مسائل القبيلة، و لا يحق لها أن تطارد العصاة في إقليمها. لكن يحق لها أن تقتل أي لص من القبيلة تقبض عليه خارج إقليمها. بعد أن حصل الشاوش على موافقة الباي على هذه الشروط و حصل الحسين بن زعموم على موافقة جماعة فليسة. وقع اتفاق السلم في لقاء تخليصي، حضره أعيان القبيلة و قائد سباو الجديد محمد بن الباي محمد الذباح و فرسان مخزن عمراوة من جهة أخرى. اعترف الأتراك بالحسين بن زعموم شيخا للقبيلة (137). سوف يظل السلم قائما مع الأتراك لمدة حوالي نصف القرن.

بعد هذه الحروب نُقلت إدارة سباو و يسر من بايليك التيطري إلى دار السلطان بالجزائر العاصمة مباشرة (138).

في سنة 1774 انفجرت الحرب في بلاد القبائل مجددا لكن هذه المرة بين القبائل نفسها. كانت قبيلة المعاتقة من صف فليسة و كانت أراضيها تمتد محاذية لأراضي قبيلة بني زمنزر. منع بنو زمنزر كل اتصال بين المعاتقة و القبائل الأخرى الحليفة لهم، خاصة مع بني عيسى. كان السبب في هذا الوقت امتلاك قرية تيغليت محمد من طرف بني عبد المؤمن و آيت عمار (عشيرة من عشائر بني عيسى). حاول المعاتقة أن يستولوا على القرية ففشلوا. وقعت الحرب التي دامت سبع سنوات (139).

تمرد قبيلة أولاد نايل

في هذه الأثناء كانت قبيلة أولاد نايل الكبيرة في حالة تمرد على سلطة باي التيطري. هذه القبيلة كثيرا ما كانت تتمرد. امتنعت عن دفع الضريبة عدة سنوات. و كان الباي عثمان قد حاول إجبارها على الدفع، إذ نظم حملة ضدها غير أنه قتل من طرف إحدى عشائرها و هي عشيرة أولاد سيدي أحمد. لم يجرؤ البايات الذين جاءوا بعده على مهاجمة قبيلة أولاد نايل مرة أخرى، إلى أن جاء الباي صفطة، فنظم حملة عليها سنة 1772. لكن أولاد نايل علموا بها قبل وصولها، فكان لهم الوقت الكافي لتنظيم دفاعهم. استدرجوا الباي إلى المكان الذي اختاروه بأنفسهم فألحقوا به هزيمة نكراء، بحيث قتلوه هو و الكثير من جنوده و من فرسان المخزن (140). تطلب الأمر تدخل باي الشرق، الباي صالح. نظم هذا الأخير حملة قوية ضد القبيلة الكبيرة و انتصر عليها في معركة مالح أوسيف. جمع الكثير من الغنائم. بعث بجزء منها إلى الداي، بعد أن عاد إلى قسنطينة في أكتوبر

1773، كما بعث إلى الداي كذلك بستين رأسا من رؤوس أولاد نايل و أربعمائة زوج من آذانهم (141). مع هذا تبقى القبيلة مصدر مشاكل السلطة

تزايد أعمال القرصنة و ردود الفعل الأوربية

على الصعيد الخارجي، نشط الداي محمد بن عثمان القرصنة و واجه الهجمات الأوربية على مدينة الجزائر يقول الشريف الزهار عن القرصنة في عهد هذا الداي: " كان استعداده دائما للحرب و كان مغروما بتجهيز المراكب للغزوات، و في أيامه كثر الرؤساء في البحر و كانت لمراكبه سمعة، و من أكبر رؤساء عصره الحاج محمد قبطان و كان له صيت في البحر، و ما وُجد مقيدا في دفاتر الرؤساء أن هذا القبطان أتى بأساري في مدة سفره في البحر ما مجموعه 24000 أسير "، و يقول أيضا: " كان محمد باشا من حين ولايته، لا يفتر عن بعث المراكب لغزو الإسبانيول، فترجع بالغنائم و يرمي السرية في أرضه فتسبي النساء و الذراري و الصبيان، فلما أكثر عليهم المسلمون بأخذ مراكبهم و بالسرايا في أرضهم، أمرهم كبيرهم راي الكارلوا (الملك) بأن يرحلوا عن ساحل البحر إلى داخل البلاد فرحل أهل الشطوط من البوادي لكن المسلمين صاروا يذهبون إليهم و يغيرون لهم أكثر من السالف، حتى اجتمع أساري الصبانيول في الجزائر ما يزيد عن العشرة آلاف، خلاف الأساري من بقية الأجناس، و قد اجتمع من الأساري في هذه المدينة ثمانية عشر ألفا " (142).

توضح الإحصائيات التقريبية أن القراصنة استولوا على عدد كبير من الغنائم في البحر، عدا ما كان يجمع على السواحل الأوربية، بحيث بلغت 178 غنيمة (سفينة) بين سنتي 1766 و 1782، بمعنى خلال 16 سنة، تراجع العدد بين سنتي 1783 – 1799 إلى حوالي 129 غنيمة، أي خلال 16 سنة، و بلغت 133 بين سنتي 1800 – 1815، أي خلال 15 سنة (143). هذه الفترة الأخيرة هي آخر ازدهار كبير للقرصنة.

ردا على أعمال القرصنة هذه، حاولت الدول الأوربية أن تقضي على مدينة الجزائر، كما فعلت الدانمارك و إسبانيا.

أرسلت الدانمارك سنة 1771 حوالي 11 سفينة، قصفت مدينة الجزائر بمدافعها مدة 11 يوما، غير أنها لم تلحق أضرارا كبيرة بها، لأن الكثير من القذائف لم تصلها. في السنة الموالية عاد الدانماركيون إلى الجزائر لكن بحثا عن الصلح هذه المرة. كانت المفاوضات شاقة لأن الداي تمسك بشروطه إلى أن وافقوا على دفع الإتاوة و تقديم الهدايا. وقع الصلح و أنزلوا قنصلهم في المدينة، و دفعوا فدية أسراهم الذين حملوهم على متن سفنهم و أبحروا (144). كان رد الفعل

الإسباني أعنف من رد الفعل الدانماركي فقد أرسل الأسبان ثلاث حملات على المدينة أولاها كانت سنة 1775.

الحملات الإسبانية على مدينة الجزائر

تكونت الحملة الأولى ،حسب الماجور الإنجليزي دالريمبل ،من 51 قطعة بحرية حربية و 344 سفينة نقل تحمل على متنها أكثر من أربعة و عشرين ألف جندي، أكثر من 19 ألفا منهم مشاة و 714 فارسا و 900 مدفعي و أكثر من ألفي بحار. تجمع الأسطول هنا يوم 22 جوان 1775 في ميناء قرطاجنة ،تحت إمرة الأميرال دون بيدرو كاتيجون، أما الجيش فكان تحت قيادة الكونت أوريلي، القائد العام للحملة. في هذا اليوم أقيمت الصلوات في كنيسة سان فرانسوا تدعو الرب لإنجاح الحملة. في اليوم التالي أبحر الأسطول متجها نحو مدينة الجزائر (145).

كان الداي قد علم بتحضيرات هذه الحملة. استدعى البايات الذين جاءوا مع قواتهم ليعسكروا بالقرب من مدينة الجزائر في بداية شهر جمادي الأول 1189 هـ (1775) ،كما يذكر مخطوط جزائري مجهول الهوية. أخذت قوات مدينة الجزائر مواقعها خارج المدينة كذلك ،قبل وصول الحملة الإسبانية (146). و كان الداي قد أمر بتدعيم التحصينات بعد الحملة الدانماركية و جند الجميع لهذه العملية، بمن فيهم كبار القوم و مختلف الطوائف المهنية و حتى اليهود (147). عسكر صالح باي قسنطينة في الضفة اليسرى من وادي الحراش مع قواته المكونة أساسا من الفرسان. و خيم باي التيطري مصطفى الوزناجي في رأس تامنتفوست مع قومه، الذين يدعمهم فرسان سباو و بعض القبائل. و عسكر خليفة باي معسكر محمد بن عثمان بالقرب من عين البيضاء (عين الربط) مع أربعة آلف فارس من فرسان الدواير إلى جانب قوات الخزناجي. و رابط باي معسكر إبراهيم في مستغانم لقطع الطريق على القوات الإسبانية في وهران و المرسى الكبير، إن سارت إلى الجزائر. و استقر آغا العرب في وادي خنيس. و عسكر مصطفى خوجة الخيل في باب الوادي و بوزريعة مع الإنكشارية. هذا إلى جانب قبائل البيبان و فليسة التي هرعت إلى الجزائر (148).

وصلت الحملة إلى خليج الجزائر يومي 30 جوان و أول جويلية. غير أن الإنزال لم يُشرع فيه إلاّ يوم 8 جويلية، حيث تم إنزال حوالي ثمانية آلاف جندي في مكان يبعد حوالي الفرسخ و النصف شرق مدينة الجزائر (149). اتجه المقاتلون على التو نحو العدو، من جهة الحراش و من جهة عين الربط (150). كان موقع المعركة في صالح القوات التركية التي كانت على استعداد تام. فقد " تجمع الجيش الإسباني في مساحة ضيقة محصورة بين مرتفعات الساحل بناحية حسين داي وشاطئ البحر، و مطوقة من جميع الجهات بقوات مزودة بالمدافع و مدعمة

بالفرسان، رغم تحصينات الأسبان الذين بادروا منذ نزولهم بإقامة المتاريس و الحواجز و محاولتهم المبكرة فك الحصار بالتقدم إلى البساتين الواقعة بمنحدرات الساحل بين الحراش و خنيس و استخدامهم الأسطول في قصف تجمعات الجزائريين و إسكات مدفعيتهم " (151).

كلف محمد خليفة باي الغرب، مع بعض الفرسان، بالولوج داخل صفوف الأسبان، لكن حصانه قُتل بعد أن ضرب إسبانيين أو ثلاثة، فتراجع. مات العديد من المهاجمين في هذه المحاولة. في وسط النهار هاجم صالح باي الذي سبقه حاجز من 450 جملا، الأسبان في الوقت الذي كانت فيه المدفعية الإسبانية تكثف من قصفها. تواصل الهجوم حتى الليل. كان الإسبان في الصباح في حالة من الفوضى و الفرار من ميدان المعركة (152). مالت المعركة لصالح الأتراك منذ الهجوم الأول الذي قام به صالح باي بخيالته، " ثم لحقه الناس من كل النواحي "(153) بحيث بلغ عددهم عشرين ألف فارس في مرحلة أولى ثم أصبح العدد حسب بعض الروايات مائة و خمسين ألفا منهم ستة آلاف تركي و ثلاثة آلاف كرغلي (154).

أبحرت الحملة يوم 12 جويلية تاركة وراءها القتلى و الجرحى و بعض العتاد. بلغ عدد القتلى في صفوف الضباط 27، منهم المركيز دي رومانا، أما في صفوف الجنود فقد بلغ العدد 501، و كان عدد الجرحى في صفوف الضباط 191، و في صفوف الجنود 2088، مع العلم أن لا أحد من الجرحى تم إنقاذه. بالنسبة للعتاد، ترك الأسبان وراءهم 15 مدفعا و ثلاث راجمات وكمية كبيرة من الأسلحة الخفيفة و الذخيرة و عددا من الخيول (155). كانت الغنائم ضخمة بحيث " استغنى الناس في ذلك اليوم مما جمعوه من أثاث و دراهم و ساعات و حوائج أخرى شيء لا يحصى " و " عندما ذهبوا (الأسبان)، سافرت المراكب الجهادية في إثرهم وغنموا منهم و أتوا بأساري " كما يقول الزهار (156).

أعاد الأسبان الكرة من جديد سنة 1783. علم الداي، منذ شهر ماي، بفضل ملك المغرب الأقصى، أن الأسبان يحضرون حملة على الجزائر. أمر بتجميع كل القوات في مدينة الجزائر، فجاء خمسة و عشرون ألف رجل من بايليك الشرق و عشرون ألفا من بايليك معسكر وخمسة آلاف من بايليك التيطري. و في 26 جويلية هُرّب ما يقرب من 1500 عبد نحو المدية، حتى لا يشكلوا أي خطر أثناء المعركة. في 29 جويلية ظهر الأسطول الإسباني قبالة مدينة الجزائر. كان يتكون من 400 قطعة بين الكبيرة و الصغيرة، يقوده دوق انطونين باسيلو (157). أطلق الأسبان ما بين ألف و ألف و مائتي قذيفة على المدينة ثم انسحبوا دون أن ينزلوا إلى البر هذه المرة. لقد فقد الأتراك في هذا القصف أكثر من ثلاثمائة شخص باستثناء الذين قُتلوا تحت أنقاض المنازل التي هدمتها قذائف المدفعية، و التي بلغ عددها أكثر من ثلاثمائة

منزل (158). بعد القصف لجأ الأسبان إلى إرساء سفنهم بعيدا عن متناول المدفعية التركية ، استعملوا زوارق صغيرة عليها مدافع. هذه الزوارق يسمونها " اللنجور " تتقدم نحو المدينة ثم تقصفها. اقترح الحاج محمد قبطان استعمال زوارق محملة بالجير و عليها مدافع لمواجهة " اللنجور " . أظهرت الفكرة فعاليتها . لما غادر الأسبان الجزائر ، تركوا وراءهم " لنجورا " واحدا ، استعمله الأتراك نموذجا لصناعة مثل هذه الزوارق التي كانت مجهولة لديهم (159).

جاء الأسبان للمرة الثالثة في جويلية 1784. واجههم الأتراك بنفس سلاحهم. بعد أن رست السفن بعيدا عن مدافع الأتراك ، أنزلت زوارق اللنجور ، فواجهها الأتراك بنفس الزوارق. لم تحقق هذه الحملة أي نجاح. لقد جنحت إسبانيا إلى السلم و وقعت في سنة 1786 معاهدة مع الجزائر (160).

نصت معاهدة 26 أوت سنة 1786 على إيقاف القرصنة و إمكانية دخول التجار الأسبان إلى الموانئ الجزائرية و دخول تجار الجزائر إلى موانئ أليكانت و مالقا و برشلونة فقط كما نصت على تحديد الرسوم الجمركية و إيفاد قنصل إسباني إلى الجزائر يكون مسؤولا عن حل الخلافات التي تنشأ بين الأسبان في الجزائر ، بالإضافة إلى تمثيل بلاده قبل السلطة التركية (161). لقد دفع الأسبان أموالا طائلة للوصول إلى السلم مع الجزائر ، يقدرها البعض بعشرين مليون فرنك. يذكر بارادي أن هذه الأموال مكنت من إدخال الكماليات إلى مدينة الجزائر ، فأنشأ البعض حدائق عجيبة و شيدوا دورا جميلة أدخل إليها الرخام الذي جيء به من جنوة وليفورنا ، كما استعملوا الزليج (الزجاج الذي كان يجلب من تونس و تركيا) (162).

تم التوصل إلى هذه المعاهدة رغم أن الأسبان ظلوا يحتلون وهران و المرسى الكبير. يبدو أن الأسبان كانوا يريدون التخلي عن وهران للإنجليز. فقد دخلوا في مفاوضات معهم سنة 1780 في محاولة منهم لاستبدال المدينة بجبل طارق ، الذي كانت قد احتلته إنجلترا منذ سنة 1704. لم تنته المفاوضات إلى نتيجة (163). على كل فإن عوامل طبيعية سوف تعجل برحيل الأسبان عن وهران و المرسى.

نهاية الوجود الإسباني في وهران و المرسى

في سنة 1790 ، قبل وفاة الباي محمد بن عثمان ، كان سكان وهران و حاميتها العسكرية يعيشون على وقع الزلزال الذي ضرب المدينة. كان هذا الزلزال عاملا هاما في انسحاب الأسبان نهائيا من الأراضي الجزائرية. " كان الباي محمد وقواده متأكدين من أن الزلزال كان من عمل الله الذي تدخل إلى جانبهم في النزاع " مع الأسبان ، كما يقول جون ب. وولف (164).

بدأت الهزات الخفيفة منذ شهر أوت و لكنها توقفت في وسط شهر سبتمبر. على الساعة الواحدة من صباح يوم 9 أكتوبر وقعت الهزات العنيفة التي خربت الجزء الأكبر من المباني

والمنازل. أعقب الزلزال اندلاع الحرائق في أماكن مختلفة من المدينة و فرّ السجناء من سجونهم و مارسوا النهب و السلب. لما بزغ الفجر هرع الأهالي إلى المرتفعات المجاورة لوهران يترقبون الفرصة لغزوها. نظموا هجمات ليليةعلى نقاط مختلفة غير أنهم لم يحققوا شيئا، على الرغم من مقتل عدد كبير من الجنود الأسبان، بفعل الزلزال، فلم يبق منهم سوى حوالي 1500. لقد أتى الزلزال على حوالي ثلاثة آلاف شخص، منهم الحاكم و كل أفراد أسرته و الكثير من الضباط (165). في هذه الظروف جاء محمد الكبير باي معسكر ليحاصر الأسبان في هذه المدينة المنكوبة.

في يوم 15 أكتوبر، قام بهجوم قوي غير أنه رُدّ على أعقابه من طرف الحامية الإسبانية. حاول يوم 21 لكن دون جدوى كذلك. في هذه الأثناء كانت الهزات لازالت مستمرة، و كانت قوية يومي 25 و 26 من نفس الشهر. في 29 رفع الباي الحصار (166) وصلت الإغاثة من قرطاجنة و من موانئ أخرى مرفوقة بالإمدادات العسكرية. في طريق عودتها نقلت سفن الإغاثة المرضى إلى إسبانيا (167).

في مطلع السنة الجديدة 1791، شُرع في التحضير لهجوم واسع، في مدينة الجزائر و في أوساط القبائل. كتب الباي محمد الكبير إلى الجنرال كورتين الحاكم الإسباني الجديد يقترح عليه مباشرة المفاوضات. كان الأسبان هم كذلك يفكرون فيها قصد التخلي عن وهران و الإبقاء على المرسى الكبير، خاصة و أن الثورة الفرنسية كانت تهدد نظام إسبانيا. رفض الداي مقترحات الأسبان مصرا على التخلي عن المرسى الكبير كذلك و عدم تخريب المنشآت الدفاعية، و الإبقاء على المدفعية. واصل الأتراك الحصار، قصفوا بعض المواقع يوم 28 ماي، منها برج مرجاجو (سانتاكروز) فاستؤنفت المفاوضات. اتصل محمد الكبير، بأمر من الداي، بالأسبان ليخبرهم بتوقيف العمليات العسكرية لمدة 15 يوما، ثم سحب المدفعية بعد أيام. في 23 أبلغ الباي القائد الإسباني بالاتفاق الذي حصل بين الأسبان و داي الجزائر الجديد الخزناجي سيدي حسن الذي خلف ابن عثمان يوم 12 جويلية (168). بعد صراع مع الآغا علي الذي ألقى عليه القبض و نفاه إلى القليعة التي " مكث بها إلى أن وُجد مذبوحا ". قيل أنه انتحر، أما الشريف الزهار فيقول أن حسن باشا " أمر بقتله " (169).

في الحقيقة لم يتوصل الأتراك للاتفاق إلا في 12 سبتمبر و صادق عليه الملك الإسباني يوم 9 ديسمبر من سنة 1791 (170). تضمن الإتفاق، حسب ما أورده محمد بن علي سحنون في كتابه " الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"، ما يلي:

1 - يتخلى الأسبان عن وهران و المرسى الكبير كما كانا في عهد الباي بوالشلاغم من حيث التحصينات و المدفعية، و بإمكانهم أن يخربوا التحصينات التي أقيمت بعد حكم هذا الباي.

2 - يلتزم الأسبان بدفع 12 ألف سلطاني لحكومة الداي سنويا.

3 - يُفتح المرسى الكبير للتجارة الإسبانية وحدها دون غيرها من البلدان.

4 ـ كل سفينة إسبانية ترسو في ميناء المرسى الكبير تدفع 55 ريالا، 40 منها لبيت المال و البقية لقائد الميناء.

5 ـ بإمكان الأسبان أن يشتروا كل سنة ألف حمولة من القمح بسعر السوق دون أي تدخل من الباي.

6 ـ تُعطى مهلة للسكان، مدتها أربعة أشهر لإخلاء مدينة وهران والمرسى الكبير.

7 ـ سحب كل الفرق العسكرية المحيطة بوهران و إيقاف كل العمليات العدائية (171).

المبلغ الذي يدفعه الأسبان للحكومة التركية هو مقابل إقامة الأسبان لمركز تجاري في جامع الغزوات و مباشرة صيد المرجان في الساحل الغربي للجزائر (172).

الأوائل الذين غادروا وهران هم الأهالي الذين كانوا في خدمة الأسبان على الرغم من العفو الذي أصدره الباي محمد الكبير في حقهم، فإن الكثير منهم فضل مغادرة المدينة بعد أن غادرها قائد المخطيين و أفراد عائلته، غادرها حوالي 60 رجلا من هؤلاء الجنود يوم 10 ديسمبر ثم تلاهم حوالي 250 يوم 29 اتجهوا إلى سبتة (173). و غادر حاكم وهران دون جون كورتين المرسى الكبير يوم 29 فيفري 1792، على متن السفينة أميرال سانت جواشيم. دخل الباي المدينة فورا (174).

محمد الكبير باي الغرب

توفي محمد الكبير باي الغرب بعد أيام من فتح وهران. عين الداي مكانه ابنه عثمان لقد روى الحاج الشريف الزهار قصة وفاته بعد استعادة وهران بأيام سار محمد الكبير إلى الجزائر ليدنش " فلما أكمل أيام الضيافة بعد الثمانية، خرج من الجزائر مكرما على أحسن حال، فلما وصل إلى السائح بين خضرة كبير أولاد قصير، و هي قبيلة كبيرة قريبة من مازونة توفي الباي هناك ".لقد " قيل في موت الباي محمد أن حسن باشا بعث إليه من سقاه سما. و قيل أنه مات فجأة لأنه مات من غير مرض " (175). و كان الباي محمد الكبير على خلاف مع الداي.

بعد الاتفاق الذي حصل بين الأسبان و الداي دخل محمد الكبير في مفاوضات مع الأسبان بطريقة سرية لا يعلمها الداي. حصل على التزام من القائد الإسباني في وهران بعدم تخريب التحصينات (التي بنيت بعد حكم بوالشلاغم)، على أن يتمكن الأسبان من أخذ مؤونتهم و كل المدافع البرونزية. صادق الملك الإسباني شارل الرابع على الاتفاق، و شُرع في تطبيقه إلا أن الداي احتج على هذا التطبيق الذي لا ينسجم مع اتفاق الجلاء فطالب بالتطبيق الحرفي له، حيث تُسلم المؤونة التي كانت قد وصلت من قرطاجنة (في إطار إغاثة منكوبي الزلزال) وتُهدم

التصحيحات التي أقيمت بعد بوالشلاغم. أرسل الداي وكيلا عنه إلى وهران للإشراف على التطبيق اعتقد الداي أن محمد الكبير يحضر للانفصال عن السلطة المركزية و الاستقلال بالجهة الغربية بتشجيع من الأسبان الذين كانوا يريدون تمكينه من الوسائل التي تجعله قادرا على مواجهة الداي و قواته (176).

كان محمد الكبير قويا، لا يضاهيه سوى الباي صالح في الشرق و هو الذي كان مصيره شبيها بمصيره. أخضع هذا الباي الكثير من القبائل في الجهتين الغربية و الجنوبية فبلغ بايليك الغرب أقصى اتساعه في عهده، خاصة بعد رحيل الأسبان. كان يُعرف باسم محمد لكحل، قبل أن يلقب بالكبير. إنه ابن عثمان الكردي باي التيطري الذي قتل في هجوم على أولاد نايل، كما ذكرنا سابقا. تزوج ابنة الباي إبراهيم الذي خلف أباه على رأس التيطري و انتقل معه إلى معسكر لما عين بايا عليها (1759 ـ 1775). عين إبراهيم باي محمد لكحل قائدا لقبيلة فليتة، القيادة الأولى ببايليك الغرب (تشبه قيادة العواسي في الشرق). في 1768 عين خليفة للباي إبراهيم بالجهة الشرقية من البايليك الغربي. بهذه الصفة حارب أولاد الشريفة. ظل في هذه المسؤولية في عهد الباي خليل الذي عيّن على رأس معسكر قبل حملة أوريلي بقليل، الحملة التي شارك محمد الكبير في مواجهتها نيابة عن الباي. عند وفاة الباي خليل سنة 1779 عُين محمد الكبير على رأس بايليك الغرب. جاء تعيينه في وقت كانت تعرف فيه الجزائر مجاعة كبيرة، فواجهها في منطقته بحزم (177). و في عهده انتشر الطاعون كذلك (منذ 1786) و ظل متفشيا حوالي 10 سنوات، و قد " قيل أنه أتى من بر الترك في مركب مع رجل يدعى ابن سماية ". و كان هذا الوباء " كبيرا قويا " " حتى وصل عدد الأموات أحيانا خمسمائة جنازة كل يوم " في مدينة الجزائر (178) لقد واجه محمد الكبير المجاعة بشراء القمح من أوربا و توزيعه على سكان منطقته مجانا، كما أعفى الفلاحين من دفع ضرائبهم (179).

بالإضافة إلى توسيع نفوذ الأتراك في الناحية الغربية و مواجهة المجاعة، أنجز أعمالا عمرانية عديدة، كما اهتم بالناحية الثقافية. ما قام به من أعمال جعلت منه شخصية قوية في النظام التركي حتى أصبح يلجأ إليه الفارون من المغرب الأقصى و حتى من الجزائر، كما حدث مع مولاي عبد الرحمان، ابن الملك المغربي محمد، و مع قائد مغربي آخر اسمه ابن حدة، و كان فارا من الملك المغربي مولاي يزيد، و مع خليفة باي التيطري الذي منحه قيادة في بايليك الغرب، و مع حسن باشا، ابن أحمد القلي باي قسنطينة (180).

محمد الكبير هو أول من أخضع قبيلة هاشم و أدمجها في المخزن، كما شتت قبيلة الأعشاش التي كانت تقطع الطرق بالقرب من الحدود المغربية، كما قمع قبيلة المحاية و قبيلة أولاد سيدي علي بن طلحة، و أخضع قبيلة فليتة التي كانت تنافس بني هاشم في " أعمال الفساد و التمرد"، وفرض الضريبة على قبيلة الأحرار. في الجنوب كانت أعماله كبيرة أيضا، فقد أخضع

قبيلة حميان،و أولاد سعيد و عمور و كل قبائل راشد. من حملاته الكبيرة المشهورة حملته على الأغواط التي فرض عليها الضريبة و على كل القبائل التي مر بها (1784)،و على واحة عين ماضي،مركز الطريقة التيجانية (181).لعل آخر عمل قام به في ميدان إخضاع القبائل هو حملته على قبيلة سوماطة،و هي خارج مقاطعته.

في انتظار مغادرة الأسبان وهران،أمره الداي بتسيير حملة على قبيلة سوماطة القوية التي كانت تقطن المناطق الوعرة الواقعة بين المدية و الجزائر (بين موزاية و بني مراد).تمردت القبيلة هذه و قطعت الطريق الرابط بين الجزائر و المدية،حتى اضطر المسؤولون الأتراك في المدية إلى أن يسلكوا طريقا طويلا في تنقلاتهم بين مدينتهم و العاصمة.أخضع محمد الكبير هذه القبيلة العنيدة و غنم منها ألف رأس من الأغنام و عددا معتبرا من الخيول و الأبقار و قطع كل الأشجار و أضرم النار في المنازل كما استولى على كميات كبيرة من الحبوب. بعد أيام من الإقامة في أراضي القبيلة، سار نحو القبائل التي استقبلت السوماطيين الفارين و سلط عليها العقوبة. بعد ذلك عاد إلى وهران (182).

الطريقة التيجانية في عين ماضي

كانت عين ماضي أكثر مدن الجنوب الجزائري عددا من حيث العلماء و الأشراف، منذ القرن السابع عشر. و كانت عائلة أولاد الشيخ سيدي محمد أكثر عائلات الأشراف أهمية.تنسب هذه العائلة نفسها إلى الشريف المغربي الذي أسس عين ماضي،قبل مجيء الأتراك (183).كانت عين ماضي عرضة لخطرين؛خطر القبائل المجاورة لها،التي كانت تستولي على قطعان ماشيتها؛و الخطر الثاني ظهر في بداية القرن الثامن عشر،و يتمثل في وصول القوات النظامية المغربية إليها،بقيادة مولاي إسماعيل،لتفرض ضريبة على كل بيت من بيوتها،أضاف إليها مولاي يزيد، فيما بعد،ما يعرف باسم " الخدمة " (184).

في أوائل القرن الثامن عشر،كان سيدي محمد بن المختار التيجاني هو رئيس عائلة أولاد الشيخ سيدي محمد. كان له ولد مولع بالمعرفة،اسمه أحمد، هو مؤسس الطريقة التيجانية. كان لسي أحمد رحلات عديدة في سبيل طلب العلم. سافر إلى فاس التي قضى بها وقتا في دار العلم ثم انتقل إلى مكة لأداء فريضة الحج. بعد ذلك درس في القاهرة، ثم عاد إلى تونس ثم منها إلى عين ماضي،مسقط رأسه،لينتقل بعد ذلك إلى تلمسان ثم إلى فاس مجددا. في هذه المحطة الأخيرة، درس لدى الكثير من العلماء الذين ينتمون إلى طرق صوفية مختلفة، مثل القادرية و الطيبية و الرحمانية و الحابلية الخ. بذلك أخذ يرسي أسس طريقته الخاصة،الطريقة التيجانية،التي توسعت بسرعة في الجزائر (185).في بوسمغون،التي انتقل إليها حوالي سنة 1781

فوجد فيها استقبالا كبيرا، أعلن سي أحمد بن المختار التيجاني أن الرسول تراءى له و أمره بالتخلي عن كل الطرق التي اتبعها حتى ذلك الوقت. نظم أتباعه حول طريقته مشترطا عليهم ألا ينضموا إلى أية طريقة أخرى أو عرّضوا أنفسهم للطرد من الجماعة. لقد أمضى سي أحمد سنوات نشيطة يدعو فيها لطريقته، متجولا في الصحراء و توات و السودان و تونس، و في كل مكان يمرّ به يقيم زاوية و يجند المقدّمين لطريقته التي أصبحت قوة حقيقية، في مدة وجيزة، حتى أن الأتراك أصبحوا يضعونها في حسبانهم (186). غدت عين ماضي من أهداف باي الغرب.

بعد الحملة الأولى التي قادت محمد الكبير إلى عين ماضي سنة 1784، رفضت المدينة أن تواصل دفع الضريبة التي فرضت عليها. سيّر باي الغرب، في السنة الموالية حملة أخرى ضدها فقاومته و كادت تُفشل مساعيه لو لم تنجده مدينة الجزائر بالامدادات الضرورية (187). بعد أن تمكن محمد الكبير من المدينة فرض عليها ضريبة سنوية تبلغ 188 ريالا. لكن خضوع المدينة لم يدم طويلا، فاضطر الباي عثمان بن محمد الكبير أن يوجه حملة أخرى عليها سنة 1797، غير أن الواحة لم تخضع بالشكل الذي كان يرغب فيه (188). كان ضغط الأتراك سببا في أن ينتقل سي أحمد التيجاني إلى فاس بصفة نهائية.

دخل سي أحمد التيجاني مدينة فاس يوم 17 سبتمبر 1798 رفقة ابنه محمد الكبير. في فاس شرع سيدي علي الحرازمي يكتب، بأمر من سي أحمد و تصريحه، قصة و توصيات الشيخ صاحبه الموجهة للإخوان (الأتباع)، و قد سُمي الكتاب" من كل ناش ". لقد استُكمل في حوالي أفريل 1799. لقي التيجاني استقبالا حارا في فاس. منحه سلطان المغرب الأقصى مولاي سليمان قصرا رائعا يعرف باسم " قصر المرايا ". أقام فيه مع عائلته و خدمه الذين كانوا كلهم تقريبا زنوجا و زنجيات. لكن أحد أتباعه، و هو سي محمد بالشري، انتقل من المغرب الأقصى إلى الأغواط ثم إلى عين ماضي أين أخذ يشرح " من كل ناش ". شيد سيدي أحمد التيجاني زاوية في فاس، كان يقدم فيها دروسا على طريقته. لم يعد إلى مسقط رأسه عين ماضي سوى مرة واحدة سنة 1813 أين أقام أياما معدودة ثم عاد إلى فاس التي توفي بها سنة 1814 مخلفا ولدين هما محمد الكبير و محمد الصغير، أوصى بهما سي محمد بن أحمد التونسي. أما قيادة الطريقة فأوصى بها مقدم زاوية تماسين سي الحاج علي بن الحاج عيسى، أصيل ينبع بشبه الجزيرة العربية (189).

صالح باي قسنطينة

تلك هي أهم التطورات في الغرب و جنوبه. في الجهة الشرقية بقي صالح باي على رأس بايليك قسنطينة مدة 22 سنة تقريبا. ولد صالح في أزمير بالأناضول. جاء الجزائر سنة 1741 تقريبا. لم يتجاوز سنه حينذاك 16 عاما. التحق بالأوجاق و عمل بقسنطينة. شارك في حملة أزرق

عينه على تونس فأظهر كفاءة. ولاه الباي أحمد القلي قيادة الحراكتة (العواسي) كما زوجه ابنته. بقي في هذه المسؤولية الكبيرة مدة 3 سنوات. عين خليفة للباي سنة 1765 .لما توفي الباي القلي سنة 1771عينه الداي محمد بن عثمان على رأس البايليك (190).كان صالح باي " الحاكم الأكثر لفتا للانتباه بين حكام قسنطينة.كان نشيطا و محاربا و إداريا " ،كما يقول شارل فيرو (191).

لم تكن أعماله ،في إخضاع قبائل البايليك الشرقي ،تختلف عن تلك التي بذلها الباي محمد الكبير في الغرب. حارب الزواوة في سنة 1772 ،كما حارب أولاد نايل. في سنة 1774 ضرب الدواودة حين أحدثوا اضطرابات في ناحية بسكرة. بعد أن أخضعهم عفا عنهم و عين أحدهم قائدا على الجهة. شارك بقوة في مواجهة حملة أوريلي على الجزائر سنة 1775 ـ كما رأينا سابقا ـ في الوقت الذي أمر فيه بتجميع قوات من حوالي 40 ألف رجل ،تحت قيادة صهره عاشي حسين العنابي ،حول مدينة عنابة لمواجهة حملة محتملة يقوم بها الأسبان هناك أو يقوم بها حلفاؤهم من التوسكان و الجنويين و الصقليين ،لامتلاك " ساحل المرجان" (192).كما اصطدم بمشيخة فرجيوة (1781) لأن شيخ هذه الأخيرة ،محمد بن شلغوم بن الحاج ،استقبل حسن باشا بن الباي السابق وقدم له الوسائل الضرورية التي تمكنه من الالتحاق بمدينة الجزائر. سيّر صالح باي ثلاثة طوابير ضد شلغوم ،هاجمت فرجيوة من ثلاث جهات ،لكن الهجوم لم يحقق هدفه. جمع الباي قواته في عين البيضاء ،وسط المنطقة. استعمل كل الوسائل الضرورية لاستمالة محيط شلغوم ،و إحداث الشقاق بين أولاد ابن عاشور.بعد أسبوعين من العمل الدؤوب أمكن له أن يحدث فراغا حول الشيخ.بعد ذلك منح قندورة التولية على فرجيوة لقورة بوطغان (صاحب السيف) ،هذا الأخير هو عم الشيخ شلغوم.عند انسحاب الباي انفجرت الحرب بين الطرفين ،الشيخ و الشيخ الجديد.منذ هذه الحملة و الأتراك يدعمون جانبا تارة و ينقلبون عليه تارة أخرى ،الأمر الذي أبقى الأمور بأيديهم في المنطقة (193).أما حسن باشا فقد فرّ إلى تلمسان وتوسط له محمد الكبير باي وهران لدى الداي الذي سمح له بالإقامة في بايليك الغرب مع عائلته (194).من جهة أخرى أخضع الباي في السنة الموالية قبيلة الحنانشة ،التي أعلنت تبعيتها لتونس ،بعد أن ضرب القوات التونسية المساندة لها. في السنة الموالية ،طالب بتعويض كبير من حمودة باشا عاهل تونس مقابل ما ألحقه الأخير من أضرار بالنسبة للقبائل الحدودية نتيجة غزوة قام بها جيشه في الأراضي الجزائرية.غير أن حمودة باشا هاجم ناحية تبسة فوجد نفسه وجها لوجه مع قوات يقودها صالح باي بنفسه. خاف و استجاب لمطالب الباي. عاد مرة أخرى إلى ناحية تبسة سنة 1787 فوقع له ما وقع في المرة السابقة (195).لما جهر أولاد عمور بالعداء للأتراك ،سار إليهم صالح باي سنة 1785 فانتهى إلى زنينة و آفلو و تاجموت و الأغواط و أوقع عقابا شديدا بدشرة النميلة ،فقتل من رجالها مائة رجل.بعد ذلك قاد حملة أخرى إلى الجنوب الشرقي. تعود أسباب هذه الأخيرة إلى

تحريض الشيخ أحمد العادي لابن عمه الشيخ عمر أمير تقرت و ضعف الضريبة التي يقدمها شيخ وادي ريغ الشيخ فرحات. بعد أن وصل الزيبان و جمع الضريبة من طولقة، بوشقرون، الزعاطشة و غيرها، تقدم إلى وادي جدي فوصل إلى نواحي سيدي خليل في جو عرف تساقط الأمطار و الثلوج. فرض حصارا على تقرت لمدة أسابيع، ثم قصفها بمدفعيته وقطع أشجار نخيل البساتين المحيطة بها اضطر الأمير عمر بن جلاب الرضوخ لشروط الباي المتمثلة في دفع ثلاثمائة ألف ريال و مجموعة من الخيول و العبيد (196).

أولى صالح باي اهتماما كبيرا للمجال الاقتصادي عامة و الفلاحة خاصة لقد جاءت فترة حكمه في وقت بدأت موارد القرصنة تتقهقر. كان على الأتراك أن يشجعوا الفلاحة حتى يحصلوا على تعويض. كانت سياسة الباي تقوم على هذا الأساس فجعل من الشرق المنطقة الأولى في الإنتاج الزراعي. يقول الأستاذ ناصر الدين سعيدوني حول مجهوداته الفلاحية: " صالح باي عمل جاهدا على تحسين أوضاع الزراعة و تنمية الإنتاج الفلاحي، و استحدث مزروعات جديدة مثل الأرز الذي حاول زراعته بسهول الحامة مستعينا في ذلك بنظام ريّ دائم معتمدا على تشغيل عدد من النوريات لرفع الماء إلى مشاتل الأرز. كما أنه شجع زراعة الزياتين بالنواحي القريبة من قسنطينة، و حتى يعطي مثلا يقتدي به فلاحو تلك النواحي بادر بزراعة أشجار الزيتون بمنزله الريفي المعروف اليوم بسيدي محمد الغراب. و لم يهمل في عمله هذا استصلاح السهول التي تغلب عليها المستنقعات و التي تقع على ضفاف نهر سيبوز بنواحي عنابة. و قد أنشأ لهذا الغرض شبكة من القنوات لصرف المياه الراكدة إلى مجرى النهر.

" و لعل أهم مشروع زراعي حققه صالح باي استغلال السهول الخصبة القريبة من عين مليلة، حيث أقطع فرسان المخزن المعروفين بالزمول، الأراضي الواسعة لاستغلالها لحسابه الخاص، كما أقرّ قبيلة السقنية بالأراضي الخصبة بنواحي الفزقية و عين كرشة، قصد استغلالها زراعيا و جعل جزء منها حظيرة لتهجين خيول البايليك و مكانا ملائما تحفظ به تلك الخيول لوقت الحاجة " (197).

اهتم صالح باي كذلك بالناحية الثقافية و التعليمية بالخصوص. أنشأ المدارس و اهتم بحالة المعلمين، و وفر الإقامة في قسنطينة للتلاميذ الذين يأتون من قبائلهم خارج المدينة، فمنهم من كان يقتات من مداخيل المساجد و منهم من أقاموا لدى العائلات القسنطينية الكبيرة مثل عائلات ابن الفقون، كوشوك علي، ابن جلول، باش تارزي و ابن البجاوي الخ (198). مع هذا اصطدم الباي بالمرابطين و أصحاب الزوايا، مثل اصطدامه بأحمد الزواوي.

كان الزواوي من المناصرين للباي، كان مرابطا بضواحي مدينة قسنطينة، إلاّ انه اختلف مع الباي في الأمور السياسية و حرض الناس عليه و عمل على إسقاطه، فظل معتصما بالجبال إلى أن مات. كما قتل صالح باي محمد الغراب، المتصوف بمدينة قسنطينة الذي كان معروفا بمناوأته للأتراك. تقول الرواية الشعبية أن جثة محمد قد تحولت إلى غراب ضخم، الأمر الذي

كان يخيف الباي (199). لا بد من الإشارة هنا إلى تلك الظاهرة التي سوف يشهدها العهد المتأخر للأتراك في الجزائر و المتمثلة في تلك الحركات التي قادها أصحاب الطرق الصوفية مثل الدرقاويين و التيجانيين ضد الأتراك و قد جاءت هذه الحركات في وقت تم القضاء فيه على الوجود الإسباني في الغرب الجزائري و تقهقرت القرصنة التي كانت أحد أسس النظام التركي. هذه التحولات سوف تؤثر على الامتيازات التي كان يستفيد منها رجال الدين بصفة عامة.

كان مصير صالح باي هو مصير محمد الكبير و مصير الكثير من البايات الذين جاءوا بعدهما، فقد تميزت الفترة ما بين 1791 و 1814 بعزل البايات، كما يذكر حمدان خوجة (200). في عهد الداي محمد بن عثمان بدأت مسألة التجارة الخارجية خاصة بعد الثورة الفرنسية، تزن بثقلها على السلطة في الجزائر عامة و بايليك الشرق خاصة. لقد ذهب ضحيتها خزناجي الداي. كانت السلطة التركية قد لجأت إلى تشجيع التصدير، تصدير الحبوب بالخصوص، لتعويض ما فقدته من مداخيل القرصنة. أمر الداي، حسب رواية الشريف الزهار، بمنع بيع الحبوب و الحيوانات للنصارى، إلاّ أن البيع كان يتم في عنابة بأمر من الخزناجي، فلما علم الداي بذلك قتل الخزناجي و عين مكانه حسن بن محمد و هو زوج ابنة القتال. لما أصبح حسن بن محمد دايا (سنة 1791)، جاء صالح باي إلى الجزائر، في سبتمبر (في نفس السنة) ليقدم الدنوش " و أتى معه بأموال لا تحصى ". وزع منها على فقراء مدينة الجزائر كما أعطى الداي " مالا كبيرا ". كانت أموال الباي " تقرب ما في خزانة الجزائر، لكن هذا الباي طالت مدته في الملك، وكان قد وقع الغلاء في برّ النصارى، و كانوا يسوقون القمح و الشعير من عنابة سنين عديدة، حتى أصبح الباي لا يقبل الدورو من النصارى ". لما همّ الباي بالعودة ألبسه الداي " عمامة مبرجة ". أدرك الباي أنها علامة قتله فهي تمثل الكفن، إلى درجة أنه أمر الزرناجي أن يضرب نغمة " لا حال يدوم " (201).

عين الداي مكانه إبراهيم بوصبع على بايليك الشرق، غير أن هذا الأخير لقي حتفه مباشرة بعد دخوله مدينة قسنطينة. لقد رفض صالح باي التنحي عن المسؤولية. أرسل الداي بايا جديدا هو حسين(الباي بوجنك) رفقة قوات من الإنكشارية تمكنت من تصفية صالح باي. غير أن الباي الجديد لم يدم عهده طويلا كذلك، فقد قتل سنة 1794، فعُين مكانه مصطفى الوزناجي الذي قتل هو الأخر سنة 1797. لقد أصبحت هذه الاغتيالات عادة في بايليك الشرق، و هي مرتبطة بمداخيل التجارة خاصة بعد أن تدخل اليهود فيها إلى جانب الفرنسيين الذين نافسوهم.

هوامش الفصل الرابع

(1) وولف. المرجع السابق ص 143 و 144.

(2) غرامون. العلاقات بين. المرجع السابق ص 343 و 344.

(3) دوساندوفال. المرجع السابق ص 444 ـ 446.

(4) كازيناف. المرجع السابق ص 293.

(5) غرامون. العلاقات بين. المرجع السابق ص 459.

(6) دوساندوفال. المرجع السابق المجلة الإفريقية عدد 16 ص 57.

(7) نفسه. ص 58.

(8) كازيناف. المرجع السابق ص 293.

(9) دوساندوفال. المرجع السابق ص 58 و 59.

(10) كازيناف. المرجع السابق ص 294.

(11) Louis RINN Marabouts et Khoun. Librairie - Edideur Alger 1884 p.351

(لويس رين. مرابطون و إخوان. المكتبة الناشرة. الجزائر. 1884. ص 351). (12) نفسه. ص 352 و 353.

(13) Djilali SARI L'Insurrection de 1881 1882 SNED .Alger 1981 P 29.

(جيلالي صاري. انتفاضة 1881 ـ 1882. الشركة الوطنية للنشر و التوزيع. الجزائر 1981. ص 29).

(14) Louis RINN. Le royaume d'Alger sous le dernier Dey. Revue Africaine N°.41.(189) p.125.

(لويس رين. مملكة مدينة الجزائر في عهد الداي الأخير. المجلة الإفريقية. عدد 41 (1897) ص 125)

(15) المدني. المرجع السابق ص 224 و 225.

(16) غرامون. العلاقات بين. المرجع السابق عدد 29 ص 9.

(17) أنظر: قنان. نصوص و وثائق. المرجع السابق ص 116.

(18) غرامون. العلاقات بين. المرجع السابق ص 10.

(19) انظر : قنان. نصوص و وثائق. المرجع السابق ص 116.

(20) غرامون. العلاقات بن. المرجع السابق ص 10 و 11.

(21) نفسه. ص 164.

(22) انظر : قنان. نصوص و وثائق المرجع السابق ص 118.

(23) انظر نصي المعاهدتين في : قنان. معاهدات. المرجع السابق ص 294 ـ 303.

(24) قايد. الجزائر تحت. المرجع السابق ص 147.

(25) قنان. معاهدات. المرجع السابق ص 111 و 112.

(26) غرامون. العلاقات بين. المرجع السابق. ص 165.

(27) نفسه. ص 166 و 167

. في سنة 1686 عين ميزومورطو ممثلا للسلطان في الجزائر بصفة باشا، و عين إبراهيم في مسؤولية الداي غير أن ميزو مورطو بقي هو الداي الفعلي.

(28) Adrien BERBRUGGER.1689 – Traité de paix avec le Gouvernement de la ville et du Royaume d' Alger.Revue Africaine N° 7 (1863).p. 433.

(أدريان بيربروجير. 1689 ـ معاهدة سلام مع حكومة مدينة و مملكة الجزائر المجلة الإفريقية عدد 7 (1863) ص 433).

(29) غرامون.العلاقات بين.المرجع السابق ص 167 و 168.

(30) نفسه ص 169.

(31) H.D.de GRAMMONT.Lettre d'Esmael Pacha à Louis XIV (1688) Revue Africaine N°28. (1884) .p.69.

(هـ.د. دو غرامون.رسالة إسماعيل باشا إلى لويس الرابع عشر (1688).المجلة الإفريقية عدد 28 (1884).ص 69).

(32) نفسه.ص 69 ـ 73.

(33) غرامون.العلاقات بين.المرجع السابق ص 170.الهامش كذلك.

(34) انظر : بيربروجير.معاهدة سلام.المرجع السابق ص 434 ـ 440.

(35) الجيلالي.المرجع السابق ص 135.

(36) دوساندوفال.المرجع السابق ص 60.

(37) الجيلالي.المرجع السابق ص 199.

(38) دوساندوفال.المرجع السابق ص 60 ـ 62.

(39) فيرو.الأحرار.المرجع السابق ص 203 ـ 206.

(40) غرامون.العلاقات بين.المرجع السابق ص 163.

(41) قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 147.

(42) غرامون .العلاقات بين.المرجع السابق ص 165.

(43) قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 149 و 150.

(44) ليسبيناس.المرجع السابق ص 146.

(45) كازيناف.المرجع السابق ص 295.

(46) قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 150.

(47) H.D.de GRAMMONT.Correspondance des Consuls d'Alger.Revue Africaine. N° 31 (1887). pp. 167 et 168.

(هـ.د.دو غرامون.مراسلات قناصل مدينة الجزائر.المجلة الإفريقية عدد 31 (1887) ص 167 و 168)

(48) قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 150.

(49) فيرو.الأحرار.المرجع السابق ص 207 و 208.

(50) انظر : غرامون.مراسلات.المرجع السابق ص 436.

(51) قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 151.

(52) فيرو.الأحرار.المرجع السابق ص 209.

(53) نفسه ص 210.

(54) قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 152.

(55) انظر : غرامون مراسلات المرجع السابق ص 457.
(56) فيرو الأحرار المرجع السابق ص 211.
(57) قايد الجزائر تحت. المرجع السابق ص152.
(58) انظر : غرامون مراسلات المرجع السابق ص 439.
(59) جوليان المرجع السابق ص 298.
(60) دوساندوفال المرجع السابق ص 64 و 65.
(61) كازيناف المرجع السابق ص 293.
(62) دوساندوفال المرجع السابق ص 65.
(63) وولف المرجع السابق ص 399.
(64) دوساندوفال المرجع السابق ص 57.
(65) كازيناف المرجع السابق ص 293.
(66) دوساندوفال المرجع السابق ص 66 و 67.
(67) المدني المرجع السابق ص 465 و 466.
(68) عبد القادر بن عبد الله بن أبي جلال الشرقي الغريسي بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر انظر :

Marcel BODIN Note historique sur les Arabes soumis aux Espagnols pendant leur occupation d'Oran par si Abdlkader El Mechrfi Revue Africaine N°.65 (1924)) pp.219 et 220.

(مارسيل بودان مذكرة تاريخية حول العرب الخاضعين للأسبان خلال احتلالهم لوهران بقلم سي عبد القادر الشرقي المجلة الإفريقية عدد 65 (1924) ص 219 و 220).

(69) انظر : محمد بن ميمون الجزائري التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية تقديم و تحقيق محمد بن عبد الكريم الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1981 ص 30

(70) A.BRBRUGGER Epitaphe d'Ousoun Hassan I conquérant d'Oran en 1708 Revue Africaine N°.9 (1865) p.123

(أ بيربروجير شاهدة قبر أوزن حسن فاتح وهران في 1708 المجلة الإفريقية عدد 9 (1865) ص 123)
(71) انظر : ابن ميمون المرجع السابق ص 31.
(72) بيربروجير شاهدة قبر المرجع السابق ص 125.
(73) قايد الجزائر تحت المرجع السابق ص 154 و 155.

(74) L.Charles FERAUD Ferdjioua et Zouar'a Notes historiques sur la province de Constantine. Revue Africaine N°.22 (1878) pp.6 et 7.

(ل شارل فيرو فرجيوة و الزواغة مذكرات تاريخية حول مقاطعة قسنطينة المجلة الإفريقية عدد 22 (1878) ص 6 و 7).
(75) فيرو فرجيوة و الزواغة المرجع السابق ص 8
(76) انظر نص الاتفاقية في : قنان نصوص و وثائق المرجع السابق 160 ـ 163.
(77) غرامون مراسلات المرجع السابق ص عدد 32 ص 60 و 61.

(78) انظر : قنان. معاهدات. المرجع السابق ص 228 و 229.
(79) الجيلالي. المرجع السابق ص 220.
(80) جوليان. المرجع السابق ص 298.
(81) غرامون. مراسلات. المرجع السابق ص 122 ـ 125.
(82) الجيلالي. المرجع السابق ص 220.
(83) غرامون. مراسلات. المرجع السابق ص 126.
(84) قايد. الجزائر تحت. المرجع السابق ص 156.
(85) الجيلالي. المرجع السابق ص 223.
(86) قايد. الجزائر تحت. المرجع السابق ص 156.
(87) الجيلالي. المرجع السابق ص 222.
(88) قايد. الجزائر تحت. المرجع السابق ص 156
(89) قايد. الجزائر تحت. المرجع السابق ص 157.
(90) انظر : قنان. نصوص و وثائق. المرجع السابق ص 163 ـ 166.
(91) فيرو. الأحرار. المرجع السابق ص 213 و 214.
(92) دوساندوفال. المرجع السابق ص 94.
(93) وولف. المرجع السابق ص 400 و 401.
(94) دوساندوفال. المرجع السابق ص 95 و 96.
(95) وولف. المرجع السابق ص 401.
(96) دوساندوفال. المرجع السابق ص 96 و 97.
(97) الدني. المرجع السابق ص 480.
(98) دوساندوفال. المرجع السابق ص 76.

(99) Don José VALLEJO.Contribution à l'histoire du vieil Oran.Traduit et annoté par Jean CAZENAVE.Revue Africaine N°.66 (1925)pp.321 – 325.

(دون جوزي فاليجو. مساهمة في تاريخ وهران القديمة. ترجمة و تعليق جون كازيناف. المجلة الإفريقية عدد 66 (1925) ص 321 ـ 325).

(100) انظر : غرامون. مراسلات. المرجع السابق ص 237.
(101) فاليجو. المرجع السابق ص 336. الهامش كذلك.
(102) فيرو. الأحرار. المرجع السابق ص 222 ـ 224.
(103) نفسه. ص 227 ـ 230.
(104) نفسه ص 230 ـ 232.
(105) نفسه ص 231 ـ 236.

(106) GUIN.Notes sur le Bey Mohammed ,dit El-Bey Debbah.Revue Africaine N°.7 (1863).p.294.

(غن. مذكرات حول الباي محمد المكنى الباي الذباح. المجلة الإفريقية عدد 7 (1863) ص 294).

(107) Mohamed Seghir FEREDJ Histoire de Tizi - Ouzou des origines à 1954 En.A.T Alger 1990 pp 34 - 37

(محمد الصغير فرج تاريخ تيزي وزو من الأصول إلى 1954 المؤسسة الجزائرية للنشر. الجزائر 1990 ص 34 ـ 37)

(108) نفسه. ص 38 و 39.

(109) نفسه

(110) Venture de PARADIS Alger au XVIIIe siècle Revue Africaine N° 41 (1897) pp 76 et 77

(فونتور دو بارادي. مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر. المجلة الإفريقية عدد 41(1897) ص 76 و 77)

(111) فرج. المرجع السابق ص 40.

(112) قايد. الجزائر تحت. المرجع السابق ص 159.

(113) دو بارادي. المرجع السابق ص 72.

(114) انظر : Albert DEVOULX Mort du Pacha Mehammed Khodja en 1754 Revue Africaine N° 16 (1872) pp 322 et 323

(ألبير دوفولكس. وفاة الباشا محمد خوجة. المجلة الإفريقية عدد 16(1872). ص 322 و 323).

(115) قايد. الجزائر تحت. المرجع السابق ص 161.

(116) روبان. المرجع السابق ص 140.

(117) قايد. القرائي. المرجع السابق ص 29 ـ 31.

(118) فيرو. الأحرار. المرجع السابق ص 342 و 343.

(119) قايد. القرائي. المرجع السابق ص 342 ـ 343.

(120) نفسه.

(121) فيرو. فرجيوة و الزواغة. المرجع السابق ص 8.

(122) فيرو. الأحرار. المرجع السابق ص 346 ـ 350.

(123) انظر : قنان. نصوص و وثائق. المرجع السابق ص 173 ـ 175.

(124) انظر : نفسه. ص 197 ـ 199.

(125) انظر : نفسه ص 193 ـ 196.

(126) غرامون. مراسلات. المرجع السابق ص 235.

(127) انظر : قنان. معاهدات. المرجع السابق ص 162 و 163.

(128) أحمد توفيق المدني. مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشراف الجزائر. الشركة
الوطنية للنشر و التوزيع. الجزائر 1974. ص 23.

(129) دو بارادي. المرجع السابق ص. المجلة الإفريقية. عدد 40. ص 260 و 261.

(130) نفسه. ص 78 و 256.

(131) Adrian DELPECH Un diplome de Mok'eddem de la confrérie religieuse Rahmania Revue Africaine N° 18 (1874) pp 418-420

(أدريان ديلبيش. إجازة لمقدم الجمعية الدينية الرحمانية. المجلة الإفريقية عدد 18 (1874) ص 418 ـ 420).

(132) رين. مرابطون و إخوان. المرجع السابق ص 356.

(133) نفسه. ص 356 ـ 358.

(134) نفسه.

(135) F.ROBIN.Les Ouled Ben Zamoum.Revue Africaine.N°.19 (1875).pp.33 et 34.

(ف. روبان. أولاد بن زعموم. المجلة الإفريقية. عدد 19 (1875) ص 33 و 34).

(136) نفسه. ص 34 ـ 36.

(137) نفسه. ص 3 ـ 39.

(138) Henri FEDERMANN , le Baron Henri AUCAPITAINE. Notices sur l'histoire et l'administration du Beylik de Titri. Revue Africaine.N°.9 (1865).p.282.

(هينري فيدرمان، البارون هينري اوكابيتان. لمحات من تاريخ و إدارة بايليك التيطري. المجلة الإفريقية. عدد 9 (1865). ص 282).

(139) روبان. أولاد بن زعموم. المرجع السابق ص 39 و 40.

(140) فيدرمان و أوكابيتان. المرجع السابق ص 285.

(141) سعيدوني. المرجع السابق ص 61.

(142) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 25 و 26

(143) Albert DEVOULX.Le registre des prises maritimes.Revue Africaine.N°.15.pp.153 – 160 et 184 -201 et364- 457 et N°.16.pp.75 – 156 et 235 -293.

(ألبير دوفولكس. سجل الغنائم البحرية. المجلة الإفريقية. عدد 15 ص 153 ـ 160 و 184 ـ 201 و 364 ـ 457 و العدد 16 ص 75 ـ 156 و 235 ـ 293).

(144) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 25.

(145) Major DALRYMPLE.Expidition d'ORELLY,1775.Revue Africaine.N°.5 (1861).pp.33 et 34

(ماجور داليرمبل. حملة أوريلي 1775. المجلة الإفريقية. عدد 5 (1861) ص 33 و 34.

(146) L.Chales FERAUD.Ephémérides d'un secrétaire officiel sous la domination turque à Alger de 1775 à 1805.Revue Africain.N°.18 (1874).p.297.

(ل. شارل فيرو. يوميات كاتب رسمي في العهد التركي في مدينة الجزائر من 1775 إلى 1805. المجلة الإفريقية عدد 18 (1874) ص 297).

(147) دو بارادي. المرجع السابق عدد40 ص 70.

(148) A.BRBRUGGER.Expédition du Conte d'OREILLY contre Alger en 1775.Revue Africaine. N°.8 (1864).pp. 185 – 187

(أ. بيربروجير. حملة الكونت أوريلي على مدينة الجزائر في 1775. المجلة الإفريقية عدد 8 (1864). ص 185 ـ 187)

(149) داليرمبل. المرجع السابق ص 34 و 35.

(150) فيرو. يوميات كاتب رسمي. المرجع السابق ص 298.

(151) ناصر الدين سعيدوني. دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر الحديث. الفترة الحديثة و المعاصرة. الجزء الثاني. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1988. ص 159.

(152) داليرمبل. المرجع السابق ص 298..

(153) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 27.
(154) سعيدوني. الجزء الثاني. المرجع السابق ص 160.
(155) دالريمبل. المرجع السابق ص 38.
(156) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 27.
(157) L.Charles FERAUD.Les trois attaques des espagnols contre Alger au XVIII siècle.Revue Africaine N°.20 (1876) pp.302 – 304.
(ل. شارل فيرو. الهجومات الإسبانية الثلاثة على مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر. المجلة الإفريقية عدد 20 (1876) ص 302 ـ 304).
(158) نفسه. ص 312 و 313.
(159) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 31 و 32.
(160) نفسه. ص 33.
(161) يحي بوعزيز. المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد (1780 ـ 1798) ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر 1993. ص 38 ـ 44.
(162) دو بارادي. المرجع السابق ص عدد 41. ص 71.
(163) كازيناف. حكام وهران. المرجع السابق ص 298.
(164) وولف. المرجع السابق ص 410.
(165) دو ساندوفال. المرجع السابق ص 288 ـ 290.
(166) نفسه. ص 291.
(167) نفسه. ص 343.
(168) نفسه. ص 344 ـ 349.
(169) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 52.
(170) A.GORGUS.Notices sur le Bey d'Oran,Mohammed El Kebir.Revue Africaine N°.2 (1857-58) pp.234 et 235.
(أ. جورجيوس. لمحة عن باي وهران محمد الكبير. المجلة الإفريقية عدد 2(1857 ـ 58) ص 234 و 235)
(171) انظر : نفسه. ص 235 و 236.
(172) الدني. المرجع السابق ص 352.
(173) دوساندوفال. المرجع السابق ص 352.
(174) كازيناف. حكام وهران. المرجع السابق ص 299.
(175) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 63.
(176) دوساندوفل. المرجع السابق ص 353 و 354. انظر الهامش كذلك.
(177) جورجيوس. المرجع السابق عدد 1 ص 405 ـ 408 و 413.
(178) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 51.
(179) الجيلالي. المرجع السابق ص 261.
(180) جورجيوس. المرجع السابق عدد 1 ص 451.

(181) نفسه. ص 412.
(182) نفسه. عدد 2 ص 237.
(183) رين. مرابطون و إخوان. المرجع السابق ص 416.
(184) ARNAUD. Siège d'Aïn – Madi par El –Hadj Abd El-Kder ben Mohi Ed-din. Revue Africaine N°.8 (1864).p.355.

(أرنو. حصار عين ماضي من طرف الحاج عبد القادر بن محي الدين. المجلة الإفريقية عدد 8 (1864) ص 355).
(185) رين. مرابطون و إخوان. المرجع السابق ص 418.
(186) نفسه. ص 418 ـ 420.
(187) جورجيوس. المرجع السابق عدد1 ص 412.
(188) رين. مرابطون و إخوان. المرجع السابق ص 420.
(189) نفسه. ص 423.
(190) سعيدوني. الجزء الأول. المرجع السابق ص 59 و 60.
(191) فيرو. بنو جلاب. المرجع السابق عدد 24. ص 109.
(192) دردور. المرجع السابق ص 142 و 143.
(193) فيرو. فرجيوة و الزواغة. المرجع السابق ص 9 .
(194) جورجيوس. المرجع السابق عدد 1 ص 451.
(195) كانت هناك خلافات شخصية بين صالح باي و قائد الحنانشة، لأن هذا الأخير (أبراهيم بن بوعزيز بن ناصر) رفض أن يزوجه ابنته.
(196) سعيدوني. الجزء الأول. المرجع السابق ص 61 و 62.
(197) نفسه. ص 68.
(198) A.CHERBONNEAU. Inscription arabe. Revue Africaine N°.3 (1858 – 59).p 469

(أ. شيربونو. تسجيل عربي. المجلة الإفريقية. عدد 3 (1858 ـ 59). ص 469).
(199) عبد العزيز فيلالي و محمد، الهادي لعروق. مدينة قسنطينة. دراسة التطور التاريخي و البيئة الطبيعية. دار البعث. قسنطينة 1984. ص 89.
(200) حمدان. المرجع السابق ص 173.
(201) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 64 و 65.

الفصل الخامس:

ازمة الحكم التركي

دخل النظام التركي في الجزائر، في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر و الثلث الأول من القرن التاسع عشر، أزمة عامة، وجدت البلاد صعوبة في تجاوزها بالسرعة المطلوبة.لقد تقهقرت القرصنة، التي كانت دعامة هامة من دعائم النظام، فلم يتمكن تعويض مداخيلها، رغم لجوئه إلى تشجيع الزراعة و التصدير الفوضوي المبالغ فيه للحبوب نحو الخارج و خاصة نحو فرنسا، الشيء الذي كان يؤدي إلى حرمان السكان من طعامهم و يثقل كاهلهم بالضرائب. هنا من جهة، من جهة أخرى لم يعد الأتراك قادرين على تجنيد السكان، بعد القضاء على الوجود الإسباني في الغرب من البلاد، و إقامة السلم مع إسبانيا. من جهة ثالثة، تحركت أوربا للقضاء على العبودية التي كان يقع فيها مواطنوها فنظمت حملات قوية ضد مدينة الجزائر.كل هذه الأمور دفعت الإنكشارية إلى التحرك للحفاظ على امتيازاتها، كما دفعت القبائل إلى التمرد على السلطة، و قد وجدت هذه القبائل قيادتها في الطرق الصوفية القديمة التي تعاونت مع الأتراك، ولكن و بصفة خاصة في الطرق الجديدة.هكذا عاشت الجزائر فترة من حركات التمرد و العصيان في الشرق و في الغرب و في الوسط، أضعفت السلطة و جعلت الجزائر لقمة سائغة للفرنسيين.

الدور التجاري والسياسي لليهود

كانت " شركة إفريقيا " الفرنسية هي صاحبة الامتياز التجاري بين "ساحل المرجان" ومرسيليا، حين أنشأ نافتالي بوجناح و يوسف بكري و أخوه يعقوب شركة تجارية سنة 1786 في الجزائر، في عهد صالح باي. هؤلاء اليهود الثلاثة من عائلتين من ليفورنا لكنهم ولدوا في الجزائر.كانت الشركة اليهودية تقوم بدور الوسيط بين الأهالي و الشركة الفرنسية صاحبة الامتياز. في سنة 1790 أنشأت الشركة اليهودية وكالة لها في عنابة.من هذه المدينة مدّت نشاطاتها إلى كل أنحاء الشرق الجزائري، منطقة الحبوب الرئيسية، و إلى تونس، حتى أصبحت تحتكر شراء محاصيل الأهالي، فتسلم جزء من مشترياتها للشركة الفرنسية وتتصرف في الجزء الباقي. بعد الثورة الفرنسية بسنة واحدة، أقرت الحكومة الفرنسية الجديدة معاهدات فرنسا السابقة مع الجزائر (في يوم 29 مارس)، كما أقرت المعاهدة الخاصة بالباستيون (يوم 23 جوان). في سنة 1792 أعلن عن قيام الجمهورية، بعد إعدام الملك لويس

الرابع عشر. و في 20 ماي 1793 أقرت حكومة الجمهورية معاهدات فرنسا مع الجزائر من جديد (1) . بقيت فرنسا محافظة بالتالي على امتيازها بخصوص الحبوب. قررت الحكومة الجديدة شراء أكبر كمية ممكنة من القمح الجزائري لمواجهة القحط الذي عم فرنسا في تلك الآونة. و لما اتضح أن " شركة أفريقيا الملكية " كانت على وشك الإفلاس و غير قادرة على تنفيذ قرار الحكومة، تقرر استبدالها سنة 1794 ب " وكالة إفريقيا ". ورثت الوكالة منشآت الشركة السابقة في القالة و عنابة و القل و سطورة و جيجل. لكن المنشأة الجديدة لم تكن قادرة على تلبية حاجات فرنسا، مثل سابقتها. لهذا رخصت الحكومة الفرنسية للشركة اليهودية بإقامة وكالة لها في العاصمة الفرنسية. من باريس مدّت الشركة اليهودية تدخلاتها إلى أماكن مختلفة بحيث غدت " وكالة إفريقيا " هي التي تدور في فلك الشركة اليهودية التي وجدت الحماية من الباي حسين بوحنك، باي قسنطينة (2). كان اليهود نشيطين جدا بفضل تجربتهم التجارية و بفضل معرفتهم لغة و عادات الجزائريين، و بفضل استمالة حكام الإيالة و ربطهم بالمصالح التجارية اليهودية و الفرنسية.

أصبح اليهود يتدخلون في الأمور السياسية الجزائرية، و لعل تدخلهم لصالح الباي الوزناجي هو أحسن مثال يوضح لنا الدور السياسي الذي أصبحوا يلعبونه في الجزائر. بعد حوالي عشرين سنة من إمارته بايليك التيطري وقع مصطفى بن سليمان المدعو الوزناجي في خلاف مع الداي. امتنع عن تقديم الدنوش، فنزع الداي المسؤولية منه و صادر أمواله و حكم عليه بالإعدام (3). تدخل نافتالي بوجناح و قدم قرضا كبيرا للباي المعزول ثم توسط له لدى الداي. عفا عنه هذا الأخير ثم عينه بايا على قسنطينة (4). ما إن استقر الباي في قسنطينة حتى شرع في تقديم الخدمات المطلوبة من الشركة اليهودية.

بعد وصول الوزناجي إلى قسنطينة (1794)، سار إلى قبيلة النهد في نواحي القل، القبيلة التي رفضت دفع الضريبة، بسبب الطاعون الذي انتشر بين أفرادها. خرب الباي دواويرها و عاقب عاصمتها القل متهما سكانها بالميل إلى حمودة باشا باي تونس. في طريق عودته، عرج على عنابة أين منع الناس من أداء الصلاة في مسجد الباي (صالح) أمر بتخريب مئذنة من مئذنتيه ثم سار بجنوده إلى دار عنابة التابعة لـ " وكالة افريقيا " الفرنسية، فأهان جنودها و عمالها من الأهالي و من الأوربيين. من هناك سار إلى قبيلة زردازة في جنوب سكيكدة، لا لأن القبيلة لم تدفع الضريبة فحسب، بل لأنها لم تسلم حبوبها لليهود كذلك. بعد أن قتل الكثير من سكان القبيلة، استولى على حبوبها و جلودها و شموعها. بعد عودته إلى قسنطينة، أعلن نفسه سمسار الشركة اليهودية و أنه الوحيد الذي يحق له شراء و بيع المحصولات. بهذه الصفة جنا هو و اليهود أرباحا طائلة. كان يشتري الكيلة الواحدة بثلاثة

فرنكات فيبيعها لليهود بـ 12 فرنكا، ليعيدوا هم بيعها في مرسيليا بـ 32 فرنكا (5).
على الرغم من أن الباي قد تخلى عن احتكاره هذا في السنة الموالية فإن الوكالة الفرنسية ظلت تتعرض لتهديداته. كانت مؤسستها في القل تتلقى تهديدات يومية من السكان إلى أن سحبت عمالها من هناك في سنة 1795 (6). و لا شك في أن الباي كان وراء تلك التهديدات. في نفس السنة مُنح الأسبان احتكار التجارة في جيجل و القل. لم تنفع شكاوي " وكالة أفريقيا " و باريس الموجهة إلى الداي للمطالبة بتأديب الباي. كان الداي حسين على خلاف مع فرنسا التي لم تدفع مؤسستها مائة ألف فرنك لبكري و بوجناح. لقد امتدت يد الباي حتى إلى حيوانات البايليك و حبوبه (7). لما وصلت الأمور إلى حد لا يطاق و حتى لا يقطع اليهود علاقاتهم بفرنسا، كان لا بد من تصفية الباي الوزناجي. قُتل يوم 25 ديسمبر 1797، بعد عودته من حملة على الحنانشة، قدمه زبائن فرنسا التجاريين و صُودرت أمواله و ممتلكاته (8). عُين مكانه الحاج مصطفى إنجليز.
في 14 ماي 1798 توفي الداي حسين. حل محله مصطفى باشا الخزناجي، ابن أخيه. بعد حوالي شهرين من تعيين الداي هذا وقعت الحملة الفرنسية على مصر. اعتبر نابوليون بونبارت العملية عملية تحرير. و حتى يجلب عطف سكان المغرب استولى و هو في طريقه إلى مصر، على جزيرة مالطة. طرد منها فرسان القديس يوحنا الذين كانوا من اكبر اعداء المغرب. مارسوا القرصنة و شاركوا في كل الحملات الأوربية على سواحل المنطقة تقريبا. لقد حرر نابوليون العبيد المسلمين الذين وجدهم لدى هؤلاء الفرسان. كما حرر العبيد المسلمين الذين وجدهم في ليفورنا و جنوة. أرسل بونبارت إلى أتراك الجزائر يخبرهم بما فعل، على أمل ألا يتخذوا موقفا مسانا للدولة العثمانية. في هذا الوقت أرسلت القسطنطينية القبطان باشا ليخبر الداي أن " الباب العالي عازم كل العزم على ردّ هذا الاعتداء " الفرنسي. مما جاء في رسالة الباب العالي: " يجب أن تلقوا القبض على القنصل الفرنسي المقيم في مدينتكم و على سائر أبناء قومه، وأن تلقوا بهم في غياهب السجن لتشعروهم باحتقاركم لهم " و أن " تسارعوا إلى المشاركة في الجهاد و تعترضوا سفن الفرنسيين الظالمين و تقاتلوها و تأسروها و تحرقوها "(9). لم يكن الداي قادرا على اتخاذ موقف يتعارض مع مصالحه و مصالح اليهود. أعلن الحرب على فرنسا في 21 ديسمبر 1798، و أخذت سفن القرصنة تهاجم السفن الفرنسية وخربت القوات التركية كل المؤسسات الفرنسية على السواحل الشرقية من البلاد منها مؤسسة القل التي عادت إلى نشاطها في نفس السنة، فاقتيد عمالها إلى مدينة الجزائر (10). هذه الإجراءات لم تكن تمس مصالح حكام الجزائر و لا مصالح اليهود، بل تخدم هذه المصالح نفسها. لقد ظل اليهود يزودون فرنسا بحبوب الجزائر بل إن جزء من تموينات جيش الحملة في مصر خرج من بلاد الجزائر، على يد اليهود. الأمر الذي أدى إلى ارتفاع ديونهم على فرنسا إلى 15 مليون فرنك أثناء

الحملة على مصر (11). لقد طالب الباب العالي بطرد اليهود من الجزائر، غير أن الداي الذي كانت له صداقة مع بوجناح غض الطرف عن هذا الطلب، بل عين بوجناح هذا سنة 1800 أمينا للطائفة اليهودية في الجزائر، بدلا من الأمين السابق إبراهيم بوشارة.

استحوذت الشركة اليهودية على التجارة الخارجية في الشرق الجزائري. لم تكن خزينة الدولة الفرنسية قادرة على الإيفاء بكل الديون التي عليها. عمدت إلى تقديم السندات للشركة اليهودية و قد جمعت هذه الأخيرة ما قيمته أكثر من ثمانية ملايين من الفرنكات في شكل سندات. عمل اليهود على إعادة العلاقات بين الجزائر و فرنسا حتى يتمكنوا من الحصول على أموالهم (12)، بعد أن استفادوا من تدهور تلك العلاقات في سنة 1800. أرسلت فرنسا، بعد عودة نابوليون من مصر، ممثلها دو بواتانفيل إلى الجزائر، و بواسطة التاجر بكري أجريت الاتصالات الأولى بين الممثل و السلطة التركية. طرحت هذه الأخيرة مسألة الاعتداء على مصر و عدم الخروج منها و قد تلقت تطمينات من الممثل الفرنسي بهذا الخصوص، كما طرحت مسألة ديون بكري و بوجناح. تعهد الممثل بتسديدها على أقساط، بمجرد انتهاء الحرب بين الطرفين. انتهت هذه الاتصالات إلى توقيع اتفاق أولي (18 جويلية 1800). لقد أثار هذا الاتفاق سخط الإنجليز الذين تدخلوا لدى الدولة العثمانية لإرغام الجزائر على الدخول في الحرب ضد فرنسا، و كان في هذه الآونة وفد جزائري في القسطنطينية، يقوده وكيل الحرج فأوقفته السلطات العثمانية كما أوقفت الرعايا الجزائريين الموجودين في أقاليمها و حجزت ممتلكاتهم. في الوقت نفسه تحرك المعادون للاتفاق مع فرنسا في الجزائر و كان لهم وجود حتى في الديوان. غير أن عودة الوفد من عاصمة الدولة العثمانية و موقف الداي الحازم جعل المحاولة تؤول إلى الفشل. فأبرمت معاهدة مع فرنسا في ديسمبر 1801 (13). أوقفت هذه المعاهدة الحرب بين البلدين و كذلك أعمال القرصنة، و نصت على إعادة امتيازات " وكالة أفريقيا " و إعادة عقاراتها و سلعها التي استولت عليها السلطات التركية، كما أعفيت من دفع اللزمة لمدة سنة (14).

جاءت هذه المعاهدة في جو من التهديدات العثمانية التي تضمنتها رسالة القبطان باشا، في 24 فيفري 1801، مما جاء فيها : " إنكم أطلقتم سراح القنصل الفرنسي بعد اعتقال دام شهرا واحدا، و أن قراصنتكم لا يعاملون السفن الفرنسية على غرار ما تقوم به سفن الباب العالي، بل أنكم تبقون عليها و لا تهاجمونها على الإطلاق، و أكثر إنكم تضايقون رعايا الباب العالي و تعتدون عليهم على الرغم من أنكم، أنفسكم ولاته " كما جاء في الرسالة أيضا : " ليكن في علمكم أننا أرسلنا أوامر إلى جميع المناطق بألاّ تزود الإيالة بالأجناد، و بأن تقبض على كل سفينة من سفنها التي تقصد موانئ البحر المتوسط و تزج بقبدانها في غياهب السجن " (15). هذه التهديدات لم تمنع داي الجزائر من أن يعمل كل ما من شأنه أن يحسن علاقاته بفرنسا. أطلق

سراح جميع الأسرى المسيحيين الذين كانوا عنده، كما سرح كل السفن الإيطالية و أعدم من اشتكى منهم الفرنسيون من موظفيه. في رسالة له إلى بونابرت مؤرخة 13 أوت 1802، عدد الداي كثيرا من الإجراءات التي اتخذها تلبية لرغبة فرنسا، منها أنه أصدر أمر إعدام الرايس علي تاتا، إلاّ أن الوكيل الفرنسي هو الذي عفا عنه، و أنه أطلق سراح طقم قارب نابولسي، و أنه عزل رايسا آخر.(16).

حاولت السلطات الفرنسية إعادة تنظيم المنشآت التابعة لـ " وكالة إفريقيا " غير أنها فشلت في إنشاء شركة جديدة، في الوقت الذي حصل فيه اليهود على إضافة نشاط جديد إلى نشاطاتهم السابقة في ميدان التجارة. هذا النشاط الجديد هو استغلال غابات ناحية بجاية و احتكار التجارة التي تتم مع الأهالي في هذه المدينة مقابل التزام اليهود بدفع إتاوة كبيرة للداي (17).

رغم الاتفاق، لم يطبق نابوليون ما وعد به. لهذا تدهورت علاقات الجزائر بفرنسا، ثم انقطعت سنة 1807، حين استولى الداي من جديد على المنشآت الفرنسية و طرد القنصل الفرنسي. ظلت الوضعية على تلك الحالة إلى سقوط نابوليون نفسه (18) سنة 1815. كان نابوليون يحضر لاحتلال مدينة الجزائر و إنهاء نظام هذه المدينة، فأرسل بعثة بوتان سنة 1808. لقد جاب ضابط الهندسة المدنية، بوتان هذا، سواحل الجزائر و فحص دفاعات العاصمة، و بحث عن أفضل المواقع لإنزال عسكري. وجد أن شبه جزيرة سيدي فرج هي أحسنها. حُفظت تقاريره إلى أن استعملت في حملة 1830.

كانت هزيمة ترفالغار التي مُنيت بها البحرية الفرنسية أمام البحرية الإنجليزية بالقرب من جبل طارق قد خربت أسطول فرنسا و تجارتها، فأصبحت إنجلترا سيدة البحار. منحت الجزائر امتياز صيد المرجان للإنجليز لمدة 10 سنوات، مقابل 267 ألف فرنك سنويا، غير أنهم لم يستفيدوا كثيرا من هذا الامتياز. مع سقوط نابوليون أخذت فرنسا تستعيد نفوذها في الجزائر (19).

لم يقتصر دور اليهود على التأثير في العلاقات بين فرنسا و الجزائر فحسب بل أثر في العلاقات الجزائرية - الإنجليزية كذلك. لقد تدخل الداي في خلاف بين بكري و بوجناح من جهة و التجار الإنجليز من جهة أخرى، و طرد القنصل الإنجليزي السيد فالكون في سنة 1802. فلجأ اللورد نيلسون إلى قصف مدينة الجزائر في جانفي 1804 ليطالب بإعادة القنصل فورا. رفض الداي الطلب. ذهب اللورد ثم عاد عدة مرات، إلى أن قبل الداي ذلك في سنة 1806. استقر القنصل الإنجليزي، بلانكي، في المدينة من دون مضايقة (20).

هذا على المستوى الخارجي، على المستوى الداخلي كانت الجزائر في هذه الأثناء تعيش وقع حركة تمرد واسعة النطاق في الناحية الشرقية.

تمرد ابن الأحرش

عرفت الجزائر في مطلع القرن التاسع عشر حركات تمرد في الجهتين الشرقية و الغربية، قادتها الطريقة الدرقــاوية. و كانت هذه الحركات أن تــأتي على الســلطة التركية. تفرعت الطريقة الدرقــاوية عن الطريقة الشاذلية القديمة التي ظهرت في المغرب قبل مجيء الأتــراك، و تفرعــت عنهــا الكــثير مــن الطــرق. احــتفظ اتبــاع الشــاذلية في الجزائــر بالاسم القديم، الشاذلية، أما أتباعها في المغرب الأقصى فقد نسبوا أنفسهم إلى الطريقــة الدرقاويــة، و أخذ أتباعها في طرابلس اسم الطريقة المدنية. على الرغم من هذا الانقسام ظلت هذه الطريقــة محتفظة بنفس قواعد الشاذلية (21).

تنسب الطريقة الدرقاوية إلى مولاي العربي بن أحمد بــن الحســن الــدرقاوي الــذي كــان يقيم لدى بني زروال في المغرب الأقصى، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. و قد أخذ اسمه من أحد أسلافه الأشراف يعــرف باســم يوســف أبــي درقــة (بمعنــى صــاحب الســيف) (22). كان أتباع الطريقة الدرقاوية في الجزائر من الأوســاط " الشعبية " و كانت مراكزها الرئيسية توجد في ناحية وهران و الجنوب من التيطري (23). و هي أكثر الطرق شعونة و تزمتا و عنفا و معاداة للحضارة الغربية. امتــد نفــوذها إلى تــوات القــرارة و حتــى إلى النيجــر (24). يتميــز أتباعهــا بــاللحى الطويلة و ارتداء الخرق والعقد، المشكلة من حبات خشــبية كــبيرة، و حمــل العصــا. اشتهر كــل درقاوي باســم " بودربالة " أكبر الحركات التمردية، التي كان على رأسها درقاويون، ضد الأتراك هي الحركة التي قادها ابن الأحرش في الناحية الشرقية و الحركة التي قادهــا عبــد القــادر بــن الشريف الــدحلي في الناحية الغربية.

تنسب الروايات ابن الأحرش (أو ابن الهرش)، المعروف باسم ابن عبد الله البودالي، إلى المغرب الأقصى. أما هو فقد ادعى أنه مــن الأشــراف، غير أن هــذه النســبة لا شــيء يثبتهــا. إن النسبة إلى المغرب لا " تعني قطعا أنه من تلك البلاد، فقد جرت العادة في الفترة الإسلامية وحتى أوائل عهد الاحتلال (الفرنســي) أن كــل غريــب يــدعي النســب الشــريف و يــدعو إلى طريقــة سلفية، و ذلك حتى يكسب لنفســه مكانــة فــي أعــين العامــة و يســبغ علــى حركتــه نوعــا مــن المهابة، و يبعد عن نفسه الانتماء الجهوي، أو الانتســاب القبلي الذي يتسبب في حدوث المنافسات و العــداوة بين القبائل المختلفة " (25).

عند عودته من مكة، بعد أدائه فريضة الحج، صادف ابن الأحرش الحملة الفرنسية على مصر، بقيادة نابوليون بونبــارت. فشــارك في مقاومتهــا مــع جماعــة مــن أهــالي المغــرب الأقصى والجزائر، إلى جانب الجيش المصري، فأظهر شجاعة و بلاء، الشــيء الــذي أكســبه شــهرة. و لما

تدخل الإنجليز و عادت الحملة الفرنسية قفل الشريف بن الأحرش راجعا مع جماعة من الحجاج. في تونس تعرف على حمودة باشا، باي تونس الذي أكرمه و أوعز إليه بمحاربة أتراك الجزائر و وعده بالدعم، كما يذكر الشريف الزهار (26). حسب روايات أخرى فإن الأنجليز هم الذين شجعوه على العودة و أعطوه بندقية حديثة تطلق ثلاث طلقات دون تعمير (27). هذا ما تذهب إليه المعلومات الفرنسية التي تقول أن الإنجليز هم الذين دفعوا الحاج محمد بن الأحرش لتنظيم التمرد على الأتراك في الجزائر (28). لكن فيرو لم يكن يرى في حركته سوى عملا من أعمال المرابطين و لا تحتاج لدفع من الخارج (29)، غير أنه تراجع فيما بعد ليعترف بالدور الخارجي الإنجليزي، في مقالته التي نشرها في المجلة الإفريقية (المجلد 13) لا بد من الإشارة هنا إلى أن السلطة في الجزائر، التي لم تلب دعوة الدولة العثمانية للوقوف في وجه فرنسا في مصر تلبية كاملة، كانت على خلاف مع الإنجليز الذين كانوا يسعون لإقامة قاعدة لهم في الجزائر ، و مع الدولة العثمانية و حتى مع تونس، بسبب مشاكل الحدود، فلا يستبعد أن تكون هذه الأطراف كلها قد شجعت ابن الأحرش. لكن الظروف في الداخل كانت مواتية، خاصة بعد تمرد منطقة الأوراس منذ **1802**، حيث حاولت قبائل المنطقة الوصول إلى الجهات الشمالية من القاطعة الشرقية، فعمل الباي عثمان بن محمد الكبير على قمعها منذ وصوله إلى قسنطينة بايا، في ماي **1803** (30).

بعد أن نزل ابن الأحرش في تونس انتقل إلى قسنطينة التي أقام فيها بعض الوقت ثم انتقل إلى جيجل، حيث توقف بعض الوقت لدى قبيلة بني أحمد، ثم قدم نفسه كـ (ضيف ربّي) يبحث عن مأوى في جامع سيدي الزيتوني، الذي كان يقع بالقرب من سور مدينة جيجل. كانت أحاديثه عن حرب مصر تجذب إليه سكان المدينة. استغل الفرصة لتحريض الناس ضد الأتراك و دعوتهم لمحاربتهم كما حارب المصريون الفرنسيين. لما ازدادت شعبيته اضطرت حامية جيجل للانسحاب من المدينة فأصبح يتصرف كالملك. أخذ يجمع الضرائب و عين مساعدا له لقبه آغا جيجل و هو من عشيرة بني قايد (انظر الخريطة)، يعرف باسم حمزة بن حمادوش. بدأ ابن الأحرش يستعد للحرب. نظم الدفعية و وضع على رأسها أحد الكراغلة، يعرف باسم أحمد بن درنالي، ثم شرع في أعمال القرصنة. غير أن هذا النشاط لم يؤد إلى نتيجة كبيرة و اقتصر على استيلائه على أربع سفن في طبرقة تابعة لإيطاليا. استعبد طواقمها التي كانت تتكون من حوالي أربعين شخصا. اعتقد البعض أن هؤلاء الأسرى كانوا من الفرنسيين و من هنا اعتقدوا أن نابوليون هو الذي حرك التمرد، و أن أحد اخوته كان على رأس المتمردين. ترك ابن الأحرش المدينة تحت


البحر الأبيض المتوسط
القل
أولاد عطية

قيادة الآغا حمزة بن حمادوش، و أخذ يجوب القبائل.كانت محطته الأولى جراح في وادي الزهور، أين أمر بإنشاء مجموعة من المساكن شكلت فيما بعد قرية كان خرابها لا يزال قائما في النصف الثاني من القرن الماضي.في جراح تزوج فتاة جميلة، اسمها يمينة بنت حوطة، عنوة لأن والديها رفضا طلبه يدها، و قتل قائد المنطقة، سي محمد الغوشي، الذي حاول أن يؤلب الناس عليه.كان الناس يأتونه، في جراح، من قسنطينة و عنابة و سطيف و بجاية.يحتمل أن يكون اتصل في هذه الآونة بالمرابطين الزبوشي و ابن بغريش و مولى الشقفة. في جراح أعلن نيته في الاستيلاء على مدينة قسنطينة (31).كان يقول لاتباعه: " لنسر إلى قسنطينة ! حين ندخلها ننهبها فتصبح ثروات سكانها ثرواتنا و بيوتهم بيوتنا " (32).

توسع نفوذ ابن الأحرش بسرعة ليشمل قبائل الوادي الكبير، بين جيجل والقل وميلة، خاصة بعد ان أيده المرابطون من امثال الزبوشي الرحماني وابن بغريش و مولى الشقفة.أخطر هؤلاء هو الشيخ سيدي عبد الله الزبوشي، الذي يعتبره فيرو من المحرضين " الرئيسيين على التمرد ".كان الزبوشي مرابط ميلة يحرض الناس ضد الأتراك، منذ ما قبل مجيء ابن الأحرش. لهذا السبب لجأ عثمان باي الأعور إلى إلغاء إعفائه من الضريبة. و كان الزبوشي يتمتع بهذا الإعفاء مثل باقي المرابطين.سار الزبوشي إلى قسنطينة ليحتج على هذا الإجراء المخالف لحق مقدس، و لما لم يسمع إليه أحد انسحب إلى قبيلة أرآس على الضفة اليسرى للوادي الكبير، مقدما نفسه باعتباره أحد المضطهدين من السلطة التركية، و شرع في نشاط مكثف ضدها في سرية تامة. و لما ظهر ابن الأحرش على الساحة كتب إليه و انضم إلى حركته (33).يبدو أن الزبوشي هو الذي حرض باقي مرابطي المنطقة و خاصة مولى الشقفة، مرابط بني يدر، و لا بد من أن نذكر هنا بأن خلافات المرابطين مع السلطة في قسنيطنة قد ظهرت منذ صالح باي كما رأينا سابقا.

هكذا يتضح أن حركة ابن الأحرش التمردية تزعمها المرابطون، فأخذت طابعا مقدسا.لقد زعم ابن الأحرش " أنه صاحب الوقت، و أن دعوته مستجابة و النصر يتبعه حيثما توجه، و بارود عدوه لا يضره و لا يصيب أتباعه، بل يرجع لديهم ماء، إلى غير ذلك من الأدعوات الكاذبة، و على كل حال فقبائل تلك الناحية كأولاد عيدون و بني مسلم و بني خطاب و غيرهم صدّقوه و لدعوته استجابوه "، كما يقول العنتري (34).

أخبر عثمان باي قسنطينة داي الجزائر مصطفى باشا بالوضعية الناتجة عن وجود إبن الأحرش، فأرسل هذا الأخير مراكب رست في مرسى الزيتون شرق مصب

وادي الزهور بقليل،لكن الأتراك لم يتمكنوا من إلقاء القبض على قائد التمرد و لا من استمالة السكان الذين رفضوا تسليمه،فعادت المراكب إلى الجزائر.استولى ابن الأحرش على القل،بعد أن انسحب الأتراك منها،و لما عبّر عن نيّته في الاستيلاء على عنابة انسحبت حاميتها إلى قسنطينة (35).

سار ابن الأحرش إلى قسنطينة،في ربيع 1804،على رأس آلاف من مقاتلي القبائل. كان عددهم يزداد كلما تقدم من هدفه،من بوغيول،لدى أولاد بلعفو،إلى بني مسلم،إلى أولاد عيدون،إلى صفيصفة لدى قبيلة موية،وصل إلى سيدي محمد الغراب بالقرب من مدينة قسنطينة (36). اشتبك هناك بقوات قسنطينة التي كان يقودها قائد الدار الحاج أحمد بن الأبيض،لأن الباي كان غائبا.لما وجدت القوات التركية صعوبة في المقاومة انسحبت إلى المدينة (37).حين بلغ المهاجمون أسوار المدينة نادوا سكانها : " ها هو الشريف جاء ليهاجمكم بخيالة عديدين و مشاة لا يحصى لهم عدد،لن تستطيعوا المقاومة فسلموا أنفسكم إذن،و لن يلحقكم أي أذى،وإلاّ فإننا سنقتلكم جميعا حين ندخل بالقوة ". رد سكان قسنطينة: " لن نسلمكم مدينتنا ".بدأ الهجوم و تمكن ابن الأحرش من السيطرة على جزء من الحي الموجود في أسفل الكدية عاتي (38). كاد أن يقتحم المدينة لو لم ينشغل أتباعه بتدمير إصطبلات الباي و إضرام النار في المنازل بناحية باردو و نهب الفنادق والاستيلاء على ما فيها من ملابس. شرعت المدينة في قصفهم. سادت الفوضى وسقط الكثير منهم،الأمر الذي سمح لقائد الدار و الشيخ سيدي محمد الفقون بالخروج لمواجهتهم،و كان شيخ فرجيوة مصطفى بن عاشور إلى جانب القوات التركية.لقد تمكن المدافعون من رد المهاجمين على أعقابهم فانسحبوا بعد أن فقدوا ما يقارب مائتي رجل (39).

تقول بعض الروايات أن ابن الأحرش جُرح فنقل إلى بني فرقان ليعالجه أحد المشتغلين بالطب من جيجل يسمى ابن سي إبراهيم (40).لما عاد الباي عثمان إلى قسنطينة،أرسل إلى الداي يطلب الأوامر و الإمدادات،غير أن الداي ردّ عليه :" إنك في بايليك،فافعل ما هو ضروري للحفاظ على الطاعة و القبض على الشريف أو قتله أو طرده "،و أرسل إليه الإمدادات (41).جهز عثمان باي حملة قوية تتكون من أربعة آلاف مقاتل من الانكشاريين و من الزواوة المشاة و أربعة مدافع و 3500 فارس من قبائل دريد،التلاغمة،أولاد عبد النور،الزمول،أولاد عنان و ريغة سطيف و غيرها.سار في حوالي شهر أوت سنة 1804 فخيم في اليوم الأول في

الأصناب (موية) في اليوم الثاني خيم في الغزالة، و في اليوم الثالث في العديد من قرى أولاد عيدون اضطرت هذه الأخيرة و قبائل العشايش، بني قايد، بني خطاب و مشاط إلى إعلان استسلامها (42). في الميلية علم الباي، من مرابط بني صبيح، و هو ابن غريس، أن الشريف انسحب إلى بني فرقان، فسار إليه آغا الدائرة و عدد هام من العساكر المشاة و الخيالة، و لما بلغ خناق عليوة (أو عليهم)، علم ان أولاد عطية جاءوا لزيارة الشريف فأخذوه معهم. في هذا الخناق طُوقت قوات الآغا من طرف عدد كبير من المتمردين. تراجع الآغا لكنه حُوصر في بني مسلم من جميع الجهات، مدة أربعة أيام. و تمكن مقاتلان من دريد من الفرار و بلوغ معسكر الباي. سار الباي بدوره إلى المكان، على رأس جزء من قوات العسكر و من مقاتلي بني حبيبي. شتتت شمل المحاصرين بالمدفعية. انقذ بذلك العدد القليل من الجنود الذين ظلوا على قيد الحياة، لكن الباي أحيط في حروس ببني مسلم من طرف عدد كبير من القاتلين، من أولاد عيدون و مشاط و العشايش و غيرهم فلم يبق له سوى معبر واحد هو معبر لغدار، و هو مستنقع كبير و عميق. سار فيه الباي و جنوده فمات الكثير منهم في الأوحال. هنا قُتل الباي كذلك، و تشتت الجنود الباقون في كل الاتجاهات، تاركين أسلحتهم وراءهم. لما هوجم الجنود الموجودون في المعسكر غادروه فاستولى المتمردون على كل عتاد الحملة (43)." و غنموا أموالا لا تحصى لأن الباي عثمان لم يترك شيئا بخزينة قسنطينة و حمل جميع ما فيها من الأموال و تركها خاوية على عروشها " كما يقول الشريف الزهار(44). و تذكر الرواية أن الزبوشي رفس بقدمه على عين الباي العوراء، فحقق بذلك ما كان يَعدُ به أنصاره. لقد بقيت جثة عثمان باي في العراء مدة خمسة أيام، إلى أن أخذها أهل لعرابة من أولاد عوّاط فدفنوها (45).

في هذه الأثناء أمر الداي قبطانه الرايس حميدو بالسير إلى جيجل مع عمارة صغيرة متكونة من أربعة مراكب حربية. ففعل، و لما وصل قبالة المدينة طلب من السكان أن يسلموه الشريف و الكرغلي درنالي لكن السكان ردوا عليه بإطلاق النار، أما درنالي فقد فرَّ إلى المناطق الجبلية. على الفور أخذ حميدو يقصف المدينة، لكن هذا القصف لم يحدث أضرارا كبيرة. أضرم النار في سفينة تابعة لدرنالي و غادر المدينة (46).

كان غضب الداي شديدا، لما علم بخبر مقتل الباي و همّ بالسّير بنفسه إلى الشريف، إلاّ أن حاشيته أقنعته بالعدول عن ذلك. أرسل الحاج علي آغا ليرافق الباي الجديد، عبد الله خوجة. لقد وجد هذا الأخير قسنطينة في مجاعة شديدة

(47). كان لعبد الله زوجة هي الدايخة بنت بن قانة شيخ العرب، فلما وصل إلى قسنطينة كاتب أصهاره و جميع الرعية و " ساير كبراء العرب و اجتمع لديه أهل المخزن " (48). فكوّن بذلك جيشا التقى به بابن الأحرش في ميلة وقتل 75 رجلا من أنصار المتمرد و ثلاثة مسيحيين (49) من أسراه. إن نشاط الباي الجديد قد " ضيق عليه البلاد "، كما يقول الشريف الزهار. تخلى السكان عن ابن الأحرش فاختفى و لم يظهر إلا في فيفري 1806 محاولا استنهاض قبائل جبال بجاية.

تخلى سكان جيجل عن بودالي و أوفدوا أعيانهم إلى مدينة الجزائر، تحت قيادة المرابط سي محمد أمقران، فحصلوا على عفو الداي. نقلهم الرايس حميدو إلى مدينتهم التي ترك عليها حامية جديدة من 40 انكشاريا (50). أما الشريف فقد انتقل إلى وادي الساحل، و من هناك أقام علاقات مع المرابط ابن بركات من أولاد دراج، و أمكن له أن يحرك قبائل العاضيد و عياد و أولاد خلوف و أولاد إبراهيم و أولاد تبان. و قد أرسلت إليه هذه القبائل كلها مقاتلين. لكن القرانيين أسياد مجانة و قادة آخرين وقفوا في وجهه إلى جانب الأتراك. لقد هُزم في بني مغريس و سطيف أولا، ثم انتقل إلى أولاد خلوف فهُزم مرة أخرى في رابطة. و كانت رابطة آخر المعارك، التي تفرق بعدها أنصار ابن الأحرش. خمدت الحركة في الشرق(51). لعل أهم نتيجة لحركة ابن الأحرش في منطقة القبائل هي عودة وحدة القرانيين الذين كانوا منقسمين على أنفسهم قبل أن يظهر بودالي في منطقتهم.

يروي فيرو أن ابن الإحرش قُتل في معركة رابطة (52) غير أننا نجد الكثير من الذين اهتموا بهذا الموضوع يؤكدون على وفاته أو اختفائه بعد مشاركته في حركة درقاوة في الناحية الغربية من البلاد. فهذا ناصر الدين سعيدوني يورد أن ابن الأحرش يظهر من جديد في صفوف ابن الشريف عبد القادر الدرقاوي بالغرب و يخوض إلى جانبه معارك ضد الأتراك، منها معركة جديوية و معركة " يوم ابن الأحرش " التي يختفي بعدها (53). هذا ما ذهب إليه كذلك صاحب " تحفة الزائر " الذي يؤكد أن البودالي بقي إلى جانب ابن الشريف إلى أن دس له من قتله (54). أما حليفه السابق الزبوشي، فقد توفي سنة 1810 و دفن في زاوية رجاص غير بعيد عن ميلة (55).

في سنة 1809 ظهر محرض آخر لدى بني عمران، ادعى انه ابن أخ أو أخت بودالي، لكن أولاد بلعوف هددوه بتسليمه للحامية التركية في جيجل، فلاذ ببني عيشة، أين اختفى مدة ثم ظهر من جديد و أخذ يجوب القبائل محرضا إياها على الجهاد. فأرسل الداي علي بن خليل إلى المرابط محمد أمقران و إلى وجهاء جيجل

يطلب منهم أن يلقوا القبض عليه و أن يرسلوه إلى الجزائر فهو من " المفسدين الضالين المضلين " ، يقود الناس إلى " الفساد و الضلال و يوصلهم إلى الهلاك دنيا وآخرة "،كما يقول الداي. كلف المرابط شخصين قاما بقتله،فكافأهما الداي و كذلك المرابط (56) بمقتل هذا المتمرد الجديد تنتهي اضطرابات الجهة الشرقية،لكن آثارها كانت كبيرة،إذ زعزعت السلطة التركية في المناطق الجبلية الواقعة شمال قسنطينة،فاختفت تقريبا إلى أن سقطت الجزائر بيد الفرنسيين.

المجاعة و مقتل الداي مصطفى باشا

أثناء حركة ابن الأحرش عرفت الجزائر مجاعة كبيرة. يرى صالح العنتري أنها نتجت عن الاضطرابات التي انجرت عن الحركة في الجهة الشرقية من البلاد لما مات عثمان باي " و تلفت خزائنه و كل ما احتوت عليه محلته من أرزاق و مال و نحو ذلك، وهاته الواقعة مشهورة بوادي زهور و جلبناها هنا لما إنها أحد الأسباب التي نشأت عنها المجاعة و قلة الحبوب من كبير الهول و اضطراب الرعية بموت الباي و تشتيت أهل محلته فإن أهل الأعراش قاموا على بعضهم بعضا بالنهب و الفساد و من أجل ذلك الاضطراب انعدمت الحراثة في تلك السنة أيضا في جهات كثيرة،و انفقدت حبوب الزرع بقيام ذلك الهول،و عزّ إخراجها و قل من يأتي للأسواق مخافة الطرقات وقتئذ" فحصلت للناس شدة و مجاعة قد أشرف فيها الضعفاء على الهلاك خصوصا بعض نواحي القبلة فإنهم شتتوا عن منازلهم و تفرقوا بسبب الهول الواقع في وطنهم مع الشر و المصائب التي حلت به من قبل أن ييبس الزرع،و عدم الحرث،نزول الفتن إلى غير ذلك مما قد تم ذكره،حتى صاروا يقتاتون الدم و الميتة " (57).أما فايسات،الذي اهتم بوضعية الجهة الشرقية من البلاد،فإنه يضيف إلى ما ذكره العنتري سببا آخر يتمثل في التصدير الكبير للحبوب من طرف اليهوديين بكري و بوجناح،و كان مصطفى باشا قد أمر البايات بتسليم كل الاحتياطات من القمح لليهود(58).لقد أتت هذه المجاعة على الداي نفسه و على بوجناح.

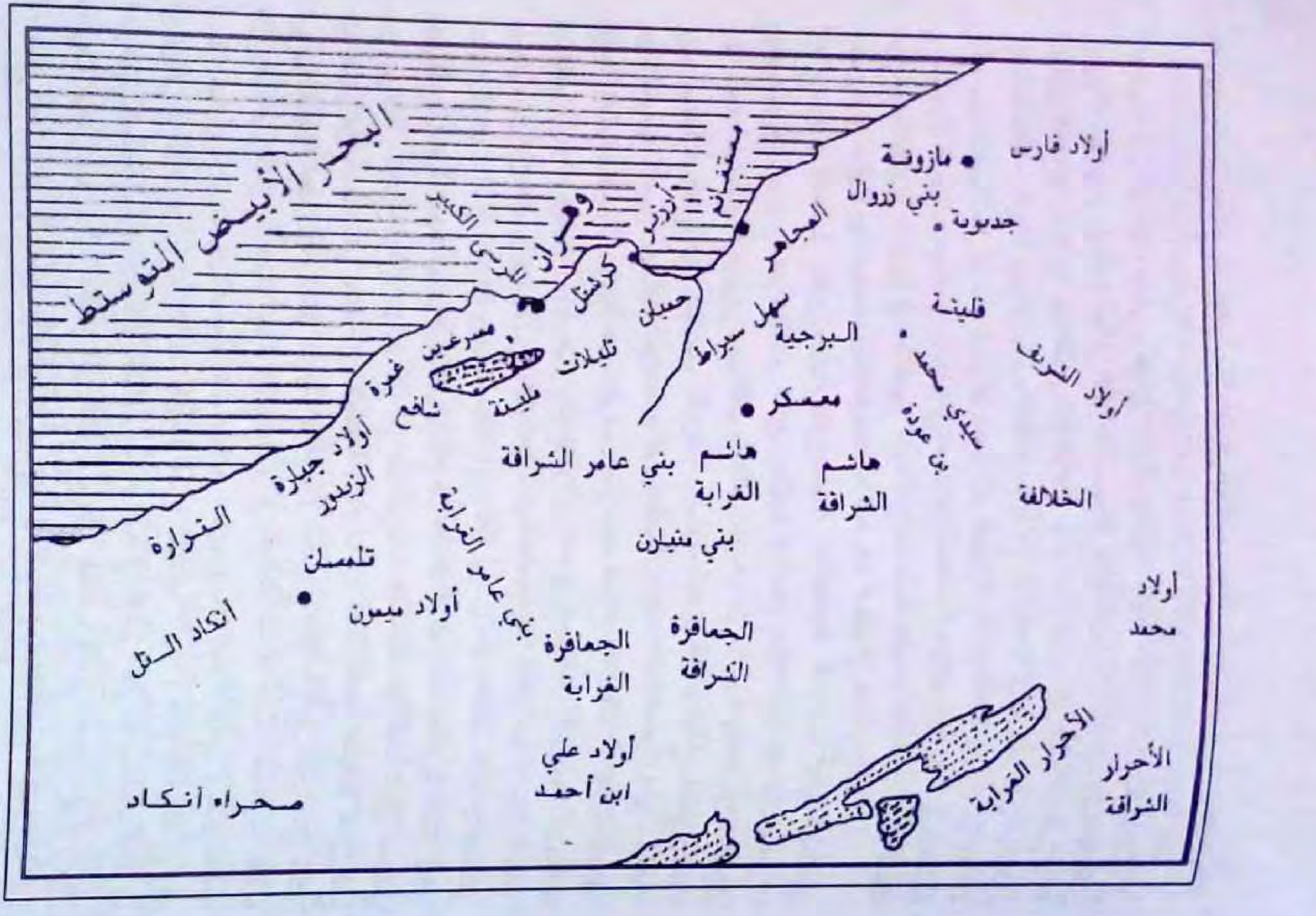
في 28 جوان من سنة 1805،تحركت الإنكشارية ضد اليهود،و تمكن أحد جنودها يدعى يحي من اغتيال نافتالي بوجناح. في اليوم التالي توسعت الحركة و قتل من اليهود 10 أشخاص،كما قُتل أزيد من ثمانين شخصا من غيرهم (59). حاصرت الإنكشارية التي انضم إليها السكان الداي مصطفى باشا،فوعد بطرد اليهود كلهم من البلاد،و شرع في تنفيذ وعده بطرد ثلاثمائة عائلة إلى تونس و ليفورنا،كما حجز

ممتلكات بوجناح، إلاّ أن الإنكشارية ألقت القبض عليه ثم اغتالته (60). عينت مكانه أحمد خوجة الذي كان قد عُزل من وظيفته. يقول حمدان خوجة أن أحمد خوجة هو الذي دبّر مؤامرة اغتيال الداي، إذ هو الذي كان يهتف في كل مكان بسقوط الداي (61). وزع الداي الجديد القمح " لجميع العسكر المتزوجين " و" اطلع على ما في الخزينة فرأى أن يبيع جميع ما بها من مصوغ و حجر كريم و جوهر و فرق ذلك على السماسرة، ينادون به في الأسواق، و باع من ذلك شيئا كثيرا، و حصل للناس من ذلك ربح كبير، و بقي على ذلك الحال أياما، ثم أرجع الباقي للخزنة لأنه شيء كثير " (62). و " لمكافأة الميليشيا رفع أجور أفرادها. و لكنه عزل و قتل البايات للاستيلاء على أملاكهم و ثرواتهم " (63). لكن أحمد خوجة كان مصيره مثل مصير سابقه.

تمرد درقاوة في الناحية الغربية

في هذه الآونة تمردت موزاية، فأرسل الداي الجديد حملة ضدها، قتل المتمردون عددا كبيرا من جنودها، إلى أن اضطر الداي إلى التفاوض. توسط سيدي محي الدين بن سيدي علي مبارك بين المتحاربين (64). هذا المرابط هو مرابط القليعة، الذي سوف يعينه الفرنسيون آغا العرب، بعد احتلالهم مدينة الجزائر. كان هذا التمرد هينا بالمقارنة لتمرد الناحية الغربية بقيادة درقاوة.

كان بايليك الغرب، في مطلع القرن التاسع عشر مسرحا لحركة تمردية واسعة النطاق. بدأتها قبيلة أنكاد سنة **1802**، ثم واصلتها طريقة درقاوة. في صيف هذه السنة، و في الوقت الذي شرع فيه إبن الأحرش في تحريك الشرق الجزائري، تقدم عبد القادر بن الشريف الساحلي، الملقب بالدرقاوي، و هو من القبيلة المرابطية أولاد عبد القادر أبي الليل (65)، إلى قبائل الجنوب الوهراني حاملا (حجابا) من شيخ الطريقة الدرقاوية بالمغرب الأقصى مولاي العربي و أخذ يحرض على الحرب ضد الأتراك، فتجمع حوله مشاة و فرسان. لما بلغ عددهم حدا كافيا عسكر بهم في البطحاء، عند منبع وادي مينا، بالقرب من تاكدمت و أعلن العصيان . سار إليه الباي مصطفى المزالي باي وهران بكل ما أوتي من قوة. التقى به في فرطاسة، عند التقاء وادي مينا و وادي العبد يوم **4** جوان **1805** (قبل مقتل الداي مصطفى). كانت المباغتة في صالح الشريف الدرقاوي، كما كان العدد في صالحه، فأمكن له أن يشتّت شمل القوات التركية. فرّ جنودها، كما فرّ الباي نفسه إلى معسكر تاركا جنوده في فوضى عارمة. استولى ابن الشريف على معسكر (مخيم)


البحر الأبيض المتوسط
المرسى الكبير
وهران
أرزيو
مستغانم
العجامر
مازونة
أولاد فارس
بني زروال
جديوية
قلينة
سهل سيراط
البرجية
حبلن
تليلات
مسرغين
غمرة
شافع
مليتة
أولاد جبلارة
الزبدور
التراوة
تلمسان
أولاد ميمون
بني عامر الغرابة
بني عامر الشرافة
معسكر
سيدي محمد بن عودة
أولاد الشريف
هاشم الغرابة
هاشم الشرافة
الخلالفة
بني مثيلان
الجماقرة الشرافة
الجماقرة الغرابة
أولاد علي ابن أحمد
أولاد محمد
الأحرار الغرابة
الأحرار الشرافة
صحراء أنكاد

الباي بما فيه. و في 6 جوان دخل الباي مدينة وهران (66). بفضل هذا الانتصار انضمت الكثير من القبائل إلى ابن الشريف الدرقاوي،الذي فتحت له مدينة معسكر أبوابها. قرر الاستيلاء على وهران. قبل أن يتحرك إليها انشغل بإقامة عائلته في مدينة معسكر،و مكاتبة أنصار الأتراك يدعوهم للالتحاق به. التحقت به بالفعل قبائل المخزن التركي،من الغرابة و الزمالة و الدواير و غيرها،لكن البرجية رفضت ذلك. سار إلى وهران ببطء ناهبا سالبا كل ما يجده في طريقه دون أن يلتزم بأي وعد قطعه على نفسه. قبل أن يصل إلى المدينة، كانت أخبار مسيرته قد وصلت إلى الجزائر حيث كان لها وقع الصاعقة.تمكنت وهران من تحضير نفسها لمواجهته. شارك الجميع في التحضير لهذه المواجهة،الجنود و السكان. لما وصلها الدرقاوي حاول أن يقتحمها مرات عديدة غير أنه فشل في مسعاه (67).

بفعل الحصار الذي ضربه على المدينة " انقطعت الطرق،و وقع الغلاء في الحبوب في المدن و غيرها.. و صاروا يأتون بالقمح من الجزائر من البحر " (68).حاول مولاي العربي رئيس الطريقة الدرقاوية،عن طريق الرسائل و عن طريق مبعوثيه،أن يخضع ابن الشريف لقواعد و سلوك الطريقة فلم يفلح. انتقل بنفسه من المغرب الأقصى إلى الجزائر،لكنه لم يتمكن من إقناعه بالعدول عن مسعاه " فأخذ الشيخ عندئذ حفنة من التراب و رماها للريح صارخا: " هكذا سيكون مستقبل ابن الشريف " (69).عاد الشيخ مولاي العربي من حيث أتى،بعد أن سحب حجابه من ابن الشريف (70). في هذا الوقت تدخلت مدينة الجزائر.

أرسل الداي سفينة محملة بالجنود،كما أرسل من يخلف الباي مصطفى المزالي (71).لم يجد الباي الجديد،المقلج بن محمد الكبير مسلكا بريا،فسار بحرا من شرشال. لما بلغ وهران وجد كل أبوابها موصدة ففُتحت له.أعاد الباي مصطفى إلى الجزائر،حيث نُقل منها إلى البليدة (72).ما إن أخذ المقلج القيادة حتى فتح أبواب المدينة الخمس،و أعلن حرية الدخول و الخروج منها،الأمر الذي مكن سكان الأرياف من نقل سلعهم إليها (73).جهز في الوقت نفسه حملة عسكرت خارج المدينة،كما أرسل إلى المخزن القديم و كتب إلى كبار العرب و بذل لهم الأموال " و نادى مناديه أن من أتى برأس (من رؤوس الأعداء) يأخذ عشرة سلطانية " (74).أمام هذا الحزم رفع الدرقاوي الحصار عن المدينة و انسحب و أتباعه في فوضى عارمة سمحت للأتراك بضرب مؤخرتهم (75). عسكر ابن الشريف على ضفاف وادي السيق. و في طريقه لإخضاع قبائل شرق البايليك،اصطدم بالبرجية و أتباعهم،فالحقوا به هزيمة نكراء بحيث استولوا على كل غنائمه تقريبا،الغنائم التي كان قد جمعها من قبل.كان

لهذه الهزيمة وقع حسن في مدينتي معسكر و وهران. في معسكر، أطلق السكان سراح قائدهم المسجون محمد بن الخضراوي بن إسماعيل، و استولوا على عائلة الدرقاوي و قتلوا أتباعه، و لما عاد، بعد الهزيمة يلوذ بمدينتهم أوصدوا أبوابها في وجهه. اضطر إلى السير نحو الجنوب مع قبيلة الأحرار، التي بقيت إلى جانبه. اغتنم الباي الفرصة لتقوية موقعه في البايليك فأرسل مجددا إلى رؤساء المخزن القديم و أصدر عفوه عن الذين انضموا إلى الدرقاوي فعادت إليه قبائل المخزن من الدواير و الزمالة و الغرابة و غيرها، فسار إلى البرجية و عسكر بينهم. هناك علم أن ابن الشريف يوجد لدى قبيلة فليتة يحضر جيشا جديدا و أن قبيلة بني عامر تتحين الفرصة لتهاجم الباي و أن قبيلة مجاهر قد انضمت إلى سكان الظهرة المتمردين هم كذلك تتحين الفرصة هي الأخرى لتهاجم الباي (76).

في الوقت الذي كان فيه بنو هاشم و البرجية يواجهون الدرقاوي استغل بنو مجاهر الفرصة و استولوا على مطامير البرجية، غير أن الباي المقلج تمكن منهم و قطع 90 رأسا من رؤوسهم، و لاحقهم إلى غاية ديارهم. عسكر هناك فالتحق به مقاتلو القبائل الشرقية. سار بهم إلى فليتة و عسكر هناك. بالقرب من قبة سيدي محمد بن عودة، تعرض الأتراك لهجوم الدرقاوي الذي لم يحقق أية نتيجة. عاقب الباي السكان لأنهم كانوا متواطئين مع الدرقاوي. كان العقاب شديدا. التقى الباي بعد ذلك بأحد أتباع الدرقاوي لدى قبيلة بني منيارن و هزمه، ثم سار إلى أتباع الدرقاوي من بني عامر و أولاد الزاير و آخرين و هزمهم في سوق الأحد بوادي العبد. لاذ أولاد الزاير و بنو عامر بجبل ترارة، أما ابن الشريف فنزح إلى اليعقوبية (77).

بعد هذه الانتصارات سار المقلج إلى تلمسان التي كانت تعرف اضطرابات كبيرة بين مختلف فئات سكانها. انقسم أهل تلمسان إلى فريقين و " صار بعضهم يقاتل بعضا فالحضر يقاتلون من البلد و الكلغلار يقاتلون من المشور، مع الأتراك، يضربون و ينادون على إخوانهم، فمن أظهر نفسه لأخيه ضربه بالرصاص، و اشتد الأمر بينهم و دام على ذلك " (78). بقي المقلج في المدينة حوالي الشهر إلى أن هدأت الأوضاع فعاد إلى وهران. في هذا الوقت كان الدرقاوي لا يزال يحظى بتعاطف القبائل.

خرج الباي مرة أخرى إلى بني عامر. خرب إقليمهم الذي تركه صحراء، كما عاقب بني مجاهر و بني زروال عقابا شديدا. التقى بالدرقاويين و معهم ابن الأحرش في موقعة السدرة لدى بني هاشم إغريس فهزمهم. ثم التقى بهم في جديوية، بالقرب من وادي دريد و في التافنة (يوم ابن الأحرش) و في التوتة التي جرح فيها. لقد حقق الانتصارات في كل هذه المعارك التي اختفى بعدها ابن

الأحـرش.لكن هذه الانتصارات انتهت بإعدام الباي المقلج بأمر من الداي (79)،ليـعود مصطفى المزالي إلى بايليك الغرب مرة أخرى. واصل هذا الأخير أعمال سلفه.هزم الدرقاوي في أراضي فليتة، في الغطالبة،و في أقليم خلافة،كما خرب إقليم بني مجاهر. عُين المزالي خزناجيا لدى الداي. حل محله في البايليك محمد بن عثمان (بوكبوس). واصل بوكبوس الحرب ضد الدرقاوي بطريقة جديدة،تقوم على جمع المعلومات عن أتباع الطريقة الدرقاوية ثم مباغتتهم فرادى. كما ألحق الهزيمة بابن الشريف رفقة قبيلة اليعقوبية،الأمر الذي جعل هذا الأخير يلتجئ سنة 1809 إلى قبيلة الأحرار ثم إلى عين ماضي و الأغواط غير أنه لم يجد تجاوبا من السكان. لجأ إلى بني سناسن أين تزوج ابنة بوترفاس الدرقاوي وهو من قبيلة الترارة،ثم اختفى بعد ذلك (80).

في سنة 1813 جمع بوترفاس قبائل الجهة الغربية في جبل الترارة لكن الباي بوكبوس لم يعطه فرصة تنظيم قواته. سار إليه و خرب قريته بالكامل.عرفت حملة الباي هذه بحملة الثلج،لأن الثلوج تساقطت بغزارة عندما كانت الحملة في طريق عودتها فألحقت بها أضرارا بليغة.لقد حاول الدرقاويـون التحرك في السنة هذه لكن الباي الجديد،قارة علي بغلي هزمهم في بني مراد. في هذه المعركة قُتل آغا الدواير قدور بن إسماعيل و قائد الزمالة محمد بن قدور (81).للتذكير،فإن مصطفى بن إسماعيل،و هو أخو قدور،كان يجمع بين قيادة الدواير و الزمالة لما تعامل مع الفرنسيين ضد الأمير عبد القادر فمنحوه رتبة جنرال.

اضطرابات بايليك التيطري

امتدت الاضطرابات التي عرفها بايليك الغرب إلى بايليك التيطري.حين كان ابن الشريف الدرقاوي يحاصر وهران سنة 1805،كانت قبائل نوي حسن و مطماطة و جندل وقبائل الشلف الأخرى تتقدم إلى المدية،قصد طرد الأتراك منها.لما اقتربت جموع المقاتلين من المدينة انقض عليها قائد قبيلة أولاد مختار دهيليس (حليف الأتراك) الذي كلفه الباي بالمهمة على عجل.لقد هزم دهيليس جموع المتمردين هزيمة كاملة على الرغم من أنه لم يكن معه سوى قومه (مقاتلون غير نظاميين) (82).في عهد الباي بوكبوس،باي وهران،رفض أولاد نايل دفع الضريبة،كما فعلوا مرات عديدة.سار اليهم إسماعيل باي التيطري،فلم يجدهم،إذ رحلوا لما علموا بقدومه.عادت حملته دون غنيمة.لولا انضمام الشيخ النعيمي بن زيدان،من أولاد خليفة،إلى الباي لكانت هناك مشاكل كبيرة بسبب غضب المخزن لعدم حصوله على الغنائم.

على إسماعيل باي غزو بني لنت الذين تمردوا على باي وهران. قبل الباي اقترح النعيمي الاقتراح و أغار على القبيلة.كانت الغارة ناجحة،إذ دخل و مخزنه إلى المدية بغنيمة معتبرة.لكن هذه العملية أغضبت باي وهران بوكبوس غضبا شديدا،إذ اعتبرها انتهاكا لحرمة مقاطعته. أقسم " أن يسقي حصانه من ماء عين البرواقية " (83).أخذ باي الغرب ينتظر الفرصة المواتية لذلك. لقد حانت أخيرا.

في هذه الأثناء كانت قبيلتا عريب و بني سليمان في نزاع حول قطعة أرض قريبة من وادي جنان بدبرة.كانت عريب تتبع بايليك التيطري أما بنو سليمان فيتبعون آغا العرب في الجزائر.و قف كل من الباي و الآغا إلى جانب قبيلته،فأصبحت المسألة مطروحة على الديوان،الذي عجز عن حلها. احتكم الطرفان إلى البندقية. في خضم هذا الصراع استغل رابح بن طالب قائد عريب الاضطراب الذي سببه ظهور المرابط الدرقاوي بوترفاس في بايليك الغرب،و طلب دعم قبائل المتيجة و قبائل الصحراء فجمع أكثر من ثمانية آلاف فارس. هاجم دبرة بعنف،فحصل على غنيمة كبيرة ثم هاجم الحامية التركية في سور الغزلان. لما بلغت الوضعية هذا الحد الذي أصبحت فيه السلطة التركية نفسها مهددة أمر الداي باي وهران محمد بوكبوس الذي كان يملك مخزنا قويا أن يؤدب قبيلة عريب المخيمة في وادي جنان.سار بوكبوس من وهران رفقة ما يقرب من ثمانمائة زبنطوط (جنود نظاميون عزاب). في الطريق التحق به مقاتلون من قبائل مليانة (حوالي أربعة آلاف فارس).أغار الباي على القبيلة المستهدفة. قتل من أفرادها عددا كبيرا،غنم غنيمة كبيرة ثم نقل معه مائتي امرأة و خمسة و أربعين رجلا قطع رؤوسهم في المدية ثم سار إلى البرواقية ليسقي حصانه من ماء عينها،فحقق بذلك ما أقسم على تحقيقه لكنه لم يتمكن من رابح بوطالب الذي أفلت منه مع بعض فرسانه.طلب الداي من أسماعيل باي أن يقبض على المتمرد حيا أو ميتا. استعمل الباي الخديعة التي مكنته من قتله في سور الغزلان (84).

هنا على مستوى المقاطعات أما على مستوى السلطة المركزية فكانت الصراعات على أشدها.

صراعات السلطة

على المستوى المركزي،تمردت الإنكشارية على الداي أحمد باشا و قتلته سنة 1808.كان هذ الداي " سفاكا لدماء المسلمين من غير شرع "،كما يقول الزهار(85) و لشدة كره الناس له أغلقوا الدار التي كان بناها بالقرب من قصر الجنينة،و اعتبروها غير صالحة لإيواء المسلمين فسدوا بابها التي كتبوا عليها عبارة: " لعنة الله على من فتح هذه الباب ".ظلت الباب كذلك إلى عهد الداي حسين الذي حوّل الدار مخزنا.إن هذا الداي " المتذبذب الذي

يرى في كل شيء مؤامرة ضد سلطانه.قد أثار سخط الناس أجمعين نتيجة ما قام به من إعدامات كثيرة.يزعم أن أكثر من تسعمائة تركي قد دفعوا أرواحهم ثمنا لقلة ثقته باستقرار سلطته ونظام دموي كهذا لا يمكن أن يدوم طويلا " (86).لم يكن الداي الجديد علي خوجة غسول أحسن من سابقه.أول ما قام به هو اغتيال زعيم المتمردين على أحمد باشا و هو أحمد الليالي.كما نفى الرايس حميدو " الذي كان يتضايق من شهرته على الرغم من أنه لم يكن منافسا له على الحكم لأن الرايس حميدو لم يكن تركيا " (87).قال الزهار أن غسول.بعد اعتلائه كرسي السلطة " بدّل جميع الوزراء.و بعد ثلاثة أيام عزلهم و عزل جميع العمال.و جارى الأتراك و أخذوا جميع أوقاف الحرمين.التي بيد فقراء البلد.و أخرجوهم منها " (88) غير أن هذا الداي لم يطل به المقام في قصر الجنينة فقد قتل هو الآخر في فيفري أو مارس من سنة 1809.جاء بعده الحاج علي باشا خزناجي الذي مكنته فترته الطويلة نسبيا (حتى 1815) من إعادة النظام بالقوة. بادر بإعادة الرايس حميدو من منفاه في بيروت. لكن باب عزون ظلت مدة طويلة و هي تحمل رؤوس العباد المقطوعة عن أجسادها. و قد أورد مولود قايد أن الكثير من العائلات القبائلية و الوهرانية و القسنطينية طُردت من مدينة الجزائر بتهمة التورط في التعامل مع قبائلها الأصلية المتمردة في عهده (89).

الحملة التونسية على الشرق الجزائري

يضاف إلى هذه الاضطرابات التي عمت الجزائر في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر اضطراب العلاقات الجزائرية ـ التونسية.لأن باي تونس حمودة باشا استغل المشاكل الداخلية في الجزائر ليتخلص من الإتاوة التي كانت تدفعها تونس للجزائر منذ عهد باي قسنطينة بوكمية.كانت تونس ترسل إلى الجزائر كل سنة سفينة محملة بالزيت و رحيق الورود و الشاشيات و الملابس الحريرية (90).الحقيقة أن حمودة باشا باي تونس لم يكن مجرد متمرد على الجزائر.بل تمرده هذا يدخل في إطار سياسة إصلاحية واسعة النطاق.قام بها في تونس.كان " أميرا شابا معروفا بنزعته الاستقلالية و حماسه المتقد.فقد صمد أكثر من سابقيه في وجه الهيمنة الأوربية. و قطع العلاقات مع البندقية التي رمت سوسة بالقنابل (1784) و هدمت مدينة حلق الوادي أو كادت (1785) من دون أن تلين له قناة.و رضي بإبرام معاهدة مع إسبانيا عندما تمكن من شروط ثقيلة الوطأة عليها (1790) " و" اغتنم فرصة تمرد الإنكشارية لحلهم و التخلص منهم نهائيا مستعينا في ذلك بالسكان (1811)." و قد " صادف عهده ازدهار التجارة الفرنسية التي بزت تجارة كل الأمم الأجنبية بما

فيها تجارة اليهود " (91). في الوقت الذي كانت فيه العلاقات الجزائرية - الفرنسية تعرف تدهورا (منذ سنة 1807)،كان باي تونس،حمودة باشا يقيم علاقات حسنة مع نابوليون الذي كانت له معه مراسلات. تغلغل النفوذ الفرنسي في تونس شيئا فشيئا و انتهى إلى مساندتها الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830،أملا في الحصول على المقاطعة الشرقية من الجزائر.في هذه الوضعية جاءت حملة حمودة باشا على الشرق الجزائري سنة 1807.

لقي الباي،في موقفه من الجزائر تشجيعا من الباي الحاج مصطفى إنجليز باي قسنطينة السابق.كان إنجليز قد أبعد عن البايليك بعد الشكاوى العديدة التي قدمت للداي بخصوص تصرفات ابنه علي.هرب إلى تونس ليشجع عاهلها على غزو قسنطينة،مؤكدا له أن أكابر المدينة سوف يقفون إلى جانبه بمجرد إشارة منه هو. بعد أن طلب الداي و ألح في طلب إرسال الإتاوة المعهودة،و لم يجد استجابة من تونس،أمر باي قسنطينة عبد الله بتجهيز حملة للقيام بعمليات في أراضيها. تنفيذا للأمر أرسل الباي قواته التي استولت على قطعان معتبرة من الماشية بالقرب من قلعة سنان سنة 1805 (92). من جهة أخرى استولت السفن الجزائرية على مركبين أو ثلاثة من المراكب التونسية (93).كان الهدف من هذه العمليات تعويض الإتاوة التي رفض الباي إرسالها.

اتخذ حمودة باشا من هذه العمليات حجة ليشرع في تجهيز حملة كبيرة ضد الجزائر. وضعها تحت قيادة سليمان كاهية.(94).من جهته قرر الداي إرسال حملة على تونس في ربيع 1807،لكن قبل أن تتحرك حملته هذه ساءت العلاقات الجزائرية مع فرنسا،فسلم الداي أحمد القالة و صيد المرجان للإنجليز.هذا الإجراء رفضته قبائل المقاطعة التي كانت تتعامل مع الفرنسيين تجاريا.كتب عبد الله باي قسنطينة إلى الداي ينبهه إلى أن مثل هذا القرار من شأنه أن يجعل السكان في نواحي القالة يرفضون دعم السلطة في حربها ضد تونس. أمر الداي بجلده ثم بقطع رأسه،كما أمر بقتل زوجته (95). أرسل الباي الجديد،الحسين بن صالح باي،كلا من الحاج عمار بن زقوطة الذي كان قد عمل عميلا للباي لدى المراكز التجارية الأوربية في عنابة،والحاج بن منعة في محاولة لإصلاح ذات البين. في طريقهما إلى تونس،وجد المبعوثان الجيش التونسي على الحدود،يرافقه إنجليز و ابنه علي. حجز حمودة باشا المبعوثين في تونس لمدة شهر. خلال وجودهما هناك كان الجيش التونسي قد بلغ قسنطينة،دون أن يجد مقاومة تذكر. لما علم حسين باي بالخبر جمع ما له من قوات و اعترض سبيل التونسيين في وادي (بين البراغت

)، على بعد خمسة كيلومترات من قسنطينة، لكنه لم يتمكن من إيقاف ذلك الزحف البشري الذي كان يتكون من الفرق العسكرية النظامية و من القبائل التي كانت تجر وراءها النساء و الأطفال و قطعان الماشية، فانسحب إلى ناحية جميلة، ثم إلى ريغة سطيف. لم يعد إلى قسنطينة إلاّ بعد شهر، رفقة قوات الإغاثة التي جاءت من مدينة الجزائر (96). لقي الجيش التونسي دعما من الكثير من القبائل الجزائرية التي كانت غاضبة لطرد الفرنسيين و مقتل عبد الله باي، و منها قبيلة الحنانشة التي كان يقودها في هذا الوقت الماحي بن عثمان (97).

حاصر الجيش التونسي المتكون من حوالي 20 ألف مقاتل مدينة قسنطينة مدة شهر كامل. كان معه عتاده المتكون خاصة من الأسلحة و المدافع و الراجمات. أقام معسكره في الكدية عاتي و سطح المنصورة و غيرهما. لقد واجه السكان هذا الحصار "بالكور (القذائف) والرصاص و الصدمة (الهجوم) عليه تارة بالليل وأخرى بالنهار "، إلى أن جاءت الإمدادات العسكرية من الجزائر برا و بحرا، فوصلت في وقت واحد. جاءت القوات البرية عن طريق سطيف يقودها الآغا، آغا العرب، أما القوات التي جاءت عن طريق البحر إلى عنابة فكان يقودها آغا تركي و قادها من عنابة الشيخ الأكحل بن علي شيخ زردازة (98). لقد وصلت هذه القوات في اليوم الثلاثين من بداية الحصار. في اليوم الموالي انضمت إلى بعضها البعض تحت قيادة الباشاغا (آغا العرب) (99). و قد انضمت قوات من فليسة إلى جانب قوات الجزائر، و كانت فليسة قد تحالفت مع الأتراك بعد تمرد سنة 1807 (100). بعد معركة كبرى حقق فيها الطرف الجزائري انتصارا كبيرا، أمر الكاهية التونسي قواته بالانسحاب ليلا. لم تجد قوات الجزائر صباحا إلاّ القبائل تتخبط في فوضى عارمة (101). كانت ساحة المعركة مغطاة بجثث القتلى. ما يعبر عن ضخامة المعركة هو إرسال مجموعة من البغال إلى مدينة الجزائر محملة بآذان القتلى. عُلقت هذه الآذان على جدران باب عزون (102) . لقد ترك جيش تونس وراءه مدفعيته التي سوف يستعملها أحمد باي في مواجهة قوات فرنسا (103) عند مهاجمتها المدينة سنتي 1836 و 1837.

بعد هذا الانتصار و بعد استشارة الداي، جهز حسن آغا و الباي حملة على تونس، بلغت وادي سرّاط، بالقرب من الكاف (حيث وقعت معركة زاما الشهيرة بين الرومان و القرطاجيين)، أين قطعت القوات التونسية طريقها، فكانت المعركة التي انكسر فيها الجيش الجزائري بسبب الخيانة (104). يتفق كل من صالح

العنتري و الشريف الزهار في أن الباي قد هرب من ساحة المعركة.و في هذا الخصوص يقول الشريف الزهار: " فلما رأى ولد صالح باي هزيمة عسكر تونس،و كانت لهم معه كلمة رجع بمحلته و ترك الآغا وحده يقاتل بعسكره.ثم أمر جيشه بحمل المحلة و هرب راجعا لقسنطينة،و حسن آغا لم يشعر بذلك،حتى بلغه هروب الباي،فالتفت إليه و إلى المحلة فرأى العسكر ينهبون في الوطاق و الناس هاربون لا يلتفت أحد لأحد،سارحون في الأرض مثل الغنم، و لا أحد يعرف صاحبه،و لا أحد يلتحق بالآخر حتى اجتمعوا في قسنطينة. و الآغا عندما بقي وحده،ذهب من جملتهم.و بقيت المحلة بما فيها من الآلات الحربية و المدافع،و غيرها إلا خزنة الدراهم فكان العسكر قد نهبوها "(105).أما فايسات فيعيد سبب الهزيمة إلى انسحاب مصطفى الدراجي شيخ فرجيوة الذي كان قد اتصل بالتونسيين واتفق معهم على مقابل الخيانة. لكن مصطفى هذا ألقى بالمسؤولية على الباي و أقنع الجميع أن هذا الأخير هو الذي انسحب أولا،فصدّقه الداي دون الاستماع إلى الرأي الآخر (106). و أورد شارل فيرو رواية أخرى قريبة من رواية فايسات،سمعها من الشيخ بو عكاز بن عاشور و هو أحد أحفاد مصطفى.يقول فيها أن قائد الحملة قد جمع إليه كل قادة القبائل التابعة،و عين لكل واحد المكان الذي عليه أن يحتله في المعركة رفقة رجاله،و أن مصطفى عبر عن رغبته في أن يحارب حسب هواه على جناح من جناحي الجيش،بدل أن يكون محصورا بين الآخرين،فرد عليه الباي : " إنك لم تحارب سوى ابن آوى بلادك.فامتثل و اخرس " الأمر الذي أغضب مصطفى بن الدراجي،إلاّ أنه امتثل للأمر إلى أن حانت الفرصة فأفشل المعركة (107).هذا بالنسبة للمعركة،" لنرجع إلى الآغا فإنه عندما وصل إلى قسنطينة،قبض على ولد صالح باي و كتب إلى الأمير (الداي) و اخبره بما وقع و أن المتسبب في ذلك هو الباي.فعين الأمير على شاوش بايا على قسنطينة،بمكان ولد صالح باي،و أمره بقتله،فلما وصل علي شاوش إلـى قسنطينـة بلّغ مكتوب الأمـير لحسن آغا " (108).إذا كان الباي قد لقي حتفه فإن مصطفى بن الدراجي قد لاذ بمنطقته فرجيوة.

هرب الشيخ مصطفى بن الدراجي إلى جبال فرجيوة خوفا من العقاب. عين الأتراك مكانه ابن عمه إسماعيل بن شلغوم. حارب هذا الأخير مصطفى،مدعوما بالإنكشارية،و ألحق به الهزيمة في مرج الساحل،لدى بني مجالد،و أرغمه على الانسحاب إلـى جبال بابور،إلـى أن طلب العفـو،إلاّ أن علي باي ألقى عليه القبض و سجنه،رغـم أن الباشاغا (آغا العرب) قد أمّنه.فـرّ مصطفى بن الدراجي

من السجن و أعلن نفسه شيخا مستقلا عن الأتراك. اعترفت به القبائل الجبلية مثل بني عمران بني ياجيس،بني فوغال،بني مجالد.و بمقاتلي هذه القبائل نزل إلى سهل فرجيوة و استولى على زمالة الشيخ الرسمي لفرجيوة،و ألحق به الهزيمة مع الإنكشارية،فلم يجد الباي الجديد طوبال باي بدا من الاعتراف به شيخا رسميا سنة 1809.احتفظ بالمشيخة أربع سنوات إلى أن عين نعمان باي مكانه مقورة بن بورنان،صهره (109).

كان الباي علي شاوش قد قُتل من طرف أحد المتمردين الأتراك،اسمه أحمد شاوش كذلك.كان هذا الأخير فارا من السلطة التركية منذ تمرد ابن الأحرش،إلاَ أن الداي عفا عنه و ضمه إلى القوات التركية في قسنطينة برتبة هامة.غير أن أحمد شاوش ألـب الجنود على السلطة و قتل كلا من الآغا و الباي،و وزع أموال الخزينة على الجنود،و بعد أن عين شخصا اسمه طوبال أحمد على بايليك قسنطينة قصد الجزائر مع أتباعه لكي يسقط الداي أحمد. في حمزة قُتل المتمرد من طرف طوبال أحمد نفسه،الذي أوعز إليه الداي بذلك مقابل أن يبقيه بايا على قسنطينة (110).

الصراع الداخلي في قبيلة لرباع

في بايليك التيطري كان الصراع حادا بين عشائر قبيلة لرباع حول القيادة.لقد انتهى هذا الصراع إلى سيطرة بني شهرة على القبيلة.يعود أصل بني شهرة إلى جدهم علي،و هو من أشراف المغرب الأقصى.جاء حوالي نهاية القرن السادس عشر ليستقر لدى عشيرة معمرة من قبيلة لرباع (أربع عشائر) التي كانت مقيمة في هذا الوقت في الزاب بالقرب من بسكرة.ظهر المسمى قندوز بن علي خلال الصراعات التي نشبت من جراء استقرار لرباع في جنوب الأغواط.بعد الاستقرار شكلت القبيلة " نوعا من الجمهورية الأوليغارشية الصغيرة " كما يقول فيرو،تقودها العائلات الرئيسية في كل عشيرة.عين الأتـراك قندوز بن علي قائـدا للقبيلـة و منحـوه حرية تعيين شيـوخ العشائر.خلفه ابنه شاوي في هذه المسؤولية.انقسم أبناء هذا الأخير على أنفسهم فتشكل في لرباع صفان متصارعان.بعد معارك عديدة أصبح ابن شهرة سيد الموقف،بعد وفاة خصمه.ظل كذلك إلى غاية الغزو الفرنسي للجزائر (111).وقد أقره الفرنسيون على رأس القبيلة وهو والد ناصر الذي عمل قائدا للقبيلة ثم انقلب على الفرنسيين و التحق بقائد الانتفاضة الشريف محمد بن عبد الله سنة 1851.

في عهد جعفر باي التيطري،الذي خلف الباي إسماعيل في سنة 1813 احتدم الصراع من جديد بين ابن شهرة و منافس آخر اسمه سليمان بن أحمد،وهو من عشيرة معمرة،إلاَ أن

ابن شهرة ظل هو القائد الرسمي. بهذه الصفة كان يتلقى دعم الأتراك.في نهاية صيف 1813 تقريبا جاء ابن شهرة هذا إلى التل كي يتمون بالحبوب فعسكر في زغوان،لدى الدواير،و معه قافلة و عدد كبير من بني الأغواط و حلفاء لرباع مثل الحرازلية و أولاد سيدي عطى الله.قرر سليمان بن أحمد،الذي كان يتجه نحو الغرب،مع الصف المعادي،أن يهاجم قافلة ابن شهرة حين تعود من الشمال.جمع في تجموت و في البيضاء مقاتلين من أولاد الشايب و أولاد نايل و أولاد خليف و هم لا يريدون سوى الغنيمة. قطعوا كل الطرق بين التل و الجنوب.أمام هذه الوضعية لجأ ابن شهرة إلى الباي جعفر،الذي كان في زغوان يجمع الحصة (رسم يدفعه الرحل في التل) ليطلب منه حراسة ترافقه إلى غاية الأغواط ففعل. لكن ما إن وصل الباي إلى الأغواط حتى استولى على كل إبل القافلة كي يبتزَّ ضريبة كبيرة من سكان القصر. غير أن سكان هذا القصر بدلا من الاشتباك بقواته استقبلوه و جنوده ضيوفا.ما إن دخل هؤلاء الضيوف إلى القصر حتى أُغلقت أبوابه. اضطر الباي للتخلي عن الجمال و منحته جماعة القصر عشرة آلاف بوجو (ضيفة الباي)،فعاد إلى المدية (112).

اضطرابات بوسعادة و فليسة

في سنة 1814 تمرد أهالي بوسعادة و أولاد ماضي. بعد أن أغارت قبيلة أولاد ماضي على أولاد سلامة و العذاورة،ألحقت الهزيمة الكاملة بجلال باي التيطري مهددة بالولوج إلى إقليمه (113).كانت حملة جلال بتحريض من الشيخ الحاج بن قشيدة شيخ أولاد مختار الشراقة.يحكى أنه كان على رأس خمسين جنديا نظاميا و ألف رجل من الخيالة المخازنية،وأن قومه نهبوا،في أم الملازم،قافلة لأولاد عيسى،كانت قد جاءت إلى التل،و كانت تضم عددا من الجمال محملة بالحبوب. ذهب مرابط القبيلة يطلب العدل من الباي،فما كان من هذا الأخير إلاَ أن يرد عليه بقوله: " راني جمل و المرابط شوك.الجمل ياكل الشوك ".فاغتاظ المرابط و دعا إلى الانتقام من الباي. في اليوم التالي ألحقت قبيلة أولاد ماضي هزيمة نكراء بالباي الذي فرّ بحاشيته.لقد قتل من جنوده النظاميين 22 جنديا.لم يشف الباي غليله للانتقام إلاَ بعد أن أغار على قبيلة الزناخرة و هي قبيلة (عزل) تابعة بوضعيتها هذه لخوجة الخيل في الجزائر،و كانت هذه القبيلة قد استولت على حيوانات في المتيجة فأمر الباي بمعاقبتها.خرج مساء أحد الأيام،من عين المشرف لدى أولاد علان. في اليوم التالي هاجم الزناخرة،لكن هذا الهجوم كلفه حياته،فقد قرر الداي قتله و تعيين إبراهيم بن الحاج خليل مكانه. حكم هذا الأخير البايليك من سنة 1814 إلى سنة 1816 (114).

بأمر من الداي حاج علي،سار نعمان باي قسنطينة إلى بوسعادة،التي التقى فيها بقوات أخرى جاءت من الجزائر تحت قيادة الباشاغا عمر.قسم الجيش إلى قسمين فشكل طابوران، طابور ضد أولاد ماضي و الطابور الأخر ضد أولاد سيدي أبراهيم (و هم قبيلة مرابطية تحتل مكانا يعرف باسم الديس).بعد يومين من العمليات العسكرية عاد الطابوران إلى بوسعادة،في وقت تغيرت فيه الأحوال الجوية،فتساقط الثلج و هبت رياح عاتية اضطرت تلك القوات للبقاء في بوسعادة مدة أربعة أيام.بعدها سار الباشاغا و الباي إلى المسيلة،أين ألقى الباشاغا القبض على الباي نعمان و قتله،كما ألقى القبض على خليفته مصطفى خوجة لينقله إلى الجزائر.عين الباشاغا الضابط شاكر على رأس بايليك قسنطينة خلفا للباي المغتال.ما إن عُين الباي الجديد حتى شرع في تصفية أعوان نعمان باي، أرسل، وهو في طريقه إلى قسنطينة، إلى قائد الدار يوسف،يأمره بإلقاء القبض على الكاتب سي أحمد بن السايح و أخيه الطيب قائد عزيب البقر و أختهما عائشة و كل أقاربهما،و مصادرة أملاكهم المنقولة و غير المنقولة (115).

كانت قبيلة فليسة قد تمردت في وقت واحد مع تمرد بوسعادة. حاولت أن تمنع مسيرة أو حملة الباشاغا عمر إلى بوسعادة عند مرورها ببني عائشة.انضمت إليها قبيلة بني خلفون.عند عودته من بوسعادة أخضع الباشاغا عمر قبيلة بني خلفون و فرض عليها غرامة. لكن قبيلة فليسة ظلت على تمردها،تحارب الأتراك لمدة ثلاث سنوات.لم تتوقف الحرب إلاّ عندما أخذ محمد بن زعموم قيادة القبيلة،فتفاوض مع الأتراك و أنهى التمرد. امتد نفوذه إلى قبائل بني خلفون، نزليوة وغشتولة و ظل في هذه المسؤولية إلى أن احتل الفرنسيون مدينة الجزائر.(116).

سياسة الباي شاكر تجاه المقرانيين و أولاد ابن عاشور

اتهم الأتراك أولاد أمقران في مجانة بتحريض قبائل الحضنة في تمردها سالف الذكر.لهذا قرروا تأديبهم.بعد أن استقر الباي شاكر في مسؤوليته في قسنطينة،قام بجولة خارج المدينة.عسكر في اليوم الأول في بير البقيرة،أين اغتال شخصا بريئا،في اليوم الثاني عسكر في دار طوبال،أين اغتال بريئا آخر،و في اليوم الثالث عسكر في كرب،أين قتل شخصين من أولاد عبد النور،و في معسكر المجاز قتل بريئين من أولاد سعيد بن سلامة،في سطيف قتل قاطع طريق.من سطيف سار إلى تاغروت حيث أمضى يومين و نصب فخا لأولاد أمقران.أرسل إليهم ليأتوا إلى معسكره بدعوى معالجة بعض الأمور المتعلقة بإدارة المنطقة.جاءه 12 شخصا منهم على خيولهم محاطين بخدمهم لكن ما إن وضعوا أقدامهم على الأرض حتى ألقى القبض عليهم و قطع رؤوسهم أمام خيمته.لم ينج من هذه المجزرة سوى واحد من أعضاء الوفد،تمكن من الهروب على ظهر جواده.أرسل الباي الرؤوس إلى قسنطينة لاستعراضها،بينما ذهب هو إلى دواوير الضحايا لنهبها.

غير أنه استُقبل بالرصاص، إذ نظم السكان أنفسهم لما علموا بخبر المجزرة. حمل الرجال السلاح و انتقلت النسوة مع الأطفال و قطعان الماشية إلى الجبال. عاد الباي إلى مدينته فارغ اليدين (117).

نفس أسلوب الخديعة استعمله الباي شاكر مع الشيخ مصطفى بن الدراجي، شيخ فرجيوة المتمرد الذي أُبعد عن القيادة سنة **1813**. طلب الشيخ الآمان فوافق الباي على ذلك لكن ما إن وصل هذا الشيخ إلى قسنطينة حتى أمر الباي بقتله (118).

لقد قامت سياسة الباي شاكر على الاستهتار بالناس، و بلغ به ذلك إلى حد تعيين ابنه محمد قائدا للعواسي (الحراكتة)، و هذه المسؤولية هامة جدا، لم يكن محمد في مستواها، إذ كان صغير السن (18 سنة)، كما كان سكيرا معربدا، عاث في الأرض فسادا تحت أعين أبيه (119). كانت قبيلة الحراكتة قبيلة كبيرة، مثل النمامشة و الحنانشة في الشرق الجزائري، ظلت محتفظة باستقلالها عن السلطة التركية، منذ أن تخلصت من نفوذ الشابية في أوائل القرن السادس عشر حتى أوائل القرن الثامن عشر. في حوالي **1721** لجأ باي قسنطينة إلى تقديم ابنه ليُختار من طرف شيوخ العشائر التي تتكون منها القبيلة. منذ ذلك الحين أصبح قائدها يعرف باسم قائد العواسي، و أصبحت القبيلة مخزينية يعين البـاي قيادتها. تقول الرواية أن كلمة عـواسي تعود إلى أحد قـادة الحراكتة كان يسمى عيسى (120). سوف تؤدي سياسة شاكر هنا إلى إبعاده عن البايليك.

تسوية الخلافات مع تونس

في عهد الداي الحاج علي باشا عـادت الاضطربات للعـلاقات بـين الجـزائر و تونس. في سنة **1810** استولى القبطان حميدو على مركب تونسي محمل بالشاشيات و قصفت مراكب أخرى بقيادته أيضا جزيرة جربة ثم التقت بمراكب أخرى تونسية في قرقنة فـاشتبكت بها واستولت على فرقاطة منها. في السنة الموالية جهز الداي **16** مركبا و عددا من زوارق اللنجور و أسند قيادتها للقبطان حميدو. سار هذا الأخير إلى حلق الوادي فرماها بقذائف مدافعه (121). لم تكن أعمال القرصنة موجهة ضد تونس فحسب بل كانت نشيطة ضد البلدان الأوروبية كذلك. كان حميدو أشهر رياس البحر في هذه الفترة، و هـو من أصل قبائلي، و كان إلى جانبه مجموعة كبيرة من الرياس من أمثال ابن زرمان، قارة يوسف، مصطفى، على تاتا، حمدان و غيرهـم (122) لقد فرضت أعمال القرصنة هـذه على الكثير من البلدان أن تدفع الإتاوة مثل إسبانيا، بريطانيا الولايـات المتحدة، هولندا و النمسا، أما فرنسا نابوليون فقد رفضت أن تدفع (123). و كان الرياس يهاجمون حتى رعايا السلطان العثماني إذ "لـم يكونوا يتحرجون من مهاجمة أو احتجاز سفن رعايا تركية أو الخاضعين لها "، كما يقول ألبير دوفال (124) لكن هذا التصعيد الجديد كان هو الأخير، فقد انحطت القرصنة بعده ثم تلاشت.

تطورت الخلافات مع تونس و أخذت الجزائر تستعد لمواجهة هذا الجار الذي أصبح

مقلقا في خضم الاستعداد جاء مبعوث من العاصمة العثمانية يطلب إيقاف العمليات المعادية لتونس و إلاّ اعتبر الباب العالي الجزائر متمردة، فيغلق موانئ الشرق في وجهها. غير أن الداي و دون أن يعير اهتماما لما جاء به المبعوث، أرسل إلى تونس يطلب دفع الإتاوة و تخريب حصن الكاف. رفض حمودة باشا باي تونس الاستجابة للطلب، بل استغل فرصة تمرد باي وهران ليقوم بغزوة في أراضي بايليك الشرق. سار نعمان باي قسنطينة بقواته و التحق به من الجزائر عمر آغا على عجل (بعد تنفيذ حكم الإعدام في حق باي وهران). غير ان عمليات الآغا في تونس لم تكن ناجحة. لقد كتب إلى الداي يخبره بوجود الكثير من الفرنسيين في الجيش التونسي و بوجود أسلحة صُنعت في فرنسا لدى هذا الجيش. كان عمر آغا ينوي الهجوم على الكاف غير أنه فشل، و قد علل هذا الفشل بتخلي بعض شيوخ القبائل عن جيشه (125).

توفي حمودة باشا في سنة **1814** تاركا السلطة لابنه عثمان باي، الذي أزاحه أخوه محمد باشا عنها بعد ثلاثة أشهر فقط. سعى هذا الأخير لتحقيق السلم مع الجزائر، غير أن الداي اشترط تهديم حصن الكاف، الأمر الذي لم يقبله محمد باشا. استمرت بذلك العداوة بين الطرفين (126)، إلى أن توفي داي الجزائر الحاج علي، في مارس من السنة الموالية. فخلفه الحاج محمد الخزناجي، الذي قتل بعد أيام فخلفه عمر باشا الذي تحسنت في عهده العلاقات مع تونس و مع الدولة العثمانية. بمجرد ما تولى الحكم سارع إلى إرسال مبعوث عنه إلى الباب العالي خفف من غضب السلطان على السلطة في الجزائر (127).

ردَ السلطان بإرسال مبعوث يحمل فرمانا، جاء فيه على الخصوص : " إن بحارة الجزائر يقومون بحجز السفن التجارية التابعة لرعايا الباب العالي، أو الأمم التي تعيش في سلم معه ". و بعد أن يشير إلى الشكاوى العديدة التي تقدمت بها البلدان الأوروبية، يطلب إيقاف القرصنة، " هذه الاعتداءات " و " الرذائل "، و يذكر بتلك الإجراءات التي اتخذت من قبل وهي منع التجنيد في أزمير و منع ممثلي السلطة في الجزائر من إلقاء الخطب في " كامل أنحاء الأمبراطورية " العثمانية. و ينتهي إلى توجيه النداء التالي: " يا أمير الأمراء و يا قبدانات قواد الإيالة أطيعوا الله و رسوله و أطيعوا أوامر أمير المؤمنين خليفة الله في الأرض. ألا فلينفذ فرماني و لتُحترم أوامري. فتلكُم هي إرادتي "(128). تخلى الداي عمر، بعد هذه الاتصالات، عن المطالب التي تتعلق بتخريب حصن الكاف. و التزم محمد باشا من جهته بإرسال الإتاوة في شكل كميات من الزيت (129).

لم يكن موقف الدولة العثمانية من القرصنة إلاّ نتيجة الضغوط التي مارستها أوربا عليها.

الحملتان الأمريكية و الإنجليزية على مدينة الجزائر

في هذه الأثناء بدأت الدول الأوربية توحد مواقفها للقضاء على القرصنة و الاسترقاق. كانت الفرصة مواتية بعد سقوط نابوليون و شروع الدولة العثمانية في إحداث إصلاحات داخلية لتجاوز الأزمة التي تعرضت لها في أواخر القرن الثامن عشر، الأزمة التي جعلتها غير قادرة على مواجهة الدول الأوربية، و تجنح إلى قبول ما تمليه عليها هذه الدول. في هذا الإطار وصلت الدولة العثمانية إلى اتفاق مع الدول الأوربية يتضمن إنهاء استرقاق المسلمين للنصارى و استرقاق النصارى للمسلمين. هذا الإتفاق أطلق يد الأوربيين في تشديد الخناق على الجزائر. لقد كان حكم الداي عمر تعسا: " إذ في عهده تكاثرت المصائب على الجزائر: فقتل حميدو، و أملى الأمريكيون على البلاد سلما مخزيا، و أصيبت المدينة بالوباء و قام الإنجليز بقنبلة الجزائر و إحراق قطع الأسطول الجزائري بدون استثناء "، كما يقول ألبير دوفال (130).

تعود علاقات الجزائر بالولايات المتحدة الأمريكية إلى أواخر القرن الثامن عشر، حين وقعت الدولتان على معاهدة 5 سبتمبر 1795 التي احتوت 22 مادة. نصت على أن تدفع الولايات المتحدة ما يساوي حوالي مليون دولار، 21600 منها كإتاوة سنوية، تُدفع في شكل معدات بحرية. و تعهدت الجزائر بحماية التجارة الأمريكية في البحر المتوسط و العمل من أجل تحقيق السلام بين الولايات المتحدة من جهة و طرابلس و تونس من جهة أخرى. تطبيقا لهذه المعاهدة أطلقت الجزائر سراح الأسرى الأمريكيين في سنة 1796، كما أنجزت الولايات المتحدة بناء سفن للجزائر (131). مع هذا كانت الولايات المتحدة تتلكأ في تنفيذ المعاهدة، الأمر الذي أدى إلى أن تعلن الجزائر الحرب عليها (1807)، أو بالأحرى على سفنها التجارية. استولى الرياس على ثلاث سفن من سفنها، فأسرع القنصل الأمريكي إلى اقتراض مبالغ مالية من اليهودي بكري، مقابل فوائد عالية، و دفعها للجزائر. عادت العلاقات إلى سابق عهدها (132) لكن سرعان ما تدهورت بعد أن تغيرت أوضاع أوربا. ففي عام 1815 انهزم نابوليون أمام بريطانيا و حلفائها، كما توصلت الولايات المتحدة إلى إبرام صلح مع بريطانيا، التي كانت قد ثارت ضدها ولاياتها مشكلة الولايات المتحدة سنة 1775. دخلت الجزائر في عزلة سوف يكرسها مؤتمر فيينا. استغل الكونجرس الأمريكي هذه الوضعية و أعلن رفض مواصلة دفع الإتاوة للجزائر. أرسلت أمريكا أسطولا إلى البحر المتوسط سنة 1815

" لإرغام الإيالة على إبرام الصلح أو لضمان تجارة الجمهورية و حمايتها من جميع أنواع القرصنة "، كما يقول شالر القنصل العام للولايات المتحدة (133).

في روايته حول فرض الصلح على الجزائر يقول شالر: " أبحرتُ من نيويورك في شهر ماي 1815 مع السيد ديكاتور الذي كان يقود الأسطول الأول المكون من ثلاث حراقات و قارب وشبق و ثلاثة مراكب،فوصلنا إلى البحر الأبيض المتوسط في بداية جوان،و في اليوم السادس عشر من نفس الشهر التقينا بحراقة جزائرية،و استولينا عليها في مرتفعات رأس كات،و بعد ذلك بيومين التقينا بشبق كبير و استولينا عليه و في يوم 18 جوان وصلنا إلى مدينة الجزائر،و وفقا لتعليماتنا اقترحنا على الإيالة الشروط السلمية مع الولايات المتحدة،و تذبذب الجزائريون من جراء المفاجأة،و لما كان جميع رياسهم متغيبين، وافقوا، بدون نقاش تقريبا،على شروط السلم التي أمليناها عليهم، و تم التوقيع على المعاهدة يوم 30 جوان "(134).على الرغم من أن سعد الله يشكك في وجود هذه المعاهدة، (135) إلاّ أن الزهار يؤكد على وجودها و على أن الداي قبلها على مضض (136).نصت على إنهاء الإتاوة التي تضمنتها المعاهدة السابقة و على تحرير الأسرى ودفع تعويض لأمريكا مقابل إحدى سفنها (137).

كانت الحراقة (كورفيت) التي استولى عليها الأسطول الأمريكي يوم 16 من شهر جوان هي حراقة القبطان حميدو،أشهر القبطانات في الإيالة في هذا الوقت. و قد حدث ذلك بعد معركة بين الأسطولين الأمريكي و الجزائري.استولى الأمريكيون على الكثير من جرحى هذه الحراقة (138). بعد أن حصل الاتفاق المذكور أطلقوا سراحهم ملتزمين بإصلاح الحراقة و إعادتها للجزائريين.لقد توفي حميدو في هذه المعركة. عن كيفية مقتله، يقول الزهار:" دخلت عليه كورة،و هو واقف على كرسيه فقسمته نصفين،و مات رحمه الله في أول القتال،فتقدم إليه خليفته أحمد ولد عمر،و يسمونه الباش رايس،و حمله،و ألقى به في البحر،و وقف في مكانه للقتال "(139) .

كانت الجزائر قد عرفت جفافا سنة 1815،تلاه هجوم أسراب الجراد على الشمال،في فصل الصيف،فأتلفت المحاصيل.انجرت عن ذلك مجاعة كبيرة.في هذا الظرف الصعب جاء الأسطول الإنجليزي ليقصف مدينة الجزائر.

طُرحت مسألة القرصنة في مؤتمر فيينا،الذي جمع الدول الأوربية في نهاية سنة 1814 وبداية السنة الجديدة.لقد جاء هذا المؤتمر بعد هزيمة نابوليون في واترلو.في هذا المؤتمر قدم الإنجليزي سيدني سميث مشروعا لمحاربة القرصنة. استغل الإنجليز قرار مؤتمر فيينا القاضي بمنع تجارة الرقيق لكي يوجهوا دعوة إلى الدول المعنية إلى عقد مؤتمر في لندن لدراسة الإجراءات التي يتعين اتخاذها في هذا الصدد. تحول اللقاء منذ الاجتماع الأول،يوم 28 جويلية، عن

موضوعه و هو محاربة تجارة الرقيق على السواحل الغربية من إفريقيا، إلى محاربة " القرصنة البربرية " على سواحل المغرب (140). و كانت إنجلترا قد أرسلت اللورد إيكسموث في حملة ترهيبية إلى سواحل بلاد المغرب.

في بداية 1816 تلقى اللورد ايكسموث الأمر بالسير إلى بلدان المغرب، ليطلب منها تحرير العبيد الإيونيين (من سكان الأرخبيل الإيوني، غرب اليونان و قد أصبحوا رعايا إنجلترا بفعل التسوية السياسية) و إقامة السلم في صالح سردينيا و التفاوض مع دول المغرب لصالح دول البحر المتوسط عموما. قبل أن ينطلق أسطوله في اتجاه المنطقة و لأن احتمال اللجوء إلى استعمال القوة كان واردا، أرسل اللورد إيكسموث قبطانه وارد إلى الجزائر لدراسة الوضعية، خاصة وضعية التحصينات الدفاعية. أنجز وارد مهمته في سرية تامة، حتى أن القنصل الإنجليزي في الجزائر لم يعلم بها. اعتبر اللورد حملته في مذكرة إلى ضباطه و بحارته عملا " في سبيل قضية مقدسة إنسانية " مشرفة (141).

وصل الأسطول الإنجليزي إلى الجزائر في أفريل. حصل على ما أراد، حيث تقرر تحرير العبيد الأيونيين و أقيم السلم لصالح نابل و سردينيا مقابل أن تدفع نابل خمسمائة دولار و أن تدفع سردينيا ثلاثمائة دولار. بعدها سار هذا الأسطول إلى تونس و منها إلى طرابلس، ليحصل هناك على نفس ما حصل عليه في الجزائر، ثم عاد إلى هذه الأخيرة ليقدم طلبا جديدا، كانت دولته قد طالبت به، و يتمثل في تخلي الجزائر عن استعباد المسيحيين. رفضت السلطة التركية في الجزائر طلبه هذا، رغم تهديده بتخريب المدينة. اشترط الداي استشارة السلطان العثماني. في 23 ماي، و كان إيكسموث لا يزال في الجزائر، قتل عدد من الرعايا الإنجليز صيادي المرجان في عنابة من طرف الجنود الأتراك، غير أن إيكسموث لم يعلم بالخبر إلا عندما وصل إلى إنجلترا (142). عاد الأميرال إلى الجزائر. وصل المدينة في 26 أوت على رأس أسطول من 19 قطعة بحرية، و إلى جانبه عمارة هولندية بقيادة البارون كابلين، انضمت إليه في جبل طارق. علم اللورد في الطريق، من سفينة عائدة من الجزائر، أن هذه الأخيرة تتهيأ لمواجهته و أن بها أربعين ألف مقاتل و أن الإنكشارية قد تجمعت في المدينة من مناطق مختلفة و أن الأسطول الجزائري على أهبة الاستعداد (143). لكن هذه الاستعدادات لم تثنه عن مواصلة تنفيذ مشروعه، لفرض الشروط الإنجليزية و لو بالقوة.

أحرق الأسطول الإنجليزي، في قصفه لمدينة الجزائر، ما يقرب 118 طنا من البارود، إذ أطلق حوالي 51 ألف قنيفة من مختلف الأنواع، تمثل أكثر من خمسمائة طن من الحديد. لكن الإنجليز خسروا 128 قتيلا و 690 جريحا، و خسر الهولنديون 13 قتيلا و 52 جريحا من جنودهم (144). و كما يقول شالر، القنصل الأمريكي في مدينة الجزائر، " لقد كانت بطاريات المدافع الجزائرية التي تشتمل على ثلاثة آلاف قطعة تنازع الأسطول المهاجم شرف المعركة. " لكن الجزائريين اعترفوا " بعجزهم على المزيد من المقاومة، في الوقت الذي كان فيه الأسطول المشترك

يبدو على استعداد لاستئناف الهجوم " و " قبلوا الشروط المهينة التي قدمها المنتصرون ". هذا و يقدر شالر عدد القتلى و الجرحى من الجزائريين بحوالي ستمائة شخص (145). لكن مدينة الجزائر لحقتها أضرار كبيرة. و تحطم الأسطول الجزائري الذي كان راسيا بالميناء كله تقريبا، فقد فقد 4 بوارج حربية و 5 سفن متوسطة الحجم و 23 زورقا و عددا كبيرا من المراكب التجارية المتنوعة (146).

انتهت المفاوضات بين الإنجليز و الداي عمر، يوم 30 أوت، إلى ما يلي:

- إنهاء استعباد المسيحيين إلى الأبد.
- تسليم الأسرى المسيحيين.
- استعادة الأموال التي قدمت للجزائر منذ بداية السنة كفدية للأسرى.
- اعتذار السلطات الجزائرية للقنصل الإنجليزي لما لحقه من أضرار.
- اعتذار الداي للأنجليز علنا. (147).

أبحر الأسطول عائدا، يوم 8 سبتمبر، يحمل مئات العبيد الذين تم تحريرهم.

رغم أن الأتراك عملوا على إعادة بناء الأسطول، حيث اشتروا بعض المراكب و بنوا أخرى و أهداهم الباب العالي و المغرب و طرابلس عددا آخر (148)، إلا أن هذا الأسطول لم يعد قادرا على ممارسة قرصنة واسعة. لقد ولّى عهد القرصنة الجزائرية.

انقلاب علي خوجة على الإنكشارية

عرفت السلطة التركية في الجزائر اضطرابا كبيرا بعد حملة اللورد أيكسموث. بدأ مع اغتيال الداي عمر، في سبتمبر 1817. أورد دوفال رواية أحد رياس البحر القدامى عن سلوك هذا الداي مفادها أنه كان " صعب المزاج و كثير الشروط " إلى درجة أنه أمر حميدو أن يأتيه بحراقة أمريكية، فامتثل و في محاولته قُتل (149). وقال الزهار إنه " كان سفاكا للدماء " (150). لقد جاء اغتيال عمر داي في ظروف صعبة عرفتها مدينة الجزائر، من جراء التخريب الذي أحدثته حملة الإنجليز و ما تركته من إهانة للسلطة التركية لم يسبق لها مثيل. لما تمردت عليه الإنكشارية حاول ان يقاوم فلم يجد من يقف إلى جانبه. استسلم مقترحا أن يُعدم شنقا، فكان له ما أراد. عين المتمردون مكانه علي خوجة الذي كان منهم هو كذلك. بعد أن تمت العملية، سُلم إليه خنجر عمر باشا . " وصل العسكر إلى دار الإمارة ، و أجلسوا علي باشا على سرير الملك و قدم الديوان و الفقهاء و أعيان البلد، و ألبسوه الخلعة و ضربوا المدافع والنوبة و نادى المنادي في الأسواق بنصره، و بايعه الفقهاء و كافة الوزراء و أهل الديوان " (151). لكن الداي

الجديد ما إن استقر في الحكم حتى انقلب على الذين نصبوه.

بعد أن أحاط نفسه بجنود من الزواوة و الكراغلة (152)، بلغ عددهم مائة جندي أخذ الداي علي خوجة يصفي محيطه. عزل وزراء و قتل آخرين و نفى الخزناجي إلى تلمسان وخوجة الخيل إلى مستغانم و شنق الآغا و أضاف نائبين آخرين لوكيل الحرج فصاروا أربعة. ثم نقل مقر الإمارة من قصر الجنينة إلى القصبة، و كذلك فعل مع الخزنة، فبعد أن فتحها، أمر خدمه " أن يحملوا على .. أربعمائة بغل ما بها من الذهب، ففعلوا ما أمرهم به و حملوا كل ذلك على البغال و حمل كذلك ما بها من بقية المال، و السلاح المحجّر و الأثاث الثمين و أواني الذهب و الفضة و الفراش " (153). أثارت عملية نقل مقر الحكم إلى القصبة حفيظة عناصر الإنكشارية. اتفق بعضهم على قتله و لما علم بالمؤامرة أمر براحه يدعو الناس إلى الالتفاف حوله " فهرع الناس إلى القصبة، و فيهم كبراء العسكر، فامتلأت القصبة بهم و أعطاهم السلاح، و كثرة الناس بقوا خارج القصبة، فلما رأى العسكر ذلك رأوا أنهم لا طاقة لهم عليه ". استسلم الكثير منهم. قام الشواش بعمليات اعتقال في صفوف المتآمرين. ألقوا القبض على سبعة منهم، هم كبارهم. أمر الداي " بقطع رؤوسهم عند باب القصبة إهانة لهم، لأن العسكر الذين يستوجب القتل يخنق في دار سركاجي ". تواصلت عمليات البحث عن البقية، في الوقت الذي انشغل فيه هو ببناء القصبة و تحصينها أكثر، و " عين نحو الثلاثمائة من البغال يحملون بقية المال من الخزنة القديمة إلى الخزنة الجديدة في كل ليلة " (154).

كانت المؤامرة واسعة النطاق، فمحلة (طابور) الشرق التي كانت في طريقها إلى الجزائر، بقيادة خليفة الباي، كانت تنوي القضاء على الداي. يبدو أنها كانت على اتفاق مع عسكر مدينة الجزائر، إلاّ أنها وصلت في وقت غير مناسب. لقد ضربها الداي بالكور من رأس تافورة لما كانت هي في عين الربط. و " نادى مناديه في البلدان من اتاه برأس تركي أو زيتوني (من مخزن الزواتنة في يسر) من رجال المحلة فله كذا و كذا " بهذه الطريقة أمكن له أن يلقي القبض على الكثير من المتآمرين (155). دسّ الداي مخبرين داخل العسكر يلتقطون اخبارهم فصفى الكثير منهم. كما لجأ إلى أسلوب النفي من البلاد. طالت العملية مائتي عائلة تركية، انتقلت إلى تونس و طرابلس و تركيا. كان الكراغلة و الزواوة يقفون إلى جانبه في هذه العمليات (156). " و نحن إذا أردنا ان نذكر كل أخباره مع الأتراك لم نقدر على الوفاء بذلك "، كما يقول الزهار. لقد اغتال باي وهران بالقرب من مليانة و ولّى مكانه حسن باي، كما أمر بقتل جعفر باي قسنطينة و عين مكانه الباي أحمد المملوك (157).

جاءت الضربة التي وجهها علي خوجة للإنكشارية في وقت كانت تعرف فيه هذه الإنكشارية تصفيات واسعة النطاق في الدولة العثمانية نفسها، في إطار الإصلاحات التي بدأها السلطان محمود الثاني (1808 ـ 1839)، و التي تركزت على تحديث الجيش. إن الهزائم

التي تكبدتها الدولة العثمانية في مولدافيا و صربيا و اليونان قد أدت بالسلطان إلى القيام بتصفيات واسعة النطاق داخل هذه الإنكشارية،ثم لم يجد بعد ذلك بدا من حلها نهائيا سنة 1826.في الجزائر لم يتم حل هذا الجيش الذي ظل حجرة عثرة في طريق جزأرة السلطة بخلاف ما وقع في تونس سنة 1811،على يد حمودة باشا.مع هذا فإن التصفيات التي قام بها علي باشا قد أدت إلى بعض الاستقرار في السلطة، الشيء الذي مكّن الداي حسين من البقاء في الحكم مدة 12 سنة،و هي فترة لم يشهدها داي آخر منذ محمد بن عثمان.

توفي علي خوجة في مارس 1818،بعد أن أصيب بوباء الطاعون،الذي أتى على الكثير من الناس.لقد مات من جرائه أكثر من 14 ألف نسمة في مدينة الجزائر وحدها في سنتي 1817 و 1818، و على ثلثي سكان مدينة عنابة. لقد ضرب كل الجهات الجبلية منها و الصحراوية (158).

هذا على مستوى السلطة. في المقاطعات تواصلت الاضطرابات التي عرفتها الجزائر، في أوائل القرن التاسع عشر، في كل الجهات من الشرق إلى الغرب.

وضعية بايليك التيطري

كان الباي إبراهيم (1814 ـ 1816) يطارد قبائل أولاد نايل،في بايليك التيطري. كانت القبائل الرحل في هذا البايليك مُراقبة في تحركاتها من طرف قبيلة أولاد مختار الغرابة. كانت قبيلة أولاد مختار قبيلة أجواد يقودها لخضر بن قويدر في هذا الوقت. في يوم من الأيام أخبر هذا القائد الباي بأن أولاد نايل،الذين رفضوا دفع الضريبة، قد عسكروا في مجدل.سار الباي إليهم من المدية رفقة ثلاثين صبايحيا. في البرواقية، نظم طابوره من مائة زبنطوط يمتطون البغال.سار إلى أم العظم،أين انضم إليه 550 فارس من عبيد الدواير و أولاد مختار. سار بهم إلى عين وسارة ثم إلى مجدل ليلا فباغت أولاد نايل في أول الصباح و غزاهم ففروا إلى جبل بطن دروة،الذي يهيمن على مجدل. لاحقهم الزبنطوط و ألقوا القبض على 12 فردا منهم (159). هذه الحملة لم تُنه تمرد قبائل الجنوب.

في عهد الباي إبراهيم القسنطيني (1817 ـ 1819)، جهز الأتراك حملات ضد هذه القبائل الجنوبية مدفوعين من أولاد مختار.أهم هذه الحملات هي تلك التي نُظمت ضد أولاد الضاية (من أولاد نايل)، العشيرة التي كانت تحت قيادة بلقاسم بن الرعش و التي كانت مخيمة في المطمورة،في السفح الجنوبي لجبل السحاري.كانت الغنيمة كبيرة،منها ألفا رأس جمل و عشرة آلاف رأس من الغنم،و لكثرة ما قُطع من رؤوس العباد حُملت الرؤوس في ثلاث شواريات كاملة (160). كانت الوضعية صعبة في البايليك،بحيث تخلى الباي الجديد مصطفى

عن مسؤوليته، بعد ستة أشهر فقط من تعيينه. حلّ محله مصطفى بومزراق (1819 - 1830). في عهد هذا الأخير، و بفضل سياسة يحي آغا التي قامت على استمالة الأجواد دون استعمال القوة، أمكن إخضاع أولاد بوعيش، أولاد الشايب و أولاد نايل الذين نُقلوا من التبعية لبايليك التيطري ليصبحوا رعايا آغا العرب في دار السلطان مباشرة (161).

قام مصطفى بومزراق، في أول عهده، بغارة على أولاد فرج بالتعاون مع أحمد بن قشيدة شيخ أولاد مختار الشراقة. كانت القبيلة هذه معسكرة في عين الريش، جنوب غرب بوسعادة. كانت الغنيمة هامة تلك التي حصل عليها الباي من قبيلة أولاد فرج. كما غزا أولاد الشايب، لكن هذه الغزوة لم تكن لها أهمية (1823)، لأن القبيلة علمت بقدوم الباي قبل وصلوله، و وقفت إلى جانبها قبائل أخرى في أم الزبوج و في السرسو. فقد الباي عددا من جنوده في هذه الحملة، منهم الشاوش إبراهيم التركي و الباش سيار قويدر بن جبور. هذه الهزيمة اضطرت يحي آغا لتسيير حملة بنفسه ضد أولاد الشايب فأخضعهم سنة 1824 (162).

في سنة 1825 جاء أولاد الضاية (من أولاد نايل) ليعسكروا في الباردة، ثم انتقلوا إلى عين وسارة هروبا من دفع الحصة. فقام الباي بغزو التيطري متهما سكانها ببيع الحبوب لأولاد نايل. بعد ذلك عين دهيليس بن أحمد على رأس أولاد مختار. ظل دهيليس على رأس القبيلة إلى أن احتل الفرنسيون مدينة الجزائر (163). من أولاد نايل أنتقل الداي لمواجهة قبيلة لرباع.

كانت قبيلة لرباع مُتهمة بدعم التيجاني في تمرده و هجومه على بايليك الغرب، كما سنرى لاحقا. جمع الباي قوم بني سليمان، عريب، جندل و كل القبائل التي كانت تابعة للآغا. شكل حملة على القبيلة المتهمة، و ألقى القبض على 24 شخصية من شخصياتها، منهم الشيخ سليمان بن أحمد السفطايرة. اقتيد هؤلاء، باستثناء الشيوخ إلى الجزائر أين حُكم عليهم بعام من الأشغال الشاقة. لقد توفي الشيخ سليمان بعد عام. هذا و قد استولى الباي في هذه الحملة على أكثر من عشرة آلاف جمل (164). في 1826 و بأمر من الباي، غزا دهيلس أولاد مختار الشراقة في قصر ابن عزوز غرب أفلو. استولى على خمسمائة رأس جمل و أربعة آلاف رأس غنم (165). باختصار، ظل بايليك التيطري يعيش هذه الاضطرابات إلى أن احتل الفرنسيون مدينة الجزائر.

لقد اعترف الباي بومزراق بالفرنسيين، الذين عينوه من جديد بايا على التيطري، ثم انقلب عليهم منصبا نفسه ممثلا للدولة العثمانية في الجزائر منافسا في ذلك الحاج أحمد باي قسنطينة. نظم المقاومة ضد الفرنسين، غير أنه فشل فيها. نصب الفرنسيون مكانه في المدية أحد أقارب الداي حسين هو مصطفى بن عمر.

وضعية بلاد القبائل

كانت السلطة تواجه اضطرابات عديدة في أواخر عهدها في منطقة القبائل الكبرى. في 1818 خربت قبيلتا غشتولة و بني صدقة برج بوغني فأعاد يحي آغا بناءه (166). كانت قيادة بوغني تضم في هذا الوقت غشتولة و بني صدقة و أولاد عبد المؤمن و جزء من المعاتقة، أما قيادة سباو، التي تتبعها بوغني، فكانت تضم بني خلفون، فليسة أم الليل، بني طور، مدينة دلس، وادي الحمام، بني عيسي، بني ثوالة بني زمنزر، بني بطرونة، بني خليفة، وجزء من المعاتقة، أما سكان جرجرة، بنو إيراثن و الزواوة فقد كانوا مستقلين.

في سنة 1819 حدث التمرد الذي قاده محمد أوقاسي. شاركت فيه 16 زمالة في عمراوة و جرّت معها زمالات واقنون. لقد قتل محمد أوقاسي سنة 1820 من طرف الأتراك. و معلوم أن ولديه بلقاسم و محمد قد استعملهما الفرنسيون فيما بعد باشاغوين في سباو (167).

لما قرر الداي حسين التخلي عن أخشاب غابات نواحي بجاية و استبدالها بغابات الزان في جبال تامقوت التابعة لبني جناد، رفضت قبيلة بني جناد الاستجابة لدعوته، على الرغم من الامتيازات التي منحها إياها. كان رد فعل الداي أن قرر إيقاف كل بني جناد الذين كانوا يعملون في المدن كخدم أو كعمال، و كان عددهم في مدينة الجزئر حوالي مائتي شخص، و أرسل محمد بن كنون (شاوش الآغا) على رأس الزمول و قوم يسر لغزو بني جناد. كانت هذه الغزوة بداية الحرب. كان على رأس بني جناد، في تمردهم، حسوش النباهة. التحق بنو واقنون بالتمرد بقيادة أحمد نايث يحي. كانوا يشتكون من الضرائب الثقيلة و أعمال السخرة المفروضة عليهم. هاجم بنو واغنون سكانَ السهل من بني طور الخاضعين للأتراك، فأُقيمت زمالة براروت لحمايتهم، و اضطر أهل تاورقة لإقامة نقاط دفاع عن أنفسهم. في ربيع 1825 سار إليهم يحي آغا، على رأس طابور متكون من خمسة أو ستة آلاف إنكشاري و عدد كبير من الفرسان والمدفعية. بدأ بواغنون. في طريقه من برج سباو إلى قرية آيث سعيد أين التحقت به فليسة البحر، كانت القوات التركية تتعرض لهجمات السكان. في آيت سعيد أحدث الآغا مجزرة بقطع رؤوس ثلاثمائة شخص. نُقلت الرؤوس إلى سباو مع الغنائم و الأسرى الذين كان بينهم النساء و الأطفال. من آيت سعيد سار إلى عشائر أولاد عيسى ميمون، إلى أن بلغ قمة جبل عيسى ميمون، غير أنه لم يحقق انتصارا، بل فقد الكثير من خيوله. سار إلى عشيرة ياسكرن، أين أضرم النار في العديد من القرى. لم يغادر المنطقة إلا بعد أن استسلمت قبيلة واغنون و دفعت الضريبة، و أعادت الخيول و في المقابل أطلق هو سراح الأسرى (168). بعد بني واغنون سار الآغا إلى بني جناد، أين استعمل المدفعية و قطع أشجار التين و الزيتون. لكنه لم يحقق مبتغاه

فاضطر للتفاوض. كلف محمد بن كنون للقيام بدور الوسيط في اجتماع حضره محمد بن كنون وصفطة قائد سباو و شيخ تامدة و أعيان عمراوة من جهة، و حدوش النباهة و ممثلو عشائر بني جناد من جهة أخرى، أعلن عن إقامة السلم بين الطرفين (169).

في هذه الآونة كانت المناطق السفلى الجنوبية من بلاد القبائل تعرف صراعات القرانيين و حربا بين القبائل و الأتراك.

كان الصراع دمويا بين القرانيين. في 1819 أحدث صف أولاد عبد السلام و أولاد الحاج عبد الله مجزرة بين أولاد قندوز في العربة، جنوب برج بوعريرج. كان الباي محمد بن داود الميلي وراء هذا التناحر. في سنة 1824 ألحق هذا الصف الهزيمة بأولاد قندوز و أولاد بورنان في قميز (170). ظل التناحر قائما بين القرانيين إلى أن غزا الفرنسيون مدينة الجزائر.

لما جاء الفرنسيون غازين لمدينة الجزائر كان القوي ،بين القرانيين، هو أحمد القراني، من فرع أولاد الحاج، و كان هو المقرب من أحمد باي قسنطينة، الذي عينه على رأس مجانة. لقد شارك القرانيون في مقاومة الحملة الفرنسية، و انسحبوا مع أحمد باي. و إذا كان أحمد القراني قد بقي إلى جانب أحمد باي، فإن محمد عبد السلام العايب كان ناقما عليه فأظهر ميله واستعداده للتقرب من الفرنسيين. اعتقله الباي و وضعه في سجن الكدية، إلا أنه فرّ سنة 1837، أثناء الحملة الفرنسية الثانية على المدينة و اغتنم فرصة انشغال أحمد القراني، الذي كان يحارب إلى جانب الباي في قسنطينة، و استحوذ على السلطة في مجانة، إلى أن عينه الأمير عبد القادر خليفة له في المنطقة. الشيء الذي جعل أحمد القراني يتصل بالفرنسيين ليعينوه خليفة في مجانة (171) بعد سقوط قسنطينة بأيدي الفرنسيين. ظل أحمد القراني خليفة إلى أن توفي سنة 1853. خلفه ابنه محمد القراني بلقب الباشاغا في مجانة، و قد بقي محمد القراني في مسؤوليته إلى أن انتفض ضد الفرنسيين سنة 1871 فقتل، و بموته انتهت إمارة مجانة التي ورثت إمارة بني عباس.

في سنتي 1823 و 1824 شهد وادي الساحل حركة تمردية واسعة ضد السلطة التركية. في سنة 1823 طوقت القبائل القريبة من بجاية سكان هذه المدينة، فاتخذ الداي حسين قرارا يقضي بطرد الأشخاص الذين ينتمون لهذه المنطقة الموجودين في المدن بمن فيهم خدم القناصل (172). و لما دخل شواش الداي إلى دور القناصل لإلقاء القبض على الخدم غضب القنصل الإنجليزي و غادر الجزائر احتجاجا على انتهاك حرمة القنصلية (173). في غياب القنصل نُهبت داره التي تقع خارج مدينة الجزائر، فأرسل الإنجليز أسطولا بقيادة الأميرال سير هاري نيل، وصل مدينة الجزائر في 31 جانفي من سنة 1824. حاصر ميناءها إلى غاية 26 جويلية، حيث تم الاتفاق على معاهدة جديدة مع الجزائر (174). نصت المعاهدة على إعادة

القنصل و دفع العوائد،الإتاوة التي كان يُرفض دفعها (175). لهذا الحصار انعكاسات على الوضعية في وادي الساحل.

أثناءه،وصل مجندون من أقاليم الإمبراطورية العثمانية،و لما كان ميناء الجزائر محاصرا نزلوا في ميناء بجاية،لكنهم وجدوا أنفسهم أمام مشكل آخر.لم يكونوا قادرين على الالتحاق بالعاصمة برّا بسبب تمرد قبائل وادي الساحل.استعمل يحي آغا شاوشه محمد بن كنون لحل المشكلة. لجأ الأخير إلى الحاج المولود،مرابط بني يجور الذي توسط له لدى قادة قبائل وادي الساحل.استعمل ابن كنون سياسة ضرب الصفوف بعضها ببعض.كانت قبائل الساحل كلها تخضع لأورابح التمرد. و كان لهذا الأخير خصم قوي هو عبد السلام من قبيلة فناية. و كان يكفي أن يقف أورابح ضد الأتراك ليقف عبد السلام إلى جانبهم.اتصل ابن كنون بعبد السلام فدعا هذا الأخير صفه من فناية و الزرارقة و بني وغليس،و سهّل انتقال الجنود الأتراك إلى الجزائر. في هذه الأثناء كانت هناك فرقة عسكرية تركية في طريقها من قسنطينة إلى مدينة الجزائر ،أوقفها بنو عباس في ممر البيبان بحجة أن باي قسنطينة لم يدفع الخمسمائة رأس من الغنم،التي تمثل الرسم الذي تعوّد على دفعه مقابل المرور عبر الممر.لجأ الشاوش لاستعمال القوة. سار رفقة قوم أولاد بليل،بقيادة منصور و علي بني رقيق،إلى بلاد ونوغة أين بقي صف اكحل عينو و أهل مزيتة خاضعين للأتراك. لكن ما إن شاهد بنو عباس تلك القوات معسكرة في وادي غير حتى هاجموها ثم تخلوا عنها،الأمر الذي سمح لابن كنون بنقل الفرقة العسكرية التركية الموقوفة في البيبان إلى مدينة الجزائر. في ردّ فعل منه، أمر الداي بإيقاف كل أفراد بني عباس الموجودين في مدينة الجزائر و الزج بهم في السجون (176).

قبل أن يرفع الإنجليز حصارهم عن المدينة المذكورة،حان موعد تغيير حامية بجاية.رافق ابن كنون الحامية الجديدة المتكونة من الإنكشارية،رفقة قوم قبيلة عريب و أولاد بليل. وصل بجاية بسلام،لكن عند عودته مع الحامية القديمة،هاجمته عشيرة بوجليل في طاماطا،على الضفة اليسرى من وادي الساحل،قبالة بني عباس.جمع ابن كنون مقاتلين من القبائل الخاضعة و هاجم العشيرة ثم لاحقها إلى غاية قُراها. لما تدخل بنو عباس تراجع و سار إلى الجزائر. بعد أن رفع الإنجليز حصارهم عن مدينة الجزائر،سار يحي آغا بنفسه إلى بني عباس،في أوت **1824**،على رأس ألف تركي و حوالي ثمانية آلاف فارس. عسكر في طاماطا،قبالة بني عباس. استسلمت له عشيرة بوجليل. هاجم عشيرة إيغيل علي و استولى على قراها (أولاد محمد أوموسى،أولاد تلابور،تاوريرت ،طنفسة،أولاد سعيد و أولاد قندوز) ثم أضرم النار فيها بعد نهبها. فقد بنو عباس الكثير من أبنائهم،كما أسر الأتراك ثمانين منهم. اضطرت القبيلة لقبول شروط الآغا: دفع ضريبة و تقديم رهائن نقلوا إلى مدينة الجزائر (177).

ما أصاب بني عباس جعل قبائل وادي الساحل تستسلم ليحي آغا. نذكر من هذه القبائل بني مليكش، يلولة، بني وغليس، بني عبد الجبار، فناية الخ. بعد هذا سار الآغا إلى ونوغة لعاقبة قبائل صف ابيض ودنو الذي شارك في حركة التمرد. استسلم الصف من دون قتال. من هناك سار الآغا إلى قبائل ممزاية و بني مسعود، الذين كانوا قد حاصروا بجاية في السنة الماضية. أضرم النار في كل قراهم و قتل العديد منهم و غنم غنيمة كبيرة، ثم عين أورابح نفسه - الذي كان على رأس المتمردين، لكنه اتصل بالآغا قبل وصوله - قائدا لقبائل المناطق السفلى من وادي الساحل. عاد الآغا إلى مدينة الجزائر في سبتمبر من نفس السنة (178).

وضعية بايليك الشرق

تزامنت اضطرابات بلاد القبائل، أو الجهة الغربية من بايليك قسنطينة، مع اضطربات أخرى في الجهة الشرقية منه.

في سنة **1818** سيّر أحمد الملوك، باي قسنطينة، حملة على تقرت، بتحريض من فرحات بن سعيد الدوادي شيخ العرب، الذي كان يريد القضاء على سلطنة بني جلاب. عمد الباي إلى تخريب منطقة تقرت. قطع نخيلها و طمس المياه فاضطر محمد بن جلاب إلى تقديم ضريبة سنوية تقدر بمائة ألف ريال بسيطة (179). الصراع الذي كان بين إمارة بني جلاب في تقرت و الأتراك هو الذي أدى إلى اتصال بني جلاب بالفرنسيين، بعد سقوط مدينة قسنطينة و استيلاء الفرنسيين على بسكرة سنة **1844** كان عبد الرحمان بن جلاب من الذين أسرعوا للتعاون مع الفرنسيين ضد الباي أحمد الذي قاوم توسعاتهم.

بقي فرحات بن سعيد على رأس مشيخة العرب، في عهد الباي الملوك، و في عهد الباي الميلي، لكن الباي أحمد أبعده عن هذه المسؤولية. لما جاء الباي أحمد إلى قسنطينة سنة **1826**، خرج إليه أخواله من عائلة ابن غانة فاستقبلوه و طالبوه بإعادة تعيين شيخ العرب منهم، ففعل. انقلب عليه الدواودة و حاربوه إلى أن جاء الفرنسيون غازين لمدينة الجزائر. رفضوا نداء داي الجزائر فلم يشاركوا في مواجهة الحملة الفرنسية (180). بعد أن استولى الفرنسيون على المدينة الجزائر، اتصل فرحات بن سعيد بهم. أما شيخ العرب بوعزيز بن غانة فقد بقي إلى جانب الباي إلى أن سقطت قسنطينة بيد الفرنسيين سنة **1837**، فانتقل هو الآخر إلى جانبهم وتخلى عن الباي، كما فعل أحمد المقراني و بوعكاز بن عاشور شيخ فرجيوة.

في فرجيوة، نقل أحمد باي، سنة 1826، قيادة المشيخة من مقورة إلى بورنان ابن الدراجي. رفض مقورة هذا التغيير و انتقل إلى جبال أرّاس، لينظم المقاومة. ظل متمردا على الباي أحمد إلى أن جاءت الحملة الفرنسية. لقد شاركت فرجيوة إلى جانب الباي في مقاومة الحملة باسطاوالي. أبلى فرسانها بلاء حسنا. كما شارك مقورة في ذلك شخصيا تحت قيادة ابن عمه بورنان. في غياب بورنان ناب عنه في إدارة فرجيوة ابن أخيه بوعكاز. بعد العودة من الجزائر وجد مقورة رفضا قاطعا من بوعكاز لأية مصالحة. عادت بذلك العداوة من جديد، و ظلت قائمة إلى أن انضم مقورة سنة 1834 إلى الباي المزعوم إبراهيم الذي حاول الإطاحة بأحمد باي، كما انضم إلى إبراهيم هذا فرحات بن سعيد الدوادي. و لما ألحق أحمد باي الهزيمة بهم في مشيرة، نزح مقورة إلى الجبال لدى أولاد عامر. لكن عمره لم يدم طويلا. اتهم بوعكاز بدس السم له (181). لما أزاح بوعكاز عمه الشيخ بورنان و حل محله ظلت العداوة قائمة بينه و بين الدراجي ولد مقورة، إلى أن اضطر أحمد باي إلى تقسيم فرجيوة بينهما. غير أن بوعكاز تخلص من الدراجي بقتله و هو في طريقه من قسنطينة إلى فرجيوة، فأصبح بذلك سيد فرجيوة بدون منازع و دخل في صراع مع القبائل الجبلية مثل بني فوغال، بني مروان، بني عافر، بني مجالد، ريشة و غيرها (182). بعد سقوط قسنطينة بيد الفرنسيين انتقل بوعكاز إلى جانب فرنسا، التي عينته خليفة على فرجيوة سنة 1838. بقي كذلك إلى أن خلعته سنة 1865، في إطار ضرب العائلات الكبيرة التي كانت تعتمد عليها في المراحل الأولى من الاحتلال.

كانت الوضعية مقلقة في شرق بايليك قسنطينة، قبل و بعد حملة فرنسا على مدينة الجزائر. كان بايات قسنطينة يعانون مشاكل مع قبيلة الحنانشة و كانوا يسعون للقضاء على الأحرار قادة و سادة هذه القبيلة الكبيرة التي كانت على الدوام مصدر اضطرابات على الحدود الشرقية.

كان الأحرار يستعملون كتابا من عائلة أولاد أحمد بن علي، و هي من عائلات الحنانشة. لما وقعت الخلافات بين الأحرار، انضم أولاد بن علي إلى الأحرار المناصر و منذ ذلك الحين استعمل الأحرار من ابن ناصر كاتبا كان طالبا لقبيلة ويلان، اسمه منصور بن رسغي. هذا الكاتب قطع الباي رأسه في حوالي 1796. ترك ابن رسغي هذا ولدا طموحا اسمه ابن المنصور. لما كان الحاج أحمد (باي) قائدا للعواسي، الحراكتة، كان شابا يهوى الصيد في أراضي هذه القبيلة، فتعرف عليه رسغي بن المنصور، الذي كان في سنه، باعتباره كاتبا لشيخ الحنانشة، و لما عُين الحاج أحمد بايا لقسنطينة، ذهب رسغي بن المنصور إلى قسنطينة لتهنئته

فأحسن الباي ضيافته و طلب منه أن يساعده كي يتخلص من شيخ قبيلة أولاد سيدي يحي بن طالب، المتمرد على الأتراك في ذلك الحين (183).

في حوالي 1812 ثار أحد الدجالين اسمه محمد بن عمار الفرجاني على تونس. ادعى أنه شريف من قبيلة ماجر التونسية. بعد أن اخفق مرات عديدة أمام القوات النظامية التونسية، نزح إلى الحدود الجزائرية الشرقية. لما وصل إلى قبيلة أولاد يحي بن طالب منعه شيخها الزين بن يونس من الولوج إلى أراضي إقليمها بقوة السلاح. كتب الفرجاني إلى باي قسنطينة شاكر. أمر هذا الأخير بالسماح له بالمرور فامتثل الشيخ ابن يونس و سمح للفرجاني بالمرور لكن دون أتباعه. بلغ الفرجاني قسنطينة و منها سار إلى الجزائر. قدم شكواه للداي، فأرسل الأخير يوبخ شيخ القبيلة. في سنة 1818، لما رافق الشيخ ابن يونس الباي الميلي إلى الجزائر لتسليم الدنوش، تعرض لتعنيف شديد من قبل الداي. في السنة الموالية، استلم الشيخ ابن يونس من الباي أبراهيم أمرا بالولوج إلى الأراضي التونسية للقيام بغزوات، الشيء الذي يتناقض مع الأوامر الشفوية التي تلقاها من الداي. رفض الامتثال للأمر، بل قرر الانفصال عن الجزائر و الالتحاق بالسلطة التونسية، فأصبحت بذلك قبيلته من رعايا تونس. حاول الباي إبراهيم، مرفوقا بالقوات التركية و مقاتلي أتباعه من الأهالي مرات عديدة أن يصل إلى جبل الدير، أين تحصن الشيخ ابن يونس، لكنه كان يفشل في كل مرة، و يخسر العديد من رجاله. حاول كذلك كل من الباي المملوك و الباي نعماني لكن دون جدوى. الأمر الذي أقلق الديوان و الداي في الجزائر. لهذا كان الشرط الأول لتعيين الحاج أحمد في بايليك الشرق هو القبض على الشيخ الزين بن يونس. مع العلم أن الحاج أحمد كان يعرف الشيخ، لأنه كان يرافقه في خرجات الصيد مع ابن رسغي في تبسة. في هذا الإطار حيكت مؤامرة اغتيال الشيخ الزين بن يونس. سار ابن رسغي إلى جبل الدير ليترجى الشيخ القيام بزيارة أحمد باي مؤكدا له أن الباي الجديد، صديقه القديم، قد عفا عنه و أنه يريد أن يثبت للديوان أن سكان البايليك قد استقبلوه جميعا بالترحاب. أرسل الشيخ، الذي انطلت عليه الخديعة، ابنه رفقة ابن رسغي ليعلم الباي أن أباه سيتقدم إليه. قدم الباي الهدايا لابن الشيخ، الأمر الذي طمأن والده، فسار إلى الباي بنفسه. في عين البيضاء استقبله ابن رسغي و سار معه إلى الباي، الذي كان معسكرا في مداوروش. ما إن وصل المكان المذكور حتى ألقى عليه الباي القبض و أرسله إلى مدينة الجزائر، أين وُضع في فوهة مدفع في القصبة و أُطلقت النار (184).

في هذه الأثناء كان الشيخ علي، من عشيرة الأحرار بن ناصر، قائدا لقبيلة الحنانشة. طلب ابن رسغي من الباي أحمد أن يقضي عليه فلبى الطلب. اعتقل الشيخ علي مع كل عائلته في قسنطينة متهما أياه باتباع سلوك الشيخ الزين بن يونس مع التونسيين. عين الباي ابن رسغي على رأس الحنانشة. كان هذا التغيير سببا في تمرد هذه القبيلة. هدد الحنانشة بوضع أنفسهم تحت حماية تونس، إن بقي ابن رسغي في قيادتهم. كان يقودهم في تمردهم هذا الحاج مبارك المنحدر من أحمد بن علي، الكاتب الأول للأحرار. لقد بقي الحنانشة منذئذ متمردين على باي قسنطينة، و تبعتهم في ذلك قبائل أخرى مثل النمامشة (185).

لم تكن علاقة النمامشة الرحل بالبايات في قسنطينة مختلفة عن علاقة الحنانشة بهم، فقد كانوا دائمي العصيان. نظم الباي شاكر حملات عديدة ضدهم في حوالي سنة **1815**. كما قام الحاج أحمد بعدة غارات ضدهم حين كان قائدا للعواسي. في سنة **1828**، لما انضموا إلى الحنانشة، جمع أحمد باي كل فرسان البايليك و تمكن من الحاق الهزيمة بهم. استولى على أكثر من **21** ألف رأس من أغنامهم و خمسمائة جمل من جمالهم (186). لكن هذا لا يعني أن الباي تمكن من إخضاعهم، فقد كان النمامشة مستقلين على الدوام تقريبا، يحدثون الاضطرابات على الحدود الجزائرية التونسية حتى الغزو الفرنسي للجزائر. لقد أرسلت أغلبية القبائل في بايليك الشرق مقاتليها رفقة أحمد باي لمواجهة الغزاة في الجزائر ماعدا الحنانشة، النمامشة و الحراكتة، الذين رفضوا المشاركة رغم الدعوة التي وجهت إليهم (187) و السبب في ذلك يعود إلى خلافاتهم مع باي قسنطينة.

وضعية بايليك الغرب: تمرد التيجانية

تميزت السنوات الأخيرة من الحكم التركي في الناحية الغربية بحركة التمرد التي قادها التيجانيون. كان الأتراك يريدون التخلص من التيجانيين في عين ماضي منذ محمد الكبير باي وهران. " كان ملوك الترك يخافون منهم أن يثوروا عليهم لكثرة أتباعهم من العرب " كما يقول الزهار (188). و كان للأتراك أن يخافوا خاصة بعد أن عاشوا الاضطرابات الخطيرة التي أحدثتها الطريقة الدرقاوية ببايليك الغرب.

لقد عرفت الطريقة التيجانية في الجزائر ازدهارا كبيرا بعد عودة ولدي سيدي أحمد التيجاني من المغرب الأقصى إلى عين ماضي و هما محمد الكبير و محمد الصغير. غير أن بعض المنشقين، الذين طردهم سيدي أحمد من عين ماضي إلى جبل عمور، جندوا مقاتلين

من الجهة الغربية و هاجموا المدينة. لما فشل هجومهم طلبوا دعم باي وهـران حسان، الذي لبّى دعوتهـم. حاصر عـين ماضي سنة 1820 فاضطرت الواحة لدفع الأموال مقابل تخليه عـنها، فاستلم الباي الأمـوال ثم قصفها بمدفعيته مدة 36 ساعة، لكنه فشل في اقتحامها. انصرف عنها. بعد سنتين حاول باي التيطري مصطفى بومزراق أن يقتحم واحة التيجانيين غير أنه أخفق هو الأخر (189). انتقل التيجانيون من الدفاع إلى الهجوم.

بطلب من قبيلة هاشم معسكر، سار الأخوان التيجانيان نحو معسكر سنة 1826. كان جيشهما يضم قبيلة لرباع و سكان القصور و عشائر أولاد نايل. كان الهدف هو الاستيلاء على وهران عاصمة البايليك نفسها (190). غير أن قبائل زغدو، التي تقطن بالقرب من الفيقيق، قطعت طريقهم في سوارة بالقرب من الشط (191). لقد بددت شملهم و أصيب سي أحمد الكبير بجروح بليغة نُقل على إثرها إلى عين ماضي أين أمضى شهرين بين الحياة و الموت (192).

في السنة الموالية، 1827، سار التيجانيون للمرة الثانية نحو وهران، بقيادة سي محمد الكبير، بلغوا أسوار المدينة. كانت هناك اشتباكات حامية في نقاط مختلفة. لكن في الوقت الذي كان فيه التيجانيون على وشك الانتصار، تخلت عنهم هاشم. انجرت عن ذلك هزيمة المهاجمين، الذين انسحبوا بعد أن فقدوا قائدهم محمد الكبير (193). يقول الحاج أحمد الزهار: " فلما وصل (محمد الكبير) إلى غريس و أخذ يقاتل أهل معسكر و استولى على بعض الجهات بعث الباي المال لكبراء الحشم (هاشم) لكي يتخلوا عنه، و خرج إليه من وهران بالقوم و أمر المحلة بأن تردفه فأصبح البايِ مقاتلا، و فرّ الحشم عن التيجاني و فرّ الكثير من جيوشه التي أتت معه و لم يبق معه ألا نحو الثلاثمائة من أعراب زكور. قاتلوا قتالا شديدا، إلى أن قُتلوا عن آخرهم ". و يذكر الزهار كذلك أن رأس التيجاني محمد الكبير قد أرسلت إلى الجزائر حيث صُلبت قبالة الباب الجديد. و " لكثرةِ ما كانوا يخافونه (الأتراك) بعثوا للسلطان محمود يبشرونه بقتله و بعثوا له بسيفه و الحجب التي كانت معه " (194).

بعد سي محمد الكبير، انتقلت القيادة السياسية للتيجانية إلى سي محمد الصغير، الذي لم يشارك في الحملة الأخيرة على وهران. تحالف مع سي أحمد بن سالم قائد الصف الشرقي لقبائل الأغواط و وسع نفوذ الطريقة إلى الناحية الغربية. يعود الفضل في هذا التوسع إلى سي الحاج علي، في تماسين، الذي ظل هو الرئيس الشرعي و الحقيقي للطريقة، و وسع نفوذ التيجانية في الصحراء الشرقية و تونس. توسع نفوذ التجانية بصفة خاصة نحو الجنوب حيث أقامت علاقات دائمة مع إفريقيا، التوارق و السودان. لم يتوسع هذا النفوذ عن طريق الدعوة فحسب بل توسع عن طريق التجارة الضخمة التي ينظمها مقدَمو الطريقة في الصحراء من شنقطي في أدرار الغربي إلى غاية تمبوكتو، سغو و فوطة السنيغاليتين. بفعل هذه النشاطات

التجارية تراكمت الأموال في عين ماضي و تماسين،في الفترة 1830 ـ 1843 (195)، بعد الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر.لعل هذا هو السبب الذي جعل الطريقة تهادن الاستعمار و ترفض الخضوع للأمير عبد القادر، بدعوى أنها تريد " الهدوء و الحياة الدينية و الاهتمام بأمور الدين "،كما جاء في ردّ التيجاني على الأمير عبد القادر مدعيا أنه " لا يملك القوة و لا النفوذ " و أن الله إذا أراد أن " يطرد " الفرنسيين فإنه " في غنى عن أذرع " التيجاني (196).لكن التيجانيين سوف يصطدمون بالفرنسيين مع أولاد سيدي الشيخ، بعد أن تلحق تجارتهم أضرار جمة.

إن حركة التيجانيين، و من قبلها حركة الدرقاويين،قد خلخلت بايليك الغرب، الذي كان يرأسه باي طاعن في السن. فقد كان الباي حسان " شيخا قد مل الحكم و لذلك لم يكن يطمح إلاّ في حياة هادئة "، كما يقول حمدان خوجة،زيادة على أنه لم يخلف أطفالا ،كما أنه " لم يكن محبوبا ". لهذا لم يكن مؤهلا لمواجهة الفرنسيين." عندما علم العرب بأن الفرنسيين دخلوا مدينة الجزائر ،رفضوا أن يواصلوا الاعتراف بسلطة الباي و شقوا عصا الطاعة. زيادة على ذلك، نهبوا المزارع التابعة له و استولوا على كل ماشيته كالدواب و الخيل الخ "،كما يقول حمدان خوجة (197).كل هذا جعل باي وهران يعترف بالسلطة الفرنسية.فظهر قادة آخرون لمقاومة الاحتلال،مثل الأمير عبد القادر.

هوامش الفصل الخامس

(1) انظر النصوص في : قنان. معاهدات. المرجع السابق ص 337 ـ 340.
(2) دردور. المرجع السابق ص 161 ـ 164.
(3) نفسه. ص 165.
(4) العربي الزبيري. تأسيس شركة بكري و بوجناح. مجلة " الأصالة ". عدد مارس أفريل 1975. ص 117.
(5) دردور. المرجع السابق ص 166 و 167.
(6) L.Charles FERAUD.Causes de l'abandon du comptoir de Collo par la Compagnie française en 1795.Revue Africaine.N°.21 (1877).pp.124 - 140.

(ل. شارل فيرو. أسباب تخلي الشركة الفرنسية عن محسب القل في 1795 المجلة الإفريقية. عدد 21 (1877) ص 124 ـ 140)

(7) دردور. المرجع السابق ص 168.
(8) نفسه.
(9) انظر: ألبير دوفال. الرايس حميدو. تعريب العربي الزبيري. المؤسسة الجزائرية للطباعة. الجزائر ص 32 ـ 34
(10) فيرو. أسباب تخلي. المرجع السابق ص 140.
(11) دوفال. المرجع السابق ص 35. انظر الهامش كذلك.
(12) الزبيري. المرجع السابق ص 121 و 122.
(13) قنان. معاهدات. المرجع السابق ص 194 ـ 196.
(14) انظر نص المعاهدة في : قنان معاهدات. المرجع السابق ص 341 و 342.
(15) انظر نص الرسالة في: دوفال. المرجع السابق ص 37 و 38.
(16) نفسه. ص 44 ـ 46.
(17) L.Charles FERAUD.Exploitation des forets de la Karasta dans la Kabilie orientale,sous la domination turque.Revue africaine.N°.13 (1869).p.45.

(ل. شارل فيرو. استغلال غابات الكراستة في القبائل الشرقية في عهد الحكم التركي. المجلة الإفريقية عدد 13 (1869). ص 45).

(18) André JULIEN.La question d'Alger devant les Chambres sous la Restauration Revue Africaine N°.63 (11922).pp.275 et 276.

(أندري جوليان. مسألة مدينة الجزائر أمام غرف النواب في عهد عودة النظام القديم. المجلة الإفريقية عدد 63 (1922). ص 275 و 276.)

(19) بلايفير. المرجع السابق عدد 23 ص 460 و 461.
(20) نفسه.

(21) رين. مرابطون و إخوان. المرجع السابق ص 231.

(22) رين مرابطون و إخون المرجع السابق ص 234.

(23) Charles André JULIEN. Histoire de l'Algérie contemporaine. PUF. Paris 1964. P.16.

(شارل أندري جوليان. تاريخ الجزائر المعاصرة. المنشورات الجامعية الفرنسية. باريس 1964. ص 16).

(24) O.DEPONT et X.COPPALANI. Les Confréries religieuses Musulmans. Alger 1897. Resumé. Bou – Nouh. 1937. p 89.

(أو دوبون. و إيكس. كوبالاني. الجمعيات الدينية الإسلامية. الجزائر1897. تلخيص بونوح 1937. ص 89)

(25) سعيدوني. الجزء الثاني. المرجع السابق ص 170.

(26) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 85.

(27) L.Charles FERAUD. Les Chérifs Kabyles de 1804 et 1809 dans la province de Constantine. Revue Africaine N°.13 (1869) p.215.

(ل. شارل فيرو. الأشراف القبائليون في 1804 و 1809 في مقاطعة قسنطينة. المجلة الإفريقية عدد 13 (1869). ص. 215).

(28) Adrien BERBRUGGER. Un Chérif Kabile en 1804. Revue Africaine N°.3 (1858 – 59) p. 211

(أدريان. بيربروجير. شريف قبائلي في 1804. المجلة الإفريقية عدد 3 (1858 ـ 59). ص 211).

(29) E.FERAUD. Zebouchi et Osman – Bey. Revue Africaine N°.6 (1862). p.123.

(فيرو. الزبوشي و عثمان باي. المجلة الإفريقية عدد 6 (1862). ص 123)

(30) قايد. الجزائر تحت. المرجع السابق ص 170.

(31) فيرو. الأشراف القبائليون. المرجع السابق ص 216 ـ 219.

(32) انظر : بيربروجير. شريف قبائلي. المرجع السابق ص 211.

(33) فيرو. الزبوشي و عثمان باي. المرجع السابق ص 120 و 121.

(34) صالح العنتري. مجاعات قسنطينة. تحقيق و تقديم رابح بونار. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. لجزائر 1974. ص 29.

(35) بيربروجير. شريف قبائلي. المرجع السابق ص 211.

(36) فيرو. الأشراف القبائليون. المرجع السابق ص 220.

(37) سعيدوني. الجزء الثاني. المرجع السابق ص 174.

(38) بيربروجير. شريف قبائلي. المرجع السابق ص 211.

(39) سعيدوني. الجزء الثاني. المرجع السابق ص 174 و 175.

(40) نفسه.

(41) بيربروجير. شريف قبائلي. المرجع السابق ص 232.

(42) L.FERAUD. L'Oued El - Kebir et Collo. Revue Africaine. N°.3 (1858 – 59). p.203.

(ل.فيرو.الوادي الكبير و القل.المجلة الإفريقية عدد 3 (1858 ـ 59).ص 203.)

(43) نفسه.ص 203 ـ 205.

(44) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص 86.

(45) فيرو.الزبوشي و عثمان باي.المرجع السابق ص 122 ـ 124.

(46) فيرو.الأشراف القبائليون.المرجع السابق ص 213.

(47) بيربروجير.شريف قبائلي.المرجع السابق ص 213.

(48) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص 86 و 87.

(49) بيربروجير.شريف قبائلي.المرجع السابق ص 213.

(50) فيرو.الأشراف القبائليون.المرجع السابق ص 223.

(51) نفسه.ص 222.

(52) نفسه.

(53) سعيدوني.الجزء الثاني.المرجع السابق ص 181.

(54) محمد بن عبد القادر الجزائري.تحفة الزائر في تاريخ الجزائر وا لأمير عبد القادر.شرح و تعليق ممدوح حقي.الطبعة الثانية.دار اليقظة العربية.بيروت 1964.ص 119.

(55) فيرو.الزبوشي و عثمان باي.المرجع السابق ص 125.

(56) فيرو.الأشراف القبائليون.المرجع السابق ص 211 ، 212 ، 223 ، 224.

(57) العنتري.المرجع السابق ص 33 و 34.

(58) E.VAYSSETTES.Histoire des derniers Beys de Constantine depuis 1793 jusqu'à la chute d'Hadj – Ahmed.Revue Africaine N°.3 (1858 – 59) p.265.

(أو.فايسيت.تاريخ بايات قسنطينة الأواخر منذ 1793 إلى سقوط الحاج احمد.المجلة الإفريقية عدد 3 (1858 ـ 59) ص 265).

(59) فيرو. يوميات كاتب رسمي.المرجع السابق ص 318.

(60) الزبيري.المرجع السابق ص123.

(61) حمدان.المرجع السابق ص 150.

(62) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص 95.

(63) حمدان.المرجع السابق ص 150.

(64) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص 95.

(65) رين.مرابطون و إخوان.المرجع السابق ص 42 ـ 46. أنظر الهامش كذلك.

(66) Adrian DELPECH.Résumé historique sur le soulèvement des Derk'aou de la province d'Oran, d'aprés la chronique d'El – Mossllem ben Mohammed Bach Deftar du Bey Hassan.

Revue .Africaine N°.18 (1874) pp.41 et 42.

(أدريان ديلبيش.مختصر تاريخي عن عصيان درقاو' تاطعه وهران،حسب رواية المسلم بن محمد باش دفتر الباي حسن.المجلة الإفريقية عدد 18 (1874).ص 41 و 42.)

(67) نفسه.ص . و 45.

(68) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص 87.

(69) رين. مرابطون و إخوان. المرجع السابق ص 234 و 235.
(70) ديلبيش. مختصر تاريخي. المرجع السابق ص 45.
(71) نفسه.
(72) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 87.
(73) ديلبيش. مختصر تاريخي المرجع السابق ص 45.
(74) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 87.
(75) ديلبيش. مختصر تاريخي. المرجع السابق ص 46.
(76) نفسه. ص 46 - 48.
(77) نفسه. ص 49 - 52.
(78) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 84.
(79) ديلبيش. مختصر تاريخي. المرجع السابق ص 53 و 56.
(80) نفسه. ص 57 و 58.
(81) نفسه.
(82) فيدرمان و أوكابيتان. المرجع السابق ص 289 و 290.
(83) نفسه
(84) نفسه. ص 290 - 292.
(85) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 99.
(86) دوفال. المرجع السابق ص 71 - 76.
(87) نفسه. ص 79 و 80.
(88) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 103.
(89) قايد. الجزائر تحت. المرجع السابق ص 174.
(90) فيرو. الأحرار. المرجع السابق 358.
(91) جوليان. تاريخ أفريقيا الشمالية. المرجع السابق ص 384.
(92) L.FERAUD.Un Voeu d'ussein Bey. Revue Africaine. N° 7 (1863).pp. 86 et 87.
(ل. فيرو. أمنية لحسين باي. المجلة الإفريقية عدد 7 (1863). ص 86 و 87).
(93) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 96.
(94) فيرو. امنية لحسين باي. المرجع السابق ص 86 و 87
(95) فايسيت. المرجع السابق ص269
(96) فيرو. أمنية لحسين باي. المرجع السابق ص87 و 88.
(97) فيرو. الأحرار. المرجع السابق ص 359.
(98) العنتري. المرجع السابق ص37 و 38.
(99) فيرو. أمنية لحسين باي. المرجع السابق ص89.
(100) روبان. أولاد بن زعموم. المرجع السابق ص45.
(101) فيرو. أمنية لحسين باي. المرجع السابق ص 89 و 90.
(102) فايسيت. المرجع السابق ص 269.

(103) فيرو.أمنية لحسين باي.المرجع السابق ص 89 و 90.
(104) فايسيت.المرجع السابق ص 89 و 90.
(105) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص97 و 98.
(106) فايسيت.المرجع السابق ص 269 و 270.
(107) فيرو.فرجيوة و الزواغة.المرجع السابق ص 13.
(108) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص98.
(109) فيرو. فرجيوة و الزواغة.المرجع السابق ص 14 ـ 17.
(110) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص 98.
(111) فيدرمان و أوكابيتان.المرجع السابق ص 293 و 294.
(112) نفسه.
(113) فايسيت.المرجع السابق عدد 4 ص 444.
(114) فيدرمان و أوكابيتان. المرجع السابق ص 294 ـ 296.
(115) فايسيت.المرجع السابق عدد 4 ص 444 و عدد 5 ص 94.
(116) روبان.أولاد ابن زعموم.المرجع السابق ص 45 ـ 49.
(117) فايسيت.المرجع السابق عدد 5 ص 98 و 99.
(118) نفسه.ص 103.
(119) نفسه.ص 100.
(120) فيرو.عين البيضاء.المرجع السابق ص 408 ـ 411.
(121) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص 106 و 107.
(122) دوفال.المرجع السابق ص 69 و 70.
(123) قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 172.
(124) دوفال.المرجع السباق ص 97.
(125) فايسيت.المرجع السابق عدد 4 ص 441 و 442.
(126) نفسه.
(127) دوفال.المرجع السابق ص 53.
(128) انظر : نفسه ص 53 ـ 56.
(129) فايسيت.المرجع السابق عدد 4 ص 443.
(130) دوفال.المرجع السابق ص 97.
(131) أبو القاسم سعد الله.أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.
الجزائر 1978 ص 213 و 214.
(132) نفسه.ص 217.
(133) انظر : دوفال المرجع السابق ص 92.
(134) انظر : نفسه.ص 92 و 93.
(135) سعد الله.أبحاث و آراء.المرجع السابق ص 221 و 222.
(136) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص 118.

(137) سعد الله.ابحاث و آراء.المرجع السابق ص 221 و 222.
(138) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص 117.
(139) نفسه.
(140) قنان.معاهدات.المرجع السابق ص 208 و 209.
(141) بلايفير.المرجع السابق عدد 23 ص 462 ـ 464.
(142) نفسه.ص 467 ـ 468.
(143) نفسه.عدد 24.ص 23 و 24.
(144) نفسه.ص 28 و 29
(145) انظر : إسماعيل العربي.قصف الأسطول البريطاني للجزائر و أثره في الأدب الإنجليزي. مجلة " الثقافة " العدد 69 (1982).ص 87.
(146) حليمي.نفس المرجع السابق ص 285.
(147) بلايفير.المرجع السابق ص 24 ـ 31.
(148) عبد الجليل التميمي.بحوث و وثائق في التاريخ المغربي.ديوان المطبوعات الجامعية.الجزائر 1985.ص 62 و 63.
(149) دوفال.المرجع السابق ص 97 ـ 99.
(150) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص 127.
(151) نفسه.ص 131 و 132.
(152) قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 178.
(153) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص 132.
(154) نفسه.ص 136.
(155) نفسه.ص 137.
(156) قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 178.انظر الهامش كذلك.
(157) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص 136 و 137.
(158) سعيدوني.الجزء الثاني.المرجع السابق ص 127.
(159) فيدرمان و أوكابيتان.المرجع السابق ص 296 و 297.
(160) نفسه.
(161) نفسه.ص 297 ـ 299.
(162) فيدرمان و أوكابيتان.المرجع السابق ص 299 و 300.
(163) نفسه.
(164) نفسه.ص 301.
(165) نفسه.
(166) روبان.مذكرة حول التنظيم.المرجع السابق ص 140.
(167) نفسه.ص 198 و 199.
(168) نفسه عدد 18 ص 97 ـ 107.
(169) نفسه.ص 100 ـ 111.

قايد.القراني.المرجع السابق ص 36.
(170) يحي بوعزيز.ثورة 1871 (دور عائلتي القراني و الحداد).الشركة الوطنية للنشر و
(171) التوزيع الجزائر 1978. ص 48 ـ 50.
N.ROBIN.Note sur Yahia Agha.Revue Africaine.N°.18 (1874).pp.89 et 90.
(172) (ن.روبان.مذكرة حول يحي آغا.المجلة الإفريقية عدد 18 (1874).ص 89 و 90).
قايد.الجزائر تحت.المرجع السابق ص 205.
(173) روبان.مذكرة حول يحي آغا.المرجع السابق ص 89 و 90.
(174) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص 154.
(175) روبان.مذكرة حول يحي آغا.المرجع السابق ص 205.
(176) نفسه.ص 93 ـ 95.
(177) نفسه ص 95 و 96.
(178) ناصر الدين سعيدوني.ورقلة و منطقتها في العهد العثماني.مجلة " الأصالة " عدد 41
(179) (1977) ص79، 80.
(180) انتقل فرحات بن سعيد الدوادي إلى جانب الأمير عبد القادر و حارب الباي أحمد غير أن الأمير انقلب عليه بسبب اتصالاته بالفرنسيين و سجنه في تاكدمت.و عين الماريشال فالي بوعزيز بن قانة شيخا للعرب (181) فيرو.فرجيوة و الزواغة.المرجع السابق ص 20 ـ 23.
(182) نفسه.ص 81 ـ 85.
(183) فيرو.الأحرار.المرجع السابق ص 360 و 361.
(184) نفسه.ص 361 ـ 364.
(185) نفسه ص.364 ـ 366.
(186) L.Charles FERAUD.Notes sur Tebessa.Revue Africaine. N°.18 (1874).p.456.
(ل.شارل فيرو.مذكرات حول تبسة.المجلة الإفريقية عدد 18 (1874) ص 456).
(187) فيرو. الأحرار.المرجع السابق ص 360 و 361.
(188) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص 159.
(189) رين.مرابطون و إخوان.المرجع السابق ص 423.
(190) L.ARNAUD Histoire de l'Ouali Sidi – Ahmed Et – tedjaini.Revue Africaine.N°.5 (1861 473.
(ل.أرنو.قصة الوالي سيدي أحمد التيجاني.المجلة الإفريقيةعدد 5 (1861) ص 473)
(191) رين.مرابطون و إخوان.المرجع السابق ص 423.
(192) أرنو المرجع السابق ص 473.
(193) نفسه ص 474.
(194) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص 159 و 160.
(195) رين.مرابطون و إخوان.المرجع السابق ص 424.
(196) انظر: نفسه.ص 426.
(197) حمدان.المرجع السابق ص 219 و 220.

18:12

Khalid Rhaouch El Mokh ▶ التاريخ و التراث الجهوي

il y a 1 jour

العلاقات المغربية التركية في القرن 16
من خلال المصادر الدفينة لتاريخ المغرب

لبنى ين جلون
كلية الآداب ظهر المهراز-فاس

ظهرت الإمبراطورية العثمانية كقوة عظمى في العالم ،وخاصة في حوض البحر الأبيض المتوسط، واتخذت ذريعة الدين والجهاد كعامل أساسي لبسط سيطرتها على الغرب الإسلامي وزاد طموح الأتراك في الاستيلاء على الغرب الإسلامي بعد سيطرتهم على المشرق العربي، ولاسيما بعد

Votre commentaire...

الفصل السادس:

الحملة الفرنسية على الجزائر: سقوط الحكم التركي

الحملة الفرنسية على مدينة الجزائر هي فاتحة عهد جديد بالنسبة لبلادنا. لهذا يدرجها المؤرخون في إطار تاريخ الجزائر في العهد الاستعماري. أما نحن فنتعرض لها هنا باعتبارها نهاية عهد لا بالنسبة للجزائر فحسب، بل بالنسبة لفرنسا كذلك. إنها آخر محاولة قام بها شارل العاشر لتدعيم نظامه المرفوض من الشعب الفرنسي. لكنها كانت محاولة فاشلة. فبعد أن أسقطت حكم الأتراك في الجزائر سقط النظام شارل العاشر الإقطاعي أيضا. أرسلت حكومة النظام الجديد، نظام البورجوازية، قائدا جديدا لقواتها في الجزائر لتطبيق سياسة استعمارية توسعية قارة.

حادثة المروحة و الحصار الفرنسي

بعد السقوط الأول لنابوليون مباشرة، سعت حكومة الملك لويس الثامن عشر البوربوني إلى إعادة العلاقات مع الجزائر إلى ما كانت عليه قبل قطيعة 1807. أرسلت في هذا الصدد الفارس مينار إلى الجزائر. فحصل على إقرار و تثبيت المعاهدة السابقة. كان ذلك في جويلية من سنة 1814 (1). في سنة 1816، السنة التي قصف فيها الإنجليز مدينة الجزائر، عينت الحكومة الفرنسية قنصلا جديدا لها في الجزائر هو بيير دوفال الشهور لكي يعمل على طمأنة الجزائر والتعبير لها عن استعداد فرنسا لحل الشاكل العالقة، و منها مشكلة الديون. كان القنصل محملا بالهدايا، كما جرت العادة، بلغت قيمتها ما يقرب 13 ألف فرنك (2). كان دوفال معروفا في كل موانئ البحر المتوسط بأنه شخص فاسد، كان رجل دسائس و مؤامرات أكثر منه رجل دبلوماسية. كانت سمعته سيئة في الجزائر و في مرسيليا، بل كانت سيئة حتى مع الأوربيين في الجزائر. سوف يسمح له تحكمه في اللغتين العربية و التركية (3) بأن يلعب أدوارا خطيرة في العلاقات بين بلده والجزائر. لقد نشأ في القسطنطينية، أين كان أبوه ترجمانا، فاكتسب معارف واسعة عن الشرق و عاداته (4).

حصل القنصل من الداي علي خوجة، سنة 1817، على الموافقة على استعادة فرنسا الامتيازات التجارية بواسطة المعاهدة الموقعة في 26 أكتوبر، التي تعيد تطبيق معاهدة 1790، بخصوص الباستيون في القالة (5). و كانت هذه الامتيازات قد منحت للإنجليز سنة 1807. و كان الاهتمام الأول للإنجليز هو إقامة قواعد عسكرية في الجزائر. في سنة 1816 وضعت السلطة في الجزائر يدها على مؤسساتهم بعد قصفهم مدينة الجزائر، على الرغم من المعاهدة التي

فرضوها على السلطة التركية. وضع دوفال أحد أصدقائه على رأس الشركة الفرنسية الجديدة في الجزائر، التي لم تعمل إلاّ لفترة قصيرة تمتد من 1818 إلى 1822 (6). ولعب دورا مشبوها في مسألة الديون التي كانت على فرنسا.

لمّا لم تف حكومة نابوليون بديونها التي ترتبت عليها جراء الحبوب التي اشترتها من اليهوديين بكري و بوجناح، اشترط اليهوديان فوائد تُحسب عليها، الأمر الذي جعلها تتصاعد سنة بعد أخرى. أعلن بكري و بوجناح سنة 1800 أنها بلغت ثمانية ملايين من الفرنكات (7). من جهته طالب الداي بتعويضات عن الأضرار التي لحقته جراء إقامته علاقات تجارية مع فرنسا التي كانت في حرب مع الإمبراطورية العثمانية، بسبب الحملة الفرنسية على مصر. و تمكن بكري و بوجناح من الحصول على دعم تاليران وزير الخارجية، و لا أحد يدري ما هو مقابله، فاستلما تسبيقا قدره 3726 ألف فرنك. لم يعلم الداي بذلك. و بقيت المسألة على حالها. عند مقتل نافتالي بوجناح الذي كان له نفوذ قوي في الجزائر فرّ بكري مع عائلته من الجزائر. عندما سقط نابوليون ثانية و نهائيا تقدم كل من الداي و اليهودي بكري بطلبان من فرنسا دفع الديون التي قدّراها بأربعة و عشرين مليون فرنك (8).

كان الداي يصرح في هذه الأثناء أن العلاقة بين القنصل الفرنسي دوفال و اليهودي بكري لا تخدم فرنسا و لا الجزائر. لمّا طالب بكري فرنسا بدفع ما عليها من دين (24 مليون فرنك) ، عُرضت المسألة على لجنة من مجلس الدولة، و عمل نيكولا بليفي، محامي بكري، كل ما في وسعه للدفاع عن موكله. غير أن اللجنة لم تعترف إلاّ بمبلغ سبعة ملايين، اعتمادا على المبلغ المعلن سنة 1800، من جهة، و من جهة أخرى أعلنت اتفاقية 28 أكتوبر 1819 عن اقتطاع الديون التي كانت على بكري من مبلغ السبعة ملايين (9). دفعت الحكومة الفرنسية 4, 5 مليون فرنك لبكري و وضعت في صندوق الودائع مبلغ 2.5 مليون فرنك. هذا المبلغ الأخير مخصص لدائني بكري. كان الداي يعلن أنه دائن لبكري، لأن الجزء الأكبر من الحبوب التي زود بها اليهوديان فرنسا و لم يدفعا قيمتها كانت حبوب الدولة الجزائرية (10). مع العلم أن بكري لم يدفع شيئا للداي، و أن هناك مطالب ادعى أصحابها أن لهم ديونا على اليهوديين.

لمّا علم الداي حسين بخبر تسوية دين بكري اغتاظ و اتهم الحكومة الفرنسية بسوء النية، و صب جام غضبه على القنصل دوفال، فقد كان على قناعة من أن القنصل كان يتصل ببكري للاحتيال عليه (على الداي)، فاتهمه بالحصول على رشوة كبيرة لتسوية دين اليهودي بكري و طالب فرنسا بقنصل آخر. لكن الحكومة الفرنسية لم تفعل شيئا، الأمر الذي زاد من شكوك الداي (11). لقد وجدت حكومة الجزائر، التي ظلت تطالب بتسديد ديون بكري منذ 1802. نفسها وحيدة، لا أحد يضمن حقوقها، لا اليهودي و لا القنصل (12). لكن مع هذا حصل اتفاق بين الداي و آل بكري على اعتبار مبلغ 2.5 مليون الموجود في صندوق الودائع يمثل

بعين الداي،أما ديون الخواص فهي متضمّنة في الـ 4.5 مليون فرنك،و على أصحابها أن يتوجهوا إلى آل بكري لتسويتها (13).

بعد أن كاتب الداي وزارة الخارجية الفرنسية،و لم يصله رد مقنع منها،كتب إلى الملك الفرنسي نفسه.لكنه لم يحصل على أي رد كذلك. يقول الزهار إن الداي كلّم القنصل الفرنسي عن الديون،كما كلمه عن البناء الذي أقامه الفرنسيون في القالة و وضعوا به مدافع، و سلم له كتابا إلى الملك الفرنسي،و قد أجاب الملك القنصل،دون أن يجيب الداي. أمر الملك قنصله بتبليغ الداي أن الملك لن يرد على خطابه،فإذا أراد شيئا لا يكتب إليه،بل يكلّم القنصل،إلاّ أن القنصل لم يبلغ قول الملك إلى الداي.و " لما كانت ليلة العيد، طلع القنصل ليهنئ الباشا،و كان من عادته أنه لا يدخل يوم العيد مع القوانصة (القناصل)،لأنه في القديم كان تخاصم قنصلا الإنجليز والفرنسيين على السبق بالتهنئة،و وقع بينهما ما وقع،فأمر الأمير (الداي) يومئذ بأن يهنئ قنصل فرنسا ليلة العيد،و يهنئ قنصل الإنجليز يوم العيد.

- فلما التقى القنصل مع الباشا و هنأه بالعيد سأله الباشا عن الجواب فأجابه أتاني، و هو كذا وكذا، فقال له الباشا و لماذا لم يجبني أنا ؟ فقال له القنصل مقالة الراي (الملك)، و ما كتب له، فاغتاظ الباشا لذلك،و كانت بيده منشة ينش بها الذباب، فضربه بها و شتم الراي، ثم رجع القنصل لداره و سكت " (14). كان ذلك يوم 29 أفريل 1827.

وصل خبر حادثة المروحة إلى فرنسا في وقت كان فيه الرأي العام الفرنسي مستاء من الإجراءات التي اتخذتها وزارة فيل و من طرد الحرس الوطني، و من العجز الفاجئ في الميزانية. من جهة أخرى،كانت هناك مظاهرات نظمتها مدرسة الطب و أخذ فصيلا المعارضة البرلمانية يتقاربان (15). في هذا الجو من تصاعد نشاط المعارضة جاء خبر حادثة المروحة.فحاولت المعارضة استعمالها ضد الحكومة. لكن هذه الأخيرة تحركت لتجعل من الحادثة ورقة رابحة في يدها هي لا في يد المعارضة. طلبت حكومة فرنسا من الداي تقديم اعتذاره فرفض،فأعلنت حصار مدينة الجزائر إلى أن يحصل الملك الفرنسي على رغبته في معاقبة الجزائر و حماية التجارة الفرنسية. شُرع في تطبيق هذا الحصار يوم 15 جوان 1827 (16).توضح رسالة الحاج أحمد باي إلى المسؤولين في عنابة،يوم 14 جوان،أن السلطة لم تكن تريد تصعيدا مع فرنسا. دعت الرسالة هؤلاء المسؤولين إلى اليقظة و " الجد و الاجتهاد و التيقظ و الانتباه " و المراقبة الصارمة لجهة البحر " ليلا و نهارا "،من جهة أخرى أوصى الباي موظفيه بحسن معاملة الفرنسيين. مما جاء في رسالته بهذا الخصوص: " أما الفرنصيص الذين في عنابة فإياكم ثم إياكم أن يتعدى عليهم أحد أو يظلمهم أو يضيع لهم شي من مالهم فإن أرادوا المقام في عنابة فعليهم أمان الله لا ينالهم مكروه و إن أرادوا الانتقال إلى بلادهم برضاهم و طواعيتهم فلا يمنعهم أحد أو يتعدى عليهم و يرفعون مالهم و أمتعتهم عن

آخرها بحيث لا يضيع لهم شي أصلا لكن إذا عزم أحد على السفر برضاه لابد أن يأخذوا خط يده أنه ذهب طايعا بماله لم يلحقه مكروه " (17). مع هذا غادر أعضاء القنصلية الفرنسية و رعايا فرنسا في الجزائر، عنابة و القالة على متن سفن فرنسية. ردّ الداي حسين بأمر تخريب المنشآت الفرنسية في البلاد، و أرسل سي الحفصي بن عون إلى القالة للإشراف على تنفيذ أمره (18).

بعد أربعة أشهر من إعلان الحصار ، وقعت معركة نفارين التي التقى فيها أسطول الرابطة الثلاثية المتكونة من إنجلترا و فرنسا و روسيا بأسطول الدولة العثمانية الدعم بأساطيل ولاياتها كانت أربع ساعات من المعركة،يوم 20 أكتوبر،كافية لأسطول الرابطة الأحسن تجهيزا كي يُغرق أو يحطم قطع الأسطول العثماني. كانت هذه الهزيمة خسارة كبيرة للجزائر،التي كانت تأمل في مساعدة من الدولة العثمانية و ولاياتها. كما كانت الخسارة كبيرة تلك التي انجرت عن الحصار.

عمل البحارة على فك الحصار. قاموا بمحاولات عديدة منها محاولة 4 أكتوبر في هذا اليوم تمكنت 11 قطعة بحرية تحمل متطوعين من الخروج من ميناء الجزائر، فخرجت خمس قطع فرنسية من خط الدفاع لتواجهها.كان الاشتباك عنيفا. و كان السكان في المدينة يراقبون تلك المعركة من أسطح منازلهم. دامت المعركة ساعتين، انسحب بعدها الجزائريون، وعادت القطع الفرنسية إلى خط دفاعها.حسب شهادة قنصل سردينيا في الجزائر، فإن الجانب الجزائري قد سجل مقتل عشرين شخصا و جرح 42 في صفوفه،كما لحقت أضرار بليغة بسفينة من سفينتيه الكبيرتين (19).

لم تتوقف القرصنة بصفة نهائية،ففي شهر أوت استولى الرياس على سفينتين فرنسيتين،في مياه وهران و أسروا بحارتهما،كما عرفت التجارة الفرنسية تهديدات حتى أنها عادت إلى أسلوب القوافل.لكن الفرنسيين تمكنوا يوم 25 أكتوبر من إغراق أربع سفن غرب مدينة الجزائر،على الرغم من الحماية التي قدمتها المدفعية من رأس كاكسين (20). في 22 ماي من السنة الموالية، 1828 ،أغار الفرنسيون على ميناء وهران و تمكنوا من استرجاع إحدى سفينتيهم اللتين وقعتا بيد الجزائريين (21).

بعد هذه الاصطدامات رابطت حوالي 12 قطعة بحرية قبالة الموانئ الجزائرية وشكلت دورية بحرية من 6 قطع أخرى، و كُلفت قطع أخرى بمراقبة الملاحة و توفير الأمن لها، و وُضعت قطع أخرى في حالة استنفار دائم. أصبح عدد القطع البحرية المكلفة بالحصار حوالي خمسين قطعة (22).كانت تكاليف الحصار باهظة سواء من حيث تكاليف الأسطول أو من حيث الخسائر التي لحقت التجارة الفرنسية أو من حيث الخسائر البشرية،خاصة خسائر جوان 1829 و ماي 1830.في يوم 17 جوان 1829 طاردت فرقاطتان فرنسيتان أحد الرياس في دلس ففرّ إلى مصب يسر. أرسل الفرنسيون ستة زوارق محملة بالبحارة لإلقاء القبض عليه.لكن

البحارة الذين نزلوا إلى البرّ، و كان عددهم ثمانين،حاصرهم أهالي يسر و فليسة. تمكن بعضهم من الفرار غير أن 22 منهم قتلوا و جُرح آخر،نقل مع رؤوس القتلى وثلاثة مدافع إلى مدينة الجزائر . في 15 ماي من السنة الموالية (أيام قبل انطلاق حملة الغزو الفرنسي من طولون) رفعت أمواج البحر سفينتين فرنسيتين نحو مصب وادي العربة.جمع مصطفى بن عمر التركي قائد يسر الذي كان يقطن حوش ابن والي مقاتلين فحاصر البحارة الفرنسيين. لم يجدوا مخرجا آخر سوى الادعاء بأنهم من الإنجليز. وزع القائد هؤلاء البحارة على قرى يسر و أولاد سمير وقرى أولاد بونوة و مازر و وادي العربة و أرسل آخرين إلى الغراف وتاورة و أهل الوادي وأولاد حيمونة.لما علم الداي بالحادثة أرسل في طلب الأسرى. قُتل الأسرى الذين كانوا في يسر،و كان عددهم 110 أسرى،و قُطعت رؤوسهم،أما البقية فقد نُقلوا إلى الجزائر أين ظلوا مسجونين،إلى أن دخل الفرنسيون المدينة فأطلقوا سراح من بقي منهم على قيد الحياة. كان عددهم ثمانين (23).

لم ير خلف فييل،الليبرالي مارتينياك، نفعا في حصار كلف سبعة ملايين من الفرنكات. أرسل مبعوثا إلى الداي، غير أن هذا الأخير لم يتمسك بموقفه الرافض للاعتذار فحسب،بل إن سفينة المثل، لابروفانس، قد تعرضت لنيران الدفعية التركية،حين كانت تغادر ميناء الجزائر (3 أوث 1829).و لما خلف بولونياك الوزير مارتينياك اعتقد أنه سيجد حلا للمشكلة (أواخر 1829).حرض محمد علي حاكم مصر ضد الداي حسين (24).لكن محمد علي طلب من فرنسا أن تقرضه عشرين مليون فرنك تُدفع خلال عشر سنوات و أن تمنحه أربع بوارج حربية هبة،كي يسعى للسيطرة على ولايات طرابلس و تونس و الجزائر و إنهاء القرصنة. لم يكتب النجاح للمشروع لهذه الأسباب و لأن الدولة العثمانية رفضته بحزم (25)،كما وقفت ضده إنجلترا،بخلاف روسيا التي بعثت إلى الفرنسيين تقول: " كيف لا تقدمون على تخريب عشّ القرصنة هنا بأنفسكم " (26).

من الحصار إلى الحملة

أثناء هذه الأزمة، ارتفعت بعض الأصوات تنادي بالعودة إلى مشروع نابوليون المتعلق باحتلال مدينة الجزائر. إذا كان الليبراليون قد عارضوا المشروع فلأنهم كانوا مقتنعين بأن الذين يرفعون شعار الاحتلال إنما يفعلون ذلك لتقوية النظام الذي كان مهددا بالسقوط،فهذا النظام الذي كانت أسرة البوربون الإقطاعية رمزا لرجعيته،لم يتمكن من إيجاد قاعدة شعبية تدعمه.

من بين الذين كانوا متحمسين للمشروع نجد المركيز كليمون طونير وزير الحربية،الذي قدم تقريرا إلى الملك يوم 14 أكتوبر 1827. تضمن هذا التقرير مشروعا مفصلا لعملية غزو مدينة الجزائر(27).جاء في مقدمته " الحرب قائمة مع مدينة الجزائر؛كيف يمكن إنهاؤها بشكل مفيد و مجيد لفرنسا ؟ هذه هي المسألة التي يجب فحصها ".هذا التقرير،الذي لا يرى في

الحصار فائدة، هو فحص لهذه المسألة أوضح الأسباب التي تحتم الحملة وتستجيب لـ " حق - الملك في القيام بها. بعد أن يستعرض الوسائل التي لابد منها لإنجاز العملية، يقترح احتلال مدينة الجزائر عن طريق البرّ، لأن البحرية ليست قادرة على احتلالها. يقترح سيدي فرج مكانا للإنزال العسكري، كما اقترح بوتان سنة 1808. عند استعراضه قوات الأتراك و تحصيناتهم يذكر أن مدينة الجزائر في إمكانها أن تجند 50 ألفا تقريبا من الرجال، إذا أخذ في الاعتبار العدد الذي جُند في حملة شارل كان سنة 1541 و في حملة أوريلي سنة 1775 . على هذا الأساس حدّد عدد الجنود الذين يجب أن يشاركوا في الحملة بما يقارب 33 ألف رجل يرافقهم 150 مدفعا.

بعد ثلاث سنوات من الحصار و فشله في إرغام الداي على تقديم الاعتذار، و بعد ثلاث سنوات من تصاعد قوة المعارضة الليبرالية لنظام مملكة البوربون، قرر مجلس الوزراء الفرنسي يوم 31 جانفي 1830 تنظيم حملة على مدينة الجزائر. حدد الوزير الأول بولونياك أهدافها، في رسالة إلى سفير فرنسا في لندن الدوق دولافال، يوم 12 ماي بقوله: " هناك مصلحتان متمايزتان، و لكنهما متصلتان اتصالا وثيقا، قد أدتا إلى الاستعدادات التي جرت في موانئنا. إحداهما تخص فرنسا بالدرجة الأولى: و هي الثأر لشرف رايتنا، و الحصول على تصحيح الأخطاء التي كانت السبب المباشر في النزاع، و للمحافظة على ممتلكاتنا من الاعتداءات وأعمال العنف التي تعرضت لها في كثير من الأحيان. ثم الحصول على تعويض مالي، بالقدر الذي تسمح به دولة الجزائر، على مصاريف الحرب التي لم نتسبب فيها. أما المصلحة الثانية التي تهم البلاد المسيحية عامة، فهي إلغاء الرق، و القرصنة، و دفع الجزية التي مازالت أوربا تدفعها إلى ولاية الجزائر " (28).

تحضير الحملة

بعد أن تقررت الحملة، عملت فرنسا في اتجاهين: تحضير الحملة ماديا و تهيئة الرأي العام الداخلي و الرأي العام الدولي. أمكن لها أن تحصل على موافقة إسبانيا لاستعمال موانئها و إقامة مستشفى في ماهون بالبليار، يستعمل لعلاج الجرحى و المرضى (29). كما تمكنت فرنسا من ضمان حياد حسين باي تونس، في الحرب الجزائرية - الفرنسية منذ 1828، بل سمح هذا الباي بتسهيل تموين الحملة إن اقتضت الضرورة ذلك، ثم أرسل إلى الجزائر وفدا لتقديم التهاني لبوبورمون، بعد أن أطاح هذا الأخير بحكومة الأتراك. على الرغم من تعاطف يوسف باشا طرابلس مع الداي إلاّ أنه لم يلتزم إلاّ بالعمل على شل قوات محمد علي إن جاءت من مصر، أما المغرب الأقصى الذي عبر عن امتناعه الصريح بتقديم العون للجزائر، فقد سمح سلطانه مولاي عبد الرحمان للفرنسيين بالتزود من موانئه في حالة الضرورة كذلك (30). لم تلق فرنسا موقفا رافضا بصراحة سوى من إنجلترا. كانت هذه الأخيرة تنظر إلى الحملة بعين

الريبة و الشك. طالبت بتوضيحات خاصة،غير أن وزير البحرية الفرنسية لم يرفض تقديم التوضيحات فحسب بل ردّ على السفير الإنجليزي متحديا إياه: " امنحونا إن أردتم أو بالأحرى إن استطعتم " ذلك (31).رغم أن الدولة العثمانية قد سعت لحل الخلاف بين الجزائر وفرنسا،غير أنها لم تتخذ موقفا حازما.

في سنة 1829 أصدر الخليفة العثماني محمود الثاني فرمانا يتعلق بالجزائر (32).

و قد تزامن مجيء طاهر باشا إلى الجزائر يحمل هذا الفرمان مع مجيء الحملة الفرنسية. يتضح من هذه الوثيقة أن الدولة العثمانية كانت تجهل خلفيات الحملة و طبيعة الخلاف،فهي تكاد تحصر الخلاف في " الحوادث الجزئية التي لم تكن ذات أهمية كبيرة تستقطب الأنظار و تستدعي الأخطار مثل ما ظهر في الأوجاق إزاء القنصل الفرنسي من إساءة وتكدير و بعض التعديات التي استهدفت بعض التجار الفرنسيين ".يشير هذا الفرمان إلى أن السلطان العثماني كان قد كلف السيد خليل مفتي الجزائر السابق بالسعي " في سبيل حل القضية بدون اللجوء إلى القوة و السلاح و الوقوع في مخاطر الحرب و الدمار "،مقابل أن تضمن الدولة العثمانية " حماية مصالح فرنسا و عدم تعريضها لمخاطر الأضرار التي يمكن أن تلحق بها من قبل الجزائريين ". و بما أن السفارة لم تقم بمهمتها فإنه من الضروري " التحرك بصفة جدية و سريعة "،" لحل القضية و فك النزاع القائم بين الطرفين "،" بين دولة صديقة للدولة العثمانية و بين رعايا الدولة العلية لأن الجزائريين ليسوا إلاّ من رعايا الدولة العلية ".هكذا اعترفت الدولة العثمانية بـ (خطأ) الداي.على أية حال فإنها لم تتحرك عسكريا لا من أجل الحفاظ على نفوذها المعنوي في الجزائر و لا من أجل الحفاظ على استقلال البلاد. لكن لا بد من الإشارة هنا إلى أن الدولة العثمانية لم تكن قادرة على عمل شيء ذي أهمية في هذه المرحلة من تقهقرها.لقد كانت فرنسا تعرف جيدا وضعية الدولة العثمانية فلم تُعرها اهتماما.

تطلب تحضير الحملة ماديا حوالي ثلاثة أشهر من العمل ليلا و نهارا.عُين دوبري قائدا للقوات البحرية،و عين البارون ديني معتمدا عسكريا،و كُلف الجنرال فالازي بالهندسة.كان على هؤلاء أن يشرفوا على عمليات التحضير. أصبح العتاد جاهزا في الأيام الأولى من شهر ماي . تجمعت مائة بارجة تملكها الدولة و خمسمائة سفينة تجارية في مرسيليا و طولون.كما جُمعت كمية ضخمة من الملابس و من الخيام و الدلاء و الأغطية وأغذية شهرين و الأعلاف و العربات و أدوات شق الطرق و الأخشاب و الحواجز و كمية ضخمة من الخراطيش،بلغت حوالي خمسة ملايين خرطوشة،وأكثر من 280 ألف كلغ من البارود و عتاد التليغراف الخ. هذا العتاد الضخم كان كله جاهزا على متن السفن قبل 15 ماي (33).من السفن التي شاركت في الحملة

نجد السفينة البخارية سفينكس (34).و لعلها السفينة البخارية الأولى التي سوف تعرفها الجزائر لأول مرة في التاريخ.

عُين الجنرالات قبل انطلاق الحملة بشهرين ليتمكنوا من التعرف على جنودهم. عُـين بيرتزين على رأس الفرقة الأولى التي عسكرت بين طولون و دراغينيون و عُين لوفيربو على رأس الفرقـة الثانية التي عسكرت بين طـولون و إيكس و وُضع الدوق كارس على رأس الفرقة الثالثة التي عسكرت في إيكس.كان مجموع جنود الفرق الثلاث أكثر من 25 ألف رجل.أما الخيالة فحوالي خمسمائة فارس،عسكروا في تارسكون بينما عسكرت الهـندسة،التي كانت تتكون من 8500 رجل في ضواحي أرل.و احتلت الدفعية،التي بلغ عدد رجالها 2500 أبواب طولون (35). أخيرا، عـُين وزير الحربية نفسه الكونت دوبورمون على رأس الحملة. كان تحت إمرته 17 ضابطا برتبة جنرال (36). كان دوبورمون من ألد أعداء الثورة الفرنسية. هرب من البلاد أثناءها ثم انضم إلى الثورة المضادة ليستسلم سنة 1800،غير أنه ألقي عليه القبض و أودع السجن بتهمة التآمر. فر إلى البرتغال ثم عاد إلى فرنسا فأدمجه نابوليون في الجيش برتبة عقيد. شارك في حملات إيطاليا و روسيا،و في سنة 1814 تقلد رتبة جنرال. انتقل إلى جانب البوربون و التزم مكانه خلال المائة يوم التي عاد فيها نابوليون،لينتقل إلى جانب لويس الثامن عشر.شارك في حملة أسبانيا سنة 1823. عُين وزيرا للحربية سنة 1829. كان من المساندين للحملة على مدينة الجزائر.

ضمت الحملة،بالإضافة إلى العسكريين،هيئة من مترجمين منهم جورج كاروي السوري الأصل و ليون أياس،و هو من مرسيليا،و لويس دوبراسويتز المولود في راغوز،و كان قد شارك في الحملة على مصر (37). بلغ عدد أفراد الهيئة حوالي 40 مترجما،جاءوا من الهياكل القنصلية الفرنسية أو من هياكل الكنيسة و التعليم. البعض الآخر من المترجمين كانوا رحالة في المشرق و مماليك قدامى فروا من مجزرة 1811.التي نظمها محمد علي ضدهم هنا بالإضافة إلى يهود من مدينة الجزائر،كما قدم القيصر الروسي مُختصه في الشؤون الإسلامية،الكونت فيلوزولوف،ليقدم خدماته لهذه الحملة (38). لكن عيب هؤلاء هو أنهم لا يعرفون العربية الجزائرية (أو العامية حسب وصف البعض). لقد زُود ضباط الحملة بمعجمين،الأول وضعه بن جمان فانسان و الثاني وضعه أبراهام دانينوس الذي ولد بمدينة الجزائر سنة 1797 (39) استعمل الضباط كتاب الرحالة الإنجليزي شاو،الذي يعود إلى 1743،و كتاب القنصل الأمريكي شالر المنشور في حوالي 1739 كما استعملوا تقارير الأرشيف و خاصة تقرير بوتان(40)

رافق الحملة رسامون و رسامون رسميون و فنانون من أمثال جين إيزاباي، غودين وواشموث (41).و حملت الحملة معها كذلك مطبعة،كما فعلت حملة نابوليون على مصر تماما.كان الغرض منها نشر جريدة في شمال أفريقيا،تهتم بأخبار الحملة و أخبار البلاد.لقد

بعث الجريدة " إستافيت دالجي " (بريد الجزائر). أنزلت المطبعة بالفعل في سيدي فرج يوم 27 جوان. خصصت لها خيمتان بالقرب من مرتفع توريتيكا. في اليوم التالي كانت جاهزة للعمل و نشغلت في أول جويلية صدر العدد الأول من الجريدة، و كان يحمل تاريخ 25 جوان و صدر العدد الثاني يوم 5 جويلية، و لم يصدر العدد الثالث لكون السيد جون توسان ميرل المسؤول عنها عاد إلى فرنسا و توقفت عن الصدور (42). إنها الجريدة الأولى التي تصدر على الأرض الجزائرية.

مسيرة الحملة من طولون إلى سيدي فرج

تقرر أن تنطلق الحملة يوم 11 ماي، غير أن رداءة الأحوال الجوية أجلت العملية إلى يوم 25 منه. كانت الانطلاقة من ميناء طولون العسكري الذي كان يشكل القاعدة البحرية الرئيسية الفرنسية على البحر المتوسط. السفن الأولى التي انطلقت قبل غيرها كانت سفن النقل، التي تحركت من الميناء في وسط النهار (43).

في صباح اليوم التالي، اقتربت من الأسطول الفرنسي فرقاطتان، واحدة تابعة للأسطول الفرنسي الذي كان يحاصر مدينة الجزائر و الأخرى عثمانية، كان على متنها الأميرال طاهر باشا الذي كان يريد الدخول إلى مدينة الجزائر لإقناع الداي بتنفيذ مطلب الفرنسيين، لكن قائد الحصار منعه من بلوغ المدينة (44). يذكر القنصل الإنجليزي في مدينة الجزائر أن الأتراك في الجزائر كانوا يعلمون منذ 20 ماي بإرسال الباب العالي طاهر باشا، و أن هذا الأخير اقترب يوم 21 ماي من المدينة لكن الأسطول الفرنسي منعه من بلوغ ميناءها، على الرغم من أنه سمح بدخول سفن إنجليزية و إسبانية و نمساوية و سردينية (45). لما مُنع طاهر باشا من دخول الجزائر عن طريق البحر حاول الوصول إليها عن طريق تونس، غير أن حسين باي منعه من ذلك خوفا من التهديدات الفرنسية، كما يذكر سميح أولتر في كتابه " الأتراك في الشمال الإفريقي" (46).

لقد تحادث طاهر باشا مع قائد الأسطول الفرنسي و قائد الحملة و قائد الأركان وجنرالات آخرين، كما تناول القهوة معهم (47). ثم سار نحو طولون في الوقت الذي واصلت فيه الحملة طريقها نحو الجزائر. في 31 ماي شوهد بواسطة المنظار رأس كاكسين الواقع غرب الجزائر، لكن الحملة غيرت طريقها نحو بالما بميورقة حيث توقفت في خليجها لمدة عشرة أيام، بسبب الأحوال الجوية السيئة، كما قيل لجنودها و ضباطها، غير أن الكثير منهم كانوا يعتقدون أن التوقف الطويل هنا كان بسبب طاهر باشا و أن قائد الحملة كان ينتظر أمرا مفاجئا من باريس (48). هذا و يذكر الجنرال فالازي أن سفينة جاءت من تونس يوم 6 جوان كانت تحمل على متنها السيد جيراردين، مبعوث باريس إلى تونس، و أن هذا المبعوث أكد على الأحوال الجوية الجيدة (49).

انطلقت الحملة مجددا من الباليار لتصل قبالة مدينة الجزائر يوم 13 جوان.تجمع الكثير من سكان المدينة على الأرصفة ليشاهدوا السفن الفرنسية و هي تتجه نحو الغرب ، نحو سيدي فرج. لقد أطلقت المدفعية التركية بعض القنابل

خريطة





في اتجاه السفن الغازية فجرحت خمسة فرنسيين.لقد تفاجأ الفرنسيون حين لم يجدوا مقاومة حقيقية في سيدي فرج (50). تمكنوا من إنزال قواتهم و عتادهم بسهولة.

كان الداي على علم بالحملة منذ ستة أشهر (51)،كما كان يعلم أن الإنزال سوف يكون في سيدي فرج،لكنه لم يكن يتصور هجوما بريا على مدينة الجزائر،و هذه الثقة هي التي منعته من تحصين سيدي فرج و استعمال كل إمكانياته (52). و كما يقول حمدان خوجة:" في سيدي فرج لم تحضر الدفعية،و لم تُحفر الخنادق و لم يكن هناك سوى 12 مدفعا كان الآغا السابق (يحي آغا) قد نصبها في بداية إعلان الحرب ".كما يقول كذلك:" و في اليوم الذي نزل فيه الماريشال دوبورمون مع جيشه لم يكن تحت تصرف الآغا سوى 300 فارس،و لم يكن مع باي قسنطينة إلا عدد قليل جدا من الأجناد،لأنه لم يكن مستعدا لخوض المعركة و كان باي التيطري في المدية،و لم يصل منها إلا بعد بضعة أيام " من الإنزال الفرنسي (53).من جهة أخرى لم يكن الآغا إبراهيم قادرا على مواجهة الفرنسيين.لقد كان الآغا هذا،و هو صهر الداي، " مثله مثل الحمار،لا يعرف إلا الأكل و النكاح "،كما يقول الزهار (54)." لم يكن قائدا ممتازا في يوم من الأيام،و لم يعرف الشيء الكثير من التكتيك العسكري، و كان سابقه يحي آغا قد شغل هذا المنصب مدة اثنتي عشرة سنة في عهد حسين باشا. فقد شاهد كثيرا من المعارك التي جرت بين العرب و القبائل و كان مدة ما بقيتُ لا يعرف الركود على الإطلاق "،كما يقول حمدان (55).و يقول الزهار كذلك ان يحي آغا كان " أحسن رجال تلك الدولة عقلا و معرفة " (56).و كان يحي آغا قد عُزل في حوالي فيفري 1828،ثم أُبعد إلى البليدة،ثم أمر الداي باغتياله،لأنه كان يتمتع بشعبية كبيرة بين الإنكشارية و باقي الشخصيات في دواليب الحكم (57).و كان يحي آغا قد عمل،منذ القطيعة مع فرنسا،على تحصين السواحل فأقام برج الحراش مثلا و وضع به عددا من المدافع (58). لقد " خرج إلى الأبراج و الحصون و رتبها، و ذهب لسيدي فرج و بنا هناك حصنا من أثني عشر مدفعا،و جعل العسة من العسكر الجديد في كل حصن وعين لهم المؤونة " كما يقول الزهار (59).إن الآغا إبراهيم " لم يُعد أي شيء و لم يتخذ أي نوع من التدابير ولم يعط أي أمر " (60).

في الساعة الثانية و النصف من صباح يوم 14 جوان شرعت فرقة بيرتزين الفرقة الأولى في النزول إلى البر في سيدي فرج و قد ساعدها على ذلك ضوء القمر،و في الساعة الخامسة كان الجزء الأكبر منها قد أخذ مواقعه على البر دون أن يتعرض لطلقة واحدة. في الساعة السادسة شرعت الفرقة الثانية،بقيادة لوفيردو في النزول بدورها دون أن تصادف صعوبة تُذكر.لكن و قبل أن يكتمل نزولها وصل الفرسان الأتراك و تمكنوا من إصابة حوالي مائة فرنسي،قبل أن يلوذوا بالفرار. شكلت القوات الفرنسية خطا دفاعيا على بعد كيلومتر و نصف

حول سيدي فرج (61). كان التحصين قويا محكما " بحيث لو اجتمعت عليه كافة أهل العمالة وغيرهم ما دخلوه" .كما يقول الزهار (62). في اليوم الموالي (15 جوان) تمكنت القوات التركية من قتل بعض الفرنسيين في الخط الأمامي ،في الوقت الذي نُصبت فيه المدافع الفرنسية على ربوة و تواصل إنزال العتاد و الأغذية و عربات المدافع. و تواصلت عملية الإنزال في اليوم الموالي (16 جوان) ،لكن على الساعة التاسعة صباحا وقعت زوبعة كبيرة لم تتوقف رياحها إلا عند منتصف النهار ،ثم تبعها توقف الأمطار (63). و لو دامت هذه الزوبعة ساعة إضافية لأتت على كل السفن (64).أكمل الفرنسيون يومهم هذا في شق الطرق بين المعسكر و المواقع الأمامية ،و كذلك حفر قنوات المياه و إقامة المستشفى ،في الوقت الذي كانت تقع فيه مناوشات خفيفة في المواقع المتقدمة (65).

نداء دوبورمون الموجه للجزائريين

في17 جوان وقع أول اتصال للفرنسيين بجزائريين في سيدي فرج.أحد هؤلاء الجزائريين أعتُبر مجنونا و آخر فرّ إلى الفرنسيين، بدعوى أن تركيا أساء معاملته، و آخرون كانوا يريدون معرفة نوايا هؤلاء الغزاة.استغل الفرنسيون الفرصة ليقدموا زوارهم عددا من نسخ بيان موجه للأهالي (66).كان جورج كاوي ،و هو أحد أعضاء هيئة المترجمين، قد غادر معسكر سيدي فرج ،ليندمج بالأهالي قصد جذبهم إلى مفاوضة الفرنسيين، فوزع عليهم البيان هذا أو نداء دوبورمون.لقد ألقي عليه القبض و اقتيد إلى الداي فأمر بقتله ،بعد أن قدم له معلومات عن القوات الفرنسية (67).

كان النداء قد حُرر قبل انطلاق الحملة ،و ترجمه جون شارل كازار ،بمساعدة سيلفيستر دوساسي و بياشي. ولد كازار في دمشق سنة 1787 و عمل سفلا لكنيسة سانت نيكولاس بمرسيليا ،عُين مترجما للحملة دون أن يتخلى عن الرهبنة .عمل مع دوبورمون و مع الذين خلفوه إلى عهد بوجو ،حيث وُضع تحت تصرف أسقفية مدينة الجزائر سنة 1845 .ظل يقدم دروسا في اللغة العربية مدة ثلاث سنوات في هذه الأسقفية (68). البيان مترجم إلى عربية جزائرية (69) و موجه إلى " القضاة و الأشراف و العلماء و أكابر المشايخ و الاختيارية " يوظف الدين للضغط عليهم، محاولا إحداث شقاق بين السكان و الداي الذي وصفه بسوء معاملة الرعايا وتخريب البلاد و الاستحواذ على ثرواتها، فهو في نظره عدو الرعايا. هذا من جهة ،و من جهة أخرى أهان هذا الداي فرنسا ،فهو بذلك عدوها و لا بد أن ينال جزاءه ،و على الأهالي أن ينضموا إلى الفرنسيين للتخلص منه ،وفي المقابل يتعهد الفرنسيون بضمان أملاكهم ونشاطاتهم و ديارهم بل إن الأهالي سيحصلون " بزوال سلطته على كل خير " ،لكن إن رفضوا التعامل مع

الفرنسيين أو وقفوا موقف الحياد فسيتعرضون لنقمتهم يقول البيان : " إن تعرضتم بالعداوة والشر هلكتم عن آخركم ".

يذكر القنصل الإنجليزي في الجزائر أن مترجم الداي أخبره يوم 23 ماي، قبل انطلاق الحملة من طولون، بتوزيع الفرنسيين بيانا في أوساط العرب الذين حملوه إلى الداي. فعرض هذا الأخير مكافأة مالية على من يأتيه بنسخة منه (70). يبدو أن هذا البيان هو ذلك الذي تعرض له سعد الله.لقد نشر هذا الأخير بيانا حرره الفرنسيون بالعربية الفصحى قبل انطلاق الحملة، و أرسلوا منه أربعمائة نسخة إلى قنصلهم في تونس ليوزعها في الجزائر.هذا البيان لا يختلف في مضمونه عن البيان سالف الذكر (71)، إلا في تشبيهه الحملة على الجزائر بالحملة الفرنسية على مصر، و مما جاء فيه:" إن الفرنسيين سيعاملونكم كما عاملوا المصريين، إخوانكم الأعزاء، الذين لم يفتأوا يفكرون فينا و يتأسفون على فراقنا طيلة الثلاثين سنة الماضية، منذ خروجنا من بلادهم و الذين ما يزالون يرسلون أبناءهم إلى فرنسا ليتعلموا القراءة و الكتابة و كل فن و حرفة مفيدة ".إننا لا ندري مدى تأثير البيانات تلك في الأهالي، لكن الأكيد أنها كانت تحرج و تقلق الداي، الذي كان يستعد لمواجهة الفرنسيين في اسطاوالي، تحت بصر الفرنسيين الذين كانوا يراقبون معسكر قواته بمنظارهم.

لقد قدم الشاب الفار إلى الفرنسيين من سوء معاملة أحد الأتراك معلومات " مفيدة " للجنرال بيرتزين عن وضعية قوات الداي في اسطاوالي مؤكدا أن الهجوم على القوات الفرنسية سيكون يوم 19 جوان و أن الآغا هو الذي يقود الجيش التركي.هذه المعلومات أكدت للفرنسيين ما كانوا يشاهدونه من خلال منظارهم من تزايد مستمر في عدد الخيام و وجود ثلاث منها متميزة بحجمها الكبير، اعتقدوا أنها لبايات قسنطينة و وهران و التيطري، و أخرى متميزة بحجمها و ألوانها (أخضر، أصفر أحمر) اعتقدوا أنها خيمة الآغا إبراهيم نفسه (72).مع العلم أن باي وهران، حسن العجوز، أرسل خليفته لينوب عنه، فلم يحضر بنفسه.

القوات التركية

كان عدد الرجال الذين جاءوا من مختلف جهات البلاد لمواجهة الفرنسيين كبير بالمقارنة مع القوات الفرنسية. في 6 جوان علمت الحملة، من جيراردين المبعوث الفرنسي إلى تونس، أن باي وهران أرسل إلى الجزائر ثلاثة آلاف رجل، و أن باي قسنطينة أرسل ثلاثة عشر ألف رجل، جلهم من الفرسان. و في يوم 7 جوان قدم القائد العام للحملة معلومات إلى ضباطه تتعلق بالقوات التركية. حسب تقديراته، كان الجيش التركي يتكون من 80 إلى 100 ألف رجل، أغلبيهم من الفرسان، بالإضافة إلى ألفي جمل (73).

لما علم الداي بالحملة وجه رسائل، في شكل منشورات، إلى كل جهات البلاد يدعو فيها الناس إلى الاستعداد لمواجهة الفرنسيين معتبرا " الجهاد واجبا بفرضه الدين مادام الكافر موجودا على أراضينا "،كما جاء في رسالته إلى بني إبراثن (74). كل الجهات أرسلت مقاتليها إلى الجزائر، ماعدا القبائل أو المناطق التي كانت على خلاف عميق مع السلطة التركية. حتى القبائل التي لم تكن تحت سلطة الأتراك الفعلية أرسلت مقاتليها، كما حدث في بلاد القبائل. لقد وصف ن. روبان ردود الفعل في المنطقة بقوله: " لما وصلت تلك الرسائل (رسائل الداي) إلى بلاد القبائل انعقدت، جمعيات كبيرة للقبائل، هدفها التداول و اتخاذ الإجراءات الضرورية التي تستجيب لنداء الداي" أرسل الوجهاء و المرابطون إلى القبائل المتحاربة، بهدف إنهاء الخصومات و الوصول إلى المصالحة بينها، فإن رفضت قبيلة ذلك فإنها ستواجه من طرف القبائل المجتمعة كلها و ستحرق قراها، و بهذه الطريقة تم التوصل إلى إقامة السلم في كل مكان وتحويل كل قوى البلاد نحو الحرب التي يجري تحضيرها " (75).

بلغ عدد الرجال الذين كانوا تحت تصرف الداي حوالي 85 ألف رجل منهم 13 ألفا من بايليك الشرق و 6 آلاف من بايليك الغرب و ما بين 16 و 18 ألفا من بلاد القبائل(76). لكن المشكل الكبير الذي كانت تعانيه هذه القوات هو سوء التسليح و سوء التنظيم و القيادة.

لم يحضر الآغا التحضير اللازم للمواجهة. في هذا الصدد يقول حمدان: " كان إبراهيم آغا يريد محاربة الفرنسيين بدون جيش منظم و لا ذخيرة حربية و لا مؤن و لا شعير للخيل و بدون أن تكون له القدرة الضرورية للقيام بالحرب " (77). لكن الداي يتحمل المسؤولية أيضا، فقد كان إبراهيم آغا يلح عليه في إرسال الإمدادات و ما يتبعها من ذخيرة(78) حسب بيرتزين، فإن مخطط إبراهيم آغا لهجوم 19 جوان كان " واسعا و محكما " و أن نقطة الهجوم " اختيرت برصانة ". و على الرغم من أن الجزائريين يسددون أحسن من الفرنسيين و أن بنادقهم تقذف إلى أبعد من بنادق الفرنسيين و أنهم كانوا يتمتعون بشجاعة كبيرة و يستخفون بالموت فإن مدفعيتهم كانت غير عصرية و لم تستعمل بشكل جيد و لم يكن جيشهم يتمتع بالانسجام (79).

معركة اسطاوالي

في 19 جوان هاجمت القوات التركية المعسكرة في اسطاوالي مجمل جبهة الدفاع الفرنسي في سيدي فرج بقوة و ببسالة كبيرة (80). بدأ الهجوم قبل بزوغ الفجر. كان المهاجمون يريدون قطع المواقع الأمامية عن المعسكر، لكنهم وجدوا صعوبة على الجناح الأيمن و الوسط فرّوا على أعقابهم، بعد خسائر، أما على الجناح الأيسر فقد دفعوا القوات الفرنسية إلى الخلف

بعد أن كبدوها خسائر كبيرة. لما انسحب المهاجمون لاحقهم الفرنسيون حتى غاية اسطاوالي حيث كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحا من هذا الهجوم جاءت فكرة الهجوم الفرنسي على معسكر اسطاوالي. كان دوبورمون مترددا في اتخاذ القرار، إذ طلب من قواته أن تتوقف حيث هي، ثم تفقد الميدان بنفسه، فاتضحت له إمكانية التموقع في مرتفعات اسطاوالي، و ذلك أحسن من البقاء في المواقع السابقة (81). لقد كان لإلحاح بيرتزين دور كبير في حمل دوبورمون على اتخاذ القرار (82). في الهجوم على موقع اسطاوالي حارب المقاومون ببسالة أيضا، مع ذلك لم يتمكنوا من صد الهجوم الفرنسي واسع النطاق، الذي شاركت فيه معظم القوات. يختلف المؤرخون حول الخسائر البشرية الفرنسية، منهم من يذكر أربعمائة بين القتلى و الجرحى (83)، و منهم من يذكر 57 قتيلا و 473 جريحا (84). أما في الجانب الجزائري فإننا لم نجد سوى الأرقام التي أوردها كات و هي ما بين 4 و 5آلاف بين قتيل و جريح (85).

بعد هزيمة اسطاوالي غادر الآغا المعسكر تاركا وراءه " كل شيء، الخيم الوسيقى، الأعلام وجيشه بأكمله "، كما يقول حمدان خوجة (86). لم تكن للآغا خطة للانسحاب فتشتت جيشه بعد الهزيمة. وجد الفرنسيون، في المعسكر، الأسلحة و الثياب و الزرابي و الخيم و المدافع، بل حتى الأغنام و الجمال (87). يقول الزهار : " في الغد اشتغل النصارى بخدمة التارز، لو شاءوا لدخلوا مدينة الجزائر في ذلك اليوم، لكنهم يقرأون العواقب " (88). و هذا ما يذهب إليه حمدان خوجة كذلك، الذي يؤكد على أن الفرنسيين لو ساروا في نفس اليوم إلى حصن الإمبراطور لما وجدوا " أية صعوبة " (89). لكن الفرنسيين لم يغامروا بالسير إلى الجزائر لأنهم كانوا ينتظرون وصول مدفعية الاقتحام، الأمر الذي سمح للداي بأن يلم شتات جيشه و أن يعين قائدا جديدا له.

بعد هزيمة اسطاوالي، اجتمع الداي بالبايات فاتفق الجميع على " تعمير برج مولاي الحسن "، حصن الإمبراطور، و أرسلوا الشريف الزهار إليه ليجرد ما فيه. عن ذلك يقول الزهار نفسه : " وجدت به 10 مدافع صغيرة، و نحو القنطارين من البارود و ما يقرب المائتي كورة ". من جهة أخرى، اتفق المجتمعون على تجهيز الجيش و الخروج إلى القتال " أمروا العسكر بالخروج، و تقدمت بعض من قبائل الزواوة " (90). عين الداي مصطفى بومزراق باي التيطري آغا خلفا لإبراهيم. و كان الداي قد طلب من المفتي شيخ الإسلام " أن يجمع الشعب للدفاع عن البلاد "، لكن المفتي لا يصلح لهذه المهمة فهو " رجل عادل، فاضل ولكنه بعيد عن أن يكون محاربا، و في مثل هذه اللحظة الحرجة لم يكن من الممكن أن يقود جيشا ويصد عدوا " يملك تلك القوة (91). إننا لا ندري لماذا لم يعين الداي قائدا من ضباط الإنكشارية. يبدو أن الداي و البايات لم يكونوا على ثقة بضباطها، في هذه الظروف، و لعل هذا ما يقصده الزهار بقوله " إنما كان خوفهم يومئذ من أجل الأتراك "، بل إن القادة الأتراك لم تكن لهم الثقة حتى في مقاتلي القبائل الذين جاءوا للقتال فلم يعطوهم المؤونة و البارود الكافيين بل كانوا يقولون

لهم: " البارود الذي نعطيه إياكم لا تقاتلون به ،بل ترجعون به إلى بلادكم "(92) .هذا يدل على مدى تفكك الجبهة الداخلية مقابل نظام و وحدة عمل الغزاة.

في جانب الغزاة، كانت الأعمال جاريةعلى قدم و ساق كي يثبّت الفرنسيون أقدامهم في المعسكر الجديد باسطاوالي،و قد نُقلت إليه القيادة العامة و رُبط بموقع سيدي فرج بالتليغراف.كما أقيمت أربعة مواقع لمراقبة الطريق الرابط بين سيدي فرج و اسطاوالي.هنا في الوقت الذي كانت فيه المواقع الأمامية ترد الهجمات الخفيفة التي كان ينظمها الأهالي. لقد تمكن المهاجمون من قتل بعض الفرنسيين على الطريق بين سيدي فرج و اسطاوالي (93).

في جو حار جدا ،هاجم الأتراك،صباح يوم 24 جوان،القوات الفرنسية على جميع المواقع تقريبا، بالقرب من سيدي خالد.كان الهجوم قويا ،لكنه صُدّ بقوة أكبر.كانت الخسائر الفرنسية قليلة. من بين الجرحى نذكر أحد أبناء دوبورمون الأربعة الذين رافقوه في حملته وهو إيمي دوبورمون،الذي سوف توافيه المنية يوم 7 جويلية متأثرا بجراحه (94).

السير نحو مدينة الجزائر

في 25 جوان وصلت إلى سيدي فرج مدفعية الحصار و الخيول فأصبح بذلك كل شيء جاهزا يوم 28 للسير إلى مدينة الجزائر.في هذا الوقت كان الآغا الجديد بومزراق ينصب المدفعية في بوزريعة.كان على الفرنسيين أن يخوضوا معركة في المكان الذي سماه بوتان النبع و المرابط سيدي عبد الرحمان بوناقة،واشتهر باسم العين و المصلى.شاركت في المعركة كل من المدفعية و الخيالة و المشاة من الجانب الفرنسي.لقد تكبد الفرنسيون فيها حوالي ألف رجل بين قتيل و جريح (95). في 29 جوان انطلقت القوات الفرنسية نحو مدينة الجزائر.لما رأي ديسريز الضباب يغطي سهل متيجة اعتقد أنه البحر فتخلى الفرنسيون عن الطريق الذي أشار إليه بوتان معتقدين أن هذا الأخير كان مخطئا. وقعت الفوضى في صفوف الجيش الذي تعب بين التقدم إلى الأمام ثم التراجع إلى الخلف حتى أصبح الجنود غير قادرين على ردّ أي هجوم (96).عند انقشاع الضباب اتضح أن بوتان كان على صواب،لكن الفوضى التي سادت صفوف الجنود لم تنته إلا في المساء (97). في بوزريعة أرسل دوبورمون الجنرال أشار إلى بستان ابن طالب أين كان قناصل البلدان الأوربية مجتمعين برفقة عائلاتهم،باستثناء قنصل إنجلترا. استقبل هؤلاء القناصل أشار بحفاوة و قدموا له وجبة الغذاء مع أركانه و عبروا له عن رغبتهم في الوقوف موقف الحياد (98).

كان الجيش الفرنسي على بعد كيلومترين من برج مولاي الحسن،حين وجد حوالي ثلاثمائة عائلة يهودية،طردها الأتراك من مدينة الجزائر. نُقلت تلك العائلات إلى سيدي فرج بعد مقتل بعض أفرادها خطأ (99).تقع قلعة الإمبراطور(برج مولاي الحسن) على بعد 1225 مترا من القصبة. بُنيت في القرن الخامس عشر،في المكان الذي نصب فيه الإمبراطور

شارل كان خيمته سنة 1541. بُنيت على عجل، بمواد ليست مناسبة و بدون أسس، و ذلك لتمكين حامية من 800 جندي تركي و 1200 جندي أهلي من أن تقيم هناك. كانت القلعة محاطة بفيلات و بساتين فرّ أصحابها لما اقترب الفرنسيون منها (100).

سقوط قلعة الإمبراطور

نصب الفرنسيون خمس بطاريات لمواجهة قلعة الإمبراطور و حفروا الخنادق حولها. في الأيام الأربعة التي كانوا ينجزون فيها تلك الأعمال كانت قذائف القلعة تتساقط عليهم مثل رصاص الجنود المتواجدين في البساتين.كانت تحدث الاشتباكات الفردية في كل ليلة،و في كل نهار كانت تحدث المناوشات القاتلة.لما أكمل الفرنسيون أعمالهم يوم 3 جويلية،اقترب الأميرال دوبيري، في اليوم التالي، إلى قبالة مدينة الجزائر بكل الأسطول. وقع تبادل القصف بين السفن و قلاع مدينة الجزائر لعدة ساعات،ابتعد بعدها الأسطول بسبب رداءة الأحوال الجوية (101). غير أن الزهار يؤكد على أن ذلك الابتعاد كان بسبب مقاومة المدفعية التركية (102). يذكر القنصل الإنجليزي أن معركة قلعة الإمبراطور هي المعركة الوحيدة التي استبسل فيها الجنود النظاميون،و أن المقاومة الحقيقية التي واجهت الفرنسيين قبل دخولهم الجزائر كانت من سكان الجبال الذين نزلوا إلى المتيجة لمواجهة الغزاة (103).يقول الزهار حول معركة قلعة الإمبراطور: " و عندما كان العدو يبني المتارز التي هي أعلى برج مولاي الحسن، دخل الخوف في قلوب الناس و اشتد الأمر على المسلمين و أتم الفرنسيون بناء هذه المتارز و اشتد أزرهم بها. و يوم السبت في آخر الليل نصب في تلك المتارز ما يزيد على مايتي مدفع، وصار يضرب البرج إلى بعد شروق يوم الأحد و تهدم البرج بعد قتال كبير ،ومات خلق كثير من الفريقين واشتد الأمر على من بقي في البرج، فمنهم من هرب، و منهم من ألقى بنفسه من أعلى الجدران، و منهم من تدلى بحبل. وخرج من بقي فيه، و منهم الخزناجي،لكنه وعد بإعطاء مائة سلطاني ذهبا لمن يشعل النار في خزنة البارود،فذهب رجل و أخذ قرطيل بارود من الخزنة و أخذ يفرغ ما فيه شيئا فشيئا بصفة متواصلة من الخزنة إلى أن ابتعد عن البرج، و نفذ ما في القرطيل،فأشعل النار في البارود و هرب، و عندما وصلت النار لخزنة البارود،انفجرت،و طار ما حولها من البناء و نزل حجرها على البلاد " (104).لقد أحدث الانفجار أمطارا من الأتربة و الحجارة بلغت مواقع الفرنسيين فجرحت الكثير منهم (105).و حسب حمدان خوجة، تم التفجير في مستودع البارود الصغير و أنه لو تم في مستودع آخر أكبر منه لتأثرت مدينة الجزائر نفسها (106).استولى الفرنسيون على خراب القلعة و احتموا به من قذائف مدافع القصبة و باب عزون، التي كانوا يردون عليها بالمثل (107).

نهاية السلطة التركية

لقد انتهت المقاومة بعد سقوط قلعة الإمبراطور، يوم 4 جويلية، فلم يبق للسلطة التركية سوى أحد أمرين، إما التصميم على مواجهة الفرنسيين في مدينة الجزائر ثم خارجها، و إما الاستسلام و تلافي تخريب المدينة لقد اختار الداي الأمر الثاني. فقبل بالشروط الفرنسية التي أمليت عليه.

عند دخول الفرنسيين قلعة مولاي الحسن " جمع حسين داي باشا سائر الأمناء و أعيان البلاد و رجال القانون و غيرهم، ثم عرض عليهم الوضع الخطير الذي كانت عليه المدينة - كانت إجابة الحضور: " سنحارب إلى أن نستشهد عن آخرنا، و مع ذلك فإن فضّل سموكم وسائل أخرى، فإنه حرّ في أن يعمل ما يراه صالحا و سيجدنا عند إرادته " (108). في نفس اليوم، و في الوقت الذي كان الفرنسيون يستعدون فيه للهجوم على المدينة، و في حوالي الساعة الحادية عشرة و النصف، اتصل مصطفى كاتب الداي بالفرنسيين واعدا إياهم بتنفيذ كل مطالبهم، بما فيها إعدام الداي و تنصيب آخر مكانه، لكن قائد القوات الفرنسية، دوبورمون أكد أنه يريد تأمين حياة الداي و يرفض أية مفاوضة، إن لم تُسلم للفرنسيين كل قلاع القصبة(109). بعد أقل من ساعتين جاء دور الحضر الذين أوفدوا إلى دوبورمون كلا من أحمد بوضربة و حاج حسين بن سي حمدان، و هما يتكلمان الفرنسية، كان إلى جانبهما قنصل إنجلترا، باعتباره صديقا لحسين داي (110). لقد صرح القنصل بأنه لم يأت كموظف لدى الحكومة الإنجليزية، لكنه جاء فقط لتلافي إراقة الدماء و الحيلولة دون أن يخرب الداي جزء من المدينة. لقد استقبل دوبورمون الوفد و هو محاط بالجنرالات ديسبيريز، بيرتزين، كارس، فالازي، لاهيت و المعتمد العسكري ديني و عدد كبير من ضباط الأركان العامة. طلب مصطفى كاتب تقديم الشروط الفرنسية كتابيا، فأملاها دوبورمون ارتجالا و كتبها ديسبيريز دون أن يتدخل أحد. انفض اللقاء على الساعة الخامسة (111).

تطوع العجوز براسويتز، المترجم الذي توسط بين بونابرت و حاكم مصر أثناء الحلمة الفرنسية على مصر، لترجمة الشروط للداي الذي استقبله في قاعة واسعة يجتمع فيها القادة السامون للإنكشارية التركية. ساد القاعة صمت رهيب، حين كان المترجم يتكلم، و ظهرت علامات الرضا حين أكد أن الأتراك يحتفظون بأملاكهم و ثرواتهم، لكنه لما تطرق لمغادرتهم الجزائر هددوه بالقتل غير أن الداي تدخل و أعاد الهدوء. عاد المترجم إلى قلعة الإمبراطور ليؤكد لدوبورمون أن النص سيُوقع و يُعاد إليه في الغد. هذا ما وقع بالفعل (112).

لقد " اجتمع عدد من أعيان الجزائر في حصن باب البحرية، لقد كانوا من التجار والرأسماليين، و برهنوا على أن الجزائر ضايعة لا ريب في ذلك، و لو أن الفرنسيين يدخلون بالقوة

على إثر هجوم، فإنهم سينهبون المدينــة و يقتلون جميع السكان و النساء و الأطفال العزل، وعليه فمن الأحسن الانضمام إلى اقتراحات الداي السلمية شريطة أن تكون اتفاقية التسليم مع قائد الجيش الفرنسي " (113).

يتضمن النص الذي وقعه الداي، و قد عُرف باسم معاهــدة مدينة الجزائر أو اتفاقية الاستسلام (114)،تسليم مدينة الجزائر للفرنسيين و ضمـان الفرنسيين للثروات الشخصية للــداي و الميليشيا التركيــة (الإنكشارية)،ضمان الحرية الدينية للسكان و ضمان " أملاكهم وتجارتهم و صناعتهم "،و احترام نسائهم و أن " الداي حرّ في الانسحاب مع أسرته وثرواته و ذلك إلى المكان الذي يحدده "،و أنه سيكون تحت حماية الفرنسيين و ذلك " طيلة المدة التي يبقاها في الجزائر ". يفهم من هذا النص أن داي الجزائر مجبر على مغادرة الجزائر و له الحق في اختيار المكان الذي يذهب إليه.هذا في ترجمة محمد العربي الزبيري لكتاب " المرآة " لحمدان خوجة، أما في الترجمة التي أنجزها سعد الله لنص المعاهدة الوارد في نفس الكتاب، فإن الداي مخير بين مغادرة البلاد أو البقاء فيها " فإن فضل البقاء في الجزائر فله ذلك هو و أسرته تحت حماية القائد العام للجيش الفرنسي " (115). تبدو ترجمة محمد العربي الزبيري هي الأدق. إذ من غير المعقول أن تُبقي فرنسا الداي في الجزائر لأن بقاءه قد يشجع على المقاومة، من جهة، ومن جهة أخرى، عملت فرنسا على ترحيل العديد من الإنكشاريين عن الجزائر، و لعلها فعلت ذلك خوفا من المقاومة.على كل فإن القوات الفرنسية قد اهتمت بحياة الداي الذي ظلت تشن عليه حملة واسعة مدة سنوات، محاولة أن تشوه سمعته في الأوساط الجزائرية.

دخل دوبورمون القصبة في منتصف نهار 5 جويلية،في حماية الفرقة الثانية التي كان يقودها الجنرال لوفيردو،و تموقع هناك. دخلت الفرقة الأولى ،التي كان يقودها الجنرال بيرتزين من باب الوادي فاحتلت قلعة الإنجليز، أما الفرقة الثالثة التي كان يقودها الدوق كارس،فقد دخلت عبر باب عزون فاحتلت قلعتها،كما احتلت مؤسسات البحرية،و احتل الأسطول الميناء. هكذا " كانت عشرون يوما كافية لتخريب هذه الدولة التي كان وجودها يتعب أوربا منذ ثلاثة قرون "،كما كتب دوبورمون يوم 5 جويلية من القصبة (116).لقد دفعت فرنسا مقابل إنهاء دولة الداي 409 قتلى و 2061 جريحا،بالإضافة إلى 718 رجلا ماتوا بفعل الأمراض،إلى غاية يوم 31 من شهر أوث (117).

استقبل سكان الجزائر القوات الفرنسية في ذهول،لا يدرون ما يفعلون،لكن اليهود استبشروا خيرا بقدومها. تجمعت نساؤهم في شرفات بيوتهن يتفرجن على المشهد الجديد.كان اليهود يرون في الاستعمار الفرنسي تخلـّصا من وضعيتهم كذميين في العهد التركي،خاصة و أن فرنسا كانت قد منحت جنسيتها ليهودها منذ سنة 1808. لقد تعرضت بيوت الأتراك في القصبة للنهب من طرف يهود و زنوج و حتى من طرف الحضر. حين وصل الفرنسيون فرّ

هؤلاء الناهبون، غير أن الجنود الفرنسيين أنفسهم حلوا حلهم في عمليات النهب تلك (118). قبل مغادرته الجزائر، طالب الداي المخلوع من دوبورمون إعادة آلات و حاجات نهبت و منها 30 قطعة من الذهب. استهدف النهب كل شيء، من المجوهرات إلى " السلاسل و الموازين و الأخشاب " التي كانت في الميناء، إلى " أبواب المحلات العامة " و غيرها، كما " كثر الاعتداء على الأشخاص و الأعراض " (119). لقد أحدثت الصحف الفرنسية ضجيجا حول تلك السرقات التي قام بها الجنود و الضباط الفرنسيون (120)، خاصة و أن دخولهم مدينة الجزائر جاء في وقت كانت فيه المعارضة في فرنسا قد حققت انتصارات انتخابية كبيرة يوم 3 جويلية، كانت مقدمة للانفجار الذي أطاح بالملك شارل العاشر و خلص فرنسا من حكم النبلاء. حسب بعض الروايات، فإن الخزينة قد تعرضت هي الأخرى للنهب.

استيلاء الفرنسيين على الخزينة

كانت خزينة الداي تتكون من كميات من الذهب و الفضة و البرونز، تركها سالمة في ثلاث قاعات بالقصبة (121). يؤكد حمدان خوجة ذلك بقوله: " عندما غادر القصبة، لم يمس حسين باشا أي شيء مما هو تابع للخزينة العامة و لم يسمح لأحد بأن يفعل ذلك. لقد كان يرى نفسه مسؤولا حسب شروط الاستسلام عن كل ما يمكن امتلاكه. وبذلك لم يأخذ أي شيء من كنوز الجزائر، و استطاعت فرنسا أن تتسلمها كاملة " (122). لقد سلم الخزناجي مفاتيح أبواب الخزينة للقائد الأعلى للجيش الفرنسي، الذي سلمها بدوره للجنة أعضاؤها هم الجنرال طولوزي و المعتمد العسكري ديني و الصراف العام فيرينو. قدرت هذه اللجنة قيمة الموجودات بمبلغ يقارب 48.5 مليون فرنك و أحاطتها بحراسة مشددة، ثم نُقل الجزء الأكبر من هذه الأموال، في الأيام الموالية، إلى متن البوارج الماريغو، الفوكان، السيبون، الفيسطور والفينوس و احتفظ بالباقي الذي تبلغ قيمته أكثر من خمسة ملايين بقليل لحاجات الجيش. و قد أكدت لجنة التحقيق التي أنشأها دوبورمون، بعد ذلك بشهر، سلامة الأموال (123) علما - أن الجنرال دوبورمون لم يستجب لا دعوات الخواص و لا طلبات من كانت لهم ديون في ذمة الدولة - التركية (124). انتهت اللجنة التي أنشأها الجنرال كلوزيل، خلف دوبورمون، إلى نفس النتيجة بأغلبية أعضائها، غير أن مقررها جون بابتيست فلاندرين، ما فتئ يتهم المتهمين بالمساس بالخزينة بواسطة اللوائح والكتيبات عدة سنوات. من بين المتهمين باختلاس الخزينة نجد المعتمد العسكري ديني والصراف العام فيرينو اللذين تمكنا، بعد عودتهما إلى فرنسا، من دفع ديونهما و دفع مصاريف على الكماليات. وقد فسّر ديني مصدر أمواله بحصوله على إرث من عم زوجته(125). غير أن حمدان خوجة يشكك في تورط دوبورمون و ضباطه في الاختلاس بقوله: " هذه ليست إلا إشاعات يؤمن بها الجميع، ولكن

لا يريد أحد أن يشهد بها "(126). إذا اعتبرنا أن القيمة التي صرح بها الفرنسيون صحيحة فإن مبلغها لم يصل مبلغ ما صُرف على الحملة الذي بلغ 75 مليون فرنك (127). مهما يكن فإن الداي لم يترك الخزينة سالمة فحسب بل ترك البلاد الجزائرية بكاملها للفرنسيين مقابل تأمين حياته و حياة حاشيته و إنكشاريته فرحل تاركا رعيته تقاوم الاحتلال بدونه و بدون الانكشارية.

رحيل الداي

في 8 جويلية زار دوبورمون الداي ليرتب رحيله.لقد اختار الداي أن ينتقل إلى مالطة، التي كانت قد سيطرت عليها إنجلترا منذ سنة1800، و لعل هذا هو السبب الذي جعل القائد الفرنسي يرفض هذا الاختيار و يقترح عليه نابولي. فوجود الداي بين الإنجليز و بالقرب من بلاد المغرب قد يكون مدعاة لتنظيم المقاومة. خصص له السفينة " جان دارك " التي حملته هو وأكثر من مائة شخص من حاشيته، و منهم صهره الآغا إبراهيم و 57 امرأة من الحرائر والوصيفات. وصل الجميع إلى نابولي في 31 من نفس الشهر (128). انتقل الداي بعد ذلك إلى الإسكندرية، حيث احتفل به محمد علي باشا، و أقام له مأدبة حضرها الأعيان و كبار البلد ولقد عبّر الداي المخلوع عن إعجابه بما بلغته مصر من الرقي.لقد ظل مقيما بمصر إلى أن توفي سنة 1254 هـ (1838). لقي الإنكشاريون نفس مصير الداي تقريبا. فقد نُقلوا على عجل إلى نواحي إزمير بينما سمح للأغنياء منهم بالبقاء في الجزائر إلى أن يبيعوا أملاكهم، و لما أكملوا ترتيب أمورهم نُقلوا إلى جهات مختلفة (129).

بدايات الإدارة الفرنسية في مدينة الجزائر

تعرضت أملاك الأتراك و حضر مدينة الجزائر، بعد سقوط السلطة التركية، إلى النهب والتخريب في سهل المتيجة. خُربت المنازل و أُخذت المواشي و الخيل و البغال و غيرها من طرف القبائل، كما أُحرقت المخازن و كسرت جرار الزيت والزبدة (130). هكذا تلاشت السلطة التركية في ما كان يعرف بدار السلطان. إذا كان باي التيطري قد نصّب نفسه ممثلا لهذه السلطة، بعد أن انقلب على فرنسا، كما فعل باي قسنطينة الذي رفض التعامل مع الفرنسيين من البداية، فإن باي وهران قد استسلم للفرنسيين، الشيء الذي أدى إلى انهيار البايليك و انتشار الفوضى بسرعة فائقة.

لقد عمت الفوضى في مدينة الجزائر، فالفرنسيون لم يقرّوا الإدارة التركية القديمة، و كان لا بد من وقت لإقامة إدارة جديدة. أخطر ما وقع في مرحلة الفوضى تلك هو إتلاف سجلات الإدارة التركية، فمنها ما أخذه الموظفون القدامى، و منها ما مُزق أو أحرق. لقد شاهد الكابيتان

بيليسي جنودا فرنسيين في القصبة يشعلون غلايينهم بأوراق الحكومة التركية المتناثرة هنا وهناك.كل هذا كان يتم تحت أعين المكلف بالمصالح الدنية،البارون دينى (131). هكذا كان الغزو الفرنسي لمدينة الجزائر كارثة على الأرشيف التركي و على تاريخ الجزائر بالتالي.كان دوبورمون مشغولا عن هذه الأمور بوفاة ابنه الجريح، و بالتطورات السياسية الخطيرة التي كانت تعرفها فرنسا في هذه الأثناء.لكن دوبورمون يتحمل مسؤولية كبرى في ما وقع من فوضى في الجزائر.

للقضاء على هذه الفوضى، شُكلت لجنة مركزية للحكم،مهمتها دراسة المسائل الإدارية،يترأسها المعتمد العسكري دينى،ثم عُين مجلس بلدي مكلف بتسيير المدينة (132). تشكل هذا المجلس من حضر المدينة و من اليهود و كان بوضربة نقيبه (133). بهذه الطريقة أبعد الفرنسيون بقايا الأتراك من الإدارة الجديدة و أدخلوا إليها اليهود الذين كانوا في قاعدة الهرم الإجتماعي. فيما يتعلق بالأمن،احتجز الفرنسيون أسلحة الجنود القدامى و أسلحة السكان (134). و أنشأوا الشرطة التي وُضع على رأسها أوبنيسك. و كان تحت إمرته مفتشون ومحافظون،و فرقة أهلية من عشرين شخصا،ثم استُبدل الأهالي بالفرنسيين (135).من أهم مشاريع دوبورمون،التي سعى لتحقيقها مشروع تكوين فرقة عسكرية من الأهالي.لقد وجد إقبالا من الزواوة، بقايا الفرق التي أنشأها الأتراك من قبل،بحيث عبّر عن رغبته في الانضمام إليها حوالي ألفي شخص. تم استدعاء حوالي خمسمائة منهم إلى الجزائر،غير أن إنهاء مهام دوبورمون عطل العملية التي سوف ينجزها خلفه كلوزيل (136).

بعد أيام من دخول الفرنسيين مدينة الجزائر،عادت الأسواق إلى نشاطها،و جاء باي التيطري،مصطفى بومزراق،ليقدم ولاءه للفرنسيين فعُين من جديد على رأس بايليك التيطري يوم 15 جويلية،و دخل ابن زعموم،قائد فليسة القوية،في مفاوضات معهم و عرض باي وهران العجوز المهدد من طرف القبائل،البايليك على الفرنسيين. لم يرفض الخضوع سوى باي قسنطينة.كل هذه المواقف جعلت القائد الفرنسي يعتقد أن سقوط مدينة الجزائر يعني سقوط البلاد بكاملها و أن بعض العمليات البسيطة تجعل الفرنسيين أسياد أقاليم الإيالة،غير أن الحملة التي نظمها على البليدة جعلت المواقف تتغير،مواقف قبائل المتيجة و مواقف باي التيطري.

في 25 جويلية سيّر دوبورمون حملة على البليدة،من أكثر من ألف جندي. أمكن له أن يدخل المدينة دون مقاومة،إلا أن قواته تعرضت، في اليوم التالي، إلى هجمات من القبائل. لم يعد القائد الفرنسي إلى الجزائر ،في اليوم الموالي، إلا عبر طريق آخر غير الطريق الذي سلكه في ذهابه. كانت هذه الحملة إيذانا ببداية تلك المقاومة التي نظمتها قبائل المتيجة و قبيلة فليسة. نفس المقاومة تعرضت لها القوات الفرنسية التي احتلت عنابة يوم 2 أوت مع هذا دخل

الفرنسيون المرسى الكبير دون مقاومة،لأن الباي هو الذي سلم لهم الموقع. إن انفجار الثورة في فرنسا قد جعلت دوبورمون يجمع كل قواته في مدينة الجزائر.

دوبورمون و الثورة في فرنسا

كان الملك شارل العاشر ينتظر من الانتصارات التي حققتها حملته في الجزائر أن تدعّم مركزه في فرنسا ضد المعارضة المتنامية،غير أن باريس ثارت عليه،في الوقت الذي سيطرت فيه قواته على مدينة الجزائر،في الأيام الأخيرة من جويلية،و أرغمته على التنحي عن العرش ووضعت مكانه لويس فيليب " الملك البورجوازي ".

لم يهضم دوبورمون التحولات التي وقعت في فرنسا. في 11 من شهر أوت نشر بيانا جاء فيه: " إن إشاعات غريبة تُتداول في صفوف الجيش. لم يستلم المارشال القائد الأعلى أي إخطار رسمي يمكنه أن يؤكدها ". في نفس اليوم جاءت رسالة من الجنرال جيرار،محافظ الحكومة في وزارة الحربية،تأمر دوبورمون بأن يفرض على جيشه حمل الشارة الوطنية و العلم المثلث،لكن القائد العام " تردد،لقد كان يحلم بالنزول مع جزء من جيش أفريقيا في طولون كي يسير من هناك إلى ليون و باريس ليحاول إعادة تنصيب شارل العاشر " (137). في يوم 12 أوت دعا القائد العام إلى اجتماع الجنرالات و ضباط الوحدات،رفض الأميرال دوبيري حضوره. كانت المسألة مطروحة بخصوص استعمال الفرق العسكرية الفرنسية في الجزائر ضد النظام الجديد، إمّا بالالتحاق بالفرقة الاحتياطية في طولون،و إمّا بالسير إلى ليون أو النزول في ساحل النورماندي. كُلف ديسبيري باستطلاع رأي الأميرال الذي أظهر التحفظلم تجد إرادة دوبورمون و متطرفي قيادة أركانه صدى مناسبا لدى الفرق العسكرية،التي كانت تريد الاعتراف بالثورة و كذلك العديد من الضباط ، الشيء الذي أفشل مسعى القائد العام. في 16 أوت أخبر المارشال الجنود رسميا بعزل شارل العاشر (138) فأنزلت الأعلام البيضاء لتحل محلها الأعلام ثلاثية الألوان (139). اعتبر المتطرفون قائدهم الأعلى " جبانا " و " وضيعا ". في 2 من شهر سبتمبر، وصل الجنرال كلوزيل ليحل محله في قيادة الجيش الفرنسي في الجزائر. طلب دوبورمون سفينة تنقله إلى إسبانيا،التي نصحه الجنرال جيرار بالانتقال إليها و انتظار الوقت المناسب، لكن دوبورمون لم يتمكن حتى من الحصول على هذه السفينة. كان عليه أن يبحر إلى إسبانيا على متن سفينة صغيرة على حسابه الخاص (140).كان الإبحار يوم 3 سبتمبر و قليلون جدا هم الأصدقاء الذين جاءوا ليودعوه هو واثنين من أبنائه و خادمين (141).

كانت ردود الفعل بين الجزائريين مختلفة،بخصوص سقوط نظام شارل العاشر،فالحضر استبشروا خيرا بمجيء قيادة أكثر عدلا،في نظرهم،فالعاهل الجديد " ليس هو العاهل الذي سمح بأن يخضع الجزائريون لنظام تعسفي، ليس هو الذي سيأمر بفصل الزوج

عن زوجته و أطفاله، و لا بأن تؤخذ أملاكنا و كل ما لنا من موارد " كما يقول حمدان خوجة (142).لكن آمالهم تبخرت بسرعة. أما خارج مدينة الجزائر فكانت القبائل ترى في التحولات الجارية و جمع القوات الفرنسية في مدينة الجزائر فرصة لتصعيد المقاومة علّها تعجّل برحيل الفرنسيين.لقد استولت القبائل على حيوانات الجيش الفرنسي، التي كانت ترعى في السهل، تحت أعين الجنود الفرنسيين، كما قتلت الكثير من الجنود المعزولين (143). و كما جاء في تقرير القنصل الإنجليزي،يوم 12 من شهر أكتوبر : " إن الفرنسيين لا يستطيعون التحرك ثلاثة أميال حول المدينة دون ألفي رجل يحمونهم " (144).لقد ترك دوبورمون الجزائريين ينظمون أنفسهم، بدون سلطة، ليواجهوا نظاما جديدا في فرنسا أطماعه أوسع من أطماع نظام تجاوزه الزمن فانهار،في نفس الوقت الذي انهار فيه نظام الجزائر.

هوامش الفصل السادس

(1) انظر : قنان. معاهدات المرجع السابق ص 345 و 346.
(2) محمد زروال. العلاقات الجزائرية الفرنسية (1791 ـ 1830). منشورات دحلب. الجزائر 94 . ص 77 و 78.
(3) جوليان. تاريخ الجزائر المعاصرة. المرجع السابق ص 24.
(4) Claude MARTIN. Histoire de l'Algérie française T2. C.F.E.D. Paris. 1979. p.66.
(كلود مارتان. تاريخ الجزائر الفرنسية. الجزء الثاني. المركز الفرنسي للنشر و التوزيع. باريس 1979 ص 66).
(5) انظر النص في : قنان. معاهدات. المرجع السابق ص 347 و 348.
(6) جوليان. تاريخ الجزائر المعاصرة. المرجع السابق ص 24.
(7) E.Cat. Petite histoire de l'Algérie. T2. Aprés 1830. Adolphe Jourdan. Alger. p20.
(أو. كات. القصة الصغيرة للجزائر. الجزء الثاني. بعد 1830. أدولف جوردان. الجزائر. ص20).
(8) مارتان. المرجع السابق ص 65 و 66.
(9) جوليان. تاريخ الجزائر المعاصرة. المرجع السابق ص 26.
(10) كات. المرجع السابق ص 20.
(11) مارتان. المرجع السابق ص 65 و 66.
(12) جوليان. تاريخ الجزائر المعاصرة. المرجع السابق ص 26.
(13) زروال. المرجع السابق ص 82.
(14) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 164.
(15) جوليان. مسألة مدينة الجزائر أمام غرف النواب. المرجع السابق ص 293 و 294.
(16) نفسه. ص 295.
(17) انظر الرسالة في : E.BIGONET. Lettre de Constantine en 1827. Revue Africaine. N°.43 (1899). pp.175 - 177.
(أو. بيغونيت. رسالة من قسنطينة في 1827. المجلة الإفريقية عدد 43 (1899) ص 175 ـ 177).
(18) L.Charles FERAUD. Destruction des établissements françaises de la Calle, en 1827. Revue Africaine N°.17 (1873). pp.422 et 423
(ل. شارل فيرو. تخريب المؤسسات الفرنسية بالقالة في 1827. المجلة الإفريقية عدد (1873) ص 422 و 423).
(19) Moulay BELHMISSI. Histoire de la marine algérienne. E.N.A.L. Alger 1983. pp.159 et 160.
(مولاي بلحميسي. تاريخ البحرية الجزائرية (1516 ـ 1830). المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1983 ص 159 و 160).

(20) نفسه. ص 160 و 161 .
(21) سعيدوني. الجزء الأول. المرجع السابق ص 86.
(22) نفسه. ص 87.
(23) N.ROBIN.Notes historiques sur la Grande Kabylie (de 1830 à 1838).Revue Africaine N° 20 (1876). pp.43 – 45
(ن. روبان. مذكرات تاريخية حول القبائل الكبرى (من 1830 إلى 1838). المجلة الإفريقية عدد 20 (1876). ص 43 ـ 45).
(24) مارتان. المرجع السابق ص 68.
(25) كات. المرجع السابق ص 26.
(26) انظر : مارتان. المرجع السابق ص 68.
(27) انظر نص التقرير الكامل في : Clermont TONNERRE.Rapport au Roi sur Alger.Revue Africaine N°.70 (1929).pp.215 – 253
(كليرمون طونير. تقرير إلى الملك حول مدينة الجزائر. المجلة الإفريقية عدد 70 (1929) ص 215 ـ 253)
(28) انظر نص الرسالة في : سعد الله. أبحاث و آراء. المرجع السابق ص 189 و 190.
(29) كات. المرجع السابق ص 31 و 32.
(30) جوليان. تاريخ الجزائر المعاصرة. المرجع السابق ص 58 و 59.
(31) انظر : كات. المرجع السابق ص 31 و 32.
(32) انظر نصه في : توفيق المدني. من الوثائق العثمانية عن التاريخ الجزائري. مجلة "التاريخ" النصف الأول من سنة 1982 (العدد 12). ص 10 ـ 27.
(33) كات. المرجع السابق ص 29 و 30.
(34) G.LACQUETON.Papiers du général Valazé relatifs à la conquête d'Alger. Revue Africaine N°.36 (1892).p.131
(ج. لاكوطون. أوراق الجنرال فالازي المتعقلة بغزو مدينة الجزائر. المجلة الإفريقية عدد 36 (1892) ص 131).
(35) كات. المرجع السابق ص 30.
(36) Raymond PEYRONNE.Livre d'or des officiers des affaires indigènes 1830 – 1930 T.2. Alger p.23
(رايمون بيرون. الكتاب الذهبي لضباط الشؤون الأهلية. 1830 ـ 1930. الجزء الثاني الجزائر. ص 23).
(37) Henri MASSE.Les études arabes en Algérie (1830 – 1930).Revue Africaine N°.74 (1933).p.208
(هينري ماسي. الدراسات العربية في الجزائر (1830 ـ 1930) المجلة الإفريقية عدد 74 (1933) ص 208)
(38) جوليان. تاريخ الجزائر المعاصرة. المرجع السابق ص 49.
(39) ماسي. المرجع السابق ص 209.

(40) جوليان. تاريخ الجزائر المعاصرة. المرجع السابق ص 50.
(41) نفسه. ص 49.
(42) الزبير سيف الإسلام. تاريخ الصحافة في الجزائر. الشركة الوطنية للنشر و التوزيع. الجزائر. ص 13 ـ 22.
(43) لاكوطون. أوراق الجنرال فلازي. المرجع السابق ص 130.
(44) كات. المرجع السابق ص 34.
(45) انظر : عبد القادر زبادية. الداي حسين و استمرار المقاومة في المتيجة. مجلة " الثقافة " عدد 26. ماي ـ أفريل 1975. ص 128.
(46) انظر : المدني. من الوثائق العثمانية عن التاريخ الجزائري. المرجع السابق.
(47) لاكوطون. أوراق الجنرال فلازي. المرجع السابق ص 136.
(48) كات. المرجع السابق ص 34 و 35.
(49) لاكوطون. أوراق الجنرال فلازي. المرجع السابق ص 136.
(50) كات. المرجع السابق ص 35 و 36.
(51) نفسه.
(52) جوليان. تاريخ الجزائر المعاصرة. المرجع السابق ص 52.
(53) حمدان. المرجع السابق ص 190 و 191.
(54) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 163.
(55) حمدان. المرجع السابق ص 188.
(56) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 88.
(57) روبان. مذكرة حول يحي آغا. المرجع السابق ص 117 و 118.
(58) نفسه. ص 115.
(59) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 163.
(60) حمدان. المرجع السابق ص 189.
(61) كات. المرجع السابق ص 41 ـ 44.
(62) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 171.

(63) كات.المرجع السابق ص 56 ـ 60.

(64) جوليان.تاريخ الجزائر المعاصرة.المرجع السابق ص 52.

(65) كات.المرجع السابق ص 51 ـ 53.

(66) نفسه.

(67) ملسي.المرجع السابق ص 208.

(68) نفسه.ص 206.

(69) A.BERBRUGGER.La première proclamation adressée par les français aux algériens 1830. Revue Africaine N°6 (1862) pp.153–156.

(أ.بيربروجير.البيان الأول الموجه من طرف الفرنسيين إلى الجزائريين.المجلة الإفريقية عدد 6 (1862) ص 153 ـ 156).

(70) زبادية. المرجع السابق

(71) انظر نصه في : سعد الله.أبحاث و آراء.المرجع السابق ص 187 ـ 189.

(72) كات.المرجع السابق ص 53 ـ 54.

(73) لاكوطون.أوراق الجنرال فالازي.المرجع السابق ص 136 ـ 140.

(74) روبان.مذكرات تاريخية حول القبائل الكبرى.المرجع السابق ص 46 و 47.

(75) نفسه

(76) جوليان.تاريخ الجزائر المعاصرة.المرجع السابق ص 52.

(77) حمدان.المرجع السابق ص 196.

(78) جوليان.تاريخ الجزائر المعاصرة.المرجع السابق ص 52

(79) نفسه ص 53.

(80) نفسه.

(81) كات.المرجع السابق ص 55 ـ 57.

(82) جوليان.تاريخ الجزائر المعاصرة.المرجع السابق ص 53.

(83) كات.المرجع السابق ص 60.

(84) جوليان.تاريخ الجزائر المعاصرة.المرجع السابق ص 53.

(85) كات.المرجع السابق ص 60.

(86) حمدان.المرجع السابق ص 196.

(87) كات.المرجع السابق ص 60

(88) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص 172

(89) حمدان.المرجع السابق ص 196.

(90) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص 173.

(91) حمدان.المرجع السابق ص 197 ـ 199.

(92) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص 173

(93) كات.المرجع السابق ص 62.

(94) نفسه.ص 63 ـ 65.

(95) نفسه.ص 65 و 66.

(96) جوليان.تاريخ الجزائر المعاصرة.المرجع السابق ص 54.

(97) كات.المرجع السابق ص 68.

(98) A.BERBRUGGER.Les consuls D'Alger Pendant la conquête de 1830. Revue Africaine N°9 (1865). P.59.

(أ.بيربروجير.قناصل مدينة الجزائر خلال غزو 1830.المجلة الإفريقية.عدد 9 (1865) ص 59).

(99) كات.المرجع السابق ص 70 و 71.

(100) جوليان.تاريخ الجزائر المعاصرة.المرجع السابق ص 54.

(101) كات.المرجع السابق ص 73.

(102) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص 173

(103) انظر : زبادية.المرجع السابق ص 129.

(104) مذكرات الزهار.المرجع السابق ص 174.

(105) كات.المرجع السابق ص 75.

(106) حمدان.المرجع السابق ص 199.

(107) كات.المرجع السابق ص 76.

(108) حمدان.المرجع السابق ص 200.

(109) كات.المرجع السابق ص 77 ـ 80.

(110) جوليان.تاريخ الجزائر المعاصرة.المرجع السابق ص 55.

(111) كات.المرجع السابق ص 77 ـ 80.

(112) نفسه.

(113) حمدان.المرجع السابق ص 201.

(114) انظر النص في :حمدان.المرجع السابق 203 و 204.

(115) أبو القاسم سعد الله.محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال).الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.الجزائر 1982.ص 46.

(116) انظر : كات.المرجع السابق ص 81 و 82.

(117) جوليان.تاريخ الجزائر المعاصرة.المرجع السابق ص 56.

(118) كات.المرجع السابق ص 80.

(119) سعد الله.محاضرات.المرجع السابق ص 56 و 57.

(120) كات.المرجع السابق ص 80

(121) جوليان.تاريخ الجزائر المعاصرة.المرجع السابق ص 57.

(122) حمدان.المرجع السابق ص 207.

(123) كات.المرجع السابق ص 84 و 85.

(124) حمدان.المرجع السابق ص 209.

(125) جوليان.تاريخ الجزائر المعاصرة.المرجع السابق ص 57.

(126) حمدان.المرجع السابق ص 210.

(127) جوليان.تاريخ الجزائر المعاصرة.المرجع السابق ص 62.

(128) سعد الله.محاضرات.المرجع السابق ص 56.

(129) ابن عبد القادر الجزائري.المرجع السابق ص 138.

(130) حمدان.المرجع السابق ص 204 و 205.

(131) كات.المرجع السابق ص 87.

(132) نفسه.ص 88.

(133) جوليان.تاريخ الجزائر المعاصرة.المرجع السابق ص 75.

(134) حمدان.المرجع السابق ص 230.

(135) سعد الله.محاضرات.المرجع السابق ص 60 و 61.

(136) كات.المرجع السابق ص 98.

(137) نفسه.ص 94 و 95.

(138) جوليان.تاريخ الجزائر المعاصرة.المرجع السابق ص 63.

(139) كات.المرجع السابق ص 96.

(140) جوليان.تاريخ الجزائر المعاصرة.المرجع السابق ص 63

(141) كات.المرجع السابق.ص 98.

(142) حمدان.المرجع السابق ص 241.

(143) كات.المرجع السابق ص 97.

(144) انظر :زبادية.المرجع السابق ص 130.

القسم الثاني:

أوضاع الجزائر في أواخر الحكم التركي

الفصل الأول:

الأوضاع السياسية و الإدارية

منظومة الحكم

مجال السلطة التركية

كان مجال سلطة الإخوة بربروس، عند مقتل عروج سنة 1518، يمتد من جيجل إلى نواحي مستغانم، و من مدينة الجزائر إلى المدية. ظل هذا المجال يزداد توسعا إلى غاية أوائل القرن التاسع عشر حيث بدأت حركة عكسية فأخذ هذا المجال ينحسر. بفضل ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية و الدعم الذي قدمته هذه الأخيرة، وسع خير الدين مجال سلطته خاصة إلى الناحية الشرقية و أمكن له أن يقضي على الوجود الإسباني في جزيرة البنيون. لكن التوسع الأكبر حدث في عهد البايلربايات الذين أنهوا وجود مملكة بني زيان في تلمسان و أنهوا كذلك وجود مملكة بني حفص في تونس و اقتلعوا الإسبان من بجاية. و لم ينته هذا العهد إلا وقد مد الأتراك نفوذهم على الشمال الجزائري إلى غاية الأغواط ، ورقلة و تقرت. لكن مناطق هامة في جبال الأوراس و جبال القبائل الكبرى و الونشريس و غيرها من المناطق الجبلية ظلت خارج نفوذهم. لقد عرفت عمليات التوسع نوعا من الركود في عهد الباشوات و الآغوات و انفصلت تونس عن الجزائر. حاول الدايات إعادة تنشيط حركة التوسع و خاصة في منطقة القبائل الكبرى، غير أنهم لم يتمكنوا من السيطرة على مجملها. إن طرد الإسبان من وهران و المرسى الكبير سنة 1792 قد أفقد الأتراك علة قبول الجزائريين سلطتهم، و قد تعرضت هذه السلطة للعديد من الهزات في أوائل القرن التاسع عشر نتيجة حركات التمرد العديدة في الشرق و الوسط و الغرب. ضعفت هذه السلطة ثم تلاشت في الكثير من المناطق، و خاصة في بلاد القبائل و جبال البابور ، الأوراس، الونشريس و غيرها.

باختصار، وجد الفرنسيون السلطة التركية في حالة التقهقر و الانحسار. انتهت الدراسة التي أنجزها لويس رين، في أواخر القرن التاسع عشر، إلى أن السيادة التركية الفعلية لم تكن تمتد، في سنة 1830، إلا على حوالي 15 مليون هكتار، تقيم عليها 126 جماعة مخزنية و حوالي 104 جماعات من الرعية (القبائل التي تخضع مباشرة للسلطة التركية) و86 جماعة من الجماعات التابعة أو الحليفة للأتراك. وبما أن هذه الجماعات الأخيرة كانت تتمتع بالاستقلال الذاتي، فهذا يعني أن الأتراك لم يسيطروا سيطرة مباشرة و مطلقة إلا على جماعات الرعية و المخزن، التي كانت تشغل حوالي 8 ملايين من الهكتارات. مع العلم أن

فرنسا كانت تسيطر على ما يقرب 48 مليون هكتار سنة 1886 و هي مساحة الجزائر الشمالية تقريبا (1). معنى هذا أن الأتراك لم يكونوا يسيطرون، بصفة مباشرة أو بصفة غير مباشرة سنة 1830 إلا على حوالي 30 % من الجزائر الشمالية الحالية أو 6.3 % من كل الجزائر الحالية، أما سيطرتهم الفعلية و المباشرة فهي تمتد على 16 % من الجزائر الشمالية أو 3 , 3 % من الجزائر كلها.

علاقة الجزائر بالدولة العثمانية

كانت منظومة الحكم التركي في مراحلها الأخيرة تتكون من الداي و الحكومة و الديوان.

ظهر نظام الداي إلى الوجود سنة 1671، في إطار مسار يتجه نحو الانفصال عن الدولة العثمانية.لجأت الدولة العثمانية، بعد أن أصبحت الجزائر تابعة لها، إلى تعيين بايلربايا مسؤولا على الجزائر و على كل الأقاليم التي انضوت تحت سلطتها في بلاد المغرب. هذه الأهمية التي أولتها الدولة العثمانية للجزائر و بلاد المغرب نابعة من كون المنطقة تشكل جبهة متقدمة في الصراع بين العثمانيين و الإسبان خاصة في عهد شارل كان. لكن ما إن خف هذا الصراع حتى أسرعت القسطنطينية إلى تفكيك المغرب إلى ثلاث وحدات إدارية هي الجزائر، تونس و طرابلس، على رأس كل منها مسؤول تابع لها مباشرة فألغت منصب البايلرباي. نعتقد أن هذا الإجراء كان سببه خوف الدولة العثمانية من أن تتشكل سلطة قوية في المغرب قد تستقل بالمنطقة. و لعل هذا هو السبب الذي جعل القسطنطينية لا ترمي بكل ثقلها للقضاء على الوجود الأسباني في الغرب الجزائري، فهذا الوجود كان يخدم سياستها.

أصبحت الجزائر تخضع، بعد التفكيك، لباشا تعينه الدولة العثمانية لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد. لم تكن هذه المدة القصيرة كافية ليتمكن الباشا من فرض سلطته،لهذا كان ينشغل بجمع المال الذي يمكّنه من تقديم الهدايا الضرورية لمسؤوليه حتى يُعاد تعيينه مرة أخرى. أهمل بذلك شؤون الإيالة،و برزت الإنكشارية كقوة بيدها السلطة الحقيقية. في سنة 1659 أزاحت الإنكشارية الباشا عن الإدارة المباشرة للبلاد،و أوكلت هذه المهمة للآغا، قائدها العام،الذي كان يعين من طرفها. لم يعد الباشا سوى ممثل السلطان في الجزائر.لم تستطع الإنكشارية المضي قدما لتحدث القطيعة مع القسطنطينية لسببين؛ يتمثل الأول في كون هذه الإنكشارية تجند عناصرها في أراضي الدولة العثمانية؛ و يتمثل ثانيا في رفضها جزأرة السلطة.كانت فترة الآغوات فترة اغتيالات ومؤامرات،بحيث قتل كل الآغوات الذين مارسوا السلطة. لا شك في أن الباشا لم يكن بعيدا عن تلك المؤامرات و الاغتيالات. لم يتم تجاوز الأزمة التي عرفتها سلطة الآغوات إلا بتدخل طائفة الرياس التي أقامت نظام الدايات. على الرغم من الإصلاحات السياسية التي أدخلها الدايات على نظام الحكم إلا أنهم لم يُبعدوا باشا

القسطنطينية إلا سنة 1711. منذ هذا التاريخ أصبح السلطان يخلع لقب الباشا على الداي نفسه. معنى هنا أن الداي الباشا هو ممثل أتراك الجزائر، من جهة، و ممثل السلطان من جهة أخرى. ظلت الوضعية على هذه الحال إلى آخر الدايات.

يتضح إذن أن أتراك الجزائر لم يكونوا قادرين على إحداث القطيعة النهائية مع الدولة العثمانية، لأن هذه القطيعة كانت تعني تقهقر طائفتهم في الجزائر من الناحية العددية، ماداموا لا يعترفون بالصفة التركية لأبنائهم من الجزائريات و يرفضون مشاركة الجزائريين في السلطة. ما يمكن قوله هو أن أتراك الجزائر تمكنوا من انتزاع الاستقلال الذاتي، و أن السلطة كانت تعبر عن مصالحهم و ما علاقتهم بالدولة العثمانية سوى علاقة تبادل منافع و تضامن في مواجهة العدو المشترك على الرغم من أن الدول الأوربية كانت تتعامل مع الجزائر على أساس أنها ولاية عثمانية. كانت ترسل سفراءها إلى عاصمة الدولة العثمانية و ترسل قناصل إلى الجزائر. و على الرغم من أن الدولة العثمانية كانت تعتبر سكان الجزائر رعاياها، إلا أن السلطة الحقيقية في الجزائر كانت بيد أتراكها، و أن هذه السلطة كانت قادرة على إبرام معاهدات مع بلدان أخرى دون الرجوع إلى السلطان. ماحصل في تونس من تونسة النظام، بالقضاء على الانكشارية، لم يحصل في الجزائر، رغم محاولة علي خوجة.

الـــــداي

لم يكن هناك نظام محدد و مضبوط لتعيين الداي، كما لم تكن فترة حكمه محددة، فالداي يبقى على رأس السلطة إلى غاية وفاته، إن لم يُبعده غيره أو يستقيل. كان هناك نوع من الاتفاق على أن " الأمير (الداي) إذا مات يتولى مكانه الخزناجي و الآغا (آغا العرب) يتولى خزناجيا "، كما يقول الزهار (2). غير أن هذه القاعدة ليست محترمة دائما، فقد يتولى السلطة عضو آخر من الهيئة التنفيذية، و قد يوصي الداي بها لمن يراه صالحا. فقد أوصى علي باشا بالسلطة لمحمد باشا مثلا. و قد يصل الداي إلى سدّة الحكم نتيجة تمرد من الإنكشارية أو نتيجة مؤامرة يدبرها أحد أعضاء الهيئة التنفيذية. بعد أن يُعين الداي بطريقة من الطرق تأتي مرحلة المبايعة من الديوان الأكبر و الشخصيات المتنفذة. يقدم لنا الشريف الزهار صورة عن مبايعة محمد باشا نقدمها هنا كنموذج: في اليوم الموالي لتعيين محمد باشا " قدم الدولاتلي أعني آغة العسكر و كاهيته، و كافة الديوان و المفتيين، و القضاة، و نقيب الأشراف، وأعيان الناس و اجتمعوا به بدار الإمارة فجلس محمد باشا على كرسي الملك، و بايعه العلماء، ثم نقيب الأشراف، ثم الوزراء و كافة الديوان و جميع الناس، و لبس الخلعة السلطانية واطلقت المدافع ثم انفض الموكب "(3). بعد التنصيب يُعين الداي باشا من طرف السلطان.

يقول حمدان خوجة :" عندما تنتهي عملية التنصيب (تنصيب الداي) يُكلف أحد الأشخاص بالذهاب إلى الباب العالي للإخبار عن وفاة الباشا القديم و قيام الديوان بانتخاب الحاكم الجديد، و بهذه المناسبة تُكتب رسالة تحمل إمضاء و خاتم كل واحد من أعضاء الديوان و خاصة القاضي و المفتي و نقيب الأشراف. و يوافق أعيان المدينة كذلك على هذا الاختيار ويشهدون على مقدرة الشخص المعين ". و يذهب الرسول (آغا الهدية) حاملا هدية لا تتجاوز قيمتها خمسة آلاف فرنك إلى عاصمة الإمبراطورية ليطلب من الباب العالي " أن يعطف على الإيالة ثم يُطلعه على بؤس البلاد و قلة الأموال اللازمة لإقامة الحصون، و يطلب المساعدة و الحماية. عندئذ يقدم الباب العالي للإيالة عتادا حربيا مثل المدافع و البارود و الحبالة، و أخشاب البناء إلى غير ذلك، و في بعض الأحيان يزودها ببواخر (بسفن) جاهزة ". و يؤكد حمدان خوجة على أن الهدية التي قُدمت للباب العالي بعد وفاة محمد باشا كانت " تتضمن الماس و المجوهرات وأشياء أخرى مماثلة مما يتقبله البايات من البلدان الأوربية. و يمكن تقييم هذه الهدية بمبلغ مليون من الفرنكات. و بالمقابل كانت أعطية الباب أكثر أهمية إذ اشتملت حتى على بعض الحراقات " (4). هذا و يرسل الباب العالي فرمانا يعين بموجبه الداي و يخلع عليه صفة الباشا، و قد جرى هذا التقليد منذ إبعاد الباشا ممثل الباب العالي في الجزائر.

بعد تنصيبه يقوم الداي باختيار أعضاء حكومته كما يحلو له. غالبا ما يتخلى عن أعضاء الحكومة السابقة. يلعب الداي دورا رئيسيا في منظومة الحكم فهو الذي يترأس الهيئة التنفيذية و هو الذي يعين البايات و خلفاءهم و هو الذي يترأس الديوان الأكبر. يقضي جُلَّ وقته في إدارة شؤون الدولة " لأن المراسيم لا تسمح له بالتمتع بالحياة العائلية في داره الخاصة إلا بنصف نهار و ليلة واحدة في الأسبوع "(5). أما بقية الأسبوع فيقضيها في قصر الجنينة. يستيقظ قبل طلوع الشمس، حيث تفتح أبواب القصر أو مقر الحكومة، و ينزل إلى الديوان لاستقبال الضباط و تناول القهوة. لا أحد من كبار المسؤولين يعود إلى بيته إلا بعد العصر حيث تُقفل أبواب الحكومة. و في يوم الجمعة يأتي كبار المسؤولين و الضباط لمرافقة الداي الى المسجد لأداء صلاة الجمعة (6).

لا يمكن للداي أن يحتفظ بزوجته في قصر الحكومة الذي يقضي فيه جل وقته (7) مثله مثل كبار المسؤولين. للداي و لكبار الضباط بيتان، البيت الخاص و بيت النساء. و عند وفاة أحدهم يُصادر البيت الخاص ليصبح من أملاك البايليك، لكن بيت النساء لا يصادر. لهذا يحفظ الداي و كبار الضباط أموالهم في بيت النساء، و أحسن طريقة للحفاظ على الأملاك، في حالة عدم وجود الأطفال، هي أن تُشترى الأملاك باسم النساء و تُسجل لفائدة الحُبس (8). ما قام به الداي علي خوجة سنة **1817**، حين نقل مقر الحكم من الجنينة إلى القصبة، لم يكن محاولة للحد من نفوذ وهيمنة الإنكشارية فحسب بل كان محاولة كذلك لتغيير المراسيم المعقدة التي

كان يخضع لها الداي و كبار الموظفين. لهذا نقل حريمه إلى دار الحكم أين أعدّ غرفة خاصة له (9). و كان الداي بابا علي قبله قد قرر يوم الثلاثاء يوم عطلة لكل الموظفين (10).

للداي مترجم، و هو من الأهالي دائما، مهمته الترجمة الشفوية الفورية. وله كاتبان أهليان كذلك، يعرف كل منهما باسم خوجة العرب، و هما مكلفان بقراءة الرسائل المحررة باللغة العربية و الرد عليها. و له 12 شاوشا من الأهالي، على رأسهم مسؤول يعرف باسم الباش شاوش. من مهام هؤلاء الشواش تشكيل اللجان التي تقوم بمهام داخل مدينة الجزائر، كما يقومون بعمليات الجَلد في قصره بالنسبة للأهالي و المسيحيين. وله مسؤولان عن الطباخين، أحدهما رئيس و الثاني نائب له، و هما تركيان، أما الطباخون فهم من العبيد. كل من له علاقة بالحكومة يتناول وجبة الصباح في مطبخ الداي، باستثناء الحراس (النوباجية) والعبيد الذين يتناولون كلا من وجبتي الصباح و المساء في هذا المطبخ. نجد في قصر الداي أربعين عبدا مكلفين بالنظافة و أربعة بسكريين مكلفين بالمهام الخارجية و عشرة سياس(مفردها سايس) مكلفين بالخيول و البغال و سجانا من الأهالي وثلاثة و عشرين رجلا من رجال الحراسة (النوباجية) يكونون من الأتراك لا من الكراغلة، يتم اختيارهم من جنود الحاميات (النوبات) لا من جنود العسكرات (المحلات). و نجد في هذا القصر، أخيرا، رئيس الموسيقيين و هو الذي يعرف باسم المهتر باشي (11).

حول مداخيل الداي ،يقول المؤرخ الفرنسي جوليان: " ليس للدايات سوى ما يتقاضاه أعلى الإنكشارية مرتبة و ذلك احتراما لفكرة المساواة النظرية، غير أن ما يدفعه لهم الموظفون وخاصة البايات عند تسميتهم و هدايا القناصل و الملوك و نصيبهم من الغنائم و أرباحهم من العمليات التجارية التي يمارسونها تدر عليهم مداخيل إضافية وفيرة. إذا اغتيل أحدهم رجعت ثروته و هي طائلة في أغلب الأحيان إلى الخزينة العامة " (12). لقد كان الداي " رجلا ثريا لا يتصرف في كنوزه و أبا بدون أولاد و زوجا بلا زوجة و طاغية غير حر و ملكا لعبيد و عبدا لرعاياه "،كما يقول المؤرخ الإسباني خوان كنو (13).

الحكومة

يترأس الداي الحكومة أو الديوان الصغير، و يعين أعضاءها و يعزلهم. تتكون الحكومة، حسب ما أورده بارادي، من العناصر التالية :

1 ـ الخزناجي: و هو بمثابة الوزير الأول، مكلف بالخزينة و هو الوحيد الذي يدخلها بعد ان يستلم المفاتيح من الداي. و للخزناجي أهمية كبرى في النظام التركي، لأن هذا النظام قائم على جمع المال و توزيعه فقط ، خاصة بعد خروج الإسبان من وهران و المرسى الكبير.

2 ـ المحلة أغاسـي أو آغا العـرب (الباشـاغا)، و هـو الـوزير الثـاني، يقود القـوات البرية، و يدير دار السلطان، باستثناء مدنها الكبيرة.

3 ـ آت خوجاسي أو خوجة الخيل (كاتب الخيل)، و هو مكلـف بمداخيل الولايـات من أراضي البايليك و من بيع الخيول و البغال و الجمال و الأغنام و الأبقار التي يحصل عليها البايليك من الجباية العينية و غيرها.

4 ـ البيت مالجي، المكلف بجمع التركات التي لا وارث لها، و هو مكلف كذلك بشباب عبيد الداي، و يشترط في البيت مالجي أن يكون أعزبا.

5 ـ وكيل الحرج، و هـو مكلف بمسائل البحرية، أما قيادة الأسطول فهي موكلة لأحد رياس البحر يعرف باسم القبطان.

6 ـ الكتاب، و هـم أربعـة: الأول، و يسـمى المكطعجـي و هـو مكلـف بدور أو دفتر البولداش و العسكر، و كل أملاك و عوائد البايليك، الثاني، و هو المسمى باش دفترجي، يمسك النسخة الثانية من سجل دور الفرق العسكرية، الثالث، و هو الذي يمسك النسـخة الثانيـة من دفتر أملاك و عائدات البايليك، الرابـع، و يسـمى خوجـة العشـور، مكلف بسجل الديوانـة الخاص بكل ما يأتي من البلاد المسيحية.

7 ـ وكيل الحرج الكبير، مكلف باستلام و خزن زيت البايليك و لـه مساعـد يعرف باسم وكيل الحرج الصغير.

المتمعن فـي تركيبة هـذه الحكومة يـجد أنها حكومة تنحصر مهمتهـا في جمع المال والحربية. فالشؤون الخيرية أو الخدمات الاجتماعية و الثقافية و التربوية و الاقتصادية ليست من مهام السلطة، فالمجتمع هو الذي ينظم هـذه الشؤون بنفسـه.

الـــديـــوان

نفرق هنا بين الديوان الكبير و ديوان الإنكشـارية، فهـذا الأخـير يتكـون مـن ضـباط الإنكشارية مثل جموع البولكباشي و جموع الأوضة باشـي و غيرهـم. و قـد لعـب هـذا الـديوان الأخير دورا كبيرا في توجيه سياسـة الـبلاد في عهـد الباشـوات إلى أن أصـبح هـو القـوة الفاعلـة الرئيسية في أواخر هذا العهد. ثم غدا مباشرا للسلطة بنفسه في عهد الآغوات. لقد حـاول خضـر باشا أن يحد من سلطته سنة 1595 لكنه لم يفلح في ذلك. في عهد الدايات تعـرض هـذا الـديوان لضربات عديدة أعنفها تلك التي وجهها له علي خوجة سنة 1817. في الوقـت الذي كـان يفقـد فيه هـذا الديوان نفوذه كان دور الحكومة أو الديوان الأصـغر يتقـوى إلى أن أصـبح هـو السـلطة الحقيقية شكلا.

الديوان الأكبر مجلس واسع جدا يضم حوالي سبعمائة عضو أغلبيتهم من العسكر و البقية هم أعضاء الحكومة و شواش الداي و العلماء و الوجهاء و نقيب الأشراف (15) وضباط البحرية و غيرهم.كان الديوان هذا يلعب دورا هاما في بداية عهد الدايات غير أن هذا الدور أخذ يتراجع إلى أن أصبح، في أواخر العهد التركي يقتصر على تقديم المشورة للهيئة التنفيذية و المصادقة على اختيار الداي.

المنظومة الإدارية

الإدارة الإقليمية

يعود التقسيم الإداري الإقليمي ،الذي ظل قائما، دون تغيير جوهري إلى نهاية العهد التركي، إلى عهد حسن باشا بن خير الدين، الذي قسم البلاد إلى أربع مقاطعات هي دار السلطان و بايليكات التيطري، قسنطينة و الغرب.

روعي في إقامة دار السلطان العامل الجغرافي، فهذه المقاطعة تضم المنطقة السهلية، المتيجة و الساحل، الواقعة بين البحر و الأطلس التلي، و العامل السياسي المتمثل في ضمان أمن السلطة المركزية في مدينة الجزائر. إذا كان بايليك الشرق و بايليك الغرب قد فرضتهما الحاجة الإدارية، و لهما وحدة إدارية منذ العهدين الحفصي و الزياني، باعتبار الأول كان تابعا للإدارة الحفصية و الثاني كان تابعا للإدارة الزيانية، فإن بايليك التيطري الضيق قد فرضته المسألة الأمنية، فهو الدرع الواقي لدار السلطان من أخطار حركات قبائل الجنوب دائمة التهديد للشمال.لهذا وضع لبايليك التيطري نظام خاص، فصلت بموجبه مدينة المدية، عاصمته، عن باقي الإقليم و وضعت تحت سلطة حاكم لا يتبع الباي بل يتبع مدينة الجزائر.

دار السلطان هي أصغر المقاطعات و أكثرها تميزا. إنها مقاطعة تابعة مباشرة للسلطة المركزية، في مدينة الجزائر. تضم جغرافيا المدن الخمس الهامة الجزائر البليدة، القليعة، شرشال و دلس و أوطانها، و هي تخضع في تسييرها لقادة أتراك. خارج هذا الإقليم نجد عددا من القبائل تتبع الجزائر رغم وقوعها جغرافيا في باقي المقاطعات. لقد وضعت هذه القبائل تحت إدارة آغا العرب أو خوجة الخيل،و هي إما قبائل محاربة (أجواد) أو قبائل تابعة أو حليفة (16)، الأمر هنا يتعلق بقبائل في بايليك التيطري و بايليك الغرب بصفة خاصة.

يقود المحلة أغاسي (الباشاغا أو آغا العرب أو الآغا ببساطة) و هو القائد العام للقوات البرية، بما فيها الإنكشارية، الحملات العسكرية الإستثنائية، فيصبح البايات، في هذه الحالة تحت إمرته. هذا الآغا هو المكلف بإدارة ريف دار السلطان، لكن إدارته و سلطته لا تمتد إلا إلى الأهالي، فالأتراك و الكراغلة لا يخضعون له، لكنه في إمكانه أن يرسل أحدهم إلى الداي ليصدر عقوبة في حقه (17). آغا العرب هو و حده الذي يقرر عقوبة الإعدام في حق الأهالي، لكن صلاحية تقرير هذه العقوبة أسندت بصفة استثنائية لقائد سباو و قائد السبت كذلك. كل القادة في دار السلطان يتبعون آغا العرب باستثناء قائد مدينة البليدة أو حاكمها (18).

تخضع البايليكات الثلاثة لموظفين مستقلين عن الآغا من الناحية الإدارية. على رأس كل بايليك باي يعينه الداي لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد، إن لم يُتخل عنه قبل انقضاء المدة المقررة. ما الباي سوى أكّار، يأخذ على عاتقه أو يتكفل بإدارة المقاطعة و هو يتمتع بصلاحيات واسعة، و لا يخضع لأية مراقبة منظمة، ماعدا باي التيطري الذي يراقبه حاكم مدينة المدية، المكلف بإدارة المدينة. لكي يُعاد تعيين الباي مرة أخرى لابد عليه أن يرضي الداي و حاشيته من الوزراء و المحظوظين بالهدايا، و هذه الهدايا ضرورية للتعيين في الوظائف الإدارية في السلطة التركية. حتى الباشوات كانوا يقدمونها للسلطان بصفة مباشرة، كما كان الدايات يدفعونها بطريقة غير مباشرة.

في كل ثلاث سنوات يأتي البايات وجوبا إلى مدينة الجزائر بصفة شخصية. يأتي باي التيطري ثم باي الغرب ثم باي قسنطينة. و يأتي خلفاء البايات إلى العاصمة كل ستة أشهر. يأتي هؤلاء جميعا إلى الجزائر لتقديم الدنوش أو الهدايا والضرائب. لقد أورد بارادي وصفا لدنوش باي معسكر سنة **1788**، نلخصه نحن في التالي : حمل باي معسكر الضريبة على ظهر ستين بغلا، كل بغل يحمل ألفي بياستر، وكانت البغال مرفوقة بالخيول التي منها ما يقدم للبايليك و منها ما يقدم هدايا لكبار الإيالة. كان يتقدم البغال و الخيول عدد من العبيد الزنوج (ذكور و إناث) يتراوح عددهم بين **30** و **40** عبدا ، وهم هدايا لكبار رجال الإيالة كذلك، و **80** عبدا مسيحيا من وهران، **60** منهم للبايليك و **20** هدايا لكبار الشخصيات. كان الباي، و هو في طريقه إلى قصر الداي، يلقي بالنقود على السكان الذين كانوا ينتظرون قدومه. يُقبّل الباي يد الداي، و يرحب به هذا الأخير ويلبسه قفطانا، و بعد ثلاثة أيام يلبسه قفطانا آخر. يقضي الباي ثمانية أيام في الجزائر (19). يغادرها بعد أن يقدم الهدايا و الضرائب.



التنظيم الإداري في أواخر العهد التركي

لقد وصف والزين استرهازي دنوش باي وهران، نسجل هنا ما يتعلق منه بالهدايا. يقول استرهازي: " في يوم الوصول يأتي أوضة باشية وبولكباشية نوبات (حاميات) القصبة و دار الباشا (لم تكن الخزينة قد نُقلت بعد إلى القصبة) و شواش الباشا و أصحاب المقام لزيارته خلال الليل. يدخل البولكباشية البهو الذي يجلس فيه الباي رفقة خوجاته و إمامه و قائد مكاحليته. يبقى الأوضة باشية والشواش في الخارج. بعد تقديم التحيات المعهودة من طرف بولكباشيين اثنيين يدخل أحد الشواش فينحني أمام الباي ثم يفرش سجادا (فوطة). عندها يقدم الباي أحد العبيد يحمل خمسة أكياس مملوءة بالسلطاني، و يأخذ في إفراغ الكيس تلو الأخر على الفوطة قائلا : لسيدنا الباشا، ليسيدنا الخزناجي الخ، كيس واحد لكل عضو من أعضاء الديوان، ثم يأخذ السجاد ليعوضه بآخر. نفس الإكرام يتجدد بالنسبة للآغوات و البولكباشية، بالنسبة للكبجية حكام الثكنات، بالنسبة لأئمة السراي، بالنسبة للخوجات الخ. يأتي بعد ذلك دور خدماجية الباشا: كل موظفي داره من البوابين و الحلاقين و سقاة الماء الخ، كل هؤلاء الناس يأتون ليطلبوا العوائد أو الهدايا الإجبارية. حين ينتهي التوزيع يُستقبل الباي الحامل للدنوش من طرف الباشا. ينتظره المزور عند الباب ليجرده من يطغانه الذهبي (سيفه) و يستلم منحة سلطاني عندما يعيده إليه عند خروجه. بعد ذلك يذهب الباي لزيارة البحرية فيقدم هدايا لكل موظفي وعمال هذه المؤسسة. إنها هدايا اختيارية هذه المرة، و هذه المرة فقط "(20).

نفس ما يقوم به باي الغرب يقوم به باي قسنطينة و باي التيطري. هذا الأخير يغادر المدية، حين يأتي عام الدنوش، في شهر أفريل متجها نحو مدينة الجزائر متبوعا بشواشه و صبايحيته و مكاحليته و علالته و موسيقاه. يصل إلى البليدة في اليوم الأول، و في اليوم الثاني يصل عين الربط، القريبة من مدينة الجزائر، و في اليوم الثالث، بعد أن يصله أمر الداي، يدخل مدينة الجزائر، و هو يلقي بالنقود على الجمهور الذي جاء ليشاهد مرور موكبه. يصطحب الباي 20 حصانا و 60 ألف بوجو (108 آلاف فرنك) ليسلمها للخزينة و مبلغا مماثلا كعوائد (هدايا) يوزعها على أصحاب المقام السامي و الموظفين من الدرجة الثانية و على كل خدم الداي، بمن فيهم الحلاق. تبلغ هدية الباشا ثمانية آلاف فرنك. مقابل هذه الهدايا يستلم الباي، كدليل على توليته من جديد، يطغانا مذهبا وقفطانا مطرزا بالذهب يلبسه خلال تواجده في الجزائر. قبل عودته يعيد هذا

القفطان و تُعطى له قندورة. خلال الأسبوع الذي يقضيه في العاصمة، يحل كل يوم ضيفا على أحد كبار المسؤولين من أمثال الخزناجي و الآغا و خوجة الخيل و وكيل الحرج.(21).

كل باي يرسل خليفته إلى الجزائر مرتين في السنة. يأتي خليفة باي التيطري إلى هذه المدينة في أفريل، و في نهاية الخريف. يبقى بها مدة أسبوع، مثل الباي، يستلم يطغانا من الفضة. يحمل إلى العاصمة 24 ألف بوجو (43 ألف فرنك)، كما ينقل معه ستة أحصنة، و يسلم خزينة الدولة 24 ألف بوجو. في دنوش الربيع يُحضر كل من الباي و الخليفة 80 قلة (جرة تحمل 480 رطلا) من الزبدة المذوبة لموظفي الدولة، كما يرسل الباي كل سنة خمسمائة خروف إلى العاصمة، و يرسل كل ثلاثة أشهر مبلغ 2100 بوجو مع سياره (صاحب البريد) هذا عدا الضرائب الأخرى التي لها طابع مركزي (22)، كما سنرى لاحقا.

الإدارة المحلية

كانت الإدارة التركية على المستوى المحلي بسيطة. تناسب وضعية المجتمع فالمدينة لها إدارتها و القبائل لها إدارتها و المناطق التي تجاوزت نظام القبيلة لها إدارتها. تقوم الإدارة المحلية، مثل الإدارة الإقليمية على ركيزتين هما؛ ضمان دخول الضريبة إلى الخزينة؛ و ضمان خضوع الرعية للسلطة المركزية.

دار السلطان

كانت دار السلطان تتكون ،في أواخر العهد التركي، من مدن هامة هي الجزائر البليدة، القليعة، شرشال، دلس و تنس (هذه الأخيرة كانت تتبع بايليك الغرب من قبل)، و من الفحص أو ضاحية مدينة الجزائر و من عدد من الأوطان و القيادات.

1. مدينة الجزائر

كانت مدينة الجزائر أكبر المدن الجزائرية، في العهد التركي. تضم أكبر عدد من السكان، و هي أكثر المدن تطورا و ازدهارا. فهي تحتوي على أكبر ميناء للقرصنة، و هي عاصمة البلاد، تأتي إليها الضرائب من كل الجهات، كما يأتي إليها الجزء الأكبر من غنائم البحر والبر. فيها أكبر عدد من الأتراك و أكبر عدد من البحارة و الإنكشارية و هي أكثر المدن تنوعا من حيث السكان، حيث يأتي إليها الناس من كل جهات البلاد. كان للأندلسيين تأثير كبير

عليها. يقول حمدان خوجة: " و قد ساعد وجود الأندلسيين في الجزائر مساعدة كبيرة على تنظيم الحكومة ". كان على رأس مدينة الجزائر " شيخ المدينة يساعده مجلس بلدي. و من اختصاصاته المحافظة على الأمن و النظافة و العمل على توفير كل ما من شأنه أن ينفع المدينة. كما كان مكلفا بجمع الضرائب، و كانت في ذلك الوقت تُفرض على الحوانيت، فيدفع كل حانوت شهريا حوالي ستة " سوردي " من سوارد فرنسا " (23).

كان يعمل تحت إشراف شيخ البلد أو شيخ المدينة أمناء الحرف المختلفة و كانوا يعملون جميعا بالتنسيق مع نقيب الأشراف الذي تعينه السلطة التركية من إحدى العائلات المرابطية (24). و أما شيخ البلد فكان يُعين دائما من بين العرب (25). كانت صلاحيات شيخ البلد محدودة في الحقيقة، فهي تقتصر على بعض الخدمات الموجهة للحضر، فالأشغال العمومية مثلا لم تكن كلها من مهامه. كانت هناك عقارات مداخيلها موقوفة على صيانة طريق أو أكثر، و عقارات أخرى مداخيلها موقوفة على طرق أخرى، و كان هناك أمناء مكلفون بتسيير تلك العقارات والطرق و كان للقنوات و كل ما يتعلق بالماء إدارة خاصة يسيرها مسؤول يعرف باسم قائد العيون. و كانت هذه الإدارة تشكل نوعا من الجمعية. كانت هناك عقارات مداخيلها مخصصة للماء لا يديرها قائد العيون، بل يديرها شيخ البلد أحيانا،و يديرها أحيانا أخرى وكلاء مكلفون بإدارة العقارات الموقوفة تحديدا على حنفيات معينة،أو ترع الماء (26).

لما كانت الأموال المحصلة من الضرائب لا تعود على السكان أبدا،لا في شكل خدمات ولا في شكل إعانات،فإن المجتمع كان ينظم نفسه لمواجهة حاجياته. كان هذا التنظيم يأخذ شكل جمعيات متنوعة. كان لمدينة الجزائر سنة **1830** حوالي سبع جمعيات هي جمعيات الطرق و المياه و المساجد و مكة والمدينة و جوامع، أو قباب المرابطين، و الأندلسيين والانكشارية.

بالنسبة للمساجد التي بلغ عددها حوالي **103**(**14** منها كانت مساجد حنفية و البقية مساجد مالكية)،كانت تسيرها جمعيتان؛ واحدة حنفية و أخرى مالكية و الجمعيتان تملكان عقارات عديدة داخل المدينة و خارجها، مداخيلها موقوفة على تلك المساجد، يسيرها المفتون و الوكلاء.أما جمعية مكة و المدينة فكانت لها أملاكها المختلفة: ـ الأملاك التي تُستعمل مداخيلها في مساعدة الفقراء الذين يستفيدون من النقود و الخبز ـ الأملاك التي تُستعمل مداخيلها في صيانة الصروح الدينية في مكة و المدينة. و تُرسل هذه المداخيل إلى مكة و المدينة كل سنة ـ الأملاك التي توجه مداخيلها لصيانة الصروح الدينية في مدينة الجزائر. بالنسبة لجمعيات جوامع أو قباب المرابطين أو بعبارة أخرى أضرحة المرابطين أو الأولياء فإن مداخيلها الناتجة عن العقارات الموقوفة عليها أو الهبات النقدية تستعمل في صيانة الأضرحة، إضاءتها و توفير أسباب العيش للوكلاء و الطلبة (27).

لقد تضامن الأندلسيون فيما بينهم، منذ نزوحهم من إسبانيا إلى مدينة الجزائر. اشترى أغنياؤهم عقارات كثيرة و أوقفوا مداخيلها على مساعدة فقرائهم و كانت هذه الأملاك مسيرة من طرف وكيل أندلسي.(28).

كان سكان مدينة الجزائر مُنظمين في طوائف إثنية أو جهوية أو دينية. من بين هذه الطوائف نذكر البراني و بني ميزاب و اليهود. مع العلم أن هذه الطوائف غالبا ما تنطبق على الطوائف المهنية أو الحرفية. فالطائفة تكون إثنية و حرفية في الوقت نفسه.

البراني جماعات من الأهالي حديثي الإقامة في مدينة الجزائر، مقارنة بالحضر. يأتون إلى المدينة بحثا عن العمل. نجد فيهم الأغواطيين، البسكريين، قبائل مزيتة الخ. نظمهم الأتراك في مجموعات يسيرها أمناء مسؤولون أمام البايليك، و بهذه الطريقة أمكن للسلطة التركية مراقبتهم و تسييرهم. الملفت للانتباه أن السلطة التركية رفضت تنظيم الوافدين من منطقة القبائل، باستثناء من جاء منهم من مزيتة. هذا يعني أنها رفضت الاعتراف بوجودهم في المدينة، و كان هؤلاء يعملون حمالين و يمارسون مهنة الكيل و الميزان في الرحبة (السوق) (29).

كان بنو ميزاب يشكلون مجموعة منعزلة. يملكون كل المطاحن و المخابز و الحمامات العامة في مدينة الجزائر. كما كانوا يحتكرون بيع اللحوم، و يتمتعون بامتيازات مقارنة بالأهالي (30). في رسالة مؤرخة سنة **1835**، أرسلها وجهاء بني ميزاب في مدينة الجزائر إلى الجنرال الفرنسي رابتال، أوضحوا أن امتيازاتهم تعود إلى عهد حسن آغا، الذي كافأ الطائفة لخدمات قدمتها أثناء حملة شارل كان على مدينة الجزائر سنة **1541**، كما تتعرض الرسالة إلى مهام الأمين، أمين الطائفة، الذي هو وحده المكلف بالشرطة بين أفراد الطائفة، فله أن يضرب أو يسجن أي عضو من أعضائها، و هو وحده الذي يمثل الطائفة أمام السلطة (31). لا شك في أن الرواية الواردة في الرسالة و المتعلقة بحملة شارل كان تبدو غريبة، و لعل حمدان خوجة محق حين أعاد امتيازات طائفة بني ميزاب إلى خدمات قدمها هؤلاء للسلطة سنة **1630**، حين كانت هذه السلطة تواجه تمرد الكراغلة (32)، التمرد الذي تعرضنا له سابقا.

كان بنو ميزاب مدينة الجزائر ينتمون إلى قبائل واحات غرداية و مليكة و بونوار و العطف و بني يزغن. كان لكل جماعة مقدمها، أما الرئيس أو الأمين، الذي يمثل كل المزابيين فكان دائما من غرداية، و لا يوليه البايليك هذه المسؤولية إلاّ مقابل هدايا معتبرة، تقدم للداي وللمسؤولين الرئيسيين. هذا يعني أن المسؤولية تُشترى شراء. يلتزم هذا الأمين بتوفير اللحم للإنكشارية و إعارة دواب النقل الضرورية للأشغال الحكومية، و في المقابل يستلم من مواطنيه ضرائب و رسوما تتمثل في: - الأجرة و هي **400** بوجو (البوجو حوالي **1.85** فرنك) تُقدم له من رعاياه في شهر رمضان - حق الصباط، و هو ضريبة على الحوانيت و المطاحن و الحمامات و القصّابات و يدفعها قادة الحمير كذلك. هذا إضافة إلى الغرامات التي يفرضها على مواطنيه

المخالفين للقوانين. مقابل هذه الحقوق يلتزم الأمين بإيواء و إطعام المزابيين الذين يمرون بمدينة الجزائر لعدة أيام، و كذلك الشأن بالنسبة للذين يأتون للإقامة الدائمة في المدينة. كان لطائفة بني ميزاب أهمية كبيرة بالنسبة للسلطة التركية، لأن أفرادها كانوا تجارا لهم علاقات واسعة بالجنوب و بلاد السودان. فكانوا أحسن العناصر التي تجمع المعلومات و تقدمها لها (33).

يخضع اليهود في مدينة الجزائر، و هم من أهل الذمة و أجانب كذلك، إلى نفس النظام الطائفي لبني ميزاب تقريبا. تختار الطائفة أمينها الذي يعرف باسم القسيس، و يصادق الباشا على الاختيار. يتكفل المجمع الديني اليهودي بجمع الضرائب من الطائفة ليقدمها إلى البايليك. لقد أورد هايدو أن الطائفة اليهودية كانت تدفع للباشا، في أواخر القرن السادس عشر، 1500 دوبلة (2475 فرنك) سنويا و أن المجمع الديني كان يوزع هذا المبلغ على أفراد الطائفة من دون تدخل السلطة. كان لليهود دور هام في مدينة الجزائر، لا يقل عن دور بني ميزاب، فهم الذين يشترون غنائم القرصنة فيعيدون بيعها للمسيحيين، محققين بذلك أرباحا طائلة، و هم الذين يحتكرون ضرب النقود الذهبية و الفضية و البرونزية. كان لهم الحق في ممارسة عبادتهم، و لهم معبدان في حيهم، يجتمعون فيهما يوم السبت، و لهم الحق في تعلم العبرية التي كانوا يكتبونها بالحروف العربية (34).

كان لمدينة الجزائر نظام للشرطة. هناك ضابط للشرطة يعرف باسم جراح باشي، و هو إما كرغلي و إما تركي ينظر في كل الخصومات التي تقع بين الأتراك و الأهالي و اليهود المسيحيين. و هو غالبا ما يغتني بسرعة نتيجة الرشاوى التي يحصل عليها. في الليل يقود ضابط تركي يعرف باسم كلجي باشي الدورية الليلية. له الحق في أن يجلد الأهالي و اليهود في وسط المدينة، كما يمكنه أن يوقف و يعاقب كل تجمع باستثناء تجمعات الاحتفالات. لا يمكن لهذا الضابط أن يسلط عقوبة على الأتراك. هناك دورية ليلية أخرى يقودها المزور، و هو من الأهالي، ودوريته تتعلق بهم. يمكنه أن يوقف من ارتكب مخالفات أو وُجد بعد صلاة العشاء بدون مصباح. المزور مكلف بالعاهرات كذلك، يفتشهن و يدفعن له مبلغا من المال في كل شهر قمري حتى يسمح لهن بالقيام بعملهن لدى الأهالي أو الأتراك، أما إذا ارتبطن بالأتراك فقط فيمكن إعفاؤهن من دفع المبلغ. إذا وُجدت امرأة مسلمة مع مسيحي فإن المزور يحكم عليها بالإعدام شنقا. يقوم قائد الزواوة بدورية أخرى عند الفجر. هذا و كان في مدينة الجزائر مسؤول يعرف باسم قائد الزوبية، و هو تركي مكلف بمراقبة نظافة الشوارع و الطرق (35).

2. وطن الفحص

يحيط هذا الوطن أو الدائرة الإدارية بمدينة الجزائر و يتكون من سبعة فحوص أو مناطق هي: زواوة، بوزريعة، بني مسوس، عين الزبوجة، بير خادم، القبة و الحامة (36). هذا الوطن لا يتكون من قبائل كما هو الشأن في الأرياف بل يضم جماعات إدارية موزعة على الفحوص و الأحياء التي تتكون من عدد من الأحواش أو بيوت النزهة، أو مزارع أو كفر للناس الفقراء. الكثير من الأحواش كانت بيد عائلات الإنكشارية و منها ما كان بين أيدي مرابطين صغار، كانوا يتدخلون لدى السلطة التركية (37). كان وطن الفحص من أحسن المناطق الريفية تطورا و رخاء، و لقد أبدى الأوربيون " إعجابهم بتلك المنازل الريفية التي كانت تنتشر على المنحدرات المواجهة للبحر بفحص باب عزون، أو بأعالي بوزريعة و هضاب الأبيار و مصطفى و القبة أو منعرجات أودية بئر خادم وبير مراد رايس او بجهات دالي إبراهيم و تقصرين "(38). و كما هو الشأن بالنسبة لأرياف دار السلطان، فإن الفحص كان يخضع لآغا العرب و ينوب عنه قائد يعاونه القائلون المعروفون باسم شرطة الأعياد (39). هذا و نجد في الفحص عناصر بشرية متنوعة، مثل الأتراك، الكراغلة، الحضر، الأوربيين و اليهود و عمالا من القبائليين. لذا فإن وطن الفحص هو امتداد لمدينة الجزائر من الناحية البشرية و من الناحية الحضرية.

3. وطن بني خليل

يشمل هذا الوطن ساحل الجزائر و المتيجة، بين الحراش و وادي تيحميمين في الشرق ومزافران و الشفة في الغرب. إضافة إلى تلك الجماعات التي كانت تقطن هذه المنطقة، أقام الأتراك في القرن السابع عشر ست جماعات أخرى هي زمامة، سيدي موسى، بني كينة، عمروسة، تفشة و بوينام (40). في هذا الوطن نجد مجموعة من الأحواش : بابا علي، الشرفة، الشاوش، غيلان، المعصومة، ابن الشريف، سركاجي، ابن عيسى، الغربة، الخ. في هذا الوطن تقع بوفاريك و البليدة، و هذه الأخيرة لا تتبع الوطن إلا جغرافيا، إذ كانت تخضع من الناحية الإدارية لحاكم (41). و كان قائد هذا الوطن هو أكبر قائد بين قادة الأوطان(42).

4. وطن السبت

يقع وطن وادي السبت بين البحر و مزافران و الشفة و وادي مراد ووادي الناضور، غربا، و الجبال جنوبا. يتكون من خمس جماعات، أربع منها من الرعية هي: أولاد حميدان، بني علال، الزناخة، حجوط السواحلية، حجوط اللواطة، وتشكل هذه الجماعة الأخيرة مخزنا (43).

5. وطن بني موسى

يقع بين الخندق في الشمال و الحراش في الغرب و بني سليمان في الجنوب و وادي سمار في الشرق. يضم سبع جماعات في السهل هي شرابة، الحميرات، أولاد سلامة، المرابع الشراقة، المرابع الغرابة، أولاد أحمد و بني وغلي، و سبع جماعات في الجبل هي بني عطية، شغيو، بني خشريط، بني محمد، بني عزون، بني تاشفين و بني جليل (44).

6. وطن الخشنة

يقع بين البحر و مصب الحراش في مرسى الحاجز و وادي مرجة و يسر في الشرق، و وادي سمار في الجنوب. في هذا الوطن نجد خشنة السهل (هراوة، أولاد هداج، المرجة، أولاد بسام، أولاد ساعد، شعر بن جنان، زروالة، أولاد أيوب، المساردة، بن كنون، تالة أو القصر، بن زاية، مصيورة، بني مستينة) و خشنة الجبل (بني عيشة، بني عمران، دبارة، بوتقوبة، بني خليفة).(45).

7- وطن اليسر

و يضم الدروج، يسر جديان، يسر الغربي، يسر أولاد سمير، أولاد موسى، تورة و الكدين (46).

8. وطن سباو (قيادة سباو)

ظلت قيادة سباو تابعة لبايليك التيطري إلى سنة 1769، فبعد تمرد فليسة في هذه السنة نُقلت إدارة سباو إلى دار السلطان. و كانت تضم بني خلفون، فليسة أم الليل، بني طور، مدينة دلس، وادي الحمام، بني عيسي، بني دوالة، بني زمنزر، بني بطرونة، بني خليفة، وجزء من المعاتقة - كما رأينا سابقا. و كانت بوغني تتبع

قيادة سباو. كما كان قائد سباو " هو الذي يسمي " قائد يسر إلا أن الآغا " هو الذي يتصرف فيه " (47).

كل وطن من هذه الأوطان كان يسيره قائد تركي، و كل منطقة أو جماعة يسيرها شيخ، و في بعض المناطق أو الجماعات الكبيرة نجد لكل شيخ شيوخا، و كل هؤلاء القادة يتبعون آغا العرب (48).

آخر آغا العرب أدركته الحملة الفرنسية هو الأغا إبراهيم إذا استثنينا الفترة القصيرة التي كلف فيها باي التيطري مصطفى بومزراق.لقد عين الفرنسيون بدورهم آغا أخر هو حمدان بو الركايب، ثم خلعوه و وضعوا مكانه الفرنسي موديري في فيفري 1831 (49).

كانت هناك جماعات أخرى في دار السلطان تدخل في عداد قبائل المخزن العسكرية التي لها إدارة خاصة تختلف عن إدارة قبائل الرعية،مثل حجوط اللواطة،او حجوط السهل،و هم خليط من الأجواد و المغامرين و أصحاب الاقطاعات و المزارعين و الخدم المنزلي و كبار ضباط الداي،و هم موزعون في وطني السبت و بني خليل و سوماطة و بوحلوان و موزاية. و مخزن الزواتنة (كراغلة) في يسر و زمول بني هارون و حرشاوة و عبيد أقبو و شعبة العامر (يسر)، و زمالة عين الزاوية (غشتولة) و اينزليون، و قبيلة بني سليمان الصبايحية التي ضُم إليها أتباع زاوية طورطاتين الخ (50).من بين قبائل المخزن الوافدة على دار السلطان نذكر عريب التي أقامها الأتراك في المنطقة.

كانت هناك جماعات أخرى في دار السلطان،تدخل في عداد الحلفاء أو الأتباع حسب تصنيف لويس رين،مثل منطقة نفوذ أولاد سيدي علي مبارك في القليعة و لأولاد سيدي علي مبارك المرابطين نفوذ في أوطان الفحص و السبت و بني خليل. و بنو مناد المتيجة و بنو مريت ومنطقة نفوذ زاوية طورطاتين التي كان يسيطر عليها اولاد محي الدين و لد سيدي تواتي، ومنطقة نفوذ زاوية سيدي سالم و مرابطوها هم سادة القبيلة الكبيرة بني جعد،و القبيلة الكبيرة إيفليسن أم الليل (فليسة)،التي كانت تحت القيادة الوراثية لأولاد بن زعموم منذ 1769 (51).و معلوم أن ابن عيسى البركاني خليفة الأمير عبد القادر كان أحد مرابطي زاوية سيدي سالم.

من الجماعات الحليفة للأتراك في دار السلطان نجد كذلك قبائل بني هني و آيت خلفون و آيث عزيز و القبيلة الكبيرة آيت واغنون والقبيلة الكبيرة إيفليسن البحر (فليسة البحر) و آيث غبري و قبيلة المعاتقة و قبيلة إيبترونن و آيت خالفة و زاوية بوهينون و أيث منزنزر وزاوية آيث إسماعيل الرحمانية و قبيلة آيث صدقة (52).

من القبائل المستقلة تماما عن السلطة التركية في دار السلطان، نذكر القبيلة الكبيرة آيث جناد التي لم يتمكن الأتراك من أخضاعها فسالموها منذ 1826 و أعراش إيزرفاوين و إيسعروزن وآيث تيغسرين و إيسجرمانن و آيث حسان و إيسغيل نزكري و آيث فليك و آيث شايب و آيث خليلي و آيث فراوسن و القبيلة الكبيرة آيث إيراثن و مثيلتها إيغاواوين بشقيها آيث بترون وآيث منغلات و أعراش إيليلتن و آيث يحي و إيلولة و آيث زيكي و القبيلة الكبيرة آيث إيجر و منطقة نفوذ مرابطي غبريني(53) .

البايليكات الثلاثة

البايليكات الثلاثة هي الشرق (قسنطينة) و الغرب (وهران بعد رحيل الإسبان) والتيطري.إنها تخضع لنظام إداري واحد تقريبا.

ضم الأتراك مدينة المدية إلى سلطتهم في مدينة الجزائر منذ سنة 1517،أما بايليك التيطري فقد نظم في عهد حسن باشا بن خير الدين مثل البايليكين الآخرين.كان باي التيطري يقيم في أوائل العهد التركي في المدية تارة و في برج سباو تارة أخرى،إلى أن استقر نهائيا في المدية.يحد هذا البايليك من الشمال الأطلس البليدي و من الجنوب الأطلس الصحراوي و من الغرب الشلف و من الشرق جبال ونوغة.كان هذا البايليك أضعف البايليكات من جميع النواحي فهو أضيقها مجالا ،يفتقر للأراضي الزراعية الجيدة. و لأن هذا البايليك وُجد لأسباب سياسية أكثر منها اقتصادية أو إدارية، فإن الفرنسيين ضموه إلى مقاطعة الجزائر، في تقسيمهم الإداري الأول، الذي ظل قائما أكثر من قرن من الزمن.

كان بايليك قسنطينة أو بايليك الشرق من أهم البايليكات سواء من حيث عمقه الجنوبي أو مساحته أو ثرواته.إنه يملك أحسن أراضي الحبوب و أجود أشجار النخيل الخ.يمتد إقليمه من منطقة وادي سوف إلى البحر المتوسط و من الحدود التونسية إلى وسط جرجرة،جبال البيبان،سيدي هجرس و سيدي عيسى .لعب هذا البايليك دورا كبيرا في مراقبة إيالة تونس وساهم في إخضاعها لنفوذ أتراك الجزائر. يختلف عن بايليك التيطري في الكثير من الجوانب، فعاصمته مثلا كانت تحت سلطة الباي منذ إنشائه و إلى غاية سقوطها بيد الاستعمار الفرنسي سنة 1837، بينما كانت المدية عاصمة لبايليك التيطري، تخضع لحاكم خاص خارج سلطة الباي.

كان بايليك الغرب يمتد من الحدود المغربية إلى الحدود التي تفصله عن دار السلطان و عن بايليك التيطري و من سواحل البحر المتوسط إلى نواحي البيض حيث مجال النفوذ الديني و السياسي لمشيخة أولاد سيدي الشيخ. و لم يكتمل بصفة نهائية إلا بعد خروج الإسبان من منطقة وهران سنة 1792. انتقلت عاصمته من مازونة إلى معسكر ثم إلى وهران. كانت مدينة مازونة في أوائل القرن السادس عشر جيدة التحصين إلا أن الحروب جعلتها مدينة فقيرة إذ " كثيرا ما تعرضت للتخريب من قبل ملوك تونس تارة و من قبل الثوار تارة أخرى، و بالتالي من الأعراب،حتى

أصبحت اليوم قليلة السكان، و هم إما نساجون أو فلاحون و جميعهم تقريبا فقراء لأن الأعراب يثقلون كواهلهم بالإتاوات و الأراضي الزراعية جيدة تعطي غلة حسنة "،كما يقـول الوزان (54) في أوائل القرن السادس عشر.لقد ازدهرت هذه المدينة بعد أن صارت عاصمة البايليك. كانت مدينة ثقافية مشهورة بمدرستها التي بناها الشيخ الأندلسي محمد بن الشريف منذ نهاية القرن السادس عشر. ظلت مازونة عاصمة بايليك الغرب حتى نهاية القرن السادس عشر. من أشهر البايات الذين أقاموا بها الباي ابن خديجة الذي عينه حسن آغا على الناحية الغربية بعد حملة على وهران سنة 1563.لقد عمل الباي على إقامة التنظيم الإداري في المنطقة الغربية، وبذلك كان الباي الفعلي الأول و الباي السابح الذي حكم مدة 11 سنة،و الباي محمد بن موسى، و الباي شعبان الزناقي الذي برز في إحدى الحملات على وهران و توفي فيها (قتله المغطسون). آخر البايات هو مصطفى بوالشلاغم الذي نقل مقر البايليك إلـى معسكر (55)، سنة 1701. وذلك لأسباب عديدة نذكر منها أن معسكر كانت في مكان يربط بين المناطق الساحلية و المناطق الداخلية، و هي مركز هام على الطريق بين قلعة بني راشد و تلمسان " ،مما جعلها سوقا لمنتوجات السودان و مستودعا لبضائع فاس و ملتقى لتجارة الغرب الجزائري " وهي كذلك منيعة بموقعها على منحدرات جبال بني شقران،و من جهة أخرى، تقع في منطقة زراعية تتمثل في سهل غريس (56)،لكن الأهم من كل هذه العوامل هو أن معسكر اختيرت لتحقيق الأهداف العسكرية المتمثلة في محاصرة وهران و القضاء على الوجود الإسباني فيها،كما رأينا من قبل.

حين تحررت وهران من الأسبان، في بداية القرن الثامن عشر،أمر الداي بكداش بإلحاقها ببايليك الغرب اعترافا بجميل الباي مصطفى بوالشلاغم. جعلها هذا الأخير مقرا دائما له،و ظل مستقرا بها مدة ربع القرن،إلى أن استعادها منه الأسبان سنة 1732،رغم محاولات الباي هذا استعادتها مرات عديدة،إنطلاقا من معسكر،ظل الأسبان سادتها مدة حوالي ستين سنة،إلى أن استعادها الباي محمد الكبير نهائيا سنة 1792،فنقل إليها مقر البايليك ثانية،وعمل كثيرا على تدعيم السلطة التركية في الناحية الغربية حتى بلغ بايليك الغرب أقصى اتساعه في عهده.

من الناحية الطبيعية،كان بايليك الغرب أقرب إلى بايليك التيطري من بايليك الشرق. باستثناء المدن والمناطق الجبلية،فإن تربية الماشية و السكن تحت الخيمة هما القاعدة فيه،كما أنه بايليك معرض للجفاف بسبب موقعه في ظل الجبال المغربية و الإسبانية.

من الناحية العسكرية،كان هذا البايليك عرضة للحروب المتواصلة مع الأسبان،إذ ما انفك الأسبان يغيرون على القبائل المجاورة للمنطقة التي كانوا يحتلونها، وما انفك الأتراك يجهزون الحملات ضد هؤلاء الأسبان. كما كان هذا البايليك عرضة للحملات المغربية التوسعية التي كانت تحاول الاستيلاء عليه عامة و على تلمسان خاصة.ما إن انتهى خطر الأسبان و المغاربة حتى ظهرت

حركات التمرد التي قادها الدرقاويون ثم التيجانيون في القرن التاسع عشر.الحركات التي خلخلت سلطة الأتراك في المنطقة.لهذا كان لبايليك الغرب تنظيم إداري أكثر عسكرية من غيره.

القــوات الـعــسـكـريــة للـبـايــات

إضــافة إلى جنــود الحاميــات الــتي تتواجــد في المــدن الهامــة الموجــودة في البايليكـات و هـؤلاء الجنـود مـن الإنكشـارية يتبعـون قيـادة مركزيـة في مدينـة الجزائر،نجـد في البايليكـات قـوات أخـرى متنوعـة تحـت تصـرف البايـات، يستعملونها في القضاء على حركات التمرد، و في إجبار القبائل على دفع الضرائب. نستعرض هنا قوات باي التيطري على سبيل المثال.القوات العسكرية التي كانت تحت تصرف باي التيطري بصفة مباشرة و دائمة، هي :

1 - الزبنطوط (العزاب)، في البرواقية،و هم جنود أتراك يقودهم الباي بنفسه.

2 - الصبايحية ،و هم فرسان،عددهم 50،يتبعون الباي في كل خرجاته أو حملاته.

3 - المخازنية ، و هم الخيالة الذين ينتمون لقبيلـتين يُعرفون،كما في كل جهات البلاد بأسماء الدواير (مفردها الدايرة) أو العبيد أو الزمول (مفردها الزمالة). أقامت السلطة التركية العبيد (المحررين) على جزء من إقليم الحكم الذي أصبح شاغرا بفعل انقراض الملاك القدامى، كما أقامت الدواير على الأراضي التي صادرتها من أولاد خـديم، و على أراضي أولاد سعيد التي آلت إلى بيت المال بالشغور، و أقامت البعض الآخر من الدواير في إقليم زغوان. يستخدم الباي فرسان المخزن في تأديب المتمردين أو في حملاته التي يقودها بنفسه.كل جماعة مخزنية تخضع لآغا،لكن في المراحل الأخيرة من عهد السلطة التركية أصبح الباي يعين آغوين للدواير و أخرين للعبيد. و لما كانت وظيفة الآغا هامة جدا فإنها تُشترى مقابل ما يقرب من 1500 بوجو،عدا (العوايد)،و هي الهدايا التي تُقدم للباي و حاشيته. امتيازات رؤساء المخزن، و منها حصولهم على الغرامة، التي تُفرض على قبائل معينة، لا يأخذ منها الباي سوى الثلث أو الخمس (57).

يدخل في عداد هذه القوات القوم أو مقاتلو القبائل،خاصة القبائل الحلفية كما هو الشأن بالنسبة لقبيلة أولاد مختار. لقد لعب هؤلاء دورا هاما في بقاء السلطة التركية في جنوب بايليك التيطري.

كانت مهمة شيخ أولاد مختار تتلخص في مراقبة و متابعة تحركات قبائل البدو الجنوبية، بواسطة الشوافة (مفردها شواف) أو الرقاصة (مفردها رقاص)

الذين يعرفون سطح الصحراء جيدا. يعود النجاح أو الفشل في الحملات دائما إلى شيخ أولاد مختار. ما إن يُخبر الباي من طرف هذا الشيخ بموقع القبيلة المستهدفة حتى يرسل إلى آغا الدواير و آغا العبيد للاستعداد للحرب رفقة المخازنية، كما يرسل إلى الزبنطوط لنفس الغرض. يأتي الباي من المدية مرفوقا بشواشه وصبايحيته و مكاحليته وراياته. و قد يأتي بمدفعين صغيرين أو أكثر. من البرواقية يسير إلى أم العظم الوقاعة بين التل و الصحراء و هنا ينظم الطابور أو المحلة. يكتمل هذا الطابور بانضمام المخزن و القوم إلى باقي الجند، و يتكون القوم من أولاد مختار ومقاتلين من قبائل أخرى. يستبدل شيخ أولاد مختار حصانه بأحد أحصنة البايليك و تنطلق الحملة التي تتكون عادة من 50 صبايحيا و مائة زبنطوط أو أكثر يمتطون البغال و عشرة مكاحلية و سبعة علالة (الذين يحملون الرايات) و من أربعمائة إلى خمسمائة فارس من فرسان المخزن و حوالي 150 فارسا من القوم. يكون السير ليلا في العادة، و غالبا ما تُغيّر الطريق للتشويش على كشافة العدو. يسير شيخ أولاد مختار و قومه في المقدمة، و الباي و عائلته العسكرية في الوسط، ويسير مقاتلو المخزن في المؤخرة. لا يتدخل الزبنطوط في المعركة إلا حين يعجز المخزن، أو يتحصن العدو في مكان لا تستطيع خيول المخزن الوصول إليه. بعض الغنائم الشخصية التي يستولي عليها المقاتل تصبح ملكا له مثل البندقية. الغنائم من الماعز و الحمير تقسم نصفين: نصف للدواير، يشاركهم فيه الباش علام والخزناجي و الباش سيار (مسؤول البريد)، النصف الآخر للعبيد، يشاركهم فيه المكاحلية و مستخدمون عسكريون آخرون. يبيع الباي الأغنام و الجمال و الأبقار وغيرها إلى الدواير و العبيد الذين يعيدون بيعها للرعية. يستلم الزبنطوط الواحد أربعة بوجو (7.2 فرنك)، الصبايحي الواحد ستة بوجو، أما شيخ أولاد مختار فيحصل على إكرامية من أربعمائة إلى ستمائة خروف تبعا لأهمية الغنيمة (58).

موظفو البايات

للبايات موظفون يساعدونهم في إدارة البايليكات و نحن نملك معلومات كافية عن هؤلاء الموظفين في بايليك قسنطينة، و لهذا نقدمهم هنا كنموذج، مع الإشارة إلى أن هناك بعض الاختلافات الطفيفة بين البايليكات. بالنسبة للموظفين الكبار نجد :

1 ـ الخليفة، الذي يدير شؤون الأوطان أو الدوائر الإدارية المحلية، تحت تصرفه القادة و كل القوات النظامية. يعمل على جمع الضرائب و إخضاع السكان لكن مدينة قسنطينة لا تخضع له، تماما مثلما لا تخضع مدينة الجزائر لآغا العرب.

2 ـ قـائد الـدار، و هو مكلف بـإدارة شـرطة مدينـة قسنطينة و بـإدارة الجزء الأكبر من الأملاك الريفية التابعة للبايليك و كذلك العقارات المصادرة الواقعة في المدينة. يشرف على تخزين حبوب العشور، و هو قاضي كـل الجـنح و الجـرائم التـي تُرتكب داخل مدينة قسنطينة و هو مكلف كذلك حتى بالتدابير المتعلقة بطرد الباي نفسه. يمكنه أن يصدر عقوبة الجلد أو الغرامة، لكن الإعدام من شأن الباي وحده.

3 ـ الخـزنـدار، و هو الذي يشرف على المصالح المالية و علـى الإنفاق و يراقب جمع وتسليم الضرائب أو الجباية.

4 ـ آغـا الدايـرة، و هو أحد قادة المخزن له رايات خاصـة. يكلـف أحيانـا بحملات صغيرة ضد القبائل المتهمة.

5 ـ الباش كاتـب، كـبير الكتـاب أو الكاتـب العام، الـذي يحـرر الرسـائل السياسية الهامة التي تخص الباي و يراقب باقي الكتاب.

6 ـ الباش مكاحلي، و هو قائد الحرس الشخصي للباي، يحمل سـلاح هـذا الأخير في التظاهرات العامة و يقود المكاحلية، فرسان النخبة الذين يشكلون الحرس الشخصي للباي.

7 ـ الباش سـراج، هو قائد عمال الحظائر. يمسك لجام حصان البـاي حين يمتطيه هـذا الأخير.

8 ـ الباش عـلام، قائد حـاملي الرايـات السـبعة. يستفيد البـاش عـلام من عـزل وادي الزناتـي. هـذا و يقطن قسنطينـة كـل من قائد العواسـي (الحراكتة) و قائد الزمالـة و البـاش حانبة، و هذا الأخير عُين في عهد أحمد باي، وهـو بدون مهمة محددة، يشـبه الـوزير الأول، وقد عُين فـي هـذا المنصب ابن عيسـى المقرب من الباي أحمد.

هناك موظفون آخرون هم قائد الجبيرة، الذي يعتني بمحفـظة البـاي المعلقة في سـرج حصانه، و قائد المقصورة أو مدير القصر، و الباش فراش مسؤول الفراشين، و قائد الطاسـة الـذي يحمل كوب الباي أثنـاء الخرجـات، و البـاش قهـواجي، وقائـد الدريبـة أو الحاجـب الأول، وهناك الشاوشان، و هما تركيان يقومان بوظيفة الجلـد. حـين يخـرج البـاي يسـبقانه ليُـقدما التحية للجمهور نيابة عنه (59).

إدارة المـــــدن

تخضع المدن الكبرى في البايليكات إلى إدارة خاصة على غرار مدينة الجزائر في دار السلطان. من هـذه المدن ما لها حاكم خاص يتبع مدينة الجزائر أو السلطة المركزية، و منها ما لها قائد يتبع الباي، مثلما هو الشأن بالنسبة لقسنطينة. إن هذه الأخيرة قد ظلت عاصمة

البايليك منذ الربع الثاني من القرن السادس عشر إلى أن سقطت بيد الفرنسيين، و لهذا فهي أحسن نموذج نقدمه عن تلك الإدارة التي خص بها الأتراك المدن الكبرى.

يقود قائد الدار مدينة قسنطينة، تحت إمرته أمناء أو نقباء طوائف الحرف و مقدم أو رئيس اليهود، و عدد آخر كبير من الموظفين. يوجد في قسنطينة حوالي عشرين طائفة مهنية أو حرفية، على رأس كل منها أمين مكلف بمراقبة العمال و تسوية الخلافات التي تحدث بينهم. لا أحد في استطاعته أن يمارس عملا أو مهنة إلا بترخيص من الأمين. الأكثر أهمية بين هؤلاء الأمناء هما أمينا الخبازين و الفضة. و هناك موظف أخر يعرف باسم قائد الباب و هو وكيل يستلم حقوق الاحتكار و الديوانة، و يدفع عن هذه الوظيفة مبلغا ماليا يصل إلى 20 ألف بوجو (حوالي 36 ألف فرنك)، و هناك قائد السوق و قائد الزبل المكلف بالنظافة العمومية و قائد القصبة (و هو المزور في مدينة الجزائر) المكلف بمهمة الشرطة ومراقبة العواهر. يقوم بدوريات ليلية مرفوقا بخليفة الليل أو حارس الليل. تُعينه في تلك المهمة نورية من القبجية أو أعوان الشرطة. هناك كذلك البراح المسؤول عن الإعلان، و الباش حمار أو قائد البغالين الذين يوفرون البغال للحملات و وكيل بيت المال الذي يدير التركات الشاغرة التي لا وارث لها، و يتولى مهام الدفن و صيانة المقابر (60).

إدارة الأريـــاف

السكان خارج المدن منتظمون في أعراش أو قبائل يدير كلا منها قائد أو شيخ كبير يعينه الباي. تقسم القبيلة إلى فرق (كما هو الشأن في بايليك قسنطينة) على رأس كل فرقة شيخ، و الفرقة بدورها تقسم إلى دواوير، يكون العضو الأكبر سنا والأغنى فيها مسؤول الدوار. يستلم القائد الأوامر من الباي. يقوم بدور الشرطة فيوقف الأشرار و يفصل في الخلافات و الخصومات التي تقع بين رعاياه. يسهر على أمن الطرقات كما يرأس عملية توزيع الأراضي الفلاحية، إن كانت عرشا، وتوزيع الضرائب على العائلات. يجمع فرسان القبيلة (القوم) و يقودهم حين يُطلب منه ذلك (61).

يدير بايليك قسنطينة القبائل بطريقة إقطاعية. حيث يكلف الموظفون الكبار في قسنطينة بالإشراف على القبائل. يشرف قائد الدار على تسع قبائل و يشرف آغا الدائرة على 39 قبيلة ويشرف الباش كاتب على 23 قبيلة و الباش مكاحلي على سبع قبائل و الباش سراج على خمس قبائل، الخ (62). عدد القادة 35، منهم 11 شيخا و 20 قائدا و 4 قادة يسيرون مدن تبسة و ميلة و زمورة و مسيلة. نذكر من هؤلاء شيخ الحنانشة (12 قبيلة)، شيخ العرب (كل زاب بسكرة و 11 قبيلة بدوية)، قائد الحراكتة أو قائد العواسي الذي يقيم في بلاط صغير في

قسنطينة (32 قبيلة، أغلبها من قبائل الشاوية)، قائد النمامشة، قائد الزمول (حوالي 20 قبيلة)، قائد الأوراس (12 قبيلة)، قائد عامر الشراقة (6 قبائل)، شيخ الدير (أولاد يحي بن طالب)، شيخ بلزمة (13 قبيلة)، قائد سكيكدة (9 قبائل) قائد زردازة، شيخ الزواغة، شيخ فرجيوة (6 قبائل)، قائد أولاد عبد النور (31 قبيلة)، قائد التلاغمة، قائد عامر الغرابة (5 قبائل)، شيخ قصر الطير (8 قبائل)، شيخ أولاد أمقران في مجانة (13 قبيلة)، شيخ أولاد دراج (63).

هذه القبائل مختلفة من حيث علاقتها بالسلطة التركية، منها قبائل الرعية و منها قبائل المخزن و القبائل الحليفة. بالنسبة لقبائل الرعية نذكر عامر الشراقة و عامر الغرابة و سنية و دريد و ساحل سكيكدة و كرارب سلاوة و أولاد علي و بني مزلين و العشايش أولاد علي والعشايش العطاطفة و بني صليب و بني ورزدين و أولاد حريد و ساحل عنابة و إيدوغ و أهل تبسة و وادي الذهب و أولاد دراج و غيرها (64).

بالنسبة للجماعات المخزنية، نذكر دايرة خليفة الباي في الحامة و مخزن الحراكتة، الذي يترأسه قائد العواسي و هو دائما أحد أقارب الباي و أحد كبار الضباط في البلاط، تحت تصرفه ثلاثمائة فارس عدا ما تقدمه القبيلة من مقاتلين آخرين، و دواير الآغا و هي الوادي، بني مروان، سرواية و الزناتية. يضاف إلى ذلك الزمول و القبيلة الصبايحية أولاد عبد النور و مثيلتها التلاغمة و العلمة و ساحل سطورة أو بني محنة و معاوية و أولاد عطية و مخزن قرفة و دايرة و أعزال وادي الذهب و زمالة العثمانية في نواحي سطيف (تتكون من الكراغلة) و مخزن قائد منطقة الأوراس و سحاري شيخ العرب و مخزن أولاد بليل الخ (65).

بالنسبة للجماعات الحليفة أو التابعة نذكر المنطقة الوراثية الكبيرة في مجانة و هي منطقة نفوذ أولاد أمقران و آيث شرفة و مشدالة و بني مدور و زاوية شلاطة و هي منطقة النفوذ المرابطي لذرية الشريف بن سيدي موسى التي تمتد على كل وادي الساحل، و زاوية الشريف إيمولا و هي منطقة النفوذ المرابطي لعائلة سيدي الشريف الميهوب، و زاوية سيدي مبارك بن سماتي، و الساحل القبلي للبابور و هو منطقة نفوذ عمر بن عبيد بن واري، و زاوية أمعدان و هي منطقة النفوذ المرابطي لأولاد سيدي محمد أمقران و هم فرع من مقرانيي مجانة، والمشيخة الوراثية لقصر الطير، و المشيخة الوراثية لفرجيوة، و المشيخة الوراثية للزواغة، و بني فوغال جيجل، الذين كانت تمثلهم سنة 1830 عائلة ابن حبيلس و بني قائد جيجل (فحامون وتجار زيت كانوا يمونون حامية و حضر جيجل)، و زاوية مولى الشقفة الذي كانت له السيادة على قبيلة بني يدر و هي منطقة نفوذ مرابطي و مكان لجوء معترف به من قبل الأتراك منذ القرن السادس عشر، و المشيخة الوراثية لبلزمة، تحت سيادة أولاد بوعون و هم أجواد، و منطقة النفوذ المرابطي لأولاد الحاج في مدوقل، الذين كان يمثلهم سنة 1830 سي مقران الحاج، و زاوية

طولقة التي كان يقودها سنة 1830 سي علي بن عمر، مقدم الطريقة الرحمانية، و المشيخة الوراثية للحنانشة، و مشيخة المزولة تحت قيادة أولاد ديب ،الذين كانوا يدفعون الضريبة لشيخ الحنانشة الخ (66).

كانت هناك جماعات عديدة مستقلة عن الأتراك تماما سنة 1830،و كانت تتواجد في المناطق الجبلية بصفة خاصة،و قد لعب تمرد ابن الأحرش دورا كبيرا في استقلالها. لقد أورد لويس رين أسماء و مواقع هذه الجماعات أو القبائل (67).نجد منها قبيلة النمامشة الكبيرة التي كانت في صراع حاد مع الأتراك.

يسيطر النمامشة على المنطقة الواقعة بين تبسة و نقطة و سوف. و حسب رواية الحاج حمودة التونسي كان النمامشة منقسمين في القرن السابع عشر إلى صفين متصارعين. حاربهم،خلال القرن الثامن عشر عاهل تونس يونس باشا. خضوعهم لبايات قسنطينة لا يتجاوز فترة تزودهم بالحبوب في الشمال. لم يدفعوا الضريبة كاملة أبدا.كان النمامشة تحت نفوذ أحرار الحنانشة و لم يتخلصوا منه إلا في عهد صالح باي في حوالي نهاية القرن الثامن عشر،و لما عين الأتراك عليهم القائد العداسي قتلوه،فساروا إليهم إلا أنهم فقدوا الكثير من الجند بالقرب من فج فكرون كما تقول الرواية المحلية. إن المنطقة الواسعة التي كان يسيطر عليها النمامشة تجعلهم قادرين على اختيار مكان المعركة كما يحلو لهم ،لهذا لم يخضعوا للأتراك خضوعا كاملا أبدا. حين يسير إليهم المكلف بتحصيل الضريبة يجد نفسه أمام إحدى الحالتين: إما أنهم لا يريدون دفع الضريبة فيعتذرون له، و إما، و هذه حالة نادرة جدا،أن يدفعوا إن كانوا يريدون بيع غنائمهم، التي استولوا عليها أو بيع منتوج قطعانهم الضخمة، أو يريدون التزود بالحبوب في التل. في هذه الحالة يستلم محصّل الضريبة ضريبة من فرسان يمثلون العشائر.كان النمامشة في صراع دائم مع جيرانهم الحراكتة و العمامرة و السوافة وحمامة و الفراشيش و مع أولاد يحي بن طالب بصفة خاصة.كانت ثروة النمامشة الرئيسية تتمثل في قطعان الماشية و خاصة من الجمال،فهم لا يولون كبير اهتمام بالزراعة، و لأنهم كانوا رحلا،فإنهم يطوون خيامهم عندما يشعرون بالخطر و يتوغلون في الصحراء فيفلتون من كل ملاحقة. في كل سنة،في حوالي أكتوبر،حين يشتد البرد،ينتقل النمامشة من قدم جبل الدير و نواحي تبسة و يدخلون إلى بحيرة الأرانب، أين تزرع كل عائلة قطعة أرض تتناسب مع حاجياتها و إمكانياتها،ثم يزحفون، لما تنتهي أعشاب التل،نحو الصحراء على مراحل. بعضهم يتجه نحو الجريد و سوف و البعض الأخر نحو قصور فركان، نجرين و تامرزة. كانت تبسة و قرية أوقاس المخازن المؤقتة لحبوبهم (68).

يختار البايات مناسبة تخييم النمامشة صيفا في السهول الواقعة بين تبسة و جبال الأوراس للإغارة عليهم و الحصول على الضرائب.هاجمهم الباي شاكر مرات عديدة في حوالي

سنة 1815. كما نظم الباي أحمد غارات عديدة ضدهم، حين كان قائدا للعواسي، و لما أصبح بايا جند فرسان البايليك ضدهم و ضد الحنانشة الذين انضموا إليهم في تمردهم حين يعلم النمامشة بمقدم الأتراك يمدون الحبال حول دواويرهم ليحولوا دون نفور جمالهم و خروجها عن نطاق خط الدفاع. في خط الدفاع هنا يفقد المهاجمون العديد من رجالهم. و في وضعية الفوضى التي تحل بالعدو، ينقض فرسانُ النمامشة على المغيرين و يفقدونهم مُشاتهم فتصبح المعركة معركة فرسان حتى نساء النمامشة يشاركن في الدفاع عن القبيلة (69). أسلوب المواجهة هنا ظل مستعملا منذ العهد البيزنطي. لقد ظل صراع النمامشة مع أحمد باي قائما إلى ما بعد سنة 1830.

يتشكل بايليك التيطري من الناحية الإدارية من أربع دوائر هي :

1 ـ التل الشمالي الذي يضم سبعة أوطان هـي حسن بن علي، وزرة، ريغة وأوعمري بني يعقوب، غربي و حناشة.

2 ـ التل الجنوبي، و يضم أولاد ديد، العبيد، الدوائر، أولاد حميد، أولاد سيدي أحمد بن يوسف، بني حسن، الربايع ، أولاد علان، التيطري، السواري، أولاد معروف ، الدهيمة و أولاد حمزة.

3 ـ ديرة، و تشكل دائرة خاصة تضم أولاد دريس، أولاد بركة، أولاد فرحة وأولاد بوعريف، أولاد مريم، العذاورة، بني عقبة، أولاد سليمان، أولاد عبد الله، أولاد علوش، مغراوة، أولاد علي بن داود، أولاد سيدي عيسى، أولاد موسى، أولاد سيدي عمر، جواب و أولاد النهر. يفصل بين هذه القبائل جبل ديرة. و هي تشارك في الحياة الحضرية أو الرعوية حسب موقعها من السلسلة الجبلية، في الشمال أو في الجنوب.

4 ـ دائرة الجنوب، و تضم قبائل رحمان، الزناخرة، العبدلية، الموايدة (الشراقة والغرابة)، أولاد مختار (الشراقة و الغرابة)، العبازيز، أولاد أحمد الرشايقة، أولاد سيدي عيسى (السواقي و العرق و الأحباب)، السحاري، أولاد الشايب، بني بوعيش، أولاد نايل الحرازلية و لرباع . هذه القبائل تسكن الخيام و هي بدوية (70).

لم تكن هذه القبائل تخضع كلها للبايليك في أواخر العهد التركي، فمنها ما أصبح يتبع السلطة المركزية في الجزائر، و منها ما استقل عن الأتراك، و منها ما يدخل في عداد الحلفاء أوالأتباع.

الجماعات التي تدخل في خانة الأتباع أو الحلفاء هي زاوية سيدي حامد بن يوسف وأولاد سيدي لخضر، و هذه الجماعة الأخيرة تشكل منطقة نفوذ مرابطي كان رئيسها يلقب بالأمير و يتبع مدينة الجزائر مباشرة، و قصر زاوية سيدي البخاري الذي كان يتبع الجزائر، المشيخة الوراثية لأولاد سيدي عبد الله، الأجواد الذين ينحدرون من أحد مقرانيي مجانة ويتبعون مدينة الجزائر، و منطقة النفوذ المرابطي لأولاد سيدي عيسى الذين يتبعون مدينة الجزائر، و أولاد سيدي عامر و هم مرابطون و أشراف يتبعون مدينة الجزائر، و أولاد سلامة

وهم قبيلة تخدم أولاد سيدي عبد الله و أولاد سيدي عيسى و هي قبيلة مكلفة من قبلهم بتوفير العزلية (الذين يفلحون أراضي العزل) في بلاد معمورة، و المشيخة الوراثية لأولاد مختار القسمة إلى صفين: صف أولاد عدة (أولاد مختار الشراقة)، و صف أولاد علي (أولاد مختار الغرابة)، و أولاد سيدي أحمد الرشايقة أو أولاد أحمد بن عيسى و هم مرابطون و زبائن و أتباع أولاد الشايب (71).

من الجماعات المستقلة نذكر أولاد دريس (في ديرة) و هم خدم أولاد سيدي عبد الله، والعذاورة (في السفح الجنوبي من جبل ديرة)، و أولاد سيدي عيسى العضب و هم مرابطون، و عزيز، و السحاري العطاية الذين يشكلون قبيلة كبيرة، و أولاد نايل و هم كذلك قبيلة كبيرة، و بني الأغواط، و لرباع، بني ميزاب، و الشعانبة، و ورقلة و هي إمارة تشمل المدينة والأحياء المحيطة بها، و المخادمة (سعيد المخادمة) الخ (72).

كان التنظيم الإداري لبايليك الغرب بسيطا و قويا في الوقت نفسه، باستثناء مجموعتين من القبائل، هما أولاد عامر و المجاهر، و قد كان باي وهران متحفظا منهما، فإن الإدارة المباشرة لبايليك الغرب كانت مقسمة بين ثلاثة من الرؤساء ذوي النفوذ، يستلمون مداخيل الجباية و يعينون القادة، و هؤلاء الرؤساء هم آغا الدواير و آغا الزمالة في الناحية الغربية من البايليك و خليفة الباي، في الناحية الشرقية. غالبا ما كان يسمى خليفة الشرق. تمتد إدارته على السكان الذين يقطنون مناطق شرق مازونة تقريبا فقط في الحقيقة كان هناك أربعة آغوات، اثنان منهم يكونان في عطلة و اثنان يعملان، ثم يحدث التناوب. بخلاف الخليفة الذي له منطقة معينة فإن لكل آغا من الآغوين قبائل متشابكة مع قبائل زميله، فالتقسيم لا يتعلق بالمنطقة الجغرافية بل يتعلق بالقبائل. هكذا فإن ممارسة مهمتهما تقودهما إلى نفس الأماكن دائما، فإن أراد أحدهما التمرد كان الآخر له بالمرصاد، و الأمر هنا يتعلق بالدواير و الزمالة (73). هذه هي اللامركزية الحذرة التي كانت مطبقة في بايليك الغرب.

يتكون مخزن آغا الدواير من الدواير، الدرادر، هاشم الدروع، برجية سيراط، البرجية الجبايلية، عكرمة الغرابة، أولاد أحمد، المحل، السحاري، دواير فليتة، القبيلة الكبيرة هاشم. و يتكون مخزن آغا الزمالة من الزمالة (الزمالة و حميان)، مخزن الغرابة سجرارة، عبيد الشراقة، المكاحلية، أولاد سلامة. و يتكون مخزن خليفة الشرق من بني فاطم و هم صبايحية آغا العرب، و عزلية خوجة الخيل، ذوي حسن (يتبعون خوجة الخيل)، أولاد خلوف، بني يحي أزاغر، عبيد عين الدفلة و المكاحلية و عبيد السدرة، الفراحلية، صبايحية الشلف أو هاشم الشلف و هاشم درنور (74).

من الجماعات التي تدخل في عداد الرعية الموجودة في اغاليكي الدواير و الزمالة مدينة القلعة، قبيلة فليتة الكبيرة، الزدامة، ذوي أنكاد، السحاري، أولاد خليف، أولاد الشريفة، أولاد بوغدو، بنو منيارن، أولاد خالد، أولاد عفان، بنو مدين، أولاد عوف، القبيلة الكبيرة بنو

عامر ،أولاد سيدي خليفة ،أولاد ثابت ،وطن تلمسان الذي يديره قائد البلد ،القبيلة الكبيرة نوي يحي ،القبيلة الكبيرة الترارة ،ولهاصة التابعة لقائد البلد في تلمسان ،القبيلة الكبيرة الغسل ،وطن جبل تلمسان ،ندرومة و ضواحيها ،بنو هيدل ،الخ. و أما رعية خليفة الشرق فنذكر منها هروة اللواطة ،قبيلة بني زقزوق الكبيرة ،بني مايدة ،القبيلة الكبيرة عطاف ،القبيلة الكبيرة بزان (ينتمي إليها سي بن عيسى بن التومي خليفة الأمير عبد القادر) ،أولاد فارس ،أولاد قصير ،بني راشد ، القبيلة الكبيرة صبيح ،أولاد خويدم ،القبيلة الكبيرة بني زروال مغراوة (75).

بالنسبة للأتباع أو الحلفاء ،نذكر ،في أغاليكي الدواير و الزمالة ،أولاد سيدي بوعبد الله المغوفل ،و هم مرابطون و القيادة عندهم وراثية و قد بلغ نفوذهم كل وادي الشلف من مستغانم إلى الأصنام و وادي مينا الأسفل و غرب الظهرة (انهم يستلمون العشور و عائدات دينية أخرى من جزء من الظهرة) ،و المحال و أولاد العباس و أولاد خويدم و أولاد الشريفة و أولاد القرود الخ (76) .لقد تحالف أولاد بوعبد الله المغوفل و هم أجواد و مرابطون في الوقت نفسه ،مع الأتراك ضد الأشراف والإخوان و ضد الإسبان في وهران .يسيرُ قادةُ أولاد سيدي بوعبد الله دائما مع المخزن ويوفرون الموظفين و القضاة للأتراك في وهران(77) .من الاتباع كذلك بنو مسلم و هم يشكلون قبيلة كانت تحت السيادة الدينية لزاوية سيدي الشاذلي ،و زاوية أولاد سيدي دحّو ، وقبيلة الأحرار الكبيرة التي قبلت التبعية للأتراك حتى تتمكن من الدخول إلى التل و كانت مستقلة تقريبا منذ بداية القرن التاسع عشر ،و المنطقة الوراثية لأولاد سيدي التاج و الطراق أو حميان الغرابة و هم بدو و أتباع أولاد سيدي الشيخ و أتباع الأتراك كذلك و عملاء إخوان التيجانية والطيبية و القادرية و ذلك لتأمين تجارتهم ،و أغواط الكسل و هم أتباع أولاد سيدي الشيخ والأتراك و مؤاكرو إخوان التيجانية ،و الترارة الذين يدفع جزء منهم الضريبة للأتراك دون التدخل في إقليمهم ،والسواحلية ،و مسيردة و المشيخة الوراثية لأولاد سيدي بن زمارة ، وأولاد سيدي تالة ،و زاوية سيدي أحمد ، و بنو سنوس الخ (78).

في ناحية خليفة الشرق نذكر ،من القبائل الحليفة ،عياد أو نهر واصل تحت سيادة أجواد عياد المحل ،و بني لنت ،بسام ،بني بلحسن ،أولاد عمار ،المشيخة الوراثية جندل و هي تحت سيادة اولاد بن شريفة و هم أجواد ،و مرابطي بني فرح الذين هم ذرية و زبائن سيدي أحمد بن يوسف المشهور بمليانة ،و مجاجة المرابطين الذين يزودون الأتراك بالقضاة والخوجات (79).

هذا و نجد جماعات أخرى مستقلة ،في أواخر العهد التركي مثل القبيلة الكبيرة بني وراغ ،مكناسة ،مطماطة ،بني طغرين ،الكرايش ،العاصم ،أولاد يعقوب ،الزرارة و هم من كبار البدو يتنقلون بين الزاب و تاجرونة و شط اليعقوبية ،الحساسنة حلفاء الأحرار ،أنجاد ،حميان

الغرابـة، عمور و أشـراف أولاد مـولاي عبـد المالك، زاويـة عـين ماضـي، بني سناسـن، بني بوسعيد، الظهرة، عريب، زكار، أولاد عنتر، أولاد هلال الخ (80).

المنطقـة الإسبانيـة

بعد أن سيطر الإسبان على المرسى الكبير سنة 1505 و وهـران سـنة 1509 اعترفت بسلطتهم بعض القبائل المجاورة للموقعين، و قدمت لهم، من بين ما قدمت القاتلين. أصبحت بسرعة المنطقة الواقعة بين وهران و جبل راشد إما خاضعة لهم أو حليفة. في الكثير من المرات بلغت القوات الإسبانية غريس و بني شقران. غدت الأراضي الخصبة في القلعة، لدي بني راشد، و أراضي البطحاء و ملاتة و تليلات تموّن وهران بكل الحبوب و المواد الاستهلاكية. هكذا بدا للإسبان أنهم أقاموا سيادتهم على كل الغرب الجزائري، لكن لسوء حظهم ظهر الأتراك في المنطقة(81)، فحدّوا من توسعاتهم.

يمكن القول أن القرى و الدواوير الواقعة ضمن شعاع من حوالي 2 إلى 3 فراسخ من وهران كانت خاضعة للإسبان خضوعا مباشرا قبل تدخل الأتراك. كما كانت تعترف لهم بالنفوذ كل من تلمسان و مستغانم و تنس. و أصبحت قبيلة بني عامر الكبيرة، منذ هذا الوقت، صديقة لهم و من حلفائهم، تدفع لهم ضريبة (الرومية). مع هذا كانت هناك مواقع و قبائل في عداوة مفتوحة مع هؤلاء الأسبان، مـثل بني زناتي و بني راشد (82). لم يكن يضاهي بني عامر قوة سوى قبيلة هاشم معسكر. كانت القبيلتان تشكلان مخزن بني زيان في تلمسان. لما انضمت قبيلة بني عامر إلى الأسبان أخذت قبيلة بني هاشم تزداد أهمية إلى أن بدأت السيادة التركية في المنطقة، في حوالي 1530، فانضمت إليهم مقابل حصولها على أراضي هامة في السيق و الهبرة (83).

كان الهجوم التركي على الناحية الغربية مبكرا. ضم الأتراك تنس ومستغانم و مزغران و سيطروا على مازونة سنة 1517، كما سيطروا على قلعة بني راشد في نفس السنة، ثم استعادوها سنة 1540، بعد أن أخذها منهم الأسبان وحلفاؤهم الزيانيون، عند مقتل عروج سنة 1518. كما استولوا على تلمسان في أواسط القرن السادس عشر ـ كما رأينا سابقا. لقد أدى الوجود الإسباني في وهران والمرسى الكبير و الوجود التركي في باقي الغرب إلى فرز بين القبائل. منها ما انضمت إلى الأسبان و منها ما انضمت إلى الأتراك. أما القبائل الواقعة على الحدود الفاصلة بين إقليمي الأسبان و الأتراك فقد ظلت مترددة بين التبعية لهؤلاء

وأولئك. لما تضعف شوكة الأسبان تقترب من الأتراك ولما تضعف شوكة الأتراك تقترب من الأسبان. يتجدد ذلك في كل مرة يهاجم الأتراك المنطقة أو يهاجمون وهران و المرسى الكبير (84).

رغم مقاومة السلطة التركية للتوسع الإسباني إلا أن الأسبان تمكنوا من توسيع منطقة سلطتهم إلى الشرق و الغرب و الجنوب، في شعاع يصل طوله إلى حوالي 20 فرسخا من وهران. لقد أكد تقرير الدوق كانزانو، حاكم وهران في أواخر القرن السابع عشر، على أن شريط بني غدو هو الحد الشرقي للسيادة الإسبانية، و أن إقليم جماعة فلاحي بني يعقوب هو الحد الجنوبي، و إقليم جماعة أولاد ميمون هو الحد الغربي. هذا ما أكده كذلك تقرير أرامبورو، الحاكم الإسباني. لقد جاء في تقريره أن الأسبان، كانوا يسيطرون قبل الانسحاب الأول سنة 1708، على منطقة تمتد غربا إلى وادي تلمسان، على بعد 14 فرسخا من وهران، و تمتد شرقا إلى 20 فرسخا، أي إلى ما قبل الوصول إلى الشلف بفرسخين، و تمتد إلى الجنوب إلى أبعد من وادي السيق، إلى المكان المعروف باسم مقرة، على بعد 20 فرسخا من وهران. يُستثنى من هذه المنطقة مدينتا مزغران و مستغانم (85).

التحصينات الإسبانية

لمواجهة الهجمات المتواصلة التي كانت تتعرض لها وهران و المرسى الكبير، أقام الأسبان تحصينات ضخمة لا يمكننا إلا أن نتعرض لها باختصار. في سنة 1734 حرر دون جوزي فاليجو الحاكم الإسباني مذكرة حول وضعية وهران و المرسى الكبير، في إطار المناقشة التي كانت تدور آنذاك حول مسألة الإبقاء على الموقعين أو التخلي عنهما، و قد ترجمه إلى الفرنسية و علق عليه جون كازيناف. نعتمد نحن هنا على هذا التقرير و ملاحظات المترجم بخصوص التحصينات التي أقامها الأسبان في وهران و المرسى الكبير (86).

نصب الأسبان في المرسى الكبير 27 مدفعا من البرونز و مدافع أخرى من الحديد ونصبوا في وهران 8 مدافع من البرونز و 31 مدفعا من الحديد، أما الأبراج التي شيدوها فهي:

1 - برج القديس جريجوار (برج اليهودي)، و يقع أسفل برج سانتاكروز و هو يحمي وهران و المرسى و فيه ثلاثة مدافع من البرونز و 11 مدفعا من الحديد و راجمتان.

2 - برج سانتاكروز (برج مرجاجو)، و قد بني في أواسط القرن السادس عشر بعد هجوم إبراهيم باشا، و قد طلب الأسبان دعم القبائل المجاورة لبنائه، فعاونت قبيلة حميان بكل قواها. أعاد بناءه كله تقريبا الحاكم فاليجو. كان هذا البرج ضروريا لوهران و المرسى

الكبير ،فبدونه و بدون برج القديس جريجوار لا يمكن لهما أن تقاوما الهجمات التركية.ضم برج سانتاكروز سبعة مدافع من البرونز و راجمة واحدة.

3 ـ برج القديس فيليب (برج العيون أو برج بني زروال)،و قد سمي برج بني زروال لأن بني زروال استولوا عليه سنة 1791 عند هجوم الباي محمد الكبير على وهران،و هو الهجوم الذي جاء بعد الزلزال الذي اقتلع الاسبان من الأراضي الجزائرية نهائيا.إنه أول برج كان يصطدم به الأتراك في هجماتهم على وهران و المرسى الكبير لأنه أبعد الأبراج عن المدينة (على بعد ربع الفرسخ منها). بالقرب من هذا البرج شُيد برجان صغيران لوقف الهجمات، وهما برج القديس فيرديناند،الذي بني في 1514،بالقرب من العيون،و استولى عليه حسن باشا في أفريل 1563،قبل أن يحاصر المرسى الكبير.و قد وسعه فاليجو،الذي أنشأ البرج الثاني،سان شال.يضم برج القديس فيليب 16 مدفعا من البرونز و 12 مدفعا من الحديد و 3 راجمات.

4 ـ برج القديس أندري (البرج الجديد)،بني في عهد الحاكم كانزانو (1692 ـ 1697)،و قد سقطت عليه صاعقة سنة 1769 فانفجر بارودة،الشيء الذي ألحق به أضرارا بليغة،اضطرت الأسبان لإصلاحه.لعب دورا كبيرا في هجومي الأتراك سنتي 1708 و1732،له 13 مدفعا من البرونز و 16 مدفعا من الحديد و 3 راجمات.

5ـ برج روزالكزار (البرج الأحمر)،و هو قديم أول من بناه هو السلطان المريني أبو الحسين في 1347 و أعاد الأسبان بناءه.إنه أحسن الأبراج ،فيه 12 مدفعا من البرونز و 17 مدفعا من الحديد و راجمتان.

يضاف إلى هذه الأبراج حصن يقع بين القديس أندري و روزالكزار و قد شُيد سنة 1570 أمام باب تلمسان،و ثلاثة مساجد حصنها الأسبان و تقع بين فيرديناند و أندري.

مدينة وهران الإسبانية

يذكر تقرير دون جوزي فاليجو أن عدد سكان وهران من الأسبان كان حوالي خمسمائة نسمة،بينهم عائلات من النبلاء.لم يكن عدد أفراد الحامية الإسبانية مستقرا،لكنه نادرا ما كان يتجاوز 1500 رجل،من المشاة و الفرسان.يضاف إلى هؤلاء الجنود الأهالي المعروفون باسم " المغطسين ".عدد هؤلاء الجنود كان كافيا للقيام بحملات مفاجئة على القبائل التابعة.الغنائم المحصل عليها أثناء الحملات الإسبانية التي تتكون أساسا من البشر (الأهالي) و الحيوانات تُباع و تُقسم المبالغ المحصل عليها على الموظفين و الجنود و السكان حسب قاعدة

معلومة.جزء من هذه المبالغ يُسلم للخزينة الملكية.تقوم القوات الإسبانية بحملات خارج منطقة نفوذها اعتمادا على نفسها،و في بعض الحالات تأتي قوات إضافية من إسبانيا لتدعمها.تُسيّر الحملات هذه للحصول على الغنائم أو لمواجهة القوات التركية حين تأتي لتحصيل الضرائب (87).

شكل الأسبان،منذ احتلالهم وهران و المرسى الكبير،فرقا عسكرية من الأهالي تتكون أساسا من الفرسان،و قد عُرف هؤلاء الجنود باسم المغطسين،و هذه الكلمة تعني المعمَدين و قد ظل هؤلاء الجنود أوفياء للأسبان إلى غاية سقوط وهران والمرسى الكبير بيد الباي محمد الكبير.عن دور المغطسين في تدعيم الأسبان يقول عبد القادر المشرفي:" و لما استقل قدم الإسبانيين بوهران انحاز إليهم طرف من الأعراب.فصاروا خدمة لهم و من جملة جيشهم و كثر بهم السواد على المسلمين فكانوا لهم عليهم أعوانا و في الدين الفاسد إخوانا فشنوا بهم الغارات و انتفعوا بهم فيما يحتاجونه من الدواب و الأقوات " (88).لقد صار هؤلاء الأهالي " يتجسسون لهم الأخبار على المسلمين في السهل و الأوعار حتى إذا تعينوا له (العدو) يصكهم بخيله و رجله و هم معه فيقتل و يأسر و يسبي " (89).

الأهالي رعايا الإسبان

يذكر سي عبد القادر المشرفي أن الأهالي الذين كانوا تحت سلطة الأسبان يتشكلون من ثماني جماعات هي كرشتل و شافع وحميان وغمرة و جيزة و أولاد عبد الله و أولاد الونازرة.وحول سياسة الأسبان تجاه هذه الجماعات يقول :-" وللأسبان ترتيب في رعيتهم ليحصل التعاند لهم في خدمتهم وهو أنهم يقدمون الونازرة على جيزة و هم على حميان و غمرة و هم على شافع و هم على كرشتل وهم على أولاد علي و هم على عبد الله و هم على شقران و هم على القلعية وهم على الحشم لكونهم معهم بين نفرة و استقامة تارة يذعنون لهم و تارة يخرجون عن طاعتهم و يأنفون الدخول تحت ذمتهم " (90).

من الأسباب الرئيسية التي جعلت بعض الجماعات الأهلية تنضوي تحت سلطة الأسبان في وهران سيطرة هؤلاء الأسبان على السهلين الهامين مليتة و سيراط ،و هما سهلان واسعان و خصبان و فيهما مراعي لا مفر منها لقطعان ماشية القبائل المجاورة. فكان على هذه الأخيرة أن تتصالح مع الأسبان لكي تضمن لنفسها الاستفادة من السهلين،كما يقول مترجم كتاب عبد القادر المشرفي (91).هذا من جهة،و من جهة أخرى،كانت سوق الأسبان تسمح للأهالي ببيع فائض إنتاجهم.

وقد شجع الأسبان الذين كانــوا في حاجة لمنتوجات الأهـالي عمليات البيـع التي استفاد منها تجارهم و الأجانب،الشيء الذي جعل الملك الإسباني يقدم كل سنة كمية من النقود لكل شيخ من شيوخ الجماعات الأهلية تتناسب مع عدد خيام كل جماعة،الأمر الذي يجعل هؤلاء الشيوخ، و من ورائهم قبائلهم، يتقربون من المحتل. من المواد التي كان الأهالي يبيعونها للأسبان الحبوب و الجلود و الشموع والفواكه (92).

من بين الرعايا جماعة شافع الذين كانوا جنودا للأسبان " و دون غيرهم من اخوتهم من بني عامر فإنهم كانوا رعية النصارى لا جنودا ثم أن شافعا كان عددهم نحو العشرين دوارا وكانوا أهل نجدة و بأس شديد و قتال عنيد.. فتقوى بهم الإسبانيون بغاية التمكين و اشتدت شوكتهم على المسلمين و اعتدوا بهم وصاروا مشتدين و أكثروا من الغارات على الأقربين و الأبعدين " (93).كانت تبعية شافع للأسبان أكثر من غيرهم،فهم لا يبرمون معهم اتفاقيات مثل غيرهم بل يدفعون الضريبة عن الزويجة (محراث يجره ثوران) التي يستعملونها كل سنة.كانت شافع و حميان من أتباع ملك إسبانيا لا من أتباع وهران. لذلك فهما لم تكونا في حاجة إلى معاهدة حماية و لا تقدمان الرهائن (94).كانت شافع تقطن وتستفيد من الإقليم الواقع بين أراضي وهران و سسال،على خمسة فراسخ من ساحل غرب وهران،إلى أن طُرد الأسبان من وهران في القرن الثامن عشر،حيث خضعت شافع للأتراك الذين منحوها أراضي بين عين البيضاء و الزيدور (95).

كان أهل يفر يستفيدون من الأراضي المغطاة بالأحراش الواقعة بين إقليم شافع و البحر.كانوا من رعايا وهران، بدون أية واجبات عدا رعاية مائة حصان تابعة للأسبان و يصحبونها في الحملات،و تُسند لهم مهمة رعاية قطعان الغنائم من الماشية.يشكل أهل يفّر حوالي مائة و خمسين كانونا،خُربت مساكنهم مرات عديدة في الحصارات التي كانت تتعرض لها وهران.أما الأراضي الواقعة ما بعد نصف فرسخ من المرسى الكبير و بوحسين،فكانت من نفس نوع أراضي أهل يفّر، ويبدو أنها سُلمت إلى أربعة دواوير انفصلت عن حميان و شافع تحت اسم غمرة، وبني زروال الذين نزحوا في العديد من المرات،مع قطعانهم،إلى وهران لخدمتها أثناء الحصارات. في الإقليم المعروف باسم تارقة،من عين البيضاء في ملـيتة إلى البحر،في اتجاه جنوب ـ شمال، كان يقيم فرسان أولاد جبارة المعروفون باسم أهل الوادي المالح (96).

من بين أنصار الأسبان الأشداء حميان،و كانوا من جنودهم و كانت لهم " رغبة شديدة في التنصر "،و كان شيخهم أول من أتى بقرب الماء للأسبان لأجل

بناء قلعة مرجاجو (سانتاكروز) و تحصينها بعد الهجوم الذي نظمه الباشا إبراهيم، و هو أول هجوم تركي على وهران. و كان عدد حميان كبيرا، فقد كانت دواويرهم تزيد على الثلاثين دوارا (97). مُنحت حميان الإقليم الواقع بين كرشتل والسيق. بعد السقوط الأول لوهران بيدهم منح الأتراك حميان أراضي أخرى في إقليم سيراط، بالقرب من تمزوغة، نحو وادي السيق (98).

في شرق مدينة وهران، كانت تقيم جماعة من الأهالي تعرف باسم كرشتل وكانوا يشكلون ثلاثمائة كانون، أجبرهم الأسبان على النزول من مناطق جبلية إلى ساحل البحر، و على الرغم من أن جماعة كرشتل لا يدفعون شيئا يذكر للأسبان في وهران إلا أنهم كانوا يقدمون لهم يوميا معلومات عما يجري في ميناء أرزيو(99) الكرشتليون هم المغطسون، " فهذا الاسم هو لهم على الحقيقة و لغيرهم على المجاز " " و كيفية التغطيس أنهم يأتون بدوابهم للدواوير على صفة الحضر المدسوسين بالدواوير البايعين للعطرية و معهم مناطق من الجلود الفلالية إذا وجدوا خبرا جلبوه للنصارى و إذا وجدوا فرصة في الصغير أو الكبير أخذوه و جعلوا الجلود على فيه كي لا يتكلم و حملوه على دوابهم و مشوا به ليلا لوهران فيبيعونه للإسبانيين.. و كانت لهم زوارق يسافرون فيها من مدشرهم لوهران إذا اشتد عليهم الأمر و سُدت عليهم الطرق البرية يحملون فيها للإسبانيين ساير الخضر و نحوها " (100).

أصبحت كرشتل مهجورة منذ أن سحب الباي مصطفى بوالشلاغم سكانها، بعد أن رفع حصار 1733 الذي ضربه على وهران إثر استعادة الأسبان لها، لأنه اعتبر سكانها رعايا متعاطفين معهم. فنزح شيخ كرشتل البالغ من العمر سبعين سنة إلى وهران مع سكان آخرين (101).

في المنطقة الواقعة بين جامع بوحجر في الزيدور و قدم تسالة كانت تقيم جماعة فرسان أولاد الزاير، يجاورهم شمالا أولاد خالفة. كانت أراضيهم أخصب من أراضي أولاد خالفة الواقعة في الزيدور على بعد 10 إلى 17 فرسخا إلى الغرب من وهران (102)

كان أولاد موسى بن عبد الله يقطنون تمزوغة، في سفح الجبل، يحدهم أولاد إبراهيم جنوبا و أولاد علي شرقا. كانت أراضيهم فقيرة تصلح للشعير أكثر من القمح (103). كان أولاد علي يقيمون في الأراضي المحيطة بتمزوغة، من سيراط إلى السيق، يجاورون حميان شمالا و أولاد سليمان جنوبا، أراضيهم في تسالة خصبة، وفي وادي فيفة (سيراط) مروية و قد استولى عليها الباي بعد الانسحاب الأول للأسبان. لقد ظل البايليك غاضبا من هذه الجماعة إلى غاية سنة 1740 حيث منحها

أراضي بين عين البيضاء و الزيدور (104). جماعة أولاد علي " فرقة كبيرة يناهزون السبعين دوارا و لهم إذعان عظيم للأسبانيين و محبة لليهود إلا أنهم ليسوا كإخوانهم أولاد عبد الله لأن أولاد عبد الله لهم بأس شديد دون أنفة و أولاد علي لهم بأس و أنفة و كانوا أهل إعانة شديدة للإسبانيين حتى غزوا بهم المرة بعد الأخرى على المسلمين بالكرط و غيره و كان فيهم جبار عنيد و ظالم شديد فارس شجاع مطيع للكفر و للإسلام مناع يقال له رابح صولة.. و كان أولاد علي ما يفوق المئتي فارس من الأعيان و من غيرهم " (105).

جماعة الهبرة التي تتكون من فلاحين كانوا يملكون أراضي ضفتي الوادي الذي يحمل نفس الاسم، و يجاورون أولاد علي شرقا و المجاهر شمالا و بني شقران شرقا و جنوبا. بعد الانسحاب الإسباني الأول استولى خليفة الباي على أراضيهم المروية. كان المجاهر يقطنون الجانب الآخر من وادي الهبرة و هم جماعة من الفلاحين يبعدون عن مستغانم بفرسخ واحد، يجاورون، في الجانب الشرقي من الوادي، جماعة بني غدو و بني شقران (106). يذكر المشرفي أن " هبرة والبرجية و المجاهر و غيرهم من القبائل .. لم يدخلوا تحت طاعة النصارى الإسبانيين أصلا و كان لهبرة حروب عظيمة مع الإسبانيين و سويد إلى أن تلاشوا " (107). و يورد مترجم كتاب المشرفي أن هبرة فرع من فروع سويد مثل فليتة وشبابة و المجاهر و أن سويد قد أبادت هبرة فأصبح عدد أفرادها قليلا فتوزعوا على مختلف القبائل، و لم يعد في إقليم الهبرة إلا دوار واحد يحمل اسم الهبرة و أن السبب في محاربة سويد لهبرة يعود إلى أن هذه الأخيرة هاجمت الأندلسيين الفارين إلى أرزيو، في النصف الأول من القرن السابع عشر (108).

جماعة فرسان أولاد ميمون كانوا يزرعون الإقليم الذي يقع فيه وادي القصب على بعد 15 فرسخا من وهران و يحده جبل تسالة شرقا و ذلك الوادي غربا والزيدور شمالا و السلسلة الجبلية تنيرة جنوبا. الأراضي في هذا الإقليم مروية. كان فرسان أولاد إبراهيم يزرعون، و ظلوا كذلك إلى غاية طرد الإسبان نهائيا، أراضي تقع بين وادي مقرة (9 فراسخ من وهران) إلى غاية سيدي إبراهيم (13 فرسخا من وهران) و هي أراضي خصبة جدا، تجاور أولاد ميمون في الناحية الغربية، وسلسلة تنيرة في الشمال، و أولاد موسى بن عبد الله في الناحية الشمالية، و أولاد سليمان في الناحية الشرقية، و بني يعقوب، الذين يشتغلون بتربية الماشية، في الناحية الجنوبية (109). كانت لبني يعقوب الأراضي التي تبدأ منها الصحراء في الجنوب، يحدها شرقا وادي بني سراج و أراضي بني سليمان، و شمالا أراضي أولاد إبراهيم، و غربا جماعة جعفرة، الذين كانوا خارج سلطة الأسبان. كان فرسان أولاد

سليمان يزرعون الأراضي الواقعة بين المرابط سيدي عبد القادر كشتوين و وادي مطبوح،يجاورون في جهة الغرب أولاد إبراهيم و بني يعقوب و في الجهة الشمالية تحدهم منحدرات تمزوغة و يحدهم شرقا و جنوبا وادي بني سراج. جماعة فلاحي بني شقران يقطنون أراضي جبلية تبدأ على 15 فرسخا شرق وهران،ينتجون كميات لا بأس بها من التين المجفف،يبيعونها في كل البلاد المغربية (110).أخيرا،تقع أراضي بني غدو على بعد حوالي 20 فرسخا من وهران و تبعد عن الشلف بفرسخين،تجاورها جنوبا جماعة فليتة القريبة من وادي مينا و هي خارج سلطة الأسبان،و بلاد بني شقران غربا (111).

هذه الجماعات،وأغلبها من قبيلة بني عامر الكبيرة،ترتبط بالأسبان بمعاهدات أو اتفاقيات،تُجدّد كل سنة،باستثناء شافع و حميان. تُعرف هذه المعاهدات بتصريحات الآمان. مقابل تصريح الآمان تقدم القبائل و الدواوير الرهائن من أبناء الشيوخ. يبقى هؤلاء لدى الأسبان في وهران إلى غاية دفع الضريبة،و يستلمون تعويضات يومية.يدوم مفعول تصريح الآمان من أوت إلى أوت. تُعرف الضريبة باسم الرومية،و هي تحدد كما يلي: في حوالي شهر جوان من كل سنة يستدعي الحاكم الشخصيات الكبيرة من رؤساء و غيرهم،و يقدر هؤلاء معا مردودية المحاصيل في مختلف المناطق. و بناء على هذا التقدير يحدد الحاكم سعر البيع لكيلة من القمح و كيلة من الشعير. في تجمع بقصر القصبة،يحضره كل النبلاء و الشيوخ و رؤساء جماعات الفلاحين و وجهاء (الزفينة)،و هي ضواحي وهران،من شافع و حميان و الهبرة، و بعد أن تُقدم للحضور وجبة غداء،يقدم الحاكم سعر ضريبة الرومية للسنة المعنية و سعر بيع القمح و الشعير. ثم يستقبل في مكتبه كل شيخ من الشيوخ،و يقدم له كمية من النقود. عند الانصراف يستلم كل واحد منهم كمية من التبغ البرازيلي الذي يقبل عليه هؤلاء الشيوخ كثيرا (112).

لقد تلقى هذا النظام ضربة قاسية عند انسحاب الأسبان من وهران و المرسى الكبير سنة 1708.لم يتمكن هؤلاء الأسبان من إعادة نفوذهم السابق كاملا،عند احتلالهم وهران و المرسى الكبير مجددا سنة 1732. أصبح الأتراك يهيمنون على الأقاليم التي كانت تابعة للإسبان، باستثناء الأراضي الواقعة في جهة السيق،التي كان يزرعها أفراد حميان و سكان كرشتل و الأراضي الواقعة بين سال و وهران، والتي كان يشغلها أفراد شافع و دواوير غمرة (113).ظلت الوضعية كذلك إلى غاية الانسحاب الثاني و النهائي سنة 1792.

القوات العسكرية

اعتمد عروج و اخوته،في نشاطاتهما الأولى في الجزائر،على التطوعين،سواء من القراصنة الذين جاءوا من الشرق أو من الأهالي الذين تعاملوا معهم في بجاية، جيجل، الجزائر، المدية و غيرها.أقام عروج سلطته في مدينة الجزائر اعتمادا على هؤلاء التطوعين،خاصة أولئك الذين جندهم ملك كوكو.لقد أثبتت تجربة التطوعين محدوديتها في مواجهة قوى عديدة أثارها نشاط عروج و أنصاره،مثل الأسبان، الزيانيين، الحفصيين، الثعالبة و غيرهم.لقد أدرك خير الدين أن المشروع الذي يريد تجسيده في الجزائر لن يتحقق اعتمادا على المتطوعين،فاتجه إلى الدولة العثمانية،التي زودته بعدد من جنودها النظاميين أو ما كان يعرف بالإنكشارية،كما سمحت له بتجنيد مثل هؤلاء الإنكشاريين في أقاليمها خاصة في الأناضول. لقد ظلت السلطة التركية في الجزائر تجند هؤلاء الإنكشاريين في أقاليم الدولة العثمانية إلى غاية سقوطها. كانت الإنكشارية العمود الفقري للجيش التركي في الجزائر،إلى جانب الصبايحية و الزواوة و القوم و البحرية.

الإنكشارية

كانت الإنكشارية (الإنجشارية كما كانت تسمى في بلادنا) في الجزائر شبيهة بالإنكشارية العثمانية،التي تعني " يني شيري " بمعنى الجيش الجديد.إنها جيش نظامي بري. أنشأها السلطان العثماني مراد الأول في أواخر القرن الرابع عشر.كانت حكرا على الأطفال المسيحيين الذين كان العثمانيون يستولون عليهم في المقاطعات الأوربية التي سيطروا عليها.كانوا يمنحونهم تربية دينية إسلامية إلى أن يصلوا سن البلوغ فيدمجونهم في الجيش البري أو المشاة.

تكونت النواة الأولى للإنكشارية في الجزائر من الجنود الذين أرسلتهم الدولة العثمانية إلى خير الدين، يقدر البعض عددهم بألفي رجل، إلى جانب التطوعين و المجندين الذين سمحت لهم الدولة العثمانية بالانتقال إلى الجزائر،مقابل أن تصبح الأخيرة ولاية عثمانية.لهذا فإن العناصر التي شكلت الإنكشارية في الجزائر تختلف عن العناصر التي شكلت الإنكشارية العثمانية.ففي حين تتشكل الإنكشارية العثمانية من العناصر غير التركية أساسا، تتشكل الإنكشارية الجزائرية من العناصر التركية أساسا.كان التجنيد يتم في الأراضي العثمانية إما بواسطة مبعوثين من الجزائر و إما بواسطة الدولة العثمانية نفسها و إما بفضل المبادرة الفردية.حول الأسلوب الأخير يقول حمدان خوجة:" بمجرد ما يحصل أحدهم (أحد الإنكشاريين)على بعض المال يسافر إلى تركيا مسقط رأسه، فيأخذ معه ألبسة فاخرة ليظهر في

مظهر الرخاء و الترف أمام بني وطنه و ليعجبهم،إذ ربما هو ابن لأحد العمال أو المزارعين وعندما يعود إلى الجزائر حيث عائلته،يصطحب معه جماعة من سكان بلاده يقدمهم إلى الدفتر،تحت ضمانته يُقبلون في صفوف الميليشا ثم يتولى هو تدريبهم على الجندية،و تعليمهم واجباتهم الجديدة " (114).لقد عمل الإنكشاريون على الحفاظ على (نقاوة) طائفتهم التركية فرفضوا انضمام العناصر الأهلية إليهم.لهذا ظل بقاء و نمو الانكشارية مرهونا بالتجنيد من الأراضي العثمانية،خاصة و أن الأتراك رفضوا الاعتراف بالصفة التركية لأبنائهم من النساء الجزائريات (الكراغلة).هذه الوضعية لا تسمح لأتراك الجزائر بالانفصال التام عن الدولة العثمانية،و قد استعملت هذه الأخيرة الوضعية تلك ورقة ضغط على الجزائر. هذا و كان في إمكان العبيد غير الأتراك أن يصبحوا انكشاريين.

كان الخلاف قائما بين الإنكشارية و البحارة. كان البحارة يرفضون عناصر الإنكشارية على سفنهم و كانت الإنكشارية ترفض البحارة في صفوفها،إلى أن قرر محمد باشا بن صالح رايس سنة 1568 أن جنود الإنكشارية يمكنهم المشاركة في القرصنة كجنود،وبأن القراصنة والأعلاج يمكنهم الانضمام إلى الإنكشارية و الحصول على أجرة،بل حتى اليهود،الذين تخلوا عن دينهم و أصبحوا مسلمين (سلامي كما كانوا يُلقبون)،يمكنهم الانخراط في الإنكشارية،غير أن جعفر باشا منع انخراط هؤلاء السلامي في سنة 1580 نتيجة احتجاجات هذه الأخيرة،و الحجة المعتمدة في هذا المنع هي أن اليهود لا يعتنقون الإسلام إلا ليصبحوا انكشاريين، و من ثمة حماية أنفسهم و حماية إخوانهم من أي اضطهاد (115).على الرغم من أن الإنكشاريين كانوا يسمحون لأبنائهم بالانخراط في الانكشارية إلا أنهم كانوا ينظرون إلى أبنائهم الكراغلة بعين الشك و الريبة،خاصة بعد أن تمردوا عليهم سنة 1629.لقد حرموهم من المسؤوليات السامية.هكذا ظلت الإنكشارية تتكون أساسا من المجندين في الأراضي العثمانية،و من الأعلاج.على الرغم من الضربات التي تلقتها في العديد من المرات إلا أنها ظلت القوة العسكرية الأساسية في الجزائر.

لقد تعرض هايدو لنظام الرتب في الجيش الإنكشاري،في القرن السادس عشر، و قد ظل هذا النظام قائما خلال كل العهد التركي.يمتد سلم الرتب من اليولداش إلى آغا الإنكشارية.اليولداش هو الجندي البسيط ،الذي يمكنه أن يرتقي إلى رتبة الأوضة باشي،الذي يقود مجموعة من اليولداش عدد أفرادها يتراوح بين 10 و 15 أو أكثر. يمكن للأوضة باشي أن يرتقي إلى درجة أو رتبة الأوسطراق.يشكل حوالي 16 ضابطا من رتبة الأوسطراق نوعا من هيئة الأركان،لا يمكن للآغا أن يتخذ أي قرار دون استشارتهم. من بينهم يتم اختيار 4 ضباط يسمى كل منهم البادوشة،اثنان منهم يعاونان الآغا و اثنان يعاونان الباشا. كما يتم اختيار 4 ضباط يلقبون الصولاجية يرافقون الباشا في كل مكان و يتناولون الطعام على مائدته،و يمكن للصولاجي أن يأخذ طعام أسرته من دار السلطان،إن كان متزوجا. و من الضباط الذين لهم دور هام في

الإنكشارية نجد البولكباشي الذي يقود العديد من الرجال، فالحملة التي تتكون من ثلاثمائة إنكشاري مثلا، نجد فيها حوالي 20 أو أكثر من الضباط بهذه الرتبة. هناك ضابط واحد برتبة مورولكباشي، و هو نائما إلى جانب الباشا مع الصولاجية، يتناول طعامه مع الباشا مثلهم و يأخذ طعام أسرته من دار السلطان. يوجد حوالي 20 ضابطا برتبة باباشي، يرافقون الباشا إلى المسجد يوم الجمعة، و أقدمهم هو مفوض الإنكشارية قبل السلطة، و هو الذي يسوي مشاكلها مع الباشا، و هو المكلف بتجهيز المحلات التي تشكل للغزو أو لتحصيل الضرائب. هناك ضابط واحد فقط يسمى الباش بولكباشي، و هو المرشح لوظيفة مساعد الآغا أو نائبه الذي يعرف باسم الكاهية، و هو ينوب عن الآغا في حالة المرض أو التعليق، و يخلفه في حالة العزل أو الوفاة (116).

في قمة هرم الإنكشارية نجد الآغا، آغا الإنكشارية، و هو القائد العام للإنكشارية من الناحية الإدارية و النظامية، له سلطة مطلقة عليها، فهو الذي يوقف الإنكشاري أو يعاقبه أو يوقف أجرته، و في هذا الشأن فإن الباشا نفسه لا يصدر عقوبة ضد الإنكشاري إلا بواسطة الآغا، و يمكن لهذا الأخير أن يُبطل عقوبة صدرت ضد الإنكشاري من القاضي الحنفي. مع هذا فإن الآغا عرضة للتنحية في أية لحظة، ففي أوت 1579 طرد الإنكشاريون مثلا أربعة آغوات لا لشيء إلا لأن هؤلاء الإنكشاريين زعموا أن سيرة نسائهم كانت سيئة قبل زواجهن (117).

يعمل الإنكشاريون، في الحروب، تحت إمرة آغا العرب أو الباشاغا الذي يقود كل الفرق العسكرية من الإنكشارية إلى الصبايحية إلى فرسان المخزن إلى القوم. لهذا فإن آغا العرب هو القائد العام للقوات البرية، البحرية وحدها هي التي لها نظام خاص فلا تخضع لآغا العرب.

كانت العزوبة مشجّعة في صفوف الإنكشارية بطرق مختلفة، كما كانت الحياة الجماعية مشجعة كذلك. لا شك في أن الهدف من تشجيع العزوبة هو جعل الإنكشاري متفرغا لعمله العسكري. يطلب اليولداش رخصة من الكاهية لكي يتزوج، و قد تُرفض الرخصة إذا كان اليولداش من الجنود الجدد في البلاد (118). و حين يتزوج الزبنطوط (الأعزب) يفقد حقه في الحصول على طعامه من الثكنة (119). أدى تشجيع العزوبة في أوساط الإنكشارية إلى انتشار اللواط و كثرة العواهر بحيث تحتم على السلطة أن تنظم نشاطهن و أن تغض الطرف عن اللواط. إذا أرادت فتاة من فتيات الأهالي أن تصبح عاهرة تسجل اسمها في سجلات المزوار، و ليس لوالديها حق عليها، إذ تصبح امرأة الجنود، و لا يمكنها أن تتعامل مع الأهالي إلا بإذن المزوار. حين يكون للعساكر المال الكافي يكترون غرفة في الفندق و فيها يستقبلون العواهر. يلجأ اليولداش إلى الأطفال، و كثيرا ما يأخذون الطفل إلى الثكنة ليصبح في متناول العسكر، مع العلم أن الثكنات مناطق حرة لا تدخلها الحكومة. إذا تمكن اليولداش من الغلام فإنه يدخله إلى أقرب بيت ليهودي ليقضي حاجته منه، دون أن يقلقه أحد (120).

كانت الأجور تتراوح بين ثلاث دوبلات و خمس و عشرين دوبلة ،في القرن السادس عشر ،و غالبا ما كانت تُرفع كلما جاء حاكم جديد. بل كثيرا ما تطيح الإنكشارية بحاكم حتى يأتي آخر فيرفع أجورها.كل النظام الجبائي قائم على أساس توفير الأموال لدفع هذه الأجور.كانت الترقية في الإنكشارية تخضع للأقدمية أساسا.لم تكن هناك تدريبات كبيرة.لكن الانكشارية كانت تملك أحسن الأسلحة ،بالمقارنة مع الفرق الحربية الأخرى. وكانت تملك الدفعية وحدها . كان الجنود المختصون في الدفعية يعرفون باسم الطبجية.

النوبات و المحلات

تقسم الخدمة في الإنكشارية إلى خدمة في النوبة أو الحامية و خدمة في المحلة أوالطابور. تُشكل المحلات إما في الحالات غير العادية أو الطارئة ،بمناسبة تمرد القبائل أومواجهة القوى الخارجية ،و إما في الحالات العادية ،بمناسبة تحصيل الجباية.تتكون المحلة و النوبة من صفرات (طاولات) تتكون كل منها من 15 إلى حوالي 20 رجلا.

تخرج المحلات المركزية من مدينة الجزائر ،إما في خرجات استثنائية للقضاء على التمردات التي يعجز البايات عن إخمادها ،و في هذه الحالة يقودها الآغا أغسي أو آغا العرب، واما في خرجات دورية ،بمناسبة تحصيل الجباية.ففي شهر أفريل من كل سنة تتجمع المحلات في عين الربط، بالقرب من العاصمة ، و هي ثلاث ،يقود كلا منها آغا (بمعنى قائد)، لتنطلق إلى البايليكات الثلاثة.تتكون محلة قسنطينة من 60 خيمة ،تشكل كل واحدة منها صفرة متكونة من 16 رجلا تقريبا.و تدوم مهمتها حوالي ستة أشهر. تتكون محلة الغرب من 80 خيمة ،و تعود بعد أربعة أشهر.(121) أما محلة التيطري فتتكون من 15 خيمة فقط و تعود بعد حوالي الشهرين.في حالة ما إذا أبقى الباي المحلة أكثر من المدة المقررة، فإنه يكون مسؤولا عن مصاريفها. يحصل اليولداش الذين يشاركون في المحلات على غنائم البر ،أما اليولداش الذين يشاركون في القرصنة التي تنشط في الربيع فيحصلون على غنائم البحر.

نقدم هنا محلة التيطري كنموذج للمحلات الدورية أو العادية:

تتكون محلة التيطري من العناصر التالية :

1 ـ شاوش واحد من شواش دار الباشا ،يقوم بدور محافظ يمثل الحكومة.

2 ـ الآغا، أو قائد المحلة و كاهيته أو نائبه.

3 ـ ضابط واحد برتبة باش بولكباشي (ممثل الضباط برتبة بولكباشي)،و آخر برتبة أوضة باشي و وكيل حرج لكل خيمة، و هو مسؤول عن تموين جنود الخيمة أو الصفرة.

4 ـ 15 خيمة كل منها تضم حوالي 14 جنديا و عزارين، و هما خادمان، و طباخا وتشراكا أو صبيا مكلفا بالخدمة الداخلية للخيمة.

تنطلق المحلة من عين الربط ، يرافقها الباي أو خليفته و تتبع السبيل التالي
1 ـ في المرحلة الأولى تصل قوناق (موقع تابع للدولة) فندق الحميز.
2 ـ المرحلة الثانية تصل قوناق جسر بني هني.
3 ـ المرحلة الثالثة تصل قوناق ذراع البغل.
4 ـ المرحلة الرابعة تصل قوناق كرمة الحيط في أراضي قبيلة عريب.
5 ـ المرحلة الخامسة تصل قوناق سور الغزلان،أين تشرع في تحصيل الجباية.

من سور الغزلان تتجه المحلة إلى وادي فرشة حيث تخيم،و في اليوم التالي تخيم بين العناورة و أولاد مريم،و في اليوم الموالي تخيم في شلالة لدى العناورة، و في اليوم الموالي تخيم في عين الشارف لدى أولاد علان، و في اليوم الموالي تخيم لدى الربايع، ثم في مرجة أولاد بيد،لتصل في نفس اليوم إلى البرواقية. يدخل الباي، بعد هذه المسيرة إلى جنان الباي في المدية،بينما تعود المحلة بقيادة الآغا إلى الجزائر،عبر أقاليم حسن بن علي،بني بويعقوب، وادي الاخرة و حوش ميمون. في السنة التي يأخذ فيها الخليفة (خليفة الباي) العنوش وحده إلى الجزائر،فإنه يقود المحلة إلى غاية سور الغزلان، و يتقدم الباي مصحوبا بصبايحيته مخازنيته من المدية إلى ذلك الموقع،أين يستلم قيادة المحلة بنفسه و يعود إلى المدية رفقتها (122).

يلتزم الباي، خلال مدة المحلة، بتقديم مكافأة من 2 بوجو (3.60 فرنك) لكل جندي شهريا.أما قادة المحلة فيستلمون، عند عودتهم إلى الجزائر،ما يعرف باسم " الكسور "، وكانت الكسور هذه سنة 1773 كما يلي: 72 ريالا (43.2 فرنك) للآغا 39 للكاهية،27 للباش بولكباشي، 60 لخوجة الآغا،38 لخوجة الكاهية، 25 للعاشي باشي (رئيس الطباخين)، 12 لطباخ الكاهية،12.5 لشاوش الكاهية،25.5 لقائد حاملي السماء، 15 لكل حامل ماء، 10 لشاوش العسكر، 10 لوكيل حرج الآغا، 5 لكل من وكيل حرج الكاهية ووكيل حرج بولكباشي و وكيل حرج شاوش العسكر و الكباجي (الكلف بالكلاب) و قهواجي الآغا و القيم على السلاح و الحارس و حلاق الآغا و الجراح. هذا على سبيل المثال لا الحصر (123).

تتواجد النوبات أو الحاميات في المدن الرئيسية، و هي مكلفة بضمان أمن المدينة أو الموقع المكلفة بحراسته، لكل نوبة قائد يعرف باسم آغا النوبة، و يُغيّر جنود النوبة كل سنة.كل انكشاري يعمل سنة في مدينة الجزائر و سنة أخرى خارجها ليستريح السنة الثالثة. و في هذه الحالة الأخيرة يعرف باسم الكزورجي، أي في عطلة مؤقتة،
و يبقى في الثكنة في مدينة الجزائر،أين يستمر في استلام راتبه و طعامه كذلك.إن كان زبنطوطا. يمكن استدعاء الكزورجي في الحالات الاستثنائية (124).

نجد في منطقة دار السلطان،في أواخر العهد التركي،ثلاث نوبات هي: نوبة مدينة الجزائر،و هي أكبر النوبات على الإطلاق.تتكون من 345 انكشاريا عاملا و عددا مماثلا تحت

التصرف و آخر في حالة العطلة المؤقتة و نوبتين حديثتين هما نوبتا تيزي وزو التي كانت تضم 50 رجلا، خفض عددهم سنة 1830 إلى 29 رجلا، و نوبة برج بوغني الذي أنشئ حوالي سنة 1723، و كانت تضم 100 إنكشاري، خفض عددهم سنة 1830 إلى 62 رجلا (125). و إذا عدنا إلى ما ذكرناه سابقا، نجد أن الأتراك قد تخلوا عن نوبات بوشك و شرشال و دلس. في بايليك الشرق، نجد مجموعة من النوبات لا يبلغ عدد أفرادها مجتمعين عدد أفراد نوبة مدينة الجزائر و حدها. هذه النوبات هي، في سنة 1830: نوبة قسنطينة، بها 5 صفرات تضم 73 انكشاريا، نوبة عنابة، بها 5 صفرات تضم 71 رجلا، نوبة بسكرة بها 4 صفارت تضم 72 رجلا، نوبة بجاية، بها 3 صفرات تضم 44 رجلا، نوبة تبسة تتكون من صفرتين تضمان 29 رجلا، نوبة جيجل تتكون من صفرتين تضمان 29 رجلا، نوبة حمزة، تتكون من صفرة واحدة تضم 15 رجلا (126). هذا و كان الأتراك قد أقاموا نوبة في المسيلة ثم تخلوا عنها، كما أقاموا أخرى في برج بوعريرج ثم تخلوا عنها، كما أقاموا أخرى في القل ثم تخلوا عنها أثناء تمرد ابن الأحرش. لعل أقدم نوبة في بايليك الشرق هي نوبة جيجل و قد أقيمت في القرن السادس عشر، مثلها مثل باقي نوبات البايليك باستثناء نوبة تبسة. لقد أقيمت هذه الأخيرة في وسط القرن السابع عشر، و ذلك بطلب من سكان المدينة الذين كانوا يتناحرون في صفين، و كانت النوبة تتكون في البداية من 40 إنكشاريا (127). كانت توجد في بايليك الغرب 5 نوبات سنة 1830، أكبرها هي نوبة وهران، و هي أحدثها تتكون من 10 صفرات تضم 156 رجلا (128)، تأتي في المرتبة الثانية بعد نوبة مدينة الجزائر. لا شك في أن الأهمية التي أعطيت لوهران ترتبط بكثرة القلاع و الحصون التي تركها الأسبان و راءهم سنة 1792، و بأهمية وهران الاستراتيجية. باقي نوبات البايليك صغيرة، فنوبة مستغانم تضم صفرتين و كذلك نوبة زمورة، نوبة معسكر تضم ثلاث صفرات، و نوبة تلمسان تضم خمس صفرات (129). تخلى الأتراك عن نوبات مازونة و تنس و مليانة سنة 1830. في أقليم بايليك التيطري، نجد نوبتين، نوبة المدية المتكونة من 5 صفرات، و تضم أكبر عدد من رجال الإنكشارية، و نوبة سور الغزلان المتكونة من صفرتين و تضم 30 إنكشاريا (130). هذا بالإضافة إلى الجنود الاحتياطيين من الزبنطوط الذين يشكلون فرقة نخبة متشكلة من الرجال الذين تأقلموا مع الحرب و تعودوا عليها على أتعابها، و هم تحت تصرف الباي. و كان عددهم في عهد آخر البايات بومزراق، ما بين 120 و 130 (131). كان هؤلاء الزبنطوط يقيمون في البرواقية.

تخضع الحاميات للأوامر المركزية، فلا يمكن للبايات استخدامها إلا في الحالات الاستثنائية، بعد الحصول على موافقة العاصمة. بهذه الوضعية تضمن الحاميات للسلطة المركزية قوة ضاربة في البايليكات." عندما يريد الباشا عزل البايات، يرسل تعليماته إلى آغا

المركز أو آغا الحامية..فيضع حدا لسلطته و يلقي عليه القبض في بعض الأحيان إلى أن يأتي خلفه، و ذلك مخافة أن يهرب "، كما يقول حمدان خوجة (132).

ثكنات الانكشارية في مدينة الجزائر

تتمركز الإنكشارية العاملة في النوبات أو المحلات أو التي هي في حالة الاستراحة في مدينة الجزائر.كانت تسكن ثكنات أو دورا عديدة في هذه المدينة.كل ثكنة مقسمة إلى غرف أو مراقد تأوي الجنود،كل مرقد يملك عقارات يسيرها وكيل يعين من طرف جماعة المرقد.هناك مراقد فقيرة و مراقد غنية، ويعود هذا الاختلاف إلى كون أعضاء المراقد يقدّمون هبات من العقارات إلى رفاقهم القدامى لما يبلغون درجة راقية في المسؤولية،فتكون النتيجة أن مراقد لها عقارات عديدة و مراقد لها القليل من العقارات (133).

ثكنات الجزائر هي باب عزون أو " دار الإنجشارية متاع اللبانجية "،أو الثكنة الكبيرة،و هي أهم الثكنات، يُعتقد أنها بُنيت سنة **1548**.كان يسكنها الجنود العزاب و كانت موطن التمردات الدائمة.سكنها عدد كبير من الدايات والوظفين الكبار،قبل توليهم مسؤولياتهم. ثكنة الخراطين الواقعة في طريق الخراطين، و كانت تعرف باسم الطريق الذي تقع عليه:" دار الإنجشارية متاع الخراطين "، يُعتقد أنها أقدم الثكنات و أنها بُنيت في عهد خير الدين. ثكنة المقرون التي بنيت في عهد علج علي(الفرطاس) و قد اختلف اسمها من وقت لأخر، من المقرين إلى المقريين إلى دار المقرون، كما اختُلف في نسبة اسمها. يقول البعض أنها سُميت كذلك لأنها كانت مسكونة من طرف شيوخ الإنكشارية الذين كانوا يعتمدون في غذائهم على المكرونة. ثكنة القناصل أو " دار الإنجشارية متاع الدروج أو متاع الدواميس ". ثكنة أسطة موسى، نسبة لأسطة موسى الذي يُنسب إليه بناء قناة الحامة، و كان يسكن هذه الثكنة،كما سميت باسم " دار الإنجشارية متاع التزيرة " لأنها قريبة من باب البحرية.الثكنة القديمة و الثكنة الجديدة،و كان انكشاريو هذه الأخيرة يعرفون باسم (دايلرن) أو أهل الخير (134).

يُضاف إلى هذه الثكنات (دار النحاس) أو دار البارود،و (دار الخل) التي كان يُسجن فيها الأتراك و يُشنقون بعيدا عن أعين الأهالي. لما نُقل مقر الحكومة إلى القصبة استُعملت دار أخرى سجنا للعسكريين و هي دار سركاجي التي سماها الفرنسيون بربروس (135).

الصبايحية

يقسم الصبايحية ،و هم جنود خيالة، إلى صبايحية أتراك و صبايحية أهالي يذكر هايدو، في أواخر القرن السادس عشر، أن الصبايحية من الأتراك يتواجدون في دار السلطان و في البايليكات .يلازم صبايحية دار السلطان بيوتهم متمتعين بأجرة. يشتركون في الحرب ممتطين خيولهم حين يسير الباشا نفسه إلى هذه الحرب. مهمتهم الأساسية هي الدفاع عن مدينة الجزائر. يبلغ عددهم حوالي الخمسمائة، وهم في أغلبيتهم شيوخ، منهم الأتراك بالأصل و منهم الأعلاج، و يوجد بينهم من كانوا يشغلون مسؤولية آغا الإنكشارية (136).غير أن بارادي يذكر، في القرن الثامن عشر، أن الصبايحية الأتراك لا يُستعملون أبدا في مدينة الجزائر، و أنهم يوجدون لدى البايات فقط ، ينتقلون من خدمة فرق الإنكشارية المشاة إلى هيكل الصبايحية بموجب رخصة و أن قائدهم العام يعرف باسم باشاغا الصبايحية، الذي يمكث دائما في مدينة الجزائر، و هو تركي الأصل على الدوام (137). هنا و كنا رأينا أن لباي التيطري مثلا حوالي خمسين صبايحيا من الأتراك، يتبعونه في كل خرجاته ويستلمون أجرة مثل الأنكشاريين القدامى، أسلحتهم يوفرها الباي و كذلك خيولهم.

الصنف الثاني من الصبايحية يتكون من الأهالي، الذين ينتمون إلى العائلات الكبيرة، يجندون في خدمة آغا العرب. يوفر الصبايحي الأهلي حصانه وبندقيته بنفسه، بل و يدفع حوالي مائة بوجو لكي يُقبل في خدمة الآغا. يُدمج الصبايحي الأهلي مع فرسان المخزن و يتمتع مثلهم بالإعفاء من الرسوم الشخصية و أعمال السخرة (138). من القبائل التي كانت توفر الصبايحية الأهالي، في أواخر العهد التركي، نذكر قبيلة بني سليمان الكبيرة في دار السلطان، و قبيلة أولاد دبار، و قبيلة أولاد عثمان، و قبيلة أولاد بوعيش التي وفرت سنة 1825 حوالي أربعمائة صبايحي لوحدها. كل هذه القبائل الأخيرة في بايليك التيطري. من قبائل بايليك الشرق نذكر قبيلة أولا عبد النور التي توفر حوالي ألف صبايحي، و قبيلة التلاغمة التي توفر حوالي المائة صبايحي. و في بايليك الغرب، نذكر قبيلة ذوي حسن، و هاشم الشلف (صبايحية الشلف) (139).

الـــزواوة

هيكل الزواوة أخذ اسمه من قبائل الزواوة في جرجرة، حيث جُند الجنود الأوائل من هــذا الصنف. يتكون هـيكل الـزواوة من الأهالي فقـط ،جنوده يعملون مؤقتا و يأتون من

جهات مختلفة من البلاد مثل بايليك التيطري، الذي اشتهر فيه زواوة قبائل معتيف و أولاد سيدي عمر من أولاد علان. الزواوة جنود مشاة، يقومون بالحراسة في مدينة الجزائر، خاصة في الأبراج المجاورة لها، و لا يتقاضون راتبا إلا أثناء الخدمة و لهذا قيل عنهم: " الزواوة مُقدّمون في البلاء و مُؤخرون في الراتب " (140) . يذكر هايدو أن الأتراك كانوا يستعملون هؤلاء الزواوة في الحرب عادة، كما يستعملونهم في الحاميات، كما هو الحال في تلمسان، مستغانم، بسكرة، قسنطينة، عنابة و غيرها. أما في مدينة الجزائر، فإن ما يقرب ثلث جنود الحاميات كانوا من الزواوة، قائدهم آغا خاضع لآغا الإنكشارية. لأن راتبهم كان متدنيا، كانت نساؤهم تحتل غرفا مُكتراة في مدينة الجزائر، و غالبا ما تعمل نساجات أو في بيوت الحضر أو بيوت العلجات الغنيات (141).

يعود تاريخ إنشاء هيكل الزواوة إلى عهد حسن باشا بن خير الدين، الذي أقام علاقات حسنة بملك كوكو أو ملك قبائل الزواوة. لاشك في أن حسن باشا كان يريد الحد من نفوذ الإنكشارية، بإنشائه فرق الزواوة. و كان هذا التصرف سببا في تمرد الإنكشارية عليه سنة 1561 ـ كما رأينا سابقا ـ غير أنه حقق انتصارا عليها، و لما حاول إدخال هذه الفرق إليها تمردت عليه و أسقطته. كان الزواوة الأداة التي تستعمل ضد تمردات هذه الإنكشارية، كما فعل خضر باشا سنة 1596، و كما فعل غيره من الحكام.

فرسان المخزن

يُشار إلى فرسان المخزن بأسماء مختلفة منها: المخازنية و الزمول (المفرد زمالة) و الدواير (المفرد دايرة). يشكل فرسان المخزن القوة الأساسية للإدارة التركية في الأرياف، فهم يساهمون بالقسط الأكبر في دعمها و بقائها.

رجل المخزن، بالمعنى الحرفي للكلمة، هو أداة أو عون (الخزنة) أو الجباية، أي الرجل الذي يساهم في القوة العمومية التي تحصل الجباية، ولكنه جندي في الوقت نفسه. لقد توسعت الكلمة لتعني السلطة التركية برمتها (142). تعرف القبائل التي توفر المخازنية باسم قبائل المخزن. تتمثل حقوق فارس المخزن في الاستفادة من أراضي الدولة (البايليك) و حصوله على حصان و بندقية، يعودان للدولة عند وفاته، إذا لم يكن له من يخلفه من أهله الأقربين، و هو الشيء الذي لا يحدث إلا نادرا، كما يستلم رجل المخزن، حين العمل في الحملات، على أجرة تساوي أجرة اليولداش الإنكشاري كما يحصل على الغنائم. يُعفى بالكامل من أعمال السخرة والجباية الشخصية. مقابل هذه الامتيازات يقوم فارس المخزن، أو المخازني، بتقديم خدمات متعددة، و يلعب الدور الرئيسي في شؤون الحرب، فهو الذي

يقوم بقمع تمرد قبائل الرعية، كما يقوم بمساعدة مصالح الجباية في عمليات الإحصاء، و في عمليات التحصيل (143)

كان فرسان المخزن يتواجدون مع قبائلهم في المناطق أو النقاط الاستراتيجية حول الأبراج و الحصون لدعم الحاميات التركية،كما هو الشأن بالنسبة لعمراوة بالقرب من برج سباو،و بالقرب من الجسور و الممرات، مثل عريب بالقرب من ممر سور الغزلان وبوحلوان بالقرب من مضيق وادي جر،و دايرة الزناتية التي تراقب ممر رأس العقبة بين قالمة و قسنطينة، و بالقرب من الأسواق و معابر البايليك،مثل سوق العثمانية الذي تراقبه دايرة الصحراوية، ومخزن بوصلاح، وعند محطات القوناق الموجودة على الطرق الرئيسية، مثل مخزن بوحلوان، ومخزن أولاد السحاري، و عزارة و زمالة الحاج على الطريق الرابط بين الجزائر ووهران،أو مخزن الزواتنة و مخزن الغرازلة و دايرة بوصلاح على الطريق السلطاني الرابط بين الجزائر و قسنطينة، و في النقاط التي تمر بها المحلات الفصلية أو المحلات التي تُسيّر لتأديب المتمردين، و في النقاط المهددة من الهجمات الإسبانية و المغربية، مثل السهول الوهرانية التي استقرت فيها الدواير و الزمالة (144).

إذا انطلقنا مما أورده لويس رين من إحصاءات حول الجماعات المحاربة سنة 1830، و عددها 89 جماعة،19 منها في دار السلطان و 9 في بايليك التيطري و 36 في بايليك الغرب و 25 في بايليك الشرق (145)،و إذا استثنينا جماعات الإنكشارية و الصبايحية، فإننا نجد أن الجماعات المخزنية يبلغ عددها حوالي الستين جماعة.

القـــــوم

القوم مقاتلون فرسان بصفة عامة، توفرهم القبائل و خاصة القبائل الحليفة للأتراك،مثل المقاتلين الذين يقودهم أولاد مختار،و مقاتلي الموايدة و التيطري في بايليك التيطري،و المقاتلين الذين يقودهم أولاد أمقران أثناء فترات السلم مع الأتراك و مقاتلي فرجيوة،و القبائل الرعية الخ. وهؤلاء القوم الذين يشاركون في المعارك،إلى جانب الأتراك أو القوات النظامية،لا يحصلون إلا على الغنائم.

البـــحـــريـــة

البحرية هي القوة الأولى التي تشكلت حولها القوات البرية في الجزائر.تكونت نواتها الأولى من الذين جاء بهم الاخوة بربروس من بحارة و سفن من المشرق. بعد أن أقام الاخوة

سلطتهم في الجزائر اهتموا كثيرا بتنمية و تطوير هذه النواة من الناحية المادية و الناحية البشرية، إلى أن أصبحت الجزائر تملك أسطولا لا يستهان به في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي في القرن الأول من الوجود التركي في الجزائر، لكن تطور الأساطيل الأوروبية الناجم عن النهضة ثم الثورة الصناعية قلل من أهمية هذا الأسطول.

بخلاف السفن الكبيرة التي اعتمدتها البلدان الأوروبية في الرحلات التي كانت تنظمها، بعد الاكتشافات الجغرافية الكبرى، لأجل استعمار القارتين الأمريكية والأسترالية و إقامة المراكز التجارية على سواحل قارتي إفريقيا و آسيا، كانت البحرية الجزائرية، شأنها شأن بحريات بلدان المغرب، تعتمد على أسطول له مميزاته الخاصة التي حددتها وظيفتاه المتمثلتان في القرصنة و الدفاع عن السواحل. إذا كانت الوظيفة الأولى قد استمر الأسطول بتأديتها إلى نهاية السلطة التركية في الجزائر، فإن الوظيفة الثانية لم يعد قادرا على تأديتها بشكل ناجع بسبب التطور الهائل الذي عرفته البحرية الحربية الأوروبية.

لقد عدّد مولاي بلحميسي مميزات هذا الأسطول في النقاط التالية :

1 ـ الاعتماد على السفن الصالحة للقرصنة و الدفاع عن السواحل و ذلك بالتخلي عن السفن الضخمة البطيئة التي لا تصلح للمناورة أثناء المعركة.

2 ـ اعتماد أولوية السرعة.

3 ـ التخلي عن المدافع الضخمة.

4 ـ الاهتمام بالكفاءة الهجومية، التي يجب أن تكون أعلى من كفاءة العدو، سواء تعلق الأمر بالرجال أو بالسلاح.

السفن الصالحة لمثل هذا الأسطول هي الغليوطات (146). و الغليوطة هي مركب لا يتعدى عدد مصاطبه 25 و مدافعها حوالي 20 و لا يتجاوز عدد بحارتها الثلاثين.

مـــصـادر الأســـطـــول

كانت مصادر هذا الأسطول، من السفن و العتاد البحري، متعددة، منها ما هو محلي ومنها ما يأتي من القرصنة و الهبات، خاصة من الدولة العثمانية، و البلدان الأوروبية بما تقدمه من إتاوات في شكل عتاد.

الكثير من قطع الأسطول كانت تُبنى في الجزائر. استعمل في بنائها أخشاب من منطقة شرشال إلى أن نفذت، في أواسط القرن السابع عشر، فتم تعويضها بأخشاب غابات بجاية. في سنة 1702 توصل الأتراك إلى اتفاق مع القرانيين في مجانة، تعهد فيه الأخيرون بتوفير الأخشاب مقابل حصولهم على أراضي زراعية في المناطق الواقعة بين سطيف و وادي زناتي. أنشئت مصلحة خاصة بهذه الأخشاب عُرفت باسم (الكراستة)، كان مقرها

بجاية و ضُمت إليها جيجل و القل (147). كلمة الكراستة التركية تعني الألواح و غيرها من القطع الخشبية.

أجود الأخشاب هي أخشاب الزان التي تتوفر، بصفة خاصة، لدى بني فوغال غرب مدينة جيجل، لكن بني فوغال كانوا مستقلين عن السلطة التركية. لجأ الأتراك إلى المرابطين لإقامة علاقات ودية معهم للحصول على ما يلزم من الأخشاب، منذ 1750. طلب الأتراك عون القرانيين من ذرية المرابط محمد القراني، الذي كان قد تعاون معهم في بجاية، بعد الأزمة التي عرفتها إمارة بني عباس في مطلع القرن السابع عشر. لقد حثّوا على سي الحاج المكي بن الشيخ عبد القادر أمقران بن محمد القراني الإقامة في جيجل. تمكن سي الحاج أحمد المكي، الذي أصبح مرابط جيجل، بدعم من الأتراك، من إقامة علاقات حسنة مع حبيلس بن عون قائد بني فوغال. و بذلك أمكن للأتراك الحصول على الأخشاب مقابل تقديم أراضي لبني فوغال في الدهحشة وطلحة و حموية و أولاد عنان في فرجيوة، و أراضي أخرى في ضواحي قالمة، حيث لازالت منطقة كاملة تحمل اسم بني فوغال إلى اليوم (148).

في السنوات الأخيرة من حياة السلطة التركية، تخلى الأتراك عن استغلال الغابات واحتكار التجارة، التي تتم في بجاية مع سكان بلاد القبائل، للدار اليهودية للتجارة في مدينة الجزائر، التي التزمت بدفع إتاوة كبيرة للدايات. لكن اليهود لم يتعاملوا مع سكان القبائل إلا بواسطة وكلاء (149). في عهد الداي حسين، وقع خلاف كبير بين بني فوغال و الوكالة اليهودية، فقد بقيت كمية معتبرة من الأخشاب، طلبتها الدولة، متراكمة على شاطئ تازة، لأن بني فوغال رفضوا تسليمها بسبب عدم دفع ثمنها من طرف وكيل اليهودي بكري، بالشكل الذي تعوّد عليه الجميع وبالسعر المناسب (150). و لعل ذلك كان سببا من الأسباب التي جعلت الداي المذكور يقرر استغلال غابات الزان في جبال تامغوت التابعة لبني جناد في بلاد القبائل الكبرى، فكان هذا القرار مدعاة لاصطدام بني جناد بالقوات التركية، كما رأينا سابقا.

لقد استعمل الأتراك، في تهيئة القطع الكبيرة لسفنهم في باب الوادي، و القطع الصغيرة في باب عزون، مختلف الاختصاصيين من الأهالي و من الأوربيين، سواء من الأسرى أو من الذين جاءوا إلى الجزائر لهذا الغرض. هناك قطع عديدة كانت تستورد مثل المسامير، المراسي، الأشرعة، الحبال و بعض أنواع الأخشاب غير المتوفرة في الجزائر. كما كانت الغنائم التي كان يحصل عليها القراصنة موردا آخر لما تحتاجه البحرية، و كذلك الإتاوات العينية التي تدفعها بلدان أوربا مقابل السلم. كانت السويد و الدانمارك تقدمان خشب الشمال، و كانت هولندا تقدم الأخشاب و الأشرعة و تجهيزات مختلفة، وكانت دول عديدة تقدم المدافع والبارود و الذخيرة و الحديد و الصلب و الكبريت و ملح البارود و الزفت الخ. هذا إضافة إلى الهبات التي يقدمها السلطان العثماني. كما كانت صناعة السفن تتغذى على ما يأتي به المهربون

و ما يجلبه اليهود الجزائريون المختصون في الإتيان بأسلحة من هولندا. و كان تجار ليفورنة يوفرون عتادا متنوعا. و كانت (دارالبارود)، بالقرب من باب عزون، و هي تتوفر على فرن واحد، تصنع مدافع (151).

كان الرياس يحصلون، من جهتهم، على السفن المختلفة في عرض البحر. منها ما كان يعاد إلى أصحابه مقابل الفدية أو نتيجة تسويات سياسية، و منها ما كان يُضم إلى الأسطول. في الفترة ما بين 1613 و 1621، وقعت أكثر من ثمانمائة سفينة بين أيديهم و في الفترة ما بين 1630 و 1634 استولوا على 80 سفينة فرنسية، كان على متنها 1331 شخصا، أصبحوا من الأسرى أو العبيد. في سنة 1681 فقط استولى هؤلاء الرياس على حوالي 30 سفينة فرنسية، على متنها ثلاثمائة رجل. في الفترة ما بين 1765 و 1799 استولوا على 376 سفينة، و في الفترة ما بين 1817 و 1827 استولوا على 26 سفينة. السفن المُستولى عليها و لا تقع تسوية أمرها مع أصحابها و لا تُضم إلى البحرية الجزائرية، تُباع من طرف اليهود في أوربا أو تباع من طرف القناصل (152).

مثلما كان الرياس يستولون على سفن البلدان الأوربية كانوا يفقدون سفنهم هم كذلك. في عام 1620 استولى بوليو بيرساك على أربع بوارج جزائرية، و في السنة الموالية أغرق ثلاثا منها. في شهر أوت من سنة 1665 أغرق الدوق دوبوفور سفينتين و استولى على ثلاث (153) الخ. كان الأسطول الجزائري يفقد من قطعه في المعارك التي تنشب نتيجة حملات الأساطيل الأوربية على السواحل الجزائرية، و على مدينة الجزائر بالخصوص، كما كان يفقد من قطعه في المعارك التي كان يشارك فيها إلى جانب الأسطول العثماني، كما هو الشأن في معركة ليبانطو.

تـــطـــور الأســـطـــول

من الصعب تحديد حجم الأسطول الجزائري في العهد التركي، في غياب إحصائيات دقيقة تسمح بتتبع تطوره، و الحركة السريعة التي عرفها نتيجة أعمال القرصنة و المعارك التي خاضها، و التي كانت تؤدي إلى استئصاله أحيانا.

كانت النواة الأولى لهذا الأسطول السفينتان اللتان جاء على متنهما عروج و إخوته و بحارته من المشرق إلى المغرب، في بداية القرن السادس عشر. في سنة 1509 أصبح تحت تصرف عروج حوالي ثماني قطع بحرية. في سنة 1516 وظف حوالي 16 قطعة بحرية للانتقال من جيجل إلى مدينة الجزائر. و كانت تلك القطع تابعة له و لأصدقائه. تذكر بعض المصادر أن عدد قطع الأسطول الجزائري قد بلغت حوالي 60 قطعة سنة 1530، لكن خير

الدين عند عودته من تونس،التي غزاها شارل كان سنة 1535 مستعملا حوالي 450 قطعة بحرية،لم يكن يملك سوى تسع قطع،فأمر ببناء ثماني قطع جديدة على جناح السرعة (154).

كانت حملة شارل كان على مدينة الجزائر،سنة 1541،ضربة كبيرة للأسطول التركي،الذي لم يظهر في مواجهتها، وكنا رأينا كيف عمل حسن آغا على إعادة بناء الأسطول انطلاقا من السفن الإسبانية الخمس التي أعيد تعويمها،بعد أن غرقت في سواحل مدينة الجزائر،و كيف أرسل المال إلى ملك باديس يطلب بناء سفن جديدة.في سنة 1553،جهز صالح رايس 40 قطعة بحرية،سار بها في حملة على جزيرة ميورقة و تمكن من الاستيلاء على ست سفن برتغالية.استعمل حسن باشا بن خير الدين أسطولا من 40 قطعة في حملته ضد ملك فاس سنة 1557،كما استعمل 32 قطعة ضد الأسبان في وهران، و شارك في حصار مالطة سنة 1565 بحوالي 28 قطعة فقط ،تاركا بقية الأسطول في ميناء الجزائر.كان علج علي يقود حوالي ستين قطعة بحرية في معركة ليبانطو (155) من 250 سفينة كان يتكون منها الأسطول العثماني،الذي واجه 300 سفينة من سفن الحلف المقدس. يذكر هايدو أن أسطول الأتراك كان يتكون من 35 غليوطة و 25 فرقاطة سنة 1581.

لقد عرف الأسطول تطورا نوعيا في مطلع القرن السابع عشر نتيجة السفن المستديرة التي أدخلت إليه بفضل القرصان الفلندي سيمون دونسا،من جهة،و بفضل الهجرات الأندلسية وخاصة هجرات سنة 1609،من جهة أخرى.لقد أصبح الرياس قادرين على الولوج إلى المحيط الأطلسي لمراقبة طرق الهند و أمريكا.و لقد وصلوا إلى ماديرة و إسلندا و إنجلترا و غيرها من بلدان أوربا الغربية.

لقد أورد بلحميسي،اعتمادا على الأب دان،أن ميناء الجزائر كان به سنة 1630ما لا يقل عن سبعين سفينة (156).و هذا الرقم هو أعلى رقم عرفته البحرية الجزائرية على مدى ثلاثة قرون من وجودها.في سنة 1675،بعد معركة ليبانطو،لم تعد الجزائر تملك إلا ثلاث سفن وحوالي 30 بارجة حربية من أحجام مختلفة،أكبرها تحمل خمسين مدفعا و أصغرها تحمل عشرة مدافع (157).في سنة 1724،كان هناك 24 بارجة للقرصنة، منها ما يحمل 50 مدفعا ومنها ما يحمل عشرة مدافع،إضافة إلى بعض الغليوطات المسلحة (158). و حسب الدراسة التي انجزها ألبير دو فولكس،تطور الأسطول هنا ، من حيث عدد سفنه،كما يلي :

- 17 سفينة تحمل 100 مدفع و 127 قاذفة حجارة في سنة 1737.
- 18 سفينة تحمل 177 مدفعا و 251 قاذفة حجارة في سنة 1741.
- 12 سفينة تحمل 272 مدفعا و 50 قاذفة حجارة في سنة 1750
- 47 سفينة تحمل 58 مدفعا في سنة 1762.
- 13 سفينة تحمل 196 مدفعا في سنة 1770.

- 9 سفن تحمل 38 مدفعا في سنة 1775.
- 16 سفينة تحمل 335 مدفعا سنة 1800.
- 14 سفينة تحمل 320 مدفعا في سنة 1820. (159)

توضح هذه الأرقام التقهقر الذي عرفه الأسطول خلال القرن الثامن عشر،كما توضح تخلي السفن عن قاذفات الأحجار التي لم تعد لها أية فائدة أمام تطور البحرية الأوربية،كما توضح الضعف من حيث الدفعية،فهي في المتوسط تتراوح بين ستة مدافع و 23 مدفعا للقطعة الواحدة،و هذا العدد ضعيف إذا قورن بما كانت تحمله سفن الأساطيل الأوربية.

يفسر بلحميسي هذا التقهقر بالعوامل التالية :

- الخسائر المادية و البشرية المتزايدة الناجمة عن الغنائم المسيحية.
- الحملات الإسبانية على مدينة الجزائر في سنوات 1775،1783 و 1784، التي ألحقت أضرارا بالغة بهذا الأسطول.
- الهجوم الإنجليزي - الهولندي على مدينة الجزائر سنة 1816،الذي خرب بالكامل تقريبا،السفن التي كانت راسية في ميناء مدينة الجزائر،الميناء الرئيسي لهذا الأسطول،ولم يسلم من هذا التخريب سوى قطعتان بحريتان كانتا في وهران.
- التزام الجزائر بتقديم دعم للأسطول العثماني في حروبه ضد روسيا و الحلف المسيحي و اليونانيين،فالكثير من السفن الجزائرية لم تعد من المشرق (160).و لا بد هنا من الإشارة إلى نقطتين هامتين هما :
- إن السلم مع إسبانيا قد جعل القرصنة صعبة لأن الرياس لم يعودوا يهاجمون السواحل الإسبانية، من جـهة، و من جهة أخـرى،سلحت نابل سفنها التـجارية و كذلك فعلت مالطة، و أخذ البرتغال يراقب المضيق صيفا و شتاء، فلم يبق للرياس سوى سواحل إيطاليا، حيث أخذ الجنويون يتجندون ضدهم. تقهقر القرصنة أدى بالأتراك إلى التوجه إلـى الزراعة (161).
- إن الأساطيل الأوربية قد تطورت كثيرا خلال القرن الثامن عشر بفعل الثورة الصناعية. و قد توج هذا التطور بإنشاء السفينة البخارية سنة 1807.لهذا نقول إن البحرية الجزائرية (و البحرية العثمانية كذلك) كان محكوما عليها بالإعدام مادام المجتمع الجزائري نفسه لم يدخل هذه الثورة الصناعية.

يختلف الأسطول الجزائري عن الأساطيل الأوربية من حيث أنه لا يخضع لتنظيم عسكري محكم،و يعتمد على التجربة،و بحارته لا يعرفون أي تدريب منظم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، تعود ملكية مراكبه لجهات متعددة، الشيء الذي يفقده الوحدة و الانسجام.

ملكية الأسطول

يذكر برادي أن الإيالة كان لها حوالي 11 سفينة سنة 1788، يملكها البايليك و كبار الإيالة و الخواص (162). لكن للداي سلطة مطلقة على أصحاب السفن، إذ يمكنه أن يُجبرهم على نقل حاميات المدن و مؤنها، و هم مجبرون على أن يمتثلوا لأوامره و أن يكونوا دائمي الاستعداد لخدمة السلطان العثماني. مقابل هذه الالتزامات تحمي السلطة السفن الخاصة تجاه القوى الأجنبية (163). كانت ملكية السفن و المراكب تعود لمختلف الأشخاص من مختلف الطوائف، مثل الرياس، حيث نجد بتشين يملك عددا منها، كما كان يمتلك منها حضر مدينة الجزائر، بل حتى النساء و اليهود كانوا يملكون قطعا من أسطول الجزائر هذا.

كانت السفن تحمل على متنها، بالإضافة إلى العبيد المسيحيين المكلفين بالتجديف، أشخاصا من مختلف الأعمار والفئات الاجتماعية و من مختلف الأعراق، من الأتراك، من الأندلسيين و من الأوروبيين الأعلاج، لكن يبدو أن العنصر المهيمن هو عنصر الأرناؤوط أو الألبان. لعل هذا ما أراد أن يشير إليه برادي حين قال: " كل من هو ملحق بخدمة البحرية يستلم أجرته من البحرية، فترسل النقود إلى الأميرال الذي يوزعها، إنه بابا علي الذي أدخل هذا الأسلوب، لأنه كان هناك الكثير من الدايات قتلوا من أهل البحرية الذين كانوا كلهم أرناؤوط". و لهذا، و منذ مقتل بابا محمد الطورطو و الخزناجي لم يعد للأرناؤوط أي تكليف في البحرية (164). لكن البحرية كانت مفتوحة أمام الأهالي، خلاف الإنكشارية، و قد اشتهر من هؤلاء الأهالي البحارة الرايس حميدو من بلاد القبائل، و كنا قد تعرضنا له سابقا.

لم يكن الأسطول الجزائري قادرا على مواجهة الأساطيل الأوربية الضخمة المجهزة بأحسن الوسائل و المدافع، لكنه كان يملك قدرة كبيرة على الحركة و السرعة فيفلت من قبضة هذه الأساطيل التي كانت تجوب المحيطات. لهذا كان الأوربيون يوجهون هجماتهم ضد مدينة الجزائر، التي كان ميناؤها الميناء الرئيسي للأسطول و لهذا كانت هذه المدينة تأوي أغلب الإنكشارية و البحارة، و كانت أكثر المدن تحصينا و استعدادا للمواجهة.

تحصينات مدينة الجزائر

لما كانت الهجمات الموجهة ضد مدينة الجزائر هجمات بحرية فإن تحصينات المدينة كانت على السواحل، بعكس حال التحصينات التي أقامها الإسبان في وهران و التي كانت موجهة نحو البر. أهم القلاع أو الأبراج في مدينة الجزائر و محيطها هي :

1 - برج الكيفان، الذي يُعتقد أنه بُني في عهد الداي محمد باشا أفندي، في 1722 - 1723.

2 - برج تمنتوفوست، الذي شُيد في عهد رمضان آغا في سنة 1661 في المكان الذي أقلع منه شارل كان هاربا سنة 1541. بعد أن تعرض لقصف دوكين في سنتي 1682 1683، أعاد بناءه الداي ميزو مورطو سنة 1685.

3 - برج الحراش، الذي شيده يحي آغا سنة 1827.

4 - برج باب عزون (برج راس تافورة) ، الذي بني سنة 1573 من طرف أحمد عراب، و أعاد بناءه مصطفى باشا، كما أدخلت عليه إصلاحات سنة 1804.

5 - برج الإنجليز، الذي شيده علي آغا في 1669 - 1670 لحراسة خليج باب الوادي.

6 - البرج الجديد، بالقرب من القصبة، الذي بُني في 1773 - 1774، في عهد محمد إبراهيم.

7 - برج باب الوادي أو برج علج علي، الذي شُيد في 1569.

8 - برج الإمبراطور (برج كدية الصابون أو برج مولاي حسن)، الذي شُرع في بنائه سنة 1545 و أدخلت عليه إصلاحات سنة 1656.

9 - برج النجمة، بالقرب من القصبة، الذي بُني سنة 1568.

10 - برج (ما بين) الذي شيد في مدينة الجزائر في عهد الداي حسين.

11 - برج الأندلسيين و قد شُيد في القرن السادس عشر، بالقرب من باب البحر

12 - القصبة التي تم الانتهاء من بنائها في سنة 1592.

13 - برج الفنار، الذي بني في البنيون سنة 1573، في عهد أحمد عراب (165

هوامش الفصل الأول

(1) رين. مملكة مدينة الجزائر في عهد الداي الأخير. المرجع السابق عدد 43. ص 123 وعدد 41 ص 125.

(2) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 51.

(3) نفسه. ص 23.

(4) حمدان. المرجع السابق ص 132و 134.

(5) جوليان. تاريخ إفريقيا الشمالية. المرجع السابق ص376.

(6) بارادي. المرجع السابق عدد 41. ص 68 و 69.

(7) نفسه عدد 40. ص 267.

(8) نفسه عدد41. ص 70 و 71.

(9) جوليان. تاريخ إفريقيا الشمالية. المرجع السابق ص 376.

(10) بارادي. المرجع السابق عدد 41. ص 68 و 69.

(11) نفسه عدد40. ص 273 و 274.

(12) جوليان. تاريخ أفريقيا الشمالية. المرجع السابق ص 375.

(13) انظر : نفسه. ص 376.

(14) بارادي. المرجع السابق عدد 40. ص 274 ـ 276.

(15) Mahfoud KADDACHE. L'Algérie durant la période ottomane.O.P.U.Alger 1992.p.93

(محفوظ قداش. الجزائر خلال العهد العثماني ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر 1992. ص 93).

(16) رين. مملكة مدينة الجزائر. المرجع السابق عدد 41 ص 134.

(17) بارادي. المرجع السابق عدد 40 ص 58.

(18) C.TRUMELET.Bou Farik.Adolphe Jourdan.Alger 1887.pp.4 et 10.

(س. ترومبلي. بوفاريك. أدولف جوردان. الجزائر 1887. ص 4 و 10).

(19) بارادي. المرجع السابق عدد 41. ص 103.

(20) انظر : قداش. المرجع السابق ص 147 ـ 148.

(21) فيدرمان و أوكابيتان. المرجع السابق عدد 11 ص 290 و 291.

(22) نفسه.

(23) حمدان. المرجع السابق ص109.

(24) حميدة عميراوي. دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية (1827 ـ 1840). دار البعث. قسنطينة 1987. ص 68.

(25) سعد الله. محاضرات. المرجع السابق ص 54.

(26) AUMERAT.La propriété urbaine à Alger.Revue Africaine.N°.41 (1897).p.330.

(أوميرات الملكية الحضرية في مدينة الجزائر المجلة الإفريقية عدد 41 (1897). ص 330)

(27) نفسه. ص 326 ـ 328.

(28) نفسه. ص 329.

(29) René LESPES. Quelques documents sur la corporation des Mozabites d'Alger dans les premiers temps de la conquête (1830 – 1838). Revue Africaine N°.66(1925).p.197.

(روني ليسبيس. بعض الوثائق حول طائفة مزابيي مدينة الجزائر في أوائل الغزو (1830 ـ 1838) المجلة الإفريقية عدد 66 (1925). ص 197).

(30) بارادي. المرجع السابق عدد 39. ص 278.

(31) انظر الرسالة في : ليسبيس. المرجع السابق ص 199

(32) حمدان. المرجع السابق ص 154.

(33) ليسبيس. المرجع السابق ص 199 ـ 202.

(34) Don Diego de HAEDO. Topographie et histoire générale d'Alger. Revue Africaine N°.15 (1871). p.91.

(دون ديغو دو هايدو. طبوغرافية و تاريخ مدينة الجزئر العام. المجلة الإفريقية عدد 15 (1871). ص 91)

(35) بارادي. المرجع السابق عدد 41 ص 108 ـ 110.

(36) رين. مملكة مدينة الجزائر في عهد الداي الأخير. المرجع السابق عدد 41 ص 146.

(37) نفسه. ص 135.

(38) سعيدوني. الجزء الثاني. المرجع السابق ص 144.

(39) نفسه. ص 147.

(40) رين. مملكة مدينة الجزائر. المرجع السابق عدد 41 ص 140.

(41) ترومیلي. المرجع السابق ص 9 و 10.

(42) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 48.

(43) رين. مملكة مدينة الجزائر. المرجع السابق عدد 41 ص 147.

(44) نفسه. ص 148.

(45) نفسه. ص 148 و 149.

(46) نفسه. ص 149 و 150.

(47) مذكرات الزهار. المرجع السابق ص48.

(48) ترومیلي. المرجع السابق ص 10.

(49) نفسه. ص 16 و 17.

(50) رين. مملكة مدينة الجزائر. المرجع السابق عدد 41 ص 142 ـ 145.

(51) نفسه. ص 152 و 331.

(52) نفسه. ص 333 ـ 335.

(53) نفسه. ص 335 ـ 339.

(54) الوزان. الجزء الثاني. المرجع السابق ص 36.

(55) قداش.المرجع السابق ص 138.
(56) سعيدوني.الجزء الأول.المرجع السابق ص 147 و 148.
(57) فيدرمان و أوكابيتان.المرجع السابق عدد 11 ص 358 ـ 361.
(58) نفسه.ص 361 ـ 366.
(59) فايسيت.المرجع السابق.عدد 3 ص 111 ـ 113.
الباش سيار هو قائد البريد، و هو مكلف بمراسلات و اتصالات الباي الشفوية بالباشا فقط، للباش سيار نفوذ كبير لدى الباي.نشير هنا أن البايات كانوا يستعملون وكلاء رسميين لهم في العاصمة مكلفين باستلام البريد و تقديمه للباشا، لكن مهمتهم الحقيقية هي التجسس على الباشا و حاشيته لاطلاع البايات على ما يجري في دواليب السلطة العليا و اقتراح ما يجب تقديمه من هدايا لأعضاء الديوان.
(60) نفسه.ص 113 ـ 114.
(61) نفسه.ص 118 و 119.
(62) نفسه.ص 113 ـ 114.
(63) نفسه.ص 118 و 119.
(64) رين.مملكة مدينة الجزائر.المرجع السابق عدد 42 ص 136 ـ 139.
(65) نفسه ص 129 ـ 133.
(66) نفسه ص 289 ـ 297.
(67) من الجماعات المستقلة نجد في السلسلة الجبلية للاخديجة آيت يعلى، إيمشدالن، آيت واكور، آيت ملكيش، و في الضفة اليسرى لوادي الساحل نجد سيدي عبو، آيت يحي أو يوسف، آيت عامر، غنوشة، بني منصور، آيت أحمد أوقرط، قبائل بوسالم، بني يعلى الغبولة، بني ورتلان، زاوية سيدي الجودي أو مرابطي قرقور الذين هم سادة قبائل مختلفة في بلاد القبائل، و قبائل أولاد نابث، بني وغليس، آيت عيسى، بني أحمد، آيت إسماعيل الخ. و من بابور وتبابورت نجد بني مرعي، أولاد صالح عموشة، الدهمشة، أهل بابور، أهل تبابورت، بني ياجيس، بني عمران الجبالة (رقادة، المثلاثين و شادية)، بني عمران السفلية، بني خطاب الغرابة، بني عافر، جيملة، بني سيار و في ساحل جيجل، نجد العوانة، دار الباطح، بني معمر، بني صالح، لجناح، بني حبيبي، أولاد عسكر، بني فتح، بني عيشة، أولاد علي، تايلمان، أولاد عواط، قبيلة أولاد عيدون الكبيرة، مشاط، غبالة، بني مسلم، بني بلعيد، بني فرقان، أولاد مبارك، بني قايد، بني صبيح، القل (المدينة التي كانت بها حامية تركية و التي استقلت منذ 1805)، أولاد نوار، بني صالح، اولاد خزار، الزرامنة، بني بشير، عرب سكيكدة، الخ. و من قبائل إيدوغ نجد بني محمد، عرب العيون، التريعات الخ و من القبائل الهامة التي يمكن ضمها إلى القبائل المستقلة نذكر قبيلة الحنانشة (التي كانت مشيخة وراثية لا يضاهيها في القوة سوى قبيلة الحراكتة و قبيلة النمامشة).

هذا في الشمال أما في وسط البايليك و جنوبه فإننا نجد كذلك العديد من الجماعات المستقلة،نذكر منها مشيخة الدير التي كانت على رأسها عائلة يحي بن طالب و هي مستقلة منذ 1819،و بوسعادة (المدينة و ضواحيها)،و شرفة الهامل،و أولاد زيان (تحت السيادة الدينية لأولاد الحاج في مدوقل)،و شاوية بلزمة الذين كانوا في صراع مع العرب،و منطقة الوادي،و المشيخة الوراثية للأوراس،تحت سيادة اولاد بلقاسم الذين كان يمثلهم العربي بن بوضياف بن بلقاسم سنة 1820،و القبيلة الكبيرة النمامشة

من الجماعات المستقلة نجد أيضا زاوية سيدي علي أو منطقة النفوذ الديني وكذلك السياسي لأولاد سيدي علي و تضم طلبة الزاوية و بدو أولاد سيدي علي وزبائنهم (منهم من تونس و يعرفون باسم الزغولة)،و منطقة أولاد سيدي عبيد المحصورة داخل إقليم النمامشة (يدعي أولاد سيدي عبيد أنهم منحدرون من الرسول،فهم أشراف،ادعى جدهم عبيد الخوارق،بعض ذريته تجمعوا حول الجامع فشكلوا بذلك القرية التي تسمى باسمه،و البعض الآخر استقر حول جبل قوة فعرفوا باسم أولاد سيدي عبيد). و نجد في خانة الجماعات المستقلة كذلك زاوية سيدي ناجي أو منطقة النفوذ الرابطي لأولاد سيدي ناجي و زبائنهم هم البراجة أو أولاد عمران في جبل ششار.نذكر قبائل أخرى كانت مستقلة مثل زاوية أحمر خدو و الإمارة الوراثية لبني جلاب في تقرت،وبيت بوعكاز أو الإمارة الوراثية لأجواد الدواودة و أولاد صولة،و كان بيت بوعكاز يختار منه شيخ العرب،قبل أن يحوله صالح باي إلى بيت ابن غانة. رين.مملكة مدينة الجزائر.المرجع السابق عدد 42 ص 297 ـ 308 و العدد 43 ص 105 ـ 115.

(68) فيرو.مذكرات حول تبسة.المرجع السابق ص 449 ـ 455.

(69) نفسه.ص 456.

(70) فيدرمان و أوكابيتان.المرجع السابق عدد 11 ص 361 ـ 366

(71) رين.مملكة مدينة الجزائر.المرجع السابق عدد 41 ص 344 ـ 346.

(72) نفسه.ص 346 ـ 348.

(73) نفسه.ص 139.

(74) نفسه.ص 349 و 350 و العدد 42 ص 5 ـ 10.

(75) نفسه.عدد 42 ص 13 ـ 20 و 113 ـ 116 و 155 و 156.

(76) نفسه.ص 116 و 117 .انظر الهامش كذلك

(77) نفسه عدد 41 ص 138.

(78) نفسه عدد 42 ص 111 ـ 122.

(79) نفسه ص 124.

(80) نفسه.ص 129.

(81) جورجوس.لمحة عن باي و هران.المرجع السابق ص 28 و 29.

(82) دوساندوفال.المرجع السابق عدد 15 ص 278.

(83) ليسبينس. مذكرة حول هاشم معسكر المرجع السابق ص 144 و 145.

(84) Mohamed ELKORSO et Mikel de EPALSA.Oran et l'ouest algérien au 18 ème siecle da'près le rapport d'Aramburu.Bibliothèque Nationale.Alger 1978.p.39.

(محمد القورصو و ميكل دو ايبالزا. وهران و الغرب الجزائري في القرن الثامن عشر، حسب تقرير أرامبوبرو. المكتبة الوطنية. الجزائر 1978. ص 39).

(85) نفسه. ص 37 ـ 39.

(86) Don José VALLEJO.Contribution à l'histiore du vieil Oran.Revue Africaine N°.66 (1925).pp. 331 - 343.

(دون جوزي فاليجو. مساهمة في تاريخ وهران القديمة. المجلة الإفريقية عدد 66 (1925). ص 331 ـ 343).

(87) فاليجو. المرجع السابق ص 349 و 350.

(88) المشرفي. المرجع السابق ص 198.

(89) نفسه. ص 217 ـ 218.

(90) نفسه.

(91) بودان. المرجع السابق ص 195 و 196.

(92) فاليجو. المرجع السابق ص 349.

(93) المشرفي. المرجع السابق ص 210.

(94) فاليجو. المرجع السابق ص 361.

(95) القورصو و إيبالزا. المرجع السابق ص 42.

(96) نفسه.

(97) المشرفي. المرجع السابق ص 211.

(98) القورصو و إيبالزا. المرجع السابق ص 42.

(99) نفسه.

(100) المشرفي. المرجع السابق ص 199 و 200.

(101) القورصو و إيبالزا. المرجع السابق ص 42.

(102) نفسه. ص 43.

(103) نفسه.

(104) نفسه. ص 44.

(105) المشرفي. المرجع السابق ص 214.

(106) القورصو و إيبالزا. المرجع السابق ص 45.

(107) المشرفي. المرجع السابق ص 217.

(108) بودان. المرجع السابق ص 253 و 254.

(109) القورصو و إيبالزا. المرجع السابق ص 45.

(110) نفسه. ص 46.

(111) نفسه. ص 48.

(112) فاليجو المرجع السابق ص 357 ـ 359.
(113) الفورصو و إيبالزا المرجع السابق ص 48.
(114) حمدان المرجع السابق ص 119.
(115) هايدو طبوغرافية و تاريخ الجزائر المرجع السابق عدد 14 ص 503 ـ 508.
(116) نفسه.
(117) نفسه.
(118) بارادي المرجع السابق عدد 40 ص 68.
(119) فيدرمان و أوكابيتان المرجع السابق عدد 11 ص 299.
(120) بارادي المرجع السابق عدد 41 ص 77 و 78.
(121) نفسه عدد 40 ص 55.
(122) فيدرمان و أوكابيتان المرجع السابق عدد 11 ص 292 و 293.
(123) نفسه.
(124) نفسه ص 299.
(125) رين مملكة مدينة الجزائر المرجع السابق عدد41 ص 141 ـ 144.
(126) فايسيت المرجع السابق عدد 3 ص 120.
(127) فيرو مذكرات حول تبسة المرجع السابق ص 441.
(128) رين مملكة مدينة الجزائر المرجع السابق عدد 41 ص 349.
(129) نفسه عدد 42 ص 5 و 9.
(130) نفسه عدد 41 ص 136.
(131) فيدرمان و أوكابيتان المرجع السابق عدد 11 ص 297.
(132) حمدان المرجع السابق ص 141.
(133) أوميرات المرجع السابق ص 329.
(134) فايسيت المرجع السابق عدد 3 ص 133 ـ 136.
(135) نفسه ص 137 و 138.
(136) هايدو طبوغرافية و تاريخ الجزائر العام المرجع السابق عدد 14 ص 499.
(137) بارادي المرجع السابق عدد 40 ص 57 و 58.
(138) فيدرمان و وكابيتان المرجع السابق عدد 11 ص 300.
(139) رين مملكة مدينة الجزائر المرجع السابق عدد 41 ص 145 و 341 و عدد 42 ص 11 و 131.
(140) فيدرمان و أوكابيتان المرجع السابق عدد 11 ص 300.
(141) هايدو طبوغرافية و المرجع السابق عدد 14 ص 493 و 494.
(142) فيدرمان و أوكابيتان المرجع السابق عدد 11 ص 357.
(143) نفسه ص 359 و 360.
(144) سعيدوني الجزء الأول المرجع السابق ص 107 و 110.
(145) رين مملكة مدينة الجزائر المرجع السابق عدد 43 ص 122.

(146) بلحميسي. المرجع السابق ص 49 و 50.

(147) نفسه

(148) فيرو. استقلال غايات الكراسنة. المرجع السابق عدد 13 ص 38 ـ 44.

(149) نفسه. ص 45 و 46.

(150) نفسه

(151) بلحميسي. المرجع السابق ص 49 ـ 53

(152). نفسه. ص 54 و 55.

(153) نفسه.

(154) دوفولكس. بحرية إيالة الجزائر. المرجع السابق ص 389.

(155) نفسه. ص 389 و 390.

(156) بلحميسي. المرجع السابق ص 63.

(157) دوفولكس. بحرية إيالة الجزائر. المرجع السابق ص 391.

(158) نفسه. ص 394.

(159) نفسه. ص 396 ـ 418.

(160) بلحميسي. المرجع السابق ص 64.

(161) بارادي. المرجع السابق عدد 41 ص 73.

(162) نفسه. عدد 39. ص 21.

(163) بلحميسي. المرجع السابق ص 57.

(164) بارادي. المرجع السابق عدد 40. ص 44. انظر الهامش كذلك.

(165) Moulay BELHAMISSI.Alger , la ville aux mille canons.ENAL.Alger

24 - 33.<1990.

(مولاي بلحميسي. الجزائر. المدينة ذات الألف مدفع. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1990. ص 24 ـ 33)

الفصل الثاني:

الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية

الأوضاع الاقتصادية

الفلاحة

كان المجتمع الجزائري مجتمعا فلاحيا في العهد التركي، بحيث يقدر بعض المؤرخين نسبة سكان الأرياف بأكثر من 90 %. مع هذا، كثيرا ما تعرضت البلاد للمجاعات، نتيجة فترات الجفاف الدورية و غالبا ما كان الجفاف مصحوبا بغزو الجراد و انتشار الأوبئة و إتلاف المزروعات و الإتيان على الماشية و العباد. كما كانت الفلاحة تعاني من قساوة الطبيعة كانت تعاني أيضا من ضعف مستوى وسائل الإنتاج، التي لم تسع السلطة التركية لتطويرها إلا في أواخر القرن الثامن عشر، لما أخذت موارد القرصنة تتراجع و الحاجة لتصدير المنتجات الزراعية تزداد.

الشيء المشترك بين مختلف جهات البلاد هو الضعف الكبير في المستوى التقني لأدوات العمل. الجميع يستعمل أدوات بسيطة واحدة مثل "محراث إفريقيا الرومانية الذي لم يخضع لأي تعديل" و المنجل الذي يعود لنفس العهد و قنوات الري التي تعود إلى القرن الحادي عشر. أما الماشية فقد عاشت على الطبيعة (1). يعبر عن الضعف هنا لجوء الفلاحين إلى النظام المعروف بنظام الدورتين، بمعنى استغلال الأرض سنة و تركها تستريح في السنة الموالية، وانتشار أراضي الحيازة الجماعية أو المشتركة التي تضمن العمل التعاوني أو التضامني لتعويض ضعف وسائل الإنتاج.

كانت العائلة تشكل الوحدة الإنتاجية و الاستهلاكية في الوقت نفسه، مع بعض الاستثناء، حيث نجد بعض الأراضي تنتج من أجل السوق، كما هو الحال في فحص مدينة الجزائر و الأراضي المحيطة بالمدن، التي تنتج الخضر و الفواكه. لكن القاعدة العامة هي الإنتاج لإشباع حاجات أفراد العائلة. أما السوق فتأتي في المرتبة الثانية مرتبطة بتحقيق الفائض و الحصول على منتجات صناعية أو زراعية ليست من اختصاص الفلاحين، نتيجة اختلاف الظروف الطبيعية، و ضرورة توفيرما يجب دفعه من ضريبة نقدية.

اشتغل سكان المناطق الجبلية و سكان السهول القريبة من المدن بزراعة الخضر و الفواكه بصفة عامة، إلى جانب تربية الماشية. تنتج أرياف مدينة الجزائر الكثير من العنب مثلا، لأن

السلطة كانت تسمح لكل فرد أن يشتري منه لصناعة الخمر (2). كما كانت هذه المناطق الجبلية و السهلية منتجة لزيت الزيتون و التين. هذا الأخير كان يجفف و يباع في مختلف جهات البلاد، كما يُصدّر منه نحو الخارج، مثل الزيت. اشتغل سكان السهول العليا بزراعة الحبوب و تربية الماشية. كانت المنطقة الواقعة بين سطيف و قالمة المنطقة الرئيسية للحبوب، و كانت ناحية وادي زناتي أخصبها. و كانت المنطقة الواقعة بين الأطلسين التلي و الصحراوي وشط الحضنة و الحدود المغربية هي المنطقة الرئيسية لتربية الماشية، خاصة الضأن منها. و قد شجع الباي محمد الكبير إنتاج الحبوب في الناحية الغربية، بتشجيعه تصديرها نحو الخارج(3). و معلوم أن الاهتمام بالحبوب قد ازداد منذ عهد هذا الباي و الباي صالح في الشرق كما رأينا سابقا. انصب اهتمام سكان جنوب الأطلس الصحراوي على تربية الماشية، من أغنام و إبل، و إنتاج التمور. اكتست تربية الإبل أهمية خاصة لكون هذا الحيوان وسيلة نقل و مادة استهلاك. كانت الجزائر تربي أعدادا كبيرة منه.

كانت الجزائر تنتج من المحاصيل الصناعية التبغ الذي كان يزرع في عنابة والجزائر، و كانت كمياته هامة و هو صالح للتدخين (4). كما أدخل الأندلسيون زراعة القطن وأنتجوه في مستغانم. يذكر حمدان خوجة أنه كان ينتج هو نفسه القطن في سهل متيجة و أن زراعته لم تكن معروفة لدى العرب (5). و أدخل الأندلسيون أسلوب تربية دودة القز و أنتجوا الحرير في القليعة و شرشال و أدخلوا العناب للبلاد و قد اشتهرت بإنتاجه ناحية عنابة. يذكر بارادي أن الأرز كان يزرع في مليانة و أنه شُرع في زراعته في وادي مينا في أواخر القرن الثامن عشر و أن إنتاجه يبلغ في المنطقتين ما بين 5 آلاف و 6 آلاف قنطار و أن تلك الكمية كانت تكفي حاجة البلاد، حتى أن الأوجاق الذي كان يستهلك أرز مصر لم يعد يستورده. يشير بارادي من جهة أخرى إلى أن أرز مليانة كان أجود من أرز مينا (6).

ما تقدم يوضح لنا تلك المحاولات التي قام بها الأتراك و خاصة البايات منهم بهدف تحسين الفلاحة الجزائرية، لكن هذه المحاولات جاءت متأخرة و لم يكن الهدف منها أكثر من ضمان موارد لخزينة الدولة.

الصناعة

كانت الصناعة يدوية بعيدة عما وصلت إليه الصناعة الأوربية حتى قبل الثورة الصناعية، فتعمقت الهوة بين الجزائر و أوربا أكثر مع ظهور تلك الثورة. كانت الصناعة موزعة بين الريف و المدينة. فالصناعة في الريف كانت تلبي حاجيات سكانه أساسا، أما صناعة المدينة فكانت تلبي الحاجات الأساسية لسكان المدن و كماليات الفئات المحظوظة، التي لم تكن تكتفي بالمنتوجات المحلية بل تستورد المنتوجات الخارجية الأوربية منها بصفة خاصة. لم تصل الجزائر في هذا العهد إلى تكوين مراكز صناعية في المدن، قادرة على قيادة النشاط

الاقتصادي، و إنا كان هناك تخصص بين الجهات فإن الظروف الطبيعية هي التي فرضته.

كانت القبائل الرعوية تصنع المنسوجات الصوفية و الخيام و الحياك و الزرابي. و كان سكان المناطق الجبلية يصنعون الأدوات الفلاحية و الأسلحة، لأنفسهم و لفلاحي السهول والبدو، حتى لسكان المدينة. كانت قبائل بني ينّي من أكثر القبائل اهتماما بالصناعة. كانت تشتغل بالمعادن فتصنع العربات و الأدوات و الخناجر و بعض البنادق و كذا المجوهرات، خاصة الفضية منها. استغلت مناجم الفضة الواقعة في جبل بالقرب من مصيبح، كما اشتغلت بتزوير العملات المختلفة و منها الأجنبية. " لعل آيث عباس أبرع القبائل في الصناعات المحلية. فهي تملك أكثر من مائتي رحى للزيتون. و كثرة الرحى تُعد مقياس ثروة قبيلة من القبائل تقريبا، بالإضافة إلى ذلك فإن آيث عباس هم الذين يخيطون البرانس ويرقعونها بمهارة فائقة، و لهم دكاكينهم في الجزائر العاصمة نفسها "، كما يقول مالتسان، في أواسط القرن التاسع عشر(7). في منطقة معسكر " تصنع البرانس الشهيرة السوداء ذات اللون الطبيعي و الأقمشة الكتيمة التي تستعمل في كامل أنحاء إيالة الجزائر، و تصدر إلى مصر وتركيا. يباع البرنس الواحد من البرانس المهفهفة بسعر يبلغ المائة فرنك "، كما يقول حمدان خوجة (8). كما كانت تصنع بالقرب من معسكر أحسن الزرابي(9).

كانت المدن تحتوي على الصناعات الغذائية، من الطواحين و المخابز و معاصر الزيتون وصناعة السفن، التي اشتركت فيها الدولة إلى جانب الخواص، و صناعة النسيج و المجوهرات الخ. كانت قسنطينة تصنع أجود الحياك (10). و كانت مدينة الجزائر تصنع نسيج القماش من الكتان الرديء الأمر الذي يجعله خشنا لا يُستهلك إلا في مدن و أرياف الجزائر، فلا يصدر إلى الخارج. و كانت توجد في مدينة الجزائر ورشات مختلفة لصناعة الشاشيات، التي كانت أقل جودة من شاشيات تونس، التي تعتمد على أصواف إسبانيا. فالشاشية الجزائرية لا يتعدى سعرها نصف سعر الشاشية التونسية، مع هذا تعرف طريقها إلى أسواق المشرق، كما هو الحال بالنسبة لمثيلتها التونسية. و صناعة الشاشيات هذه كانت موجودة في البليدة كذلك (11). إضافة إلى صناعة الخمر، كان يصنع في مدينة الجزائر عرق التين المعروف في تونس باسم البوخة و في الجزائر باسم المحي. فقد كان البايليك يبيع ما يتبقى له من التين، الذي يحل عليه كضريبة عينية، لليهود الذين يعالجونه. و كان هذا التين المجفف يرسل من طرف قائد سباو، بصفة خاصة، و يستعمل في تموين القراصنة (12).

يجتمع أصحاب الحرفة الواحدة في المدن، في سوق واحدة أو شارع واحد، يشرف عليه مسؤول يسمى الأمين. و يزاول مجموع الأمناء نشاطهم تحت سلطة شيخ البلد. لقد وجد الفرنسيون في قسنطينة طوائف عديدة، نسجلها هنا كنموذج.

1 ـ النجارون، و كانوا يستعملون الأخشاب الواردة من الأوراس و بلاد القبائل.

2 ـ الحدادون.

3 ـ الصفارون أو صناع النحاس.

4 ـ الصديريون (القزادريين) و كانوا من اليهود بصفة عامة.

5 ـ الشكامجية أو صناع الأسلحة الذين كانوا يصنعون بطاريات و بنادق يستعملون فيها سورات مستوردة من إيطاليا أو إسبانيا و إنجلترا. يرتبط بالشكماجية السرارون الذين يصنعون خشب البنادق و المسدسات و مقابض السيوف.

6 ـ السمارون الذين يصنعون حدوات الجياد و البغال و الحمير.كما يعالجون الحيوانات المريضة باستعمال النار على الأعضاء المعنية.

7 ـ السراجون الذين يصنعون السروج و الجبيرة و حاملات الخراطيش والحقائب و الطماك (جزمات الفرسان)، و يطرزون السروج بالذهب أو الفضة أو الحرير أو الجلد. و كان الجلد الجيد يستورد من المغرب و يعرف بالفيلالي (نسبة إلى تافيلالت)، أما الذهب و الفضة فيُجلبان من مدينة الجزائر أو من تونس.

8 ـ البرادعية الذين يصنعون البرادع

9 ـ الخرازون الذين يصنعون أحذية الرجال،و إلى جانبهم البشامقية و الشباركية الذين يصنعون أحذية النساء.

10 ـ الحواكة أو النساجون الذين يصنعون النسيج الصوفي، بعد أن تغزل النساء الصوف.

11 ـ الخياطة أو الخياطون.

12 ـ الحفافة أو الحلاقون الذين يمارسون قلع الأسنان أيضا.

13 ـ الخراطون الذين يخرطون الخشب.

14 ـ الغرابلية الذين يصنعون الغرابيل.

15 ـ الدباغون ، و هم أصحاب حرفة مربحة في قسنطينة. يدبغون جلود الأبقار والماعز و الأغنام، و يستعملون دبغا يُجلب من الأوراس و بلاد القبائل وهو مسحوق قشور البلوط.

16 ـ الركاكون ـ اللاخون الذين يصلحون الأحذية القديمة كما يصنعون أوعية جلدية.

17 ـ البناءون و هم في أغلبهم من بلاد القبائل.

18 ـ القلاسون أو البياضة و هم الذين يقومون بمهمة طلاء الجدران بالجبس و هم من الزنوج.

19 ـ القلالون أو عاجنو الصلصال الذين يصنعون القرميد و الآجر و الجرار وهم من سكان بلاد القبائل.

20 ـ الكواشة أو الخبازون و هم عمال من بلاد القبائل كذلك.

21 ـ الجزارون و هم من بلاد القبائل أيضا.

22 ـ الصوابنية أو صناع الصابون و هم من بلاد القبائل كذلك.
23 ـ الدخاخنية الذين يبيعون التبغ بنوعيه (الدخان و الشمة).
24 ـ القهواجية.
25 ـ الطباخون و هم عادة من بني ميزاب.
26 ـ القطايرية أو صناع القطائر و هم تونسيون عادة.
27 ـ الصياغون أو صناع المجوهرات و هم يهود في معظمهم.
28 ـ القاوسية الذين يصنعون الخلاخل من قرن بقر الوحش و الخواتم.
29 ـ الزواقون أو الدهانون.
30 ـ الدلالون أو الباعة المتجولون الذين يبيعون الثياب سواء كانت جديدة أو قديمة.
31 ـ الكنافون أو منظفو الماسورات و المراحيض و هم عناصر يهودية عادة (13).

بقدر ما كان تقسيم العمل الحرفي جغرافيا كان كذلك طائفيا كما يبدو جليا. كان لكل حرفة طريقها و هي في نفس الوقت اختصاص لجماعة عرقية أو قبلية. يهود مدينة الجزائر يحتكرون، مثلا، صناعة المعادن النفيسة، و بنو ميزاب يحتكرون المطاحن العمومية و المخابز، و يشتغل البسكريون حمالين أو سيرين للحمامات العمومية، و يشتغل الأغواطيون بالتنظيف، و يحتكر سكان بلاد القبائل البناء، و يقدم الزنوج الخدمات المنزلية الخ.

التـــجـــــارة

التجارة الداخلية

كانت الاختلافات بين المناطق من حيث الإنتاج الزراعي و الإنتاج الصناعي سببا أساسيا في قيام التجارة الداخلية. كانت المبادلات بين الريف و المدينة، بين المناطق الجبلية و السهلية، بين التل و الجنوب تتم أساسا في الأسواق الأسبوعية و السنوية و هذه الأسواق تقع في أغلبيتها في المناطق الريفية. كانت الإدارة تقيمها و تنظمها و تراقبها كي تحصل على الرسوم.

لعبت القبائل الرحالة دورا كبيرا في تنشيط الأسواق السنوية. من هذه القبائل نذكر أولاد سيدي الشيخ و لرباع و أولاد نايل و النمامشة و غيرها. يتم، في هذه الأسواق السنوية، تبادل منتوجات الصحراء و إفريقيا المتمثلة أساسا في التمور و الماشية و الأصواف و ريش النعام بمنتوجات التل المتمثلة أساسا في الحبوب و الزيوت و التين الخ. كما تُعقد أسواق سنوية يتم فيها تبادل منتوجات المناطق الجبلية بمنتوجات المناطق السهلية، كما هو الحال في بوسعادة. الكثير من سكان بني عباس و مجانة يبيعون زيتهم في بوسعادة مقايضة بالصوف. ففي شهر

ماي ينزل إلى هذه المدينة جبليو القبائل من جرجرة حاملين معهم منتوجات صناعتهم المتمثلة في الأطباق الكبيرة و المحاريث و الملاعق التي تُصنع من الخشب و سيوف فليسة ومجوهرات بني يني و التين و الزيتون و الزيوت، فيستبدلونها مقابل جزّات الصوف. يتقدمون أحيانا جنوبا حتى عين الريش، على طريق الأغواط لنفس الغرض. من جهتهم، يتردد تجار بوسعادة على تقرت و سوف، أين تأتي القبائل العربية لتبيع أغنامها وأصوافها. هذا و لبوسعادة سوق يومي يلتئم في (رحبة النواس)، من بين ما يباع فيه الملح الذي يشتريه عانة أولاد سلامة، ليبيعوه في أسواق سور الغزلان و بلاد القبائل (14).

يقدم لنا الرحالة الألماني مالتسان صورة أخرى عن الحركة التجارية في برج بوعريريج، فيقول: " و كانت لبرج بوعريريج باعتبارها خط مواصلات و سوقا تبيع فيه القبائل المجاورة مصنوعاتها أهمية أكبر مما قد يتصوره المرء بناء على قلة سكانها. فإليها كانت قبيلة مليكش تسوق أبقارها السمينة الحلوب، و آيت عباس تبيع فيها منتوجاتها من الزيت و الصناعات اليدوية الأخرى، و قبيلة أولاد أبي بكر تزود سوقها بالعسل الذكي الذي تنتجه في منطقتها الجبلية، و تبيع فيها قبائل مجانة صوف أغنامها الكثيرة. و كان الوناغوة يحملون إليها صناعتهم اليدوية الجميلة " (15).

هكذا فإن مدن السهول العليا قد كانت تشكل الأسواق السنوية الهامة التي يلتقي فيها سكان الجبال و السهول و الصحراء. إضافة إلى هذه الأسواق السنوية كانت تنتشر هنا و هناك الأسواق الأسبوعية: سوق السبت، سوق الجمعة، سوق الاثنين الخ.

التجارة الخارجية

ما يميز بداية العهد التركي في الجزائر هو تقهقر الحركة التجارية التي حركتها المدن الإيطالية و الإسبانية على السواحل الجزائرية، و حتى في داخل البلاد. و يعود السبب في ذلك إلى السيطرة الإسبانية على بعض المواقع في ساحل الجهة الغربية و سيطرة الأتراك على باقي البلاد و النشاط المتزايد للقرصنة. و كانت التجارة مع أفريقيا قد انحطت منذ القرن الرابع عشر بفعل انحراف طرق الذهب نحو مصر، ثم سيطرة البلدان الأوربية على سواحل القارة الإفريقية و تحويلها طرق التجارة نحو سواحل المحيطين الأطلسي و الهندي.

تصف فلانسي الحركة التجارية بين الجزائر و أفريقيا في القرن الثامن عشر بقولها: " بصفة إجمالية هي تجارة منتظمة دون أي ازدهار، تسلك الطرق القديمة جدا و هي جامدة منذ القرن الثامن عشر و حتى قبله بدون شك ". يظهر ضعف هذه التجارة في انعدام الوسائل الائتمانية و الضعف الكبير في استعمال العملة كوسيلة دفع، و في الحجم المتواضع للسلع. ففي تلمسان " و هي المستودع الرئيسي لمنتوجات أفريقيا الداخلية، يندهش الملاحظ الفرنسي من فقر

الحوانيت "، و من كون قافلة قسنطينة مجرد فرع من قافلة غدامس التي تصل تونس و قد حملت معها القليل جدا من التبر و " ريش النعام و سنا و صمغ السودان و العبيد بصفة خاصة "(16).لعل أهم سلعة كانت مربحة هي العبيد. و بخلاف التجارة مع أوربا، التي كانت الدولة تتدخل فيها بصفة عامة ،بمنح تجار أوربا الامتيازات، فإن التجارة البرية مع أفريقيا و غيرها لم تلق الدعم و التشجيع.

تتمثل تجارة الجزائر البرية مع العالم الإسلامي في حركة القوافل و أهمها على الإطلاق قافلة الحج السنوية.تنطلق هذه القافلة الضخمة من المغرب " أين يجتمع الحجاج في تازة، تعبر...الجزائر و تونس عن طريق الجريد أو عن طريق تونس فتبلغ طرابلس و قد تضخمت بحجاج الإيالتين،بعد شهرين من السفر ".ثم تواصل طريقها إلى الإسكندرية ثم إلى البقاع المقدسة حيث يشارك المغاربة " في المعرض الضخم " الذي يتوافد المسلمون إليه من كل الآفاق " فتستبدل فيه الأقمشة الصوفية و البوابيج و الشاشيات و حتى العبيد السود، الذين يجلبهم المغاربة، بالوصليات و حريريات المشرق و أقمشة بلاد فارس النفيسة و العنبر و التوابل. وعند العودة يمكنهم أن يتزودوا كذلك بالحرير الخام أو بقطن القاهرة ". إنها تجارة،مثل تجارة أفريقيا " تتناول منتوجات الرفاهية، و يعوض سعرُها المرتفع حجمها الضعيف "(17). لا شك في أن الحجاج الذين يذهبون إلى البقاع المقدسة، عن طريق البحر، كانوا يقومون بنفس الدور التجاري. يذكر بارادي، في أواخر القرن الثامن عشر، أن سفينتين أو ثلاث سفن تبحر من مدينة الجزائر كل سنة محملة بالحجيج الذين يتجهون إلى شبه الجزيرة العربية عبر الإسكندرية و أن هؤلاء الحجاج يفضلون السفن الفرنسية على غيرها من سفن أوربا (18).

و حسب بارادي دائما، كانت تأتي من تركيا سفينتان محملتان بالنسيج القطني والحرير و الأنسجة الصوفية المعروفة باسم الدلوك و قطيفة بروسة والمكاييل و الموازين و قرون الجاموس التي تصنع منها أساور النساء في المدن و الأرياف على السواء، إلا أن التي تُباع منها للنساء الثريات تُرصّع بالذهب (19). و كانت القوافل تربط بين تونس و الجزائر عامة و قسنطينة خاصة. أهم هذه القوافل هي تلك التي تنطلق من قسنطينة (بين **200** و **300** بغل) محملة ببضائع تبلغ قيمتها مليون فرنك (20). كانت قسنطينة تستورد الشاشيات الحمراء و الأحزمة الحريرية والصوفية و الجوخ، الذي تُصنع منه الألبسة الفاخرة، و مختلف عطور الورود والياسمين. كما كانت تونس تمول قسنطينة بمنتوجات أوربا من المنسوجات القطنية و الخيط و الحرير و منتوجات سوريا،مثل العمامات و الأقمشة الحريرية (21). وكانت تونس ترسل كل سنة سفينة إلى الجزائر أهم ما تحمله الأحزمة من الحرير،كما كانت الجزائر ترسل إلى تنس الزنجفر الذي يُجفف في معسكر (22) و هو معدن أحمر اللون يستعمل

في ذهن الحديد. و كانت للمغرب علاقات تجارية مع الجزائر و مع تلمسان بصفة خاصة. كانت الجلود الفيلالية مشهورة في الجزائر (23).

المبادلات التجارية مع قارة أوربا كانت تقوم على تصدير المنتوجات الفلاحية واستيراد الكماليات أو التجهيزات المتعلقة بالجيش و البحرية. كانت أهم الصادرات الجزائرية تتمثل، في أواخر العهد التركي، في الحبوب و الأصواف و الجلود و الزيوت والشموع و المرجان و ريش النعام و الخضر.

أخذت الحبوب موقعا هاما ضمن هذه الصادرات، خاصة بعد أن تقهقرت موارد القرصنة. كان الشرق الجزائري أكثر المناطق تصديرا لها. يذكر بارادي أن أربعين حمولة من الحبوب تخرج من ميناء عنابة، في سنة جيدة المحاصيل. وتخرج من ميناء أرزيو ثلاثون حمولة ،و تخرج من دلس حمولتان أو ثلاث. في سنة 1788 خرجت من عنابة والجزائر وأرزيو و دلس حوالي 150 حمولة (حوالي 100 ألف قنطار) من القمح و الشعير و الخضر وغيرها (24). هذا بالإضافة إلى ما كان الأسبان ينقلونه من وهران و من المرسى الكبير. كانت فرنسا المستورد الرئيسي للحبوب الجزائرية. و هي صاحبة الامتياز في الشرق، و لم يكن ينافسها في ذلك سوى اليهود، الذين أطلقت أيديهم في الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر، بعد أن توجهت فرنسا نحو روسيا للتزود بالحبوب، الأمر الذي انعكس سلبا على الجزائر وعلى السلطة التركية فيها. كثيرا ما كان التصدير الكبير للحبوب سببا في حدوث مجاعات في الجزائر، فقد كانت السلطة تراعي مداخيلها غير مبالية بحاجة السكان من الطعام.

كانت الموانئ الجزائرية كلها تصدر الأصواف. يصدر ميناء الجزائر إلى البلدان الأوربية ما بين 7 إلى 8 آلاف قنطار من الصوف سنويا، تأتي كلها تقريبا من بايليك التيطري. و كانت أصواف الجزائر و التيطري و معسكر تُباع بشكل حر لأي كان، أما أصواف بايليك الشرق فكانت شركة أفريقيا الفرنسية هي التي تحتكرها و تصدرها من عنابة التي يخرج منها سنويا ما بين 10 و 12 ألف قنطار. في سنة 1788 أمكن لهذه الشركة أن تجمع 25 ألف قنطار في عنابة، ويعود السبب في هذا التصدير غير العادي إلى الطاعون الذي قضى على الكثير من صناع البرانس (25). كانت مرسيليا أكبر زبون لجلود الجزائر، فقد كان يصل إليها ما قيمته 100 ألف جنيه سنويا. كانت الجزائر تصدر كميات كبيرة من الشموع، و كانت الدار الفرنسية في مدينة الجزائر تحتكر شموع الجزائر و معسكر (26). هذا و كانت فرنسا تحتكر صيد المرجان منذ القرن السادس عشر في أغلب الأوقات. أصبح ريش النعام موضوع تجارة هامة منذ أواسط القرن الثامن عشر، توفره منطقة ميزاب و يصدر خاصة إلى ليفورنة و فرنسا (27).

أهم الواردات الجزائرية من البلدان الأوربية كانت تأتي من مدينتي مرسيليا وليفورنة. في كل سنة تأتي من مرسيليا 5 إلى 6 سفن محملة بالسكر و البن و الحديد و الورق

و الخـرنوبات (الكثير من الأمشاط و من الحرير و القرياش و أغطية سجاد و قماش أبيض و التابيل الحريرية القطالونية). يمكن تقدير قيمة هذه التجارة بـ 700 إلى 800 ألف جنيه، تسيطر التجار الفرنسية على نصفها تقريبا و يسيطر اليهود و الأهالي على الباقي. تأتي من ليفورنة سفينتان أو ثلاث محملة بالنسيج الألماني و النسيج الوصلي من الهند و القماش الدمشقي و الأشرطة و قطيفة جنوة و الزجاج و المرايا و بعض السكر و البهارات. يمكن تقدير قيمة هذه السلع بمليون جنيه (28).

كانت التجارة مع أوربا مراقبة من الدولة. فالقمح لا يخرج من موانئ البلاد إلا بترخيص من الداي، و قد مكنت هذه المراقبة المسؤولين من الحصول على أموال ضخمة. فقد كان البايات يشترون القمح بسعر الرحبة (السوق) في عنابة، أي بسعر يتراوح بين 8 إلى 12 بياستر للكيلة، فيبيعونه بسعر أعلى يتراوح بين 26 و 30 بياستر (29). كذلك الحال بالنسبة للصوف،إذ يشتري البايليك هذه المادة بحوالي 8 بياستر و يبيعها بحوالي 10 بياستر(30)، و كذلك كان يفعل مع الجلود.

لم تكن الجزائر تملك أسطولا تجاريا، فالتجارة الخارجية عبر البحر كانت تعتمد في نقل البضائع على السفن الأوربية. و كما كانت فرنسا هي المتعامل الرئيسي مع الجزائر، كانت هي كذلك المسيطرة على النقل بين الجزائر و باقي العالم.

ما يمكن قوله حول التجارة الخارجية هو أن الصادرات مواد أساسية للسكان و خاصة الحبوب منها، و أن الواردات في أغلبها كماليات لا تلبي حاجات السكان، بل تلبي رغبة الفئات المحظوظة في حياة الرفاهية. هذه التجارة ضعيفة جدا،إذ لم يتجاوز رقم المعاملات سنة 1830 مبلغ 5 ملايين من الفرنكات (31). إذا كان هذا الضعف يعبر عن شيء، فإنه يعبر عن ضعف اقتصاد البلاد و عن تلك العزلة التي عاشتها الجزائر خلال ثلاثة قرون من الحكم التركي.

النقود المتداولة

كانت النقود المتداولة في البلاد الجزائرية متنوعة جدا،و كانت تختلف بعض الشيء من جهة إلى أخرى.استعملت بقايا النقود الزيانية ،مثل الزياني الذهبي المقدر بحوالي مائة أسبر (32)،كما استعملت نقود آتية من الخارج سواء من البلدان الإسلامية أو من بلدان أوربا.لم تتمكن النقود التي ضربها الأتراك من فرض نفسها في السوق.

كانت العملة المحلية تُضرب بدار النقود أو دار السكة،التي كان موقعها قريبا من قصر الداي في الجنينة،قبل أن ينقلها الداي علي خوجة إلى حصن القصبة،مع الخزينة العامة سنة 1817.كان الصناع اليهود هم الذين يضربون العملة،تحت المراقبة المباشرة لأمين السكة

التركي،الذي يمسك الخواتم،و كان هذا الأمين يحضر دائما عند ضرب العملة الذهبية والفضية،و مع هذا كان يُترك للخواص ضرب بعض الكميات من هذه النقود التي تصدر باسم السلطان العثماني (33).يذكر هايدو أن اليهود كانوا يغشون عند صناعة النقود (34).

تعرض هايدو إلى النقود التي كانت تتداول في مدينة الجزائر في أواخر القرن السادس عشر، مؤكدا أنها متعددة مثل تعدد اللغات المستعملة فيها. فهناك الأوقيات الإيطالية والإسبانية، و هذه الأخيرة متداولة أكثر من مثقال فاس و سكاكين الدولة العثمانية. لأن العملات الأجنبية التي كانت تحظى بإقبال أكبر هي عملات إسبانيا (الريال، الكواترو (الرباعي) الذي يساوي أربعة ريالات، و هو الدورو الذي يساوي 5.5 فرنك). أما العملة الخاصة بالجزائر فإنها كانت تتكون من قطع من النحاس، الفضة و الذهب: البورب، و هو من النحاس مستدير الشكل، الأسبر، و هو من الفضة مربع الشكل، تشكل 10 قطع منه ريالا إسبانيا. يضرب البورب و الأسبر في مدينة الجزائر فقط. تصنع قطعة الربيع من الذهب الممزوج بالنحاس و هي مستديرة و تساوي 25 أسبر. يضرب الربيع و الزيانية في تلمسان. هذه الأخيرة تساوي مائة أسبر، بمعنى تساوي دوبلتين (حوالي 3.25 فرنك) يُتداول الرّبيع والزيانية في كل مكان من الجزائر، في الصحراء و مملكة كوكو و إمارة بني عباس. هناك السلطاني أيضا، و هو من الذهب الخالص و يساوي 140 أسبر، و يضرب في مدينة الجزائر فقط الأوقية الإسبانية تساوي 125 أسبر عادة، لكن جعفر باشا رفعها إلى 130 سنة 1580. يساوي السكين أو السلطاني القسطنطيني 150 أسبر، و يساوي مثقال فاس 175 غير أن جعفر باشا رفع السلطاني إلى 175 سنة 1580 و رفع المثقال إلى 225 أسبر، لكون كميتهما قليلة. يجعل تدخل الباشوات قيم هذه العملات غير محددة (35).

مثل هذا التنوع في النقود المتداولة في أواخر القرن السادس عشر نجده في أواخر عهد السلطة التركية في الجزائر. من القطع النقدية الذهبية نذكر السكين أو السلطاني أو الدينار، ومن أجزائه النصف و الربع و هو يساوي 10 ريالات كورة، ثم ارتفعت قيمته إلى 12 ريالا (7.20 فرنك). و من القطع النقدية الفضية الريال بوجو و يساوي 3 ريالات كورة و يقسم إلى نصف بوجو و الربيع و الثمين (36). في سنة 1821 ضرب الداي حسين الدورو الجزائري و هو يساوي 2 بوجو (3.60 فرنك) (37).هناك قطع أخرى مثل الموزونة (0.70 فرنك). والبدقة شيك أو الريال (0.45 فرنك) و الدرهم (حوالي نصف فرنك) (38)،خمس الفلس، بينما تساوي الموزونة الواحدة 30 درهما و يساوي الريال كورة 200 درهم (39). و من القطع النقدية النحاسية المغشاة بالفضة نجد الخروبة التي تساوي 15 درهما تقريبا.

كانت دار السكة تلجأ إلى طرق مختلفة للحصول على الذهب والفضة، إما بشراء السبائك الذهبية و الفضية من الصاغة و الأهالي الذين حصلوا عليها بفعل غنائم البحر وممارسة التجارة، و إما باستعمال جزء من ذهب و فضة الخزينة، و إما باستيرادهما من

البلدان الأوربية أو من بلدان السودان الغربي (40). هذا و قد استعملت النقود الأجنبية لضرب النقود المحلية. يشير بارادي إلى أنه يستخرج من البياستر الإسباني الواحد (الذي يساوي 36 موزونة) 42 قطعة. (41)

من العملات الأوربية التي كانت متداولة في الجزائر نذكر قرش ليفورنة و تالاري النمسا و الجنيه و الريال و الفرنك الفرنسية (42). لكن تبقى العملات الإسبانية أكثر العملات الأوربية انتشارا، و منها قطعة الدبلون (5.40 فرنك) و الدوقة و الكرونة و الدورو (5.25 فرنك) و القرش و الدولار والقرش المكسيكي والريال الإسباني و الأسبر الفضي (15 ريال إسباني) و البستول الإسباني و الكاتربيل الإسباني (86 فرنك) (43). تعود أسباب انتشار العملات الأجنبية إلى عوامل كثيرة، منها تعامل الجزائر مع الشركات الأجنبية وحصولها على الإتاوات من بلدان أوربا و على الفدية مقابل تحرير الأسرى (44). يضاف إلى ذلك ما كان يحصل عليه القراصنة من نقود في غنائم البحر و ما كانت تخلفه وراءها الحملات الأوربية على مدينة الجزائر بصفة خاصة. لكن يبقى العامل الرئيسي في هذا الانتشار مرتبطا بضعف العملات المحلية الناتج عن ضعف الاقتصاد الجزائري.

كانت العملات الإسبانية، خلال القرنين السادس عشر و السابع عشر هي العملات العالمية تقريبا، بسبب الكميات الضخمة من الذهب و الفضة التي كانت تحصل عليها إسبانيا من العالم الجديد. هذا من جهة، و من جهة أخرى، كانت الظروف مواتية لتغزو العملات الإسبانية هذه الجزائر. فقد جلب المهاجرون الأندلسيون، من المسلمين و من اليهود، كميات كبيرة من العملة الإسبانية إلى سواحل المغرب، كما كانت السيطرة الإسبانية على بعض سواحل الجزائر، خاصة في الجهة الغربية، عاملا آخر من عوامل انتشار هذه العملات. فقد كانت القوات الإسبانية تستبدل تلك العملات مقابل المواد الغذائية التي تحصل عليها من الأهالي. وكانت إسبانيا تقدم كميات أخرى من عملاتها مقابل فدية أسراها أو بمناسبة إبرام اتفاقيات السلم، كما حدث مع اتفاقية 1785 (45). هذا و كان الرياس يحصلون على العملات الإسبانية سواء في البحر أو في جزر الباليار أو في السواحل الشرقية لشبه الجزيرة الإيبرية التي كان ينشط فيها هؤلاء الرياس.

كانت عملات الدولة العثمانية و تونس و المغرب متداولة أيضا في الجزائر منها السلطاني أو المحبوب العثماني، و السلطاني المغربي و المثقال المغربي و الموزونة المغربية والفلس المغربي، و السلطاني التونسي و الدرهم الناصري و الفلس أو الأسبر القفصي التونسي (46). كانت العملة التونسية تنتشر في الجهة الشرقية من الجزائر، بينما كانت تنتشر العملة المغربية في الجهة الغربية. كان المحبوب مطلوبا جدا من طرف الحجاج و التجار الذين كانوا ينقلون منه كميات كبيرة إلى المشرق (47).

لتقريب الصورة حول العلاقة بين السلع و العملة نشير إلى أن سعر الخروف في بايليك التيطري كان حوالي 4 فرنكات، في أواخر العهد التركي و أن الصاع من القمح (140 لترا) كان سعره يتراوح بين 4 و 5 بوجو و أن الدجاجة الواحدة كانت تباع بأربع موزونات والقطعة من الخبز (500 غ) بموزونة واحدة (48).

موارد الخزينة

كانت موارد الخزينة متعددة،منها الضرائب، الرسوم و مختلف الإتاوات ومداخيل الأراضي و الغنائم.

1 ـ الضرائب : وهي العشور و المونة و الغرامة.

ـ العشور: يؤخذ العشور عن إنتاج أراضي الملكية الخاصة، التي تخضع للسلطة التركية، و هو يساوي مبدئيا عشر المحاصيل، يدفعه الجميع، بما فيه الفئات التي لها امتيازات. يدفعه الأتراك و الكراغلة و الأجواد و البايات و غيرهم.الأراضي التي يشغلها المخزن أو التي يحتلها المرابطون هي وحدها التي يمكن أن تُعفى من العشور (49). و هذا العشور يُجمع على أساس عشر الإنتاج المحقق بالفعل. و لكن " عندما علم الأتراك أن جباة الضرائب يقومون بتجاوزات، أي أن الدولة لم تكن تقبض بالضبط جميع المبالغ التي تعود لها و أن الجباة كانوا يجمعون أكثر من اللازم، عندئذ وجدوا وسيلة تمنع تلك التجاوزات التي كانت تثبط الفلاحين و تعوقهم ".: " لقد فرض على كل محراث يجره ثوران حمولة بعير من القمح و أخرى من الشعير، و عندما يأتي السكان بمقادير رسومهم، فإن القابض يسلمهم مقابل ذلك وصلا " و " القائد في قبيلة مجبر على إحصاء عدد الفلاحين المالكين للمحاريث، و بعد ذلك يسلم نسخة صحيحة للقابض الذي يجمع الضرائب حسب ذلك الإحصاء، و يعطي الإيصالات لكل فرد ويتفقد الكميات المقبوضة من الحبوب ليتمكن من محاسبة القابض الرئيسي في الدولة. و لكن عندما يثبت أن الأراضي لم تنتج شيئا، فإن المزارعين يعفون من تلك الضرائب "(50). لا يكتفي الأتراك عادة بأخذ العشور بل يفرضون إلى جانبه كمية من التبن، كما نجد في القبائل السبع المجاورة لمدينة المدية، حيث يدفع الأهالي الذين يخضعون للعشور شباكين من التبن عن كل زويجة (جابنة،محراث يجره ثوران) لمزارع الباشا، بينما يدفع الذين يقطنون أراضي المونة 4 شبكات لمزارع الباي (51).

يعرف القابض المكلف بالعشور، في بايليك الشرق، باسم قائد العشور، و هناك قائدان واحد مكلف بالجهة الشرقية و آخر بالجهة الغربية (52) من البايليك.

- المونة: الونة (المؤونة) هي في الحقيقة نوع من العشور تفرض على نوع آخر من الأراضي المختلفة في ملكيتها و في علاقة سكانها بالسلطة التركية. في بايليك التيطري، تسلم المونة إلى (دار المونة) لحساب الباي (53). يبدو أن المونة تفرض على القبائل من غير الرعية،أي تلك القبائل التي لها نوع من الاستقلال الذاتي كما هو الشأن مع فليسة التي لم يتمكن الأتراك من التدخل في شؤونها الداخلية. تقدم هذه القبيلة ما قيمته حوالي 500 ريال بوجو من التين والزيتون و الأغنام و الحبوب و الفضة (54).

- الغرامة: إضافة إلى ما تدفعه قبائل الرعية من عشور فإنها تخضع للغرامة أو السخرة. تقسم هذه القبائل، من غير الأتراك و الكراغلة و الأجواد و المرابطين أو الأشراف و من غير موظفي المخزن، إلى القبائل (الغرم) و القبائل (السخر). تتم السخرة عادة في أراضي البايليك،كما سنرى لاحقا. أما الغرامة فهي ضريبة نقدية أو عينية. غالبا ما كانت تدفع في بايليك الشرق عينا : الحيوانات من جمال و خيول،الخ و ذلك بسبب نقص النقود لدى الأهالي (55).و إنا كنا لا نملك معلومات كافية عن هذه الغرامة في بايليكي الشرق و الغرب و دار السلطان، فإننا نملك ما هو كاف من المعلومات عن بايليك التيطري، تسمح لنا بتقديم صورة واضحة عنها.

بالإضافة إلى العشور، تدفع قبائل الرعية، في هذا البايليك، مجموعة من الرسوم الإضافية تجتمع تحت اسم الغرامة، و هي نوعان؛ ثابتة و متحولة، في الصيف و في الشتاء. الأولى تُدفع نقدا و عينا و الثانية تدفع نقدا فقط تُدفع الغرامة من طرف القبيلة باعتبارها كائنا جماعيا. باسم الغرامة الثابتة،مثلا، يدفع أولاد علان في التيطري ما قيمته 7200 فرنك في الصيف و 3600 فرنك في الشتاء، و تدفع ريغة ما قيمته 5400 صيفا و 3600 شتاء، و تدفع قيادة ديرة 288 ألفا صيفا و 216 ألفا شتاء. هذا بدون حساب الضيفة و العلفة، و هذه الأخيرة هي تبن و شعير تقدمها قبائل ديرة للمحلات التي تقطع أراضيها كل سنة في الربيع، و الزبدة التي تقدمها قبائل أخرى للبايليك. تقدم قبائل أخرى باسم الغرامة ما يعرف بالفليج، وهو نسيج الخيام و الغراير أو الأكياس و العماير الخ. هناك قبائل أخرى في جنوب التيطري تدفع غرامة من الزبدة و الأغنام و الخيول المجهزة (56).

هناك مجموعة من الغرامات غير الثابتة،مثل ضيفة الباي، التي تعرف في بايليك الشرق و بايليك الغرب باسم ضيفة الدنوش، بمداخيلها يشتري الباي أغلب الهدايا التي يقدمها للداي (57). يحدد الباي قيمتها سنويا حسب أهمية القبيلة و محاصيلها. جزء منها يدفع صيفا و الجزء الآخر يدفع شتاء. و هناك الحصة التي تؤخذ من القبائل الرحل التي تأتي إلى التل لشراء الحبوب، مثل قبائل أولاد نايل

و لرباع و حلفائهما. كانت الحصة تساوي دورو إسبانيا واحدا عن كل حمولة جمل، في أواخر العهد التركي. و هناك غرامة تعرف باسم حق الرعي، ففي كل سنة يمر عون يعرف باسم قائد شط الشيح بجولة في كل قبائل التل ليبحث عن خيام قبائل رحمان و الزناخرة و غيرها من القبائل الصحراوية المقيمة مؤقتا في التل مع قطعانها ليأخذ من كل مالك قطيع خروفا سمينا باسم حق الرعي، و هذه الغرامة تعود إلى أواخر القرن الثامن عشر. هناك عون آخر يعرف باسم قائد الجيال، يأخذ عن كل أجنبي عن القبيلة، يقيم فيها، دون أن يكون خماسا أو راعيا، ما بين 3.6 و 7.2 فرنك. هناك الغرامة السنوية التي يخضع لها سكان المدن الصحراوية و تتكون من (كسوة امرأة) و فليج أو نسيج الخيام و غراير أو الأكياس الصوفية و هوايع أو برادع الجمال. هناك اليوباشي و هي الغرامة التي يدفعها الغرباء عن القبائل التي يزرعون أراضي في أقليمها، و هي عبارة عن 4 زيانيات تساوي 6.3 فرنك (58).

و نشير هنا إلى ما كان يدفعه عاهلا بني عباس و كوكو، فقد كانا يقدمان هدايا هامة كل سنتين، في حالة السلم. و هذه الهدايا ما هي إلا ضريبة في الحقيقة. تتجاوز هذه الهدايا قيمة خمسمائة دوقة، في أواخر القرن السادس عشر، جزء منها نقدي و جزء عيني يتكون من الجمال و الأبقار و الأغنام. بعد دفعها يرسل الداي إلى كل منهما ثيابا تركية و حساما (59).

و مادمنا في منطقة بلاد القبائل، نشير إلى أن كل قبيلة من القبائل التابعة لبرج بوغني كانت تقدم ما قيمته 125 ريالا . يقدم بنو طور ثلاثة صيعان من القمح و صاعين من الشعير عن كل زويجة. و حسب تقديرات أخر وكيل للأتراك في برج سباو، فإن ما كان يجمع في هذا البرج يصل إلى ألفي صاع من الشعير و ألف صاع من القمح و مائة حمولة من الزيت و مائة حمولة من التين و 64 خروفا سمينا و مائة خروف عادي (60)

- عوائد سكان المدن: من أهم العوائد ما يعرف بضيفة الباي و ضيفة دار السلطان؛ الأولى تدفعها المدن الصغيرة التي لا نوبة لها، و هي تتراوح بين ثمانمائة ريال و ألفي ريال و 14 حصانا؛ و الثانية تقدم للآغا، عن طريق شيخ البلد، بمناسبة استبدال النوبة، و تختلف من مدينة إلى أخرى. قد تصل، في المدن الرئيسية مثل المدية، إلى ثلاثة آلاف بوجو، بينما لا تتجاوز 350 بوجو في مدينة دلس، و هي من المدن المتوسطة (61).

يضاف إلى هذه العوائد ما تدفعه الجماعات الحرفية في المدن و كذلك الطوائف مثل طوائف اليهود و النصارى و بني ميزاب، في مدينة الجزائر، وما تدفعه الدكاكين و الحانات. إذا أخذنا أصحاب هذه الأخيرة وجدنا أن كل واحد منهم " ملزم بدفع اثنين دورو إسباني شهريا أي حوالي ثلاثين فرنكا عن دكانه و بوجو واحد، أي حوالي ستة فرنكات عن كل برميل خمر يبيعه مع كراء شهري إذا كانت الحانة ملكا للدولة "(62). مع العلم أن الحرفيين ملزمون بالعمل المجاني (السخرة) في المشاريع الكبرى التي تقررها السلطة، خاصة المشاريع المتعلقة

بالمسائل العسكرية.

2 ـ الرسوم: كانت الرسوم عديدة و مرتبطة أساسا بالتجارة. هناك رسم التنقل من المناطق الجبلية في جرجرة إلى المناطق السهلية مثلا. إذا أراد فرد من هذه المنطقة أن ينتقل منها فإنه يُصحب من طرف أحد شيوخ مخزن عمراوة إلى برج سباو. هناك يسلمه قائد البرج رخصة السفر مقابل حق معلوم يدفعه. بالنسبة للقبائل غير الخاضعة في هذه المنطقة لا تسلم الرخصة إلا من آغا العرب. لابد من الذهاب إذن إلى مدينة الجزائر في كل سنة للحصول على الرخصة مقابل ستمائة ريال بوجو. و معلوم أن القوافل تتجه عادة من بلاد القبائل نحو قسنطينة و عنابة تحمل التين و الزيت ثم تعود بالحبوب و الحيوانات (63).

يدفع التجار المزابيون أو غيرهم الذين يتجهون إلى الجزائر عبر المدية أو يتجهون إلى هذه الأخيرة لاستبدال منتوجات الجنوب بمنتوجات جزائرية أو أوربية يدفعون، عند خروجهم من المدينة، رسما (جمركيا) محددا بمحبوب واحد عن كل حمولة بغل و بوجو واحد عن كل حمولة حمار (64).هناك الرسوم التي تعرف باسم المكس، و هي تختلف من بايليك إلى آخر، فالحيوانات و غيرها التي تدخل المدن بقصد البيع يدفع عنها أصحابها رسوما. في مدينة الجزائر حارس أو وكيل في باب عزون يستلم الرسوم و يقدم للدافعين تذكرة تسمح لهم بإدخال حيواناتهم أو غيرها (65).مع العلم أن الأتراك و الإنكشارية والصبايحية و القادة يعفون من دفع هذا المكس، و أن حراسة الباب تُدفع عنها أموال في شكل إكراميات عالية (66). تُفرض المكوس على بعض السلع التي تدخل الأسواق مهما كان موقعها. في بايليك التيطري مثلا يستلم الباي مكسا من 16/1 من الصاع عن الحبوب و رطلا عن حمولة بغل من الصابون و ثلاث طاسات عن حمولة بغل من الزيت، و الطاسة تساوي حوالي لترين. لا تفرض أية رسوم على باقي السلع. يجمع المكس قائد الرحبة الذي له تحت تصرفه مجموعة من المكاسين (67). يدخل في خانة الرسوم ما يأخذه المزور، مسؤول الشرطة عن بيوت الدعارة، التي تبلغ في مدينة الجزائر وحدها 24 ألف فرنك، كما يذكر شاو(68) .

هناك موارد احتكار و تسويق بعض المواد مثل الأصواف و الجلود و غيرها. بالنسبة للجلود مثلا يذكر بارادي أن الأبقار و الجمال التي تُذبح في داخل مدينة الجزائر تعود جلودها للبايليك الذي يصنع منها السروج التي يستعملها الجنود كما تُعطى جلود الأغنام التي تُذبح في هذه المدينة للجنود. يحتكر خوجة الجلود الذي يقدم مبلغا ماليا معينا كل شهر للبايليك، تجارة الجلود في الأرياف، فسكان الأرياف مجبرون على أن يقدموا له الجلود و أن يشتروها منه، و هو الذي يبيع هذه المادة للمؤسسة الفرنسية في مدينة الجزائر (69).

أولى الأتراك الرسوم الجمركية أهمية كبيرة، و هي مفروضة في الموانئ كلها. من هذه الرسوم، التي يستلمها نيابة عن الدولة قائد المرسى و الترجمان و بعض القباطنة، حق الرسو

في الميناء و هو 20 قرشا عن السفن الجزائرية و سفن الدولة العثمانية حتى و إن كان يملكها اليهود أو النصارى، و 40 قرشا عن السفن التي تعود للبلدان المسيحية المسالمة للجزائر، و 80 قرشا عن السفن التي تعود للبلدان المعادية. الأهم من ذلك هو الرسوم الجمركية بمعنى الكلمة المفروضة على الواردات و الصادرات عن طريق البحر (70). لم تكن هذه الرسوم ثابتة، يذكر بارادي، في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ،أن الواردات كان يُدفع عنها 5 % بالنسبة للأهالي و بالنسبة للأوربيين المسيحيين و 12 % بالنسبة لليهود، و يذكر كذلك أن الأوربيين المسيحيين كانوا يدفعون مثل اليهود قبل أن يسويهم الأتراك بالأهالي، و أن الأصواف وريش النعام الصادرة يُدفع عنها 2 % من سعر شرائها (71). و قد أورد سعيدوني، نقلا عن دابير، في القرن السابع عشر، أن الواردات كان يُدفع عنها 12.5 % و الصادرات 2 % فقط(72). و لعل المقصود هنا هو تجارة الأجانب، و يبدو أن الداي استدرك الخلل بين رسوم الواردات والصادرات فرفع رسوم هذه الأخيرة إلى 10 % سنة 1817، كما يذكر سعيدوني اعتمادا على مصدر آخر (73)،غير أن الأمر يتعلق هنا بالسعي لتعويض ما فقدته الجزائر من انحسار أعمال القرصنة،كما يبدو لنا. لقد اختلفت الرسوم من وقت لآخر و كانت خاضعة للاتفاقيات والمعاهدات المبرمة مع الدول الأوربية.

3 ـ المصادرة و التغريم: للدولة مصدران هامان للحصول على موارد هامة و هما المصادرة و التغريم. كانت المصادرة تشمل الأملاك المنقولة و الثابتة. الكثير من المسؤولين الأتراك صُودرت أموالهم و أملاكهم بعد مقتلهم أو وفاتهم أو إبعادهم. و معلوم أن التركات الشاغرة التي غاب عنها أصحابها، و التركات التي مات أصحابها بدون أن يتركوا ورثة تصبح ملكا للبايليك. و كانت مصادرة أملاك الأهالي مُمارسة و من هذه الأملاك الأرض. الأملاك المصادرة تُباع في المزاد العلني تحت رعاية البيت مالجي و مساعدة العدل، و يدخل ناتجها خزينة الدولة.لا يحصل الموظفان على أجرة، بل يدفعان للخزينة حقا شهريا من 400 بوجو، أي ما يقرب سبعمائة فرنك، و يتكفلان، من جهة أخرى بالأعباء التالية : ـ تكاليف دفن الفقراء و تقديم صدقات بمبلغ معين لمائتي فقير كل يوم خميس ـ تقديم هدايا كل يوم عيد أضحى إلى الباشا و الضباط و خدم دار الداي (74). أما التغريم هنا فهو عقوبة تسلط على الفرد أو الجماعة، خاصة عند وقوع الحروب حيث تُغرم القبائل حين تُهزم.

4 ـ الغنائم: و هي نوعان، غنائم البر و غنائم البحر.

ـ <u>غنائم البر</u>: و هي الغنائم التي تحصل عليها القوات التركية سواء في حروبها ضد القبائل المتمردة أو المتأخرة في دفع ما عليها من ضريبة أو في حروب التوسع. تشمل هذه الغنائم النقود و قطعان الماشية و الحبوب و غيرها من المنتوجات الزراعية أو غير الزراعية. كثيرا ما كانت الإرادة في الحصول على الغنائم هي المحرك الأساسي للغزوات التي تنظمها السلطة، خاصة في الجهات التي لم تستقر فيها هذه السلطة بصفة دائمة. هناك غنائم أخرى كان مصدرها

الحروب التي تنشب بين أتراك الجزائر و أتراك تونس أو بين أتراك الجزائر و ملوك المغرب أو بين الأتراك و الأسبان في الجهة الغربية. يضاف إلى ذلك الغنائم المحصل عليها أثناء الحملات الأوربية على السواحل الجزائرية، و على مدينة الجزائر بصفة خاصة و من العناصر التي كانت تتكون منها هذه الغنائم الأسرى الذين كانوا يباعون في أسواق العبيد (البادستان) أو يطلق سراحهم مقابل الفدية. و كانت الغنائم فردية و جماعية أما الغنائم الفردية فكانت تذهب إلى الجنود كأفراد أما الغنائم الجماعية فهي غنائم تعود إلى السلطة.

- غنائم البحر: يقول الأستاذ سعيدوني : " ظلت القرصنة لمدة طويلة موردا للرزق ومصدرا للثروة و عاملا حاسما في تنشيط الاقتصاد بالجزائر العاصمة، فكانت مهنة مربحة في نظر كثير من المؤرخين المحدثين،تنال الدولة من غنائمها حصة تتراوح بين السبع و العشر وتحظى بـ 12 % من أسعار السفن المحتجزة، و تضع تحت تصرفها كل الأسلحة الصادرة في عمليات القرصنة باعتبارها غنائم حرب مشروعة، كما أنها تنال قسطا وافرا من المبالغ التي تُدفع لافتداء الأسرى الأوربيين " لكن القرصنة بدأ نشاطها يتقهقر و غنائمها تتراجع منذ القرن الثامن عشر " رغم فترة الازدهار القصيرة التي عرفتها في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، بفضل جهود قراصنة مشهورين كالرايس حميدو و ملائمة الظروف الدولية، و التي ساعدت بقسط وافر في تغطية العجز المالي للإيالة بين سنتي 1805 و 1815 بأرباحها البالغة ثمانية ملايين فرنك "،إلا أن حملة اللورد إيكسموث سنة 1816 حطمت الكثير من سفن الرياس وأدى ذلك الحصار البحري الفرنسي إلى انقراض نشاطهم (75).

اختلف المؤرخون في النسبة التي كانت تحصل عليها الدولة من غنائم البحر فمنهم من يذكر الثمن و منهم من يذكر العشر و منهم من يذكر السبع.ما هو أكيد هو أن النسبة أخذت ترتفع مع تقلص حجم الغنائم. يذكر حمدان خوجة الخُمس. يقول: " عندما تُجلب الغنائم إلى مدينة الجزائر، تُباع للسكان و توزع قيمتها حينا على ذوي الحقوق و تأخذ الخزينة العامة الخمس كنصيب لها "،غير أن الخزينة لم تكن تحصل على حقها كاملا، ذلك " أن الأشياء الثمينة كانت تُؤخذ قبل الاطلاع على الغنائم. و في كثير من الأحيان تعلم الحكومة بذلك ولكنها تغض الطرف حتى لا تُفشل هؤلاء البؤساء الذين يعرضون أنفسهم للموت إما تعصبا للدين و إما رغبة في الحصول على الغنيمة " (76)

5 - إتاوات الدول الأجنبية و الهدايا القنصلية: كانت الدول الأوربية تدفع ثلاثة أنواع من الإتاوات هي: اللزمة، و هي التزام تعاقدي، مقابل السلم أو عدم تعرض الرياس للسفن التجارية للبلد المعني، أو مقابل التزامات تجارية، و العوائد و هي أعطيات وهدايا تُقدم بمناسبة تعيين القناصل أو بالمناسبات السعيدة أو مناسبات مجيء الوفود إلى الجزائر للتفاوض.

من الدول التي كانت تقدم اللزمة مقابل السلم، كل سنتين، نذكر الولايات المتحدة، نابل، البرتغال، هولندا، السويـد، الدانمارك.كان على الدانمارك و السويد و هولندا أن تسلم للجزائـر الحديد و خشـب البناء الـبحري و البـارود و الرصاص و الزفت. و الحبال و غيرها من مستلزمات البحرية. و كانت اللزمة تُقدر في المتوسط بحوالي 125 ألف فرنك. ابتداء من 1791 لم تعد اللزمة سوى 54 ألف فرنك تدفعها السويد سنويا و حوالي 50 ألف فرنك تدفعها البرتغال سنويا، عـلى سبيل المثال.و إنما كانت الولايات المتحدة قد تخلصت من اللزمة سنة 1815، بعد أن ضربت الجزائر بأحد أساطيلها، و ظلت تقدم العوائد. كما فعلت هولندا سنة 1816، بعد مشاركتها في حملة إيكسموث. فإن الدول الأربع الباقية قد ظلت تدفع هذه اللزمة إلى غاية احتلال الفرنسيين مدينة الجزائر سنة 1830 (77). في سنة 1791 دفع الأسبان 180 ألف فرنك لداي الجزائر مقابل الدخول في مفاوضات معه (بعد زلزال وهران) ثم التزموا بعد ذلك بدفع لزمة سنوية من حوالي 96 ألف فرنك مقابل امتيازات التجارة في وهران و المرسى الكبير. و كانت إسبانيا قد دفعت أكثر من مليوني فرنك و مائتي قنطار من البارود مقابل معاهـدة السلم التي وقعتها مع الجزائر سنة 1786. و في سنة 1804 قدمت للداي تسع قطع من المدفعية. و في سنة 1826 قدمت لـه مليونا و نصف المليون من الفرنكات مقابل دين عليها لليهودي بكري،و 150 ألف فرنك هدية (78).في سنة 1764 تفاوضت سردينيا مع الداي، بعد أن دفعت 216 ألف فرنك ملتزمة بدفع لزمة سنوية من 54 ألف فرنك، و قد ظلت تدفعها إلى سنة 1816 ففي هذه السنة تفاوض ملك سردينيا مع داي الجزائر، الذي كان تحت ضغط الإنجليز، فحصل على إبطال القرصنة و العبودية بشرط أن يقدم هدايا و يدفع فدية تقدر بـ 2500 فرنك عن كل عبد يُحرر. و كانت مدن الانسياتيك الجرمانية تدفع لزمة في شكل هدايا. في سنة 1750 كان على هامبورج مثلا أن تقدم للجزائر 52 مسند مدفع و ثلاثمائة قنطار من البارود. ظلت هذه المدينة تدفع لزمتها إلى أن أخبرها الفرنسيون بسقوط مدينة الجزائر في أيديهم سنة 1830(79).

كانت تونس تدفع إتاوة للجزائر،لا بسبب القرصنة، لكن بسبب التبعية المفروضة عليها. كانت إتاوتها من الزيت و الصابون السائل و هدايا أخرى خاصة من الشاشيات، التي كانت تُقدم لكبار الشخصيات. تقدر قيمة هـذه المواد بحوالي 150 ألـف جنيه (80).

على الرغم من أن فرنسا لم تكن تدفع لزمة مقابل السلم، لأنها من أصدقاء الباب العالي،إلا أنها كانت تدفع لزمة الامتيازات التجارية.كانت دار فرنسا، في مدينة الجزائر، تدفع لزمة تساوي ضعف الأعطية القنصلية، و كان يستفيد من هذه اللزمة أكثر من مائتي شخصية (81). و ظلت شركة إفريقيا الملكية (الفرنسية) تدفع،على مدى قرنين،لزمة من 150 ألف فرنك، مقابل إقامة الباستيون (باستيون فرنسا) في القالة. في أوائل عهد الجمهورية

رُفعت اللزمة هذه إلى 180 ألف فرنك (82). من جهة أخرى ظلت فرنسا ملزمة بدفع ديون تجارها الفلسين في الجزائر (83)، مدة طويلة.

بعد القطيعة التي وقعت بين الجزائر و فرنسا في أوائل القرن التاسع عشر، حلت إنجلترا محل شركة أفريقيا الملكية (الفرنسية) بخصوص الامتيازات التجارية و صيد المرجان وظلت تدفع للسلطة التركية لزمة من 350 ألف فرنك دون أن تستفيد من هذه الامتيازات، كما ظلت تدفع ألف فرنك مقابل جواز سفر كل سفينة من سفنها التجارية التي تبحر في المتوسط حتى سنة 1827 (84).

تتكون العوائد من نوعين من الهدايا، هدايا بمناسبة مجيء قنصل جديد و هدايا تقدم في المناسبات السعيدة، مثل رأس السنة، و الأعياد أو بمناسبة معالجة قضايا هامة. لقد نُظمت الهدايا القنصلية في عهد الباشا بابا علي الذي اشترط أن يُستبدل القناصل كل سنتين، بالنسبة لفرنسا و السويد، حتى يحصل على الهدايا بانتظام (85). غير أن هذا التنظيم لم يكن محترما دائما. حسب بارادي، بلغت قيمة الهدايا القنصلية الهولندية 30 ألف جنيه كل سنتين، وبلغت الهدايا الدانماركية القيمة نفسها و الهدايا السويدية 30 ألف فرنك. تقدم إنجلترا الهدايا القنصلية كل خمس سنوات، و تُقدم الهدايا الفرنسية كل ست أو سبع سنوات (86).

توزع الهدايا على الداي و حاشيته. يحصل عليها هو نفسه و الموظفون و الخدم الذين يسهرون على راحته، تماما كما يحصل في توزيع الهدايا بمناسبات الدنوش. ابتداء من عهد بابا علي أصبحت هدية الداي والخزناجي و الآغا وخوجة الخيل (وهم كبار الحكومة) تتكون من ساعة دقائق مرصعة بالألماس و خاتم رفيع القيمة و قفطان مدبج أو مرصع بالذهب و قطعة من الكتان طولها 24 ذراعا. و تتكون هدايا الكتّاب الأربعة و الطباخين من ساعة دقائق. وتتكون هدية وكيل الحرج من أصواف و جلود. أما هدايا البيت مالجي و قبطان الميناء والرياس و الباش شاوش و تراجمة دور القناصل و غيرهم من قطع من الكتان (87). هنا ونجد ضمن هذه الهدايا القنصلية حتى الأسلحة الرفيعة و ذخيرتها، المجوهرات، علب الموسيقى الحرير، الرخام الإيطالي، المزهريات الجميلة، شكولاطة تورين و غيرها (88).

6 ـ مداخيل أراضي البايليك: كانت أراضي البايليك (أراضي الدولة) مُستغلة تمام الاستغلال. منها ما يُمنح لقبائل المخزن و منها ما هو مستعمل لرعي حيوانات البايليك و ما هو مستعمل في أغراض عسكرية الخ. البقية منها يوظفها البايليك في الإنتاج الزراعي، وهي مستغلة إما عن طريق أعمال السخرة و إما عن طريق الخماسة. الخماس هو الذي يفلح الأرض مقابل الخمس من الإنتاج، و الدولة هي التي توفر له الأرض و المحراث و البذور مقابل حصولها على الريع العيني.

كانت أراضي رتب بايليك قسنطينة مستغلة إما عن طريق السخرة التي تفرض على القبائل المجاورة لها و إما عن طريق الخماسين (89). تُستغل مزارع بايليك التيطري (مزارع الباي) عن طريق التويزة (عمل جماعي بدون مقابل) و عن طريق الخماسين و الوكلاء. أما مزارع الباشا في هذا الإقليم فهي مستغلة عن طريق التويزة أو السخرة (90). غالبا ما تلجأ الدولة إلى أن تفرض على قبائل الرعية التابعة لخوجة الخيل أو البايات التطوع للعمل بعدة جابدات في أراضي البايليك (91). كما تلجأ الدولة لكراء الأراضي مقابل ما يعرف بالحكر،كما نجد في القاطعة الشرقية. و الحكر هو كمية من النقود تفرض على كل جابدة (25 فرنك). و الجابدة هي كل ما يمكن فلاحته بواسطة محراث يجره ثوران، و هو حوالي 15 هكتارا. و يختلف الحكر عن الجبري، في القاطعة الشرقية، في أن الجبري إتاوة سنوية ثابتة مهما كانت مساحة الأرض المزروعة.كان هناك موظف في الشرق مكلف بجمع الإتاوة العينية المسماة جبري، و هو تحت إشراف قائد الدار، و كان هناك قائدا جبري اثنان (92). نفس أساليب الاستغلال هذه نجدها في أحواش دار السلطان و مزارع بايليك الغرب.

رغم هذه المصادر المتعددة فإن الخزينة في العهد التركي كانت فقيرة نسبيا خاصة في أواخره. على الرغم من أن النفقات تكاد تنحصر في دفع رواتب الجند إلا أنها كثيرا ما عجزت عن دفعها.لعل هذا هو السبب الذي جعل الأتراك شديدي الحرص على الأموال العمومية. يقول باراني: " لا وجود لدولة مقتصدة في الأموال العمومية اكثر من حكومة داي الجزائر"،الأشغال العمومية كلها تتم عن طريق السخرة التي تفرض على الجميع و حتى على اليهود (93).

الأوضاع الاجتماعية

يذكر حمدان خوجة، في كتابه المرآة الصادر سنة 1833،أن عدد سكان إيالة الجزائر كان عشرة ملايين نسمة. لكن الإحصائيات الفرنسية تنفي هذا الرقم نفيا قاطعا. فحسب إحصاء 1856، بلغ عدد سكان الجزائر 2.3 مليون نسمة فقط لا بد أن نلاحظ هنا أن السلطة الاستعمارية لم تكن قد امتدت في هذه السنة إلى كل جهات إقليم إيالة الجزائر في العهد التركي، و بالتالي فإن هذا الرقم يكون أقل من الرقم الحقيقي. خاصة إذا علمنا أن عمليات الغزو كانت سببا في مقتل عدد كبير من السكان خلال ربع قرن من العمليات العسكرية.لهذا يذهب بعض المؤرخين إلى القول أن عدد السكان في الجزائر كان حوالي ثلاثة ملايين نسمة، و يبدو هذا الرقم معقولا باعتباره رقما تقريبيا.

كان هؤلاء السكان موزعين على المدن و القرى و الأرياف. لكن أغلبيتهم الساحقة كانت تعيش في الأرياف. يؤكد المؤرخون أن حوالي 90 % منهم كانوا ريفيين. معنى هذا أن سكان المدن كانوا أقل من 300 ألف نسمة انطلاقا من الرقم التقريبي الذي هو ثلاثة ملايين نسمة.

أهم المدن الجزائرية، في أواخر العهد التركي هي الجزائر، قسنطينة، وهران تلمسان، عنابة، معسكر، مازونة، المدية، البليدة، بسكرة، مليانة، مستغانم، بجاية المسيلة، تبسة، عين ماضي، تقرت، ورقلة الخ. تقطن هذه المدن طوائف تختلف من مدينة إلى أخرى، لكن بعض الطوائف نجدها في أغلب المدن، فطائفة الحضر نجدها في كل المدن و كذلك البراني، كما يسمون في مدينة الجزائر، و نجد الأتراك في المدن الكبرى خاصة في مدينة الجزائر، كما نجد الكراغلة في أغلب المدن و حتى خارجها، ونجد اليهود موزعين في أغلب المدن، في الجزائر، تلمسان، وهران، معسكر، مستغانم، قسنطينة و في واحات وادي ميزاب وفي قرى بلاد القبائل، في المدية و في بجاية. و نحن إذ لا نستطيع أن نتطرق لسكان كل المدن فإننا نقتصر على سكان مدينة الجزائر التي أمكن لها أن تستقطب كل الطوائف لكونها عاصمة البلاد و القرصنة.

سكان مدينة الجزائر

كان الحسن محمد الوزان (ليون الإفريقي) قد قدر سكان مدينة الجزائر، في مطلع القرن السادس عشر بنحو أربعة آلاف كانون (94). و معنى هذا أنها كانت أصغر من مدينة بجاية التي كان بها ثمانية آلاف كانون (95). غير أن هذه المدينة نمت بسرعة كبيرة، نتيجة هجرات الأندلسيين إليها و توافد الأتراك و الأهالي عليها، لأنها أصبحت مقر السلطة المركزية و ميناء القرصنة الكبير. قدر هايدو سكانها في أواخر القرن السادس عشر بحوالي مائة ألف ساكن (96). تذكر رسالة من أحد الفرنسيين يدعى جيرني، إلى أحد مستشاري الملك (97)، محررة سنة 1630، أن عدد سكان الجزائر بلغ أكثر من 200 ألف نسمة سنة 1621، غير أن الطاعون أتى على ما بين خمسين و ستين ألف نسمة. توزع الرسالة هؤلاء السكان كما يلي: 30 ألفا من الأتراك، 97 ألفا من الأهالي، 10 آلاف من اليهود، و ما بين 18 و 20 ألفا من الأسرى أو العبيد المسيحيين. في أواخر القرن الثامن عشر، قدر بارادي سكان المدينة كما يلي: 50 ألف نسمة، حوالي 6 آلاف منهم كراغلة، 3 آلاف تركي مشرقي، 7 آلاف يهودي ألفان من العبيد المسيحيين و 32 ألفا من الأهالي، منهم بسكريون، زواوة، مزابيون، جرابة الخ (98). في تقريره المرفوع إلى الملك سنة 1827، بخصوص مشروع الحملة الفرنسية على مدينة الجزائر، أورد وزير الحربية الفرنسية كليمون طونير، الأرقام التالية بخصوص سكان المدينة : كان عدد سكان الجزائر يبلغ أكثر من مائة ألف نسمة، لكنهم لم يعودوا سوى حوالي 40 ألف نسمة، 6 آلاف منهم أتراك، 8 آلاف كرغلي، 20 ألف أهلي، 6 آلاف يهودي (99).

مثلما كانت مدينة الجزائر تجذب السكان من مختلف جهات البلاد و من مختلف جهات حوض البحر الأبيض المتوسط، في القرنين السادس عشر و السابع عشر على الخصوص، أصبحت تطرد السكان، في أواخر القرن الثامن عشر و أوائل القرن التاسع عشر، نتيجة عوامل عدة، منها تراجع نشاطات القرصنة، و تعرض المدينة للعديد من الحملات الأوربية و كثرة الاضطرابات و الفتن التي كانت تحدثها الانكشارية، كما كان لوباء الطاعون دور هام في تقهقر عدد سكانها.

هذا من حيث العدد، أما من حيث التركيبة الاجتماعية، فإن مدينة الجزائر قد ضمت العديد من الطوائف، الأمر الذي أدى إلى تعدد لغوي عجيب فيها. كانت اللغة التركية مستعملة من طرف الأتراك و الأعلاج. كما كانت مستعملة من طرف بعض الأهالي و العبيد نتيجة الاحتكاك بالأتراك. و كانت العربية لغة الأهالي مستعملة أيضا من الأتراك و العبيد المسيحيين بدرجة أو بأخرى. كما كانت الأمازيغية مستعملة بين السكان الذين جاءوا من بلاد القبائل ووادي ميزاب. و كانت هناك لغة رابعة متداولة هي التي تعرف باسم الفرنك، و هي خليط من كلمات إسبانية و إيطالية في أغلبها، و قد دخلتها بعض الكلمات البرتغالية، بعد أن أوتي بعدد كبير من الناس إلى الجزائر، من تطوان و فاس، بعد المعركة التي قتل فيها ملك البرتغال سيباستيان، سنة 1578. هذه اللغة الخليط تكلمها الجميع، الأتراك و الأهالي و حتى النساء و الأطفال، وقد تدعمت بما أتى به المسلمون من الأسرى، من إسبانيا و فرنسا وإيطاليا، بالإضافة إلى أعلاج هذه البلدان و اليهود (100).

الطوائف التي كانت موجودة بمدينة الجزائر هي :

1 - <u>طائفة الأتراك</u>: لما تعرض هايدو، في أواخر القرن السادس عشر، لسكان مدينة الجزائر من الأتراك قسمهم إلى صنفين: صنف الأتراك الأصليين الذي يأتون إلى الجزائر يوميا من الإمبراطورية العثمانية، بحثا عن الثروة، خاصة في ميدان القرصنة. إنهم يأتون من الأناضول أو تركيا الآسيوية، و من رومانيا أو تركيا الأوربية. أتراك أوربا لا ينتمون إلى الإنكشارية، بل يعيشون من عملهم و صناعتهم و كانوا يشكلون حوالي 1600 بيت. الصنف الثاني هو أتراك العقيدة، و هم المسيحيون المرتدون عن دينهم ،الذي اعتنقوا الإسلام، و هم الذين يعرفون باسم الأعلاج. هؤلاء الأعلاج أكثر عددا من الأتراك الأصليين. من أسباب تخليهم عن دينهم واعتناقهم الإسلام الإرادة في التخلص من العبودية، فهم من الأسرى الذين استولى عليهم رياس البحر. كان الأتراك يشجعونهم على الانضمام إلى طائفتهم. بعد أن يتحرر هؤلاء العبيد ويعتنقون الإسلام تنشأ علاقة وثيقة بينهم و بين أسيادهم تُشبه العلاقة بين الأبناء والآباء، بحيث إذا مات علج دون أن يترك وريثا تعود أملاكه إلى سيده الذي حرره أوإلى أبنائه أوأحفاده، وإذا مات السيد المحرر، دون أن يترك وريثا، فإن أعلاجه هم الذين يرثونه. إضافة

إلى هؤلاء الأعلاج المحررين هناك نوع آخر منهم و هم الذين يأتون إلى الجزائر بمحض إرادتهم و يعتنقون الإسلام فيصبحون أتراكا و أكثر عداء للمسيحية من المسلمين. دائما حسب هايدو، بلغ عدد بيوت هؤلاء ستمائة في مدينة الجزائر و هم يلعبون دورا كبيرا في السلطة التركية(101). حدد الأب دان عدد الأعلاج في مدينة الجزائر سنة 1649 بحوالي ثمانية آلاف من الذكور و بين ألف و ألف و مائتين من الإناث، بينهن 3 أو 4 فرنسيات (102). لا شك في أن حياة العزوبة المنتشرة بين الأتراك هي التي كانت تدفعهم إلى تبني هؤلاء الأعلاج بعد تحريرهم. يضاف إلى الصنفين المذكورين من الأتراك جنود الإنكشارية الذين كانوا يُجندون في أراضي الدولة العثمانية. إن عمليات التجنيد و قبول الأعلاج ضمن هذه الطائفة تُفسر أساسا بالسعي للحيلولة دون انقراض طائفة الأتراك ما دام أعضاؤها لا يعترفون بتركية أبنائهم من بنات الأهالي و يعتبرونهم أدنى منهم.

كان الأتراك يشكلون طائفة مغلقة منعزلة عن المجتمع الجزائري متمسكة بلغتها التركية و بمذهبها الحنفي. تخضع لنظام قضائي خاص و لها امتيازات خاصة. الأتراك وحدهم يرتدون الثياب المطرزة بالذهب و يحملون السلاح فلا يحق للمزوار أن يحجزهم الخ. و لا تتمتع ببعض هذه الامتيازات إلا القلة القليلة من الأهالي الذين ساندوا عروج و خير الدين مثل سكان جيجل القاطنين في مدينة الجزائر (103). غير أن امتيازات هؤلاء الأهالي لا تتجاوز الامتيازات المظهرية، فليس لهم الحق في السلطة و القيادات الإدارية، فالسلطة تبقى بيد الأتراك و لا تخرج منها أبدا،إلا ما تعلق منها ببعض المسؤوليات التي يُسمح بها لبعض الكراغلة مثل مسؤولية الباي. لكن على الرغم من أن الأتراك هم القادة و الإداريون و الإنكشارية و ضباطها، فإننا نجد منهم التجار وأصحاب الورشات الحرفية و العمال في مختلف المهن (104). و هم لا يحتقرون أية مهنة،إذ لا شيء حقير بالنسبة لهم. يعملون في الحياكة، في التجارة، في صناعة الأسلحة. يبيعون الدجاج و العجول و الأعلاف و الفواكه والتبغ والغلايين كما يبيعون المحاصيل الزراعية بأنفسهم إن كانت لهم أرض (105).

لقد اتضح انعزال الأتراك عن المجتمع الجزائري حين سقطت مدينة الجزائر بيد الفرنسيين. ففي الوقت الذي تصالح فيه هؤلاء و أبناؤهم الكراغلة مع الفرنسيين قام الجزائريون يدافعون عن أنفسهم و بلادهم دون قادتهم القدامى، باستثناء بعضهم. الشيء الذي أدى إلى بروز قيادات جديدة جزائرية.

2 ـ <u>طائفة الكراغلة</u>: الكراغلة هم أبناء الأتراك من أمهات جزائريات، فهم أقرب إلى الأهالي إذن من قرب الأتراك إليهم. يشكل هؤلاء الكراغلة طائفة فوق الطوائف الأخرى ولكن تحت طائفة الأتراك. وجود هذه الطائفة يعبر بوضوح عن إرادة الأتراك في الحفاظ على (نقاوة) طائفتهم و عن إرادتهم في تجنب الاختلاط بأهالي البلاد خاصة. من الناحية العددية كانت

طائفة الكراغلة أكثر عددا من طائفة الأتراك سواء في مدينة الجزائر أو في البلاد الجزائرية كلها. كما أنها أكثر انتشارا، عناصرها موجودة في كل المدن التي كان بها أتراك و خاصة إنكشارية الحاميات. الكراغلة موجودون في قسنطينة، عنابة، جيجل، بسكرة، المسيلة، المدية، مليانة، مازونة، معسكر، وهران، تلمسان و غيرها. كان الكراغلة يشكلون طائفة متميزة في هذه المدن. كانوا يشكلون في تبسة مثلا العنصر المهيمن من حيث العدد و من حيث النفوذ. فهم الذين يملكون كل أراضي الملك المحيطة بالمدينة (106)، على الرغم من أن الحامية التركية لم يتم إنشاؤها في تبسة إلا في أواسط القرن الثامن عشر. و كانوا يقطنون أجمل و أحسن حي في هذه المدينة (107). لقد تمرد هؤلاء الكراغلة على السلطة التركية مرات عديدة في مدينة الجزائر وفي مدن أخرى كما حصل في تلمسان مرات عديدة. لما سيطر الفرنسيون على وهران أعلن كراغلة تلمسان ولاءهم للغزاة ضد الأمير عبد القادر.

لا يقتصر وجود الكراغلة على المدن، كما هو الحال بالنسبة للأتراك، بل كانوا متواجدين في الأرياف كذلك. يعود أصل كراغلة الأرياف إلى أولئك الذين طردوا من مدينة الجزائر أثناء تمردهم على السلطة التركية في سنة 1629. لقد تشكل مخزن الزواتنة، في قمم جبل فليسة من هؤلاء. قدر حمدان خوجة عددهم وقتئذ بين ثمانية و عشرة آلاف (108). لقد وقف هؤلاء إلى جانب الفرنسيين و حاربوا الأمير عبد القادر، كما فعل إخوانهم في تلمسان. رغم خروج الكراغلة من مدينة الجزائر في أعداد كبيرة إلا أننا نجد عددهم فيها أكبر من عدد الأتراك في أوائل القرن التاسع عشر.

على الرغم من حركات التمرد التي تزعمها الكراغلة على سلطة آبائهم الأتراك، إلا أنهم احتفظوا ببعض الامتيازات، مثل حق الانخراط في الانكشارية و أهليتهم لتولي بعض المسؤوليات الهامة نسبيا كما حدث مع أحمد باي قسنطينة و محمد الذباح باي التيطري ومصطفى باي الغرب.

2 ـ <u>طائفة الحضر</u>: الحضر هم الذين يقطنون المدن بصفة دائمة، و يكتسبون أسلوب حياتها. هم في مدينة الجزائر صنفان؛ صنف " البلديين " و صنف الأندلسيين. " البلديون " هم أهالي ولدوا بالمدينة و استقرت عائلاتهم بها منذ القديم. كانوا يشغلون في مدينة الجزائر حوالي 2500 بيت، في أواخر القرن السادس عشر. أغلبهم يزاولون التجارة و يملكون حوانيت و موضوع تجارتهم الرئيسي هو المواد الغذائية، كما يشتغل بعضهم بالصناعة، و يملك البعض الآخر البساتين التي يعيشون من

منتوجاتها، و هم أحسن وضعية من غيرهم من الأهالي. تتمثل منتوجاتهم في القمح و الشعير و الخضر و الحرير و الأبقار و الأغنام. هؤلاء البلديون معفون من الرسوم بموجب امتياز منحهم إياه عروج منذ أن دخل مدينتهم (109). كانت لهم أملاك في سهل المتيجة. الأندلسيون هم

أولئك الذين جاءوا من ممالك أرغونة، بلنسية، قطلونيا وغرناطة. يذكر هايدو أنهم كانوا يأتون خلال القرن السادس عشر، عن طريق مرسيليا و موانئ فرنسية أخرى. و أن الفرنسيين كانوا ينقلونهم إلى مدينة الجزائر بصدر رحب. يقسم الأندلسيون إلى صنفين: المدجنون و هم الذين خرجوا من غرناطة و الأندلس، و الثغريون وهم الذين جاءوا من ممالك أرغونة و بلنسية وقطلونيا. يزاول الأندلسيون، في مدينة الجزائر، حرفا عديدة. بعضهم يصنع الأسلحة و البعض الآخر يصنع ملح البارود و البارود، وغيرهم يصنع الأقفال و منهم من يشتغل بالنجارة والبناء و الخياطة و صناعة الأحذية والخزف، و التجار منهم يبيعون الأقمشة و غيرها. يملك الأندلسيون حوالي ألف بيت في المدينة (110). نشير هنا إلى أن الهجرات الأندلسية قد تواصلت بعد القرن السادس عشر و أن استقرار المهاجرين لم يقتصر على مدينة الجزائر، بل شمل كل دار السلطان، في شرشال، البليدة و القليعة، كما استقر هؤلاء في المدن الساحلية مثل بجاية و مدن الداخل مثل تلمسان. كنا رأينا أن الأندلسيين أدخلوا مزروعات جديدة و صناعات جديدة إلى الجزائر و بفضلهم ازدهرت مدن شرشال و القليعة و البليدة، وانتشرت الموسيقى الأندلسية.

على الرغم من الوضعية الحسنة التي كان يعيشها حضر مدينة الجزائر والامتيازات التي منحها إياهم الأتراك، إلا أنهم أبعدوا عن السلطة مثل كل الطوائف من غير طائفة الأتراك.

كانت الجزائر من أغنى المدن، لهذا كانت تجذب إليها المتسولين من مختلف جهات البلاد. يقول هايدو أن شوارعها تمتلئ على مرّ السنة بالسائلين من الرجال و النساء. البعض منهم يسكن الخيمة بقرب منازل المدينة و البعض الآخر يسكن الأكواخ خارج باب عزون في حي (شعبي)، اضطر أحمد عراب إلى تمشيطه سنة 1573. يتميز هؤلاء السائلون بالأوساخ و الثياب الرثة التي ينامون فيها بدون استعمال الأغطية (111). مثلما جذبت مدينة الجزائر المتسولين إليها جذبت الباحثين عن العمل الذين يعرفون باسم البراني.

4 ـ <u>طائفة البراني</u>: تتشكل طائفة البراني من أناس غادروا الأرياف بحثا عن العمل في مدينة الجزائر. و هم معروفون في هذه الأخيرة باسم القبيلة أو الجهة التي جاءوا منها، فمنهم البسكريون و منهم القبائليون و المزابيون و الأغواطيون و غيرهم. كان البسكريون يعملون في الحمامات العمومية، و الأغواطيون يشتغلون بنقل الأوساخ و بنو ميزاب يحتكرون قسما هاما من النشاطات التجارية، و هم أغنى مجموعات البراني، أما القبائليون فكانوا يسيطرون على أشغال البناء، و قد اكتسبوا مهارة هذه المهنة في مناطقهم الجبلية التي كان سكانها يعتمدون على بيوت الحجارة بنسبة عالية.

بحكم قرب بلاد القبائل من الجزائر، كان عدد القبائليين بها كبيرا. يذكر هايدو أنهم كانوا يأتون من مملكة كوكو أو إمارة بني عباس، و كانوا يعيشون في الأكواخ أو في غرف يكترونها. يشتغلون خدما لدى الأتراك أو الحضر الأغنياء،أو يعملون في بساتين الكروم، أويعملون بالتجديف على ظهور السفن مقابل أجرة،و منهم من كان يبيع الأعشاب و الفواكه والفحم و الزيت و الزبدة و البيض الخ. و قد قدر عدد أسرهم بحوالي سبعمائة أسرة، إضافة إلى العزاب منهم.من بين هؤلاء نجد الزواوة الذين كانوا يحملون صليبا موشوما على خدودهم اليمنى، و قد ظلت عادة الوشم هذه قائمة منذ الوندال و القوط الذين استعملوا تلك العلامة تمييزا للبربر المسيحيين. يعمل الزواوة عادة في الفرق العسكرية التركية مقابل أجرة زهيدة (112).

5 ـ <u>الدخلاء</u>: الدخلاء هم الأجانب عن البلاد و ليس عن المدينة فقط أو هم الأجانب عن الإسلام، هذه هي التسمية الأصح. نجد في خانة الدخلاء العبيد السود و العبيد المسيحيين والمسيحيين الأحرار و اليهود.

العبيد السود هم الذين كان ينقلهم التجار من إفريقيا، و كانوا موضوع تجارة مربحة، خاصة بعد تحول طرق الذهب الإفريقي نحو المشرق. كان الأتراك و الكراغلة و حضر مدينة الجزائر يقبلون على اقتناء هؤلاء العبيد. كانت تقرت و ورقلة تقدمانهم ضريبة للأتراك. لقد أنشأ الأتراك من عناصر منهم، بعد تحريرهم، جماعات عسكرية باسم المخزن أو الزمالة، سواء في بايليك التيطري أو في بلاد القبائل أو في بايليكي الشرق و الغرب. إننا لا نملك أرقاما عن عددهم في مدينة الجزائر أو في غيرها.

كان مصدر العبيد المسيحيين القرصنة و الحملات الأوربية على الجزائر أو الحروب البرية التركية ـ الإسبانية في بايليك الغرب. كان هؤلاء العبيد ينتمون لبلدان مختلفة من بلدان أوربا، من فرنسا، إسبانيا، إنجلترا، إيطاليا،صقلية و حتى من روسيا الخ.كان العبيد الفرنسيون، مثلا، ينتمون إلى جهات مختلفة،من بروفانس، لانغدوك، باريس، ليون، ليل، سواحل المانش و حتى من شارتر، ستراسبورج و غيرهما. نجد بين هؤلاء العبيد حتى شخصيات مرموقة في بلدانهم كما هو الشأن بالنسبة لسان فانسون دو بول،رجل الدين الفرنسي الذي قضى في الجزائر سنتين، بعد أن استولى عليه الرياس سنة 1605، و كاتب إسبانيا الشهير ميشال سيرفنتس، الذي قضى خمس سنوات من العبودية في مدينة الجزائر، في أواخر القرن السادس عشر و غيرهما كثير.

كان القراصنة يبيعون أسراهم في سوق العبيد (الباستان)،بعد أن يأخذ البايليك نصيبه منهم. كان عبيد البايليك يستخدمون، في انتظار فديتهم، في الحانات أوالسجون أو

قصر الداي و البساتين أو في الأشغال العمومية أو في التجديف على متن سفن الرياس، كما كانوا يُستبدلون بالأسرى المسلمين (113).

قدر هايدو عدد هؤلاء الأسرى بحوالي 25 ألفا في مدينة الجزائر، في أواخر القرن السادس عشر (114).بينما قدر آخرون عددهم بأزيد من ستة آلاف في عهد خير الدين (115). و قدر بافي (Pavy) عدد عبيد الداي كما يلي: حوالي 270 سنة 1767 وحوالي 100 في الفترة ما بين 1807 و 1817. لما كان الداي يأخذ ما بين الثمن و العشر من الأسرى فإن عددهم الإجمالي يكون حوالي 8 إلى 10 آلاف عبد سنة 1830، في مدينة الجزائر وضواحيها (116). غير أن بارادي يشير إلى عدد يتراوح بين 1800 و 2000 فقط، في أواخر القرن الثامن عشر (117). و لكن لا بد من الإشارة هنا إلى أن العبيد المسيحيين يصعب تحديد عددهم لأنهم في حركية كبيرة بفعل الفدية و عمليات القرصنة.

هذا بالنسبة للعبيد المسيحيين أما بالنسبة للمسيحيين الأحرار فكان عددهم قليلا في مدينة الجزائر. أغلبهم كانوا من التجار الذين يقيمون في المدينة إلى أن ينهوا أشغالهم فيعودون إلى بلدانهم. هذا إضافة إلى القناصل و أعوانهم.

كان اليهود يشكلون العنصر الأهم بين الدخلاء، من حيث قدم وجودهم في البلاد و من حيث دورهم الاقتصادي الهام الذي لعبوه. يعود الوجود اليهودي في الجزائر و في المغرب إلى ما قبل الاستعمار الروماني. لقد تواجد اليهود في المنطقة منذ العهد الفينيقي، وزاد عددهم في العهد الروماني حتى أصبحت شرشال مثلا تضم جماعة منهم كان لها تأثير كبير في عهد يوبا الثاني و ابنه بطليموس عاهلي موريطانيا القيصرية. على الرغم من الاضطهاد الذي تعرض له اليهود على يد الوندال فقد ظلوا متواجدين في المنطقة على مرَ العصور الوسطى الإسلامية. تدعم عددهم بفضل الهجرات اليهودية من شبه جزيرة إيبريا بسبب التعصب الديني المسيحي.أهم موجات الهجرات اليهودية كانت في سنوات 1387، 1391 و 1492، و كانت الأخيرة أهمها.في العهد التركي جاءت بعض العائلات اليهودية التجارية من أوربا، و من ليفورنة بصفة خاصة. فكان لها شأن كبير في الوساطة التجارية بين الجزائر و أوربا،كما هو الحال بالنسبة لعائلتي بكري و بوجناح.

كان يهود مدينة الجزائر من المارسين للسمسرة و الربا. كانوا يتوسطون في كل العمليات التجارية مهما كانت كبيرة أو صغيرة أو تافهة.لقد مكن المال كبارهم من التأثير على الحياة السياسية و خاصة في المراحل الأخيرة من العهد التركي،على الرغم من أنهم من أهل الذمة المحرومين من المشاركة في الحياة الإدارية و السياسية للبلاد. لقد وظف اليهود أموالهم و علاقاتهم الحسنة مع الأندلسيين كي يحتلوا موقعا هاما في حياة مدينة الجزائر.

احتكر اليهود صناعة المجوهرات و ضرب العملة في مدينة الجزائر. و كانت لهم حوانيت يبيعون فيها الأقمشة و الخردوات بالتجزئة،و كان بعضهم يبيع نفس الأشياء في الطرقات كباعة متجولين.من اليهود من اشتغل بالخياطة، ومنهم من كان يسافر تاجرا إلى تونس و جربة و عنابة و طرابلس و قسنطينة و وهران و تلمسان و تطوان و فاس، و منهم من كان يصل حتى إلى القسطنطينية (118).

رغم ما كان يتمتع به اليهود من الناحية الاقتصادية فإنهم ظلوا أدنى الطوائف الحرة في نظر المجتمع الجزائري. يذكر هايدو،من بين ما يذكر،أن اليهودي، إن اعتدى عليه واحد من الأهالي، فما عليه إلا الهروب إن استطاع لذلك سبيلا، و أن المسلم يقف إلى جانب المسيحي إن تشاجر هذا الأخير مع اليهودي.كان اليهود يخشون السلطة إلى درجة أنهم كانوا يعاملون عبيدهم المسيحيين معاملة حسنة،خوفا من أن يشتكي العبد إلى تلك السلطة فتصادره منهم (119).كان اليهود معرضين للنهب في كل اضطراب يقع في مدينة الجزائر. و هناك من يشير إلى أنهم لم يكونوا يقبلون على شراء العقارات، رغم ما لهم من إمكانيات مادية، خوفا من المصادرة (120).

سكان الأرياف

تهيمن على الأرياف الحياة القبلية،سواء في الصحراء أو في السهول العليا أو في المناطق الجبلية و السهلية.حتى الجماعات التي ليست لها علاقة قرابة انتظمت في تنظيمات قبلية،كما هو الشأن مع بعض جماعات المخزن. لقد امتد تأثير التنظيم القبلي حتى إلى المدن، حيث نجد أحياءها امتدادا لقبيلة أو جهة من الجهات، في الكثير من الأحيان. تعكس الحيازة الجماعية للأرض، التي كانت سائدة، هذا التنظيم الاجتماعي الذي بدأ يعتريه الانحلال البطيء في بعض المناطق و خاصة حول مدينة الجزائر.

إذا انطلقنا من تصنيف لويس رين وجدنا أصنافا من القبائل في الأرياف الجزائرية: قبائل الأجواد،قبائل المرابطين،قبائل المخزن، و هي لها كلها امتيازات متفاوتة، و قبائل الرعية و القبائل التي لا تخضع لسلطة الأتراك خضوعا تاما.

- الأجواد: أو النبلاء و هم الذين فرضوا نفوذهم أو حتى سلطتهم بالقوة في منطقة من المناطق، تتسع أو تضيق، حسب وضعية السلطة المركزية التركية.لم يكن أمام الأتراك إلا الاعتراف بنفوذ هؤلاء الأجواد. و في الكثير من الأحيان يعلنون عليهم الحرب أو يؤججون الصراعات داخل عائلاتهم، فيناصرون صفا ضد آخر. اضطرت السلطة التركية للتعاون مع هؤلاء في الكثير من المناطق، كما هو الشأن مع الدواودة و الأحرار و غيرهم في شرق الايالة خاصة.

الظاهرة التي لا بد من تسجيلها هي أن جماعات الأجواد تتكاثر في العهد التركي و لو بشكل بطيء. ففي القرن السادس عشر لا نجد منها إلا عددا قليلا مثل الدواودة و أمراء بني

عباس و أحرار الحنانشة الخ،لكن في القرن السابع عشر يظهر أولاد بن عاشور في فرجيوة ثم أولاد عز الدين في الزواغة و الوادي الكبير الخ..

كان هؤلاء القادة الأجواد أسيادا في مناطق نفوذهم،يجبون الضرائب، يفرضون أعمال السخرة و يجمعون الغنائم دون تدخل مباشر من السلطة المركزية،لكن هذه السلطة تحاربهم حين تشعر بأن قوتهم زادت و أصبحت تهددها. بجانب هؤلاء القادة الوراثيين كان هناك قادة قبائل الرعية الذين يعينهم الأتراك،و كانوا هم بدورهم، يعملون على جمع أكبر قدر من المال، حتى يتمكنوا من إعادة شراء قيادتهم أو من أجل الحصول على الكماليات.

2 ـ <u>المرابطون</u>: كنا تعرضنا في مدخل هذا الكتاب إلى انتشار ظاهرة المرابطين و الزوايا والطرق، في الأرياف و المدن،ابتداء من القرن الخامس عشر. و نضيف هنا أن الانتشار هذا تواصل في العهد التركي بقوة. لقد أورد لويس رين إحصائيات رسمية تعود إلى 1880،تذكر أن عدد العائلات المرابطية بلغ حوالي 115 عائلة،و هذا العدد لا يتعلق إلا بالعائلات الكبيرة(121). زادت الطرق عددا هي الأخرى في العهد التركي فبعد القادرية و الشاذلية اللتين رأيناهما في بداية القرن السادس عشر، ظهرت الشيخية و التيجانية و الرحمانية و الراشدية وغيرها كثير. و كما يقول أبو القاسم سعد الله: " بينما كانت الأخيرة في أوربا في موقف دفاع عن نفسها أمام تقدم العلم أصبحت الزوايا في الجزائر (و في بقية العالم الإسلامي) في موقف الهجوم. ولذلك لا نستغرب إنه عندما كانت شمس المعرفة في أوربا تطل من وراء السحاب كانت شمس المعرفة في الجزائر غاربة وسط ضباب كثيف " (122).

كانت قوة هؤلاء المرابطين و رجال الطرق تكمن في استعمالهم الدين.كان الجميع يخشاهم،من الأفراد العاديين إلى رجال السلطة من الأتراك.كان المرابطون و رجال الطرق يتنقلون في طول البلاد و عرضها دون خوف من هجوم اللصوص و قطاع الطرق عليهم. روى هايدو، في القرن السادس عشر، أن المسافرين كانوا يصحبون معهم أحد المرابطين ليتـقوا شرّ اللصوص و قطاع الطرق هؤلاء،كما كان يفعل الذين يعبرون جبال جيجل خائفين من لصوص منطقة بني عباس (123).إن السلطة التركية نفسها قد استعانت بالمرابطين في نقل الأموال عبر الطرقات غير الآمنة، ففي أوائل القرن التاسع عشر، كان المقراني مرابط جيجل مثلا مكلفا بنقل أجرة الجنود من قسنطينة إلى مدينته (124). و يروي حمدان خوجة أن الأمن اختل بعد دخول الفرنسيين إلى مدينة الجزائر، خاصة بعد أن اعتقل المحتلون مرابط القليعة الذي كان أكثر المرابطين تأثيرا في المنطقة و هو " الذي كان يحمي المسافرين و يدفع السكان البعيدين إلى الإتيان ببضائعهم و ذلك بأن يحفظهم من جميع أنواع الشتم.لقد أصبح اعتقال هذا المرابط مصيبة على المنطقة "(125). و ما ذكره هايدو في القرن السادس عشر أكده حمدان خوجة في نهاية العهد التركي. فالمرابط هو " منقذ " و " حامي " القوافل و " الحاميات التركية نفسها

عندما تتوجه إلى حصن بجاية، سنويا، مضطرة إلى اصطحاب مرابط ،و إلا فإنها تأخذ طريق البحر ". (126)

لقد نُصح الأتراك بحسن التعامل مع المرابطين حتى يتمكنوا من السيطرة على الجزائر. وكما يقول حمدان، فقد شرح الناس للحاكم التركي بأن " يمنح المرابطين ثقة مطلقة لان ذلك يمنع الجميع من أن يقفوا موقفا معارضا "و "من ذلك الحين لم يكتف الأتراك بأن فرضوا على أنفسهم احترام هؤلاء المرابطين، و إنما صاروا يقدمون لهم أكبر الامتيازات و أثمنها. و صارت أماكن سكناهم و ضرائحهم، بعد الموت، مقدسة، كما أن القانون لا يمس كل من لجأ إليها. كانت هذه من إحدى الوسائل التي استعملها الأتراك لاكتساب ودّ العرب و البربر. و هناك وسيلة أخرى استعملوها و تتمثل في أنهم كانوا يظهرون أنفسهم في مظهر حماة الدين، ويمتنعون عن القيام بكل ما هو مناف للقوانين، و لا يعملون إلا بالقانون و لفائدة القانون. ثم هناك وسيلة ثالثة عرضية فحواها أن الأتراك يقيمون الصلاة، بانتظام مما جعل البرابرة يتصورون أنهم مرابطون و صالحون "، و هذا ما جعل السكان يثقون فيهم " ثقة عمياء " (127).

تقرب الأتراك إذن من المرابطين و عملوا على استمالتهم.كنا رأينا كيف تقرب عروج من سيدي أحمد بن يوسف في مليانة، و كيف تقرب منه خيرالدين و كل الحكام الذين جاءوا بعدهما تقربوا من أبنائه و أحفاده، كما تقربوا مـن سيـدي علي المبارك و ذريته في القليعة منذ القرن السابع عشر، و ظلت زاويته تجذب إليها الزوار من باشوات الجزائر و من غيرهم من الأهالي (128). و لا يقتصر تقرب الأتراك من المرابطين على تقديم امتيازات لهم، بل عملوا حتى على توسيع نفوذهم أحيانا، كما حصل مع المرابطين القرانيين في بجاية و جيجل، وهم الذين كنا أشرنا إليهم سابقا، لكن علينا أن نعود إلى الموضوع بشيء من التفصيل.لم يتمكن الأتراك من إخضاع قبيلة بني فوغال الواقعة غرب جيجل، و كانوا يضطرون، في الكثير من الأحيان لدفع الفدية لاستعادة بحارتهم الذين كثيرا ما رمى بهم البحر إلى شاطئ تارة و وقعوا في أيدي القبيلة.لما ظهرت الحاجة إلى أخشاب بني فوغال، لم يجد الأتراك وسيلة للتقرب من القبيلة سوى الاعتماد على العائلة المرابطية القرانية.في حوالي سنة 1600،عند مقتل أحمد أمقران أمير بني عباس، نُقل ابنه محـمد أمقران من طرف أمه إلى أمعدان، في قبيلة بني مسعود، على الضفة اليسرى لوادي الصومام، أين ترعرع في جو من احترام الناس له بسبب انتمائه العائلي و علمه الديني. بسبب ما اكتسبه من نفوذ بين السكان تقرب منه الأتراك و نقلوه إلى بجاية أين قدم لهم خدمات،إلى أن توفي هناك. سار ابنه سي عبد القادر على نهجه الديني وقدم هو بدوره خدمات للأتراك الذين منحوه امتيازات،منها حقه في جباية ضرائب و زكاة عرش برباشة، بمعنى أن الداي أوقف مداخيل هذا العرش عليه (129).لا تختلف هذه الامتيازات التي منحها الأتراك للمقراني عن تلك التي منحوها لمرابطين صغار في جبال بابور

رتبابورت (130) ظلت زاوية أمعدان و مرابطوها القرانيون يتمتعون بهذه الامتيازات إلى غاية سقوط السلطة التركية.

على الرغم من امتداد نفوذ المرابطين القرانيين إلى المناطق الجبلية الواقعة بين جيجل وبجاية، فإن هذا النفوذ لم يكن قويا لدى بني فوغال. لهذا حتم الأتراك على سي الحاج أحمد المكي، و هو ابن الشيخ سي عبد القادر أمقران أن يقيم في جيجل حتى يتمكن من تثبيت نفوذه في المنطقة و لدى بني فوغال، و تثبيت نفوذ الأتراك بالتالي. لقد تمكن الحاج أحمد المكي بسرعة من إقامة علاقة حسنة مع حيلس قائد قبيلة بني فوغال الذي اعترف بالسلطة التركية فزكته قائدا للقبيلة باسم شيخ الكراستة، تحت السلطة المباشرة للمرابط سي الحاج أحمد المكي. هكذا أصبحت أخشاب بني فوغال تشحن إلى الجزائر من زيامة و تازة (131).

لقد أصبح نفوذ سي أحمد المكي كبيرا لدى السكان و السلطة التركية التي قدمت له الامتيازات الضرورية، حتى أن باي قسنطينة منحه سنة 1750 احتكار الصيد في المنطقة كي يتمكن (الباي) من الحصول على جلود النمور. ولما توفي المرابط سنة 1800عين هذا الباي وصيا لولديه الصغيرين اللذين ورثا أباهما، و هما سي محمد و سي الطاهر (132). و يرى مؤرخون كثيرون أن ابن الأحرش ما كان له أن يحقق ما حققه في تمرده، في مطلع القرن التاسع عشر في المنطقة، لو كان سي أحمد المكي على قيد الحياة.

توضح لنا علاقة المرابطين القرانيين بالأتراك المصالح التي كانت تتبادل بين الطرفين كان المرابطون يقومون بدور يتمثل في التوسط بين السكان و السلطة. كانوا يتدخلون لصالح هذه الأخيرة، كما حدث مع أمراء بني عباس و الدواودة و غيرهم. لعب المرابطون دورا كبيرا في تجنيد المتطوعين لمحاربة الأسبان و مواجهة الحملات الأوربية على السواحل الجزائرية. بل إن المرابطين كانوا يزكون حكام الجزائر بعد اختيارهم. و في الكثير من الأحيان كانوا يسافرون إلى القسطنطينية للدفاع عن هؤلاء الحكام. مقابل هذه الخدمات انتفعوا بامتيازات عديدة في مناطق نفوذهم مثل جباية الضرائب والاستفادة من أعمال السخرة و من الإعفاء الضريبي. وكان لبعضهم تجارة قافلية كبيرة، كما هو الشأن بالنسبة للتيجانيين و أولاد سيدي الشيخ و أصحاب الطريقة الزيانية (في نواحي القنادسة)، و استفاد المرابطون من أملاك الوقف التي كانت معتبرة، سواء كانت أراضي أو عقارات أخرى.

كانت بعض الزوايا مناطق محايدة يلجأ إليها الفارون من قبضة الأتراك أو غيرهم. وكانت السلطة التركية تعترف بهذه المناطق الحرة.كان في مدينة الجزائر ثلاث منها هي زاوية سيدي عبد الرحمان في حي باب الوادي و زاوية سيدي عبد القادر خارج باب عزون و زاوية نادة والي. من يلجأ إلى هذه الزوايا فهو آمن، سواء كان من الأهالي أو من الأتراك أو من غيرهم من اليهود و المسيحيين. في هذه الحالة تلجأ السلطة إلى وضع حراسة أمام باب الزاوية لتمنع إدخال الغذاء إلى اللاجئ، إلى أن يموت جوعا و عطشا أو يضطر للخروج، و في هذه الحالة يُقبض عليه (133). في بايليك الشرق نجد زوايا

شبيهة مثل زاوية مولى الشقفة، و في بايليك الغرب نجد مثلها كما هو الشأن مع زاوية سيدي محمد بن عودة.

يمكن القول باختصار أن علاقة السلطة التركية بالمرابطين قد ظلت قائمة على المبدأ الذي حدده سيدي أحمد بن يوسف سنة 1517 و ذلك في قوله لعروج : " إن حكمكم لا يجري علينا و لا على نسلنا و لا على من تعلق بنا ولا على نسلهم، إن رهبتم أحسنتم و إن خالفتم عوقبتم " (134). في أواخر العهد التركي، و بعد طرد الأسبان من وهران و المرسى الكبير و تقهقر القرصنة، بدأت علاقة الأتراك بالمرابطين تهتز، كما حدث في بايليك الشرق، في عهد صالح باي، و كما حدث في القرن التاسع عشر مع طرق جديدة، غير التي استمالها الأتراك منذ القرن السادس عشر، مثل درقاوة و التيجانية.

لا تختلف امتيازات و نفوذ المرابطين كثيرا عما كان يتمتع به الأجواد و القادة مع العلم أننا نجد، في الكثير من الأحيان، من الأجواد من كانوا مرابطين في الوقت نفسه، كما هو الشأن بالنسبة لأولاد سيدي الشيخ و أولاد عبد الله المغوفل.

أخيرا، نشير إلى أن أهم دور قام به هؤلاء المرابطون هو سيطرتهم على المنظومة التعليمية التي كانت تعيد إنتاج أنفسهم و تدعم الحكم القائم. لكن هذا لم يمنع من تعامل الكثير من هؤلاء مع الاستعمار الفرنسي، في مراحله الأولى على الأقل كما فعل مرابطو القليعة و التيجانيون و أولاد سيدي الشيخ و غيرهم.

3- <u>قبائل المخزن</u> : كنا رأينا كيف لجأت السلطة التركية إلى تجنيد بعض القبائل لاستعمالها كقوة ضاربة في الأرياف، كما فعلت دول المغرب قبلها، مثل دول المرابطين و الموحدين والزيانيين، التي استعملت كلها القبائل العربية بصفة خاصة. كما تعرضنا إلى الامتيازات التي حصلت عليها هذه القبائل و منها الانتفاع من أراضي البايليك و أدوات العمل الفلاحي و الإعفاء من الرسوم أو الضرائب من غير الزكاة أو العشور، و الاستفادة من الغنائم أو الأسلاب أثناء الحملات الخ. و رأينا كيف التزمت هذه القبائل بحفظ الأمن و الاستقرار، بضرب كل تمرد على السلطة، و المشاركة الفعالة في تحصيل الضرائب من الأرياف.

لم تكن جماعات المخزن تشكل كلها قبائل بمعنى الكلمة. فإذا كانت هاشم، في الغرب، والحراكتة، في الشرق، وعمراوة في بلاد القبائل هي قبائل قائمة على علاقات الدم أو القرابة، على سبيل المثال، فإن مخزن العبيد في التيطري أو بلاد القبائل يتكون من أشخاص كانوا عبيدا، لا قرابة بينهم، تشكلوا في جماعات سكانية أصبحت مع الزمن قبائل. نفس الشيء نجده مع زمالة العثمانية في نواحي سطيف و مخزن وادي الزيتون في يسر، فعناصرهما من الكراغلة. هذا من جهة، و من جهة أخرى تختلف قبائل المخزن من حيث حيازة الأرض، فمنها ما كانت على أرضها فأقرها الأتراك عليها، كما هو الشأن بالنسبة للحراكتة مثلا، و منها ما أقامها الأتراك على أراضي البايليك، كما هو الشأن بالنسبة للدواير، الذين أقامتهم السلطة التركية على أراضي أولاد خديم المصادرة، في بايليك

التيطري، و بالنسبة لفرقة أولاد عيسى، الذين نقلهم الباي إبراهيم، في القرن الثامن عشر، من ناحية البيض و أقامهم في دوار الفغايلية، لصدّ بني زقزوق و أولاد ميرة الذين كثيرا ما كانوا يهاجمون مدينة مليانة، و عريب، القبيلة التي أقيمت في شرق بايليك التيطري. من المفيد أن نتعرض هنا لقصة قبيلة عريب هذه لما لها من أهمية في توضيح تنقلات القبائل في العهد التركي.

جاءت قبيلة عريب العربية إلى الجزائر أثناء الغزو الهلالي في القرن الحادي عشر. استقرت في منطقة الزاب إلى غاية القرن الرابع عشر. انضمت إلى مجموع القبائل التي كانت تحت قيادة المرابط سيدي هجرس المنحدر من المغرب الأقصى، و هو الذي قاد هذه القبائل التي استولت على منطقة الحضنة. بعد وفاته تشتتت القبائل و كذلك عريب. بعض عشائر هذه الأخيرة خضعت لأمير بني عباس، الذي ضم الحضنة إلى سلطته في القلعة. لكن، و بعد محاولة هذه العشائر التخلص من نير الأجواد الحلفاء لبني عباس، مثل أولاد ماضي و أولاد عبد الله و أولاد علي بن داود، طُردت من الحضنة فانزلت إلى وادي معمورة، بين العناورة وبني موسى، و ذلك قبل حملة شارل كان عام 1541.غير أن الإقليم لم يكن كافيا لها. بقي فيه حوالي عُشر أفراد العشائر، بينما انضمت البقية منهم إلى الأتراك، الذين كانوا في صراع مع الأجواد. استقروا في نواحي حمزة. زودهم الأتراك بالأسلحة والذخيرة و أقروهم في المنطقة. في حوالي السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر أنشأ الأتراك منهم مخزنا و خففوا ضرائبهم. أول قائد لهم قلّده الأتراك هو رابح بن طالب الذي قتله باي التيطري بعد تمرده على السلطة في حوالي 1807 ،وقد خلفه نايلي محمد الذي توفي سنة 1825، فقُسمت القيادة بعده بين الأخضر بن طالب و فرحات بن طاجين (135).

أخذ نفوذ قبائل المخزن يزداد في أواخر العهد التركي، مع تراجع قوة السلطة المركزية، فتجاوزت صلاحياتها، و تملّكت مساحات شاسعة من أراضي البايليك(136) حين احتل الفرنسيون مدينة الجزائر،كانت هذه القبائل أكثر من غيرها تماسكا وقوة. حفاظا على امتيازاتها و إمكانياتها. تصالحت مع هؤلاء المحتلين فلم تستجب لنداءات الأمير عبد القادر المتكررة للانضمام إلى المقاومة. لقد سعى رؤساء قبائل المخزن، في الغرب، و على رأسهم مصطفى بن إسماعيل و الحاج لخضر و المزاري إلى الانضواء تحت سلطة السلطان عبد الرحمان،سلطان المغرب الأقصى، و لما فشلوا في مسعاهم انتقلوا إلى جانب فرنسا. وقعوا معها اتفاقية باسم الدواير و الزمالة يوم 16 جوان 1835، تجعل منهم رعاياها، يشاركون في الحملات التي توجه ضد الجزائريين. هذا ما حصل أيضا مع مخزن الزواتنة، الذي عقد قادته العزم على محاربة الأمير عبد القادر الذي أخضعهم سنة 1838 و أعدم الكثير منهم.

4-قبائل الرعية: هي القبائل التي لم تحظ بأي امتياز من السلطة التركية، و هي التي كانت تدفع الضريبة و الرسوم المختلفة. كما كانت تفرض عليها أعمال السخرة. كانت وضعيتها أسوأ من وضعية تلك القبائل التي لم تكن تخضع للسلطة المركزية لأنها كانت تقطن مناطق وعرة يصعب على القوات التركية أن تتواجد فيها بصفة دائمة.

هوامش الفصل الثاني

(1) Lucette VALENSI.Le Maghreb avant la prise d'Alger.Flammarion.Paris 1969 p.44.

(لوسيت فالانسي.المغرب قبل احتلال مدينة الجزائر.فلاماريون.باريس 1969.ص 44)

(2) بارادي.المرجع السابق عدد 39.ص 290.

(3) نفسه.ص 286

(4) نفسه.ص 288.

(5) حمدان المرجع السابق ص 88.

(6) بارادي.المرجع السابق عدد 39.ص 287.

(7) مالتسان.المرجع السابق الجزء الثاني.ص 159.

(8) حمدان.المرجع السابق ص 97.

(9) بارادي.المرجع السابق عدد 39.ص 280.

(10) نفسه.

(11) نفسه.ص 277 ـ 280.

(12) نفسه.ص 295.

(13) L.Charles FERAUD.Corporations de métiers à Constantine avant la conquête française.Revue Africaine N°.16 (1872).pp.452 – 454

(ل.شارل فيرو.الطوائف الحرفية في قسنطينة قبل الغزو الفرنسي.المجلة الإفريقية عدد 16 (1872) ص 452 ـ 454).

(14) Le Baron Henri AUCAPITAINE.Notice sur Bou Sada.Revue Africaine.N° 6 (1862).pp.53 et 54.

(البارون هينري أوكابيتان.لمحة عن بوسعادة.المجلة الإفريقية عدد 6 (1862) ص53 و54)

(15) مالتسان.الجزء الثاني.المرجع السابق ص 163 و 164.

(16) فالانسي.المرجع السابق

(17) نفسه.

(18) بارادي.المرجع السابق عدد 39.ص 294.

(19) نفسه.ص 292 و 293.

(20) ناصر الدين سعيدوني.النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني.المؤسسة الوطنية للكتاب.الجزائر 1985.ص 198.

(21) فيرو.الطوائف الحرفية.المرجع السابق ص 452.

(22) بارادي.المرجع السابق عدد 39 ص 294 و 296.

(23) نفسه.

(24) نفسه.ص 286.

(25) نفسه.ص 282.

(26) نفسه.ص 284.

(27) نفسه.ص 296.

(28) نفسه ص 292.

(29) نفسه. ص 286.
(30) نفسه. ص 282.
(31) جوليان. تاريخ إفريقيا الشمالية. المرجع السابق ص 372.
(32) سعيدوني. النظام المالي. المرجع السابق ص 199 و 200.
(33) بارادي. المرجع السابق عدد 39. ص 113.
(34) هايدو. طبوغرافية و تاريخ مدينة الجزائر العام. المرجع السابق عدد 15 ص 91.
(35) نفسه. ص 95 و 96. انظر الهامش كذلك.
(36) فيدرمان و أوكابيتان. المرجع السابق. ص 218. انظر الهامش كذلك.
(37) نفسه. ص 218 و 219. الهامش كذلك.
(38) سعيدوني. النظام المالي. المرجع السابق ص 208 و 209.
(39) فيدرمان و اوكابيتان. المرجع السابق ص 218.
(40) سعيدوني. النظام المالي. المرجع السابق. ص 193 و 194.
(41) بارادي. المرجع السابق عدد 39 ص 113.
(42) سعيدوني. النظام المالي. المرجع السابق ص 201 و 202.
(43) نفسه.
(44) نفسه. ص 194.
(45) نفسه. ص 195 و 196.
(46) نفسه. ص 203 و 204.
(47) فيدرمان و أوكابيتان. المرجع السابق. ص 218 و 219. الهامش.
(48) نفسه. ص 217. الهامش.
(49) نفسه.
(50) حمدان. المرجع السابق ص 144.
(51) فيدرمان و أوكابيتان. المرجع السابق ص 118.
(52) فايسيت. المرجع السابق عدد 3 ص 116.
(53) فيدرمان و أوكابيتان. المرجع السابق ص 118.
(54) روبان. مذكرة حول التنظيم العسكري و الإداري. المرجع السابق ص 200.
(55) فايسيت. المرجع السابق عدد 3 ص 116.
(56) فيدرمان و أوكابيتان. المرجع السابق ص 120. و 121.
(57) سعيدوني. النظام المالي. المرجع السابق ص 98.
(58) فيدرمان و أوكابيتان. المرجع السابق ص 212 ـ 214.
(59) هايدو. طبوغرافية. المرجع السابق عدد 15 ص 471 و 472.
(60) روبان. مذكرة حول التنظيم العسكري و الإداري. المرجع السابق ص 200.
(61) سعيدوني. النظام المالي. المرجع السابق ص 104.
(62) نفسه. ص 107.
(63) روبان. مذكرة حول التنظيم العسكري و الإداري. المرجع السابق ص 201 و 202.

(64) فيدرمان و أوكابيتان.المرجع السابق ص 213.
(65) بارادي.المرجع السابق عدد 39.ص 283.
(66) هايدو.طبوغرافية.المرجع السابق عدد 15 ص 471.
(67) فيدرمان و أوكابيتان.المرجع السابق ص 213 و 214.
(68) انظر : سعيدوني.النظام المالي.المرجع السابق ص 106.الهامش.
(69) بارادي.المرجع السابق عدد 39 ص 283.
(70) سعيدوني.النظام المالي.المرجع السابق ص 10.
(71) بارادي.المرجع السابق عدد 39.ص 283.
(72) سعيدوني.النظام المالي.المرجع السابق
(73) نفسه.ص 108.
(74) أوميرات.المرجع السابق ص 323 و 324.
(75) سعيدوني.النظام المالي.المرجع السابق ص 113 و 114.
(76) حمدان.المرجع السابق ص 118.
(77) Mgr PAVY. La piraterie musulmane. Revue Africaine. N° 2 (1857 – 1858).pp.347 et 348.
(الحبر باي.القرصنة الإسلامية.المجلة الإفريقية عدد 2 (1857 ـ 1858) ص 347 و 348).
(78) نفسه.ص 351.الهامش كذلك.
(79) نفسه.ص 352 الهامش كذلك.
(80) بارادي.المرجع السابق عدد 41.ص 90.
(81) نفسه.ص 92.
(82) باي.المرجع السابق ص 251.
(83) بارادي.المرجع السابق عدد 41 ص 92.
(84) باي.المرجع السابق ص 251.
(85) نفسه.ص 348 ـ 350.
(86) بارادي.المرجع السابق عدد 41 ص 89 ـ 91.
(87) نفسه.ص 93.
(88) باي.المرجع السابق ص 348 و 349.
(89) فايسيت.المرجع السابق عدد 3 ص 116.
(90) فيدرمان و أوكابيتان.المرجع السابق ص 368 و 369.
(91) سعيدوني.النظام المالي.المرجع السابق ص 93.
(92) فايسيت.المرجع السابق عدد 3 ص 115 و 116.
(93) بارادي.المرجع السابق عدد 40.ص 70.
(94) الوزان.الجزء الثاني.المرجع السابق ص 37.
(95) نفسه.ص 50.
(96) هايدو.طبوغرافية.المرجع السابق.
(97) انظر : غرامون.العلاقات.المرجع السابق عدد 23 ص 136.

(98) بارادي. المرجع السابق عدد 39 ص 26.
(99) طونير. المرجع السابق ص 230.
(100) هايدو. طبوغرافية. المرجع السابق عدد 15 ص 94 و 95.
(101) نفسه. عدد 14 ص 496 و 499.
(102) انظر : باي. المرجع السابق ص 343. الهامش.
(103) بارادي. المرجع السابق عدد 39 ص 278 و عدد 41 ص 104.
(104) هايدو. طبوغرافية. المرجع السابق عدد 14 ص 499.
(105) بارادي المرجع السابق عدد 41 ص 73.
(106) فيرو. مذكرات حول تبسة. المرجع السابق ص 441.
(107) مالتسان. المرجع السابق الجزء الثاني. ص 58 و 59.
(108) حمدان. المرجع السابق ص 155.
(109) هايدو. طبوغرافية. المرجع السابق عدد 14 ص 491.
(110) نفسه. ص 495.
(111) نفسه ص 494 و 495.
(112) نفسه. ص 492 و 493.
(113) غالبا ما كان البايليك يأخذ الأسرى الذين ينتمون لعائلات غنية حتى يحصل على فدية كبيرة.
(114) هايدو. طبوغرافية. المرجع السابق عدد 15 ص 90 و 91.
(115) شوفالييه. المرجع السابق ص 70.
(116) باي. المرجع السابق ص 338. الهامش.
(117) بارادي. المرجع السابق عدد 41 ص 111.
(118) هايدو. طبوغرافية. المرجع السابق المجلة الإفريقية عدد 15 ص 90 و 91.
(119) نفسه. ص 92 و 93.
(120) أوميرات. المرجع السابق ص 322.
(121) رجال الدين ثلاث فئات : فئة رجال الدين الرسميين الذين يحصلون على أجرة من السلطة يصدرون الفتاوى حول الأمور الدينية و الشرعية، فئة المرابطين الذين هم أحرار لا ينتمون للسلطة و لا للطرق، و منهم من له نفوذ محلي لا يتجاوز الجهة التي يقطنها، و منهم من له نفوذ أوسع وهم أصحاب الزوايا الذين يرثون السمعة الدينية لشخصية دينية، هي شخصية شريف أو شخصية ولي صالح، و لبعض هؤلاء نفوذ كبير قد يتجاوز نفوذ القادة و بعضهم الأخر فقير يعيش في قربي بالقرب من ضريح الشريف أو الولي الصالح. الفئة الثالثة تتكون من قادة الطرق الصوفية الدينية، و هؤلاء القادة لهم نفوذ واسع قد يتجاوز البلاد كلها، و لهم إمكانات مادية كبيرة.

انظر : رين مرابطون و إخوان. المرجع السابق.
(122) سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. المرجع السابق ص 38.
(123) هايدو. طبوغرافية. المرجع السابق عدد 15 ص 218.

(124) فيرو.استغلال غابات الكراستة.المرجع السابق عدد 13 ص 158.
(125) حمدان .المرجع السابق ص 88.
(126)نفسه.ص 111 و 112.
(127) نفسه.ص 110 و 111.
(128) حاج صادق.المرجع السابق ص 136.
(129) فيرو.استغلال غابات الكراستة.المرجع السابق.عدد 12 ص 381 ـ 385.
(130) نفسه.المجلة الإفريقية عدد 13 ص 36.
(131) نفسه.ص 38 ـ 41.
(132) نفسه.ص 152 و 153.
(133) بارادي.المرجع السابق عدد 41 ص 110.
(134) حاج صادق.المرجع السابق ص 103 ـ 105.
(135) A.BEBRUGGER.Les Arib.Revue Africaine N°.8 (1864).pp.378 - 380.
(أ.بيربروجير.عريب.المجلة الإفريقية عدد 8 (1864).ص 378 ـ 380).
(136) سعيدوني.دراسات و .المرجع السابق الجزء الأول.ص 114 و 115.

الفصل الثالث :

حول التشكيلة الاجتماعية

لازال الاختلاف قائما بين المؤرخين و بين الاجتماعيين حول تلك التشكيلة الاجتماعية التي عرفتها الجزائر خلال العهد التركي، على الرغم من وجود شبه إجماع بين هؤلاء و أولئك على وجود أكثر من أسلوب إنتاج واحد، فإنهم يختلفون في الأسلوب المهيمن أو السائد. لقد عبرت الباحثة سعاد مقداد عن هذا الاختلاف في العبارات التالية: " يسميه ر. غاليسو " أسلوب إنتاج إقطاعي " ذلك الأسلوب الإنتاجي الذي ساد في العهد التركي. بينما يتكلم أندري جوليان عن " جمهورية عسكرية "، في حين يتكلم أ. نوشي عن " نظام حاكمي"، و روبير أجيرون عن " أوليغارشية القرصنة و الإنكشارية " تتكلم لوسيت فالانسي عن " أسلوب إنتاج عتيق ". يمكن القول أن كل أساليب الإنتاج هذه كانت موجودة، لكن في إطار تشكيلة اجتماعية يتمفصل فيها العديد من أساليب الإنتاج، و يهيمن عليها أسلوب الإنتاج الخراجي " (1).

لعل أول من حاول أن يقارن بين نظام الجزائر و الأنظمة الأخرى في العالم هو بارادي الذي وجد تشابها بين نظامي الجزائر و مالطة. الأول تهمين فيه الإنكشارية و الثاني يهيمن فيه الفرسان (2). غير أن بارادي اقتصر في مقارنته على البنية الفوقية و السياسية بالتحديد، ولم يتعداها إلى علاقات الإنتاج و قواه. و نحن، قبل أن نستعرض الأطروحات المختلفة المتعلقة بالموضوع، نتعرض لوضعية حيازة الأرض في العهد التركي، باعتبار أنها العاكس الأساسي لأي أسلوب إنتاج في مجتمع فلاحي.

حيازة الأرض عبر التاريخ

كانت الحيازة الجماعية هي السائدة قبل الاستعمار الفرنسي على الرغم من أن الحيازة الفردية أو الخاصة كانت موجودة، منذ العهد الفينيقي، إلا أنها كانت تتوسع ببطء شديد، بل و تنحسر أحيانا. لم تأخذ الأراضي الزراعية وزنا كبيرا لدى الفينيقيين و القرطاجيين لأنهم كانوا تجارا قبل أن يتحولوا إلى الزراعة، بعد أن سيطرت روما على مستعمراتهم في السواحل الشمالية للبحر الأبيض المتوسط نتيجة الحروب البونيقية الثانية، في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد. أما لدى الأهالي الأمازيغيين فإن الأراضي الزراعية لم تأخذ وزنها إلا في عهد ماسينيسا، في النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد، حين أخذ هذا الإغليد ينفذ مشروعه الشهير المتمثل في نقل سكان البلاد من الحياة الرعوية إلى الحياة الزراعية. تشير المصادر التاريخية إلى تلك المزارع

الكبرى التي أنشأها هذا الملك الكبير، و التي قسمت بين أبنائه العديدين عند وفاته. لكن هذا التوسع في استغلال الأراضي في الزراعة ازداد حيوية في العهد الروماني بفضل وسائل الإنتاج الجديدة التي جاء بها هؤلاء.

لقد وضع الرومان، الذين كانوا مشغولين باستغلال أراضي شمال إفريقيا إلى أقصى حد لتزويد روما بالحبوب، قواعد لحيازة الأرض، في المناطق التي خضعت لهم، خاصة في السهول، و بالأخص في السهول العليا الشرقية، التي تمتد من الجزائر إلى تونس. اعتُبرت أراضي بلاد شمال أفريقيا ملكا للشعب الروماني أو الدولة الرومانية التي تنوب عنه، لأنها فُتحت بالقوة من طرف الجيوش الرومانية، باستثناء أراضي المدن الحرة التي تعاونت مع روما منذ البداية و كذلك أراضي الإمارات الأمازيغية التي تحالفت مع الغزاة.

كانت الأراضي موزعة في العهد الروماني المتأخر كما يلي :

1 - أراضي الإمبراطور التي يمارس عليها سلطته لوحده، و كانت تُستغل حسب الشروط التي يحددها هو نفسه.

2 - أراضي الأسر الأرستقراطية، من أعضاء مجلس الشيوخ و غيرهم من ذوي النفوذ، و هي، مبدئيا، أراضي الدولة كذلك، إلا أن هؤلاء تصرفوا فيها كملكيات خاصة.

3 - أراضي المستوطنات و البلديات التي كان يستفيد منها مستوطنون و أهالي مُرومنون اندمجوا في المجتمع الروماني.

4 - أراضي العشائر الأمازيغية التي كانت تنتفع بها و تحوزها بشكل جماعي.

لقد أنشأت الأسر الأرستقراطية مزارع واسعة عُرفت باسم لاتيفونديا. كانت تستغلها بوساطة العبيد و العمال المأجورين. و كانت هذه المزارع الممون الرئيسي لروما بالغذاء من الحبوب. أما الأراضي التي تسلم للمستوطنيين من الرومان فكانت ضيقة و فقيرة.

كان المجتمع الأمازيغي في المناطق الجبلية الوعرة و في الصحراء و السهوب، خارج المناطق التي سيطر عليها الرومان، وراء خطوط الدفاع المعروفة باسم الليمس، يعيش وضعية صعبة هي أقرب إلى أوضاع ما قبل التاريخ، حيث تسيطر الحيازة الجماعية لا للأراضي فحسب بل حتى لبعض منتوجاتها كذلك.

بعد أن بلغت الأراضي الزراعية في العهد الروماني أقصى اتساع لها، في منتصف القرن الثالث الميلادي، أخذت تتقلص من الغرب إلى الشرق، نتيجة المقاومة الأمازيغية و حركة الدوارين و الدوناتية التي كانت ضربة قوية وُجهت للزراعة و الأسر الأرستقراطية. و كان الغزو الوندالي ضربة أخرى أقسى من الأولى. مكّن سقوط السلطة الرومانية سنة 439 من فتح المجال أمام القبائل الأمازيغية الجبلية و الصحراوية من الولوج إلى المناطق الزراعية الرومانية و تحويل أجزاء شاسعة منها إلى أراضي لتربية الماشية. حتى الوندال كانوا رعاة يجهلون الكثير من فنون

الزراعة. لقد تقلصت الأراضي الزراعية كثيرا. لما جاء البيزنطيون شمال أفريقيا وجدوا جُل أراضي المنطقة قد تحولت إلى مراعي. رغم أنهم تمكنوا من إنشاء مزارع جديدة، في الناحية الشمالية الشرقية من البلاد، إلا أنهم لم يتمكنوا من استعادة مجد روما. و ظلت أغلبية أراضي شمال إفريقيا و منها الجزائر، أراضي رعوية، تخضع للحيازة الجماعية.

في القرن السابع الميلادي جاء العرب المسلمون بأنماط جديدة لحيازة الأرض يغلب عليها نمط الحيازة الجماعية. نميز بين هذه الأنماط ما يلي :

1 - أراضي العنوة: وهي الأراضي التي فتحها العرب المسلمون بالقوة فإن أبقوها في أيدي أصحابها فرضوا عليها الخراج، فتبقى كذلك حتى و إن اعتنق أصحابها القامي الإسلام أو اشتراها المسلمون، كما قرر عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي سنة 718. أما إذا اقتسمها الفاتحون بينهم فإنهم يدفعون عن محصولها العشر، لأنها تصبح في هذه الحالة ملكية خاصة.

2 - الصوافي: هي الأراضي التي فُتحت عنوة و كان يملكها ملوك و قادة النظام السابق على الفتح. هذه الأراضي تصبح ملكا لبيت المال، و للحاكم الحق في أن يقطع جزء منها لأحد المسلمين ليقوم باستغلالها و الانتفاع منها. و قد كان الإقطاع أنواعا : إقطاع التمليك مدى الحياة أو لفترة معينة؛ إقطاع الاستغلال؛ واقطاع بدل الرواتب و العطاء.

3 - أراضي الصلح: يتوقف وضعها على ما جاء في كتاب الصلح، مثل الاتفاق على مبلغ من المال أو خراج عيني. هكذا فإن أراضي الصلح لا تختلف كثيرا عن أراضي الخراج.

4 - الأراضي التي أسلم عليها أصحابها طوعا، و هي أراضي تبقى بأيديهم يدفعون عنها العشر.

5 - الأراضي الموات: الأراضي الموات هي الأراضي العطلة و ليس لها مالك و ليس فيها ماء أو عمارة. و قد اعتبرت عشرية، أي أنها ملك خاص لمن يستصلحها. و كان باب الاستصلاح مفتوحا، غير أن الأمويين اشترطوا الحصول على رخصة يقدمها الحاكم للمُستصلح : إذا تمعنا في الأنماط التي جاء به العرب المسلمون نجد أنها سرّعت عملية تملك الأراضي بطرق ثلاث :

1 - بتقسيم أراضي العنوة على الفاتحين، لأن هذه الأراضي غالبا ما كانت حيازة جماعية.

2 - بالإقطاع.

3 - بإحياء الأرض الموات.

لقد لعبت الدولة دورا كبيرا سواء في توسيع رقعة الملكية الفردية أو الخاصة أو في تضييقها.

لقد نتج عن الوجود العربي الإسلامي أنماط الحيازة التالية :

1 ـ الملكية العامة: التي تتكون من الأراضي السلطانية (الصوافي)، التي تشكلت من أراضي البيزنطيين وحلفائهم الذين قتلوا في المعارك أو فروا هاربين، ومن الأراضي التي مات أصحابها دون أن يتركوا وريثا، و من الأراضي الخراجية، سواء كانت عنوة أو صلحا، فهي في الحقيقة ملك الدولة، حتى و إن كانت غير قابلة للتحويل. يضاف إلى تلك الأراضي الموات، مادام المستصلح في حاجة إلى رخصة من الحاكم. فهذا الأخير حين يقدم الرخصة فكأنه يعلن عن تخلي الدولة عن الأرض التي يُراد استصلاحها.

2 ـ الملكية الجماعية : و هي تتعلق بأراضي القبائل التي بقيت على أرضها، بعد أن أسلمت عليها طوعا.

3 ـ الملكية الفردية أو الخاصة: و تتعلق بالأراضي التي كانت ملكية فردية و أسلم أصحابها عليها طوعا، و الأراضي التي مُلكت بعد الفتح بالطرق التي تعرضنا لها من قبل.

4 ـ الوقف أو الحبس : يتعلق بالأراضي التي أوقفها أصحابها المسلمون على مؤسسات دينية أو ثقافية أو اجتماعية الخ.

عرفت حيازة الأرض اضطرابات كثيرة خلال العصور الوسطى نتيجة الاضطرابات السياسية. كانت الدول تنهار و تقوم غيرها مكانها بشكل دوري. انهيار دولة و قيام أخرى كان يؤدي إلى تحويل الأراضي الخراجية إلى حيازة جماعية أو فردية أو تحويل الموات إلى جماعية أو فردية و قد يحدث العكس. و قد تتحول الأراضي الجماعية و الفردية إلى أراضي خراجية.

أدت انتفاضات القرن الثامن الميلادي، ضد الأمويين ثم العباسيين إلى تقليص الأراضي العامة وتوسيع أراضي الحيازة الجماعية أو الفردية. و لما أقام الرستميون دولتهم وسعوا الأراضي العامة أو أراضي الدولة، ثم أخذوا يقطعونها الجماعات و الأفراد. و لما جاء الفاطميون في القرن العاشر، أخذت الأراضي العامة تتوسع من جديد نتيجة الحروب الطويلة التي خاضها الفاطميون و أدت إلى مقتل العديد من الناس الذين ألحقت أراضيهم بالأراضي العامة. و أدت الهجرات الهلالية في البلاد الشرقية من المغرب إلى حيازة القبائل العربية للبوادي و السهول بحد السيف. فلم يبق للدول القائمة إلا الأراضي التي كانت داخل أسوار المدن. هكذا يمكن القول أن الأراضي الجماعية توسعت على حساب باقي أنماط الحيازة. في العهدين المرابطي و الموحدي توسعت أرضي الدولة على حساب أراضي القبائل و الأفراد، لأن المرابطين و الموحدين بعدهم اعتبروا المناوئين لهم كفرة وجب قتالهم و اعتبروا مالهم غنيمة وفيئا. لا شك في أن الأزمة التي عرفها المغرب في القرن الثالث عشر قد أدت إلى تقليص الأراضي العامة، ثم تقلصت هذه الأراضي أكثر خلال القرن الخامس عشر و بداية القرن السادس عشر، لما ضعفت السلطات المركزية الحفصية و الزيانية و عادت هيمنة القبائل العربية على الأرياف.

ما يلاحظ خلال العهد التركي، هو اختفاء الأراضي الخراجية، إذ أصبحت الأراضي موزعة بين البايليك و العرش و الملك و الوقف، و ما تبقى منها هو الموات. إننا لا نملك

إحصائيات دقيقة عن مساحات هذه الأراضي، لهذا سنعتمد على الإحصائيات التي وردت في تقرير فارنيي الذي قدمه إلى الجمعية الوطنية الفرنسية بمناسبة مناقشة القانون العقاري سنة 1873، القانون الذي سمي باسمه. لكن لا بد لنا أن نشير إلى أن هذه الإحصائيات تعود إلى ما بعد 43 سنة من سقوط السلطة التركية. و لا شك في أن تغيرات كبيرة طرأت خلال هذه المدة ومنها انتقال مساحات من أراضي البايليك إلى العرش أو الملك. هذا من جهة، و من جهة أخرى، سنستعمل المصطلحات التي استعملها الفرنسيون للإشارة إلى أنماط الملكية حتى و إن كان هناك شك في استعمالها في العهد التركي، لكننا نعتقد أنها مصطلحات معبّرة.

1 ـ أراضي العرش

أراضي العرش و تعرف في بايليك الغرب باسم السبخة. تعني كلمة العرش القبيلة أو العشيرة و إقليمها في الوقت نفسه. تحوز القبيلة أو العشيرة الإقليم بشكل جماعي. كل عائلة من عائلات العشيرة تزرع قطعة من أراضي الجماعة، لا بصفتها مالكة لها بل بصفتها مستفيدة منها. و تبقى هي صاحبة الحق عليها حتى تتركها أو تعيد العشيرة توزيع أراضيها على العائلات. الجماعية في حيازة الأرض لا تعني شيوع محصولها، فهذا الأخير يعود لمن حققه. هذا النوع من الحيازة سمح بانتشار الأعمال التضامنية بين عائلات العشيرة، إذ بواسطة العمل التضامني (التويزة) تتمكن تلك العائلات التي لا تملك اليد العاملة من استغلال قطعة أرض.

لا تسمح أراضي العرش، بوضعيتها تلك، بقيام أو ظهور الملكيات الخاصة التي تفصل بين ملكية وسائل الإنتاج و العمل، لكنها تسمح بظهور التفاوت بين العائلات الكبيرة و العائلات الصغيرة. و لابد من الإشارة هنا إلى أن العائلة التي نتكلم عنها هي العائلة المركبة من أسر عدة، يقودها الذكر الأكبر سنا، سواء كان الأب أو ابنه الأكبر. لا شك في أن العامل الحاسم الذي أبقى هذا النمط من الحيازة هو ضعف وسائل الإنتاج و الظروف الطبيعية القاسية التي تحدّ من نمو المردود الفلاحي الذي يحتم تكتل و تضامن أفراد العائلة و العشيرة. كانت أراضي العرش واسعة و غير مسيّجة، بل حتى أراضي العائلات لم تكن مسيّجة أيضا.

ينتشر العرش في السهول العليا، بصفة خاصة، حيث يرتبط إنتاج الحبوب بتربية الماشية و التنقل الجزئي للسكان (مرتين أو ثلاث مرات في السنة) بحثا عن الكلأ للماشية، و في مناطق الإستبس، حيث تربية الماشية و بعض الزراعة الضيقة و التنقل نحو التل مرة في السنة، و في الصحراء حيث تطغى تربية الماشية و التنقل الدائم. السكن الذي يسود هذا الإقليم هو الخيمة المصنوعة من الوبر و هي مكورة تثبّت في الأرض بواسطة أوتاد من الخشب و تُحاط بالحجارة.

يقدر تقرير فارنيي مساحة العرش بخمسة ملايين هكتار (3)، غير أننا نتصور أنها كانت أوسع. فقد اقتطع الاستعمار أجزاء منها خلال أربع عشريات. هكذا يشغل العرش أوسع مساحة فلاحية. الواضح هو أن العرش مرحلة انتقالية بين الحيازة الشاعية التي سادت في المجتمعات التي تعرف بالبدائية والملكية الفردية أو الخاصة. عمل الاستعمار على إزالة العرش، سواء بالاقتطاع المباشر منه أو بتقرير إلغائه بواسطة قانون 1873 و قانون1887. مع هذا لازال العرش موجودا إلى اليوم في المناطق المعزولة من البلاد. و معلوم أن العرش لا يمكن بيعه. لقد أطلق عليه فارنيي وصف" الشيوعية العربية ".

2 - أراضي الملك

إذا كان فارنيي قد شن هجوما واسعا على العرش، الذي اعتبره سبب تصحر المناطق التي سادها، فإنه يُثني كثيرا على " الملك " و يحاول أن يربط بينه و بين الملكية الفردية في أوربا. فالملك بالنسبة له " ملكية حقيقية. بالمعنى الذي نعطيه لهذه الكلمة في فرنسا تماما ". و لأنه ملكية فردية فإن أراضيه لا تختلف في إنتاجها عن " أحسن مزارع أوربا الجنوبية، و أكثرها غنى "،و قد حلت في أراضي العرش الأشواك و المراعي و الحقول النادرة التي تنتج الحبوب " محل تلك المنتوجات التي كان يعول عليها القياصرة لإعالة رعايا روما ". لا يبحث فارنيي في الأسباب، الطبيعية منها و التاريخية، التي جعلت العرش يسود في المناطق السهلية التي يقطنها العنصر العربي، بل يوحي تفسيره بنظرة عنصرية و بتحاليل سطحية. الحقيقة أن القول بأن الملك هو الملكية الفردية في أوربا هو قول لا ينطبق على كل الملك، و خاصة الملك الذي ساد في المناطق التي يشير إليها فارنيي. إن دققنا في الملك وجدنا فيه نوعين؛ الملك العائلي و الملك الفردي. هذا الأخير هو الأقرب إلى مفهوم الملكية الفردية في أوربا.

يوجد الملك العائلي، بشكل خاص، في المناطق الجبلية حيث ساهمت الظروف الطبيعية في تشكيله. فهذه المناطق تستقبل كميات معتبرة من الأمطار، تفوق ما تحصل عليه أراضي العرش، الشيء الذي يسمح بقيام زراعة أكثر كثافة و أكثر مردودية، و يحتاج غرس الأشجار، الذي يسود المناطق الجبلية، فترة طويلة من العناية، كما تحتاج الأرض إلى عناية للحد من انجرافها. هذا من جهة، و من جهة أخرى، كانت هذه المناطق كثيفة السكان و كثيرة الجبال فلا تملك سهولا واسعة و كانت بعيدة عن الصراعات و الحروب التي كانت تتعرض لها السهول خلال العصور الوسطى. كل هذه العوامل أوجدت نمط الملكية المناسب. بخلاف العرش، فإن الملك العائلي مُسيَّج و إلى جانبه يوجد العرش الذي خرج هو منه. و عليه فإن الملك العائلي ما هو إلا خطوة ثانية في مسار تحلل الحيازة الشاعية. يختلف الملك العائلي، في هذه المناطق، عن الملك الذي نشأ في الواحات من استصلاح الأراضي الموات.

نشأ الملك الفردي، الذي يشبه بالفعل الملكية الفردية في أوربا، بطرق مختلفة و قد لعبت عمليات المصادرة و البيع في المزاد العلني التي كانت تقوم بها السلطة التركية مثلا دورا كبيرا في توسيعه، خاصة بالقرب من المدن، كما هو الشأن بفحص مدينة الجزائر. لقد أخذ هذا النوع من الملك يتوسع في أواخر العهد التركي، لما أخذت الدولة تتخلى عن بعض أراضيها لقادة المخزن و فرسانه.

حسب تقرير اللجنة البرلمانية (تقرير فارنيي)، سالف الذكر، بلغت مساحة أراضي الملك ثلاثة ملايين هكتار، في شمال البلاد (و هي المناطق التي كانت مُراقبة من طرف الأتراك بصفة عامة)، و ثلاثة ملايين هكتار في الواحات و القصور (المناطق التي لم يراقب الأتراك إلا جزء بسيطا منها).

3 ـ أراضي البايليك

أراضي البايليك هي الأراضي التي أصبحت ملكا للدولة بطرق مختلفة مثل المصادرة و امتلاك ما لا وارث له. و هي في أغلبها تقع بالقرب من المدن و هي أراضي جيدة. يقدرها تقرير فارنيي بمليون و نصف المليون من الهكتارات، و يوزعها كما يلي: جزء منها، و هو المعروف باسم العزل، يؤجر مقابل سعر نقدي أو عيني أو يُخصص لخدمات عامة؛ الجزء الثاني، و هو العروف باسم التويزة، يُخصص لعمل السخرة، لفائدة الدولة أو القادة؛ الجزء الثالث، بلاد المطمور، و هو الأراضي المخصصة للمطامير و من يتولى حراستها؛ الجزء الرابع، و هو القوناق، و يشمل أراضي المعسكرات الخاصة بالقوات النظامية و غير النظامية المرابطة في نقاط المراقبة التي أقيمت بقرب سُبل المواصلات؛ الجزء الخامس، و هو العزيب، الذي يعرف أيضا باسم الأكدال، و يشمل الأراضي المخصصة لحيوانات البايليك التي مصدرها الضريبة العينية على الحيوانات و الغنائم؛ و الجزء السادس و الأخير، هو ما يعرف بأراضي المخزن، ويشمل الأراضي التي مُنحت لقبائل المخزن للاستفادة منها دون ملكيتها.

4 ـ أراضي الوقف

على الرغم من أن أراضي الوقف كانت هامة إلا أننا لا نجد لها أثرا في التقرير المذكور، و يصعب علينا تحديد مساحتها. و الوقف لا يقتصر على الأراضي بل يشمل عقارات أخرى كالمباني.

يقسم الوقف إلى نوعين؛ الوقف العام الذي " يعود أساسا على المصلحة العامة التي حُبس من اجلها "؛ و الوقف الخاص الذي لا يتحول " صرف منفعته على المصلحة العامة التي حُبس على أساسها إلا بعد انقراض العقب أو انقطاع نسل صاحب الحبس ". يُعرف هذا الأخير باسم " الوقف الذري أو الوقف العائلي " كذلك، بينما يُعرف النوع الأول باسم " الوقف الجبري " أيضا. لقد زادت ظاهرة الوقف انتشارا في أواخر العهد التركي، و هي فترة "

اتصفت أساسا بازدياد نفوذ الطرق و الزوايا و تعمق الروح الدينية لدى السكان الذين وجدوا فيها أحسن وسيلة و خير عزاء أمام مظالم الحكام و انعدام الأمن و هجمات الأساطيل الأوربية على السواحل و تكرار الكوارث الطبيعية، فضلا على أن الحكام الأتراك الذين رأوا في الرابطة الدينية عاملا قويا يمكنهم من بسط نفوذهم و تدعيم مكانتهم لدى الأهالي، الأمر الذي دفعهم في الكثير من الأحيان إلى تحبيس أملاكهم إظهارا للورع و التقوى و تقربا للمرابطين و اكتسابا لتأييد رجال الدين "، كما يقول سعيدوني (4).إذا أمكن لنا تفسير ظاهرة توسع الوقف العام أو الخيري بالعوامل التي ذكرها سعيدوني، فإن الوقف العائلي أو الأهلي يستدعي تفسيرا آخر. فالجزائريون، وهم مالكيون،كانوا يلجأون إلى الحنفية لتبرير إقبالهم على الوقف الأهلي، كما يقول سعيدوني أيضا (5).

يعود إقبال الناس على هذا الشكل من الوقف إلى استيلاء السلطة و غيرها من أصحاب النفوذ على أراضي الملك. فالوقف لم يكن سوى وسيلة لمواجهة هذا العسف. هذه الوسيلة استعملها كبار المسؤولين الأتراك كذلك للحفاظ على أملاكهم التي كانت مهددة بالمصادرة أيضا.

كان الوقف متعددا؛ فهناك أوقاف الحرمين الشريفين و أوقاف المساجد؛ أوقاف الأولياء و الأشراف؛ أوقاف أهل الأندلس؛ أوقاف الجند و التكنات؛ أوقاف المرافق العمومية والمؤسسات التعليمية الخ.كان الوقف قليلا في الجهة الشرقية من البلاد و واسعا في الناحيتين الوسطى و الغربية (6).

أسلوب الإنتاج

نعود، بعد هذا العرض المتعلق بوضعية الأرض، إلى موضوعنا المتعلق بالتشكيلة الاجتماعية الجزائرية قبل الاحتلال الفرنسي. سنعمد إلى تقديم و مناقشة الأطروحات التالية : أسلوب الإنتاج الإقطاعي، أسلوب الانتاج العتيق، أسلوب الإنتاج الآسيوي و أسلوب الإنتاج القديم، لنصل في النهاية إلى ما نعتقده أسلوب الإنتاج السائد و الأساليب المتمفصلة به.

1 - أطروحة أسلوب الانتاج الاقطاعي

يميل الكثير من الفرنسيين الذين اهتموا بتاريخ الجزائر في عهد الأتراك إلى اعتبار المجتمع الجزائري، قبل الاستعمار الفرنسي، مجتمعا إقطاعيا. ردد شارل فيرو، في تناوله لمواضيع شتى من تاريخ الجزائر، عبارة الإقطاعي و الإقطاعيين مرات عديدة، ليشير إلى تمتع بعض القادة الأهالي، من أمثال الدواودة و أحرار الحنانشة، بسلطات واسعة تنافس سلطة مدينة الجزائر. لكن شارل فيرو لم يتعمق في دراسة علاقات الإنتاج و قواه. سار لويس رين على نفس درب فيرو، في دراسته التي أنجزها تحت عنوان " مملكة مدينة الجزائر في عهد الداي

الأخير ". حاول أن يثبت من خلالها التركيبة الطبقية الإقطاعية في الأرياف الجزائرية. في هذا الإطار قسم سكان الأرياف، كما رأينا من قبل، إلى " الرعية " التي يُمارس عليها الاستغلال، و أهل المخزن الذين يستغلون الرعية و كذلك النبلاء أو الأجواد و المرابطين لكن لويس رين لم يتعرض هو الأخر إلى علاقات الإنتاج وقواه بل أقام تصنيفه على أساس الامتيازات المرتبطة بالقيادة التي أدت إلى الفوارق الاجتماعية. لكن ما كل فوارق اجتماعية تعبر عن الإقطاعية بالضرورة. لقد انتهى لويس رين إلى القول بأن " كل الأشكال التي كانت معروفة في التنظيم الإقطاعي للمسيحية (المقصود هنا الأوربية) في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر كانت لا زالت موجودة في الجزائر سنة 1830 ". خلاصة القول أن الجزائر ما فيها إلا " أكلة و مأكولون " (7). غير أن بروديل، في ردّه على أ. ميرسيي، الذي وصف وضعية المغرب قبل الأتراك بوضعية " الإقطاع "، حذر من مقارنة القادة المغاربة ببارونات فرنسا الإقطاعية (8).

لقد انتهى غاليسو في دراسته للمجتمع الجزائري إلى خلاصة مفادها " أن المجتمع الجزائري، قبل الاستعمار، هو مجتمع إقطاعي بلا شك " نافيا مقولة ركود القوى الإنتاجية في العهد التركي. " فإذا كان المستوى التقني المتوسط أعلى ممّا وُجد في العصر الإقطاعي الأوربي الأول، في أول الأمر، فإن تحسين هذا المستوى يبدو واضحا أنه كان يحدث بعد ذلك ببطء، في ظروف النمو السكاني الضعيف ". و يؤكد غاليسو، من جهة أخرى، على أن الأشكال الجماعية التي تتميز بها الأرياف الجزائرية تخفي في الحقيقة " تمايزا اجتماعيا شديد التأكيد منذ أمد، مما يسبب حركية التملك العائلي و الخاص للأرض " كما يؤكد على وجود " علاقات اجتماعية تقوم على امتلاك الريع العقاري "، الذي يُستخرج من " طبقة فلاحية تحتفظ بحقوق استعمال الأرض " التي هي في قبضة " فئات من الأرستقراطية يرتبط أعضاؤها فيما بينهم بروابط شخصية و يشكلون الطبقات العليا للجهاز السياسي ". يحدد غاليسو الجهات التي يهيمن فيها هؤلاء الأرستقراطيون بقوله : " تمتد إذن هيمنة هؤلاء القادة المحليين ورؤساء القبائل و الأسياد الجهويين الذين يشكلون الأرستقراطية الريفية خارج المناطق التي تراقبها المدن و تجمعات القبائل العسكرية المرتبطة بالسلطة التركية ". بجانب هذه الأرستقراطية التي تتشكل من القادة المحاربين (الأجواد) نجد" أرستقراطية ثانوية " هي" أرستقراطية العائلات التي أقامت قوتها على هيبة دينية و قيادة طريقة و حيازة الحبس". بعد كل هذا يتحفظ غاليسو على تشبيه " الإقطاع " الجزائري بالإقطاع الأوربي. فالإقطاع في الجزائر هو " إقطاع القيادة " الذي يقوم على" أهمية الوظيفة العسكرية " (9).

تلقى أطروحة الإقطاعية عقبات كثيرة يصعب تجاوزها. لهذا وجدت معارضة من الكثير من المهتمين بتاريخ الجزائر. لعل كارل ماركس هو أول من رفضها في أواخر القرن الماضي.

بأمر من أطبائه، أمضى كارل ماركس مدة شهرين و نصف من سنة 1882 (السنة ما قبل الأخيرة من حياته) في الجزائر . و في الرسائل، التي بعثها من هذه الأخيرة، لم يتطرق للمجتمع الجزائري. لكنه، قبل أن يأتي إلى الجزائر، كان قد طالع كتاب مكسيم كوفاليفسكي المعنون " الملكية الجماعية للأرض: أسباب انحلالها و تاريخه و نتائجه "، هو الكتاب الذي نُشر في موسكو سنة 1879. أرسل ماركس إلى المؤلف بمجموعة من الملاحظات حوله، غير أن رسالته إليه ضاعت أو أتلفت (10). إنا رجعنا إلى الملاحظات التي دونها على صفحات الكتاب و هو يطالعه وجدناه يرفض رفضا واضحا أطروحة الإقطاعية في جزائر ما قبل الاستعمار.

يؤكد ماركس أن أسس المجتمع الجزائري، قبل الاستعمار الفرنسي، كانت تقوم على " نمط الملكية العقارية القبلي - المشاعي ". و أن هذا النمط كانت له حيوية كبيرة، ظهرت عند تطبيق الفرنسيين سياسة " الحصر " التي اتبعتها الإمبراطورية الثانية في الستينيات من القرن التاسع عشر. أوضح ماركس أهداف إقامة الملكية الفردية التي سعى إليها الفرنسيون بشتى الطرق بقوله: " و عن طريق تحويل الملكية العقارية إلى ملكية فردية، يتم بالضربة نفسها بلوغ الهدف السياسي: تدمير أسس هذا المجتمع بالذات " (11). و لم يكن ماركس يعتبر الملكية الجماعية للأرض أساس المجتمع الجزائري فحسب، بل عارض القول بأن جماعات المخزن هي شكل من أشكال الإقطاع. يقول بشأنها أن كوفاليفسكي يصف " المستوطنات العسكرية " - جماعات المخزن - " خطأ بأنها " إقطاعية " بحجة باطلة و هي أنه كان يمكن أن ينجم عنها شيء يشبه - مع التحفظ النسبي - الجاغير لدى الهندوس " (12).

لقد سارت لوسيت فالانسي على نهج ماركس في رفضها أطروحة غاليسو بصفة جذرية. فهي تنفي سيطرة النمط الإقطاعي، سواء من حيث مستوى تطور وسائل الإنتاج أو من حيث ملكية الأرض أو من حيث البنية الطبقية أو من حيث العلاقات الاجتماعية.

تكمن الصعوبات التي تقف في وجه أطروحة الإقطاعية في العديد من النقاط أهمها في رأينا هي التالية :

1- سيادة " نمط الملكية العقارية القبلي - المشاعي " و حيويته، كما يقول ماركس. جل الأراضي الزراعية كانت حيازتها جماعية، سواء تعلق الأمر بالعرش أو الملك العائلي أو البايليك، أما الملكية الفردية، التي يمكن أن يقوم عليها الإقطاع، فكانت ضيقة جدا. لهذا فإن الفصل بين العمل و ملكية وسائل الإنتاج لم يكن مهيمنا. إن العائلة هي صاحبة الحق على الأرض في أراضي الملك، و القبيلة هي صاحبة الحق على الأرض في أراضي العرش، و الدولة هي صاحبة الحق في أراضي البايليك. باقي وسائل الإنتاج هي ملك للعائلة بصفة عامة. مع العلم أن الفصل بين ملكية وسائل الإنتاج و العمل هي سمة رئيسية في نمط الإنتاج الإقطاعي.

2ـ كانت مردودية الفلاحة في أوربا الإقطاعية عالية جدا بالمقارنة مع مردودية فلاحة الجزائر، نتيجة عاملين رئيسيين؛ الأول يتمثل في كون الظروف المناخية في أوربا أحسن بكثير من الظروف المناخية الجزائرية التي تتميز بالجفاف الذي يضرب البلاد بصفة دورية، وخاصة في الناحية الغربية؛ الثاني يتمثل في ضعف وسائل الإنتاج التي كانت توظف في الفلاحة الجزائرية.بل إن هذا الضعف هو الذي يفسر بقاء الحيازة الجماعية نفسها.

3ـ الفائض المقتطع من الفلاحين في شكل ضرائب هو فائض ضعيف، تقتطعه الدولة بصفة مباشرة، في المناطق التي تخضع لسيطرتها المباشرة، و بطريقة غير مباشرة في المناطق التي تخضع لقادة محليين، ثم توزعه على الفئات المعنية،بعد أن تضيف إليه موارد القرصنة التي كانت تعوض ذلك الضعف العام. إن القرصنة نفسها تفسر ضعف الفائض المقتطع من الفلاحين.

4ـ يتعامل الإقطاعي في أوربا مع الفرد (القن) و تتعامل الدولة في الجزائر مع القبيلة أو العشيرة أو العائلة الكبيرة ككيان قائم بذاته، و لا تتعامل مع الفرد، و في كثير من الأحيان تفرض العقوبة على القبيلة بكاملها أو العشيرة أو العائلة بسبب أخطاء ارتكبها أحد أفرادها أو أكثر. و يتعامل القادة المحليون مع العائلات أو مع العشائر هم كذلك.

5ـ يعاني الإقطاعيون من نقص اليد العاملة في أوربا. لهذا يقومون بحملات على المناطق المجاورة لإجبار الفلاحين على العمل في أراضيهم و كانت أهمية المزارع تُقاس بعدد الأقنان الذين يعملون فيها و ليس بمساحتها. هذه الوضعية لا نجدها في الجزائر.

6ـ لا نجد في الجزائر التقسيم الاجتماعي الإقطاعي المتمثل في الحكام و المحاربين الكادحين بالوضوح الذي نجده عليه في أوربا الإقطاعية ،رغم أن بوادره موجودة. فالحكام موجودون و الأجواد المحاربون و فرسان المخزن موجودون و لكن الفلاحين لا يزالون يمتلكون السلاح للدفاع عن قبائلهم.حتى في المناطق التي يسودها الملك العائلي غالبا ما تواجه القبيلة قبيلة أخرى أو تواجه الدولة نفسها.لقد تطرق حمدان خوجة إلى أهمية السلاح بالنسبة للقبائل بقوله: " يرى هؤلاء السكان الرحل أن من الضرورة الملحة أن يكتسب المرء حصانا و بندقية و سيفا. و الذي لا يملك هذه الأشياء يكون مُحتقَرا و منبوذا، لأنه، كما يقولون، لا يقدم ضمانا سواء للقيام بواجباته أو الدفاع عن المجموعة " (13).ما يقوله حمدان عن الرحل ينطبق على المستقرين كذلك.

7ـ يختلف دور الدولة الإقطاعية عن دور الدولة في الجزائر. فالدولة الإقطاعية دولة لا مركزية بالمعنى الكامل للكلمة، ليس لها دور اقتصادي و لا دور إداري أو قضائي، و حتى الدور العسكري منوط بإرادة أولئك الإقطاعيين، الذين يملكون القوة العسكرية الحقيقية،إذ أن قوات الدولة ما هي إلا تجميع لقوات هؤلاء الإقطاعيين. فإن رفضوا المشاركة في الحرب لن تقع الحرب. أما الدولة في الجزائر فهي مركزية و هي ليست وراثية كما هو الشأن في أوربا. يخضع قادة الولايات للسلطة المركزية التي لا تعينهم إلا لفترة لا تتجاوز مبدئيا الثلاث

سنوات، و لم يحصل أن حُولت القيادة الولائية إلى نظام وراثي كما هو الشأن بالنسبة لأوربا. و حتى القيادات الوراثية المحلية كانت تخضع لمراقبة السلطة المركزية التي كانت تتدخل للإطاحة بالقادة الذين يظهرون ميولا لرفض مراقبتها و الأمثلة هنا عديدة. فقد أطاح الأتراك بسلطة الدواودة مرات عديدة كما أطاحوا بالعديد من شيوخ فرجيوة و بغيرهم.كانت الإنكشارية هي القوة الأساسية التي تضمن مركزية الدولة سواء بتلك الحاميات المنتشرة في مختلف المدن أو بتلك المحلات التي تجوب الولايات كل سنة بمناسبة تحصيل الضرائب أو بتلك المحلات الاستثنائية بمناسبة وقوع تمرد مثلا. في هذه الحالة الأخيرة توضع القوات المحلية تحت قيادة السلطة المركزية. و بخلاف الدولة الإقطاعية فإن الدولة في الجزائر تقوم بدور اقتصادي وبدور إداري الخ.

مع كل هذا فإننا لا ننفي وجود بوادر إقطاعية في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، و هذا ما سوف نتعرض له لاحقا. أما الآن فإننا نتعرض لأطروحة لوسيت فالانسي التي تتعلق بأسلوب الإنتاج العتيق (أركايك) و التي تواجه بها أطروحة غاليسو بخصوص الإقطاعية.

كما أشرنا سابقا، ترفض لوسيت فالانسي أطروحة الإقطاعية في جزائر ما قبل الاستعمار الفرنسي من مختلف الجوانب، و في المقابل تطرح بديلا تسميه أسلوب الإنتاج العتيق. تقول فالانسي حول مستوى وسائل الإنتاج في الجزائر: " ما يثير العجب هو جمود أساليب الزراعة و أدواتها، حتى في الجهات التي يكون فيها شغل الأرض أكثر كثافة و العمل البشري أكثر دقة ". تلك الأدوات هي المنجل الذي يتم به الحصاد و المحراث الخشبي والمطحنة اليدوية و هي أدوات تعود إلى العهد الروماني و " الحيوانات تعيش لدى مربي الماشية تبعا لتقلبات المناخ، بدون مأوى و بدون زراعة العلف و لا تخزينه " (14). و تقول كذلك :" لم تعرف إفريقيا الشمالية نموا للقوى الإنتاجية، و التقنية منها،حتى العهد الاستعماري، بل يمكن للمرء أن يتحدث عن التقهقر في بعض المجالات " (15). الخاصية التي تراها فالانسي مشتركة بالنسبة لتوزيع الأراضي الفلاحية، سواء لدى البدو أو لدى المستقرين " هي المتعلقة بالعدالة النسبية في الملكية ". ففي الجهات التي يعيش فيها الناس مستقرين " يتعلق الأمر بملكية مستغلة مباشرة و بشكل مشترك من طرف الفلاح المالك و عائلته ". و لما كانت المساحة ضيقة فإن العائلة تستفيد من الأراضي المشتركة التي تُخصص للرعي، كما تستفيد من الآبار و المياه المشتركة أيضا التي تعود للقبيلة كلها. و على الرغم من وجود ملكيات كبيرة لا يمكن لملاكها أن يستغلوها بأنفسهم، مثل الحبس و أراضي " العاهل " و أراضي العائلات الكبيرة من سكان المدن، و على الرغم من أن المغرب قد عرف " البروليتاريا الفلاحية "،" قبل الدفع الديمغرافي للقرن العشرين "، فإن الملكية الصغيرة و الاستغلال العائليين " هما المهيمنان في مغرب ما قبل الاستعمار (16).

لقد نتج عن الضعف التقني و ضيق الأراضي شيئان هامان ، الأول هو بقاء اقتصاد المغرب اقتصادا عائليا هدفه " إشباع الحاجات الأساسية "، و مع ذلك فهو ليس اقتصادا اكتفائيا، إذ " يجري على مستوى عال نوع من تقسيم العمل بين الاقتصادات المحلية، التي تكفل بعضها بعضا "، الثاني هو ضرورة التكافل داخل الجماعة، فإذا وقع الفلاح في عُسر طلب الدعم من الجماعة، عن طريق الشيخ القائد، الذي ينظم حفلا، يجمع خلاله الهبات التي يقدمها أفراد الجماعة. و هناك أشكال أخرى متعددة للتضامن منها " المساعدة في الأعمال الفلاحية حين يفتقر أحد البيوت إلى الأيدي و تجمع النسوة لطحن الحبوب، و إعارة العتاد الخ " (17).

تنتهي فالانسي في دراستها للجوانب الاقتصادية إلى التأكيد على ضعف الفائض المستخرج من الفلاحين، بحيث لا يمكن له أن يحدث تراكما في ظل ضعف التقنية و" غياب العبودية " (18).

أخيرا، تنفي فالانسي الصفة الإقطاعية عن المجتمع المغربي، ومنه المجتمع الجزائري. تقول:" هل من الضروري وصف المجتمع المغربي بأنه مجتمع إقطاعي أو مجتمع طبقات أو مجتمع عتيق (أركايك) ؟ وجود الأملاك الكبيرة و العائلات القوية المنتفعة من سلطات القيادة و التي تحصل، بهذه الصفة، على سخرة دافعي الضرائب : الكثير من السمات يمكنها أن تقود المجتمع المغربي إلى الإقطاعية. مع أن السيرورة تبدو أنها لم تدفع تغيير العلاقات الاجتماعية بعيدا. لقد حافظ الفلاحون المغاربة على أراضيهم و أسلحتهم، حتى الفترة الاستعمارية. لا تغير اللامساواة في المال و النقود هذا المعطى الأساسي في شيء ". (19) و تواصل نقاشها :" أخيرا، ألا يستطيع وكلاء السلطة، الحاكم و القادة الذين لهم كل امتيازات العاهل على المستوى المحلي، أن يتحولوا بدورهم إلى سادة مشابهين لسادة الغرب القروسطي، بواسطة مدّ سيادتهم و استقلالهم عن العاهل ؟ لا، لم يظهر، في البلدان الثلاث ذلك التقسيم الثلاثي للمجتمع الأوربي بالوضوح المبين من طرف جورج دوميزيل، بين الرجال الذين يحكمون، و الرجال الذين يحاربون، و الرجال الذين يكدحون. كل مسلم يمكنه أن يكون جنديا في الجهاد، و كل رجل سليم يمكنه أن يحمل السلاح، لا في الجيش النظامي للعاهل، لكن في قبيلته الخاصة، للدفاع عنها. تستفيد قبائل المخزن، من جهتها، من الإعفاءات الضريبية، لكن ليس لها وسيلة أخرى للعيش سوى عمل الأرض التي مُنحت لها. و خارج إستثناءات تحصيل الضرائب، فإن أعضاءها منتجون، مثل أعضاء القبائل العادية تماما ". أما عائلات الأجواد النبيلة " فإنها لا تتمتع بالضرورة بأموال، و يتناقض عدم استقرار سلطتها، بين الفروع المتنازعة للعائلة الواحدة، مع التحول نحو التمايز الاجتماعي " (20).

على الرغم من عدم وضوح أسلوب الإنتاج العتيق الذي تطرحه فالانسي، فإنه يبتعد عن أطروحة الإقطاعية و يقترب من أطروحة أسلوب الإنتاج الآسيوي، الذي يفضل بعض الباحثين العودة إليه في دراسة التشكيلة الاجتماعية لجزائر ما قبل الاستعمار.

إن الانتقادات الموجهة لأطروحة أسلوب الإنتاج الإقطاعي تجعلنا نؤكد أن هذا الأسلوب لم يكن هو السائد، لكن هذا لا يمنعنا من القول بوجود سيرورة إقطاعية خاصة بعد تقهقر نشاطات القرصنة. نلاحظ في أواخر العهد التركي توسعا في الملكية الخاصة أو الفردية للأرض و في أعمال السخرة و ازديادا في عدد الخماسين و اهتماما بوسائل الإنتاج و انتشارا للحركات المعادية للسلطة المركزية.

كنا أشرنا إلى أن الملكية الفردية كانت تتوسع، خاصة حول المدن، مثل مدينة الجزائر. لقد أصبح أغلب الأراضي الزراعية بالفحص المحيط بهذه الأخيرة " في حوزة برجوازية محلية تتألف من الموسرين من الأتراك و الحضر و الكراغلة واليهود و بعض التجار و القناصل الأوربيين الذين أقاموا المنازل الغناء، فاختار القناصل الأوربيون، الذين أقاموا المنازل الريفية، التي لا تختلف في شيء عن منازل المدينة، مقر إقامتهم بأعالي باب الوادي و مرتفعات برج مولاي حسن، و فضل اليهود نواحي بوزريعة مكانا لتجمعهم، بينما استقر الحضر من أصل أندلسي في ناحية تاقرين و بئر خادم، في حين انتشر الكراغلة بنواحي الحامة و بير مراد رايس و الأبيار و باب الوادي ". هكذا اختفت الملكيات المشاعية بالفحص و تلاشت وحدة القبيلة لتحل محلها جماعات من السكان ذات أصول حضارية و انتماءات عنصرية مختلفة ". كانت الملكيات في الفحص صغيرة (21).

هناك ملكيات واسعة المساحة في سهل المتيجة، فحمدان خوجة يذكر أنه كان يملك " جزءا كبيرا " من سهل المتيجة مثل " أسر أبي قندورة و أبي هراوة و ناصف خوجة "، و أنه كان يزرع لحسابه الخاص في هذا السهل حوالي مائة و ستين حمولة من القمح و حوالي مائة أو مائة و عشرين من الشعير ". (22) و يشير حمدان كذلك إلى جود ملكيات واسعة يملكها أغنياء في المناطق البعيدة عن المدن. و أن هؤلاء الأغنياء كانوا يعيشون " عيشة معتدلة و منتظمة، لا يأكلون اللحم إلا في بعض أيام الأسبوع أو في أيام السوق " (23).

لقد لعبت السلطة التركية دورا متناقضا بخصوص توسع الملكية الفردية للأرض فهي، من جهة، كانت تبيع الأراضي المصادرة في المزاد العلني، لكن المصادرة نفسها كانت تكبح إقبال الناس على شراء الأراضي، من جهة أخرى. يقول كوفاليفسكي: " و كان القسم الأكبر من الأراضي المصادرة يباع من قبل السلطات في السوق العامة بواسطة البكوات، وكان الشراة في غالب الأحيان أشخاصا عاديين ينتمون إلى السكان الأتراك. هكذا رأت النور رويدا رويدا فئة هامة من الملاكين العقاريين الخاصين " (24) الأمثلة بهذا الخصوص عديدة، نذكر بعضها. انتزع الباي الوزناجي عُشر أراضي قبيلة حسن بن علي التابعة لبايليك التيطري، في أواخر القرن الثامن عشر، بدعوى المنفعة العامة، كما صادر مصطفى بومزراق أراضي أولاد ملال، في بايليك التيطري أيضا ثم باعها لجيرانهم أولاد بن زكور من نفس القبيلة (25). و صادر أحمد باي قسنطينة أراضي قبائل أولاد عبد النور بالهضاب العليا الشرقية (26). كانت المصادرة تمس

أرضي الأفراد و خاصة أراضي القادة الذين يُطاح بهم أو يُقتلون، و كان هؤلاء القادة في أحيان كثيرة من الأتراك أنفسهم.

كانت الوسيلة الوحيدة التي تقف في وجه المصادرة هي الوقف الخاص أو الوقف العائلي الذي كنا قد تعرضنا له سابقا.

في أواخر العهد التركي أخذت أراضي المخزن تتحول إلى ملكية فردية لما ضعفت السلطة المركزية. يقول ناصر الدين سعيدوني بهذا الخصوص: " تحولت مساحات شاسعة من أراضي البايليك المخصصة لفرسان المخزن إلى ملكيات خاصة، عندما تمكنت بعض العائلات المنتمية إلى المخزن من الاستحواذ على الجزء الأكبر من أراضي المشاتي التي كانت تعيش عليها. و أصبح في استطاعة هاته الأسر أن تمارس حق الملكية بأتم معنى الكلمة من ميراث و بيع و شراء و غير ذلك ". و قد نتجت هذه الظاهرة عن " الأحوال السياسية و الظروف العسكرية التي عرفتها البلاد الجزائرية في أواخر الفترة العثمانية، و المتميزة بانعدام الأمن و كثرة الثورات مع توقع الهجمات (الأوربية) و انحراف الموظفين و استبداد الحكام زيادة على سوء الحالة الاقتصادية و تردي القدرة المالية للإيالة ". " نتيجة لهذا التغيير أصبح البايات يسلمون تحت الحاجة و عند الضرورة بحق ملكية بعض عشائر المخزن التامة للأراضي التي كانت تقيم عليها و تتكفل بحراستها و استغلالها، إذ كانوا لا يتورعون في هذا الصدد من إصدار عقود تصبح بمقتضاها الأراضي الخاصة بأفراد المخزن ملكا شخصيا لهؤلاء الأفراد " (27).

لا بد من الإشارة هنا إلى أن وجود المزارع الكبيرة نسبيا لم يكن منعدما قبل مجيء الأتراك و أن كل ما في الأمر هو أنها توسعت في عهدهم و خاصة في المرحلة الأخيرة منه (28).

لقد شددت فالانسي على ضعف أدوات العمل الفلاحي و ركودها بل و تدهورها بالمقارنة مع ما كانت عليه في العهد الروماني. غير أننا نشهد بعض المحاولات لتحسين هذه الأدوات في أواخر العهد التركي على الأقل، لما توجهت السلطة إلى الفلاحين تعويضا للخسارة الناجمة عن تقهقر القرصنة. كان التصدير المكثف للمنتوجات الفلاحية (الحبوب خاصة) يتطلب الزيادة في الإنتاج، و هذه الأخيرة كانت تتطلب إيلاء أدوات العمل اهتماما خاصا.

كان صالح باي قسنطينة من الذين أولوا الفلاحة اهتماما خاصا جعلت من بايليك الشرق منتجا هاما للحبوب (29) كما رأينا في القسم الأول من هذا الكتاب. نفس الاهتمام نجده في بايليك الغرب و بايليك التيطري. ففي بايليك الغرب كان محمد الكبير يشجع تصدير الحبوب، و هذا يعني تشجيع عمل الأرض و توسيع المساحات الزراعية. و كان الباي مصطفى بو الشلاغم قبله قد أقام أنظمة الري في الكثير من الأراضي التي كانت تعود للأسبان أو لمتعاونين معهم من الأهالي. اهتم بايات التيطري الأواخر باستغلال الأرض و من هؤلاء مصطفى بومزراق، الذي أنشأ مزرعة في ناحية أولاد أحمد بن سعيد، على أراضي فيض الأحمر تُسقى

بواسطة سدود بُنيت على وادي الأحمر، بالقرب من قصر البخاري. كما أنشأ غيره من البايات مزارع أخرى قبله ستتعرض لها لاحقا.

لقد اهتم يحي آغا، آغا العرب ما قبل الأخير، بمسائل الزراعة اهتماما كبيرا و أعطى المثل بنفسه للأهالي. يبدو أنه اهتم بتطوير أدوات العمل. تذكر المصادر أن قنصل الولايات المتحدة شالير قد قدم له هدية تمثلت في محراث صغير، كان من الابتكارات الجديدة في الولايات المتحدة، فسره ذلك سرورا كبيرا. كما تذكر المصادر أنه انشغل كثيرا بتربية الخيول و تحسين نوعها. (30) و كانت للآغا أراضي في جهات مختلفة من دار السلطان.

هذا الاهتمام بالفلاحة الذي نلاحظه في أواخر العهد التركي يؤدي، في اعتقادنا، إلى تطوير وسائل الإنتاج و يفتح المجال أكثر فأكثر لتسريع عملية التحول نحو أسلوب الإنتاج الإقطاعي. لعل تزايد عدد الخماسين في هذه المرحلة يعبر عن ذلك. يمكن اعتبار الخماسة شكلا من أشكال القنانة التي عرفتها أوربا الإقطاعية. و تؤكد المصادر المختلفة على وجودها قبل العهد التركي (31). لكنها ازدادت انتشارا في أواخر القرن الثامن عشر و بداية القرن التاسع عشر، واستفحلت في عهد الاحتلال الفرنسي، خاصة قبل الجمهورية الثالثة، أو قبل توسع الأسلوب الرأسمالي خاصة مع ظهور المزارع الكبرى التي خُصصت لإنتاج الكروم. و إذا كان الخماسون يدفعون ريعا عينيا، فإن فلاحين آخرين يدفعون ريعا نقديا أو ريعا عملا، و هذا الأخير هو الذي عرف باسم التويزة (السخرة).

يقدم لنا حمدان خوجة وصفا دقيقا للعلاقة بين الخماس و صاحب الأرض بقوله : " إن المالكين أو أصحاب المزارع يستخدمون العمال و الرعاة الخ. و ليس لهؤلاء أرض و أموال و لا مواشي، و إنما تُعطى لهم التسبيقات حسب حاجاتهم. و يسكنون بأزواجهم و أولادهم عند المالك. و يقوم كل واحد بما يقدر عليه من العمل، و كثيرا ما يتزوج بعضهم بأكثر من امرأة ليستعين بهن في أشغاله، لأن من الصعب على امرأة أن تحصل على عيشها إن لم يكن إلى جانبها زوج. و الأسرة بكاملها تعاون صاحب الضيعة على زرع الأراضي و إنجاز جميع الأشغال اليدوية. يعطي المالك، أو صاحب الضيعة للعامل خمس الغلة مقابل أتعابه و المجهودات المادية التي يقوم بها أفراد أسرته. و إذا لم يكفه ذلك، فإنه يستقرض الحبوب من قمح و شعير.

" و قبل تسليم الخمس لهؤلاء العمال، و ذلك عادة أثناء جمع المحاصيل، فإن قائد الدوار يخصم كل ما عليهم من ديون و تسبيقات، و لا يُعطى لهم إلا ما تبقى. و على إثر التقسيم يذهب العامل إلى السوق لبيع محصولاته. و بما أن الغلل تُجمع في نفس الوقت تقريبا، فإن الحبوب تكون رخيصة في فترة معينة من العام، بينما تكون الأسعار ثابتة عندما يقوم الأغنياء بتمويل الأسواق " (32).

لا تتعلق المسألة بالخماسة أو المزارعة في الأرض فحسب بل تتعداها إلى الماشية، و هذا حمدان يتكلم عنها كذلك، لدى سكا ن السهول: " و قد جرت العادة أنهم عندما يشغلون أو يسخرون واحدا من هؤلاء يدفعون عنه ديونه، إن كانت عليه ديون أو يقدمون له سبقات تساعده على سدّ حاجاته، و هم بذلك كأنما يبيتون نيّة في أن يشدوه إليهم، و يسكن هذا الرجل عند المالك صحبة زوجته و أطفاله على النحو الذي سنذكره مفصلا في ما يلي :

" يعطي المالك، صاحب المزرعة أو المؤسسة، لهذا العامل بقرة أو بقرتين حسب إمكانياته أو حسب الاتفاقيات المبرمة بينهما و يتعهد الأخير بتسليم الأول أرطالا معينة من الزبدة و هكذا، فإن هذا الرجل يجمع الزبدة و يسلمها إلى صاحبه في نهاية كل فصل. و من الفلاحين من يستعمل، أحيانا، الزبدة التي يجمعونها ثم لا يتمكنون من تسليم الكمية الموعودة أو المتفق عليها: و عليه يضطرون إلى تجديد الالتزامات أو إلى الاستدانة، و هناك من يوفي بالعهد و يستفيد في بعض الأحيان " (33).

كانت الخماسة ممارسة في أراضي الخواص و كذلك في أراضي الدولة، كما هو الحال في رتب بايليك قسنطينة و مزارع بايليك التيطري و بايليك الغرب.

كانت الخماسة منتشرة في دار السلطان، و في سهل المتيجة بصفة خاصة، حيث كانت هناك الملكيات الكبيرة، مثل ملكيات حضر مدينة الجزائر أو القادة الأتراك، كما نجد مع الملكيات التي كانت ليحي آغا، في حوش بن عمر و يسر الويدان و الرغاية و حوش موزاية، و التي استعمل فيها عمالا مختصين في غرس الأشجار و المزروعات المحسنة (34)، فضلا عن تربية الخيول التي ذكرناها سابقا. و كما نجد مع أراضي حسن باي التيطري في البليدة (35).

نجد في سهل المتيجة " جماعات من العمال الريفيين ينتمون إلى قبائل المتيجة أو عشائر جرجرة، يتولون خدمة الأرض مقابل أجرة زهيدة لا تتعدى خمس الإنتاج، و هم يعرفون بالبحارين (بستانيون) أو الخماسين و في بعض المزارع يُستغنى عنهم و يُعوضون بجماعات من الأسرى المسيحيين " (36). لقد وصف بارادي فلاحي مدينة الجزائر، في أواخر القرن الثامن عشر، بالتعساء الذين ينامون في قرابة (مفردها قربي) و يأكلون الشعير و لا يعرفون اللحم أما التين المجفف و العنب المجفف بالنسبة لهم فهو طعام جيد لا يأكلونه دائما أطفالهم يظلون عرايا حتى حوالي سن العاشرة، و حتى الكبار يسيرون حفاة الأقدام دائما تقريبا و الكثير منهم لا يعرفون زيت الإنارة بل يستعملون الحطب، و نساؤهم يستعملن أساور قرن الجاموس أو قطعا زجاجية معلقة في العنق، و في الشتاء يستقبل هؤلاء الفلاحون الحيوانات في بيوتهم (37) .كما يذكر بارادي أن لأهل مدينة الجزائر و البايليك أكارات هنا و هناك من سهل المتيجة، أين يُقام منزل صغير للسيد و قرابة للمزارعين الأهالي ملبسة بروث الحيوانات (38).

من جهته يقول حمدان خوجة أن هذا السهل " يكاد يكون مملوكا من طرف سكان مدينة

الجزائر وحدهم " (39). أما عن خماسي هذا السهل فيقول: " إنهم مجبولون على الكسل و النذالة والخيانة و الحقد و الدسيسة. و ليس لهم مورد غير التسبيقات التي يقدمها لهم الجزائريون مقابل الاعتناء بمزارعهم و قطعانهم، و ما يدره عليهم الحليب الذي يبيعونه في مدينة الجزائر. و عندما يُراد وصف شخص بأنه كسول و مسكين يقال عادة أنه من متيجة "(40). علينا هنا أن نشير إلى أن حمدان نفسه كان من المالكين لأراضي هذا السهل، فكان له خماسون.

لم يكن سهل متيجة كما هو عليه اليوم، بل كانت أراضيه مملوءة بالكثير من المستنقعات، كما يؤكد برادي (41)، و يؤيده حمدان بقوله: " لا تساوي تربته تربة غيره من سهول الإيالة؛ بالإضافة إلى كونه موطنا لحمى تظهر في أوقات متقطعة ". قمحه " أقل جودة من غيره، و لونه يميل إلى السواد و كمية النشأ فيه أقل من تلك التي تحتوي عليها القموح الأخرى ". و ما تمسك الناس بهذا السهل إلا لأنه قريب من مدينة الجزائر. (42)

عرف بايليك الغرب ظاهرة الخماسة كما عرف السخرة، سواء لدى الأسبان أو لدى الأهالي و الأتراك. تذكر المصادر أن إسبانيا كان يملك مزرعة يؤجر أرضها لأفراد من عشيرة شافع (من بني عامر). كانت تلك الأرض تضم نبعا هاما، و بعد انسحاب الأسبان استولى الباي مصطفى على المزرعة، بعد التحرير الأول لوهران، وغرس فيها زيتونا و أشجارا مثمرة من مختلف الأنواع، كما أنشأ فيها بركة ماء لسقي القمح و الشعير. أتلفت الأشجار في مواجهة الأسبان عند عودتهم سنة 1732، مما حتم إعادة غرس أشجار جديدة. (43). أنشأ الباي شعبان مزرعة في أراضي أولاد علي وفرع الهبرة في إقليم سيراط و أنشأ لها نظام ري، و ظلت هذه المزرعة تنتج لحساب البايات الذين خلفوه. كان القسم المسقي منها يُفلح من طرف العبيد الزنوج. ظل أولاد علي بدون أرض حتى سنة 1740، حيث سُلمت لهم أراضي أخرى بين عين البيضاء و الزيدور(44).

و كان الباي أبو إسحاق إبراهيم باي الغرب، الذي أقام بمعسكر من 1756 إلى 1762، مالكا لقطاع واسع من الأرض في السهل، على ضفاف وادي الشلف بدوار جلَيدة، يقال له " بلاد الباي إبراهيم " (45). هذه الأراضي كانت تستغل عن طريق الخماسة و السخرة و العبيد، كما هو واضح لدينا أكثر في بايليك التيطري.

أقام البايات و الدايات مزارع في بايليك التيطري ،نذكر منها مزرعة عين الدم التي أنشأها الباشا كرد عبدي في حوالي 1725. وعند وفاته أصبحت ملكا للدولة، فوسع الدايات مجالها على حساب عشائر أوعمري و بوحلوان و جندل (46). ظلت هذه المزارع تُنشأ خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر إلى أن بلغ عددها 17 مزرعة.

كانت الدولة تملك عتاد هذه المزارع، أما اليد العاملة فتتمثل في الخماسين الذين توفرهم القبائل المجاورة (و هي من الرعية) التي كانت مجبرة على أن تقدم لهم تسبيقات تعرف

باسم (السرمية)، فيحصل كل خماس على محبوب واحد. و كان هناك وكلاء يسيرون الأعمال، فيستلمون مقابل ذلك عشر المحاصيل، من الخمس الذي يعود للخماسين، أما جني المحاصيل فيتم كله بواسطة أعمال السخرة (التويزة).تتم عمليات الجني في مزارع الباشا تحت رئاسة حاكم المدية، أما في مزارع الباي فتتم تحت مراقبة الجنود الزينطوط، و توزع أعمال التويزة في هذه المزارع كما يلي :

اسم المزرعة	عدد الزويجات	القبائل المعنية بالتويزة

في مزارع الباشا

عين الدم	20	حضر مدينة المدية و ريغة و عريب و أومعري
راس الوادي	10	
معمورة	40	
المجموع	70	

في مزارع الباي

الرواقية	20	حسن بن علي
الحكم	10	بن حسن و هوارة
مجبر	5	ريغة ،أولاد سهيل شبانة
أولاد حمزة	10	أولاد الطوابع من أولاد عنتر
أشير	10	مفتاح
زغوان	10	أولاد خنيم وأولاد معروف
في الربايع	10	أولاد دبد
ملاحة	10	الربايع.
حرمالة الكبيرة	10	أولاد علان
حرمالة الصغيرة	5	أولاد علان
بوجملين	5	القبائل الرحالة التي تزور التل في الصيف فرسان المخزن مكلفون بالجمع.
سور السواري	10	قبيلة السواري.

سور جواب	10	بواسطة الخماسين و الوكلاء.
سور الغزلان	20	
المجموع	145	(47)

إذا علمنا أن الزويجة تساوي ما بين 10 و 15 هكتارا فإن مساحة أراضي الضيعات مجتمعة تساوي ما لا يتجاوز الثلاثة آلاف هكتار و هذه المساحة ضيقة بالمقارنة مع ما هو موجود من أراضي البايليك المستغلة عن طريق الخماسة أو غيرها في بايليك الشرق، لكن ما هو مهم هو تزايد عدد هذه المزارع.

ما هو ملفت للانتباه في بايليك قسنطينة هو المساحة الهامة للأراضي العزلية. تعني كلمة العزل الاقتطاع أو الإقطاع، بمعنى أن البايليك يقطع أرضا من أراضي الدولة لشخص ما والعزل نوعان :

- عزل كراتب أو كمكافأة لكبار المحظوظين أو الموظفين الكبار العموميين.

في هذا الإطار نجد عشرة أعزال مخصصة لأقرب معاوني باي قسنطينة (خمسة منها لخليفته و اثنان لكاتبه الثاني)، و أعزالا أخرى يستفيد منها مرابطون مثل شيخ البلد من العائلة المشهورة الفقون.هذه الأعزال ليست قابلة للتحويل، و كان الاستثناء نادرا جدا.غير أن إعفاء آخر البايات، الباي أحمد،لبعض المستفيدين من كل ضريبة يوضح وجود تطور نحو الامتلاك الشخصي للأعزال.

- عزل قدم لأشخاص قدموا خدمات للباي.

الصنف الأول من الأعزال كان يحيط بقسنطينة و يشمل أجود الأراضي، أما الصنف الثاني فكان فقيرا، يوجد بالقرب من السفوح و من الجبال و كان يستعمل أحيانا لغرس الأشجار كما هو الحال في ميلة. في الحالتين نجد الأرض مشغولة من طرف فلاحين قدامى أو جماعات مستقرة عليها منذ عهود، كما هو الحال بالنسبة لأولاد جبارة.

بلغت المساحة الإجمالية لأعزال بايليك الشرق، حسب إحصاء تطبيق سيناتوس كونسولت 1863 أكثر من 317 ألف هكتار، تتركز حول قسنطينة و في وادي سيبوس و حوض قالمة و سطيف. نجد حول قسنطينة مثلا أعزال وادي زناتي الصالحة للحبوب و التي اشتهرت بها منذ العهد الروماني. وزع إحصاء سيناتوس كونسولت المذكور أعزال بايليك الشرق كما يلي :

عامر الشراقة	21558 هـ	السواحلية أولاد عطية	37980 هـ
أعزال عنابة (4)	14430	منطقة سغنية	3903
أعزال قسنطينة (60)	55270	أولاد جبارة	11383

أولاد عبد النور	18626	العلمة مسعدة	4593
الزواغـــة	9168	منطقة موية	4185
أعزال قسنطينة (36)	29729	عامر الظهرة	8885
أعزال و.زناتي (62)	43188	البرانية	3340
		المجموع	317390

كما قلنا فإن أغلبية أراضي العزل كانت موجودة في بايليك الشرق إذ لا نجد في الوسط مثلا سوى عزل بني فاطم في مليانة (1650 هـ)، وعزل تاورغة في دلس (1125 هـ)، وعزل بلاد معمورة في سور الغزلان، في بايليك التيطري (48).

يتضح من هذه الأرقام أن التحول نحو الإقطاعية كان يجري في الجهة الشرقية بوتيرة أسرع،إذ في هذه المنطقة نجد أحسن أراضي الحبوب و أعلى إنتاجية لها.

يجري التحول من " إقطاع القيادة " إلى إقطاع الأرض،لكنه يبدو بطيئا جدا. للقادة المحليين الوراثيين، وهم الأجواد (خاصة في الناحية الشرقية) و المرابطين (خاصة في الناحية الغربية) إمكانيات مادية تسمح لهم بشراء الأراضي أو اغتصابها، خاصة بعد أن ضعفت السلطة التركية المركزية، بفعل حركات تمرد أوائل القرن التاسع عشر، ثم سقطت سنة 1830. لقد خلف سقوط السلطة التركية، التي كانت تقف في وجه توسع نفوذ هؤلاء القادة، و الأجواد منهم على الخصوص، فراغا سياسيا شغلوه.إذا كان الأمير عبد القادر قد أضعف هؤلاء في الناحية الغربية من البلاد، فإنهم في الناحية الشرقية قد وسعوا نفوذهم (القرانيون،أولاد بن عاشور ،أولاد عز الدين، أولاد بن غانة الخ)، و تعاونوا ،تحت قيادة أحمد باي، ضد الاستعمار الفرنسي،إلى أن سقطت مدينة قسنطينة سنة 1837، فتصالحوا مع فرنسا التي أطلقت أيديهم في المناطق الريفية عشرات السنين.إذا كانت فرنسا قد حرمتهم من أعمال السخرة والعبودية ،بمنعهما، فإنها قد شجعتهم على امتلاك الأراضي بطرق شتى، منها بيع الأراضي المصادرة من القبائل المتمردة. ظل نمو هؤلاء القادة يزداد إلى غاية أواسط سنوات ستين من القرن الماضي. في هذا الوقت عملت الإدارة الاستعمارية على إخضاعهم للإدارة المباشرة المحلية قصد مراقبتهم و الحد من نفوذهم، الشيء الذي أدى إلى تلك الانتفاضات التي قادها أولاد سيدي الشيخ و أولاد بن عاشور و أولاد عز الدين ثم أولاد أمقران الخ. لقد كشفت المصادرات التي أعقبت هذه الانتفاضات الإمكانيات الحقيقية لهؤلاء القادة الوراثيين.تشير المصادرات إلى أن عائلة القراني، بكل فروعها (أولاد عبد الله، أولاد الحاج، أولاد عبد السلام، أولاد بلقنوز ،أولاد عبد الرحمان و أولاد بوزيد)،كانت تملك حوالي 22830 هـ ، 4881 هـ منها

تعود لأولاد الحاج (صف الباشاغا)، " و تضم هذه المساحات كلها 569 ضيعة فلاحية للحبوب و أشجار التين و الزيتون، و 39 بستانا مسقيا للخضر و الفواكه المتنوعة و ...ثلاث رحوات للحبوب، و ثلاثة إسطبلات و مقهى و حماما و مسجدا ". أما عائلة الشيخ الحداد، التي كانت على رأس الطريقة الرحمانية فقد صادرت فرنسا منها حوالي 502 هـ و 15 دكانا و مخزنا للتجارة و ثلاثة إسطبلات و ثلاث رحوات و معصرة زيتون و مسجدا (49). تؤكد هذه الأرقام، التي تعود إلى ما بعد أربعين سنة من سقوط سلطة الأتراك، بطء التحول من " إقطاع القيادة " إلى إقطاع الأرض.

2 ـ أطروحة أسلوب الإنتاج الآسيوي

كنا رأينا أن سعاد مقداد ترى أن الجزائر قد عرفت قبل الاحتلال الفرنسي اكثر من أسلوب إنتاج واحد، فهناك أسلوب إنتاج إقطاعي لم يكتمل بعد و هناك أسلوب إنتاج قديم، لكن الأسلوب المهيمن هو أسلوب الإنتاج الخراجي، و هذا الأخير هو أسلوب فقير، لأن الغنى منه ساد قبل الأتراك، لما كانت تجارة الذهب الإفريقي تمر إجباريا عبر المغرب، في طريقها إلى العالم الإسلامي أو إلى أوربا العصور الوسطى (50).

ليس أسلوب الإنتاج الخراجي الذي طرحه سمير أمين سوى تلك الأسلوب الذي سماه كارل ماركس أسلوب الإنتاج الآسيوي (51) مضافا إليه التجارة العابرة. في حقيقة الأمر فإن الماركسي الياباني جيرو هوياكاوا كان قد أطلق، منذ سنة 1934، اسم أسلوب الإنتاج الخراجي على ما سماه ماركس أسلوب الإنتاج الآسيوي ، فلقيت تسميته تلك استحسانا من عدد من المؤرخين اليابانيين (52)، لأنها تزيل الصفة الآسيوية عن الأسلوب.

من جهته يقترح الباحث الجزائري عبد القادر جغلول إعادة إثارة النقاش حول نمط الإنتاج السائد في الجزائر، قبل الاستعمار "بالاعتماد على مفهوم النمط الآسيوي للإنتاج" (53). كان كارل ماركس قد تعرض لهذا الأسلوب غير أن الباحثين الماركسيين لم يواصلوا بحثهم فيه نتيجة ضغط الستالينية التي أغلقت ملفه منذ 1938غير أن تصاعد الحركة الوطنية في العالم الثالث أعاد فتحه (54).

اعتمادا على ماركس و دراسات الباحثين من أمثال جان سوريه كانال و غوليه و يوجين فارغا و لونغ بيش و جان شنو (55)، نحاول تلخيص السمات العامة لهذا النمط من الإنتاج، ثم نحاول البحث عنها في جزائر ما قبل الاستعمار الفرنسي.

أدى انحلال المجتمع المشاعي البدائي إلى بداية انحلال الملكية المشاعية للأرض فظهرت ثلاثة أساليب من الإنتاج هي الأسلوب الآسيوي و الأسلوب القديم (أونتيك) و الأسلوب الجرماني. في الأسلوب القديم تكون الملكية الفردية للأرض مجاورة للملكية الجماعية، و يجمع

الفرد بين الانتماء إلى المشاعة و رقابته الخاصة على وسائل الإنتاج و لا سيما العبيد. أما في أسلوب الإنتاج الجرماني فإن الفرد السيد على قطعة أرض لا يندمج في المشاعة إلا بشكل ضعيف. و في أسلوب الإنتاج الآسيوي تكون الملكية الخاصة للأرض مجهولة فالدولة هي المالكة من الناحية المبدئية و يعاد توزيع الأرض دوريا. و المشاعة تراقب الأفراد الذين لا يستلمون الأرض إلا منها و على أساس انتمائهم إليها. و عليه فإن أسلوب الإنتاج الآسيوي يتموقع بين الأسلوب المشاعي البدائي و الأسلوبين القديم و الجرماني.

يتميز أسلوب الإنتاج الآسيوي بتدني مستوى أدوات العمل، كما يتميز بالنشاط الإنتاجي الجماعي للمشاعات القروية و تدخل الدولة في المجال الاقتصادي وارتباط الزراعة بالصناعةوبالاكتفاء الذاتي سواء من حيث الإنتاج أو من حيث الاستهلاك. لا وجود لرابطة فيه بين الريف و المدينة على عكس الإقطاع الذي تشكل فيه المدينة سوقا للفلاحين. فالمدينة في الأسلوب الآسيوي " لا تولد إلا حيثما وجد موقع مناسب للغاية للتجارة الخارجية و إلا حيثما يبادل رئيس الدولة أو مرازبته دخلهم (فائض الإنتاج) مقابل العمل و ينفقونه في شكل مال عام "، كما يقول كارل ماركس. للمدن إذن طابع طفيلي، فهي ليست سوى مقام الأمراء بقصورهم و كنوزهم.

غالبا ما يكون جهاز الدولة في الأسلوب الآسيوي بين أيدي أناس أجانب فرضوا أنفسهم و سلطتهم على المشاعات الريفية بالقوة و هم في تناحر دائم مع هذه المشاعات. و تشكل الدولة " قيادة اقتصادية عليا " تشرف على ورشات الأشغال الكبرى المائية التي بدونها لا تقوم الزراعة، كما يقول ماركس، و يمكن إضافة مهام أخرى للدولة، كما يرى الكثير من الباحثين، منها صيانة الطرق و تأمينها و الحماية العسكرية للقرى ضد غارات البدو أو جيوش الغزاة الأجانب، و تتولى القطاعات الإنتاجية الصناعية الكبرى التي تتجاوز قدرات المشاعات القروية مثل المناجم و ما يتصل بها من أعمال التعدين.

تحكم الدولة تلك المشاعات و لها جهاز شديد التمركز، ولكنها في الوقت نفسه تستغل تلك المشاعات. لقد أطلق ماركس اسم " العبودية المعممة " على هذا الاستغلال ذي الطابع الشامل لا الفردي. تخضع تلك المشاعات القروية لسلطة الدولة والوسطاء (البيروقراطية، الأرستقراطية) الذين يتولون الوظائف الاقتصادية و يقتطعون الفائض و يسوقون الناس إلى أعمال السخرة و الجندية. غالبا ما يكون فائض الإنتاج، الذي يؤدى للدولة، عينا، و يمكن أن يضاف إليه العمل المجاني الذي يقدمه الرجال في ورشات الأشغال العامة. يتحد الريع هنا بالضريبة أو " لا يكون بالأحرى من ضريبة متمايزة عن هذا الشكل من الريع العقاري "، كما يقول يوجين فارغا.

نجد في نمط الإنتاج الآسيوي علاقات طبقية فريدة من نوعها. وسائل الإنتاج غير محتكرة من قبل طبقة حاكمة، إذ ليس لأعضاء هذه الطبقة الحاكمة سوى " سلطة وظيفية "،

يقتسمون الفائض المستخرج من المشاعات، و هو فائض ضعيف بحكم المستوى المتدني للقوى المنتجة، لهذا يأخذ الصراع الطبقي شكل الصراع بين المشاعات القروية و سلطة الدولة.

إذا بحثنا عن أسلوب الإنتاج الآسيوي في جزائر ما قبل الاستعمار فإننا نجد الكثير من مظاهره التي نتعرض لها الآن :

1- لما كانت أراضي البايليك ملكية الدولة، يستغل قسما منها جماعات المخزن، و لما كانت أراضي العرش حيازة جماعية، يمكن للدولة أن تتدخل في نقلها من جماعة إلى أخرى أو تصادرها و تبيعها، و لما كانت أراضي البايليك و العرش تشكلان أوسع مساحة زراعية، فإننا ننتهي إلى أن نوع الملكية السائد في الجزائر هو أقرب إلى النمط الآسيوي منه إلى النمط الإقطاعي (56).

2- تشترك وسائل الإنتاج في جزائر ما قبل الاستعمار مع تلك الوسائل المستعملة في الأسلوب الآسيوي، في ذلك التدني الجلي، الشيء الذي يوضح العلاقات الوطيدة بين نمط الملكية السائد و الفائض الذي يمكن استخلاصه من الإنتاج، من جهة، و وسائل الإنتاج، من جهة أخرى.

3- ترتبط الزراعة بالصناعة في الأرياف، فالعائلة الواحدة تكون وحدة زراعية و صناعية في الكثير من الأحيان، يختص الرجال عادة بالأعمال الفلاحية و تختص النساء بالأعمال الحرفية، مثل الغزل و النسيج و صناعة الأواني الفخارية، و قد نجد بعض التخصص على مستوى القبائل و العشائر و العائلات. لا تنفصل الزراعة عن الصناعة إلا في المدن، حيث تسمى الصناعة لتلبية حاجيات سكان المدن، و خاصة الفئات ذات الامتيازات التي لا تقتصر على استهلاك ما هو محلي بل تستهلك بعض المنتوجات الواردة من أوربا و غيرها.

4- يستهدف الإنتاج في الجزائر، كما هو الحال في أسلوب الإنتاج الآسيوي تلبية الحاجات الأساسية للجماعات، و تأتي السوق في المرتبة الثانية مرتبطة بالظروف المناخية المختلفة التي تحتم تبادل المنتوجات بين مربيي الماشية و منتجي الحبوب و منتجي الخضر والفواكه. و إذا كان التبادل في أسلوب الإنتاج الآسيوي ضعيفا فإن ذلك يعود إلى الظروف الطبيعية كذلك و هي ظروف الأنهار التي لا تسمح بتنويع كبير في المنتوج.

5- مثلما هو حاصل في أسلوب الإنتاج الآسيوي تقريبا، فإن هناك نوعا من الانفصال بين المدينة و الريف، في الجزائر. فالمدينة ليست هي سوق سكان الأرياف الأساسية، لأن التبادل يتم في الأسواق الريفية. و تبقى المدينة هي مكان إقامة ذوي الامتيازات من الحكام و القادة والقراصنة. إنها مدينة طفيلية تعيش على الأرياف و لا تقدم لها سوى بعض المنتجات الكمالية التي تنتجها أو تستوردها. و في الغالب يقبل على هذه المنتجات القادة و ذوو الامتيازات من سكان الأرياف.

6ـ كان الصراع قائما أساسا بين الدولة و الجماعات من القبائل، و هذا الصراع الذي نلاحظ تزايده في أواخر العهد التركي و أفضى إلى استقلال العديد من القبائل هو، كما في المجتمعات الآسيوية، صراع بين مستغل و مستغل يعبر عن إرادة الجماعات في التخلص من الضريبة. إلى جانب هذا الصراع نجد صراعا آخر بين جماعة قبلية و أخرى أو بين جماعات قبلية وجماعات قبلية أخرى. و هذا الصراع يشبه الصراعات القبلية التي يعود تاريخها إلى المجتمع البدائي.

7ـ على الرغم من أن الدولة في الجزائر لم تنشأ من أجل تنسيق أعمال الري الضرورية لقيام الفلاحة، كما هو الحال بالنسبة للدولة الآسيوية، فإنها كانت تقوم بأعمال ضرورية للاقتصاد و لغيره، نلخصها في التالي :

ـ العمل على صد العدوان الخارجي و خاصة العدوان الإسباني الذي ظل يهدد الجزائر لمدة ثلاثة قرون. لقد تلقى عروج و اخوته دعوة من سكان بجاية ليخلصوهم من الاستعمار الإسباني، كما تلقى الاخوة بربروس دعوة سكان جيجل ليخلصوهم من الجنويين، و تلقوا الدعوة من أعيان مدينة الجزائر ليخلصوا جزيرتهم البنيون من السيطرة الإسبانية كذلك. لقد فقد عروج ذراعه ثم حياته و حياة أخويه في مواجهة تلك الهجمة الإسبانية. التفت القبائل وسكان المدن حول الأتراك لمواجهة الأسبان برا و بحرا، و لعل بقاء الوجود الإسباني في الجهة الغربية من البلاد مدة طويلة هو الذي مكّن الأتراك من حكم البلاد مدة تزيد عن الثلاثة قرون، إذ ما أن رحل الأسبان حتى تعرض الأتراك لمواجهة واسعة من قبل السكان، خاصة في الأرياف.

ـ تنظيم أعمال القرصنة و دفعها. صحيح أن القرصنة كانت قد ظهرت قبل مجيء الأتراك، لكن السلطة التركية أوجدت قوة مركزية في مدينة الجزائر تشرف على نشاطاتها وتواجه الحملات الانتقامية التي كانت تنظمها الدول الأوربية. لقد منح الأتراك القرصنة فعالية كبيرة بتمكينها من السلاح الناري، من البنادق و المدافع. في هذا الإطار أقاموا التجهيزات القاعدية الضرورية لنشاطاتها، مثل توسيع ميناء الجزائر ببناء ذلك الرصيف الذي يربط بين الجزر و اليابسة، و إقامة ورشات بناء السفن و توفير الأخشاب لها، محليا و دوليا. أخيرا كانت السلطة التركية ضرورية لتسوية المشاكل الناجمة عن القرصنة، مع الدول الأوربية. كانت هذه السلطة إذن عاملا حاسما في ازدهار القرصنة التي عوضت نسبيا ما فقدته البلاد من موارد تجارة الذهب.

ـ توفير الأمن، و خاصة أمن السبل و الطرق التجارية، فأقامت محطات القوناق كنقاط لمراقبة الطرق و خاصة الرئيسية منها. كما عملت الدولة على الحد من الصراعات المدمرة التي كانت دائمة بين الجماعات القبلية، و خاصة العربية التي عادت إلى نشاطاتها القديمة في الغارة

و السلب و النهب، بعد سقوط دولة الموحدين و تقهقر دولتي بني حفص و بني زيان. لكن هذا لا يمنع من القول بأن السلطة التركية كانت تشجع هي بدورها الصراعات القبلية التي تخدم بقاءها.

نعتقد أن هذه الأدوار التي كانت تقوم بها الدولة في الجزائر تعوض دور الدولة الآسيوية في ميدان أشغال الري و الدفاع.

8ـ السلطة في الجزائر هي سلطة أجانب، كما هو الشأن بالنسبة للدولة الآسيوية. لكن هؤلاء الأجانب الأتراك عرفوا كيف يستعملون الدين، و هو العامل الوحيد الذي يربطهم بالأهالي، في تثبيت سلطتهم بواسطة المرابطين و رجال الطرق الصوفية الذين قدموا لهم الامتيازات المختلفة.

9ـ كانت الدولة التركية المركزية تقوم على اقتطاع فائض إنتاج من الفلاحين تكمله بموارد القرصنة. ولما تقهقرت القرصنة اشتدت وطأة الضرائب على الفلاحين الشيء الذي زاد في حدة الصراع الذي كان قائما بين الجماعات القبلية و السلطة.

10ـ كانت الدولة في الجزائر، مثل الدولة الآسيوية، تفرض أعمال السخرة على السكان، في المدن و في الأرياف، لإنجاز الأشغال الكبرى، كما حصل عند بناء رصيف ميناء الجزائر في عهد خير الدين، أو كما حصل سنة 1770، حين تقرر تدعيم التحصينات في مدينة الجزائر تحسبا لهجمات إسبانية. يذكر بارادي أن الأشغال كلها كانت تتم بالسخرة لأن الخزينة لا تدفع شيئا لإنجاز مثل هذه الأشغال، و أن السلطة كانت تفرض على الجميع العمل بدون مقابل، حتى كبار القوم كانوا يعطون المثل. كل الجماعات كانت تشارك في البناء و نقل الأحجار، بما فيها الجماعة اليهودية. (57)

11ـ كانت الدولة في الجزائر تنشئ، مثل الدولة الآسيوية، احتياطات غذائية لمواجهة الطوارئ، خاصة فترات الأوبئة و الجفاف، و كانت تضطر إلى توريد الحبوب من الخارج، كما حصل سنة 1800، حيث لجأت إلى شراء الحبوب من موانئ البحر الأسود لمواجهة المجاعة (58). و كما حصل في عهد حسن الفينيزيانو الذي اضطر إلى مصادرة عبيد الرياس و الأتراك و الأهالي قصد الحصول على فدية كبيرة تمكنه من مواجهة القحط والمجاعة في البلاد، كما فرض الخمس بدل السبع على غنائم البحر الخ.

12ـ احتكار الدولة للتجارة الخارجية، و خاصة مع البلدان الأوربية (التجارة البحرية)، لا يختلف عن احتكار الدولة الآسيوية في شئ.

13ـ تقوم السلطة التركية على المركزية، كما رأينا سابقا، خاصة في المناطق التي تراقبها بصفة مباشرة. لم يحصل أن تمكن أحد قادة المقاطعات (البايات) من الاستقلال بمنطقته، رغم بعض المحاولات، كما حدث مع صالح باي." إن تصرفات صالح باي و الثروات الطائلة التي جمعها و المدة الطويلة التي قضاها بايا بقسنطينة كل ذلك زاد من مخاوف الداي وحثه على

التعجيل بعزله و مصادرة أملاكه التي بادر وكيل الحرج بمصادرتها و رفعها إلى الجزائر، و هي تتألف من الأثاث الرفيع و السلاح الثمين و الأموال الكثيرة بحيث ما وجد منها في داره و ما كان منها في الخزينة الخاصة به كاد يماثل ما في خزانة الجزائر نفسها و هي تقدر بما يعادل اثني عشر مليونا من الفرنكات " (59). رغم ما كان لصالح باي من إمكانيات فإن السلطة المركزية قد خلعته بقوة السلاح و اغتالته.

إن هذه المظاهر التي أتينا على تقديمها تجعلنا نميل إلى القول بأن أسلوب الإنتاج الذي كان مهيمنا في الجزائر إنما هو أسلوب الإنتاج الآسيوي، على الرغم من أننا لا ننكر سيرورة إقطاعية و وجود أسلوب إنتاج قديم (أركايك)، لكن البناء الفوقي، المتمثل أساسا في السلطة، هو في حقيقته آسيوي. إذا كانت الأزمة التي عرفتها بلدان المغرب، بفعل انحراف طرق الذهب نحو المشرق ثم سيطرة البلدان الأوربية على سواحل القارة الإفريقية، قد وجدت مخرجا لها في تعويض التجارة القافلية، التي كانت مواردها أساسية للدولة، بغنائم القرصنة، فإن تقهقر هذه الأخيرة في أواخر العهد التركي قد فتح المجال لنمو أسلوب الإنتاج الإقطاعي الذي كان يلقى عائقا في أسلوب الإنتاج الآسيوي.

إذا كان أسلوب الإنتاج الإقطاعي قد ولد في المناطق السهلية حيث هيمنة الأسلوب الآسيوي، فإننا نجد أسلوبا آخر تموقع في المناطق الجبلية المعزولة.

3 ـ أطروحة أسلوب الإنتاج القديم

ساد الملك العائلي، في شمال الجزائر، في المناطق الجبلية بصفة خاصة، في بلاد القبائل الكبرى و الصغرى، جبال بني مناصر، جبال الظهرة بالقرب من مستغانم المناطق الجبلية الواقعة بين تلمسان و معسكر، جبال الأوراس الخ. العائلة المالكة هي عائلة مركبة من عدد من الأسر هي عادة أسرة الأب و أسر أبنائه الذكور، الأب هو رب العائلة فإن مات خلفه ابنه الأكبر في القيادة. العائلة لا تعيش منفصلة تماما عن العشيرة أو القبيلة، إذ تشترك معها في حيازة أراضي الرعي و غيرها، كما نجد لدى قبيلة بني أحمد في نواحي جندل، التي كانت تملك، عند تطبيق سيناتوس كونسولت سنة 1863 حوالي 10 آلاف هكتار كملك عائلي و حوالي 2500 هـ كحيازة جماعية أو مشتركة تستفيد منها كل القبيلة (60). تقدم لنا منطقة الأوراس نموذجا هاما من نماذج استغلال أراضي الحيازة الجماعية. ففي السفح الشرقي لجبل أحمر خدّو تشترك العائلات في زراعة الأرض ثم يُقسم محصولها على نسب معينة تعارف الناس عليها (61).

القبيلة في هذه المناطق متضامنة في الدفاع عن نفسها و عن أفرادها، و تخضع كل العائلات لمتطلبات ذلك الدفاع، و يحمل كل ذكر قادر السلاح لهذا الغرض. و من مظاهر التضامن و الوحدة لدى القبائل أن للعائلة بصفة خاصة و القبيلة بصفة عامة حق الشفعة إذا أرادت العائلة أن تبيع

أرضها. كما أن القبيلة " هي وحدها التي تستطيع أن تمنح شخصا ما إذنا بالإقامة بين القبائليين. و لا يُسمح لأي شخص غريب عن القبيلة اقتناء ملكية بدون إذنها "، كما يقول كوفاليفسكي في كتابه سالف الذكر (62). هذا من جهة، و من جهة أخرى، نجد أن السلطة التركية كانت تتعامل مع القبيلة ككيان قائم بذاته و لا تتعامل مع العائلات أو الأفراد، و هذا يقودنا إلى القول أن العائلة لم تكن منفصلة عن القبيلة رغم ملكيتها لقطعة أرض. فقد ظلت علاقتها بالقبيلة شبيهة بعلاقة العائلة بالقبيلة في أراضي العرش.

في هذه المناطق التي يتعايش فيها نمط الملكية العائلية و نمط الحيازة القبلية (العرش) نجد القبيلة هي التي تقرر و تبث في خلافات عائلاتها و أفرادها. و لكل قبيلة قوانينها الخاصة بها تقريبا، بل و تتناقض أحيانا حتى مع الإسلام، الذي كان الأتراك يدعون أنهم جاءوا لتطبيقه. لقد وصف بعض الفرنسيين، الذين كانوا يبحثون عن وجود أي اختلاف بين العرب والأمازيغيين، الحياة القبلية في هذه المناطق بعبارات مختلفة مثل : " الأشكال الجمهورية القبلية "و " الجبليون الديمقراطيون " و بهذه الطريقة اكتشفوا النظام الجمهوري و النظام الديمقراطي في العلاقات القبلية ؟!

إن هذه المناطق التي ساد فيها الملك العائلي، إلى جانب الحيازة الجماعية، هي المناطق المنعزلة، فهي من الناحية السياسية كانت شبه مستقلة، و منها ما كانت مستقلة تماما عن السلطة المركزية على مرّ العصور، و هي من الناحية الثقافية ظلت محافظة على أمازيغيتها و على تقاليدها. لقد شاع في منطقة الأوراس ما يعرف بالملكية " المحبسة على الذكور دون الإناث "، حيث " تحرم الأنثى من إرث الأرض مع الذكر " و الناس " يأنفون من أن تأخذ ابنتهم جزءا من أملاكهم إلى أسرتها و هي أجنبية عنهم " (63). كانت السلطة لدى بني فرح، في الأوراس، بيد (الجماعة) التي لها رئيس، و هذه الجماعة تحكم و تحاكم حسب التقاليد. فالسارق مثلا يدفع 10 دورو للجماعة و 10 دورو للذي وقعت عليه السرقة، سارق المعزة يدفع معزتين لصاحبها و 5 دورو لهيئة الجماعة، القاتل عمدا يفقد بيته و مزروعاته و يُنفى سنتين الخ. المرأة في بني فرح لا ترث (64). نفس هذه الوضعية نجدها في نارة و منعة و وادي عبدي (65)

لنأخذ مثالا من بلاد القبائل. في قرار صادر سنة 1749 نقرأ: لقد تجمع " سادات بني بترون مع عدول أهل قراهم و إمام مسجد تحمامت فاشتكى كل واحد بما يضره و ما يؤول إلى الفتنة و التهراج و المشاجرة في القرى و الأعراش و قبيلة بني بترون حضروا من كل قرية فاتفقوا على كلمة واحدة بأن الميراث وشفعة الحبس و شفعة البنات و الأخوات واليتامى وصداق المرأة إن طلق لها زوجها أو مات عنها مسقط في بني بترون و من اتصل معهم فاتفقوا على اتفاق واحد و من أراد إحداث هذه الأمور فهو جور و الجور منهى عنه لأن حكم العرف والعادة لا يُخرقان و لا يُنقضان كحكم السلطان " (66). و من عادات قبائل أرّاس و أولاد حاية وأولاد عيدون و بني خطاب و غيرهم - في القبائل الصغرى - أنه كان " لكل عرش من أعراشهم جماعة تفصل

قضاياهم على حسب العادة السالفة يعينون من كل قبيلة رجلا أو اثنين أو أكثر يختارون العقلاء و المسنين و كل ما يفصلونه الجماعة المذكورة كمثل النكاح و قسم التريكة و قتل النفس والسرقة و حريق الديار و الزرع و التبن و سريقة السلاح و الهجوم على المحارم والتعدي على الحدود الفاصلة بينهم "." إن من عاداتهم يزوجون المرأة بالجدي و هذا شرط عندهم على التعاقد و إن توفي المتزوج فيرثها من أقاربه أحد منهم ثم الثالث و الرابع و هكذا لأنهم يرثونها " (67).

السكان في هذه المناطق مستقرون في القرى التي تتكون من بيوت الحجر و من القرابة ،كما نجد لدى قبيلة سوماطة التي كانت تعيش على السفح الشرقي من الجبال الواقعة غرب المتيجة. فقد كانت ديارها تتكون من قرابة بينها عدد قليل جدا من بيوت الحجر (68).عن بلاد القبائل يقول حمدان خوجة : " لقد زرت بنفسي جبال فليسة و زواوة و بني عباس و وادي بجاية و بني جناد حيث توجد قرى كبيرة تشبه المدن عندنا و كل العمارات مبنية بناء متينا بالحجرة و بالكلس، والسطوح مغطاة بالقرميد و في المساجد مآذن كمآذن مدينة الجزائر " (69).مع هذا فإن هذه المناطق الجبلية كانت فقيرة، بدليل أن أبناءها كانوا يهاجرون إلى المدن مع احتفاظهم بعلاقاتهم بقبائلهم و عائلاتهم.

إذا كانت القبائل تعيش،في هذه المناطق منعزلة عن باقي البلاد،إلى حد ما ، فإن عائلات هذه القبائل كانت تشكل وحدة قوية فيما بينها، و لم يكن الملك العائلي يمنع وحدة القبيلة. لهذا نعتقد أن لا مجال للقول بوجود أسلوب الإنتاج الإقطاعي أو أسلوب الإنتاج الآسيوي أو أسلوب الإنتاج الجرماني، في هذه المناطق، بل الأسلوب السائد هو بدون منازع أسلوب الإنتاج القديم.

هوامش الفصل الثالث

(1) Souad MOKDAD.Domination coloniale et rupture nationale.OPU.Alger 1984. P.18.

(سعاد مقداد. الهيمنة الاستعمارية و القطيعة الوطنية. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر 1984. ص 18)

(2) فارس مالطة لا يمكنه أن يتزوج، و اليولداش في الجزائر مدعو إلى تجنب الزواج، فهذا الأخير ليس له الحق في الحصول على طعامه من الأوجاق بعد زواجه، كما ليس له الحق في أن يصبح بيت مالجي بعد الزواج. إنا سقط أحتتد فرسان مالطة في العبودية لا يفديه النظام و كذلك الحال في الجزائر، إذ لا تستعمل أموال الأوجاق في فدية أي كان، بل إن البيت مالجي يستولي على أملاك التركي أو الكرغلي أو الأهلي، الذي وقع في الأسر، إن لم يكن له أولاد، بحيث يعامل كالميت، فإن عاد يعاد إليه الربع أو الثلث مما صودر من أملاكه مع أجرة لمدة سنة. نظام مالطة ينهب الفارس الميت و وراثة التركي الميت تعود للبايليك حين لا يكون له أولاد، و لا يمكنه أن يوصي لا في صالح زوجته و لا في صالح أهله. لفارس مالطة أهمية كبرى، كما أن للتركي امتيازات في الجزائر.

السيد الأكبر في مالطة ينتخب من طرف الفرسان، فيصبح أمير الجزيرة و القائد الأعلى للفرسان ، و يظل كذلك مدى الحياة، و الداي ينتخبه الديوان، و يصبح قائدا للميليشيا و ملك مملكة تمتد على 200 فرسخ فرنسي من الغرب إلى الشرق و على 100 فرسخ من الشمال إلى الجنوب، و يبقى الداي دايا مدى الحياة. نظام مالطة يدين بالولاء لملك الصقليتين، و كذلك الجزائر تدين بالولاء للباب العالي. لا يمكن لمالطة أن تتحرر من ملك الصقليتين بسبب حاجتها للحبوب والتموين من الملك، و الجزائر لا تستطيع ذلك لأنها تجند من أراضي الباب العالي. العزوبة التي فرضت على الفرسان أدت إلى التسامح مع فتيات الشارع، و نفس الشيء نجده في الجزائر. النظام في مالطة يقوم على روح الدين و روح الدين هذه هي التي يقوم عليها النظام في الجزائر، فهي " دار الجهاد ". اليولداش يذبح الناس باسم الله و كذلك يفعل الفارس، وأخيرا، يوجد في مالطة سبعة قصور يمكن للفرسان أن يتناولوا فيها طعامهم، كذلك الشأن في الجزائر، حيث تأخذ الدولة على عاتقها توفير غذاء التركي غير المتزوج.

بارادي. المرجع السابق. المجلة الإفريقية عدد 41 ص 85 ـ 88.

ما لم يذكره بارادي هو أن النظامين يمارسان القرصنة و أن الفرسان غرباء عن مالطة مثل الأتراك الغرباء عن الجزائر.

(3) أنظر التقرير في : ESTOUBLON et LEFEBURE.Code de l'Algérie. (1830 - 1895).Adolphe Jourdan .Alger 1896. pp.395 - 404.

(ايستوبلون و لوفيبور. مدونة قوانين الجزائر (1830 ـ 1895). أدولف جوردان. الجزائر 1896. ص 395 ـ 404)

(4) سعيدوني. دراسات و أبحاث. المرجع السابق . الجزء الأول. ص 149 ـ 153.

(5) نفسه.

(6) A NOUSHI Réflexions critiques sur le dossier / Algérie pré-coloniale in .CERM Sur le féodalisme .Ed Sociales Paris 1971 p.154

(أ. نوشي. ملاحظات نقدية حول الملف : جزائر ما قبل الاستعمار في مركز الدراسات والبحوث الماركسية. حول الإقطاعية. المنشورات الاجتماعية. باريس 1971. ص 154).

(7) رين. مملكة مدينة الجزائر. المرجع السابق. المجلة الإفريقية عدد 41 ص 124 و 128.

(8) بروديل. المرجع السابق ص 213.

(9) R.GALISSOT L'Algérie pré - coloniale in CERM Sur le féodalisme .Ed Sociales Paris 1971 pp. 147 - 181

(ر. غاليسو. جزائر ما قبل الاستعمار في مركز الدراسات و البحوث الماركسية. حول الإقطاعية. المنشورات الاجتماعية. باريس. 1971. ص 147 ـ 181).

إذا كان غاليسو يقدم أطروحة الإقطاعية بنوع من التحفظ الذي تعبر عنه عبارته " إقطاع القيادة "فإن أندري برنيان، الذي ساهم في تحرير كتاب" الجزائر بين الماضي و الحاضر " يرى أن الإقطاعية موجودة في الجزائر قبل الوجود التركي، و أن أصل توحـيد الجزائر هو " الخطر الإسباني و تفرق الإقطاعية "، و أن خير الدين عندما قبل رئاسة الوجـق " جعله طبقة إقطاعية أجنبية الأصل "، فالبنية الاجتماعية في الجزائر، في رأيه " تتماثل و التنظيم الإقطاعي التقليدي فانعدمت فيه خدمات العبيد و انخفض عددهم بسرعة كبيرة ". كانت هنا "بنية إقطاعية دنيا مثلما كان عليه الشأن في فرنسا فيما يتعلق بالنظام العتيق للإقطاعية " مع هذا " كان للجزائر نظامها الإقطاعي الخاص الذي يتميز بتحديد خصائص معينة حالت دون نمو الدولة و توفير أدوات الصعود "، و يفسر انحلال السلطة المركزية بقوله : " هذه الروابط السلطانية إذا كانت تعمم بنية إقطاعية توازي العادات الاجتماعية فهي تفتح المجال إلى ظهور تنظيم تسلسل وراثي في هذه الحالة يخرج عن نطاق سلطة الوجق الذي يسعى المستفيدون فيه إلى مضاعفة امتيازاتهم المالية الناتجة عنه ". ويقول أيضا : " غير أن هناك أشكالا أخرى برزت للوجود من الترابط أكثر خطورة إذ تحول الفلاحون إلى الخضوع إلى طبقة الإقطاعيين المقيمين في المدن مثل مجانة ".

اندري برنيان، أندري نوشي، ايف لاكوست. الجزائر بين الماضي والحاضر. ترجمة رابح استنبولي و منصف عاشور. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر 1984. ص 123 ـ 160

(10) ماركس - إنجلز. الماركسية و الجزائر. ترجمة جورج طرابيشي. دار الطليعة. بيروت 1978. ص 52 و 53. الهامش

(11) نفسه. ص 70 و 79.

(12) نفسه. ص 61 و 62.

(13) حمدان. المرجع السابق ص 73.

(14) فالانسي. المرجع السابق ص 44.

(15) انظر. مركز الدراسات و البحوث الماركسية حول الإقطاعية. المنشورات الاجتماعية. باريس 1971 ص 229.
(16) فالانسي. المغرب قبل. المرجع السابق ص 44 و 45.
(17) نفسه. ص 46 و 47.
(18) انظر : مركز الدراسات و البحوث الماركسية. المرجع السابق ص 229.
(19) فالانسي. المغرب قبل. المرجع السابق ص 49.
(20) نفسه. ص 40.
(21) سعيدوني. دراسات. المرجع السابق الجزء الثاني. ص 147 و 148.
(22) حمدان. المرجع السابق ص 86 و 87.
(23) نفسه. ص 70 و 71.
(24) ماركس - انجلز. المرجع السابق ص 62 و 63.
(25) فيدرمان و أوكابيتان. المرجع السابق عدد 11 ص 287 و 288.
(26) سعيدوني. النظام المالي. المرجع السابق ص 90.
(27) سعيدوني. دراسات. المرجع السابق الجزء الثاني. ص 115 و 116.
(28) كانت هناك المزارع الكبرى قبل الأتراك. تذكر الروايات أن سيدي علي مبارك كان يعمل خماسا في القليعة عند مالك أرض و كان قائد لزويجة، قبل أن يصبح مرابطا له نفوذ كبير. و أشار الوزان إلى الأغنياء الذين كانوا يملكون مزارع النخيل في تقرت، كما أورد أن أحد المرابطين في نواحي مينا، في الناحية الغربية، كان يملك أراضي شاسعة و أن عشرها فقط يصل إنتاجه إلى ثمانية آلاف كيل من القمح والشعير، و أن المرابط كان له عدد كبير من رؤوس الماشية.
(29) انظر الفصل الخامس من القسم الأول، العنوان الفرعي " صالح باي ".
(30) روبان. مذكرة حول يحي آغا. المرجع السابق ص 60.
(31) كانت ظاهرة الخماسة موجودة قبل الأتراك، و يبدو أنها كانت موجودة في كل فترة العصور الوسطى. يشير الباحث عز الدين موسى إلى وجودها قبل العهد المرابطي بقوله : " اختلفت حصة هؤلاء الزراع في أيام صنهاجة الشرق و المرابطين حسب المنطقة و نوعية العمل زراعة أو غراسة و طبيعة الأرض و ما تحتاجه من خدمة و ما يساهم به رب الأرض من بذور و آلات عمل. و الغالب أن نصيب الفلاح في البلاد الغربية (من المغرب) و الشرقية هو الخمس و لهذا سمي خماسا، بينما تختلف النسبة في البلاد الأندلسية، فقد تكون النصف أو الثلث أو الربع أو الخمس. و يبدو أن بعض الملاك كانوا يشتطون على المشاركين فيحرمون المشارك من التبن. أو يفرضون عليه خدمة الحيوان الخاص برب الأرض أو يطلبونه بكراء الأرض إن زرع البقول في أرض مغارسة ". بالإضافة إلى الخماسة كان هناك الاستئجار و العمل بالأجرة. عز الدين أحمد موسى. المرجع السابق. ص 186 و 18.
(32) حمدان. المرجع السابق ص 73.
(33) روبان. مذكرة حول يحي آغا. المرجع السابق ص 60.

(34) نفسه.
(35) فيرو.يوميات كاتب رسمي.المرجع السابق ص 307.
(36) سعيدوني.دراسات.المرجع السابق الجزء الثاني ص 146.
(37) بارادي.المرجع السابق عدد 41.ص 79 و 80.
(38) بارادي المرجع السابق .عدد 39.ص 20.
(39) حمدان.المرجع السابق ص 88.
(40) نفسه.ص 87.
(41) باراي المرجع السابق عدد 39 ص 20
(42) حمدان.المرجع السابق.ص 85 و 87 و 88.
(43) القورصو و ايبالزا.المرجع السابق ص 40.
(44) نفسه.ص 44.
(45) حاج صادق.المرجع السابق ص 120.
(46) فيدرمان و أوكابيتان.المرجع السابق عدد 11 ص 368 و 369. الهامش.
(47) نفسه
(48) Djilali SARI.L'Algérie à la veille de l'insurrection de 1871 .Majalat et – tarikh. 2eme semestre 1980 pp 23 – 26.
(جيلالي صاري.الجزائر عشية انتفاضة 1871.في " مجلة التاريخ " السداسي الثاني 1980.ص 23 ـ 26).
(49) بوعزيز.ثورة 1871.المرجع السابق ص 318 ـ 323.
(50) مقداد.المرجع السابق ص 11 و 18.
(51) يقترح سمير أمين " أن يتم التمييز بين خمسة أنماط إنتاج : 1 ـ نمط الإنتاج " الجماعوي البدائي " السابق على كل الأنماط الأخرى. 2 ـ نمط الإنتاج " الخراجي "،الذي يربط بقاء الجماعة القروية بجهاز اجتماعي سياسي لاستغلال هذه الجماعة بواسطة اقتطاع خراج،وهذا النمط الخراجي هو الشكل الأكثر شيوعا الذي يسم التشكيلات الطبقية الماقبل رأسمالية. و نحن نميز فيه أيضا : أ ـ الأشكال البكروية ب ـ الأشكال المتطورة،مثل نمط الإنتاج " الإقطاعي " حيث تفقد الجماعة القروية ملكيتها للأرض لصالح الأسياد الإقطاعيين،و تبقى الجماعة جماعة عائلية. 3 ـ نمط الإنتاج" العبودي "،الذي يشكل نمط إنتاج أكثر ندرة و إن مشتتا. 4 ـ نمط الإنتاج " السلعي الصغير البسيط " الذي يؤلف شكلا متواترا،ولكنه لا يسم البتة بصورة كلية،تشكيلة اجتماعية. 5 ـ نمط الإنتاج الرأسمالي"." و للدقة يجب القول إن نمط الإنتاج الخراجي هذا،الذي سمي أحيانا دون مراعاة الدقة، كنمط " آسيوي " موجود في أربع قارات : في آسيا،و بشكل أكيد في (الصين والهند،و الهند الصينية،بلاد ما بين النهرين،و الشرق الكلاسيكي الخ)،في

أفريقيا (مصر وأفريقيا السوداء)، ثم في أوربا (في المجتمعات الماقبل - كلاسيكية: كريت و إيتروريا)، و في أمريكا الهندية (الأنكا، الأزتك، الخ).".
سمير أمين. التطور اللامتكافئ. ترجمة برهان غليون. الطبعة الثانية. دار الطليعة. بيروت 1978. ص 15-17.

(52) غودلييه، فارغا و آخرون. حول نمط الإنتاج الآسيوي. ترجمة جورج طرابيشي. دار الطليعة. بيروت 1978. ص 51.

(53) عبد القادر جغلول. تاريخ الجزائر الحديث. دراسة سوسيولوجية. ترجمة فضيل عباس. دار الحداثة. بيروت 1981 ص 37.

(54) كان كارل ماركس قد أشار إلى أسلوب الإنتاج الآسيوي و تعرض إلى سماته أكثر من مرة، غير أن انجلز لم يتعرض له في كتابه " أصل الأسرة و الملكية الخاصة والدولة ". وجاءت مناقشات تيفليس و لينينغراد سنتي 1929 و 1930، التي شارك فيها مستشرقون و مؤرخون سوفيات لتغلق ملف هذا الأسلوب من الإنتاج، وأحكم ستالين غلقه سنة 1938 في كتابه المعنون " المادية و المادية التاريخية "، الذي ضمّنه لائحة من خمسة أساليب إنتاج و أكد أن البشرية لم تعرف غيرها، و هذه الأنماط هي: الشيوعية البدائية، العبودية، الإقطاعية، الرأسمالية و الاشتراكية.

لكن مع تصاعد الحركات الوطنية في العالم الثالث عاد الاهتمام ينصب على أسلوب الإنتاج الآسيوي، وكان للمناقشات التي نظمها مركز الدراسات و البحوث الماركسية، منذ 1962، حول هذا الأسلوب دور كبير في إعادة بعث البحث والدراسة حوله. منذ هذا التاريخ قدمت دراسات عديدة تؤكد وجود أسلوب الإنتاج الآسيوي لا في آسيا (الهند، الصين، الفيتنام، كوريا و غيرها) فحسب، بل في إفريقيا وأمريكا أيضا.

(55) انظر دراساتهم في: غودلييه، فارغا و أخرون. المرجع السابق.

(56) الكثير من الأوربيين و الفرنسيين أكدوا أن مفهوم الملكية عند المسلمين غير واضح وأن الدولة لها الحق على كل الأراضي، بمعنى أنها هي المالك الحقيقي للأرض، ومن هؤلاء نجد فارنيي صاحب مشروع قانون 1873 العقاري الشهير.

(57) بارادي. المرجع السابق عدد 40 ص 70.

(58) حمدان. المرجع السابق ص 160.

(59) سعيدوني. دراسات. المرجع السابق الجزء الأول. ص 76.

(60) N.LACROIX. Les groupements indigènes de la commune mixte de Djendel au moment de l'établissement du Sénatus - consulte de 1863. Revue Africaine N°.53 (1909). p.334.

(ن. لاكروا. التجمعات الأهلية لبلدية جندل المختلطة عند إقامة سيناتوس - كونسولت لسنة 1863. المجلة الإفريقية عدد 53 (1909) ص 334).

(61) جمعية أول نوفمبر. تاريخ الأوراس و نظام التركيبة الاجتماعية و الإدارية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي (1837 - 1954). دار الشهاب. باتنة ص 87.

(62) انظر: ماركس - انجلز. المرجع السابق ص 57، 58.

(63) جمعية أول نوفمبر.المرجع السابق ص 84.

(64) E.MASQUERAY.Documents historiques recueillis dans l'Aurès.Revue Africaine N°.21 (1877) .pp.99 - 101.

(أو.مسكيراي.وثائق تاريخية مجموعة في الأوراس.المجلة الإفريقية عدد 21 (1877) .ص 99 - 101)

(65) نفسه.ص 113.

(66) انظر النص في : F.PATORNI.Deleberation de l'année 1749 dans la Grande Kabylie. Revue Africaine.N°.39 (1895) pp.315 - 317.

(ف.باتورني.مداولة سنة 1749 في القبائل الكبرى.المجلة الإفريقية عدد 39 (1895) ص 315 - 317)

(67) L.FERAUD.Mœrs et coutumes kabiles.Revue Africaine N°.7 (1863).pp.68 et 69.

(ل.فيرو.عادات و تقاليد قبائلية.المجلة الإفريقية عدد 7 (1863).ص 68 و 69).

(68) لاكروا.المرجع السابق ص 385.

(69) حمدان.المرجع السابق ص 66 و 67.

قائمة المراجع

1 ـ أحمد موسى (عز الدين ـ).النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري.دار الشروق .بيروت 1983.

2 ـ بل (ألفرد ـ).الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي،من الفتح العربي حتى اليوم.ترجمة عبد الرحمان بدوي.دار الغرب الإسلامي.بيروت 1981.

3 ـ بوعزيز (يحي ـ) :

ـ ثورة 1871 (دور عائلتي المقراني و الحداد).الشركة الوطنية للنشر و التوزيع. الجزائر 1978.

ـ المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد (1780 ـ 1798). ديوان المطبوعات الجامعية.الجزائر 1993.

4 ـ التميمي (عبد الجليل ـ).بحوث و وثائق في التاريخ المغربي.ديوان المطبوعات الجامعية.الجزائر 1985.

5 ـ تورنو (روجي لي ـ).حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر.ترجمة أمين الطيبي.الدار العربية للكتاب.ليبيا ـ تونس 1982.

6 ـ الجزائري (محمد بن عبد القادر ـ).تحفة الزائر في تاريخ الجزائر و الأمير عبد القادر.شرح و تعليق ممدوح حقي.الطبعة الثانية.دار اليقظة العربية. بيروت. 1964.

7 ـ الجزائر (محمد بن ميمون ـ).التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية.تقديم و تحقيق محمد بن عبد الكريم.الشركة الوطنية للنشر و التوزيع. الجزائر 1981.

8 ـ جغلول (عبد القادر ـ).تاريخ الجزائر الحديث،دراسة سوسيولوجية.ترجمة فضيل عباس.دار الحداثة.بيروت 1981.

9 ـ جمعية أول نوفمبر.تاريخ الأوراس و نظام التركيبة الاجتماعية و الإدارية أثناء فترة الاحتلال الفرنسي (1837 ـ 1954).دار الشهاب.باتنة.

10 ـ جوليان (شارل أندري ـ).تاريخ إفريقيا الشمالية.من الفتح الإسلامي إلى سنة 1827.تعريب محمد مزالي و البشير بن سلامة.الدار التونسية للنشر و الشركة الوطنية للنشر و التوزيع (الجزائر).1978.

11 ـ الجيلالي (عبد الرحمان محمد ـ).تاريخ الجزائر العام.الجزء الثالث.دار الثقافة.بيروت 1980.

12 ـ حليمي (عبد القادر ـ).مدينة الجزائر.نشأتها و تطورها قبل 1830.المطبعة العربية.الجزائر 1972.
13 ـ حمدان (ـ بن عثمان خوجة).المرآة.تقديم و تعريب و تحقيق محمد العربي الزبيري.الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.الجزائر 1975.
14 ـ نوفال (ألبير ـ).الريس حميدو.تعريب العربي الزبيري.المؤسسة الوطنية للطباعة .الجزائر.
15 ـ زبادية (عبد القادر ـ).الداي حسين و استمرار المقاومة في التيجة.في .مجلة " الثقافة " عدد 26 ماي ـ أفريل 1975.
16 ـ الزبيري (العربي ـ).تأسيس شركة بكري و بوجناح.مجلة " الأصالة " مارس ـ افريل 1975.
17 ـ زروال (محمد ـ) العلاقات الجزائرية الفرنسية (1791 ـ 1830).منشورات دحلب.الجزائر 1994.
18 ـ سعد الله (أبو القاسم ـ) :
ـ أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر.الشركة الوطنية للنشر و التوزيع. الجزائر 1978.
ـ تاريخ الجزائر الثقافي.الجزء الأول.المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1985.
ـ محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال).الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.الجزائر 1982.
19 ـ سعيدوني (ناصر الدين ـ) :
ـ دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر.العهد العثماني.الجزء الأول. المؤسسة الوطنية للكتاب.الجزائر 1984.
ـ دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر.الفترة الحديثة و المعاصرة. الجزء الثاني.المؤسسة الوطنية للكتاب.الجزائر 1988.
ـ النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني.المؤسسة الوطنية للكتاب.الجزائر 1985.
ـ ورقلة و منطقتها في العهد العثماني.في.مجلة " الأصالة " عدد 41 ـ 1977.
20 ـ سيف الإسلام (الزبير ـ).تاريخ الصحافة في الجزائر.الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر.
21 ـ شوفاليه (كورين ـ).الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510 ـ 1841.ترجمة جمال حمادنة.ديوان المطبوعات الجامعية.الجزائر 1991.

22 ـ الطمار (محمد بن عمرو ـ). تلمسان عبر العصور. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1984
23 ـ العربي (إسماعيل ـ). قصف الأسطول البريطاني للجزائر و أثره في الأدب الإنجليزي. في مجلة " الثقافة " العدد 69 ـ 1982.
24 ـ العنتري (صالح ـ). مجاعات قسنطينة. تحقيق و تقديم رابح بونار. الشركة الوطنية للنشر و التوزيع. الجزائر. 1974.
25 ـ غودلييه، فارغا و آخرون. حول نمط الإنتاج الآسيوي. ترجمة جورج طرابيشي. دار الطليعة. بيروت 1978.
26 ـ الفاسي (الحسن بن محمد الوزان ـ أو ليون الإفريقي). وصف إفريقيا. ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر. الطبعة الثانية. دار الغرب الإسلامي. بيروت 1983.
27 ـ فيلالي (عبد العزيز ـ) و لعـروق (محمد الهادي ـ). مدينة قسنطينة. دراسة التطور التاريخي و البيئة الطبيعية. دار البعث. قسنطينة 1984.
28 ـ قنان (جمال ـ) :
ـ معاهدات الجزائر مع فرنسا (1619 ـ 1830). المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1987.
ـ نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر الحديث (1500 ـ 1830). المؤسسة الجزائرية للطباعة. الجزائر 1987.
29 ـ كاردياك (الدكتور لوي ـ). المريسكيون الأندلسيون. تعريب عبد الجليل الميمي. منشورات المجلة المغربية و ديوان المطبوعات الجامعية. تونس 1983.
30 ـ ماركس ـ انجلز. الماركسية و الجزائر. ترجمة جورج طرابيشي. دار الطليعة. بيروت 1978.
31 ـ مالتسان (هاينريش فون ـ). ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا. ترجمة أبو العيد دودو. الشركة الوطنية للنشر و التوزيع. الجزائر 1980.
32 ـ المدني (أحمد توفيق ـ) :
ـ حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا. الطبعة الثانية. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1984.
ـ مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشراف الجزائر. الشركة الوطنية للنشر و التوزيع. الجزائر 1974.
ـ من الوثائق العثمانية عن التاريخ الجزائري. في " مجلة التاريخ " النصف الأول من سنة 1982. العدد 12.
33 ـ المشرفي (عبد القادر بن عبد الله بن أبي جلال ـ). بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر. المجلة الإفريقية عدد 65 (1924).

34 ـ الونن (عبد السلام ـ). الدولة المغربية. عيون المقالات. الدار البيضاء. 1990.
35 ـ وولف (جون ب. ـ). الجزائر و أوربا. ترجمة و تعليق أبو القاسم سعد الله. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1986.

36 – ARNAUD (L. –). Histoire de l'Ouali Sidi – Ahmed Et – tidjani.Revue Africaine.N°.5 (1861).
-Siège d'Ain – Madi par El – Hadj Abd El – Kader ben Mohi Ed – din.Revue Africaine N°.8 (1864).
37 – AUCAPITAINE (Le Baron Henri –).Notice sur Bousada.Revue Africaine N°.6 (1862).
38 – AUMERAT.La propriété urbaine à Alger.Revue Africaine N°.41 (1897).
39 – BELHAMISSI (Moulay –) – Histoire de la marine algérienne.E.N.A.L. Alger 1983.
- Alger la ville aux mille canons. E.N.A.L. Alger 1990.
40 – BENOUDJIT (Youssef –).La Kalaa des Béni Abbés au XVIe siècle .Dahlab. Alger1 997.
41 – BERBRUGGER (Adrien –) – les algériens demandent un roi français en 1572.Revue Africaine N°.5 (1861).
- Les Arib.Revue Africaine N°.8 (1864).
-Epitaphe d'Ouzoun Hassan.Le conquérant d'Oran en 1708.Revue Africaine N°.9 (1865).
-Expédition du Conte O'reily contre Alger en 1775 Revue Africaine N°.8 (1864).
-Un Chérif kabile en 1804.Revue Africaine.N°.3 (1858).
-Les consuls d'Alger pendant la conquête de 1830.Revue Africaine.N°.9 (1865).
-Négociation entre Hassan Agha et le conte d'Alcaudete (1541 – 1542) Revue Africaine N.9° (1865).
-Notes relatives à la révolte de Ben Sakhri.Revue Africaine N°.10 (1866).
- La première proclamation adressée par les français au algériens 1830 Revue Africaine N°6 (1862).
-Traité de paix avec le Gouvernement de la ville et du Royaume d'Alger. Revue Africaine N°.7 (1863).
42 – BIGONET (E.–).Une lettre de Constantine en 1827.Revue Africaine N°.13 (1899).
43 – BODIN (Marcel –).Note historique sur les Arabes soumis aux Espagnols pendant leur occupation d'Oran, par Abdelkader El Mechrifi.Revue Africaine N°.65 (1924).
44 – BRAUDEL (Fernand–).les Espagnols et l'Afrique du Nord, de 1492 à 1577.Revue Africaine N°.69 (1928).
45 – CAT (E.–).Petite histoire de l'Algérie.T.2.Après 1830. Adolphe Jourdan.Alger.
46 – CAZENAVE (Jean–).Les gouverneurs d'Oran pendant l'occupation espagnol de cette ville. Revue Africaine N°.71 (1930).
47 – CHERBONNEAU (A.–). Inscription arabe. Revue Africaine N°.3 (1858 – 59).
48 – DALRYMPLE (Major–).Expidition d'O'reily, 1775.Revue Africaine N°.5 (1861).
49 – DERDOUR (H'sen–).Annaba 25 siècles de vie quotidienne et de luttes.T.2.SND.Alger 1983.
50 – DELPECH (Adrien–).- Un diplome de Mok'eddem de la confrérie religieuse Rahmania. Revue Africaine N°.18 (1874).
-Résumé historique sur le soulèvement des Derk'aou de la province d'Oran, d'après la cronique d'El – Mssellem ben Mohammed Bach Dftar du Bey Hassan. Revue Africaine N°.18 (1874).
51 – DEPONT (O.–) et COPPALANI (X.–).Les confréries religieuses musulmanes .Alger 1897.Résumé Bou Nouh.1937.

52 - DEVOULX (Albert-) – Alger. Etude archéologique et topographique sur cette ville.Revue Africaine N° 20 (1876).
- La marine de la Regence d'Alger Revue Africaine N.13 (1869).
-Mort du Pacha Mohammed Khodja en 1754. Revue Africaine N° 16 (1864).
-La première révolte des Janissaires à Alger .Revue Africaine N° 15 (1871).
- Le registre des prises maritimes. Revue Africaine N° 15 et 16.
53 – ELKORSO (Mohammed–) et EPALZA (Mikel–).Oran et l'ouest algérien au 18 eme siècle, d'après le rapport d'Aramburu. Bibliothèque Nationale.Alger 1978.
54 – ESTOUBLON et LFEBURE.Code de l'Algérie (1830 – 1895).Adolphe Jourdan.Alger 1896.
55 – FEDERMANN (Henri–) et AUCAPITAINE (L.Baron Henri–).Notes sur l'histoire et l'administration du Beylik de Titri. Revue Africaine N° 9 (1865).et 11 (1867)
56 – FERAUD (L.Charles–) – Ain Beida.Revue Africaine N° 16 (1872).
- Les Ben Djellab, Sultans de Tougourt.Revue Africaine N° 23 (1879).
- Causes de l'abandon du comptoire de Collo par la Compagnie française en 1795. Revue africaine.N° 21 (1877).
- Conquête de Bougie par les Espagnols d'après un manuscrit arabe. Revue Africaine N° 12 (1868).
-Corporations de métiers à Constantine avant la conquête française. Revue Africaine N° 16 (1872).
-Les Chérifs kabyles de 1804 et 1809 dans la province de Constantine. Revue Africaine N° 13 (1869).
- Destruction des établissements français de la Calle en 1827. Revue Africaine N° 17 (1873).
- Ephéméndes d'un secrétaire officiel sous la domination turque à Alger de 1775 à 1805 Revue Africaine N°18 (1874).
- Exploitation des forets de la Karasta dans la Kabilie orientale, sous la domination turque. Revue africaine N° 13 (1869).
-Ferdjioua et Zouar'a. Notes historiques sur la province de Constantine. Revue Africaine N° 22 (1878).
- Les Harar Seigneurs des Hanencha. R. Africaine N.18 (1874).
- Mœrs et coutumes kabiles. Revue Africaine N° 7 (1863).
- Notes sur Tebessa. Revue Africaine N° 18 (1874).
- Oued el – kebir et Collo.Revue Africaine N° 3 (1858 – 59).
- Les trois attaques des Espagnols contre Alger, au XVIII siècle. Revue Africaine N° 20 (1876).
- Un vœu d'Hassan Bey.Revue Africaine N° 7 (1863).
- Zebouchi et Osman – Bey. Revue Africaine N° 6 (1862).
57 – FEREDJ (Mohammed Seghir–).Histoire de Tizi – Ouzou, des origines à 1954. En.A.P. Alger 1990.
58 – GAID (Mouloud–) - L'Algérie sous les Turcs. Ed.Mimouni. Alger 1991.
- Mokrani. Ed. Andalouses. Alger. 1993.
59 – GALESSOT (R.–).L'Algérie pré – coloniale. In. CERM. Sur le féodalisme. Ed Sociales. Paris 1971.
60 - GORGUOS (A.–). Notes sur le Bey d'Oran, Mohammed El – Kebir.Revue Aricaine N° 2 (1857-58).
61 – GRAMMONT (H.D.de–) - Correspondance des Consuls d'Alger.Revue Africaine N° 31 (1887)
-Lettre d'Esmaël Pacha à Louis XIV 1688.Revue Africaine N.28 (1884).
-Un Pacha d'Alger précurseur de M. Lesseps. Revue

Africaine N° 29 (1885).
-Quel est le lieu de la mort d'Aroudj Barbarousse ? Revue Africaine N° 22 (1878).
-Relations entre la France et la Régence d'Alger au XVIIe siècle. Revue Africaine N° 23 (1879).
62 – GUIN. Notes sur le Bey Mohammed, dit El – Bey Debbah. Revue Africain N° 7 (1863).
63 – GRANGER (Suzette –). Au cœur des Bahors Djidjelli en Petite Kabylie. Collection Africa 1968.
64 – HAEDO (Don Diégo de –) Topographie et histoire générale d'Alger.Revue Africaine N° 15.
65 – HAEDO (Fray Diégo de –). histoire des rois d'Alger. Traduit et annotée par H.D. de Grammont. Revue Africaine N° 24 (1880) et 25 (1881).
66 – JULIEN (Charles André –).-Histoire de l'Algérie contemporaine. PUF Paris 1964.
-La question d'Alger devant les Chambres sous la Restauration. Revue Africaine N°.63 (1922).
67 – KADDACHE (Mahfoud–). L'Algérie durant la période ottomane. OPU.Alger 1992.
68 – LACQUETON (G.–). Papiers du général Valazé relatifs à la conquête d'Alger. Revue Africaine N° 36 (1892).
69 – LACROIX (N.–). Les groupements indigènes de la commune mixte de Djendel au moment de l'établissement du Sénatus - Consulte de 1863. Revue Africaine N° 53 (1909).
70 – LESPES (René –). Quelques documents sur la corporation des Mozabites d'Alger dans les premiers temps de la conquête (1830 – 1838). Revue Africaine N°.66 (1925).
1 - LESPINASSE.Note sur Hachem de Mascara . Revue Africaine N° 21 (1877).
72 – MARTIN (Claude –).Histoire de l'Algérie française T.1 CFED.Paris 1979.
73 – MASQUERAY (E.–).Documents historiques recueillis dans l'Aurès.Revue Africaine N° 21 (1877).
74 – MASSE (Henri –). Les études arabes en Algérie (1830 – 1930).Revue Africaine N° 74 (1933).
75 –MOKDAD (Souad –) Domination coloniale et rupture nationale.OPU.Alger 1984.
76 – NOUSCHI (A.–).Réflexions critiques sur le dossier. Algérie pré – coloniale in.CERM Sur le féodalisme.Ed.Sociales.Paris 1971.
77 – OUSSEDIK (Tahar–).Le royaume de Koukou.ENAL.Alger 1986.
78 – PARADIS (Venture de–).Alger au XVIIIe siècle. R. Africaine N°39 (1897),40 et 41.
79 – PATOURNI (F.–).Délibération de l'année 1749 dans la Grande Kabylie.Revue Africaine N.39 (1895).
80 – PAVY (Mgr –). La piraterie musulmane. Revue Africaine. N° 2 (1857 – 58).
81 – PEYRONNE (Raymond–).Livre d'or des officiers des affaires indigènes 1830 – 1930.T.2 Alger.
82 – PLAYFAIR (R.–). Episodes de l'histoire des relations de la Grande – Bretagne avec les Etats Barbaresques avant la conquête française. R.Africaine N° 22 (1878),23 (1879) et 24 (1880).
83 – PRIMAUDAIE (Elie de –).Documents inédits sur l'histoire de l'occupation Espagnole en Afrique (1506 – 1574).Revue Africaine N° 19 (1875) , 20 (1876) et 21 (1877).
84 – RETOUT (A.–). Histoire de Djidjelli. Ancienne Maison Bastide.Jourdan.Alger 1929.
85 – RINN (Louis –) – Marabouts et Khouan. Librairie – Editeur. Alger 1884.
- Le royaume d'Alger sous le dernier Dey. Revue Africaine N°.41 (1897) , 42 (1898) et 43 (1899).
86 – ROBIN (N.–) - Note sur l'organisation militaire et administrative des Turcs dans la Grande Kabylie. Revue Africaine N° 17 (1873).
- Note sur Yahia Agha . Revue Africaine N° 18 (1874).
-Notes historiques sur la grande Kabylie (de 1830 à 1838). Revue Africaine N° 20 (1876).

- Les Ouled Ben Zamoum. Revue Africaine N°. 19 (1875).

87 – SANDOVAL (C.X. de –).Les inscriptions d'Oran et de Mars – Elkebir. Revue Africaine N°. 15 et 16.

88 – SARI (Djilali –).- L'insurrection de 1881 – 1882. SNED. Alger 1981.

-L'Algérie à la veille de l'insurrection de 1871.Majallat t-tarikh.2e semestre 1980

89 – TONNERRE (Clermont –). Rapport au Roi sur Alger. Revue Africaine N° 70 (1929).

90 – TRUMELET (C.–). Boufarik. Adolphe Jourdan. Alger 1887.

91 – VALENSI (Lucette–).Le Maghreb avant la prise d'Alger Flammarion. Paris 1969.

92 – VALLEJO (Don José–) Contribution à l'histoire du vieil Oran,traduit et annoté par Jean CAZENAVE. Revue Africaine N°.66 (1925).

93 – VAYSSETTES (E.–).Histoire des derniers Beys de Constantine depuis 1793 jusqu'à la chute d'Hadj – Ahmed. Revue Africaine N°.3 (1858 – 59).

94 – WATBLED (Ernest–).- Etablissement de la domination turque en Algérie. Revue Africaine N°.17

- Expédition du Duc de Beaufort contre Djidjelli (1664). Revue Africaine N° 17(1873).

95 – WATBLED (E.–) et MONNEREAU.Négociation entre Charles Quint et Kheir – Ed – din (1538 – 1540). Revue Africaine N°.15 (181).

الفهرس

دار هومة

للطباعة والنشر والتوزيع

www.editionshouma.com

e-mail:info@editionshouma.com

ISBN 978-9961-66-854-2 ردمك

9 789961 668542